نايجل هاملتون

القياصرة الأميركيون

سِيَر الرؤساء من فرانكلين د. روزفلت إلى جورج دبليو بوش

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

القياصرة الأميركيُّون

نايجل هاملتون

القياصرة الأميركيُّون

سِيَر الرؤساء من

فرانكلين د. روزفلت إلى جورج دبليو بوش

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-768-5

Originally published as: **American Caesars.**

First published by Bodley Head.

Copyright © Nigel Hamilton, 2010.

ترجمة: Lingo Office s.a.r.l.

تدقيق: محمد زينو شومان

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

كلمة شكر ٧

تمهيد ١٣

الفصل الأول: فرانكلين د. روزفلت ١٩

الفصل الثاني: هاري س. ترومان ٧٩

الفصل الثالث: دوايت د. أيزنهاور ١٣٥

الفصل الرابع: جون أف كينيدي ١٩٣

الفصل الخامس: ليندون ب. جونسون ٢٤٩

الفصل السادس: ريتشارد نيكسون ٣٠٩

الفصل السابع: جيرالد فورد ٣٦٧

الفصل الثامن: جيمي كارتر ٤٢٥

الفصل التاسع: رونالد ريغان ٤٧٩

الفصل العاشر: جورج بوش الأب ٥٤٥

الفصل الحادي عشر: بيل كلينتون ٦٠٥

الفصل الثاني عشر: جورج دبليو بوش ٦٥٩

بيبليوغرافيا ٧١٩

كلمة شكر

نشأت فكرة كتابة «القياصرة الأميركيُّون» في العام ٢٠٠٧، عندما اتصل بي دان هيند من دار نشر بودلي هيد التابعة لمجموعة النشر راندوم هاوس في لندن.

وطوال سنوات، توقّفت عن كتابة سير الرؤساء الذاتية لأكتب كتابين صغيرين عن السير وهما «السيرة الذاتية: موجز عن تاريخها (Biography: A Brief History) وكيف تكتب السيرة الذاتية: كتاب تمهيدي (How To Do Biography: A Primer). ولكن بعد قضاء أكثر من عشر سنوات في كتابة سير الرؤساء الذاتية واسعة النطاق ومتعدّدة المجلدات، مثل جاي أف كاي: شاب متهور (JFK: Reckless Youth) وبيل كلينتون: رحلة أميركية (Bill Clinton: An American Journey) وبيل كلينتون: البراعة في الرئاسة (Bill Clinton: Mastering the Presidency)، كنت أستكشف فكرة كتابة سيرة جماعية عن رؤساء أميركيين أقدَرهم، لأنني انتقدت أداء جورج دبليو بوش بصفته الرئيس الثالث والأربعين، كما سبق أن شرحت في تمهيد كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency.

لذلك، لفتت نظري وأثارت اهتمامي فكرة دان بشأن كتاب حول الرؤساء الأميركيين الحديثين على طريقة سويتونيوس في كتاب «القياصرة الاثنا عشر» (The Twelve Caesars)، وهو كتاب علق في ذهني (واقتبست منه الكثير) طوال أربع سنوات. فلم يكتب أي مؤلف آخر بعد سويتونيوس ما يشبه وصفه لأوائل إمبراطوريين رومان بالسعي إلى البحث عن تعاقب حكام عالميين تاريخيين مماثلين.

وما أحببته تحديدًا في مقاربة سويتونيوس، عند دراسة هيكلية كتابه، هو تقسيم سيره إلى قسم أول حول مسيرة أبطاله المهنية في القطاع العام وبعدها قسم عن حياتهم الشخصية أو العاطفية. لم أكن قد استخدمت هذا التقسيم في أي من كتبي

السابقة، إذ إن أي كاتب سير حديث هو بالضرورة أحد تلامذة فرويد وعليه فهم نفسية بطله بطريقة حديثة من خلال تفكيك حياته تدريجًا من البداية، من أجل إرضاء توقّعات القارئ. ولكن أظهر فصل تجريبي عن الرئيس ترومان لي ولدان أنه بالتركيز في البداية على مهنة الرئيس في القطاع العام، وبعدها التركيز على حياة قلبه، إذا جاز التعبير، كان من الممكن أن ينظر إلى الرجل السياسي في البدء في إطار دوره التاريخي الإمبراطوري وبعدها في المقابل كرجل له قصة حياة خاصة.

ولذلك، اتبعت في كتاب «القياصرة الأميركيّون» (American Caesars) هذا المسار الدقيق! ونظرًا إلى عدد السير الشخصية الرائعة التي كتبها الرؤساء في خلال العقود الأخيرة، لم أضطرّ إلى البحث في كتابات غير منشورة لإعداد الكتاب الجديد، لكن هذا الأمر طرح تحدّيات أساسية في ما يتعلق باستيعاب قطاع المطبوعات لهذا الكم الهائل من الكتابات. ولكن خارج ذلك، اقتصرت مهمتي على «الاختيار والتصميم»، بحسب ما كتبه ليتون ستراشي في مقدمة تحفته «الفيكتوريون البارزون» (Eminent Victorians)، مستخدمًا محور الإمبراطورية أو الهيمنة الأميركية الحديثة كعنصر أساسي في حياة القياصرة. وفي هذا السياق أقلّه، كنت مقيدًا بتناول المواضيع أقل ربما من عدد من زملائي المؤرّخين الأميركيين، ليس بسبب عملي السابق المفصّل عن الرئيس جون إف. كينيدي وبيل كلينتون (وقبله عن الجنرال دوايت دي. أيزنهاور، عندما كتبت السيرة الرسمية للمشير مونتغومري) فحسب، ولكن بسبب السنوات التي أمضيتها في بريطانيا الكبرى – مما جعل فكرة الإمبراطورية أمرًا طبيعيًا بالنسبة إلي. ففي النهاية، أقامت بريطانيا أكبر إمبراطورية إقليمية في العالم في خلال القرن التاسع عشر. وفي إبان حياتي، تنازلت عن دور الوصي على النظام والازدهار الدولي للولايات المتحدة. غير أن الملحمة الكاملة السياسية والشخصية عن حياة الرؤساء في ظل الإمبراطورية خرجت على سيطرتي. وعند انتهاء الكتاب بعد عامين من الأبحاث والكتابة، كان قد صار ضعف حجمه الأصلي.

رفض يورغ هانسغن الذي خلف دان في إدارة دار نشر بودلي هيد، بحق، نشر الكتاب ككل، باعتباره غير قابل للنشر بهذا الحجم (وبهذه الكمية من الاستطرادات).

وعندئذٍ بدأت المهمة الموجعة بالتصحيح أو التشذيب الذاتي. فلم أستطع تخطي نفوري تجاه سفك دم هذا القدر من الكلمات (القطع الأول والقطع الثاني والقطع النهائي)، إلا بتخيل نفسي في إستوديوهات القطع في قسم أفلام ووثائق البي بي سي في الثمانينيات. ولكن في النهاية، أتممت العملية وأدركت حكمة يورغ. فأصبحت حياة القياصرة الأميركيين أقصر بحذف أحداث أو جوانب أساسية. كما أصبح سردي أكثر تركيزًا، وما قد يكون مهمًا أكثر بالنسبة إلي، على أمل أن يكون كذلك بالنسبة إلى القارئ، هو أن الصور بقيت مؤثّرة. وبالتالي أدين لمحرري يورغ هانسغن بامتنان عميق.

سعيت طوال مسيرتي ككاتب إلى دراسة طبيعة القادة ونزواتهم وسلوكهم، أدبيًا وعسكريًا وسياسيًا. وأعتقد أن ذلك يعود بشكل كبير إلى والدي الراحل الذي دفعته الظروف المأسوية ليصبح قائد كتيبة مشاة رفيعاً في الحرب العالمية الثانية قبل أن يعمل كرئيس التحرير في صحيفتي تايمز وسانداي تايمز البريطانيتين. فقد أفسح لي في المجال لأصبح متدربًا في صحيفة واشنطن بوست في التاسعة عشرة من عمري، في خلال صيف العام ١٩٦٣. لم تصنع مني هذه التجربة صحافيًا ولكنها دفعتني لأغوص في دراسة التاريخ والسياسة الأميركية، بتحفيز من هذا الرجل الوطني والمحرر الأميركي العظيم روس ويغينز. وعلى مر السنين، في أبحاثي في السير العسكرية التي جمعتها، عثرت تدريجًا على طريقي المناسب من خلال عدد لا يحصى من السجلات الأميركية. وفي العام ١٩٨٨، وفي إثر وفاة والدي، انتقلت إلى ماساشوستس في ولاية بوسطن، لأبدأ العمل على كتاب جديد حول حياة الرئيس جون إف. كينيدي. وبعد فترة وجيزة من تدريس كتابة السير والتاريخ في بريطانيا في أواخر التسعينيات، عملت في الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت، وأثريت أفكاري في الولاية في جامعة ماساشوستس- بوسطن القريبة من أرشيفات الدولة ومكتبة كينيدي. وهنا أود أن أعرب عن شكري لزملائي العديدين في الجامعة وخصوصاً البروفيسور بول بوكبايندر وبادريغ أومالي ووليام بيرسي وروبرت واينر وكارتر جيفيرسون وإيد بيرد والمدير ستيف كروسبي وفريق العمل وكل زملائي في مدرسة جون دبليو ماك

كومارك العليا للدراسات السياسية. كما أرغب في التعبير عن امتناني بشكل خاص لستيف كروبسي إذ عرفني إلى طالبة متدربة في الأبحاث، ليزا كاثكارت، التي عملت بجد ومن دون ملل على جمع الوثائق المناسبة لكل فصل بعد أن ساعدت دانيال طومسون في الأبحاث الأولية. وقد قدّم بيل باير وفريق عمل مكتبة هيلي في الجامعة مساعدة لا تقدر بثمن. كما كان مدراء وأمناء الأرشيفات الوطنية في مكتبات جون إف. كينيدي وريتشارد أم. نيكسون وجرالد آر. فورد وجيمي كارتر ورونالد ريغان الرئاسية، مضيافين ومفيدين كثيرًا في خلال زياراتي. وأيضًا، ساعدتني إقامتي كثيرًا في جامعتي جورج واشنطن وجورج تاون كأديب زائر في العام ٢٠٠٥، خصوصًا وأن مكتبي في جامعة جورج تاون كان يقع في قسم الكلاسيكيات الأدبية، حيث كانت تتم غالبًا مناقشة مقارنات الإمبراطوريات اليونانية والرومانية بأميركا الحديثة! كما أنني أقدّم جزيل الامتنان إلى أعضاء إدارة كلينتون الذين سمحوا لي بمقابلتهم بشأن سيرة كلينتون، مثل رام إيمانويل وليون بانيتا ولاري سامرز وإلى مؤرخي مجلس الشيوخ الأميركي، ريتشارد أيه. بايكر ودونالد أيه. ريتشي، بالإضافة إلى الكتاب المتميزين في مجموعة كتاب واشنطن بإدارة دان مولديا، للطفهم وتشجيعهم الدائم.

في الواقع، لا يستطيع أي مؤرخ حقيقي كتابة سيرة حياة من دون مساعدة زملائه الأدبيين. وقد كنت محظوظًا جدًا عندما لفت جايمس ماك غراث موريس، محرر موقع thebiographerscraft.com نظري إلى وجود مجموعة بوسطن لكتاب السيرة الذين أقدم إليهم جزيل الشكر لدعمهم المعنوي والفكري في خلال العمل على هذا الكتاب. أشكر أيضًا زملائي كتاب السيرة والمؤلفين وزملائي المحترفين، هيربرت بارمت وكارلو ديست ودافيد كايسر وكليف فوس ولاري ليمر ودافيد شانوف ومارك شنايدر وتيموثي نافتالي وكريغ هوس وأندرو فيليبس ودافيد شباركس وجون غارتنر وميل يوكن والأشخاص الآخرين الذين قرأوا أجزاء من الكتاب أو استمعوا إليها. كما قرأ صديق العمر وزميل الدراسة في جامعة كامبردج روبن وايتباي كل فصل من الكتاب الأصلي للتحقق من سلاسته معبرًا عن اهتمامه، كما فعل شقيقي مايكل هاملتون بعد تقاعده من شركة بريجز وستاتون في مقاطعة ميلووكي. وأبدى الجمهور

استجابة في جامعة سوفولك وجامعة ماساشوستس في بوسطن وجامعة ماساشوستس في دارتموث ومدرسة روكسبوري اللاتينية ونادي كامبردج للقوارب للقراءات الأولية من الكتاب في خلال العمل عليه، مما منحني تشجيعًا لا مثيل له. كما ساعدتني زوجتي، الدكتورة راينل شيبارد، على الحفاظ على تركيزي وحرصت على جعلي أسعد من أي وقت مضى في خلال عملي على هذا المشروع الضخم. ولم يكن بروس هانتر، من رابطة ديفيد هيغام، وكيلي الأدبي فحسب، بل كان كالعادة مستشاري وصديقي وداعمي الأول المخلص. أنا ممتن إلى الكثير الكثير وخصوصاً إلى إيمان مدير النشر في دار بودلي هيد، ويل سالكن ورفقائه، باستحقاق هذا المشروع. وكل ما أتمناه هو أن يكون هذا الكتاب، مع كل عيوبه، جديرًا بهذا القدر من المساعدة والدعم عبر قارتين.

نايجل هاملتون

سومرفيل

ماساشوستس

تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩

تمهيد

كتب غايوس سويتونيوس ترانكوليس – المعروف بسويتونيوس- سلسلةً كاملةً من سير حياة الشعراء والخطباء والمؤرّخين الرومان عنوانها «سير الرجال العظماء» (The Lives of Illustrious Men). بعدها تواردت إلى ذهنه فكرة كتابة سير حياة أول اثني عشر قيصراً رومانياً، في بداية القرن الثاني ميلاديًا. بدأ سويتونيوس بالديكتاتور يوليوس قيصر ومن ثمّ سرد حياة كلٍّ من الأباطرة أغسطس وتيبريوس وكاليغولا وكلوديوس ونيرون وغالبا وأوتو وفيتليوس وفسبازيان وتيتوس ودوميتيان.

وتمخّض عن هذه السير كتاب «الاثنا عشر قيصراً» (The Twelve Caesars) الذي أصبح كتابًا من الكتب الكلاسيكية التي تعود إلى الحقبة الكلاسيكية: شكّل هذا الكتاب تحفةً فنيةً مخمليةً صنعها كاتب من الطراز الأول عُرف ليس بأسلوبه السردي الواضح والشائق لسير حياة الأباطرة الرومان (على نقيض الكتابات المعاصرة)، فحسب بل أيضًا لأنّ هؤلاء الرجال الاثني عشر الذين أرّخ حياتهم يجسّدون أعظم قرن ونصف قرن في تاريخ روما، بروعته وشناعته، أي بين العامين ٤٩ و٩٦ ميلاديًا.

في القرن الثاني الميلادي اشتدّت المعارضة ضد السيطرة الرومانية وأسفرت عن التدهور والانهيار اللذين رواهما جيبون لاحقًا، ما جعل أعمال سويتونيوس المتميّزة تكتسي أهميةً إضافيةً. تم تأليه بعض القياصرة الذين اختارهم، إلا أنّ سويتونيوس لم يسلّط الضوء في كتاباته على وقار الناحية الإلهية بل ارتأى أن يروي حياة القياصرة كبشر عاديين، فسرد قصة كلٍّ منهم منذ الولادة حتى بلوغه السلطة العليا. بذلك هو لم يصوّر الأباطرة كرموز مقدّسة بل كأفراد مميزين ذوي تأثير مهم وكأشخاص جانحين ذوي طباع قاسية إلا أنه كان عادلاً في وصفه من دون أن يدعي اللطف.

وفي العام ١٩١٨ نشر ليتون ستراشي تحفته الفنية النموذجية التي هي عبارةً

عن كتاب «كبار الفكتوريين» (Eminent Victorians). شكل هذا الكتاب عملاً لا يُنسى ليس بفضل طريقة تصويره للشخصيات فحسب، بل لأنَّ هذه الشخصيات في ذاتها تجسّد «الجميل والمهين» اللذين عدّهما لاحقاً الدكتور جونسون وجهين أساسيين للسير «المفيدة» بدل سير مشابهة لسير القديسين. وعلى خلاف المقاربة المعاصرة التي اعتمدها كتاب السير اليونانيون والرومان، قسّم سويتونيوس كل سيرة ثلاثة أجزاء: يروي الجزء الأوّل كيفية وصول القيصر إلى السلطة، فيما يروي الجزء الثاني حياة القيصر العامة بصفته إمبراطوراً، أما الجزء الثالث فيسرد حياة الإمبراطور الخاصة.

ونتقدم بسرعة لنصل إلى يومنا هذا. قلة هم المواطنون الأميركيون الذين يرغبون في استعمال كلمة «إمبراطورية» ليصفوا بها بلدهم. ولكن في الواقع، بدأ المؤرّخون الأميركيون يقبلون، على مضض، هذه الصفة خصوصًا، وبالعودة إلى كل المؤشّرات، أن الولايات المتّحدة الأميركية مثلت من دون منازع البلد المهيمن على العالم، على الصعد العسكرية والاقتصادية والثقافية، منذ مشاركتها في الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٤١. وقد أخذت الولايات المتحدة على عاتقها الدفاع عن الديمقراطية من خلال برنامج إعادة التسلّح الضخم ونضالها للانتصار على الرايخ الثالث التابع لهتلر والفاشية ولجوئها إلى القنبلة الذرّية لهزم الإمبراطورية اليابانية. وبعد نهاية الحرب، لم تُشح الولايات المتحدة بنظرها عن القيادة الدولية كما فعلت لدى انتهاء الحرب العالمية الأولى، إنما أدت دور الحارس الدائم لحلفائها وللدول التي تبنّت مبادئ الديمقراطية، فضلاً عن تلك التي لم تتبنّها ما دام ذلك يصبّ في مصلحتها. ومن هنا اندثر نهج الانعزالية السياسية وحاولت الولايات المتحدة قدر المستطاع أن تحافظ على السلام الأميركي طوال فترة ما بعد الحرب بفضل قدراتها الاقتصادية والعسكرية والدبلوماسية وحتى قدراتها التخريبية. ولكن في بعض الأوقات بدا جليًا أنّ هذا السلام كان عدائيًا كما كانت الحال أيام الرؤساء ترومان وجونسون ونيكسون وبوش الأب وبوش الابن. في الواقع، وفي بداية القرن الواحد والعشرين، صرح أحد المستشارين الرئاسيين للمراسلين من أمام فندق أمبريال كورت Imperial Court «لقد

أصبحنا الآن إمبراطورية وعندما نقوم بأي خطوة نخلق واقعنا الخاص[١]». من جهة أخرى، ازداد عدد القواعد العسكرية الأميركية من أربعين قاعدة في العام ١٩٣٨ إلى ما ينيف على ألف قاعدة في الألفية الجديدة[٢].

لم يكن هدفي في سياق كتابتي لهذا الكتاب عن الرؤساء الأميركيين الاثني عشر واستخدامي بطلاقة كلمات «قياصرة» و«إمبراطوري» و«إمبراطورية» تحقير المصاعب التي واجهتها الولايات المتحدة وما زالت تواجهها. بل أردت أن ننظر إلى الخلف، إلى العقود الستة الماضية منذ أن أصبحت الولايات المتحدة أول قوة عسكرية واقتصادية في العالم وأن أسلّط الضوء على الرجال الذين قادوا أمتهم الجامحة في رحلتها «الإمبراطورية» إلى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد برز الكثير من الإمبراطوريات والأباطرة منذ الحقبة الرومانية، إلا أنني أشك في بروز خليفة لأشخاص مميزين إلى هذه الدرجة، أشخاص قادوا هيمنةً واسعة النطاق واستكملوها على غرار الولايات المتحدة التي يضاهي جبروتها جبروت الإمبراطورية الرومانية.

من هم «القياصرة» الأميركيون؟ كيف اعتلوا عرش الرئاسة؟ كيف واجهوا تحديات الإمبراطورية لدى تبوّئهم منصب الرئاسة؟ كيف أكدوا قدرتهم المتنامية في المكتب الرسمي لرئيس الجمهورية في أدائهم مهمةً أصبحت تُسمّى «الرئاسة الإمبراطورية»؟ كيف حافظوا بحزم على السلام الأميركي طوال سنوات الحرب

(١) مقال لرون سوسكيند Ron Suskind نُشر في مجلة نيويورك تايمز New York Times في السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ عنوانه Faith, Certainty and the Presidency of George W. Bush.

(٢) في نهاية عهد رئاسة جورج دبليو بوش في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، كانت الحكومة الأميركية تدير رسميًا ست مستعمرات أو أراضٍ أميركية في أنحاء العالم وهي: ساموا الأميركية وولاية ميكرونيسيا المتحدة وغوام وجزر ميدواي وبورتوريكو وجزر العذراء الأميركية. إلا أنّ الولايات المتحدة كانت لا تزال تخوض حربين أساسيتين واحدة في العراق والأخرى في أفغانستان، كذلك، كانت لا تزال تشغّل ما يزيد على تسعمئة قاعدة عسكرية رسمية في الخارج في مئة وثلاثين دولةً (غير تلك الأراضي التابعة لها) مقارنةً بأربع عشرة قاعدة في العام ١٩٣٨، وذلك، بالإضافة إلى ما يزيد على مئة منشأة سرية أو تمويهية. وفقًا للمقال الذي نشرته مجلة نيو ستايتسمان New Statesman في الثلاثين من تموز/يوليو ٢٠٠٩ لكاثرين لوتز Catherine Lutz وعنوانه Obama's Empire.

الباردة وبعدها؟ وكيف سارت حياتهم الخاصة، بحسناتها وسيئاتها؟ هذه هي الأسئلة التي سعيت إلى الإجابة عنها من خلال هذا الكتاب، بصفتي كاتب سيرة، وذلك في سياق التاريخ الحديث للولايات المتحدة والعالم. (بالنسبة إلي) هناك، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية، أربعة من أصل اثني عشر رئيساً أميركياً برهنوا عن عظمة لا شك فيها. وعلى غرار روما القديمة، شن بعض القياصرة الأميركيين حروبًا أنهاها قياصرة آخرون. وسمح بعضهم بمحاولات اغتيال لقادة أجانب كانوا يهدّدون الهيمنة الأميركية، وكان معظمهم هدفًا لمحاولات اغتيال وواحد فقط قُتل في خلال توليه الرئاسة. ولكن منذ دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية، كان يُطلب إلى كل رئيس أن يبرهن عن قيادته على الصعيد العالمي، وحاولت أن أحكم على صفة القيادة الإمبراطورية هذه في كتاب «القياصرة الأميركيّون».

يروي كل فصل قصة رحلة إنسانية يشقّ فيها البطل طريقه إلى قلب القوة الأميركية حيث يواجه تحدّيات عصره الجسام. يبدأ الكتاب بأعظم الأباطرة الأميركيين، الذي كان بمنزلة أغسطس قيصر في عصره: الرئيس فرانكلين دلانو روزفلت. يتبعه خلفاؤه العظماء هاري س. ترومان ودوايت د. أيزنهاور وجون ف. كينيدي. من ثم يتطرّق الكتاب إلى حياة كلّ من ليندون جونسون وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمي كارتر ورونالد ريغان وجورج بوش الأب وبيل كلينتون ليصل إلى أسوأ قيصر أميركي على الإطلاق ومن دون جدل جورج بوش الابن ونائبه ديك تشيني اللذين دمّرا بتهوّر وبملء إرادتهما الكثير من الأسس الأخلاقية التي تحلّت بها القيادة الأميركية في العصر الحديث.

ليس لي أن أحكم إلى أين ستصل الإمبراطورية الأميركية، وإلى متى ستستمرّ في وجه نشوء إمبراطوريات أخرى وكيف ستتعامل مع كفاحها الصعب للإحاطة بالمبادئ التي نصّ عليها دستورها العظيم. ففي هذه الأثناء ثمة الكثير من الدروس التي يمكن أن نستقيها من سير حياة الاثني عشر رجلاً ولا يمكننا أن نتجاهلها أو ننساها. قد لا يوافقني القارئ الرأي بشأن أحكامي المرسخة في هذه السير الذاتية، وسيكون له رأيه الخاص في كلّ من القياصرة الأميركيين الاثني عشر (ونوابهم) الذين يشبه

معظمهم أبطال سويتونيوس أو طغاته على غرار تيبيروس وكاليغولا ونيرون. أعجبنا أم لا، هؤلاء هم الرجال المُختارون واحدًا تلو الآخر لقيادة الولايات المتحدة في ما سيُعرف بأعظم فترة لها كقوة عظمى في العالم. وبالطبع، هم يستحقون أن ننظر إليهم كما نظر سويتونيوس إلى آباء الرومان الحازمين والعطوفين وإلى حياتهم الخاصة التي تُظهر مشاعرهم ما يدلّ على أنهم بشر عاديون على الرغم من أعباء الإمبراطورية الثقيلة التي يحملونها على عاتقهم.

بعد أن قلنا ما قلناه، فلنبدأ بأعظم قيصر على الإطلاق.

الفصل الأوّل

فرانكلين د. روزفلت

الذي بلغ في مرحلةٍ لاحقة مستوى العظمة

ديمقراطي

الرئيس الثاني والثلاثون

(من الرابع من آذار/مارس ١٩٣٣

إلى الثاني عشر من نيسان/أبريل ١٩٤٥)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

وُلد فرانكلين دلانو روزفلت في الثلاثين من كانون الثاني/يناير من العام ١٨٨٢ في سبرينج وود، هايد بارك، في منزل كبير يُطلّ على نهر هدسون أي على بعد خمسة وسبعين ميلاً فوق مدينة نيويورك. وكادت ولادة ذي العشرة باوندات، التي دامت ستًا وعشرين ساعة، تودي بحياة والدته سارة دلانو روزفلت. ونتيجةً لهذه الولادة الصعبة نصحها الأطباء بعدم إنجاب المزيد من الأولاد.

رضع أف.دي.آر. من صدر أمّه، وهو أمر غير مألوف في ذلك الوقت وبقي يرتدي الفساتين ويترك شعره المتموّج طويلاً حتى سنّ الخامسة. تلقّى دروسه في المنزل. كان يرتدي الإزار الإسكتلندي إلى حين بلغ السابعة من العمر، حينئذ ارتدى السروال للمرة الأولى. استحمّ وحده للمرة الأولى في سنّ التاسعة. في العاصمة واشنطن، أثنى الرئيس كليفلاند على شعر أف.دي.آر. الجَعْد وقال له وهو يفكّر في أعباء المكتب البيضوي: «عندي أمنية غريبة لك وهي ألا تصبح يومًا رئيسًا للولايات المتحدة[1]».

ولكن أمنيته لن تتحقّق.

تعلّق كل من السيد والسيدة جايمس روزفلت بأف.دي.آر. كثيرًا، فاختارا له مدرّسين خصوصيين واصطحباه معهما إلى أوروبا التي زاراها ما لا يقلّ عن ثماني مرات إلى حين بلغ أف.دي.آر. الرابعة عشرة. عندئذ سمحا له، على مضض، بارتياد مدرسة ذات يوم كامل وهي مدرسة غروتون. كان حينئذ أكبر من رفاقه بثلاث سنوات. وكانا قد منعاه من محاولة الدخول إلى الأكاديمية البحرية في أنابوليس، بحجة أنهما سيشتاقان إليه كثيرًا إذا سافر في البحر.

(١) جان إدوارد سميث Jean Edward Smith أف.دي.آر. ص. ٢٣.

علي مولا

على الرغم من ذلك، أصبح البحر الهواء الذي يتنفَّسه أف.دي.آر. فمن جهة كان والده السيد جايمس المعروف لدى الجميع قد بنى منزلاً صيفيًا في العام ١٨٨٣ على طول شاطئ ماين في جزيرة كامبو بيلو حيث تعلّم أف.دي.آر. الإبحار. ومن جهة أخرى حصل على يخته الأوّل، ذو نيو مون، في سن السادسة عشرة، وكذلك حصل على أعمال ألفرد ثاير ماهان حول تأثير قوة البحر في التاريخ. بدأ أف.دي. آر. بجمع الطوابع والعصافير المحنّطة والمطبوعات والكتب البحرية، وغلّف كل هذه المجموعات بدقّة.

ارتاد أف.دي.آر جامعة هارفرد حيث أنهى شهادة الأربع سنوات بثلاث وأصبح رئيس تحرير محبوباً لصحيفة الجامعة ذو كريمسون. كان يتمتّع بصوت غنائي جميل. ولم يتعلّم شيئًا عن طريق الحفظ، بل طوّر منذ صغره عقلاً مستقلاً على نحو مذهل، وكان واثقًا بآرائه الخاصة ويتحلّى بنظرة إيجابية إلى الحياة. كان طوله ست أقدام وبوصتين، أي أطول من معظم رفاقه أبناء جيله، وسيمًا، مفعمًا بالحيوية وأنعم عليه الله بحس فكاهي ولطيف، وكان سعيدًا بمفرده بقدر ما كان سعيدًا برفقة أصدقائه.

تقف والدة أف.دي.آر، سارة، وراء نجاحه في سنّ مبكرة. وتجدر الإشارة إلى أنه ورث لدى وفاة والده في العام ١٩٠٠ نصف ممتلكاته المالية التي كان يسحب منها سنويًا ١٢ ٠٠٠ دولار، إلا أن سارة حافظت على ملكية قصر سبرينج وود. بالإضافة إلى ذلك، ورثت هي، في إثر وفاة والدها في العام التالي ١/٢ مليون دولار (ما يساوي في أوقاتنا ٢٨ مليون دولار). وبما أنها أصبحت أرملةً ثريةً جداً تفادت صائدي الثروات فاستأجرت شقةً في بوسطن في ولاية ماساشوستس لتكون قريبةً من ابنها الموجود قبالة نهر تشارلز في هارفرد. بعد التخرّج، تزوّج في العام ١٩٠٥ وبنت له سارة منزلاً (بقي ملكًا لها) بالقرب منها في مانهاتن.

في إطار آخر صرّح الرئيس الجمهوري ثيودور روزفلت: «لا شيء أجمل من إبقاء اسم الشهرة ضمن العائلة» وذلك عندما أصرّ على منح ابنة أخيه إليانور روزفلت اليتيمة

والثرية لقريبها من الدرجة الخامسة أف.دي.آر.[١] وعلى الرغم من زواجه، بقيت والدته سارة، وليس إليانور زوجته، العامل الأساس وراء نجاحه على الصعد المهنية والاجتماعية والعاطفية، فهي شجّعته على ألا يبالغ في تقدير مواهبه وأن يستفيد من مهاراته العديدة أي من ذكائه وسحره وروحه المرح وتحصيله العلمي وعلاقاته ليشقّ طريقه متخطيًا مواهب عائلة روزفلت الفطرية، أي أن يتصرّف على غرار والدها عندما واجه الإفلاس في العام ١٨٥٩ بعد الكساد الاقتصادي. كانت والدته سارة وبقيت تملك الكلمة الفاصلة في ما يتعلّق بخيارات أف.دي.آر. فعندما بدأ يدعم الحزب الديمقراطي المحلّي، دعمت قراره هذا وقالت لاحقًا بهذا الخصوص: «كنت من بين القليلين الذين وقفوا إلى جانب فرانكلين من أقربائه فهم قالوا إنه من المؤسف أن ينخرط شاب شريف مع رجال السياسة «الخبثاء»»[٢].

في الواقع كان أف.دي.آر. قريبًا جدًا من والدته إلى حدّ أنّه كاد يُرفض من الحزب الديمقراطي المحلّي لكونه «ابن أمّه». فعندما سأله عضو في لجنة حكومية إن كان يرغب في ترشيح نفسه إلى منصب مشرّع في مجلس ولاية نيويورك التشريعي عام ١٩١٠ أجاب أنّ عليه أن يسأل والدته. فردّ عضو اللجنة الحكومية وهو ينظر إلى المبنى حيث كانا يركنان سيارتيهما قائلاً: «إن الرجال الذين ينظرون إلينا من تلك النافذة يا فرانك ينتظرون إجابةً منك، ولن يروقهم أن يعرفوا أنه عليك أن تسأل والدتك»[٣].

لم يُفصح أف.دي.آر. عن طموحه السياسي. في الواقع استذكر كاتب محكمة لدى كارتر، ليديارد وملبورن (Carter, Ledyard and Melburn) وهو زميل له كان قد ارتاد معه جامعة هارفرد كيف أنّ أف.دي.آر أبلغ زملاءه الشبان في العام ١٩٠٧ أنه يعزم على أن يصبح رئيسًا للولايات المتّحدة على غرار زوج عمّته. كما أنه عدّد لهم بالتفصيل الخطوات التي سيتبعها لتحقيق هذا الحلم: أولاً يحصل على مقعد في

(١) المصدر السابق، ص. ٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ٦٣.
(٣) المصدر السابق، ص. ٦١.

مجلس نيويورك التشريعي، وبعد ذلك يصبح مساعد وزير البحرية الأميركية، ومن ثمّ يصبح حاكم نيويورك، وأخيرًا يدخل البيت الأبيض بصفته الرئيس. لم يستهزئ به أحد، على ما يتذكر زميله، لأنّ ما قاله بدا «منطقيًا تمامًا»[1].

في الحقيقة، رشّح روزفلت نفسه لمجلس شيوخ نيويورك بدل المجلس التشريعي وفاز. وفي العام ١٩١١ جعل منه انتصاره المدوّي هذا، في سنّ الثامنة والعشرين، قوةً داخل الحزب الديمقراطي في نيويورك يُحسب لها حساب. وتجدر الإشارة إلى أنّ الحزب الديمقراطي انقسم إلى تقدميين ومحافظين تمامًا كما جرى مع الحزب الجمهوري. فاختار أف.دي.آر. أن يكون تقدميًا، يجابه الفساد داخل حزبه الذي كان يُعرف في نيويورك بتاماني هول (Tammany Hall).

مني أف.دي.آر. بالخسارة في كل المعارك التشريعية والتعيينات داخل الحزب، ولم يعرف التقدم إلا حين دعم حاكم نيو جرسي وودرو ويلسون، الدخيل الديمقراطي في خلال الانتخابات الرئاسية لعام ١٩١٢. حينئذ، حظي روزفلت بفرصة التقدّم بخطوات سريعة فخرج من صفوف ديمقراطيي تاماني هول ليدخل السلطة في واشنطن من بابها العريض، بحيث خُيّر بين منصبي مساعد وزير الخزينة أو مساعد وزير البحرية كمكافأة على توفير دعمه له فاختار مساعد وزير البحرية.

كان أف.دي.آر. أصغر رجل يشغل هذا المنصب (ثلاثون عامًا)، مفعمًا بالحيوية ومندفعًا ومتعجرفًا على غرار ونستون تشرشل أول لورد في الأدميرالية البحرية البريطانية. من جهة أخرى، كان رئيسه، جوزيفوس دانيالز، رجلاً قصير القامة أشعث الشعر من رولي في كارولاينا الشمالية، يملك صحيفةً، وليس لديه أدنى فكرة عن البحر والبحرية. في الواقع كان إنسانًا مسالمًا لا يشرب الخمر ويأمر ضباط البحرية بالتوقف عن تقديم الخمر في قاعة الطعام. ومع ذلك، كان دانيالز خبيرًا في شؤون الولايات المتّحدة وشعبها. ففي حين كانت الأمم الأوروبية تسمح بانتقال السلطة إلى الجيش لدى اندلاع الحرب تاركةً السياسيين من دون أي سلطة لنقض قرارات

(١) المصدر السابق، ص. ٥٩.

الضباط أو صنع السلام، علّم دانيالز أف.دي.آر. أعظم أمثولة في القرن العشرين، ألا وهي: على رجال السياسة أن يحافظوا على سلطتهم على الضباط وأن يستخدموا هذه السلطة بحكمة.

تحت إرشاد دانيالز، تعلّم أف.دي.آر. ممارسة القيادة السياسية. ففي أوقات السلم، كانت البحرية الأميركية تمتص عشرين في المئة من الميزانية الفدرالية الأميركية السنوية، وتضمّ ٦٣ ٠٠٠ جندي من كل الرتب وتوفّر فرص العمل لأكثر من مئات الآلاف من الأشخاص في الترسانة البحرية التي تضمّ ١٩٧ سفينة في الخدمة[1] في كل أنحاء البلاد. وعندما طلب الرئيس ويلسون بتردد من الكونغرس السماح بإطلاق مشروع إعادة التسلّح الوطني لبناء ١٧٦ سفينة جديدة، ما يعدّ أكبر مشروع بناء في أوقات السلم في تاريخ الأمة (وتضمّن بناء عشر بوارج حربية ومئة غواصة وست مدرّعات وخمسين مدمّرة وعشر مدرّعات خفيفة)، سخّر أف.دي.آر. كل طاقاته الهائلة لهذه المهمّة. فلم يكتفِ باقتراح تأليف مجلس دفاع وطني للإشراف على الإنتاج الحربي، بل أنشأ في أيلول/سبتمبر عام ١٩١٦ احتياطيًا بحريًا مؤلّفًا من خمسين ألف قوة. ولدى إعلان الرئيس ويلسون الحرب في الرابع من نيسان/أبريل في العام ١٩١٧ ردًا على سماح القيصر الألماني باندلاع حرب غواصات مفتوحة ضد الدول الحيادية، كان أف.دي.آر. قد أصبح شخصيةً أساسيةً. ولكن الرئيس الذي أُعيد انتخابه بصعوبة في العام ١٩١٦ رفض الاستماع إلى طلب أف.دي.آر. الانضمام إلى الحرب بصفته ضابطًا في البحرية، حتى أنه أعطى تعليماته لدانيالز[2] قائلاً: «أخبر الشاب أن يبقى مكانه».

وتجدر الإشارة إلى أن الاقتصاد الأميركي في ثمانينيات القرن التاسع عشر، أصبح الاقتصاد الأقوى في العالم. ومع استسلام القوات المسلّحة الألمانية في كومبيانيه في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨، أكدت الولايات المتّحدة كونها

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٤٠.

إمبراطورة العالم بكل ما للكلمة من معنى باستثناء بالاسم، ففي الوقت الذي تشتّت أسطول ألمانيا في ميناء سكابا فلو، كان لدى الولايات المتحدة جيش مؤلف من خمسة ملايين رجل وقوات بحرية تضم نصف مليون رجل ما يضعها في المرتبة الثانية بعد الإمبراطورية البريطانية. في الواقع، تنبع قوة أميركا من دستورها العظيم وتحليها بمبادئ مثالية حول العدالة وبرأي ويلسون، القدوة التي تقدّمها لسائر الأمم في مجال المثابرة. فيما كان ويلسون الذي استقبله مساعد وزير البحرية، في طريقه إلى مؤتمر السلام في فرساي، تم استقباله بحفاوة في بريست حيث رفع الناس لافتات تقول: «حيّوا البطل الذي يدافع عن حقوق الناس»، وفي باريس استقبله مليونا شخص رافعين شعارات تقول: «ويلسون الرجل العادل».

إلا أنّ الاكتئاب من الحرب اجتاح أميركا من جديد ما أدى إلى عودتها إلى الانعزالية. من جهة أخرى، وفي العام ١٩١٩، انطلق الرئيس ويلسون، في حملة سياسية في الريف في كل أنحاء اميركا لترويج مشروع عصبة الأمم، الذي يمثل صلب معاهدة فرساي، إلا أنه عانى أولاً سكتة دماغية طفيفة تلتها سكتة قوية. وقال أحد المرشدين في البيت الأبيض بوضوح في هذا الخصوص: «بدا كأنه ميت». وعلى الرغم من أن الرئيس قد استعاد شيئًا من قدرته على الكلام والحركة في يده اليُمنى، لم تسمح زوجته الجديدة، إيديث، لأحد أن يراه حتى معاونيه[1].

في ظل هذه الظروف، ونظرًا إلى عدم قدرة الرئيس الواضحة على الترشح لولاية ثالثة في صيف العام ١٩٢٠، تقدّم مساعد وزير البحرية ورشح نفسه، في وجه حاكم أوهايو جيمس م. كوكس، للمنصب الثاني في الحزب الديمقراطي من حيث الأهمية لأنه يساعده على الوصول إلى الرئاسة. وفاز فيما كان يبلغ الثمانية والثلاثين فقط.

بغية إطلاق كوكس وأف.دي.آر. حملتهما الانتخابية، توجّها إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس ويلسون والحصول على بركته. كان كوكس قد وافق على أن تشكل

(١) أتش دبليو براندز H.W. Brands كتاب Traitor to His Class: The Priviledged Life and Radical Presidency of Franklin Delano Roosevelt من ص. ١٢٩ إلى ١٣٠.

مسألة عصبة الأمم في بيانهما السياسي، «مسألة ذات أهمية قصوى» بحسب كلمات أف.دي.آر.، وذلك احترامًا لرغبة ويلسون. وعلّق لاحقًا المرشح الديمقراطي لمنصب نائب الرئيس قائلاً: «كان ذلك أحد أكثر المشاهد تأثيرًا في حياتي.»[1]

لقد تغيّرت الأمور كثيرًا، ففي السنة التي سبقت كان روزفلت قد هنّأ الرئيس في فرنسا على صحته الممتازة، أما الآن، كما أعلن روزفلت لاحقًا[2]، «حين التقينا الرئيس في الرواق رأيناه جالسًا على كرسي متحرّك». كانت قطعة قماش تغطي يد الرئيس ويلسون اليُسرى، وكان رأسه متدلياً إلى الأسفل والنصف الأيسر من وجهه مشلولاً ويكاد صوته لا يُسمع. وبذلك كان روزفلت ينظر إلى مستقبله من دون أن يدري.

والمدهش أن الصحافة كانت ترفض الإفصاح عن حقيقة وضع الرئيس الصحي، حتى أنه قد حصد في ذلك العام جائزة نوبل للسلام (كانت صحته متردية جدًا فلم يستطع الذهاب لتسلمها). من جهة أخرى، كلما توجه أف.دي.آر. أكثر إلى الغرب بصفته مرشحًا لمنصب نائب الرئيس، تبين له أكثر فأكثر أن الولايات المتحدة غير مستعدّة بعد لتحمّل أعباء قيادة العالم ومسؤولياتها لكونها أمة مهاجرين.

وأعلن جوزيف تومولتي، مساعد الرئيس ويلسون أن البيت الأبيض كان «أكثر الأماكن وحشةً عشية الانتخابات» في العام ١٩٢٠. في الواقع تلقى كوكس وروزفلت خسارةً فادحةً في خلال المجمع الانتخابي من قبل السيناتور الجمهوري وارن هاردنغ حاكم أوهايو الذي حظي بـ ٤٠٤ أصوات مقابل ١٢٧ صوتًا كما حصل على صوتين مقابل واحد في التصويت الشعبي. وعُد ذلك «هزيمةً ساحقةً للاستفتاء الرسمي بشأن عصبة الأمم»، كما مثّل أسوأ نتيجة للحزب الديمقراطي منذ الحرب الأهلية.

ومن ناحية أخرى، كان قد حان دور روزفلت لمواجهة كارثة صحية. في تموز/ يوليو ١٩٢١، سافر إلى كامبو بيلو بحيث كان قد وعد بالحضور بصفته رئيس كشافة

(١) المصدر السابق، ص. ١٣٧.
(٢) المصدر السابق.

نيويورك للشباب وهو مخيم شبابي يُقام قرب نهر هدسون، ووفى بوعده. كانت حماسته وطاقته معديتين على غرار شيء آخر. ففي ماين، وفيما كان يُبحر ويلعب مع أولاده سقط أرضًا. شخَص الطبيب المحلي ذلك بأنه رشح الصيف فيما الاختصاصي الذي تم استدعاؤه شخصه بأنه حالة تجلّط الأوردة العميقة. ولكن عندما أصيب الجزء السفلي من جسم أف.دي.آر. بالشلل، كتب مساعده رسالةً عاجلةً إلى عمّه فريد في نيويورك لإطلاعه على العوارض. فأكدت السلطة الوطنية لمرض شلل الأطفال تشخيص حالة الشلل لحظة وصوله إلى جزيرة كامبو بيلو.

غيّر الشلل حياة أف.دي.آر. فكان قد بدأ التخطيط لحملته الانتخابية لمجلس الشيوخ الأميركي لعام ١٩٢٢. نعته الأشخاص القادة بالكسيح، حتى أن والدته سارة رأت أن الأفضل له التقاعد في سبيرنغ وود في هايد بارك ليصبح مالك أراض واسعة في الريف، مع أن ذلك كان سابقًا لأوانه لأنه لا يزال في التاسعة والثلاثين. ولم يكن في الإمكان إخفاء مرضه عن الناس حتى أنّ صحيفة نيويورك تايمز كتبت في الصفحة الأولى: «أف.دي. روزفلت مصاب بفيروس شلل الأطفال[١]».

حاول فريق أف.دي.آر. التشديد للإعلام أنّ المرشح السابق لمنصب نائب الرئيس في طريقه إلى التعافي لا الإعاقة، بما أنّ معظم المصابين بهذا المرض استعادوا قدرتهم على استخدام أطرافهم.

لم يكن ذلك صحيحًا إلا أنه لم يكن كذبةً أيضًا، فقد بهر روزفلت كل من يلتقيه بعزمه على تعلّم السير مع سندين من الحديد يزنان أربعة عشر باوندًا. لم يجرؤ أي شخص حتى على التنفس يوم السادس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٢٤، عندما شق أف.دي.آر. طريقه إلى مسرح حديقة مادسيون سكوير في نيويورك مترجّحاً على عكازين لإلقاء خطاب إعلان المرشح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي الحاكم آل سميث، وذلك وفقًا لفرانسيس بيركينز الذي أصبح لاحقًا وزير العمل. حتى أنّ أحد

(١) مقال في مجلة نيويورك تايمز New York Times من كتاب سميث Smith ذي العنوان FDR ص. ١٩٢ نُشر في السادس عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

كتاب سير الحياة روى قائلاً[1]: «سُحر ثمانية آلاف من المندوبين والنواب والحضور عندما تقدّم أف.دي.آر. إلى المسرح بصعوبة، وشعروا أنه تجسيد حي للشجاعة. وعندما وصل أخيرًا إلى المسرح لم يتمكن من التلويح خوفًا من الوقوع، إلا أنه رسم على وجهه ابتسامته العريضة المعهودة رافعًا رأسه وكتفيه، فضجت الحديقة بالتصفيق الحار والمدوّي[2]».

بعد مرور أربع سنوات، في هيوستن، ألقى أف.دي.آر. من جديد خطاب إعلان المرشح الرئاسي ألا وهو الحاكم سميث ولكن هذه المرة من دون أن يستعين بالعكازين وبحضور خمسة عشر ألف شخص، وكان خطابه يُنقل مباشرةً عبر المذياع. صعد إلى المسرح بمساعدة ابنه من جهة وبعصًا يتكئ عليها من جهة أخرى، فأعطى انطباعًا بأنه إنسان رقيق وفي الوقت عينه صلب يتمتع بصحة جيدة. وأعلن بصوته الرنّان والجهوري أن على الرئيس أن يتحلّى «بروح ذي صفات محددة» تجعله «معينًا فعالاً للذين يعانون الأسى والمشاكل، فهذا الروح يجعله محترمًا لا بل محبوبًا من كلِّ الشعب، وتشمل صفات الرئيس صفة التفهم التعاطفي للقلب البشري والاهتمام الحقيقي بأخيه الإنسان[3]». بقوله هذا كان يمدح سميث، إلا أن هذه الكلمات تنطبق عليه أكثر من غيره.

قرر أف.دي.آر. أن يجرّب حظه حينما طُلب إليه أن يترشح لمنصب حاكم نيويورك على الرغم من أنّ وول ستريت كانت تشهد أرباحًا تعود إلى المضاربة غير المنظمة والمحمومة ومن أنه لم يكن يأمل الفوز. حتى أنّ لويس هاو[4] قال له: «حتى عبارة فوضى عارمة لا تصف الوضع». جال روزفلت في الولاية بأكملها وكان يلقي حوالى أربعة عشر خطابًا في اليوم وفي نهاية المطاف ذهب إلى منزله في منهاتن عشية الانتخابات معتقدًا أنه خسر هذه المعركة. أفاق في اليوم التالي على

(١) كتاب سميث Smith ذو العنوان FDR ص. ٢١١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب براندز Brands ذو العنوان Traitor to His Class ص. ٢٠٦.
(٤) المصدر السابق ص. ٢٢٥.

صوت والدته تصرخ من الباب الأمامي (كانت لا تزال تعيش في المنزل المقابل) إنه قد أصبح الحاكم المنتخب.

تم تنصيب روزفلت في الأول من كانون الثاني/ يناير ١٩٢٩، إلا أنه لم يكن يتوقّع لا انهيار وول ستريت في هذه السنة ولا الكساد الكبير في السنة التالية. وعلى الرغم من ذلك، كان أف.دي.آر. يمسك بين يديه خشبة خلاص الولايات المتحدة بفضل مزرعته ومركز إعادة التأهيل الموجود في وورم سبرينغز في جورجيا. استجاب الحاكم الجديد، من مبنى الحكومة في ألباني، للانهيار الاقتصادي بالطريقة عينها التي اعتمدها عندما كان في وزارة البحرية، أي باستخدام قدرة الحكومة الشرائية ولكن هذه المرة لتحديث الولاية لا الأسطول. أنشأ أوّل لجنة وطنية لتثبيت معدلات البطالة، وأصبح أول رئيس في الولايات المتحدة يدعم مزايا البطالة. وعمل جاهدًا لوضع برنامج كهربائي ضخم وشدّد على إعانة المزارعين وتصميم مشاريع للبطالة. وفي العام ١٩٣٠، عندما رشح نفسه لولاية ثانية، توجه تسعون في المئة من الناخبين المسجلين إلى صناديق الاقتراع في مدينة نيويورك، ما جعل أف.دي.آر. يحقق أعظم انتصار انتخابي في تاريخ نيويورك وكذلك أعاد هذا النصر الأغلبية للديمقراطيين في الكونغرس. وهكذا أصبح اسم المرشح الرئاسي لعام ١٩٣٢ معروفًا.

ومع تضاعف عدد العاطلين عن العمل ليصل إلى ثمانية ملايين شخص ازداد عدد الأشخاص الذين يعيشون على الإعانات الحكومية، ما اضطُرّ أف.دي.آر. إلى طلب انعقاد جلسة استثنائية للمجلس التشريعي لمدينة نيويورك من أجل تخصيص عشرين مليون دولار لتوفير فرص العمل أو إن تعذر ذلك، توفير «الطعام لتلافي المجاعة». وقد كان الرئيس هاردينغ قد أعلن أنّ «المساعدة الذاتية المتبادلة» هي الحل، ولكن هذه المبادئ تضرب «صلب الحكم الذاتي». في المقابل، كان أف.دي.آر. يرى أن» من واجب المجتمع العصري، ومن خلال حكومته،» أن يتفادى المجاعة من باب «الواجب الاجتماعي». وفي آب/ أغسطس من العام ١٩٣١، أنشأ إدارة الإغاثة الطارئة الموقتة بغية توزيع الأموال الحكومية وضرائب الدخل التي تُجبى. وفي خلال السنوات الخمس التالية، ساعدت هذه الإدارة

أربعين في المئة من سكان ولاية نيويورك أي خمسة ملايين شخص وأعادت سبعين في المئة إلى العمل[1].

لم يُسرّ آل سميث خصم أف.دي.آر. وحاكم نيويورك السابق بهذا النجاح. ولكن القادة الديمقراطيين يئسوا من الهزائم التي مُنوا بها في الانتخابات الرئاسية منذ العام ١٩٢٠، وأرادوا شخصًا رابحًا. في المقابل كانت الاستفتاءات قد بيّنت مبكرًا أنّ أف.دي.آر. هو الوحيد القادر على التفوق على الرئيس هوفر في العام ١٩٣٢. من ناحية أخرى، تم تفادي إطلاق حملة سفيهة للتقليص من فرص نجاح أف.دي.آر.، على أساس أنه غير قادر جسديًا على تحمّل أعباء الرئاسة وذلك عبر تأليف لجنة من الأطباء اللامعين الذين حظوا بحرية رؤية الحاكم روزفلت في خلال يوم عمل عادي. وأعلن هؤلاء الأطباء أنه «قادر على تحمّل أكثر من العديد من الرجال الذين يصغرونه بعشر سنوات». وحين سئلت زوجة أف.دي.آر، إليانور، عن رأيها أجابت بكل جدية قائلةً: «إن لم يقتله شلل الأطفال فلن تقتله الرئاسة».[2]

ألقى أف.دي.آر. أحد أشهر خطبه في جامعة أوغليثورب في جورجيا في الثاني والعشرين من أيار/مايو عام ١٩٣٢. طرح في خلال خطابه السؤال الآتي: «هل سيبقى البلد يرزح تحت نير الجوع والبطالة فيما المواد الأولية غير مستغلّة والمصانع متعطّلة عن العمل؟» وقدم إجابته الشهيرة قائلاً: «يحتاج البلد، بل يتطلب تجربةً شجاعةً ومتواصلةً. جدوا طريقة وجربوها. إن فشلت، اعترفوا بذلك بصراحة وانتقلوا إلى طريقة أخرى. المهم هو أن تحاولوا»[3].

كان ردّ روزفلت على الوضع الوطني الطارئ ردًا واسع الخيال وعمليًا وغير منحاز وناشطًا: فقد شكل، مساهمةً منه لتاريخ الديمقراطية في وقت تم اعتماد حلول قاسية في أوروبا والشرق الأقصى.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٥٨.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٦٣.

أما بالنسبة إلى الرئيس هربرت هوفر، فقد أخفق إخفاقًا تامًا في حملته للانتخابات الرئاسية لعام ١٩٣٢. وبالتالي، خسر المليونير العصامي ومهندس التعدين السابق أمام أف.دي.آر. بفرق سبعة ملايين صوت من أصل أربعين مليون صوت، العدد الذي يمثل رقمًا قياسيًا. ويعني وجود أغلبية للحزب الديمقراطي في مجلسي الكونغرس أنّه لا يكفي وجود مماطل من الحزب الجمهوري لإيقاف مشروع الرئيس المُنتخب «العهد الجديد» الذي سيطلقه يوم تنصيبه في آذار/ مارس ١٩٣٣. ولكن كادت رصاصة تعرقله وذلك عندما صوّب بنّاء قرميد إيطالي عاطل عن العمل من مسدّسه الذي اشتراه من محل رهنيات نحو الرئيس المنتخب فيما كان هذا الأخير جالسًا في سيارته التي كانت مركونةً ومفتوحةً يتحدّث مع عمدة شيكاغو أنطون سيرماك. رأته إحدى المارات ولوّحت بحقيبتها ما غيّر مسار الرصاصة، الأمر الذي أسفر عن إصابة سيرماك بجروح خطيرة فيما لم يصب أف.دي.آر بأي أذى.

الجزء الثاني: الرئاسة

أعلن الرئيس الثاني والثلاثون في خلال حفل تنصيبه في الرابع من آذار/ مارس عام ١٩٣٣: «ستصمد هذه الأمة كما فعلت في الماضي. سوف تنهض من الركود وسوف تزدهر. إذًا، بادئ ذي بدء، دعوني أؤكد لكم إيماني الراسخ أن الشيء الوحيد الذي علينا أن نخشاه هو الخوف في ذاته، فالرعب المُغفل وغير العقلاني وغير المبرر يشلّ الجهود المطلوبة لتحويل التراجع إلى تقدّم».

تلقى هؤلاء الذين اعتبروا كلمات أف.دي.آر. مجرّد كلام ضربةً منبّهةً. ومرة أخرى، استدعى الرئيس الجديد الكونغرس لعقد جلسة طارئة ووفى بوعده: استخدام الحكومة الفدرالية لوضع الرأسمالية على الطريق الصحيح من جديد. وأصدر تصريحًا أقفل مصارف البلد وبحث عن وسيلة لإبقائها موسرة. وفي غضون أيام، وجد الحلّ: تصدر الحكومة المال مدعومًا بضمانته الخاصة لا باحتياطي من الذهب. ونفعت

الخطة. بعد أسبوع، وبعد التدقيق الفدرالي، فتحت المصارف أبوابها من جديد مع دعم من الضمان الفدرالي، وبقيت مفتوحةً. فارتفعت قيمة الدولار على نحو هائل، وكما قال رايموند مولي، أحد مستشاري أف.دي.آر.: «تم إنقاذ الرأسمالية بثمانية أيام». [١]

قدم أف.دي.آر. سلسلةً من المبادرات في جو من التعاون بين الجمهوريين والديمقراطيين وبدعم من حكّام الولايات والصحافة. وهكذا، أبقى الكونغرس في انعقاد مستمرّ وألغى الحظر وعمل على رفع مداخيل المزارعين عبر حل مسألة الفائض (الدفع عن الحسومات من خلال ضرائب خاصة) وإعادة تمويل رهون المزارع المُهددة بالإغلاق بسبب الرهن. بالإضافة إلى كل ذلك، أنشأ سلك الخدمة المدنية الذي يوفر فرص العمل لثلاثة ملايين شاب وشابة. أدى هذا إلى تذمّر رئيس اتحاد العمال الأميركي قائلاً: «يشبه ذلك الفاشية ويحاكي تفكير هتلر وهو شكل من أشكال السوفياتية»، فقد كان يخشى أن يؤدّي هذا الإجراء إلى تدهور أجور العمال العاديين. إلا أن روح الكشّافة الذي كان يتمتع به فرانكلين روزفلت زاده عزمًا. فترأس أف.دي.آر. اتحاد العمال الأميركي وتم إنشاء حوالى ٢ ٥٠٠ مخيم في كل أرجاء الأمة ورأى أوّلها في الصيف في الحديقة الوطنية شيناندوا.

أدى إنشاء سلك الخدمة المدنية إلى إنشاء إدارة للإغاثة الفدرالية تضمّ ١٢١ عاملاً وساعدت سبعة عشر مليون شخص في ذلك العام. كما قدم مشروع قانون للأعمال العامة للكونغرس مع ٣/٣ مليارات دولار التمويل الفدرالي التحفيزي، وتمت الموافقة على هذا المشروع في السادس عشر من حزيران/يونيو عام ١٩٣٣ أي بعد أقل من مئة يوم على تولي أف.دي.آر. الرئاسة.

منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، تعرقل العمل على تنظيم وول ستريت وعلى مشروع إحياء برنامج وادي تنيسي الكهرومائي لأن هذا المشروع يؤدّي إلى منافسة فدرالية غير عادلة مع شركات الطاقة الخاصة. كما أدى اندلاع هذه الحرب

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٦.

إلى تعطيل العمل على إنشاء وكالة قروض مالكي البيوت لإنقاذ سوق العقارات المتدهورة. وأضيفت هذه الإجراءات وغيرها إلى إنجازات الرئيس المتميزة على الصعيد الداخلي. فبعد مرور أسبوع على تنصيبه، كان قد بدأ ببثّ برنامج الأحاديث عبر المذياع. وكان يشرح من خلاله للمستمعين في كل أنحاء الولايات المتحدة بلغة فصيحة ومفهومة ما يسعى إلى تحقيقه ولماذا، ما أدى مباشرةً إلى خلق رابط بين الرئيس والشعب. من ناحية أخرى، اندهش المستمعون مما يتحلى به روزفلت من طاقة حماسية وثقة وحس فكاهي وإيمان وهي كلها أمور تدل على شجاعته التي لا تُقهر وطبعه المتفائل خصوصاً بالنسبة إلى شخص مشلول. وكما وصفته والدته: «هو بطبعه يحب تحمّل المسؤوليات ولا يسمح لها بإرهاقه»[1].

بالنسبة إلى أدولف هتلر، فقد قدّم له الرايخ الألماني في الثالث والعشرين من آذار/مارس ١٩٣٣ سلطةً مطلقة في حالات الطوارئ. وأعلن، في بداية حكمه الديكتاتوري، أنه سيحكم ألمانيا بقبضة حديدية وبطريقة معادية للسامية («سيتم وضع حدّ لخيانة الأمة والشعب في المستقبل بطريقة وحشية»، هذا ما صرّح به هتلر فيما كان يأمر بجمع خصومه السياسيين لاحتجازهم في المعسكرات). هكذا كانت الأيام المئة الأولى من تولي هتلر الحكم. أما أف.دي.آر. فقد أظهر لأميركا والعالم أنه بالإمكان إنقاذ الديمقراطية من دون اللجوء إلى الوسائل الهمجية.

حاول اليمين الجمهوري تصوير روزفلت كشخص فاشي مجنون أو ديكتاتور نازي أو سوفياتي، ولكن لم ينجح، فهو شخص نبيل يعمل بتعاون وثيق مع الكونغرس وحكّام الولايات. في الواقع، كان أربعة أعضاء في الحكومة من الجمهوريين، واجتهد الرئيس ليبرهن أنه لا يعمل لمصلحة حزبه فقط. فهو حرر الولايات المتحدة من معايير الذهب وأصرّ على إيجاد التوازن في الميزانية الوطنية وتخفيض المدفوعات للمسؤولين الحكوميين، بما في ذلك هو، والأهم أنه تألق شجاعةً وتفاؤلاً وثقةً. في المقابل، لم يستطع المؤرّخون الماركسيون الذين فسروا التاريخ على أنه حركة غير

(١) المصدر السابق، ص. ٢٩٩.

متوقفة للقوى الاقتصادية والاجتماعية أن يشرحوا الصدى الذي تركه فرد واحد متحدّر من طبقة «الأشراف» قاد الطاقات الإيجابية التي يتحلى بها بلده بدلاً من المعاقبة.

على صعيد آخر، أعطت انتخابات منتصف الولاية في العام ١٩٣٤ أغلبيةً أكبر للديمقراطيين في مجلسي النواب والشيوخ. وفي ظل هذه الأجواء المؤاتية، أعلن أف.دي.آر. تشكيل هيئة الأوراق المالية والتداولات الأميركية، وهي الوكالة الجديدة لتنظيم وول ستريت، كما أعدّ برنامجًا رياديًا لحل أزمة البطالة والتعويض عن فترة المرض وراتب التقاعد. كذلك، أمر وزير العمل قائلاً: «أبقِ الأمور بسيطة ليفهمها الجميع[1]»، بغية صدّ أي معارضة والحرص على ألا يفشل البرنامج في مناورات ميزانيات الكونغرس المستقبلية. جعل المشروع خاضعًا للتمويل الذاتي فأصبح يموّل من خلال مساهمات أصحاب العمل والعمال وليس من الحكومة. في الرابع عشر من آب/ أغسطس عام ١٩٣٥ وقّع أف.دي.آر. ما أصبح لاحقًا علامةً فارقةً في إنجازاته كرئيس على الصعيد الداخلي ألا وهو قانون الضمان الاجتماعي الذي شكل برهانًا للفاشيين والشيوعيين في العالم على أن هناك دائمًا حلاً وسطًا[2].

لحق تشريعات الضمان الاجتماعي إنشاء إدارة تطوير الأعمال بحيث خوّل الكونغرس الرئيس توزيع ٤,٨ مليارات دولار لتوظيف «أكبر عدد من الأشخاص بأقصر وقت ممكن». فانكبّ هاري هوبكنز على العمل باللجوء إلى وكالة مهندسي السلك العسكري ووظف ٨,٥ ملايين شخص في السنوات الثماني التالية وضخّ ١١ مليار دولار في الاقتصاد العامل. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أف.دي.آر. هيّأ الأمة، من دون أن يدري، إلى اللحظة التي تستوجب أن تدير الحكومة برنامجًا أكبر من هذا وهو تحصين إمبراطورية عسكرية.

انخفضت نسبة البطالة إلى النصف وارتفع الدخل القومي بنسبة خمسين في

(١) المصدر السابق من ص. ٣٥٠ إلى ص. ٣٥١.

(٢) في نهاية المطاف، شمل الضمان الاجتماعي ستين في المئة فقط من العمال بما أن صاحب العمل الذي يشغّل أقل من عشرة عمال كان معفًى من الإعانات.

المئة وتضاعف الإنتاج الصناعي وارتفعت أسعار الأسهم وكذلك الأمر بالنسبة إلى أرباح الشركات ومدخول المزارع. لفت قانون إدارة كهربة الريف لعام ١٩٣٥ انتباه هؤلاء الموجودين خارج المدن فيما جذب قانون واجنر انتباه الناخبين من الصناعيين في المدن وهو يعترف بحق العمال في إنشاء النقابات (في ظل تنامي العنف في سان فرانسيسكو ومنيابوليس وتوليدو). من جهة أخرى انتقد علماء الاقتصاد مبادرات أف.دي.آر. في مجال التوظيف مقابل توفير المساعدة، إلاّ أنه لم يكلّ. واعترف: «هذا أمر صحيح» لدى رفضه المعونة المادية مقابل التوظيف المموّل من الحكومة. إلا أنه ردَ مصرحًا: «لكن الأشخاص الذين يقولون لي هذا يفتقدون لسوء الحظ التواصل مع واقع أميركا ليعرفوا أنّ معظم الأميركيين يريدون أن يقدموا شيئًا مقابل ما يحصلون عليه. هذا الشيء، الذي هو في هذه الحالة العمل النزيه، وهو الحاجز الذي سينقذهم من الوقوع في الفساد الأخلاقي»[1].

شكل تعاطف أف.دي.آر. مع هموم المواطن الأميركي العادي الميزة التي جعلته يتقدّم بأشواط على زملائه. وكذلك، في خلال المؤتمر الوطني الديمقراطي المنعقد في فيلادلفيا في حزيران/يونيو ١٩٣٦ استمع ١٠٠ ٠٠٠ شخص من الحاضرين ونصف سكان البلد الذين يملكون أجهزة راديو إلى الرئيس الذي وقع عند صعوده إلى المسرح لأنّ أحد أسناده لم يحكم الإغلاق، فوقف من جديد على قدميه وشكر الذين ساعدوا على النهوض من الكساد الاقتصادي الكبير. واعترف بصراحة وتواضع بالأخطاء التي ارتُكبت وقال: «يمكن للحكومة أن تخطئ وكذلك الأمر يمكن للرئيس أن يُخطئ». ولكن، استشهد بدانتي ليقول إنّ ثمة فرقاً بين «الخطايا المُرتكبة بدم بارد والخطايا المرتكبة عن غير قصد». وفسّر كلامه، ملمحًا إلى الرئيس السابق هربرت هوفر الذي طاف في أرجاء البلد محاولاً تبييض صفحته، «من الأفضل أن نرتكب أخطاءً عن غير قصد في حكومة تعمل بروح من التعاون بدلًا من الإغفال الدائم في حكومة غارقة في لامبالاتها». ومن ثمّ، خفض أف.دي.آر. صوته ونطق

(١) كتاب سميث Smith ذو العنوان FDR، ص. ٣٥٩.

بالكلمات التي تحدد رئاسته: «بعض الأجيال تحظى بالكثير، وبعضها الآخر يُطلب إليه الكثير أما هذا الجيل من الأميركيين فهو على موعد مع القدر».

حظي هذا الخطاب بتصفيق حار جدًّا دام عشر دقائق وشكل البداية الرسمية للانتخابات التي صنعت التاريخ مرة أخرى. ففي الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٣٦ فاز أف.دي.آر بأكبر فرق حتى تاريخه : فقد حظي بـ ٥٢٣ صوتًا انتخابيًا مقابل ثمانية أصوات للحاكم ألف لاندون هازمًا خصمه هزيمة شنعاء بفارق يفوق ١١ مليون صوت من تصويت الشعب.

ساعد الأب كوغلين على إنشاء حزب جديد للتخفيف من الدعم الموفَر لروزفلت، وتباهى بأنه «سيعلّم» الشعب «كيف يكره». وحثّ كوغلين، ليمكي عضو الكونغرس وحزب الاتحاد الجديد قائلاً: «شددوا على الدين وحبّ الوطن» فهذه هي الطريقة الوحيدة «لإرباكهم». فدفع هذا الإعلان البابا بيوس الحادي عشر إلى إرسال الكاردينال باركيلي إلى الولايات المتحدة للتخفيف من حدة المخاوف من تصريحات كوغلين المعادية للسامية[1]. ولكن من حسن حظ روزفلت، أتت نتائج حزب الاتحاد عشية الانتخابات أسوأ من نتائج الحزب الجمهوري.

وفي المقابل، كانت ولاية روزفلت الثانية مخيبة للآمال بقدر ما كانت الولاية الأولى عظيمة. فقد فشل جدول أعمال المحكمة العليا فشلاً ذريعًا (كما تبيّن أنه غير ضروري، عندما أصبح هناك مقاعد شاغرة سمحت لأف.دي.آر. أن يعيّن من يحلّ مكانه)، وسحب حزمة الحوافز الاقتصادية في الوقت الذي كانت في أقصى درجات النجاح وذلك خوفًا من التضخم وفقدان السيطرة على العجز القومي. وكانت النتيجة ميزانية جديدة ولكن مع كساد جديد. وأدى إنشاء النقابات في المصانع الكبيرة مثل مصانع الفولاذ الجمهورية الموجودة في جنوب شيكاغو إلى الوحشية وعمليات قتل عديدة من قبل الشرطة، في ما علق روزفلت مجازيًا في منتصف هذه المعمعة. بموازاة ذلك، أدى مشروع قانون ضدّ الإعدام من دون محاكمة إلى انقسام

(١) المصدر السابق، ص. ٣٧١.

الحزب الديمقراطي في الجنوب، فالرئيس لطالما كان متعاطفًا مع الشعب الأميركي من أصل أفريقي إلا أنه أُكره على التدخل خوفًا من أن يخسر قاعدته التقليدية في صفوف اليمين الديمقراطي إن لجأ الديمقراطيون في الجنوب إلى الجمهوريين. من جهة أخرى انهارت البورصة وزاد عدد العاطلين عن العمل في شهرين بنسبة مليوني شخص، فبدا الرئيس فانياً ولم يعد يعلم ما إذا كان عليه أن يعيد تحفيز الاقتصاد أم يبقى على حدة.

بحلول ربيع عام ١٩٣٨، ومع اشتداد «كساد روزفلت»، اقتنع أف.دي.آر.أخيرًا بالتخلي عن مطالبه في إبقاء الميزانية سليمة وراح يعيد إحياء برنامج إدارة الأعمال العامة وإدارة تطوير الأعمال ما أضاف ملايين الدولارات على الإنفاق الحكومي الجديد. وكان ذلك كافيًا لتحقيق النظرية الكينزية ولكن ليس بالسرعة الكافية لتفادي نكسة الديمقراطيين في الكونغرس في إثر انتخابات منتصف الولاية بحيث خسر الحزب واحدًا وثمانين مقعدًا في مجلس النواب وثمانية في مجلس الشيوخ وثلاثة عشر حاكمًا في أنحاء البلاد. وكانت الأمور تبدو مظلمة لو أراد أف.دي.آر. الترشح مرةً جديدةً للرئاسة في العام ١٩٤٠.

ولكن، وفي خضمّ هذه الأزمة، بدأت المسائل الخارجية تؤدي دورًا محوريًا في الرئاسة الأميركية للمرة الأولى منذ أن رفض الجمهوريون المُصادقة على عصبة الأمم ومنذ أن فضّلت أميركا الانسحاب من أداء دور عالمي بعد الحرب العالمية الأولى.

في العام ١٩٣٣، كان روزفلت قد اعترف بالاتحاد السوفياتي وسحب القوات الأميركية من هايتي كجزء من سياسة «الجيرة الطيبة» التي اعتمدها. إلاّ أنه بدا أنّ التهدئة الأميركية شجّعت اندلاع الحرب في دول أخرى وليس إيقافها. فعندما غزت القوات اليابانية الصين، وقامت طائراتها الحربية، في كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٣٧، بالهجوم عمدًا على البارجة باناي التابعة للبحرية الأميركية في مرسى نهر يانغتسي، لم يبدُ أن الكونغرس أو البحرية الأميركية متحفزان للرد. على العكس، أرسلت وزارة الخارجية الأميركية فاتورةً للحكومة اليابانية! فدفعت هذه الأخيرة بكل مرور.

أما في أوروبا، فكانت الأوضاع مشابهة. فقد منعت قوانين الحياد المتاجرة بالمواد الحربية الأميركية مع الأطراف المتنازعة كما منعت التدخل العسكري من دون موافقة من الكونغرس. وكان الكونغرس قد حدد في العام ١٩٢٤ حصص الهجرة السنوية من دون التطرق إلى مسألة اللاجئين وبقي القانون على حاله على الرغم من سوء الأوضاع في أوروبا. لم تبذل الولايات المتحدة أي جهد لحل مسألة الثورة التي أطلقها الجنرال فرانكو بدعم عسكري من القوات الإيطالية والألمانية ضدّ الحكومة الإسبانية الجمهورية المنتخبة. تجلّت مرةً جديدة عدم مقدرة الولايات المتحدة على التدخل في الخارج وذلك عندما ضمّ هتلر في الحادي عشر من آذار/مارس ١٩٣٨ النمسا من دون أي عقاب متحدّياً قوًى أوروبيةً عظمى عبر التهديد بشن حرب إن لم ترضخ تشيكوسلوفاكيا الغربية (التي تضمّ السوديت) للرايخ الثالث النازي.

ولكن الحقيقة هي أنّ الجيش الأميركي كان يضم ١٨٥٠٠٠ جندي فقط وكان يحتلّ المرتبة الثامنة عشرة بين القوى العسكرية في العالم. بالتالي لم تستطع الولايات المتحدة مدّ يد العون لبريطانيا وفرنسا وروسيا في صدها لانتهازية هتلر حتى لو رغب الكونغرس في ذلك. أعلن أف.دي.آر. مطمئنًا المجتمع الدولي: «نحن في الولايات المتحدة لا نسعى إلى فرض طريقة عيشنا وشكل الحكم الداخلي على أي شعب»، وأكمل كلامه محذّرًا: «إلا أننا عازمون على المحافظة على طريقة العيش هذه وشكل الحكم هذا وحمايتهما». لكن، وباستثناء تقديم المساعدة لكندا في حال تعرّضت للهجوم، كان رئيس الولايات المتحدة، بفضل مشاعر الناس وجبن الكونغرس، عاجزًا عن التصرف، ويعدّ هذا الموقف معاكسًا تمامًا لما كان عليه الوضع لدى انتهاء الحرب العالمية الأولى.

من جهة أخرى، قال أف.دي.آر. لأحد كتاب الخطب اليهود: «إنه لأمر مزعج جدًا أن تتوخى الحذر طوال الوقت فيما تحاول أن تكون قائدًا وألا تجد أحدًا

لمساندتك»[1]. وفي العام ١٩٣٨، صُدم الأميركيون بأخبار ليلة البلور، بحيث علّق أف.دي.آر.: «كدت لا أستطيع تصديق أنّ أمرًا مماثلاً قد يجري في القرن الواحد والعشرين»، ولكن هذا الغضب لم يُترجم لا بزيادة حصص الهجرة للاجئين اليهود ولا بتغيير سياسة الانعزالية الأميركية[2]. في الواقع بدا أنّ العالم الجديد المحمي من المحيط الأطلسي يقطع صلته بالعالم القديم.

ومع سير هتلر نحو ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ووضع يده على براغ في آذار/مارس ١٩٣٩، أصبح الوضع يشبه «إطعام التماسيح» حسبما قال ونستون تشرشل مستذكرًا. سارت القوات الألمانية من الغرب، في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩ إلى بولندا وتبعتها بعد أسبوع القوات الروسية متقدمةً من الشرق وذلك كجزء من معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء الألمانية الروسية. لكن، ولصدمة هتلر، وبغية مساعدة بولندا ومن ثم فرنسا أعلنت بريطانيا الحرب وفاءً لاتفاقها. وبذلك، انفجرت الحرب العالمية مع الولايات المتّحدة على حدة تمامًا كما كانت في العام ١٩١٤.

وهكذا اندثرت أهمية خبرة أف.دي.آر. في البحرية تحت إمرة جوزيفوس دانيالز في الحرب العالمية الأولى. فبقاء الولايات المتحدة على الحياد في خلال الصراع الأوروبي بدلاً من الهروع للتدخل مكّنها من التدخل بشكل حازم وفعال في العام ١٩١٧. من هنا، جسّدت مقاربة أف.دي.آر. المقاربة التي اعتمدها الرئيس ويلسون منذ خمس وعشرين سنة، أي إنه أعلن إيمانًا ثابتًا بالديمقراطية متفاديًا الإفصاح عن أي التزام في الخارج، فيما زادت الولايات المتحدة جهوزيتها بصمت في حال اضطرت إلى خوض الحرب.

في الحقيقة، قد تكون مرحلة «الحرب الزائفة» هذه قد مثّلت أكبر اختبار في حياة أف.دي.آر. السياسية. لكن وفي حين، كانت كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا قد صمدت في وجه الهجوم الألماني العسكري في العام ١٩١٤، هل ستتمكّن من

(١) المصدر السابق، ص. ٤١٩.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٢٦.

الصمود في هذه المرحلة أمام حرب الطائرات الحديثة والقوات الألمانية التي أرسلها إلى المعركة الديكتاتور النازي عديم الرحمة؟ في الواقع، لم ير الطيار الأميركي تشارلز ليندبرغ وسفير روزفلت في لندن جوزيف ب. كينيدي أنّ الصمود ممكن. وتحققت نظرتهما الانهزامية هذه عندما اكتسح هتلر الدنمارك والنروج في نيسان/أبريل ١٩٤٠ ومن ثمّ غزا كلاً من هولندا وبلجيكا وفرنسا في العاشر من أيار/مايو. ولم يكن هناك من معركة شبيهة بمعركة المارن في الحرب العالمية الأولى لإنقاذ الحلفاء، بل على العكس كانوا محاطين من ثلاث جهات. فسمح ونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني الجديد للجيش بإخلاء دانكريك وبعد بضعة أسابيع استسلم المارشال بيتان باسم حكومة فيشي الفرنسية. كل هذه الأحداث جعلت هتلر سيّد أوروبا الغربية والوسطى بقوة السلاح المطلقة وذلك بعد ست سنوات فقط من تنصيبه مستشارًا لجمهورية وايمر الفاشلة التي كانت تواجه نسب بطالة عالية جدًا.

من ناحية أخرى، اعترف أف.دي.آر. بحكمة الملك جورج السادس باختيار ونستون تشرشل بدل اللورد هاليفاكس لرئاسة وزراء بريطانيا وقال بهذا الخصوص: «أفترض أنّ ونستون تشرشل كان الرجل الأنسب في إنكلترا ولو كان في معظم الأوقات ثملاً»[١]. في الواقع، وجد الرئيس صعوبةً في نسيان سلوك تشرشل المتغطرس عندما حاول أف.دي.آر. زيارة الأدميرال البريطاني باسم وزارة البحرية الأميركية في العام ١٩١٦، ومن ثم خلال لقائه شخصيًا في لندن في خلال مأدبة في العام ١٩١٨. أما الآن فقد انعكست الأدوار فأصبح تشرشل (الذي تناسى زلّاته) يتوسّل إلى الولايات المتحدة للحصول على المساعدة المادية عبر برقيات تذلل يومية.

لو كان الأمر عائدًا إلى الرئيس هوفر، لكان استهزأ بالبرقيات لكن روزفلت غرق في الحيرة. فقد كانت هذه السنة سنة انتخابات، ومع أنّ معظم الشعب كان يفضّل المحافظة على سياسة الانعزال، استصعب الرئيس أن تنعم أميركا الشمالية بشكل من أشكال الحياة الديمقراطية في الوقت الذي يدير ظهره لأوروبا. ففكر الرئيس، صحيح

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٥.

أنَ تشرشل مدمن كحول، لكن هتلر أسوأ من ذلك بكثير فهو «مجنون » كما سبق للرئيس أن أسماه في العام ١٩٣٣ ومسحور بالسلطة[١]. فعقد الرئيس العزم على مدّ يده لتشرشل بقدر المستطاع، فاختلف رأيه عن رأي سفيره في لندن وأصبح يتعامل مع بريطانيا كأنها قاعدة أميركية.

شكل هذا الحدث النقطة المفصلية في تاريخ الإمبراطورية الأميركية والعالم الحديث، فقد قرر الرئيس، في صيف عام ١٩٤٠، أن ينضمّ إلى المعركة إلى جانب البلد الديمقراطي الوحيد الباقي في أوروبا الذي لا يزال يحارب. وعيّن لهذه الغاية الجنرال جورج ك. مارشال الذي خدم مع الجنرال بيرشينغ في خلال الحرب العالمية الأولى رئيسًا لأركان الجيش الأميركي. وبعد أسابيع على سقوط فرنسا، وفي حين كان الرئيس قد قدم للكونغرس في الخريف الماضي مشروع قانون «ادفع وخذ»، وبذلك عوّض أف.دي.آر. ومارشال عن الأسلحة التي تركتها القوات البريطانية في دانكيرك. أما في لندن، فكان السفير كينيدي مصرًّا على توقع الهزيمة لبريطانيا، ولكن أتت المعركة الجوية البريطانية ـ الموازية لمعركة مارن في العام ١٩١٤- لتقضي على آمال هتلر باجتياح ألماني سريع في خلال الصيف. كذلك، فشل سلاح الجو الألماني، وبذلك لم تعد الحرب حربًا خاطفةً بل تحوّلت إلى حرب استنزاف. وقد علم هتلر من مستشاريه الاقتصاديين والعسكريين أنه ليس بإمكانه الفوز في حرب كهذه، وعلى الرغم من ذلك، رفض القائد أن يعدل عن الاستمرار في الحرب.

على صعيد آخر لم يكن الرئيس قد قرر بعد ما إذا كان سيترشح في تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٤٠ لولاية ثالثة. نعم، كان لا يزال في الثامنة والخمسين، إلا أن صراعه الطويل مع شلل الأطفال وسنواته الثماني في الرئاسة التي قاد في خلالها الأمة للخروج من الكساد قد أضنياه. وفي شباط/فبراير، وبعدما كان قد وقّع عقدًا ليصبح محررًا في مجلة كوليه بعد مغادرته البيت الأبيض (العقد بقيمة ٠٠٠ ٧٥ دولار

(١) كتاب لكونراد بلاك Conrad Black عنوانه Franklin Delano Roosevelt: Champion of Freedom ص. ٢٩٠.

سنويًا)، غاب الرئيس عن الوعي خلف طاولته وأصيب بما سمّاه الطبيب «أزمة قلبية طفيفة» وكان قبل ذلك قد قال لرئيس نقابة تيمستر: «أنا متعب حقًا ولا يمكنني أن أكون رئيسًا بعد الآن». في الواقع أراد أن «يرتاح» و«يكتب التاريخ» لا أن يصنعه. وأكمل كلامه مردفًا: «لا لم أعد قادرًا على ذلك»[1]. ولكن مع اشتداد حدّة الحرب في أوروبا وعلو الصراخ من شيكاغو بوجود «تسع مئة مندوب من دون قائد يتخبطون في الضياع كالخراف الخائفة منتظرين قائدهم ليدلّهم على الطريق الذي هو وحده يعرفه» اضطر الرئيس إلى الانصياع[2] للمطالب، وبذلك أصبح روزفلت أول رئيس أميركي يسمّيه حزبه لولاية رئاسية ثالثة على التوالي.

ومن جهة أخرى، علم أف.دي.آر. فيما هو يحاول ألا يجعل من جهوده المبذولة بغية التخلّص من شعور الانعزالية الطاغي على الأمة سببًا لخسارته في الانتخابات، أن ربيع ١٩٤٠ سيحدد نجاة الولايات المتحدة. وفي آب/أغسطس اقترح إطلاق مشروع قانون اختياري للخدمة العسكرية لزيادة قوات الدفاع الوطنية، وشكل هذا الاقتراح سابقة في أوقات السلم. ولو اختار وندل ويلكي، رئيس أكبر شركة محاصة والمرشح الجمهوري، أن يقبل اقتراح الرئيس في ذلك الحين، لكان كسب الانتخابات، وذلك بسبب توتر الشعب في ذلك الوقت إزاء الانخراط في حرب بدت خاسرة بالنسبة إلى الديمقراطيات في أوروبا. ولكنّ[3] ويلكي صرّح بنبل قائلاً: «أفضّل أن أخسر الانتخابات على قبول ذلك». وفي أيلول/سبتمبر أمرّ الكونغرس مشروع قانون الخدمة العسكرية الاختيارية، وبحلول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٠، تسجّل حوالى ستة عشر مليون أميركي بين الواحدة والعشرين والخامسة والثلاثين من العمر للحصول على تدريب عسكري لسنة كاملة.

من هنا، ارتفع عدد قوات الجيش الأميركي من ١٨٩ ٠٠٠ إلى ١,٤ مليون بحلول الصيف التالي. في المقابل، تراجع عدد الناخبين المؤيدين لويلكي، فحثّ

(١) كتاب Smith ذو العنوان FDR، ص. ٤٤١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤٦٦.

الجمهوريون هذا الأخير على اتباع إستراتيجية الحيل الشائنة واتهام الرئيس بعقد «اتفاقات سرية» لإدخال أميركا في الحرب في حال فاز في الانتخابات. فوافق ويلكي على ذلك، ما أدى تلقائيًا إلى ترجيح كفة الميزان لمصلحته بصفته «صانع السلام». فصُعق الرئيس بذلك وسافر إلى فيلادلفيا، مهد الديمقراطية الدستورية الأميركية، وأنكر جملةً وتفصيلاً وبوضوح هذه التهم. وأعلن قائلاً[1]: «لا وجود لأي معاهدة سرية أو واجب سري والتزام سري أو حتى تفاهم سري بأي شكل من الأشكال، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لجر الأمة إلى أي حرب أو إلى أي هدف آخر.» وفي بوسطن التي شهدت بداية الثورة الأميركية، صرح: «لن نرسل أولادكم إلى حروب خارجية[2]. قلت ذلك سابقًا وها أنا أقوله وأكرره مرارًا»، وقد قال ذلك بغية القضاء على ويلكي.

ولدى سماع ويلكي تصريحات خصمه عبر الراديو[3] قال بحسرة: «هذا الحقير سيقضي عليّ». وهذا ما جرى بالفعل. ففي الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٠، فاز أف.دي.آر. للمرة الثالثة بالانتخابات الرئاسية مع توجه خمسين مليون ناخب إلى صناديق الاقتراع وهي أكبر نسبة في تاريخ الولايات المتحدة. وحصد الرئيس ٤٤٩ صوتًا انتخابيًا مقابل اثنين وثمانين فقط لويلكي. وفي التصويت الشعبي فاز بفرق خمسة ملايين صوت. صحيح أن هذا الانتصار لا يشبه الانتصار الساحق الذي حققه في العام ١٩٣٦، لكن نظرًا إلى المناخ الانعزالي الذي كانت تشهده أميركا فإنّ هذا النصر يعدّ إنجازًا في ذاته. وفي إطار آخر، أصبحت الولايات المتحدة قادرةً على الدفاع عن نفسها في حال تعرّضت للاعتداء، حتى أنها أصبحت قادرةً على التدخل متى وأينما يقرر الرئيس والكونغرس، وكل ذلك بفضل إطلاق قانون الخدمة العسكرية الاختيارية وسماح الكونغرس بزيادة تمويل الإنتاج العسكري بشكل كبير.

وفي العام ١٩٣٦، تحدّث روزفلت في خلال تطرّقه إلى السياسة الخارجية عن

(١) المصدر السابق، ص. ٤٧٦.

(٢) كتاب لكونراد بلاك Conrad Black عنوانه Franklin Delano Roosvelt، ص. ٥٩٥.

(٣) كتاب Smith، ذو العنوان FDR، ص. ٤٧٧.

«موعد أميركا مع القدر». والآن ها هو يرى قدرًا آخر للولايات المتحدة حسبما صرح في صيف عام ١٩٤٠، معتبرًا أنَ مفهوم انعزالية أميركا «كبلد وحيد في عالم تهيمن عليه فلسفة القوة وهم واضح». لذا على أميركا أن تقف للدفاع عن الكرامة والإنصاف الاجتماعي في العالم الحديث في ظل مجتمع رأسمالي حرّ ومن واجبها حتى أن تستعدَ لتصبح قوة عظمى تقود المسائل الدولية بعد أن تعيد بناء قوتها الدفاعية وتحصينها[١]. ولتحقيق هذه الغاية يحتاج الرئيس إلى صمود بريطانيا في وجه الهجوم النازي. بالتالي ونزولاً على طلب تشرشل، عمل الرئيس على التوصل إلى اتفاق «سفن حربية مقابل قواعد عسكرية»، بحيث تقدّم الولايات المتحدة لبريطانيا خمسين سفينة حربية تعود إلى حقبة الحرب العالمية الأولى مقابل الحق في إنشاء قواعد عسكرية أميركية في النصف الغربي، وحثّ الرئيس الكونغرس في هذا الإطار على تجاهل الإفلاس المُحدق ببريطانيا واستكمال تزويدها قروضاً غير محدّدة أو اتباع قانون «الإعارة والتأجير».

ولكن العديد من الجمهوريين عارضوا بشدّة اقتراح «الإعارة والتأجير» حتى أنّ بعض الديمقراطيين كجوزيف ب. كينيدي سفير الولايات المتحدة في بريطانيا اعترضوا عليه. وعلى الرغم من ذلك تمكن الرئيس من الضغط على الكونغرس لإقرار القانون مع إبقاء أميركا بعيدةً عن الحرب. وقد استطاع ذلك عبر مجاملة كينيدي مع العلم أن هذا الأخير ترك لندن لممارسة الضغط على أف.دي.آر. ولجعل «الإعارة والتأجير» يبدو مجرّد هدر للمال.

وفي حلقة التاسع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٠ من برنامج الدردشة الذي كان الرئيس يتوجه من خلاله إلى الشعب، قدّم مثالاً حيًا على الفرق بين القيم الديمقراطية الحياتية التي عبر عنها قائد أميركا المُنتخب الجالس في البيت الأبيض وخطاب أدولف هتلر الحقود. فشرح من خلف المذياع: «قطعت تجربة السنتين الماضيتين الشك باليقين، فما من أمة يمكنها أن تتبع التهدئة مع النازية»،

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٨.

وانتقد بشدّة مفهوم «المفاوضة على السلام» الأميركي مع هتلر كما كان يقترح السفير كينيدي[١]. وسأل المستمعين: «هل يمكنكم أن تفاوضوا على السلام عصابة من الخارجين على القانون حاصرت مجتمعكم وأجبرتكم على الثناء لها لإنقاذ حياتكم؟»، فأجاب قائلاً: «هذا هراء. إن هتلر مجنون وحقود. ولا يمكن تدجين النمر وتحويله إلى قطة غير مؤذية عبر تدليله، فلا يمكننا اللجوء إلى التهدئة في وجه العنف». واستكمل شرحه: «إن سقطت بريطانيا فستسيطر دول المحور على كل من القارات الأوروبية والآسيوية والأفريقية وجزر المحيط الهادئ وأعالي البحار وستكون في موقع يخوّلها توفير موارد عسكرية وبحرية ضخمةً لاستخدامها ضد هذا القسم من العالم. وفي هذه الحالة، لا يكون الحلّ في الزحف إلى السرير والاختباء تحت الغطاء. إنّ الشعوب الأوروبية التي تناضل للدفاع عن نفسها لا تطلب إلينا أن نحارب عنها بل أن نزودها أدوات الحرب». قال ذلك بكل وضوح وفسر: «أي الطائرات والدبابات والمسدسات التي تخولها الدفاع عن حريتها وأمننا.» واستعمل الرئيس الجملة التي ستعيد تحديد وضع الولايات المتحدة في العام ١٩٤١: «ترسانة الديمقراطية»[٢].

بعد مرور بضعة أيام على هذه الحلقة، زاد الرئيس من حدة الأمور في خطاب حال الاتحاد، فدفع الأميركيين إلى الإشاحة بنظرهم عن التجارة وإعادة التأكيد على مبادئ الديمقراطية الأساسية الأربعة، وحدد ما أصبح يُعرف في ما بعد بـ«الحريات الأساسية الأربع» للحياة الديمقراطية الحديثة: حرية التعبير والعبادة والتحرر من العوز والخوف[٣]».

وقّع روزفلت قانون الإعارة والتأجير المدعوم من وندل ويلكي في الحادي عشر من آذار/ مارس ١٩٤١. شكل هذا القانون أكبر مشروع قانون للإنفاق يوافق عليه

(١) كتاب لهاميلتون Hamilton ذو العنوان JFK، ص. ٣٩٦.
(٢) كتاب Smith ذو العنوان FDR من الصفحة ٤٨٥، إلى ص. ٤٨٦.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٨٧.

الكونغرس في تاريخ أميركا ووفقًا لوصف أف.دي.آر. «نهاية المحاولات الهادفة إلى التهدئة»[1].

قد تكون سياسة التعاطف في الولايات المتحدة قد انتهت ولكن مسألة دخول الحرب تختلف تماماً، فكان واحد وثمانون في المئة من الأميركيين يعترضون على تدخل الولايات المتحدة. في هذا الوقت كانت القوات الألمانية تغزو اليونان، مهد الحضارة الغربية، وبعد اكتساح بلغاريا ويوغوسلافيا، عاد تشرشل ليطلب من روزفلت الانضمام إلى بريطانيا كحليف وإعلان الحرب على النازية الألمانية، ولكن من دون جدوى. تمكن فرماخت (قوة الدفاع) هتلر، بواسطة المظليين، من السيطرة على كريت مسقط رأس زوس التي تعدَ جزيرةً منيعةً. هكذا يكون هتلر قد سيطر على المتوسط. بدا مستقبل الديمقراطية قاتمًا حتى ولو أعلنت الولايات المتحدة الحرب لأنّ الجنرال رومل، في هذه الأثناء، كان يقود دباباته في شمال أفريقيا نحو طبرق، مع سيطرة دول المحور على المتوسط.

بعد نجاح حرب هتلر الخاطفة، انبثق السؤال الآتي: هل كان كل من السفير كينيدي والكولونيل ليندبرغ والسناتور بورتون ك. ويلر وهربرت هوفر وغيرهم من أنصار الانعزالية محقين؟ هل انتهى أمر بريطانيا؟ في هذه الأثناء، أصبح كلّ من رايخ هتلر الثالث وإمبراطورية موسوليني واتحاد ستالين السوفياتي الأسياد المطلقين لأوروبا الاستبدادية والمسلّحة والصناعية الحديثة.

وجاء هجوم هتلر على حليفته روسيا الذي كان متوقعًا من الاستخبارات ولكن صدم العالم ليؤكد حكمة تحذير روزفلت من تدليل النمور. في الواقع بدأ الهجوم قبل شروق الشمس وفي التاريخ عينه الذي هاجم فيه نابليون روسيا أي في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو. قطع حوالى أربعة ملايين جندي ألماني الحدود الألمانية السوفياتية في العام ١٩٤١ بواسطة ١٨٠ مدرّعةً ودبابةً ووصلوا إلى لينغراد وموسكو ومنسك والقرم وأعدموا المسؤولين الروس الشيوعيين واليهود وأسروا مئات آلاف الجنود السوفيات المذهولين.

(١) المصدر السابق، ص. ٤٩٠.

قد يكون الكثيرون من الأميركيين قد رحبوا بنجاح هتلر الظاهر لأنه وجّه ضربةً قاسيةً للبلشفية، إلا أنه بالنسبة إلى أف.دي.آر. زاد خطر النازية. بالإضافة إلى ذلك، لو أعلنت اليابان الحرب، كما طلب إليها هتلر، وشنتها على روسيا من الشرق الأقصى فتضطر هذه الأخيرة إلى المحاربة على جبهتين، لكانت اليابان زادت من سيطرتها على الشرق الأقصى بعد اجتياحها الصين والهند الصينية في الوقت الذي كان هتلر سيصبح السيد المطلق لكل من أوروبا وروسيا. عندئذ كانت الولايات المتحدة ستجبر على اتباع المزيد من الانعزالية وبالتالي اللجوء إلى مفاوضات التهدئة مع الرايخ الثالث وإمبراطورية اليابان في ميونخ الجديدة.

وهكذا أصبح مصير العالم الديمقراطي بين يدي رجل واحد. وبعد التفكير مليًا في الوضع، أرسل الرئيس روزفلت كتابًا عبر مبعوثه هاري هوبكينز إلى رئيس الوزراء البريطاني، تشرشل يعلمه فيه أنه يودّ أن يلقاه سرًا. فالتقى الرجلان في اجتماع قمة، في مطلع آب/ أغسطس ١٩٤١، على متن السفينتين الحربيتين أوغوستا وأمير ويلز في خليج بلاسنتيا على ساحل نيو فاوند لاند. وأجج هذا اللقاء غضب هتلر المتعجرف، إلا أنه شكل أيضًا خيبة أمل لتشرشل.

فتشرشل افترض أن روزفلت ما كان ليطلب عقد هذا اللقاء ما لم يكن قد فكر مليًا «في اتخاذ خطوات إضافية»- أي إعلان أميركا دخولها الحرب إلى جانب الإمبراطورية البريطانية والاتحاد السوفياتي لمواجهة الفاشية [1]- خصوصًا وأن رئيس الوزراء اضطر إلى تحمل الخطر لتفادي الغواصات الألمانية فيما يُبحر في البحر الأطلسي مع فريق عمله. صحيح أن الرئيسين تصافحا ورفعا الكلفة بينهما بمناداة أحدهما الآخر من دون ألقاب، وصحيح أنهما تناولا الغداء والعشاء معًا وغنيا معًا أغاني إنكليزية مذهلة، وصحيح أنهما راجعا أدق تفاصيل السيناريو العالمي، وصحيح أنّ أف.دي.آر. أظهر تعاطفًا إلاّ أنه لم يقدّم أي التزام رسمي غير الإعارة والتأجير. بالإضافة إلى ذلك، وعلى ضوء قرار الولايات المتحدة إرسال فرق من

(١) كتاب لجوزف بي. لاش Joseph P. Lash عنوانه Roosevelt and Churchill ١٩٣٩-١٩٤١، ص. ٣٩١.

البحرية الأميركية للمساعدة في الدفاع عن إيسلندا، قرر أف.دي.آر. إعلان المحيط الأطلسي بين الولايات المتحدة وإيسلندا منطقةً بحريةً أمنيةً أميركيةً تسيّر فيها السفن الحربية الأميركية دوريات ولا شيء أكثر من ذلك. بل اقترح الرئيس أن يُصدرا معًا بيان إعلان مبادئ.

عن أي مبادئ يتحدّث! كاد تشرشل يجنّ جنونه. إلا أن الرئيس من جهته، تنفس الصعداء عندما بلغه تقرير من مبعوثه الأمين في موسكو أكد له أنّ القوات الروسية والبريطانية ستصمد. بالتالي عقد الرئيس العزم على التصرف على غرار الرئيس ويلسون الذي شكل إعلان مبادئه الأربعة عشر البيان الوحيد العلني لدخول الحرب العالمية الأولى المُقدّم من أي جهة. عندما أصدر ويلسون هذه الوثيقة في كانون الثاني/يناير ١٩١٨ كانت قد مرت عشرة أشهر على إعلان الولايات المتحدة الحرب. أما أف.دي.آر. فأراد أن يسبق ميثاقه دخول الولايات المتحدة في الصراع العالمي، فيكون مصدر وحي ليس للشعوب التي تأذت من موجة الاعتداءات النازية فحسب، بل أيضًا للشعب الأميركي. ولسوء حظ تشرشل، أصرّ روزفلت في الإعلان المشترك ألا يكون هناك مكاسب من حيث الأراضي تطمع منها أو تقدّمها أي من الولايات المتحدة أو بريطانيا وأن يكون أي تدخل بالحدود الوطنية خاضعًا لرضى الشعوب المعنية وأن تُعطى كل الشعوب بما في ذلك الشعوب الخاضعة للاستعمار- حق تقرير المصير. وهذا الأمر أشعل غضب تشرشل.

من هنا، اندثرت أحلام تشرشل باستكمال الإمبراطورية البريطانية مع إخضاع الهند وبورما وسنغافورة ومالايا وغيرها من المستعمرات في أفريقيا والشرق الأوسط والأقصى. فأشرف أف.دي.آر. شخصيًا على صوغ النسخة الأميركية من الإعلان. وفي حين كان تشرشل يتوق إلى جعل الولايات المتحدة حليفةً مشاركةً (خصوصًا وأنّ مستشاره الميداني المارشال الميداني جون سموتس قد أبلغه أنه من المستحيل الفوز بالحرب على ألمانيا من دون تدخل الولايات المتحدة)، كان عليه أن يقدم

نسخةً للحكومة في لندن على أنها أمر واقع[1]. ومذاك أصبح الإعلان المشترك يُعرف بميثاق الأطلسي ولم يأت على ذكر أي التزام من الولايات المتحدة للدخول في الحرب. وجّه هذا الميثاق الذي كان بمنزلة تحفة روزفلت الفنية ضربةً قاسيةً صعُب على رئيس وزراء بريطانيا المحاصر تلقّيها خصوصًا بعدما قرأ تقارير الصحف التي نقلت عن الرئيس في إثر عودته إلى واشنطن: أميركا بعيدة جدًّا «عن دخول الحرب» كنتيجة للقمة[2].

من ناحية أخرى، حدّد ميثاق الأطلسي الذي لم يوقع رسميًا زوال قوة بريطانيا الاستعمارية وبالتالي نهاية بريطانيا كقوة عُظمى في العالم. وفيما كان روزفلت فخورًا بنفسه وهو يخبر زوجته بهذه الرحلة، كان تشرشل «الخطيب المقنع» ولكنه كان أيضًا واقعيًا[3].

وعلى صعيد آخر، لم يحيَ روزفلت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية وبالتالي لم يكتب مذكراته، أما تشرشل الذي حصل على معظم وثائق داونينغ ستريت السرية فقد حظي بفرصة تصوير نفسه كسيد التخطيط الإستراتيجي الذي أدى إلى انتصار الحلفاء في خلال تاريخ الحرب المتعدد الأبعاد. لكن، وعلى الرغم من شجاعة روزفلت المعنوية والجسدية إلا أن هذا التصوير قابل للجدل.

وواقع الأمر أنّ أف.دي.آر. بيّن عن إدراك واعٍ لمسار الحرب أكثر من تشرشل حتى أكثر من أي سياسي مخضرم في العالم. وبالنظرِ إلى قدراته المذهلة في الإقناع، توجه إلى الكونغرس لتجديد قانون الخدمة العسكرية الاختيارية لمدة ثمانية عشر شهرًا. فعرض الكونغرس المسألة للتصويت في الثاني عشر من آب/أغسطس وسط معارضة شديدة من أنصار الانعزالية. في هذه الأثناء، سرّع الرئيس الإنتاج الحربي من طائرات ودبابات ومسدسات وسفن وذخيرة إلى درجة أن الإنتاج أصبح غير مقيّد بالتفجيرات والجيوش الغازية. وبذلك أصبح مدخول الولايات المتحدة كبلد حيادي

(١) المصدر السابق، ص. ٤٠٣.

(٢) كتاب Franklin and Winston لجون ميشام Jon Meacham، ص. ١٢٢.

(٣) كتاب Roosevelt and Churchill لـ Lash، ص. ٤٠١.

في العام ١٩٤٢ أكبر من الأطراف المتنازعة مجتمعةً. في الواقع كان روزفلت يرى لو أن روسيا وبريطانيا صمدتا حتى فصل الشتاء، لأصبحت الولايات المتحدة في موقف يسمح لها بالتدخل على نحو حازم ولبدت بمظهر القائد في عالم ما بعد مرحلة الحرب، قائد اقتصادي وعسكري يرسّخ المبادئ الأخلاقية بفضل ميثاق الأطلسي.

كانت مهارات روزفلت السياسية والإستراتيجية والصناعية والدبلوماسية في قيادة الولايات المتحدة وستبقى أعظم مثال للقيادة في تاريخ الولايات المتحدة، فهو قاد الأمّة في خلال حرب عالمية واضعًا إطارًا أخلاقيًا واضحًا وصريحًا لعالم ما بعد الحرب. ولحسن حظ الذين كانوا يخشون تصادم «النجمين» في شاطئ بلاسنتيا على غرار فرانسيس بيركينز، أعلن الرئيس لاحقًا أنه أُعجب بتشرشل ووجد أنه قد تحسن كثيرًا منذ العام ١٩١٨. حتى أنه قال عنه: «أنا واثق أنّه قد أصبح أكثر نضجًا مما كان عليه منذ عشرين سنة وأصبح عقله أكثر نموًا»[١]. ولكن إن صح هذا عن تشرشل، فكيف بروزفلت؟ ضيّق الخناق على دول المحور عبر توسيع المنطقة الأمنية الأميركية وصولاً إلى إيسلندا في صيف ١٩٤١ وفرض حظرًا على صادرات النفط اليابانية، فأجبر كلاً من الرايخ الثالث وإمبراطورية الشمس على الردّ بالطريقة الوحيدة التي يعرفانها وهي قوة السلاح وبذلك يكون قد أعطى الولايات المتحدة مبررًا يهدّئ موجة الانعزالية على الصعيد الداخلي.

على صعيد آخر، اضطر هتلر إلى إعطاء السيطرة على غرب الأطلسي إلى البحرية الأميركية وأعطى أوامر مباشرة لقادة الزوارق لتفادي أي حادث قد يستفزّ أميركا ويؤدّي إلى دخولها الحرب. وجاء ذلك بالنظر إلى انزلاق هتلر في نزاع ضخم لسحق جيوش الاتحاد السوفياتي قبل حلول فصل الشتاء. كذلك، لم ترغب اليابان في دفع الولايات المتحدة إلى الدخول في الحرب فمن دون المواد الأولية التي تقدمها كالنفط تُحبط محاولة اليابان توسيع مجال الازدهار المشترك لشرق آسيا. من ناحية أخرى، فهم أف.دي.آر. جيدًا الحالة الهيستيرية التي كان يمرّ بها القادة اليابانيون

(١) كتاب Franklin and Winston لـMeacham، ص. ١٢٢ و١٢٣.

من خلال تفكيك رموز الرسائل السرّية اليابانية، فزاد من حدة الضغوط الدبلوماسية فرفض رفع الحظر المفروض على صادات النفط وغيرها من المواد التي تصدّرها الولايات المتحدة إلى اليابان وفوق ذلك، طالب اليابان بالانسحاب من الأراضي الصينية التي غزتها.

كانت الحكومة المتشدِّدة الجديدة برئاسة هيديكي توجو مقتنعةً أن الولايات المتحدة ستعلن عليها الحرب في حال قامت باجتياح الهند الشرقية الهولندية ومالايا. فاقترحت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١، أن تشنّ اليابان هجومًا دفاعيًا على القوات الأميركية في المحيط الهادئ قبل أن تتمكّن هذه الأخيرة من تعزيزها. وتحولت الحرب إلى لعبة فر وكرّ، ولكن أميركا كانت تؤدي دور الكرّ بفضل برنامج إعادة التسلّح والقانون العسكري اللذين وضعهما روزفلت.

وبما أنّ روزفلت أصبح يعرف نيات اليابان عبر اعتراض الاتصالات، أمر كل القادة العسكريين الأميركيين في الهادئ أن يكونوا على أهبة الاستعداد وأرسل إلى هاواي سربًا من قاذفات القنابل الثقيلة بوينغ (B17). لكن، وقد نفّذت اليابان هجومًا على بيرل هاربر في وضح النهار يوم السابع من كانون/الأول ديسمبر ١٩٤١، لم يعد حتى أف.دي.آر. قادرًا على الاعتراف بعدم ملاءمة القوات العسكرية الأميركية الموجودة هناك حتى في أوقات السلم. سمى الرئيس في خطابه أمام الكونغرس هذا اليوم «يوم العار». ففي هذا اليوم، وفي خلال ساعتين فقط، تمكن هجوم الأدميرال ياماموتو على بيرل هاربر من إغراق ثماني عشرة سفينة حربية وما لا يقلّ عن ثماني بوارج حربية وتحطيم أو تعطيل ٢٨٣ طائرةً حربيةً وقتل ٢٤٠٣ جنود من دون أي عقاب.

أما بالنسبة إلى هتلر، وفي حين كان جنوده العالقون في الثلج خارج موسكو من دون ثياب ملائمة، اغتبط عندما سمع ما جرى (فلم يكن يعرف بعد أنّ أميركا أعلنت الحرب على اليابان فقط). إلا أنه أخطأ التقدير لأنّ أميركا أعلنت الحرب على اليابان فقط. وبعد مرور أربعة أيام على أحداث بيرل هاربر، ألقى الزعيم خطابًا

لنواب الرايخ في برلين، وجاء في هذا الخطاب ما سيكلفه الحرب وحياته أيضًا.

شرح هتلر لنواب الرايخ أن الرئيس روزفلت «ينحدر من عائلة فاحشة الثراء» ويتمتع بمزايا اجتماعية «تمهد له الطريق للعيش في ظلّ الديمقراطية وتضمن نجاح هذه الحياة». في المقابل، خرج هتلر من الحرب العالمية الأولى «فقيرًا بقدر ما كنتُ عندما انضممت إلى الحرب في خريف ١٩١٤». في حين سار روزفلت المليونير في طريق «الحياة العادية لسياسي عادي متمرّس في مجال الأعمال، مدعوم اقتصاديًا ومحمي منذ الولادة. أما أنا فحاربت من دون اسم وكرجل مجهول لإعادة إحياء شعبي، الشعب الذي كان يعاني أسوأ إجحاف في تاريخه. هذا مسار الحياتين»، قال الزعيم ذلك مندهشًا للتفكير في الفرق الكبير بينهما كرجلين وكقائدين. «عندما أصبح فرانكلين روزفلت رئيسًا للولايات المتحدة، كان مرشحًا لحزب رأسمالي استغلّه. أما أنا، فعندما أصبحت مستشارًا للرايخ الألماني كنت زعيم حركة شعبية أنشأتها بنفسي». وفي حين كان روزفلت محاطًا بمستشارين من اليهود ـ «وهم شعب كنا قد حاربناه في ألمانيا لأنه ظاهرة طفيلية بدأنا نستأصلها من الحياة العامة» – كان أدولف هتلر قد حارب هذا الشعب باسم «مصير الشعب الألماني ومعتقداتي»[1]. يشبه ميثاق روزفلت وتشرشل الأطلسي «مزيّن الشعر الأصلع. يعيش هذان الرجلان في دول متأخرة اجتماعيًا، وكان أولى لهما أن يهتما بأمور العاطلين عن العمل بدل الارتباك بسبب حرب ما». وأكمل الزعيم تعليقاته قائلاً إن شعب ألمانيا «له تاريخ ممتدّ من حوالى ألفي سنة ولم يكن قط موحّدًا ومتحدًا وواعيًا لكرامته بقدر ما هو عليه الآن وسيكون عليه في المستقبل». وأعلن أنه كزعيم يعطي القائم بالأعمال الأميركي تذكرته ويطلب إليه الرحيل، أي إنه أعلن الحرب على الولايات المتحدة.

والآن لم يعد التحدي أمام الرايخ الثالث يقتصر على السلاح بل تعدّاه إلى الإرادة والخشونة. فحذّر الزعيم قائلاً: كما كنا من دون رحمة في صراعنا للوصول

(١) كتاب Hitler: Speeches and Proclamations, 1935-1945 and Commentary by a Contemporary Vol. 4 (Wavconda IL: Bolchazy Carducci Publishers, 2004) صفحة ٢٥٤٢ للكاتب ماكس دوماروس Max Domarus.

إلى السلطة، سنكون كذلك في صراعنا للمحافظة على شعبنا الألماني» وأي ألماني يشكك في الجهود المبذولة للدفاع عن الوطن أو ينتقدها أو يسخر منها أو يخرّبها» سيُعدم[1]. بعد ستة أيام، يوم السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، ولدى عودة هتلر إلى مقر الراستنبرغ في شرق بروسيا، أعفى المارشال الميداني فون براوشيتس من مهامه كقائد أركان الجيش وعيّن نفسه القائد الأعلى أو القائد العام (generalissimo) للفرماخت والجناح المسلّح للحزب النازي وقال باستهزاء: «يمكن لأي شخص أن يقوم بتخطيط العمليات».

أما أف.دي.آر. فتولى من جهته دور القائد العام إلا أنه حرص على ممارسة صلاحيته كرئيس الأركان لتوجيه إستراتيجية الحرب من دون أن يتدخل في التنفيذ كما أصبح هتلر يفعل الآن على حساب فرص نجاح جيشه في ساحة المعركة. وصف هتلر الذي لم يزر أميركا قط روزفلت أنه مجرّد موظف «استغلالي» بالمقارنة بالرئيس ويلسون في الحرب العالمية الأولى، وبذلك ارتكب خطأً فادحًا. فنظرًا إلى خبرة أف.دي.آر. في قسم البحرية الأميركية طوال ثماني سنوات، من العام ١٩١٣ إلى ١٩٢٠، اكتسب تدريبًا لم يكن هتلر يعرف شيئًا عنه. ففي الواقع لا يمكن لأي مؤرّخ أن يفهم كيف أنّ بلدًا ديمقراطيًا كبيرًا عاجزاً على الصعيد العسكري ورافضاً التسلح في فترة ما بين الحربين يمكنه أن يتحوّل إلى روما القرن العشرين كما فعلت الولايات المتحدة بإدارة روزفلت.

تعلّم روزفلت من خبرته الإدارية في واشنطن تحت إشراف جوزيفوس دانيالز أهم درس من دروس الحرب، وهو أن تنظيم موارد الأمة لأمر أساسي لتحقيق النجاح، فهو الوسيلة التي تحقق الغاية كما قال كلاوزفيتس وغيره من المفكرين العسكريين الألمان. فحقيقة أن هجوم ياماموتو ألحق أضرارًا جسيمةً بالبحرية والجيش في الشرق الأقصى تمثّل أمرًا مخزيًا لأف.دي.آر.(فهو لم يفهم كيف أنّ السفن الحربية كانت راسية على الشاطئ والطائرات مركونةً في مدرجاتها ومصطفةً كما في سباق مع العلم

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥٥١.

أنه أرسل تحذيرات إلى هاواي) إلاّ أن هذا لم يُحبط عزيمته[1]. وفي الثامن من أيار/ مايو ١٩٤١، ألقى الرئيس أمام الكونغرس خطابًا من خمس مئة كلمة عن يوم العار في بيرل هاربر وُضع في مصافِّ خطاب غيتيسبرغ للرئيس لينكولن. ولكن خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه أيضًا أمام الكونغرس بعد أربعة أسابيع، صنع بالفعل التاريخ.

ويوم السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٤٢، وفيما كان الرئيس يعدّد أهداف الإنتاج للسنة المقبلة أعلن أرقاماً خطفت أنفاس الكونغرس والعالم: ستة ملايين طن من السفن الجديدة وخمس وأربعون دبابة وستون ألف طائرة للعام ١٩٤٢ فقط! وبذلك لم يعد هناك شك في هوية من سيربح الحرب وكم سيحتاج من الوقت.

لدى سماع تشرشل الذي كان يزور البيت الأبيض لثلاثة أسابيع هذه الأرقام من روزفلت شخصيًا شعر كأنه وُلد من جديد. قبل يومين من أحداث بيرل هابر، كان أف.دي.آر. قد قال للمستمعين عبر برنامج الدردشة «إنه سيكون هناك أخبار سيئة وأخرى جيدة»، «هزيمة وانتصار» أضاف أنّ «هذه هي حسنات الحرب وسيئاتها» وستتقاسمها كل الأمّة. المهم هو أننا «جميعنا منخرطون فيها» حتى النهاية. «فكل رجل وكل امرأة وكلّ طفل مشترك في أبرز مهمة في تاريخ أميركا»[2].

حملت الأشهر الثمانية الأولى من العام ١٩٤٢، تحذيرات الرئيس من الأخبار السيئة فسقطت كل من هونغ كونغ وغوام وجزيرة وايك وبريطانيا الجديدة وجزر جيلبرت ومعظم جزر سليمان في قبضة اليابان. وفي الثاني من كانون الثاني/يناير سقطت مانيلا عاصمة الفيليبين أيضًا ما أجبر الأميركيين على التراجع إلى شبه جزيرة باتان فيما اجتاح جيش ياباني آخر كوالا لامبور في مالايا وتقدم من خلال بورنيو وغزا غينيا الجديدة نحو شمال أستراليا.

فهرع الجنرال روزمل إلى بنغازي معبّداً الطريق لجيش رابطة الشعوب البريطانية في شمال أفريقيا فيما سمح هتلر بإبادة اليهود الألمان واليهود الأسرى وقال لوزير

(١) كتاب FDR للكاتب Smith الفصل FDR to Knox، ص. ٥٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٤١.

الدعاية السياسية جوزيف غوبلز: «لا تتعاطف» مع العبرانيين بل «سرّع هذه العملية بوحشية هائلة» مهما اشتدت «المعارضة في بعض المناطق». (بعد بضعة أسابيع، كتب غوبلز بتحفظ في يومياته عندما تطرّق إلى ترحيل اليهود إلى معسكرات الإبادة: «سنستعمل طريقةً وحشيةً لا يمكن للإنسان أن يصفها بحيث لن يبقى الكثير من اليهود. بالإجمال يمكن القول إننا سنصفّي ستين في المئة منهم ويبقى أربعون في المئة لأغراض العمل»[1]).

تلاقت وحشية الألمان مع الفظاعات التي ارتكبها اليابانيون بحق الأسرى الأعداء في آسيا وجنوب شرقي آسيا والهادئ. وفي شباط/فبراير، اجتاحت اليابان بورما ووضعت يدها على سنغافورة بعد نزولها في مالايا على الرغم من وجود ٨٥ ٠٠٠ جندي يدافعون عنها. وفي خلال معركة بحر جافا أُغرقت سفن الحلفاء الخمس وخمس من أصل تسع مدمّرات. كما سقطت أيضًا الهند الشرقية الهولندية في قبضة الغزاة اليابانيين، وبدأت طائرات اليابان الحربية تقصف داروين في شمال شبه الجزيرة الأسترالية. والآتي أعظم.

ومع نهاية ربيع ١٩٤٢ وبداية الصيف، شنّت القوات الألمانية هجومًا مدرّعًا ضخمًا في القرم. من جهة أخرى اعتبر اليابانيون أن استسلام جيش الجنرال كينغ القوي المؤلف من ٧٦ ٠٠٠ جندي في الباتان في شبه جزيرة الفيليبين، وهو أعظم استسلام في تاريخ أميركا، بداية لمسيرة الموت في باتان. ومع انهزام الجيش الروسي في القرم وفتح الأبواب لحقول النفط الغنية الموجودة في القوقاز، أرسلت روسيا وزير خارجيتها فياتشيسلاف مولوتوف إلى واشنطن لطلب المزيد من الذخيرة الأميركية واجتياح ملحّ لفرنسا لخلق جبهة ثانية والتخفيف من حدة الضغط على روسيا.

اختلفت ردود فعل روزفلت وتشرشل على مطالب الاتحاد السوفياتي. أما بالنسبة إلى طلب مولوتوف فتح جبهة ثانية، فردّ روزفلت بما يلي: سيغزو الحلفاء فرنسا في العام ١٩٤٢ لردع أسراب سلاح الجو الألماني وفرقه ويتوجهون مباشرةً إلى برلين. هلع تشرشل عندما سمع بالوعد الذي قدّمه روزفلت شفويًا لمولوتوف. فالحلفاء لن

(١) كتاب Hitler: Speeches and Proclamations لـDomarus، ص. ٢٥٩٣.

يتمكّنوا أبدًا من شنّ عمليات عسكرية برمائية في بحر القناة الإنكليزية الذي غالبًا ما يكون هائجًا، في الواقع لم يتمكن أحد من النجاح في ذلك منذ العام ١٠٦٦. فكما مُني الأسطول الإسباني بخسارة فادحة في العام ١٥٨٨، كذلك حصل لسلاح الجو الألماني في معركة بريطانيا. إنها مهمة مستحيلة. وفي حزيران/ يونيو ١٩٤٢، هرع تشرشل إلى واشنطن محاولاً إقناع أف.دي.آر. بعدم فتح جبهة ثانية أقله في القناة. عندما نقل روزفلت، في البيت الأبيض، الأخبار السيئة لتشرشل، أصبح شعوره بالانهزامية من حيث المعركة المباشرة مع الجيش الألماني مبررًا. فقد استسلمت طبرق في شمال أفريقيا وكل القوات البريطانية المؤلفة من ٣٣٠٠٠ جندي لجيش الجنرال رومل الألماني-الإيطالي المدرّع من دون حتى الخوض في معركة فعلية. فعلّق تشرشل بازدراء على جبن البريطانيين قائلاً: «الهزيمة أمر قد يكون مقبولاً ولكن المهانة لا!»[١].

كان روزفلت رجلاً باسلاً ، وما حصل دليل آخر على أن بريطانيا تحتاج من الولايات المتحدة إلى ما هو أكثر من مجرّد معدات. لذلك، وبكل كرم، قدّم قافلةً من دبابات شيرمان الأميركية ومدفعيات ذاتية الحركة من عيار ١٠٥ ملم، وتوجهت القافلة إلى السويس لضمان عدم سقوط مصر أيضًا[٢].

بحلول صيف ١٩٤٢، بدا جليًا أنّ واشنطن العاصمة أصبحت محور حرب الحلفاء على ألمانيا واليابان وليس لندن ولا موسكو. وبغية وضع حد لهذه الحرب، شكل روزفلت لجنةً مشتركةً من رؤساء الأركان وأصبحت مكاتبها تؤدّي دور مركز القيادة الأنكلو-أميركية ووزارة الدفاع الأميركية الجديدة وهو أكبر مبنى يضم مكاتب في العالم. في هذه الأثناء، شكّل أف.دي.آر. أيضًا سلسلةً من مجالس الحرب لزيادة مخرجات الولايات المتحدة الصناعية إلى أقصى حدّ، وأعطى الضوء الأخضر لمشروع مانهاتن لتطوير سلاح سرّي للدمار الشامل.

(١) كتاب The Full Monty للكاتب نايجل هاملتون (Nigel Hamilton (London: Allen Lane, 2001، ص. ٥٨٤.

(٢) كتاب Franklin and Winston لـ Meacham، ص. ١٨٥.

باختصار، لم يعد أف.دي.آر. رئيس الولايات المتحدة فقط، بل أصبح، وبدعم من الكونغرس، القائد العام للحلفاء، يزن بتأنٍ الأولويات السياسية والاقتصادية والعسكرية للفوز بهذه الحرب. وفي تلك السنة، بلغ سن الستين وعلى الرغم من الانعكاسات العسكرية في الخارج، كان يشعّ ثقةً وحيويةً ما يخوّلانه قيادة مختلف الأمم المتضرّعة والمبعوثين الذين يريدون منه المساعدة. وبذلك أصبح فرعون فترة السلم والحرب أيضًا. فكان واثقًا أن أميركا ستفوز في نهاية المطاف مع شركائها، كل ما كان عليه فعله هو التحلي بالتعاطف والطاقة الإيجابية والتمتّع بالقدرة على إصدار الأحكام الصائبة. هكذا تخرج الولايات المتحدة من الحرب قائدةً لعالم ديمقراطي جديد يمكنها أن تشرف عليه اقتصاديًا وإن دعت الحاجة بالقوة المطلقة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ روزفلت تحلّى بصبر ميّزه من سائر زملائه. فهو، على الرغم من معارضة الجنرالات قد وافق على حُجّة تشرشل هزم ألمانيا قبل اليابان (بما أنّ سقوط ألمانيا يؤدي تلقائيًا إلى سقوط اليابان، ولكن العكس غير صحيح). في المقابل أجل مدة سنتين طلبه بشن هجوم عبر القنوات على فرنسا عام ١٩٤٠ وذلك إلى حين أصبحت القوات الأميركية متمرّسةً ما فيه الكفاية عبر المعارك في شمال إفريقيا وإيطاليا لتستطيع الدخول في معركة تكون حاسمةً للحرب العالمية الثانية وذلك في السادس من حزيران/يونيو ١٩٤٤ يوم بدء العمليات. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٣، رسم تشرشل وروزفلت الخطط معًا وقال تشرشل وعيناه دامعتان عن روزفلت لدى إقلاع طائرته: «إن أصاب هذا الرجل أي مكروه فلن أتحمّل هذه المصيبة، فهو صديق صدوق يتحلى برؤية مستقبلية وهو أعظم رجل التقيته في حياتي».[1]

من جهة أخرى، التقى الجنرال ديغول الذي كان ينزل في لندن الرئيس روزفلت في الدار البيضاء باسم فرنسا الحرة ولم يوافق على هذا القرار. فهو كان يستشيط غضبًا من الطريقة التي كان الرئيس يُقارب بها المستقبل. وقد أخبر في هذا السياق

(١) كتاب FDR لـSmith، ص. ٥٦٨.

لاحقًا: «أراد روزفلت أن يكون السلام على الطريقة الأميركية مقتنعًا أن عليه أن يكون هو الذي يملي نيته. كما أنه مقتنع أن فرنسا بالتحديد عليها النظر إلى روزفلت على أنه المخلّص والحكم». في الواقع، وبالنظر إلى عشرات آلاف الأميركيين والبريطانيين والكنديين الذين يجب عليهم أن يضحوا بحياتهم لتحرير فرنسا، بدت هذه النظرة منطقية بالنسبة إلى معظم المحاربين ولكن ليس بالنسبة إلى ديغول. فهو كان ثائرًا لأنه: «وراء قناع الاحترام، كان روزفلت ينظر إليّ من دون أي طيبة»[1].

قد تكون كلمة ضغينة أكثر دقةً من «من دون أي طيبة»، فقد كان روزفلت قد أعلن لفيلكس فرانكفورتر القاضي في المحكمة الأميركية العليا أنّ ديغول «رجل غير متزن» وقال لاحقًا أيضًا إنه «مجنون بعض الشيء»[2]. ومع حلفاء مثلهم، لا نلوم الرئيس في حال رغب على غرار الطاقم العسكري في إعادة قواته إلى الولايات المتّحدة والتركيز على هزم اليابان. فقد استعادت البحرية الأميركية تفوّقها في العام ١٩٤٢ عبر معارك بحرية أساسية في بحر الكورال وجزيرة ميدواي وبدأت حملة استرجاع جزر إبراهيم بجدية في جوادالكانال. فقاوم روزفلت كما كان متوقعًا منه، واعيًا أن هذه المرة، وعلى عكس ١٩١٨، على الولايات المتحدة أن تؤدّي دورًا فعالاً في قيادة عالم ما بعد الحرب، لا التراجع عنه.

بعد نجاح فرانكلين دلانو روزفلت في وضع الولايات المتحدة من جديد على طريق الازدهار الاقتصادي في الثلاثينيات، وبعد أن قاد جهود الولايات المتحدة في خلال الحرب، وأخيرًا بعد أن وضع الولايات في موقع قيادة العالم، كان لا بدّ من أن يُحاسب. لم تكن أي من هذه المهمات سهلةً، في الواقع يصعب تخيّل أي شخصية أميركية تستطيع أن تحقق ما حققه أف.دي.آر. ويعدّ مجهود روزفلت للمحافظة على وحدة التحالف الكبير من أعظم مساهماته للإستراتيجية الكبرى على الرغم من استهزاء هؤلاء الذين ينصحون بوضع مقاربة أميركية عسكرية واضحة وأكثر

(١) المصدر السابق، صفحة ٥٦٧، اقتباس من مذكرات ديغول De Gaulle.

(٢) كتاب FDR لمورغان Morgan، ص. ٦٥٦ و٧٢٣.

عقلانية، وبيّن الوقت أنه كان على حق. وكان دائماً بصفته القائد العام للأركان مصيبًا فاستطاع أن يستمع إلى تحذيرات تشرشل وأخذها في الاعتبار، كما استطاع أن يقود المستشارين العسكريين ويتفهّم الفيشيين وأن ينفّذ إستراتيجيةً صبورةً سمحت للحلفاء أن يوظفوا قواتهم على أنواعها، البحرية والجوية والبرية بالإضافة إلى المخابرات العسكرية ما يسهّل الانتصار على أكثر الجيوش الألمانية تعصبًا. بالإضافة إلى ذلك ضمن أن يرفض ستالين عروضًا ألمانيةً محتملةً لأي هدنة، مع العلم أن الأميركيين آتون في نهاية المطاف ولن يقبلوا إلا «استسلام النازيين غير المشروط» حسب ما صرّح أف.دي.آر. في الدار البيضاء.

بحلول خريف ١٩٤٣، بدا أن الحرب قد خرجت من الظلمة التي كانت عليها في العام ١٩٤١ وذلك مع طرد السوفيات لجيوش هتلر نحو بروسيا، وسيطرة القوات الأنكلو- أميركية على المتوسط، وتقدّم الجنرال ماك آرثر في جزر سليمان. وأمر روزفلت بإعادة ستين طائرةً حربيةً بعيدة المدى من الهادئ إلى الأطلسي ما أدى إلى إغراق ثمانين غواصةً ألمانية وبالتالي أمر هتلر بسحب ما تبقى - ما ساهم بالتخلّص من خطر الغواصات الألمانية في الأطلسي - مع العلم أنه في ربيع ١٩٤٣، سببت حوالى مئتي غواصة ألمانية الدمار عبر إيقاف قوافل الحلفاء.

على صعيد آخر، حقق الإنتاج الحربي في أميركا أرقامًا قياسيةً جديدةً، فأصبحت أميركا تُنتج قاذفة بي ٢٤ كل ست وثلاثين دقيقة، وعشرات آلاف الدبابات وآلاف السفن ومئات آلاف المركبات من جميع الأنواع فباتت مخرجاتها أكبر من أي بلد محارب آخر. وفي خلال قمة عُقدت في طهران في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٣، ويا للغرابة، شرب ستالين نخب «الرئيس ونخب ما فعلته الولايات المتحدة للفوز بهذه الحرب». واستكمل الديكتاتور الروسي بتعجّب قائلاً: «إنّ أهم ما في هذه الحرب هي المعدات، وبينت الولايات المتحدة أنها قادرة على إنتاج عشرة آلاف طائرة في الشهر فيما روسيا تنتج ثلاثة آلاف. إنّ الولايات بلد يملك المعدات».

ويعدّ ذلك أعظم إنجاز لروزفلت. من جهة أخرى، لم يصدّق تشرشل إمكانية

تحقيق هذه العملية خوفًا من سفك دماء الإنكليز في القناة الإنكليزية. حتى أن الألمان رفضوا أن يبدأوا مهمةً مماثلةً في العام ١٩٤٠. في الواقع أدى اعتداء اليوم الواحد على دييبه في العام ١٩٤٢ إلى كارثة حقيقية (بحيث قُتل ما يزيد على ألف جندي كندي في بضع ساعات وأُسر ألفان) ما شكل ضربةً قاضيةً لهدفه الإستراتيجي ألا وهو أن يبرهن للروس أن الحلفاء جادون في الإعداد لاجتياح فرنسا عبر القنوات. بالإضافة إلى ذلك، عدّ مشروع تشرشل المفضل، أي إنزال برمائي في أنسيو قرب روما في كانون الثاني/يناير ١٩٤٤ كارثة أسوأ من الأولى لأنه أسفر عن مقتل تسعة وعشرين ألف ضحية أميركية وبريطانية على نحو مروّع من دون تحقيق أي غاية. من جهته، أظهر روزفلت قدرة صبر هائلة وإصدار الأحكام الحاسمة في الوقت المناسب وذلك عبر تخطّي قرار تشرشل والإصرار على ضرورة استكمال الحلفاء عملية أوفرلورد (معركة النورماندي). كذلك، قرر روزفلت أن يقود الجنرال أيزنهاور وليس الجنرال مارشال بدء عملية الاجتياح مبرهنًا من جديد عن موهبته في اختيار الأشخاص المناسبين.

بالتالي، شكل يوم السادس من حزيران/يونيو، يوم بدء العمليات، انتصارًا للرئيس روزفلت بصفته القائد العام للأركان. عندما أرسل تشرشل تلغرافًا إلى ستالين لإعلامه أن إنزالات يوم بدء العمليات ستبدأ في اليوم التالي، قال المارشال باستهزاء: «إن لم يكن هناك ضباب. لطالما كان هناك شيء يعيق العمل. أشك أن تتغير الحال غدًا، فربما يلتقون الألمان! ماذا لو التقوا بعض الألمان! عندئذ قد يتراجعون عن الإنزال ولن تكون هذه سوى وعود كالعادة»[1].

إلا أن الديكتاتور الروسي فوجىء وذُهل نتيجة ضراوة هجوم الحلفاء. فقد تم إنزال حوالى مئتي ألف جندي في النورماندي في يوم واحد بقوة هائلة في خضمّ هائج، وفي الأسابيع التالية، مد الحلفاء هذه القوات بمليوني جندي إضافي. فأثبت

(١) كتاب مارك أ. ستولر Mark A. Stoler ذو العنوان The Politics of the Second Front لدار النشر (Westport, CT: Greenwood Press عام ١٩٧٧، ص. ١٥٨.

الحلفاء أخيرًا أنهم بالإضافة إلى توفير الوسائل لمحاربة النازيين، يتمتعون بالإرادة والعزم والاحترافية العالية للمحاربة والانتصار. مثلت هذه العملية عبرةً استقاها الألمان والسوفيات.

في سياق آخر، استدعى روزفلت مجدّدًا، جايمس بايمز من المحكمة العليا وعيّنه لإدارة الشؤون الداخلية، وركّز على مهاراته السياسية الفريدة في نوعها في العمل مع حلفاء أميركا ووضع الخطط لعالم ما بعد الحرب. حكمًا تأثر واحدهما بالآخر، فيستذكر تشرشل ما جرى في قمة طهران «جلست والدب الروسي بقربي من جهة ومخالبه ممدودة، ومن جهة أخرى الجاموس الأميركي الهائل، وبينهما القرد البريطاني البسيط الذي وحده» على ما زعم تشرشل «يعرف الطريق الصحيح[1]».

ولكن، أكان فعلاً يعرف الطريق الصحيح؟ في الواقع، برهن تشرشل عن كونه شخصيةً تاريخيةً عندما وقفت بريطانيا وحدها في وجه النازية بعد سقوط فرنسا واقتناع روسيا بالاتفاق الألماني السوفياتي واستكمال الولايات المتحدة سياسة العزلة. إلا أن الحرب العالمية الثانية أطاحت هذه الصورة وبالتالي رؤية تشرشل إلى استعادة بريطانيا العظمة الاستعمارية في صلب إمبراطورية عالمية أزعجت روزفلت إلى حدّ كبير على الرغم من فصاحة تشرشل في التعبير عن رؤيته. وعندما اقترح ستالين ممازحًا، في طهران، قتل ٥٠٠٠٠ ضابط ألماني لدى انتهاء الحرب، ردّ روزفلت، أيضًا ممازحًا، واعترض قائلاً ٤٩٠٠٠ أفضل، فخرج تشرشل من الغرفة ولحقه كل من ستالين ومولوتوف مصرّين على أنها مجرّد نكتة[2]. فاعترض تشرشل قائلاً: «أفضّل أن أجرّ إلى الحديقة وأن أُقتل على أن ألطّخ سمعة بلدي بعار مماثل»، وهكذا ظهر بمظهر الإنسان العطوف، إلا أنه إنسان يبحث عن إحياء الماضي الاستعماري لا أن يقبل مستقبلاً خالياً من الاستعمار.

من جهة أخرى، انتُقد الرئيس روزفلت على سذاجته بالتعامل مع نظيره الروسي،

(١) المصدر السابق، ص. ١٥٠.
(٢) المصدر السابق.

إلا أنه كان يتمتع بنظرة مستقبلية إلى عالم ديمقراطي لا شيوعي أكثر من تشرشل. أما هذا الأخير فلم يكن مقتنعًا بمبدأ منظمة للأمم المتحدة أو أمم متحدة للوصاية تكون مسؤولةً عن تحضير الدول المُستعمَرة، في ظل جدول زمني محدد، للاستقلال. في هذا السياق، قال روزفلت لابنه إيليوت قي الدار البيضاء، إنّ النظام الاستعماري لم يكن مجحفًا فقط، بل أدّى تلقائيًا إلى المعارضة وإرهاب وحرب. «فاستغل موارد الهند وبورما وجاوا: خذ كل ما لدى هذه الدول من ثروات ولكن لا تستبدل أي شيء مما لديها مثل التعليم ومعايير العيش اللائق وأقل ما يمكن من المتطلبات الصحية لأنك بذلك تتسبب لنفسك بمشاكل تؤدّي إلى الحرب[١]». كان تشرشل لا يزال معترضًا على الحكم الذاتي للهند إلى درجة أن روزفلت قال لستالين في طهران: «من الأفضل أن لا نناقش مسألة استقلال هذا البلد مع تشرشل» نظرًا إلى آراء رئيس الوزراء المتشددة[٢]. كان رأي روزفلت مماثلاً بالنسبة إلى الاستعمار الفرنسي، في الواقع وفي ما يتعلق بالهند الصينية، وافق أف.دي.آر. تمامًا على رغبة ستالين في منع فرنسا من استعمارها من جديد معلنًا بوضوح أنه «بعد ١٠٠ سنة على حكم فرنسا، أصبح حال السكان أسوأ مما كان عليه»[٣].

تساءل أحد المؤرّخين البريطانيين الذي كان حاضرًا في خلال مؤتمر طهران بعد أربعين سنة ما إذا كان «قد خطر بذهن ستالين في أن روزفلت كان يتحدّث، بقصد أو عن غير قصد، عن عالم تسيطر عليه الديكتاتورية السوفياتية/الأميركية، ما سيُعرف لاحقًا «بالهيمنة»[٤]. أكانت الفكرة قد خطرت لستالين أم لا، من دون شك إن العديد من البريطانيين (والفرنسيين) فعلوا مع تصاعد مخاوف مما إذا كان بالإمكان لديكتاتورية مشتركة للسيطرة على العالم أن تكون فعالة من دون احتمال نشوب حرب بينهما بالنظر إلى نظامي الحكم المتعارضين.

(١) كتاب Brands ذو العنوان Traitor to His Class، ص. ٧٠١.
(٢) كتاب بوهلن Bohlen ذو العنوان Witness to History ص. ١٤٠.
(٣) كتاب Franklin Roosevelt: A Rendezvous with Destiny لفرانك فريدل Frank Freidel، ص.٤٨١.
(٤) كتاب The Turning Point لكيث سانسبوري Keith Sainsbury، ص. ٢٢٧.

كان روزفلت واعيًا تمامًا للشيوعية السوفياتية وستالين. ولكن أف.دي.آر. شعر أنه مجبر أقله على محاولة ضمان المشاركة الروسية في إنشاء عالم حر وديمقراطي بعد الحرب. ومن دون شك، لم يكن في وسع أي شخصية أميركية محاولة مراعاة ستالين بجاذبية وحس فكاهي ونية حسنة مثل روزفلت. وإن كان لا بد للعلاقات الأميركية السوفياتية أن تتدهور بعد الحرب بالنظر إلى نظام بولشفي قائم على الترويع والترهيب وعدم المبالاة بحياة الإنسان، إلا أن روزفلت كان مصممًا، في خلال عهده، على بذل قصارى جهده لجعل السيطرة المزدوجة فعالة، وذلك عبر ترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية للمرة الرابعة وهي سابقة في تاريخ الولايات المتحدة على الرغم من رداءة صحته وكان مصرًا على الفوز.

في ذلك الوقت، كانت يداه ترتجفان وهو يسكب الشاي، ولم يكن يمارس السباحة بعد، ونادرًا ما كان يقف لثقل السندين والجهد المرهق جداً للوقوف. كذلك، ظهر السواد تحت عينيه ما جعل وجهه الجميل يبدو منهكًا مع نظاراته الأنفية ذات العلامة التجارية المعروفة. وعلى الرغم من كل ذلك، أصرّ الرئيس في صيف ١٩٤٤ على أنه قادر على ترشيح نفسه. أخيرًا، رضخ لإصرار ابنته آنا وذهب إلى مستشفى بيثسدا للقوات البحرية لإجراء كشف طبي كامل، حيث تبيّن أنه يعاني فشل القلب الاحتقاني ما يسببّ فقدان اللون في وجهه وشفتيه وأظفاره. وإن لم يُعالج فلن يعيش أكثر من سنة.

وفجأةً، بدا الرئيس البالغ من العمر اثنين وستين عامًا وكأنه في الثانية والسبعين وما كان عليه طرح اسمه للانتخابات نظرًا إلى توقعات سير المرض. لكن، ومع كل ذلك، قيل للصحافة أن الرئيس بصحة جيدة. وفي تموز/يوليو ١٩٤٤ ، وبعد أن انتخب في الاقتراع الأول من خلال مؤتمر الحزب الديمقراطي، انطلق إلى هاواي للتوسط بين الجنرال ماك آرثر والأدميرال نيمتز بغية التوصل إلى وضع إستراتيجية تخص البحر الهادئ، خصوصًا وأنه تخلى عن نائبه هنري والاس غير المحبوب ليحل محلَه سيناتور ميسوري هاري س. ترومان.

في الواقع، من بين الذين رأوا الرئيس شخصيًا، قلة هم الذين ارتأوا أنه قادر على مواجهة مشقات حملة انتخابية. بعد المباحثات التي أجراها أف.دي.آر. على متن البارجة بالتيمور مع ماك آرثر، قال هذا الأخير لزوجته في السادس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٤: «سيموت في غضون ستة أشهر» فماك آرثر شعر حينئذ أنّ الرئيس «ظلال رجل بالمقارنة بما كان عليه»[١].

في الحقيقة كان روزفلت قد فقد تسعة عشر باوندًا وحين تكلّم مع عمال المرسى في ولاية واشنطن بعد وضع الأسناد للمرة الأولى منذ سنة، تلعثم وكاد كلامه ألا يفهم. حتى أنّ صحيفة واشنطن بوست كتبت: «سيبدو المشهد حزينًا جداً عندما يبدأ بتبادل الضربات مع ديوي الشاب» في إشارة إلى المرشح الجمهوري توماس أ. ديوي حاكم ولاية نيويورك[٢].

إلا أنّ الحملة ذاك الخريف كانت تمامًا عكس المتوقّع فقد استهزأ روزفلت بالحاكم الشاب «لتهجمه على كلبتي الصغيرة، فالا»، وذلك، في خلال توجهه إلى جمهور في واشنطن حيث أكمل كلامه قائلاً: «في الحقيقة، أنا لا أبغض المهاجمة ولا عائلتي تبغضها إلا أنّ فالا لا ترضى بها»[٣]. ولدى وجوده في نيويورك، في خلال حملته الانتخابية، ظهر الرئيس أمام ثلاثة ملايين شخص في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٤ في سيارة مفتوحة تابعة للبيت الأبيض وخطب أمام مئة وخمسة وعشرين ألف شخص موجودين في الملعب العسكري في شيكاغو (مع مئة وخمسين ألف شخص في الخارج) وفي النهاية توجه إلى بوسطن حيث حمّس فرانك سيناترا الجمهور. وهناك، وفي ملعب فنواي بارك ذكّر الرئيس الحاضرين بأنّ أميركا أمة مهاجرين وبأنه «من واجبنا أن نضمن ألا يكون هناك أي مجال للتمييز العنصري أو عدم التسامح الديني » أو حتى «التكبر»[٤] مهما اتسعت مساحة الأمة».

---

(١) كتاب FDR لـSmith، ص. ٦٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٦٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص. ٦٢٥.
(٤) المصدر السابق، ص. ٦٢٧.

وبعد ستة أشهر، أخرج الناخبون البريطانيون شريك روزفلت في التحالف الكبير ونستون تشرشل من رئاسة الوزراء. أما بالنسبة إلى أف.دي.آر. فبدا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤ أنّ شعبيته مازالت كما كانت عند انتخابه للمرة الأولى حيث فاز في العام ١٩٣٢ بفرق ثلاثة ملايين صوت، والآن حصد ٤٣٢ صوتًا انتخابيًا مقابل ٩٩ لديوي.

كان الرئيس يشعر بسعادة عارمة إلاّ أنّ صحته لم تكن جيّدة، فقد خسر الكثير من الوزن، وانقطعت شهيته وارتفع ضغط دمه أكثر من ذي قبل. في الواقع أخبرت فرانسيس بركينز في إثر زيارته لتهنئته بالفوز[1]: «بدا كأنه شخص مريض سُمح له برؤية الزوار الذين أطالوا الزيارة». وفي العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٤٥، ألقى الرئيس خطاب القسم الرابع في الجهة الجنوبية من البيت الأبيض أمام سبعة آلاف شخص أتوا ليستمعوا إليه على الرغم من الثلج. وكان هذا الخطاب الأخير له وهو على قدميه. في تلك الفترة، كان إحلال السلام قد أصبح قريبًا، سلام «عادل وكريم ودائم» تعمل أميركا على تحقيقه «فيما نسعى اليوم ونحارب للخروج منتصرين من الحرب». بالإضافة إلى ذلك، وعبر العمل لإحلال السلام أعلن الرئيس أنه «لا بدّ من أن نسعى إلى الكمال» وهو هدف قد لا يتحقق مباشرةً «ولكننا سنبذل قصارى جهدنا في هذا السبيل. وقد نرتكب الأخطاء، ولكن هذه الأخطاء يجب ألا تكون ناتجة من ضعفنا أو تخلينا عن مبادئنا الأخلاقية». كما أنه ذكّر الجمهور أن الدستور الأميركي لم يشكل الأداة الممتازة إلا أنه «أرضية صلبة تمكن كل إنسان مهما كان عرقه أو لونه أو عقيدته من بناء أسس متينة للديمقراطية»، هذه الديمقراطية التي سعى هو، بصفته الرئيس إلى حمايتها. واستكمل خطاب القسم مصرّحًا: «تعلّمت أنه ليس بإمكاننا أن نعيش وحدنا بسلام وأنّ رخاءنا يعتمد على رخاء أمم أخرى بعيدة عنا... وتعلمنا كيف نكون مواطنين عالميين». وهكذا اندثرت سياسة الانعزال.

بعد انقضاء يومين على هذا الخطاب، توجّه الرئيس العليل إلى مالطة ومن ثم إلى يالطا في البحر الأسود حيث كانت ستُعقد في الرابع من شباط/فبراير ١٩٤٥ تتمة لقمة طهران.

(١) كتاب The Roosevelt I Knew لفرانسيس بيركنز Frances Perkins، ص. ٣٩٣.

من جهة أخرى، لم يقدّم أي مؤتمر عقد في خلال الحرب العالمية الثانية حجة منحازة بقدر مؤتمر يالطا. أما الجمهوريون الذين تخلوا عن دورهم كحزب انعزاليّ خلال الحرب العالمية الثانية فقد كانوا ليؤكدوا أنّ القمة ليست سوى مساومة من قبل الرئيس المريض لمصلحة ستالين. في الواقع، زعم الجمهوريون أنّ مؤتمر يالطا شكل دعوة حقيقية للشيوعيين السوفيات المتشددين للقيام بما فشل هتلر في تحقيقه أي السيطرة على أوروبا ونقل عدوى عقائدهم الإيديولوجية[1] إلى العالم.

حينئذ لم يكن الرئيس بصحة جيّدة، بل كان يحتضر إما من مرض في القلب وإما من السرطان وإما من الاثنين معًا. حتى أنّ أرملة الرئيس ويلسون، السيدة إديث ويلسون قالت في خلال حفلة تنصيب روزفلت إنه «كان يبدو تمامًا مثلما بدا زوجي عندما تدهورت صحته»[2]. في الواقع، لم تكن الحرب قد انتهت بعد لا في أوروبا ولا في الشرق الأدنى وكان من المتوقع خسارة بين نصف مليون ومليون ضحية أميركية لإقناع اليابان بقبول الاستسلام غير المشروط، لذلك كان الرئيس عازمًا، لدى سقوط برلين، على الحصول على موافقة ستالين الرسمية للانضمام إلى الولايات المتحدة لكسح اليابان. ونضيف إلى ذلك أنه أراد استكمال آلية الأمم المتحدة لتكون خلفًا لعصبة الأمم فيما ستالين ما زال يؤيد الفكرة أما الباقي بالنسبة إلى الرئيس فكان مجرّد مبادلات.

في الواقع، مثّلت يالطا ساحة للمبادلات. فكان السوفيات قد احتلوا معظم بولندا ورفضوا دعم انتفاضة وارسو، فظهر جليًا أنهم يريدون تحويل البلد إلى منطقة عازلة ضدّ أي هجوم مستقبلي من الغرب مشابه لهجوم بارباروسا. بذلك تصبح بولندا جزءًا من الحزام السوفياتي الواقي الذي يحميها من ألمانيا أو من أي قوة غربية تسعى إلى اجتياح روسيا. وتعدّ هذه الوسيلة شكلاً من أشكال الانعزالية الناجمة عن الارتياب

(١) للحصول على مسح تاريخي ممتاز حول فرضيات عن "أخطاء الرئيس فرانكلين دي. روزفلت وسذاجته" ونقيضها راجع Mark Stoler كتاب World War II طبعة Robert D. Schulzberger المعنون A Companion to American Foreign Relations (Oxford: Blackwell, 2003) من ص. ١٨٨ إلى ٢١٤.

(٢) كتاب Smith ذو العنوان FDR، ص. ٦٢٩.

السوفياتي. وستميّز هذه السياسة العلاقات الروسية مع الغرب طوال نصف القرن المقبل تحت غطاء عدم التسبب بالإساءة.

أما روزفلت الذي كان على علم بكل ذلك، فبذل قصارى جهده في يالطا لجذب ستالين وتشجيعه من خلال مقاربة أقل سلبية للعالم في المستقبل. ولكن، لسوء الحظ لم يفلح. كذلك كان الرئيس لا يزال مصرًا على ضرورة التزام البريطانيين اتفاق الأطلسي والتخلي عن حلمهم بإنشاء جنتهم الاستعمارية بعد الحرب ما وضعه في المواجهة مع ونستون تشرشل.

لم يوفّر روزفلت أي جهد ممكن في خلال مؤتمر يالطا الذي عُقد على مدى ثمانية أيام، فتفادى القيام بأي خطوة في ما يخص بولندا مع العلم أنّه كان يدرك أنه يخفي الخطأ ووافق على إنشاء قواعد عسكرية سوفياتية في الشرق الأدنى وكل ذلك في سبيل جعل روسيا تدخل الحرب ضد اليابان وأيضًا لبناء حصن مشترك ضد انبعاث أي محاولة يابانية عسكرية في خلال سنوات ما بعد الحرب. إلا أنه اكتفى باحتلال أربع قوى لمناطق معينة في ألمانيا بما فيها برلين. كذلك، صمم إعلانًا مشتركاً عن أوروبا المُحرّرة واعدًا بانتخابات حرة «تمثل بشكل كبير كل العناصر الديمقراطية» مع العلم أنّ روسيا ستلغي كلمة «ديمقراطية» في الدول التي تحتلها بمفردها. ولكن الأهمّ من كل ذلك، أنه حصل على اتفاق بشأن إنشاء الأمم المتحدة مع عقد مؤتمر تمهيدي في سان فرانسيسكو في شهر نيسان/أبريل من السنة عينها.

فشعر الرئيس بالإحباط لدى عودته إلى أميركا على متن سفينة كوينسي التابعة للبحرية الأميركية. وفي الثاني عشر من شباط/فبراير ١٩٤٥، قابل الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود في البحيرات المرة في قناة السويس وحاول أن يتوصّل معه إلى اتفاق لإرسال عشرة آلاف لاجئ يهودي ليستقروا في فلسطين. إلا أن الملك رفض طلبه معتبرًا أن على اللاجئين أن يعودوا إلى الدول التي أتوا منها. كما أن الملك أجبر الرئيس على وعده أنه «لن يقوم بأي خطوة لمساعدة اليهود ضد العرب وأنه لن يقوم بأي عمل عدائي ضد الشعب العربي» مهما قال الكونغرس أو

الإعلام الأميركي. وقد ائتمن الرئيس وزير خارجيته إدوارد ستيتينسوس على ذلك لأن العرب واليهود يسيرون في طريق مؤدٍّ إلى التصادم، وأنه سيبذل قصارى جهده لتفادي نشوب أي حرب بينهما[١]. وفي طريق العودة إلى واشنطن قال أف.دي.آر. لأحد مساعديه: «لم أقل إن النتائج كانت جيدة، بل قلت إنني لم أوفّر جهدًا»[٢].

وفي الأول من آذار/مارس ١٩٤٥، ألقى الرئيس خطابه الأخير في خلال جلسة مشتركة في الكونغرس وسأل السيناتورات وأعضاء الكونغرس أن يعذروه على عدم وقوفه بالنظر إلى ثقل السندين، في الواقع تعد هذه المرة الأولى التي يذكر فيها إعاقته. وحسبما أشار أحد المؤرّخين: «تلعثم في كلامه، بح صوته وتردد وأضاع السطور أربع عشرة مرة» وظل يخرج عن النص[٣]. وقال المؤرّخ ممازحًا إنه أراد أن يفعل بساعة واحدة «ما فعله ونستون بساعتين» وأشار إلى سمعة روزفلت في كثرة السفر[٤]. أما عن جهوده التي بذلها في يالطا لضمان الحرية الديمقراطية في بولندا ودول أخرى في أوروبا فقال: «ما من خطة كاملة» إلا أنه أمل أن تشكل النتائج العامة للقمة «نهاية نظام التحرك الأحادي» أو الحروب الطائشة التي تشنها الدول ذات النزعة العسكرية حتى نهاية «موازين القوى الديكتاتورية وغيرها من الوسائل التي اختبرناها على مرّ قرون والتي فشلت» خصوصًا إن عملت الأمم المتحدة كما أملنا. من جهة أخرى نفى خبر صحته الرديئة وزعم أنها مجرّد «شائعات» لا تمت إلى الواقع بصلة نُشرت في غيابه.

مثّل هذا الخطاب أداءً شجاعًا. وبعد ستة أسابيع، كان قد سافر إلى وورم سبرينغز لاستعادة نشاطه، وفي ما هو يوقّع بعض الأوراق، شعر بصداع رهيب، فانحنى إلى الأمام ومات.

(١) كتاب Freidel ذو العنوان Franklin Roosevelt، ص. ٥٩٥.
(٢) كتاب Smith ذو العنوان FDR، ص. ٦٣٢.
(٣) كتاب إدوارد أم بينيت Edward M. Bennett ذو العنوان Franklin D. Roosevelt and the Search for Victory، ص. ١٦٦.
(٤) كتاب Freidel ذو العنوان Franklin Roosevelt، ص. ٥٩٧.

الجزء الثالث: حياته الخاصة

تربى أف.دي.آر. على يد أمٍّ ثرية ومتفانية ومتسلّطة بعض الشيء. وترعرع في ظروف مميزة كما قال هتلر إلا أنه كان ابنًا وحيدًا يشعر دائمًا بالوحدة. وكان يسعى من دون كلال إلى إرضاء والدته وفي الوقت عينه التخلّص من سيطرتها على حياته المادية والاجتماعية. فشكل هذان الأمران همه الأساسي في فترة تحوّله من شاب إلى رجل وتعرّفه إلى عدد من الفتيات المؤهلات للزواج في جامعة هارفرد. في الواقع كان يتصرّف كالفتيات في ما يتعلّق برغبته الملحّة في الزواج قبل التخرج، إلى حد أنه قد طلب يد ثلاث مراهقات في تلك الفترة.

إلا أن آليس سوير تعد أكثر قصص الحب جديةً وجمالاً في خلال حياته كطالب. كانت آليس ابنة رجل أعمال ثري وقد سحرته تمامًا[1]. إلا أن طبيبها كان قد أعلن أن حشاها أصغر من أن يحمل طفلاً، لذا صُدمت عندما أعلن فرانكلين أنه يريد إنجاب ستة أولاد (وصرّحت لاحقًا لإحدى صديقاتها: «لم أكن أرغب في أن أكون كالبقرة»)[2]. أكان بداعي الغضب أم النبل، راح أف.دي.آر. يخرج مع فتاة أخرى، كان يعرفها طوال حياته وهي ابنة عرابه إيليوت روزفلت. هي الفتاة المشهورة في العائلة لكونها متجملةً وطويلة جدًا (٥,١ أقدام)، قدماها كبيرتان وأسنانها بارزة وذقنها طويل. تعدّ كلمة عادية تعبيرًا ملطفًا لوصفها. وبالإضافة إلى كل ذلك، لم يكن لديها أي حسّ للنكتة وكانت قد تفرّغت لمساعدة الفقراء والأشخاص الأقل حظوةً بعد قضاء بضع سنوات في باريس في مدرسة خاصة للبنات تركز على النشاطات الثقافية والاجتماعية، تديرها الآنسة سوفستر وهي فتاة متزمتة شاذة جنسيًا تنتمي إلى اليسار. وكان عملها هذا يحررها من تطلعات طبقتها الاجتماعية المزيفة والصعبة التحقيق.

---

(١) الأخريان هما فرانسيس دانا Frances Dana حفيدة اتش دبليو لونغفيلو H.W. Longfellow ودوروثي كوينسي Dorothy Quincy وفقًا لكتاب Smith ذي العنوان FDR، ص. ٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٦.

لكن، وعلى الرغم من كل ذلك، وبفضل وفاة والديها، كانت إليانور روزفلت سترث الكثير من المال. وفوق كل ذلك، كان عمها (أخو والدها المتوفى) رئيس جمهورية الولايات المتحدة. من جهته، كان فرانكلين الذي لم يقبلها قبل الخطبة ولم يتخطَّ القبلة قبل الزواج، كان يصفها «بالملاك» في يومياته ويناديها «حبي» في خلال حديثه معها. وإن وضعنا مظهرها جانبًا، كان روزفلت فخورًا بخياره. وبعد مغادرته هارفرد، أصبح طويل القامة ووسيمًا وكان طموحًا جدًا في مجال السياسة. كانت إليانور مثقفة وحنونة ومطيعة ومناسبة تمامًا له. فهو أراد أن يكون محبوبًا من شخص غير والدته، وعندما تزوج بإليانور في العام ١٩٠٥ تحقق له ذلك. رُزقا ستة أولاد (توفي واحد منهم) وعاشا في منزل يعجّ بالخدم. ماذا يريد أكثر من ذلك؟

يمارس هواية الإبحار ورياضة المشي ولعبة الغولف. ويرتاد الحفلات باستمرار حيث كان الأطول ٦,٢ أقدام والأجمل والأذكى وصاحب أسرع بديهة وجاذبية خلابة، لدرجة أنّ إليانور أخبرت قريبتها إثيل «لن أستطيع أن أبقيه لنفسي، فهو جميل جدًّا»[١]. من ناحية أخرى، تعبت إليانور بعد إنجاب الولد السادس، إلا أنها لم ترفض ممارسة الجنس مع أنها، في العام ١٩١٦، طلبت الحصول على غرفة نومها الخاصة والنوم بشكل جيد في خلال الليل [٢]. ولكن تبيّن لها لاحقًا أن ما فعلته خاطئ من حيث المحافظة على متانة زواجها.

وفي العام ١٩١٨، سافر روزفلت في البحر إلى إنكلترا وفرنسا ليتفقد إمدادات البحرية الأميركية هناك ولرؤية قوات مشاة البحرية الأميركية في خلال المعارك في آخر سنة من الحرب العالمية الأولى. وفي طريق العودة أصيب بالأنفلونزا التي كانت وباءً عالميًا في ذلك الوقت فوصل على متن السفينة الكبيرة لوباثان وهو كان قد نجا بصعوبة من حمى مرتفعة جدًّا وضيق بالتنفس. في الوطن، كان قد تم إنذار إليانور عبر التلغرام، فلاقت السفينة في نيويورك ورتبت نقله في سيارة الإسعاف إلى منزل

(١) كتاب Franklin and Lucy للكاتب جوزف إي بيرزيكو Joseph E. Persico، ص. ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص. ٩٣.

سارة والدته الواقع شرقًا في الشارع رقم ٦٥. وفيما هي تفرغ حقائبه، وصلت إلى حقيبته الجلدية وفتحتها، فوجدت داخلها رسائل حبّ مزينة موجهة إلى روزفلت من سكرتيرتها السابقة، لوسي مرسر.

في الواقع، وفي العام ١٩١٧ ، طردت إليانور الآنسة مرسر ابنة السادسة والعشرين وذلك لأنها كانت مقربة جداً من فرانكلين. فعينها هذا الأخير ضابطًا في البحرية ومن ثم عينها في مكتب مساعد قائد البحرية. وهناك أيضًا طردها رئيس روزفلت السابق جوزيفوس دانيالز الذي كان يعرف أن الثرثرة في واشنطن تنتقل أسرع من أي مدينة أخرى. وعلى الرغم من كل هذا، ظلّ أف.دي.آر. يرى الآنسة الخلابة لوسي وساعدها ماديًا عندما خسرت عملها. أما بالنسبة إلى إليانور، فمثّل اكتشاف رسائل الحب هذه التي استمرت لوسي في إرسالها حتى في خلال وجود الرئيس في أوروبا إهانة أكبر من أن تتحمّلها.

في هذا السياق، كتبت إليانور لاحقًا «انقلب عالمي رأسًا على عقب». وأخبرت ابنتها آنا لاحقًا أنها «سألت» زوجها عن نياته وعما إذا كان مغرمًا بها، حتى أنها «عرضت عليه الطلاق، وطلبت إليه أن يفكّر مليًا قبل أن يعطيها ردًّا نهائيًا»(١).

وفي السياق عينه، كانت إليانور قد قالت سابقًا لصديقة تواجه المأزق عينه: «ألا تقبل مشاركة زوجها مع أحد»، إلا أنها في نهاية المطاف قد اضطرت إلى تقبل هذا الواقع لأنه لم يسبق لأحد في عائلة روزفلت أن طلّق. وحين سمعت سارة والدة أف.دي.آر. بنية ابنها الحصول على الطلاق، اعترضت اعتراضًا شديد اللهجة وقالت لابنها إنه لن يحصل منها على فلس ولن يرث سبرينغوود. كذلك قال له لويس هاو الأمر عينه ولكن بطريقة أكثر صراحةً. كذلك أنذره جوزيفوس أنه سيخسر عمله كمساعد لوزير البحرية الأميركية وستدمر حياته المهنية.

ولكن، تم تفادي الكارثة بفضل سارة وهاو. فكذب أف.دي.آر. على لوسي

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٤.

وقال لها إن إليانور لم توافق على الطلاق. إلا أن لوسي تعرف أف.دي.آر. جيدًا لأنهما بقيا معًا سنتين، وفهمت أنه مقدَر له أن يكون شخصيةً عظيمة، وعرفت أنه حتى لو قبلت إليانور الطلاق فسيؤدي ذلك إلى وضع حد لأي محاولة لجعله رئيسًا يومًا ما. فحررته من أي التزام تجاهها وعاد إلى زوجته، وبحلول صيف ١٩٢٠ كان أف.دي.آر. يطلق حملته بصفته مرشح الحزب الديمقراطي لمنصب نائب الرئيس، وكان يظهر للناس بمظهر الرجل السعيد بزواجه، وأب لخمسة أولاد.

من جهتها، اختارت لوسي مرسر أن تختفي من الصورة، فقلدت والدة فرانكلين عبر زواجها بونتي روثفورد وهو رجل فاحش الثراء يكبرها بضعف سنها، وإنجابها منه طفلاً واحدًا. واستمرت بمراسلة أف.دي.آر. بصفته «صديقاً» ولكنها لم تفسح في المجال لظهور علاقتهما إلى العلن في خلال حياتها.

في المقابل، ونتيجةً لهذه الخيانة، لم تعد إليانور مقتنعةً أنَ أف.دي.آر. يمكن أن يكون شخصيةً عظيمةً ولم تقدر أيضًا على مسامحته على حبه للوسي، لأن جمال هذه الأخيرة جعلها تشعر (وتعاني) تمامًا كما كانت تشعر في خلال طفولتها أي إنها بشعة وغير مرغوب فيها، حتى أنها اعترفت[1] لاحقًا قائلةً: «لدي ذاكرة كذاكرة الفيل، بالتالي يمكنني أن أسامح ولكن لا أنسى أبدًا.» فقامت إليانور بزيارة مقابر روك كريك وجلست أمام تمثال القدّيس غودن لكلوفر آدامز التي انتحرت بسبب خيانة زوجها[2]. وفقدت الكثير من الوزن وكانت تتقيّأ كثيرًا لدرجة أنَ الأسيد سبب تباعد أسنانها بعضها عن بعض ونتوءها أكثر من ذي قبل[3]. وكانت في الماضي قد أعلنت إيمانها بمستقبله اللامع، أما الآن فهي لا تبالي البتة. وحين رشّح آل سميث حاكم نيويورك نفسه للرئاسة في العام ١٩٢٨، ورشّح فرانكلين نفسه ليكون حاكم نيويورك مكان سميث، عملت إليانور لمصلحة سميث لا لمصلحة روزفلت، وقالت

(١) المصدر السابق، ص.١٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٣١.
(٣) المصدر السابق.

لأحد الأصدقاء في هذا الصدد: «تكتسي انتخابات الحاكم سميث أهميةً فيما إذا فاز روزفلت وأمضى سنتين في ألباني أم لا، لا يساوي ذلك شيئًا من حيث الأهمية». وحين خسر سميث وفاز روزفلت، شعرت بحزن عميق وقالت لأحد الصحافيين باستهزاء: «لا آبه، فما أهمية هذا بالنسبة إلي؟»[1]

جاء ردّ إليانور غير المتسامح على خيانة أف.دي.آر. ليحول زواجهما إلى مجرّد طريقة ملائمة لتمضية الوقت. وقد اعتنت به وحدها عندما أصيب بشلل الأطفال ولكن من باب الإحسان والواجب، ولكن في أعماقها كانت تعتبر المرض نتيجةً عادلة لأفعاله. وعندما بدأ يذهب إلى وورم سبرينغز لبناء مركز العناية بالمصابين بشلل الأطفال الذي يستقبل كل الناس من مختلف الخلفيات، لم تكن ترافقه. حتى أنها تجاهلت الإشاعات التي تسري حول وجود «عشيقات» له هناك. من بين هؤلاء العشيقات (الآنسة) مارغريت لوهاند التي كانت تعمل معه في خلال الحملة الانتخابية وأصبحت فيما بعد مساعدته وعشيقته. كانت شابة مفعمة بالحياة، إلا أنها ليست جميلة ولا تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، وقبلتها إليانور زوجةً بديلةً لزوجها. أما في ما يتعلّق بالجنس، فقالت إليانور لابنتها: «إنه أمر يصعب تحمّله» حتى أنها كانت سعيدة بأن يمارس زوجها الجنس مع الفتاة الفرنسية بعد إصابته بالشلل (لم تتأثر قدرته على ممارسة الجنس بالشلل الذي أصاب القسم السفلي من ضلوعه)، إن كان هذا ما يريده لأنها هي لم تكن تريد ممارسة الجنس معه[2]. كل ما أرادته وأصرّت عليه هو المحافظة على الكتمان (كتبت إليانور لأف.دي.آر. في ربيع عام ١٩٢٤: «لم أقل لسارة إنّ الآنسة قد عادت فهي ستكون مرتاحةً إذا لم تدر بهذه الأمور»)، في الوقت الذي كانت هي تعدّ مسيرتها المهنية كناشطة في قضايا اجتماعية.[3]

ومع أنّ أف.دي.آر. كان قد وعد إليانور ألا يرى لوسي مجددًا، إلا أن هذا الوعد كان صعب التحقيق بالنسبة إليه وإلى لوسي. وتبين مع الوقت أن زوج لوسي يغار من

(١) المصدر السابق، ص. ١٨٤.
(٢) كتاب FDR لـ Smith، ص. ١٥٠.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٠٧.

أف.دي.آر. أكثر مما تغار إليانور عليه فأبقى كل من فرانكلين ولوسي مراسلاتهما سريةً في خلال العشرينيات والثلاثينيات. ولكن في العام ١٩٣٧ تدهورت صحة زوجها في منتصف تسعينياته وأصبح يتطلب رعايةً طوال الساعة فأعاد العاشقان إحياء علاقتهما شخصيًا. وفي العام ١٩٣٥، اقترح أف.دي.آر. على الكاتب فولتون أورسلر تأليف سلسلة مقالات يكتبها روائيو القصص البوليسية ويكون موضوعها كيف يمكن لرجل ثري «ومتزوج منذ عشرين سنة» من امرأة «تضجره» وقد سئم من «فراغ الصداقات المحيطة به» أن يجد طريقةً للهرب «من أجل بدء حياة سرية في قرية صغيرة حيث يمكنه أن يهرب من ماضيه». كان عنوان السلسلة «قصة الرئيس السرّية». وافق أورسلر وحصل الرئيس في المقابل على تسعة آلاف دولار (قدمها الرئيس إلى مؤسسته التي تُعنى بشلل الأطفال).

أما الرئيس فوجد لنفسه الحل السري: يؤخذ الرئيس بالسيارة إلى شارع كيو في جورج تاون، يُصعد لوسي معه (كانت ابنة أخت لوسي تصرخ «انظروا إلى الشباك، أتى الرئيس روزفلت ليأخذ الخالة لوسي!») ويذهبان في جولة في متنزه روك غريك بارك[1]. وفي العام ١٩٤٠، حضرت لوسي حفلة تنصيب روزفلت الثالث بصفتها ضيفته وعندما تعرّض زوجها لسكتة دماغية في العام ١٩٤١، التقاها الرئيس في الشوارع الضيقة في ريف فرجينيا. (كان يقول لسائقه «يبدو أن هناك آنسة تنتظر على الطريق دعنا نسألها إن كانت تحتاج إلى من يوصلها»)[2].

وفي الخامس من حزيران/يونيو ١٩٤١، زارت لوسي الرئيس للمرة الأولى باسم السيدة بول جونسون في مكتبه الرسمي في البيت الأبيض، في الوقت الذي كانت إليانور في هايد بارك حيث كان لديها منزلها الخاص، ستون كوتاج (كوخ من الصخر) أو فال كيل[3].

لطالما استمتع أف.دي.آر. بشعور الحماسة الذي تخلفه ممارسة الخدع، بالنظر

(١) كتاب Franklin and Lucy للكاتب جوزف إي بيرزيكو Joseph E. Persico، ص. ٢٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٤٩.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٥٠.

إلى طبيعته المغامرة. وقد أشاع بعضهم أنّ زيارة لوسي إلى البيت الأبيض سببت لميسي لوهاند في الرابع من حزيران/يونيو ١٩٤١ السكتة الدماغية الأولى التي أدت إلى إصابتها بالإعاقة، بعد أن أصبحت متملكة تجاه أف.دي.آر. لكونها الآن عشيقته ومساعدته ومدبّرة أموره. إن كان ذلك صحيحًا، فإنّ أف.دي.آر لم يشعر بأي ذنب. فلم يكتف برؤية لوسي في مكتبه في السادس من حزيران/يونيو بل ظل يراها إما في البيت الأبيض وإما في هايد بارك وإما في منزلها في ألاموشي وإما في وورم سبرينغ، إلى درجة أنّ أحد كتاب السيرة في البيت الأبيض كتب معلقًا: «أدى رحيل إليانور ومجيء لوسي إلى مهزلة في غرفة الفرنسية»[1].

في العام ١٩٤٤ توفي زوج لوسي، وأصبحت هذه الأخيرة تخشى أن تكون مصدر عبء على الرئيس من خلال اللقاءات السرية. فكتبت له في إحدى الرسائل: «من الأفضل لهذا النوع من الرسائل أن يبقى في الذهن ولا يُكتب، أو يُرسل، فيا حبيبي إنها الجريمة[2] أن أرسل إليك ما يُشغلك ويقلقك» وعلى الرغم من ذلك، أرسلتها مع علمها بمدى شعوره بالوحدة في «مقبرة» البيت الأبيض وبأنّ علاقة حبهما سمحت له أن يتخيّل مع شعور بالحنين «منزلاً صغيرًا» تملؤه «السعادة» حيث يمكنه أن «يزرع الخضر والزهور». وقالت له أيضًا في الرسالة: « أعلم أن علي أن أكون فخورةً جدًّا بعظمتك بدل أن أتمنى لك حياةً هادئةً وسعيدة بعيدًا عن العالم».[3]

من جهة أخرى، ضم أف.دي.آر. ابنته آنا إلى اللعبة وهكذا استطاع أن يرى لوسي مرارًا وتكرارًا حتى أنه رآها في عقار برنارد باروش في هوب كاو في كارولاينا الشمالية في نيسان/أبريل ١٩٤٤ قبل يوم بدء العمليات، وأخذها في تموز/يوليو إلى شانغريلا في ميرلاند وهو مخيم صيفي في جبال كوتاكتين (أصبحت تُعرف لاحقًا بكامب دايفد) على بعد خمسة وسبعين ميلاً من واشنطن. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٤، مهد لها للبقاء في وورم سبرينغ مرةً جديدةً والعيش كزوج وزوجة في ما

(١) المصدر السابق، ص. ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٦٤.

يشكل مصغَّرًا عن البيت الأبيض. وفي خلال ذهابهما إلى دودويل كنوب ائتمنها على «المشاكل الحقيقية التي يواجهها العالم» وعلى نيته التقاء ستالين وتشرشل آملاً أن يجعل روسيا تدخل الحرب ضد اليابان، وهذه الأمور ما كان يستطيع أن يتقاسمها مع إليانور التي ما كانت لتسمعه بل لتحاول فرض رأيها على ما قالت ابنة[1] أف.دي.آر.: «لم تكن أمي قادرةً على إعطائه هذا فقط أي الإصغاء».

كتبت دايزي سوكلي، وهي ضيفة دائمة في يومياتها، كم كانت لوسي قلقة بشأن صحة الرئيس: «هي لطالما كانت قلقةً بشأن صحته وشعرت لسنوات أنه كان وحيدًا جدًّا...وصلنا إلى حدّ الإجهاش في البكاء كل على كتف الأخرى وتبادلنا القبل. أظن أننا وصلنا إلى هذه المرحلة لأن كلتينا تشعر بالامتنان لأن الثانية تتفهم الأولى ولأننا أردنا مساعدة فرانكلين»[2].

لسوء الحظ، لم تكن هذه حال إليانور التي أمضت أيامًا قليلة مع أف.دي.آر. في آخر سنتين من حياته. في الواقع أظهر أف.دي.آر. محبة كبيرة للذين يحيطون به بدءاً بقادة عالميين وصولاً إلى خادمته السوداء في وورم سبرينغ. وُلد أف.دي.آر. في عائلة أريستقراطية إلا أنه تحوّل إلى رجل من الشعب. في هذا المجال، صرّحت دايزي أن خادمته ليزي ماك دافي كانت[3]: «تُخبر القصص والنكت من دون توقف وتتصرف معه بارتياح ومرح حتى أنها في إحدى المناسبات وخزته في كتفه لتعبّر عن وجة نظرها، وبعد كل ذلك تستعيد مكانها كخادمة».

بعد تدهور صحته، لم يعد أف.دي.آر. يلجأ إلى الألاعيب فاصطحب لوسي معه في قطاره الخاص لدى عودته إلى واشنطن في كانون الأول/ديسمبر وأخذها إلى هايد بارك في كانون الثاني/يناير قبل حفلة تنصيبه الرابعة. وبعد مؤتمر يالطا نادراً ما كانا يفترقان. أما من ناحيتها آنا، فهي لم تجد أي دافع أخلاقي يمنع هذه العلاقة نظرًا إلى احتضار والدها: « فالأوقات التي كانا يلتقيان فيها كانت أوقاتًا مفعمة

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٥.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣١٦.

(٣) المصدر السابق.

بالسعادة والفرح توفر ساعات استرخاء ضرورية للأب والقائد العالمي المحبوب في أوقات الأزمة»[١].

وفي وورم سبرينغ تحمس الرئيس لاقتراب موعد وصول لوسي يوم التاسع من نيسان/أبريل ١٩٤٥، إلى درجة أنه طلب إلى سائقه أن يقود مسافة ثمانين ميلاً إلى مايكون في جورجيا ليلاقيها في طريق العودة من منزل ريدجلي هول الواقع في آيكان في كارولاينا الجنوبية. فالتقيا أخيرًا في مانشستر وتخليا عن السيدة شوماتوف التي كان يفترض أن ترسمه والتي أكملت الرحلة بمفردها، فيما جعل روزفلت لوسي تجلس، بكل سرور، بالقرب منه في المقعد الخلفي من سيارته. وفي الليلة التالية أصرّ على إيصال لوسي برفقة فالا بنفسه بسيارته التي يتم التحكّم فيها باليد إلى دودويل كنوب لمشاهدة غروب الشمس. وفي اليوم التالي قاد لساعتين مع لوسي ودايزي ساكلي والكلبة. وأشارت دايزي في يومياتها عن هذه الليلة: «كانت لوسي لطيفة جدًا مع فرانكلين، ولا عجب أنه يسعد باصطحابها ففي نهاية الرحلة بدأ الطقس يبرد فنزعت سترتها ووضعتها على ركبتيه»[٢].

كانت هذه الرحلة الأخيرة للرئيس. في اليوم التالي أشرف على بعض الأوراق الحكومية ثم هاتف واشنطن ليتيقن أنّه سيحصل على طابع يحمل ختم أول مؤتمر للأمم المتحدة حيث كان يفترض أن يلقي خطابًا في الخامس والعشرين من نيسان/ أبريل. وعند الساعة الثانية عشرة جلس لكي ترسمه السيدة شوماتوف في حين كانت لوسي بالقرب منه تتحدّث مع دايزي بشأن حفلة الشواء التي كان يفترض أن تُقام تلك الليلة التي انطفأ فيها. على الرغم من تعبه الشديد كان سعيدًا، وكانت هذه اللحظات الأخيرة السعيدة لحقبة انتهت بعد بضع ساعات عند الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة. في هذه الساعة أُعلنت وفاة فرعون القرن العشرين الحكيم. بعد ذلك، اختفت لوسي التي طالما كانت كتومة في ظلمة استمرّت لعقود.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٣٥.

الفصل الثاني

هاري س. ترومان

الذي بلغ في مرحلةٍ لاحقة مستوى العظمة

ديمقراطي

الرئيس الثالث والثلاثون

(١٢ نيسان/أبريل ١٩٤٥ – ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٥٣)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد هاري س. ترومان في الثامن من أيار/مايو من العام ١٨٨٤، في لامار بولاية ميسوري، وهو الابن البكر لمزارع وتاجر في بورصة المواشي (لم تُكتَب النقطة من بعد حرف السين في شهادة ولادة ترومان. ويُقال إنه اقتُبس من اسم جده، سو يونغ، الذي كان متعاطفًا مع الكونفدرالية).

كان ترومان يعاني عاهة في مقلتيه. وقد اعترف في وقت لاحق بأنه كان «أعمًى كالخفافيش في ضوء النهار»[1] من دون نظاراتٍ سميكة. كانت والدته تعشقه فلم يرتد المدرسة قبل سن الثامنة. وعندما أصبح في العاشرة من عمره أصيب بشللٍ في الجانب الأيمن من جسمه بسبب مرض الخناق، فعجز عن السير طوال فترةٍ من الزمن. وكانت والدته التي انحدرت من عائلة ملاّكي أراض ثرية، مقتنعةً بأن ابنها كان معجزةً لكثرة الكتب التي كان يقرؤها (كتب تاريخ وسير حياة وشعر)، ولذلك أصرت على الانتقال من لامار للعيش في مدينة إنديبياندس حيث كانت المدارس ذات مستوى أفضل. تكفّلت والدة ترومان بتكاليف دروس البيانو طوال مرحلة الثانوية، محاولةً أن تقنعه بأنه قادرٌ على بناء مسيرة مهنية في الموسيقى. وعندما خسر والده كل أملاكه في العام ١٩٠٢ وأعلن إفلاسه بشكلٍ رسمي، ولم يعد يملك المال الكافي ليلتحق ترومان بالجامعة، التحق بعد ذلك بصفوف مسائية في القانون غير أنه لم يتخرج يومًا. وقد قال بمزاحٍ في وقتٍ لاحق: «منذ نعومة أظفاري كان أمامي خياران، إما أن أكون عازف بيانو في بيت دعارة وإما رجل سياسة» – مضيفًا أن الفرق بين الاثنين كان ضئيلاً.

وفي الواقع، كانت قراءات ترومان الأولى لأعمال المؤرّخين الرومان، من سيرة

(١) كتاب Truman لـ David McCullough، ص. ٤١.

حياة يوليوس قيصر حتى سيرتي بلوتارخ وتاسيتوس، قد دفعته إلى السعي إلى الحصول على وظيفة في الجيش. غير أن طلبه للالتحاق بأكاديمية ويست بوينت العسكرية رُفض بسبب إصابته بعاهة بصرية.

بغية المساهمة في إعالة عائلته، تعلم ترومان المبادئ الأساسية لمسك الحسابات وعمل لحساب محطة القطار المحلية حيث تعلم «كل الشتائم في اللغة الإنكليزية إراديًا وليس عن طريق الخطأ وأتقنها»[١]. وبعد أن انتقل ترومان للعمل في مصرفٍ انضمّ أخيرًا إلى والده وشقيقه في العام ١٩٠٦ للعمل في مزرعة عمّه قرب غراند فيو في مقاطعة جاكسون، التي افتقرت إلى أدنى متطلبات الإمدادات الصحية والكهرباء. غادر شقيق ترومان المزرعة ليؤسس عائلة فيما بقي هو فيها طوال عقدٍ كاملٍ مع والده العنيد وقليل الكلام الذي كان يصرخ من أسفل السلالم في الخامسة صباحًا ليوقظه قبل التوجه إلى العمل في الحقول.

أمضى ترومان سنوات رشده الأولى يحرث الأرض ويعلف الخنازير والمواشي ويحصد القمح ويقشر الذرة ويتولّى حسابات المزرعة. «كنا دائمًا مدينين للمصرف، تارةً بمبالغ كبيرة وتارةً بمبالغ أقل، ولكننا كنا دائمًا مدنيين للمصرف».[٢]

في غضون ذلك، ورغم مشاكله البصرية، قدم ترومان طلب الانتساب إلى حرس ميسوري الوطني في العام ١٩٠٥ بصفة ملازم في المدفعية الميدانية ليحقق حلم طفولته. فحينئذ ذُعرت جدته التي دمر الجيش الاتحادي ممتلكاتها بسبب انحيازها إلى الكونفدرالية في كنتاكي. وعندما رأته واقفًا بفخرٍ مرتديًا بزته الزرقاء، صرخت بوجهه قائلةً: «هاري، هذه أول مرة من العام ١٨٦٣ يكون في المنزل بزة زرقاء. لا تدخلها البيت مجددًا!»[٣] (لم يدخلها منذ ذلك الحين).

تعلم ترومان من خلال العمل في الزراعة التعامل مع والده المتطلب وسط عملٍ

(١) كتاب ألونزو أم. هامبي Alonzo M. Hamby ذو العنوان Man of the People، ص. ١٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٧.
(٣) كتاب Autobiography of Harry S. Truman طبعة Robert H. Ferrell، ص. ٢٩.

لم يناسبه قط. لكن أقله كان بمنأى عن إغراءات المدينة عندما كان في العشرينيات من عمره وعرف قيمة العمل الشاق وقدّر المرح والتوتر والولاء للأسرة القريبة بعضها من بعض. وفوق كل ذلك، علم ترومان نفسه على التأقلم مع أبناء الريف الأقل ذكاءً وطموحًا ولكن ليس أقل حكمةً. وترسّخت رؤيته إلى الديمقراطية – الديمقراطية الأميركية – في الحقول وقد اختلفت تماماً عن رؤية سلفه في الرئاسة وزميله في الحزب أف.دي.آر. وأسِف ترومان لأنّ الولايات المتحدة لم تمنع الهجرة إلى أميركا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، لذلك قال: «لكنّا بقينا موطنًا ريفيًا إلى الأبد. فعندما تملؤه المصانع والمدن الكبرى سينتشر فيه الكساد وسينقسم الشعب إلى فئات.»[١] ولسخرية القدر، ساهمت هذه المدن الأميركية المتنامية في انتخابه لاحقًا بعد أن أظهرت كل استطلاعات الرأي أنه كان سيُهزم.

بعد خوض أربع سنوات من الدعاوى القضائية المتعلقة بوصية جدته (التي أعطت عائلة ترومان التي كانت لا تزال تعاني شبه الإفلاس مساحة ٥١٨ فدانًا من أرضها القيمة ولكنها أشعلت الصراع العائلي)، تبدلت مشاعر ترومان بالحنين خصوصاً بعد أن رأى عمته المسنّة «تبوح بالحقيقة مقابل بضعة فلوس». لم تنتهِ هذه الدعاوى إلا بعد وفاة العمّة وبعد عقد تسوية أو الأحرى معاهدة سلام عائلية. وقد أدت هذه الدعاوى القضائية إلى جانب دعوى رُفعت أمام المحكمة العليا بشأن أرضٍ قاحلة تمتد على بضع مئات الفدادين في ولايةٍ أخرى، إلى التقليل من اهتمام ترومان بالأرض، ذاكرًا في العام ١٩١٤ أنه «لا يمكن لأي رجل أن يكون نافعًا بأي شكل إذا عمل في الزراعة». وبحلول العام ١٩١٧، ورغم تجاوزه سن التجنيد، صار ترومان مستعدًا ليقدم من جديد طلب الانتساب إلى الحرس الوطني، وإذا أمكن ليخدم في الخارج[٢].

نجح ترومان عبر الغش في اختبار النظر، لينضمّ إلى فوج المدفعية الميداني

(١) كتاب Man of the People لـ Hamby، ص. ٣٠.

(٢) كتاب Dear Bess: The Letters from Harry to Bess Truman 1910-1959 طبعة Robert H. Ferrell، ص. ١٦٧.

الثاني في ميسوري، حيث كان الجنود ينتخبون ضبّاطهم. وسرعان ما أصبحت تُعرف بالوحدة الفدرالية المئة والتاسعة والعشرين. وفي خلال التمرين، صادق ترومان زميلاً متطوعًا يدعى جايمس بندرجاست، وهو كان عمّه، توم بندرجاست، «الزعيم» السياسي في كنساس سيتي. تولّى ترومان أيضًا إدارة مطعم للجنود يقدم طعامًا بأسعارٍ زهيدة ليكسب مالاً إضافيًا بمساعدة معاونه اليهودي إدي جاكوبسون الذي سيؤثر لاحقًا في مستقبله.

بعد فترة وجيزة، حصل ترومان على ترقية ليصبح ضابطًا في المدفعية. وفي خريف العام ١٩١٨ شاركت مدفعيته في عدد من المعارك لدعم قوات المشاة في شمال شرقي فرنسا ضد القوات الألمانية. ونظرًا إلى صموده وسط إطلاق النيران كسب ترومان سمعةً ممتازةً واستحسانًا رسميًا، ساعداه في ما بعد إلى حدّ كبير لدى سعيه ليشغل منصبًا سياسيًا. وفي خلال هذه المرحلة، عاش حالة غضبٍ تجاه ابتزاز الفرنسيين المعنوي، ما ولّد لديه صراعاً داخليًا ضد الجشع البشري، وقد قال في هذا السياق: «يفضل هذا الشعب الفلوس على وطنه وهو يحاول أن يسلبنا إياها قدر المستطاع»[١].

وعقب معاهدة تشرين الثاني/ نوفمبر العام ١٩١٨، تمت توصية ترومان ليشغل منصب رائدٍ في الجيش الأميركي العادي، ما كان سيسمح له أن يخدم مع كل الضباط العظماء، من أيزنهاور مرورًا بماك آرثر وبرادلي ومارشال وصولاً إلى ريدجواي، الذين كان سيترأسهم في وقت لاحق بشغل منصب قائدٍ للقوات المسلحة الأميركية. غير أنّ ترومان رفض هذه الفرصة وأسس محلاً للخردوات مع إدي جاكوبسون في كنساس سيتي في ولاية ميسوري.

ولكن محل «ترومان وجاكوبسون» فشل. ومع ذلك، تعلم ترومان الكثير من هذه التجربة، كالتعامل بلباقة مع الزبائن المتطلبين وبهدوء مع الأمور المتعثرة. وعند غرقه في الديون التي ستتطلب عقدًا كاملاً لتسديدها (ويُذكر هنا أنه رفض إعلان

(١) رسالة الثاني من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٨، المصدر السابق، ص. ٢٧٥.

إفلاسه)، أُجبر ترومان على مواجهة الواقع المرّ. فقد كان يشبه القارب الصغير الذي يتخبط وحده وسط الأمواج العاتية. وإذا أراد الضابط السابق في المدفعية الفوز بمنصب مُنتخب كما تمنى، لم يكن بحاجة إلى دعم زملائه فحسب (يُشار إلى أنه أصبح ضابط احتياط قبل أن يترقى ليصبح عقيدًا لفوج المدفعية الميداني الثلاث مئة والواحد والثمانين) بل إلى راعٍ» اقتصادي وسياسي أيضًا.

في العام ١٩٢٢، كان والد الشاب جيم بندرجاست، مايك بندرجاست، أول من اقترح على ترومان الترشح لمنصب قاضي مقاطعة جاكسون الشرقية في ولاية ميسوري. (كان يُنسب لقب «قاضٍ» إلى حاكم مقاطعة معينة مسؤول عن تعيين أكثرية موظفي الدولة والإشراف على أمور المالية من خلال عائدات الضرائب الخاصة بالمقاطعة). وبـ«مساعدة» «زعيم» كنساس سيتي، «فاز» ترومان في انتخابات الحزب الديمقراطي وبمنصب قاضي المقاطعة على الرغم من أنه كان خطيبًا رائعاً.

كان «جهاز» السياسة ونظام «الزعامة» أشبه بالمافيا في المدن الكبرى في الولايات المتحدة. وبضمان فوز مرشحيها من خلال الترهيب والاحتيال في التصويت والاقتراع، كان النظام الانتخابي بمنزلة صفقة شيطانية للذين طمحوا إلى توسيع نطاقهم خارج المجتمع المحلي. وبقبوله هذا النوع من المساعدة، أصبح اسم السياسي المستقبلي موصومًا. غير أنه لم يكن أمامه خيارٌ آخر، إذ استحال على رجلٍ يتحدّر من مدينة إنديباندس وكان يعمل بائعًا في السابق ويفتقر إلى المال والجاذبية والقدرة الخطابية ويعاني عاهة بصرية، تسلّق السلم الانتخابي بطريقة أخرى. مفتقرًا إلى دعم بندرجاست، خسر ترومان الدورة الانتخابية الثانية لمنصب قاضي المقاطعة الشرقية في العام ١٩٢٤ فتبع الماسونية إلى أقصى حدّ وأصبح أمين سرّ العضوية في شركة السيارات أوتو كلوب في كنساس سيتي في العام ١٩٢٥. أما في العام ١٩٢٦ فخسر ترومان المزيد من الأموال بعد أن تولى زمام الأمور في مصرف سيتيزنز كوميونيتي (الذي أفلس). وحالفه الحظ ثانيةً عندما تولى توم بندرجاست (الذي كان قد صار «زعيم الزعماء» في السياسة في مدينة كنزاس سيتي) رعايته من جديد ليصبح ترومان رئيس قضاة المنطقة أجمع في خريف العام ١٩٢٦.

بدا ترومان شخصًا غير قابل للفساد إذ لم يقبل أية عمولة غير شرعية اشتهر بندرجاست بأخذها من العقود العامة الكبرى، متسائلاً في مذكراته «هل أنا أحمق أم عملاق أخلاقي؟»، أمام استنكار الصحف لولائه لمحرك دمى سياسي فاسد.(١) وخشيةً من أن يرسل قرّاء الصحف هدايا مسمّمة إلى عائلته، منع ترومان أفرادها من تناول أي شيء يصل إلى عتبة بيتهم. ولكن ترومان كان مجرد نكرة في مجال السياسة من دون بندرجاست؛ وبالفعل لم يقم بزيارة عاصمة البلاد إلا في الرابعة والأربعين من عمره. وانضم ترومان إلى عدد من الجمعيات بغية اكتساب شعبية أكبر، غير أنه من دون أي دعم مالي وتنظيمي لتفاصيل الحملة الانتخابية، يبقى ترومان مرهونًا لبندرجاست.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ميسوري قد وقفت على الحياد من طرفي الحرب الأهلية الأميركية، غير أنها انحازت رسميًا إلى الجيش الشمالي. فقد كان سكانها المؤلفون من الإسكتلنديين والإيرلنديين والألمان واليهود وذوي العرق الأسود صارمين ومتحفظين اجتماعيًا ومعزولين عنصريًا وفي العشرينيات كانوا منقسمين بين أميركيين ريفيين وحضريين. وفي هذه المرحلة أصبحت جماعة الكو كلاكس كلان (KKK) ناشطة وانتشر رجال العصابات والمرابون في كنساس سيتي وفي سان لويس. على صعيد آخر، تميز ترومان من بقية القادة السياسيين في الدولة، فبصفته قاضيًا، كان يكبح طمع المقاولين في ميزانية صارمة فيما كانت مصالحه الأدبية والثقافية تحثه على توفير خدماتٍ أفضل لمجتمعه، كالطرق والمدارس والمكتبات وقاعات الحفلات الموسيقية. وعندما ضرب الكساد الكبير ولاية ميسوري، لم يتردد ترومان في ترويج برامج ضخمة للأشغال العامة، من خلال جذب الاستثمارات العامة في الوقت المناسب ضمن الميزانية من أجل توفير فرص عمل شاملة. وعلى الرغم من حدة الإجرام والفساد في كنساس سيتي بشكلٍ خاص، أعيد انتخاب ترومان مرتين على التوالي لمنصب رئيس قضاة المقاطعات.

(١) كتاب Man of the People لـ Hamby ص. ١٦٠.

وفي العام ١٩٣٤ وصلت صفقة ترومان الشيطانية إلى تقاطع طرق، فكان قد أصبح مدير الخدمة الفدرالية لإعادة التوظيف في ميسوري تحت رئاسة هاري هوبكينز في العاصمة واشنطن وكان قد وفّر وظائف لمئة ألف شخص. كما كان على ترومان أن يختار إما أن يصبح جابي ضرائب بدعم من بندرجاست، فيوفّر له ذلك راتبًا مضموناً يبلغ مئة ألف دولار في السنة، وإما أن يصبح عضوًا في الكونغرس. وحينئذ كان يناهز الخمسين من عمره ولم يكن معروفًا خارج ولايته ولم يكن قادرًا على اتخاذ قرار بهذا الشأن. لذلك، قام بندرجاست بهذه الخطوة نيابةً عنه واقترح عليه الترشح إلى انتخابات مجلس الشيوخ الأميركي.

على الرغم من حكم موسوليني الديكتاتوري في إيطاليا وفرْض ستالين قيودًا متشدّدة في الاتحاد السوفياتي، وبروز هتلر في ألمانيا وتأزم الوضع في آسيا، لم يبدِ المهاجرون الميسورون الجدد والقدماء أي اهتمام بالشؤون الخارجية. غير أنّ الاهتمام بكيفية عمل عضو مجلس الشيوخ القادم جنبًا إلى جنب مع إدارة روزفلت في تولي الوظائف ورعاية وإغاثة الرهن العقاري، كان عاليًا، على الرغم من نظر بعضهم إلى ترومان وكأنه مجرد بيدق في آلية توم بندرجاست السياسية الفاسدة، فيما أعجب آخرون بصدقه وصراحته وبساطته وشجاعته وجدارته. وقد قال عضو في الحزب الديمقراطي في أثناء تقديم ترومان في نزهة جماعية «لن تحظوا دومًا بفرصة التصويت لرجلٍ مجبولٍ من طينتنا، وعلاقته الطيبة بالأرض مترسّخة فيه بالفطرة»[1].

حتى حادث السيارة الذي تسبب بكسر ضلعي ترومان لم يتمكّن من إيقاف حملته السياسية في المناطق الريفية للتمهيد لفوزه في انتخابات الحزب الديمقراطي تحت شعار روزفلت «العهد الجديد لولاية ميسوري». غير أن ذلك بقي مجرد عرض، ففي الحقيقة اعتمد ترومان بقوة على بندرجاست الذي كان يشرف على الانتخابات في كنساس سيتي ضدّ زعيم سان لويس الذي كان يشرف على انتخابات الحزب الديمقراطي الأولية في المدينة. وقد عكست نتائج الانتخابات ظاهرة الفساد، ففي

(١) المصدر السابق، ص. ١٩١.

كنساس سيتي حصل ترومان على مئة وسبعة وثلاثين ألف وخمسمئة وتسعة وعشرين صوتًا مقابل ألف وخمسمئة وخمسة وعشرين صوتًا لمنافسه جون كوشران، فيما حصل هذا الأخير على مئة وواحد وعشرين ألف وثمانية وأربعين صوتًا في سان لويس مقابل أربعة آلاف وستمئة وأربعة عشر صوتًا لترومان. في جميع الأحوال فاز ترومان بمنصب الحزب الديمقراطي في مجلس الشيوخ في تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٣٤ ويعود معظم الفضل بذلك إلى بندرجاست.

وحالما استقر السيناتور ترومان في العاصمة واشنطن، اكتشف أنه العضو الأفقر في الهيئة التشريعية، في الوقت الذي ظلت زوجته وعائلته في مدينة إنديباندس بحيث لم يكن هناك مال كافٍ لدفع ديون مزرعة العائلة التي استولت المصارف عليها من جديد. وكان هذا الموقف الإثبات الأكبر على نزاهة ترومان غير القابل للفساد، إلا أنه اعتمد كثيرًا على بندرجاست ليدعمه في الانتخابات في ظل الفوضى السياسية العارمة في فترة ما بين الحروب المدنية. وعقب إدانة بندرجاست بتهمة الاحتيال في الانتخابات وحبسه بتحريض من وزارة العدل في عهد روزفلت، شرح ترومان لصحافي قائلاً «اقتصرت علاقتي ببندرجاست على العمل السياسي، فقد وقف بجانبي عندما كنت بأمس الحاجة إلى صديق. فأنا لست بقبطانٍ يتخلى عن سفينته عندما تبدأ بالغرق»[1]. غير أنها غرقت.

وفي أثناء تولي ترومان منصب سيناتور ركزَ على التبادل التجاري والنقل الجوي والبري بالقطار بين الولايات، معتبرًا أنهما يشكلان الوسائل الأكثر عمليةً لمكافحة الكساد وإحياء الازدهار الاقتصادي في الولايات المتحدة. وواجه ترومان معركةً شاقةً في الدورة الانتخابية الثانية لمجلس الشيوخ في العام ١٩٤٠ بعد انتهاء فترة ولايته التي دامت ست سنوات، وذلك في إثر سجن بندرجاست والحجز على مزرعة والدته ونقص الأموال. فعلقت صحيفة سان لويس، بوست ديسباتش، في هذا

(١) المصدر السابق، ص. ٢٣٣.

السياق «إنه مجرد سمكة نافقة في أعماق المحيط».[1] ومع تردّده في ما إذا كان عليه الاستقالة، ترشح ترومان للمنصب من جديد وخاض معركة حياته ضد خصمه لويد ستارك الحاكم الديمقراطي المشهور. وكان الحاكم ستارك طويل القامة وخطيبًا عذب الكلام لا يمكن هزمه، فقد ورث هذا المحارب القديم في الحرب العالمية الأولى أكبر حقل لزراعة التفاح في العالم. بالإضافة إلى ذلك، دعم ستارك روزفلت في جميع برامجه الخاصة بصفقة العهد الجديد وبذل قصارى جهده للتخلص من مصادر الاحتيال في الانتخابات في ميسوري ومن بندرجاست على وجه الخصوص. وقد أشيع أنه كان لستارك فرصة الحصول على منصب نائب رئيس في حال ترأس روزفلت البلاد للمرة الثالثة.

بقي روزفلت رئيسًا للبلاد لولايةٍ ثالثة غير أنه لم يختر ستارك. من جهة أخرى، وضع ترومان رأسه على وسادته معتقدًا أنه خسر بفرق أحد عشر ألف صوت في اليوم الأول من الانتخابات في السادس من آب/ أغسطس ١٩٤٠، وتنهد قائلاً: «أعتقد أنها ستكون المرة الأولى التي أُهزم فيها». غير أنه استفاق في اليوم التالي على خبر انتخابه من جديد بفضل سكان المدينتين العظيمتين: كنساس سيتي، التي قدّر سكانها دعم ترومان لبندرجاست المدين وسان لويس، التي دعمت أيضًا ماكينة زعيمها الجديد ترومان[2]. وقد تكرر هذا الانتصار مجددًا لدى فوزه على خصمه الجمهوري في منافسة تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٠. أعيد انتخاب روزفلت بوعدٍ منه بإبقاء الولايات المتحدة بعيدةً عن الحروب الخارجية. لكن لم يكن يوجد حينئذ أي ضمانة تقضي بأن تبقي الحروب الخارجية الشباب الأميركي بعيدًا عنها. وعند تعيينه عضوًا في لجنة الشؤون العسكرية في مجلس الشيوخ، طلب ترومان ترؤس لجنةٍ فرعيةٍ للتحقيق في برنامج الدفاع الوطني، عُرفت في ما بعد بلجنة ترومان.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٣٥.

(٢) كتاب Truman لـ McCullough، ص. ٢٥١.

كانت وظيفة ترومان أساسيةً لاستعدادات أميركا المتردّدة في مواجهة «مصيرها الواضح». ومن خلال التعرف إلى أهمّ المنشآت والموردين العسكريين وتقديرهم (والعديد من الصغار بينهم) في الولايات المتحدة وبصفته رئيس منظمته الخاصة (مع أنها كانت صغيرة من حيث الموظفون والأموال)، ازدادت شعبية ترومان قبل أن يهاجم اليابانيون مرفأ بيرل في السابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١. وعند إقراره بأن لجنة التحقيق الفرعية التي ترأسها لم تنفع في هذه الحرب وكانت بالتأكيد ستحرج الرئيس (وأعداء البلاد) بإظهارها النواقص والفشل في آلية البلاد الحربية، تطوع ترومان للانضمام إلى الجيش من جديد. غير أنّ الجنرال مارشال رفضه شخصيًا قائلاً: «لسنا بحاجةٍ إلى عجوزٍ متصلب مثلك، هذه ستكون حرب شباب مفعمين بالحياة»[1].

وبالعودة إلى عمله في لجنة مجلس الشيوخ الفرعية، أدرك ترومان أنّ الرئيس كان محقًا عندما طمأنه أنّ وظيفته ستفيد البلاد أكثر من أي وقت مضى. ووصفه صحافي آنذاك قائلاً: «إن رئيس اللجنة هو زميلٌ خيِّرٌ يترأس رجال أعمالٍ أذكياء وفعالين وحاضري الذهن، وهذا ما يبدو عليه من خلال مظهره المتألق ونظاراته السميكة وابتسامته السريعة والطبيعية».[2] تباهى ترومان بكونه أنقذ البلاد من خسارة ملايين الدولارات وضمن صناعة المطاط الحيوي وسهّل توظيف أعداد هائلة من العاملات في المصانع التابعة للجيش وأوقف شركة النفط ستاندرد أويل كيلا تدفع «البلاد إلى الهوة»، فقد كان شكه في طمع الشركات التجارية الأميركية الكبرى وفي نقابات العمل المبتزة صادقًا ولو كان ممزوجًا بالحسد.[3] وكان يقول ليواسي نفسه «أنا سعيد لأنني أنام مرتاح الضمير»، على الرغم من إفلاس أحد

(١) كتاب Man of the People لـ Hamby ص. ٢٦٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٥٨.

أقربائه وعدم قدرته على إعادة شراء مزرعة العائلة وغياب كل أمل حقيقي في التقدم.[١]

وفي العشرين من تموز/ يوليو ١٩٤٤، قرر روزفلت أخيرًا اسم الشخص الذي يريده أن يترشح لمنصب نائب الرئيس بعد إسقاط نائبه السابق هنري والاس. فردّ زميل من سان لويس على مكالمة الرئيس في فندق بلاكستون. فسأل الرئيس:»هل رشّحت ذلك الزميل يا بوب؟»

«كلا، إنه أعند أبناء ميسوري الذين تعاملت معهم وأكثرهم تمردًا.»[٢]

فصرخ الرئيس قائلاً: «قل للسيناتور إنه إذا أراد تفتيت الحزب الديمقراطي من خلال البقاء خارج المعركة، فليتحمل مسؤولية أعماله».

عندئذ التفت الزميل إلى ترومان.

فصاح ترومان بحماسةٍ بعد قبوله قائلاً: «يا إلهي»، (على الرغم من رفض زوجته التي خشيت أن يتعرض للاغتيال إذا نجح في الوصول إلى الرئاسة). وتابع قائلاً: «ولكن لماذا لم يقل لي [إنه أرادني] منذ البداية؟»[٣]

جاب ترومان الولايات المتحدة باسم بطاقة روزفلت وترومان الانتخابية في خلال الحملة الانتخابية لخريف العام ١٩٤٤ مدركاً أنه على الرغم من أنّ عقل الرئيس كان لا يزال في حالة تأهب إنما جسديًا كان قد دمر تماماً.[٤] ومع ذلك انتصر روزفلت في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٤ وأعيد انتخابه لولاية رابعة. ولم يسافر ترومان في ما بعد إلى يالطا وكان قد قابل الرئيس مرتين بعد توليه المنصب والأهم من ذلك أنه لم يكن مستعدًا قط لتلقي نبأ وفاة الرئيس روزفلت من وورم سبرينغ في الثاني عشر من نيسان/أبريل ١٩٤٥.

(١) رسالة السابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٩، الواردة في كتاب Dear Bess طبعة Robert H. Ferrell، ص. ٤٢٦.

(٢) كتاب Man of the People لـHamby، ص. ٢٨٣.

(٣) كتاب Franklin Roosevelt: Rendezvous with Destiny لـ Frank Freidel، ص. ٥٣٧.

(٤) كتاب Truman لـ McCullough، ص. ٣٢٧.

الجزء الثاني: الرئاسة

فيما تطايرت أعلام الاتحاد السوفياتي مع إطارها الأسود فوق مبنى الحكومة، نُكّس العلم الأميركي في العاصمة واشنطن إلى نصف السارية لأول مرة منذ وفاة الرئيس هاردينغ في منصبه في العام ١٩٢٣. ويومئذ حلف الرئيس ترومان يمينه أمام رئيس العدل هارلان فيسك عند الساعة السادسة مساءً في غرفة مجلس الوزراء في البيت الأبيض.

وبعد ذلك تم استدعاء مجلس الوزراء. وقد أشار ملحق أف.دي.آر. الصحافي في وقتٍ لاحق «لقد نظر إلي كرجلٍ صغير فيما جلس ينتظر في كرسي من جلدي ضخم.»[١] بدا من المستحيل ملء هذا الكرسي في نظره في أمةٍ ورثت وشاح الإمبراطورية، لا بل في أمةٍ رفضت أن تعدّ نفسها إمبراطورية منذ أن تخلّصت من نير الإمبراطورية الملكية الإنكليزية في العام ١٧٧٧. وفي النهاية أجبر مجلس الشيوخ البلاد في العام ١٩١٩ على رفض دور رئيسها التأسيسي في تشكيل عصبة الأمم والانضمام إليها. وبعد خمس وعشرين سنة كيف سيتمكّن البلد من مواجهة المشكلات التي تلوح في الأفق مع رئيسٍ لم يزر أوروبا إلا مرةً واحدة ولا يحمل أية شهادة جامعية؟ هل سنعود إلى عصر الانعزال، كما جرى في العشرينيات عندما أوصى وزير الخزانة مورغنثاو بالقضاء على الصناعة الألمانية بالدرجة الأولى تجنبًا لبلوغ رايخ رابع (أو منافس تجاري)؟

ادعى ترومان أن وفاة سلفه ضربته «كالصاعقة»[٢]، لكن بدا للآخرين أنّ وفاة روزفلت حمّسته أكثر مما شلّته. وعند تناوله الغداء مع قادة الكونغرس الرئيسيين، أكد لهم السيناتور السابق أن الكونغرس سيكون شريكًا متساويًا في التأسيس لمرحلة ما بعد الحرب في الولايات المتحدة وفي تحديد موقع البلاد في العالم في هذه

(١) كتاب Man Of the People لـHamby، ص. ٢٩٣.

(٢) كتاب Conflict and Crisis لروبرت دونفن Robert Donovan، ص. ١٥.

المرحلة. وفي المقابل، كان أعضاء الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ مسرورين من موقف ترومان، غير مدركين مدى سرعة دخول إيديولوجيتي العشرينيات والثلاثينيات العلمانيتين والمتنافستين، أي الشيوعية والرأسمالية، في مواجهة متبادلة حية، فور الانتصار في الحرب على هتلر وهيروهيتو.

بعد أن فارق روزفلت الحياة على نحو محزن، جرت أحداث العالم بسرعةٍ كبيرة. فعقب الحدث بأسبوعين فقط، قام أبناء إيطاليا بإعدام رئيسهم الديكتاتوري بينيتو موسوليني وعشيقته. وفي الثلاثين من نيسان/ أبريل أذاعت الأخبار أن أدولف هتلر أطلق النار على نفسه وعلى عشيقته خشية أن يلقى مصير الإعدام نفسه. وبحلول السابع من أيار/ مايو، وافق خليفة هتلر الجراند أدميرال دونيتز على الاستسلام غير المشروط أمام قائد الحلفاء الأعلى الجنرال دوايت د. أيزنهاور.

وضعت وحدات الولايات المتّحدة (ستون وحدة في أوروبا حتى أيار/ مايو من العام ١٩٤٥)، المدعومة من قوة جوية واسعة مؤلفة من قاذفات قنابل وطائراتٍ حربية، حدًّا لتهديد ألمانيا للمجتمع الغربي. وفي الثامن من أيار/ مايو ١٩٤٥ انتهت الحرب في أوروبا ولم يبقَ على الولايات المتحدة سوى الفوز في الحرب ضدّ اليابان. وفي هذه الفترة غادرت أرملة روزفلت إليانور أخيرًا البيت الأبيض (بعد شهرين من وفاة زوجها الأمر الذي تطلب عشرين شاحنة جيش) لينتقل ترومان للعيش فيه (متطلبًا شاحنة جيشٍ واحدة).

تحولت القوى العالمية آنذاك رأسًا على عقب. فكانت الإمبراطوريتان الفرنسية والهولندية قد أعلنتا إفلاسهما عندما هُزمتا في العام ١٩٤٠ وبدتا خائرتي القوى حتى بعد سيطرة الحلفاء من جديد على الأراضي التي كان يحتلها الألمان واليابانيون في العالم. أما الإمبراطورية البريطانية، التي كانت قد انتصرت في مواجهتها الطويلة ضدّ رايخ هتلر الثالث، أقله وسط أمتها، فأصبحت مفلسةً.

ومهما كان حلم ونستون تشرشل، رئيس وزرائها، إلا أنّ وضع المملكة المتحدة كان سيئًا جدًّا بحيث استحال عليها أن تدير شبكةً عالميةً من المستعمرات، خصوصاً

بعد أن استنزفت الحرب التي خاضها البلد لستّ سنوات، قوى شعبها. وبذلك لم يبقَ سوى الصين والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية لتولي زمام الأمور خارج النطاق المحلّي. بالنسبة إلى الصين لم يعد لديها إمبراطور وقد غرقت في حرب أهلية بين الشيوعيين بقيادة ماو تسي تونغ والقوميين بقيادة شيانغ كاي تشيك، أي إنّ أمامها عدة سنوات قبل جلاء مصيرها. وهكذا، وليعرف العالم كيف ستنتهي الحرب العالمية وكيف ستكون مرحلة ما بعد الحرب، توجّهت أنظار العالم نحو ستالين والقائد الأميركي الأعلى الجديد، الرئيس ترومان. ولكن لم يطل انتظاره.

وبفضل السنوات الأربع التي قضاها ترومان في التفتيش في الإنتاج الحربي الأميركي (من الدبابات الحربية آي ٤٣ إلى اقتصاد ما بعد الحرب)، كان مقتنعًا في البداية ولو بسذاجة، أنه قادرٌ على تولي مقاليد إدارة روزفلت. وفي معظم الأحيان أعاد استخدام الموظفين الذين كانوا يعملون في إدارة روزفلت في مجلس الوزراء وكبار المعينين. وفي هذا السياق، كتب رسالةً إلى زوجته قائلاً: «لن يطول الوقت قبل أن أستريح وأدرس الوضع وأملي عليهم ما يجب فعله في كل قسم. وعند بلوغ هذه المرحلة ستكون إدارة البلاد كإدارة مقاطعة جاكسون من دون أي قلق».(١)

كانت هذه الأقوال الأخيرة و الشهيرة لترومان التي تعكس براءة إمبراطورية صاعدة. ولكن، بعد أن حذّر رئيس الوزراء تشرشل في الثاني عشر من أيار/ مايو ١٩٤٥ بناءً على تصرفات الاتحاد السوفياتي ونياته في أوروبا الشرقية والوسطى، من «سقوط» «الستار الحديدي»(٢)، بدت فكرة أن بإمكان مجلس مدراء أميركيين ورئيس لا همّ عنده، إدارة الولايات المتحدة، ناهيك بالدول العالمية العديدة التي تعتمد عليها اقتصادياً، صعبة المنال.

غير أن ترومان تجاهل تشرشل وكلّف هاري هوبكنز مهمة إلى موسكو في أيار/ مايو ١٩٤٥، ليس للتغاضي عن الاستبداد السوفياتي في بولندا الخاضعة لاحتلال

(١) رسالة السادس من حزيران/يونيو ١٩٤٥ الواردة في كتاب Dear Bess طبعة Robert H. Ferrell، ص. ٥١٤.

(٢) كتاب Winston Churchill لمارتن جلبيرت (New York: Holt، ١٩٩١)، ص. ٦٠.

الاتحاد السوفياتي بل ليقول لستالين، الذي أغضب الأوساط الدبلوماسية عند اعتقال أعضاء الحكومة البولندية المنفية لدى وصولهم إلى موسكو، إنَ رومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا ويوغوسلافيا لم تكن تصبّ في «مصالح» الولايات المتحدة. وأشار ترومان بسذاجة في مذكّراته قائلاً: «إن الفتيان الأذكياء في وزارة الخارجية يقفون كالعادة ضدّ مصالح الولايات المتحدة، إذ تمكنوا من التحايل على تاجرٍ مجتهد ومستقيم لمصلحة الشعب الذي يعيش الحرب». وبالطبع هذا التاجر هو ترومان نفسه. وفي طريقه إلى القمم الثلاث الكبرى في بوتسدام قرب قصر سانسوسي، وهو نموذج مصغّر عن قصر فرساي بناه ملك بروسيا فريديريك العظيم في ضواحي مدينة برلين، شدد ترومان قائلاً: «أتوقع أن تكون الأولوية لمصالحنا. لست أعمل لمصالح أي دولة غير جمهورية الولايات المتحدة. ولست مستعدًا لأهب شيئًا إلا لإنقاذ الجياع وحتى في هذه الحال أفضل أن أساعدهم على مساعدة أنفسهم بأنفسهم»(١).

غير أن بوتسدام غيرت حياة ترومان ومجرى تاريخ الولايات المتحدة إذ فتح الرئيس عينيه على الواقع العالمي وعلى مصير بلاده أيضًا.

وفي السادس عشر من تموز/ يوليو ١٩٤٥، انتقل ترومان من الفيلا التي مكث فيها في شارع سمّي عن جدارة كايسرشتراسي أو شارع القيصر رقم ٢ بسيارةٍ مكشوفة، على طول شارعٍ عريض يصطفّ على جانبيه جنودٌ أميركيون ودبابات، إلى عاصمة الرايخ الثالث المدمرة. ولأنه كان قادمًا من واشنطن بدا له الدمار فوق الطبيعة، فأطلق ترومان على مقر الرايخ، حيث أطلق هتلر النار على نفسه في الطابق السفلي، اسم «حماقة هتلر». وأشار في مذكّراته «لقد بالغ هتلر في محاولته السيطرة على الكثير من الأراضي بما يفوق قدرته. فهو كان مجرّداً من أي حسّ أخلاقي وعلى الرغم من ذلك حظي بدعم شعبه. فأنا لم أرَ يومًا مشهدًا أكثر حزنًا».(٢)

(١) رسالة السابع من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في كتاب Off the Record: The PrivatePapers of Harry S. Truman طبعة Robert H. Ferrell، ص. ٤٩.

(٢) رسالة السادس عشر من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٢.

وعاد الزمن بالطفل المثقف إلى قراءاته الأولى. فكتب في تلك الليلة «استرجعتُ ذكريات قرطاج وبعلبك والقدس وروما وأتلانتس وبكين وبابل ونينوى والجنرال سبيو ورعمسيس الثاني وتيتوس وهيرمان وشيرمان وجنكيز خان والإسكندر وداريوس الكبير».[١] وعلى الرغم من إغفاله إضافة اسمه أو العاصمة واشنطن إلى هيكل الآلهة الإمبراطوري، وقوله بكل تواضع إن البشر ليسوا إلا «جيش بعوض على كوكب الأرض»، كان يدرك تمامًا، من اتصاله الأخير بالبيت الأبيض، أن الولايات المتحدة كادت تصبح أقوى دولةٍ في التاريخ بعد أن نجحت في تطوير قنبلة ذرية. وهنا تساءل ترومان ما إذا كان عليه أن يستعملها ليدمر إمبراطورية اليابان وكيف سيتعامل مع شريك الولايات المتحدة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في هذه المرحلة التاريخية العالمية.

لم يثر اجتماع ترومان الأول مع تشرشل اهتمام الرئيس. فكان تملّق لسان تشرشل الذهبي مناقضاً لسلوك جوزيف ستالين عديم المعنى، الذي طرح سلسلة تساؤلات عن العالم في مرحلة ما بعد الإمبراطورية، بدءًا بالتخلص من رئيس إسبانيا الديكتاتوري الفاشي وصولاً إلى مصير الأراضي التي تنتدبها عصبة الأمم في الشرق الأوسط حتى إفريقيا.

مقارنةً بتشرشل، كان ستالين مختلفًا وأكثر تأهبًا (وأقل استهلاكاً للكحول). وأشار ترومان بغموضٍ في كتاباته «تكمن قوة ستالين في القنبلة وأنا أملك قنبلةً أيضًا ولكنني لن أشعلَ الفتيل الآن».[٢] في هذه المرحلة، قاس الإمبراطوران كلاهما الآخر بموجب مصير بولندا ومن أجل معرفة كل منهما قوة الآخر الحقيقية.

بالنسبة إلى ترومان الواقعي، كانت هزيمة بولندا أمرًا محسومًا إذ كان يحتلها مئات آلاف القوات السوفياتية. وفي غضون ذلك الوقت، كان ترومان يحتاج إلى الاتحاد السوفياتي للمشاركة بطريقة فعالة في الأمم المتحدة المشكَّلة حديثًا والتي حضر

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢ و٥٣.

(٢) رسالة السابع عشر من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٣.

افتتاحها، إذا نجحت يومًا في أن تكون هيئةً دوليةً. كما احتاج إلى روسيا لكي يتابع ويدخل الكفاح ضدّ اليابان، كما وعد، في حال كان عليه خوض الحرب التقليدية حتى النهاية المؤلمة. لذلك، قبل ترومان التسوية المخزية التي لا يمكن تجنبها، أي الاعتراف بحكومة دمى بولندية لم تتبع الديمقراطية ولن يُسمح لها بذلك طوال الأعوام الخمسين المقبلة. كان ذلك مؤسفًا لا يرحم. ونتيجةً لهذه التسوية وتأكيدًا لمخاوف تشرشل، اجترأ الشيوعيون في أوروبا على الاستيلاء على السلطة في بلادهم لكسب حماية الاتحاد السوفياتي والأنظمة الشيوعية الأخرى إذا أمكن، متمثلين ببولندا، وهذا ما كان يحدث في بلغاريا وألبانيا واليونان. وعقب انسحاب المحتلين النازيين من هذه البلاد، قلقت قوات التحرير البريطانية حيال المتمردين الشيوعيين المدعومين بالأسلحة التي كان الرئيس اليوغسلافي الديكتاتور تيتو يزوّدهم إياها. وقد بدأ ترومان يتساءل بماذا يمكن أن يكون مقتل أدولف هتلر قد خدم المصالح الأميركية إن كان كل ما فعلته معظم الدول الأوروبية هو استبدال الصليب المعقوف بالمنجل والمطرقة؟

بالرغم من تحفظاته إزاء دبلوماسيي وزارة الخارجية الأميركية الذين يعيرون اهتمامًا زائدًا للبروتوكولات، اضطر ترومان في بوتسدام إلى الاعتراف بأن المواجهة التي كانت تلوح في الأفق بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لم تكن بين الإيديولوجيات الماركسية والمثل الديمقراطية، أي الشيوعية والرأسمالية بقدر ما كانت قائمة بين أنظمة السلطتين، الديكتاتورية والديمقراطية التي تستند إلى الانتخابات.

بعد أن تعلّم التعامل مع «الزعيم» بندرجاست في ميسوري، بقي ترومان لسذاجته مقتنعًا بطريقة مدهشة أنه قادر على التعامل مع ستالين والانتهازية السوفياتية بلا حدود. لا تنافِس بما لا يمكنك التحكم فيه؛ كن صلبًا كالصخرة في الأمور التي يمكنك التحكم فيها؛ هب المساعدة الاقتصادية لإعادة بناء الصناعة والتجارة بين حلفائك؛ وآمن بالله. وعقب لقائهما الأول، كتب ترومان في مذكّراته: «يمكنني التعامل مع ستالين. إنه صادق ولكنه فائق الذكاء». وفي اليوم التالي، دعاه لزيارة الولايات المتحدة.

وتمامًا مثل أف.دي.آر.جاهد ترومان مدركاً حقيقة سعي الروس «لفرض الأمن». فاحتلت القوات السوفياتية كل أوروبا الوسطى من نهر الإلبه حتى الدانوب. وقد استطاع ترومان بالفعل أن يعقد اتفاق يالطا بشأن مناطق الاحتلال الأربع في ألمانيا. وفي خلال قمة الدول العظمى التي ترأسها ترومان، أوضح الرئيس الأميركي «إذا اختارت روسيا أن تسمح لبولندا باحتلال جزءٍ من [المنطقة الألمانية] التي يحتلها الروس، فسأقبل ولكن لا يمكن ولن تتم تسوية ملكية الأراضي هنا». هذا وقد بدأ ترومان بالإصغاء أكثر إلى الفرق التي كانت تمنح البروتوكولات اهتماماً كبيراً وخصوصاً أولئك الذين كانوا يتمركزون في دولٍ شيوعية أو في الدول التي كان فيها الشيوعيون يسعون للوصول إلى السلطة.(١) وأشار الرئيس إلى أنّ «التنوع الروسي» الشيوعي «ليس شيوعيًا بتاتاً، بل مجرد شرطة حكومية بكل بساطة. بعض أصحاب السلطة يستولون على النوادي والمسدسات ومعسكرات الاعتقال ويحكمون الأدنى منهم مستوى. والحزب الشيوعي في موسكو لا يختلف بأساليبه وأعماله تجاه عامّة الشعب عن القياصرة والنبلاء الروس (المعروفين بكل شيء سوى النبل). والنازيون والفاشيون هم أسوأ منهم بكثير».(٢)

ومع انتشار خبر هزيمة تشرشل في الانتخابات البريطانية العامة في السادس والعشرين من تموز/ يوليو و«تدهور صحة» ستالين في الثلاثين من الشهر عينه، بدأ ترومان يفكر في احتمالات السلام بعد الحرب في حال توفي ستالين. وفكر في نفسه «إذا استطاع خطيبٌ شعبيٌ السيطرة على آلية روسيا العسكرية فسوف يعرقل السلام في أوروبا لفترة. أتساءل أيضًا إذا كان هناك أي رجل يتمتع بالقوة اللازمة ليحل مكان ستالين ويحافظ على السلام والتضامن في وطنه... إن أملنا الوحيد من الحرب الأوروبية هو عودة الازدهار إلى أوروبا والقيام بالتبادل التجاري معها في ما بعد. إنه لوضعٌ سيئٌ».(٣)

(١) رسالة الخامس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٦.
(٢) رسالة السادس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٧.
(٣) رسالة الثلاثين من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٨.

وبعد سنوات عديدة، رأى ترومان أنه كان «شخصًا ساذجًا وواقعيًا» في بوتسدام. فلم يظهر ستالين أي اهتمام باقتراحات الرئيس الأميركي بتدويل الممرات المائية الأوروبية الرئيسية أو بإعادة إحياء الازدهار في أوروبا، وألغى معظم اتفاقات بوتسدام فور عودته إلى الاتحاد الأوروبي.[1] واشتكى ترومان لاحقًا قائلاً: «هذا الحقير يروقني. لقد كان أقصر مني بستة إنشات وحتى تشرشل كان أطول من جو بثلاثة إنشات فقط! وأنا كنت أقلهم قامةً وفكرًا! هذا ما أدلت به الصحف».[2]

هل كانت الصحف على حق؟ هل كان ترومان مسيَّرًا جدًّا؟ كان احتلال أوروبا الشرقية من قبل روسيا قد أكّد فوز الديمقراطية في بوتسدام. ولكن، لولا أعلنت الولايات المتحدة الحرب على الاتحاد السوفياتي (الأمر الذي لم يكن الكونغرس ليدعمه)، لكان من الصعب على ترومان أن ينقذ البلدان الضعيفة والمحررة من الاتحاد السوفياتي. وقد صدق ترومان في تقديره أن ستالين كان حجر الأساس للشيوعية، وديكتاتوريًا همجيًا ولكن أقله كان صريحًا وثابتًا وخصوصاً إذا قورن بخلفه نيكيتا خروتشوف.

وعلى الرغم من سذاجة ترومان كان هو من صعد المنصة في بوتسدام، ممثلاً الغرب. وهناك اكتشف ترومان إفلاس وعجز الإمبراطورية البريطانية التي كانت يومًا عظيمة، عند محاولتها التمسك «بالسيطرة على شرق البحر المتوسط» و«المحافظة على الهند والنفط في بلاد فارس وقناة السويس وأي شيء بدأت تفقده»، وهي مصالح استبدادية جردت منها قريبًا.[3] لم يترك ذلك أمام الولايات المتحدة إلا خيارين، إما العودة إلى انعزالها كما كانت الحال قبل الحرب والبقاء بعيدةً عن بقية العالم، وإما التقاط المستعمرات البريطانية قبل وقوعها وقيادة العالم الحرّ بفرض سياسة سلامٍ أميركية جديدة على الأراضي التي لم تحتلها قوات ستالين بعد.

(١) رسالة الخامس عشر من آذار/مارس ١٩٥٧ الواردة في المصدر السابق، ص. ٣٤٨.
(٢) رسالة الخامس عشر من آذار/مارس ١٩٥٧ الواردة في المصدر السابق، ص. ٣٤٩.
(٣) رسالة الخامس عشر من آذار/مارس ١٩٥٧ الواردة في المصدر السابق، ص. ٣٤٨.

وفي الرابع والعشرين من تموز/يوليو، وافق ترومان في بوتسدام على استخدام السلاح الجديد ضدّ اليابان بأقرب وقت وذلك بعد أن وجه إنذارًا «يطالب فيه اليابانيين بالاستسلام وإنقاذ الأرواح». وكتب في مذكراته بإيجاز «أنا متيقن أنهم لن يستسلموا، ولكن سنكون قد أعطيناهم فرصة».[1] ومنذ وفاة روزفلت كان قد توفي خمسون ألف جندي أميركي في المحيط الهادئ، وقد قال رئيس أركان الجيش لترومان إن ربع مليونٍ آخر سيموتون إذا رفضت اليابان الاستسلام واضطرت الولايات المتحدة إلى غزو البلاد بقواتٍ تقليدية.[2] وكتب ترومان في مذكّراته «يجب أن يتم استخدام السلاح ضدّ اليابان ما بين اليوم والعاشر من آب/ أغسطس. لقد طلبت إلى وزير الحرب السيد ستيمسون أن يستخدمه لأغراضٍ عسكرية ولاستهداف الجنود والبحارة وليس النساء والأطفال. حتى ولو كان اليابانيون متوحشين ومتعصبين وعديمي الرحمة، لا يمكننا بصفتنا قادة العالم للمصلحة العامة إلقاء هذه القنبلة الفظيعة على العاصمة القديمة أو الجديدة. لقد اتفقتُ معه... إنه لشيء جيد للعالم أن جماعة هتلر أو ستالين لم تكتشف القنبلة».[3] ١٣٣

وفي خلال دراسة الوضع مع سفير الولايات المتحدة في موسكو أفريل هاريمان، و«حكماء» وزارة الخارجية الآخرين، عند عودته من بوتسدام، أعرب ترومان عن رضاه حيال ما جرى. فبالرغم من أن الأمر استوجب إلقاء قنبلتين، قنبلة على هيروشيما في السادس من آب/أغسطس وقنبلة على ناكازاكي في التاسع من الشهر عينه، أعلنت الحكومة اليابانية أخيرًا استسلامها غير المشروط أمام الحلفاء في العاشر من الشهر المذكور، ما أنقذ أعدادًا لا تحصى من أرواح الأميركيين (واليابانيين) وأنهى الحرب العالمية الثانية من دون الحاجة إلى التدخل الروسي. كما قال ترومان لهاريمان إن بوتسدام قد أوضحت نظرته الجديدة بأن على الولايات المتحدة أن تؤدي دورًا قياديًا

(١) رسالة الخامس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في المصدر السابق، ص. ٥٦.
(٢) كتاب Truman لـ McCullough، ص. ٤٤٠ والصفحة ٤٣٧.
(٣) رسالة الخامس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٤٥ الواردة في كتاب Off the Record لـFerrell، ص. ٥٥ و٥٦.

عالميًا في مرحلة ما بعد الحرب وعليها بالتالي أن تصبح إمبراطورية مضادة للاتحاد السوفياتي الشيوعي.

هكذا، وقبل أن تُطرح نظرية كينان للاحتواء وخطة مارشال الشهيرتين، لم يتخذ ترومان قرارًا تاريخيًا بشأن استخدام السلاح النووي الأول في العالم فحسب، بل أدرك أيضًا في جوهر بوتسدام كيف ولماذا سيدير شبه إمبراطورية أميركية في العالم في مرحلة ما بعد الحرب. في الواقع، كان نظر ترومان ينصب على سياسة «البنادق والزبدة» التي كانت تعوز روزفلت في خطابه النبيل الذي عرّض الرئيس الأميركي لمواجهة اليمينيين واليساريين في البلاد. كما أن الأمر أدخل الولايات المتحدة بقيادة رؤساء الإمبراطورية القادمين في مصاعب إستراتجية وإجراءات مشكوك فيها بما في ذلك حروبٌ عظمى. ولكن كان من الصعب التخيل أن يتصرف روزفلت على نحو مختلف لو بقي على قيد الحياة.

وفي مرحلة معينة، كان على ترومان مواجهة الانقسامات في حزبه الديمقراطي التي سببها الليبراليون من ناحية وجشع الأمة من ناحية أخرى. كما واجه ترومان هجمات شنيعة من الجمهوريين المعارضين للشيوعية كالشاب ريتشارد نيكسون (الذي نعت الرئيس الأميركي بالخائن، وهي إهانة لم يسامحه عليها ترومان يومًا). ومع ذلك، ساعد حدس ترومان في بوتسدام على بناء أساس الإمبراطورية الأميركية، للخير والشر، التي استمرت حتى نصف القرن المقبل وأكثر.

غير أن المؤرّخين اليساريين اعتقدوا أن الولايات المتحدة لو اتبعت سياسة أكثر وديةً تجاه الروس، لكانت ستشجع بذلك قيام نظام سوفياتي أقل قمعًا وريبةً بمرور الوقت. ولكن كان من المرجح أن يتم العكس. فقدْ تباهى الاتحاد السوفياتي بزيادة إنتاجه الزراعي والصناعي والتجاري في العقود التالية بحيث بقي التصنيع وراء «الستار الحديدي» بمنأى عن الأضواء من خلال منع وصول الصحافيين المستقلين ومراقبة الإعلام بشدة. ومن خلال إدارة عناصرها الأساسية ومراقبة أصحاب «النوادي والمسدسات ومخيمات الاعتقال» (المتمثلة باعتقال الجيش السوفياتي في المجر

وفي تشيكوسلوفاكيا لاحقًا) وبفضل رخص الخبز، استطاع الاتحاد السوفياتي تفادي انهيار نظامه غير العملي لعدة عقود. باختصار، اضطر الاتحاد السوفياتي إلى متابعة استبداد الإمبراطورية الشيوعية من أجل الصمود، ما حمل الولايات المتحدة على إيجاد حل وسطي إذا أرادت نشر رؤيتها الديمقراطية في الغرب.

نظرًا إلى الوضع السيئ في البلدان الأوروبية الغربية المتحررة، اعترف ترومان بأن دوره التاريخي كان يكمن في الحفاظ على سلوك الولايات المتحدة الأميركية تجاه الشؤون الخارجية كما كان في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. وهذا ما قرر فعله عبر المحافظة على الوجود العسكري الأميركي الكثيف في أوروبا (بإنشاء قوات حلف شمال الأطلسي وتجهيزها وقيادتها في ما بعد)، فيما كان يضخّ الأموال لإعادة بناء الدول الأوروبية التي ستفيد الولايات المتحدة في التبادلات التجارية. هذا ما سمّي بالاستبدادية الرأسمالية التي كانت قد طبعت العلاقات بين المملكة المتحدة والدول الخاضعة لسلطتها؛ ولكن تمامًا مثل الإمبراطورية البريطانية (التي كانت تتاجر بالعبيد مقابل القطن وبالأفيون مقابل الشاي والتي أيدت حاكمًا فاسدًا من أجل الحفاظ على هيمنتها الشاملة) لن يكون سجلها مشرفًا كثيرًا في المناطق التي يمتد إليها نفوذها. وفيما جرّدت بريطانيا نفسها من واجباتها الاستبدادية تحت ولاية رئيس وزرائها الجديد كليمنت أتلي، واجهت الولايات المتحدة قرارات خطيرة. فإذا كانت بريطانيا قد «تحوّلت إلى شبه إمبراطورية» كما وصفها أحد المؤرّخين، فهي الآن تخطو خطواتها إلى الوراء وتترك خلفها مستعمرتها الأميركية السابقة برئاسة ترومان، لتلملم الأشلاء وتتحمّل الأعباء.[1] وفي الواحد والعشرين من شباط/فبراير ١٩٤٧، أعلن أتلي نهاية الاستعمار البريطاني في الهند في حزيران/يونيو كحدّ أقصى، والهند هي التاج البريطاني الذي جعل من الملكة فيكتوريا إمبراطورة. وفي اليوم التالي أبلغ أتلي وزير خارجية ترومان الجديد، الجنرال مارشال

(١) مقالة للصحفي William Rees-Mogg عنوانها The American Empire, a fine old British tradition, نُشرت في مجلة التايمز The Times في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ (تقرير لـ Niall Ferguson على القناة الرابعة خلال برنامج Empire).

أنَ بريطانيا قد أفلست ولم تكن قادرة على تحمل النفقات وإرسال القوات (التي كانت ستنسحب قبل الأول من نيسان/ أبريل) لحفظ الأمن في اليونان، حيث كان المتمردون الشيوعيون يحرّضون لحربٍ أهلية، أو تقديم المساعدات لتركيا التي كانت تخضع لضغط السوفيات بشأن مضيق الدردنيل.

حضّ المستشارون ترومان على عدم الخجل من الجماهير تحفيزاً لأميركا في مرحلة ما بعد الحرب مثلما فعل عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، كما حفزوه على أن يكون محاربًا أميركيًا لديه رؤيته لمستقبل البلاد. ونجح ترومان أخيرًا في تحقيق ذلك عند مخاطبته الكونغرس نهار الأربعاء في الثاني عشر من آذار/مارس. وأشار ترومان في وقت لاحق وهو يرشد كتّاب خطابه «يجب أن يكون واضحًا ومن دون أي تردد أو كلام خادع»، وكان قد دعا أعضاء الكونغرس إلى البيت الأبيض ليشرح لهم سياسته قبلَ يومين من إلقاء خطابه وليمنحهم الفرصة لطرح الأسئلة.[١]

كان خطاب ترومان تاريخيًا سواء أبالغ الرئيس الأميركي في وصفه لخطر الاتحاد السوفياتي أم كان حكيمًا في حثّ بلاده على مواجهة الشيوعية «من كل الجبهات». وكتب في مذكراته في هذا السياق قائلاً: «لم أتمكن يومًا من نسيان تأثير الانعزالية القوي الذي هيمن على بلادنا بعد الحرب العالمية الأولى. ففي السنوات التي أمضيتها في مجلس الشيوخ كنت أستمع عامًا بعد عام إلى أحد الأعضاء وهو يقرأ رسالة الوداع التي كتبها واشنطن. ولم يكن من المفيد أن نشير إلى الانعزاليين أن واشنطن كان قد أوصى بوسيلة تناسب الظروف القائمة في عصره بغية الحفاظ على الأمة... وكانت هذه الرسالة بالنسبة إلى الانعزاليين بمنزلة نص مقدّس».[٢] وأصبح خطابه أمام الكونغرس بحسب تعبيره «نقطة التحول في السياسة الخارجية الأميركية التي أعلنت الآن أن الولايات المتحدة ستتدخل أمنيًا أينما يمس السلام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة»، وعُرفت هذه السياسة بعقيدة ترومان.[٣] وهكذا ولدت الإمبراطورية الأميركية تحت

(١) كتاب Memoirs لهاري س. ترومان Harry S. Truman مجلّد ٢، ص. ١٠٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٠١.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٠٦.

شعار السلام الأميركي وقد نال مشروع قانون لتجميد المساعدات إلى اليونان وتركيا مئتين وسبعة وثمانين صوتًا مقابل مئة وسبعة أصوات في التاسع من أيار/مايو ١٩٤٧ في مجلس النواب الجديد الذي هيمن عليه الحزب الجمهوري.

وبدعم مشروع قانون ترومان اقتصادياً وبمساعدة عسكرية ضمنية، حرص الكونغرس على أن تتفادى اليونان انقلاب الشيوعيين وأن تحافظ تركيا على جيشها واستقلالها التام على الرغم من التهديد والضغط السوفياتيين. وفي العام ١٩٥٢ انضمت الدولتان إلى حلف شمال الأطلسي حيث كانت قواتهما بقيادة القائد الأميركي الأعلى.

انتهت في هذه المرحلة الانعزالية الأميركية أو اللاإمبريالية ، ورُفعت أعباء الإمبراطورية عن أكتاف بريطانيا المتخبطة ووضعت بين يدي الولايات المتحدة. وشرح ترومان قائلاً: «في المرحلة الحالية من تاريخ العالم، على كل دولة تقريبًا اختيار طريقة عيش من بين اثنتين. وغالبًا لا يكون الخيار حرًّا. فإحدى الطرائق تقوم على مشيئة الأكثرية وتتميز بالمؤسسات الحرة والحكومة التمثيلية والانتخابات الحرة وضمانات حرية الفرد وحرية التعبير والمعتقد والتحرر من الاضطهاد السياسي. أما الطريقة الأُخرى فتقوم على مشيئة الأقلية التي تفرض على الأكثرية وتعتمد الترهيب والاضطهاد والرقابة على الصحف والراديو وانتخاباتٍ مقيدة وإلغاء حريات الفرد».(١)

وفي خلال السنوات التالية، كُشفت مساوئ جوانب الديمقراطية سواء في الولايات المتحدة أو في سلوك مسؤوليها وموظفيها، كما كان قد جرى في روما. ومع ذلك لم يشك المؤرّخون في نزاهة ترومان وصراحته في تحويل الولايات المتحدة من الانعزال إلى السيطرة على العالم. وقد قال عن هذا الموضوع في أثناء عشاء يوم جيفيرسون في الخامس من نيسان/أبريل ١٩٤٧ : «يتطلع العالم إلينا لقيادته. ويُجبرنا سير الأحداث على تحمّل هذه المسؤولية».(٢)

(١) المصدر السابق.

(٢) جون تي وولي John T. Woolley وجيرار بيترز The American Presidency Project http:/www.presidency.ucsb/edu/?pid=12859.

لم يكن في كلام الرئيس أية مبالغة. فقد تجاهل القائد السوفياتي في المجر مارشال فوروشيلوف نتائج انتخابات العام ١٩٤٥ التي حصد فيها حزب أصحاب الحيازات الصغيرة المستقلين ٥٧٪ من الأصوات. وأصر فوروشيلوف على أن يشارك الحزب الشيوعي في المجر في الحكومة الائتلافية ما نتج منه عمليات الإعدام والتطهير والمحاكمات العلنية والسجن السياسي والنفي إلى سيبيريا والاضطهاد الوحشي والانتقادات والانتفاضات. وعانت كل من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا وألبانيا المصير نفسه، ولم يجرؤ سوى تيتو وحده في يوغسلافيا على المطالبة بنوع من الاستقلال الدامي (فقد تم إعدام كل الملكيين اليوغسلاف).

ظهر ترومان، رجل الاستقلال بأحسن صورة عندما ناصر خطة مارشال التي أقنع الكونغرس بتبنيها في خطاب «العقيدة» الخاص به في العام ١٩٤٧. فأراد ترومان إنقاذ كل الاقتصادات الأوروبية المنهارة في مرحلة ما بعد الاستقلال، وليس اليونان وتركيا اللتان كانتا في وضع استراتيجي حرج فحسب. وأمام حث وزير خارجيته، جورج مارشال، قدم الرئيس الأميركي دعمًا اقتصاديا ملحوظًا للبلدان المستقلة والبلدان الشيوعية بما فيها الاتحاد السوفياتي.

وفي شباط/فبراير من العام ١٩٤٦، وبعد قبول ستالين بامتنان الحبوب وقوافل من المواد العسكرية من الولايات المتحدة في أثناء الحرب العالمية الثانية، ألقى خطابًا يدين فيه النظام الرأسمالي والولايات المتحدة معاً. ومنع كل الدول التي تعتمد اقتصاديًا وسياسيًا على السوفيات في أوروبا الوسطى والشرقية بما فيها الاتحاد السوفياتي من قبول أية مساعدات من الولايات المتحدة.

كما دان وزير خارجيته الخطة الأميركية معتبرًا إياها بمنزلة «استبداد الدولار». أما تشيكوسلوفاكيا وبولندا فقد أرسلتا ممثلين لهما إلى مؤتمر باريس بشأن خطة مارشال فاستُدعيا إلى موسكو ونبّها إلى عدم التفكير في المشاركة في المؤتمر. وحتى فنلندا المستقلة اسميًا رفضت مساعدات خطة مارشال كيلا تعادي ستالين. كما احتج أعضاء الكونغرس الانعزاليون الجمهوريون ونائب الرئيس الديمقراطي السابق، هنري

والاس، على الخطة. ولكن حالما انتشرت الأخبار عن إطاحة الحكومة المنتخَبة في تشيكوسلوفاكيا على يد مناصري ستالين، تراجع الكونغرس وبعد ستة أشهر من الخلافات أرسل مساعدات قيمتها ١٢/٤ مليار دولار أميركي.

وصف المؤرّخون الاقتصاديون خطة مارشال في وقت لاحق بثعلب في زيّ حمل دعم التجارة والصناعة الأميركيتين أكثر مما صبّ في مصلحة أوروبا الغربية (فعلى سبيل المثال، نقلت نصف المبيعات بحافلاتٍ أميركية). ومع ذلك، أثبتت الخطة أنها كانت جوهر تجدّد الثقة الاقتصادية الأوروبية بالدول الديمقراطية، وأصبحت من عدة نواحٍ الحجر الأساس للمجتمع الاقتصادي الأوروبي (الذي يعرف اليوم بالاتحاد الأوروبي). وكذلك، سعد ترومان لأنه سمّى هذه الخطة باسم الرجل الذي عدّه «أهم أميركي حي» و«منظم الانتصار» في الحرب العالمية الثانية، الجنرال جورج س. مارشال، بدلاً من اسمه. (ربح مارشال جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٥٣ لاقتراحه هذه الخطة). من هنا، كتب ترومان في ما بعد «إن المساعدة التي قدمناها، والتي تجنبت مأساة كبيرة وساهمت في بدء التقدم نحو الإصلاح في عدة مناطق من العالم، جمعت الشخصية الأميركية ومسؤولية الولايات المتحدة التاريخية الجديدة».[١] (كما أقر بأنه كان عليه أمر مارشال بالموافقة على تسمية الخطة باسمه بصفته واضعها قائلاً: «لقد احمر خجلاً... فقد كان أكثر الناس الذين عرفتهم تواضعًا، وأجاب، «لا يمكنني أن أسمح بشيء من هذا القبيل سيدي الرئيس».[٢]) كما سمحت الخطة بضمان أمن الولايات المتحدة «فمن خلال إعادة بناء أوروبا وآسيا سنساعد على إنشاء ميزانية اقتصادية مناسبة أساسية لنشر السلام في العالم»، حتى ولو تساءل اقتصاديو العالم الثالث في وقت لاحق عن مدى صحة هذه الميزانية بالنسبة إليهم.[٣]

وبعد أن بدأت نتائج خطة مارشال بالظهور، سمحت الحكومات البريطانية

---

(١) كتاب Memoirs لـTruman المجلّد ٢، ص. ١١١.

(٢) كتاب Plain Speaking لميرلي ميللر Merle Miller، صفحة ٢٤٥.

(٣) كتاب Memoirs لـ Truman المجلّد ٢، ص. ١١١.

والفرنسية والأميركية بإدماج القطاعات المهنية الثلاثة في ألمانيا الغربية تجارياً وبإدخال عملة جديدة إليها (المارك الألماني بدل مارك الرايخ أو المارك الإمبريالي) من أجل تسريع عملية الإصلاح. وشكل ذلك الخطوة الرئيسية الأولى لوضع الدستور وإنشاء الجمهورية في غرب ألمانيا بدل الدولة المدمرة والمسيّرة وفوق كل شيء منزوعة السلاح والمحايدة التي خطط لها السوفيات (والحلفاء أساسًا).

وهكذا أعيد بناء ألمانيا، أو أقله المناطق التي كانت تحت انتداب القوات الأميركية والبريطانية والفرنسية. ونظرًا لأنّ ألمانيا كانت قد اجتاحت روسيا مرتين في خلال السنوات الثلاث الماضية، قرر ستالين إخماد نيران التوسع الأميركي. فاعتمد على ثغرةٍ قانونية حالت دون صدور وثيقة قانونية موقعة تسمح بوصول الطرق والسكك الحديدية من المناطق الألمانية الغربية المحتلة إلى العاصمة برلين، ليفرض حصارًا على المنطقة وذلك بغية تجويع المناطق التي يحتلها الحلفاء والتي عُرفت ببرلين الغربية.

إذا ظنّ ستالين أن فرض حصارٍ على برلين الغربية سيجبر الحلفاء الغربيين على التراجع عن إنعاش الاقتصاد الألماني في صيف ١٩٤٨، فقد كان على خطأ، إذ جرى العكس. فلم يتمكن الحلفاء الغربيون من إنقاذ بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا (التي سيطر عليها تماماً الشيوعيون المتعاونون مع العدو في العام التالي). غير أنّ القوات الأميركية بقيت صامدة ومسلحة تمامًا في برلين. وفي الثامن والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤٨، اتخذ ترومان قرارًا قائلاً: «سوف نبقى، وانتهى»، وأكّد عليه ثانيةً بعد بضعة أيامٍ. وكتب في مذكراته في التاسع عشر من تموز/يوليو أن وزير الخارجية جايمس بيرنز «يريد دائمًا فرض حصارٍ». غير أنّ الرئيس كان قد اتخذ قرارًا وسيلتزم به. «أنا لا أرفع عن نفسي المسؤولية ولا أتهرّب من أي قرارٍ أتخذه».[1]

وعند التغلب على رئيس أركان سلاح الجو الأميركي، سمح ترومان بإقامة جسر

(١) كتاب Off the Record لـ Ferrell، ص. ١٤٥.

جوي ضخم إلى أن يتمّ التوصل إلى حلّ دبلوماسي. وكان يفترض أن يتم تصميمه في غضون ثلاثة أسابيع، واستمر الإمداد الجوي حوالى السنة، إذ قام الجنرال وليام ترنر بتنظيمه ببراعة وهو الذي كان قد نظم الإمداد الجوي من بورما لقوات الجنرال ستيلويل التي كانت تحارب اليابانيين في الصين في خلال الحرب العالمية الثانية. كما بنى المهندسون الفرنسيون مطار تيغيل الجديد فيما توجه قباطنة من بريطانيا وأستراليا وكندا وجنوب إفريقيا بطائرات أميركية غير مسلحة وطائرات من السلاح الجو الملكي البريطاني بلغ عددها خمسين ألفاً من أصل المئتين والسبع والسبعين المطلوبة، التي حملت ٢,٣ مليون طن من الأطعمة والإمدادات إلى المدينة المحاصرة، على حساب خمسة وستين روحًا من الحلفاء. وفي مرحلة معينة، كانت تغط في كل دقيقة طائرة إمدادات حليفة في برلين الغربية.

لم يجرؤ ستالين على السماح بإسقاط طائرة نقل حليفة غير مسلحة خوفًا من أن يتسبب باندلاع حرب عالمية ثالثة، وأخيرًا وضع حدًّا لفشل بلاده في ربيع ١٩٤٨. لقد قام ببرهان وجازف بحربٍ ذرية ولكنه فشل.

وكانت نتيجة الإمداد الجوي إلى برلين بحسب ما كتب ترومان لاحقًا أن «أثبتنا للشعب الأوروبي أننا سنتصرف بحزم عندما تُهدد حريته إذا تعاون معنا. وعلى الصعيد السياسي قرّب الإمداد الجوي شعوب غرب أوروبا إلينا أكثر».(١) ولم يبالغ ترومان في كلامه، ففي آذار/مارس ١٩٤٨ شكلت خمس دول أوروبية غربية تحالفًا عسكريًا جديدًا عُرف بالاتحاد الغربي ما عد أساس حلف شمال الأطلسي الذي ضمّ اثنتي عشرة دولةً والذي تشكل في نيسان/أبريل ١٩٤٩ بقيادة أميركية عليا. وبعد ذلك تمّ تشكيل الجمهورية الفدرالية الألمانية الغربية في الثالث والعشرين من أيار/مايو ١٩٤٩.

وبدل أن تكون روسيا مثالاً للاشتراكية بأفضل حالاتها أمام دول أوروبا الوسطى المضطهدة، أظهرت أن هذا النظام هو الأسوأ. وبالرغم من أنها ستُبقي جيوشها في

(١) كتاب Memoirs لـ Truman المجلّد ٢، ص. ١٣١.

هذه الدول «المحررة» أربعة عقودٍ إضافية، ولد حقدٌ تجاه السوفيات كالحقد تجاه النازيين، فلم يضف الاتحاد السوفياتي، ويا للأسف، إلى الدول التي احتلها طوال سنوات الاحتلال أية فائدة سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية غير رقص الباليه والتعليم الجيد (عند فرض رقابة مشدّدة) والفودكا. في المقابل، وبعد أن بادر هاري ترومان إلى إمداد برلين جواً، ظهر بائع الخردة من مدينة كنساس سيتي، كأفضل أباطرة العصر الجديد في عيون معظم الناس في العالم الحر، فقد كان ترومان رجلاً بسيطًا ولكنه كان حسن النية ومؤيدًا شجاعًا لسياسة التعاون الدولي، وكريمًا في الدعم الأميركي، وحاسمًا في المعارك وحذرًا في أخذ النصائح من المستشارين العسكريين الأكثر جرأةً والتابعين له.

ولكن لم تلاق كل قرارات ترومان النجاح الذي لاقته خطة مارشال أو إمدادات برلين الجوية أو حلف شمال الأطلسي. وثمة قراران بالتحديد قد أثرا سلبًا في السلام والاستقرار في العالم على الرغم من أنهما كانا نابعين من نية حسنة وهما القراران المتعلقان بفلسطين وكوريا.

ففي حين كان أداء ترومان في برلين مثالاً يحتذى به، جاء أداؤه في مسألة أزمة فلسطين مغايرًا تمامًا. فاندلعت حربٌ تلو أخرى وتراكمت الكراهية نتيجة ما وصفه الكاتب روبرت فيسك «بمأساةٍ ملحمية انتشرت آثارها في العالم وتستمر في تسميم حياة المشاركين فيها وكل التدابير السياسية والعسكرية الغربية تجاه الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية».(١)

غير أن ترومان واجه في العام ١٩٤٥ هزيمةً مروعةً لم تكن من صنعه أو صنع الولايات المتحدة، وهي واجبٌ تعاقدي جارٍ على بريطانيا، وُقع وخُتم بموجب القانون الدولي منذ أكثر من عشرين سنة، في العام ١٩٢٣ وهو يقضي بإعادة «بناء» وطن لليهود في فلسطين بعد ألفي عام من طردهم على يد الرومان. وتناقض هذا

(١) كتاب The Great War for Civilisation (New York: Knopf, 2005) لروبرت فيسك Robrt Fisk، ص. ٣٦٥.

الموجب الذي طرأ في العام ١٩١٧ (وعد بلفور) بجهد من الإنكليز لضمان دعم اليهود للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، على نحو مباشر والوعود المعطاة للقبائل العربية والممالك في الشرق الأوسط بعد تقديمهم المساعدة على إسقاط السلطنة العثمانية التركية.

دفعت التظاهرات والاحتجاجات الفلسطينية في الثلاثينيات بريطانيا (التي حصلت على تفويض من عصبة الأمم بحكم البلاد في خلال إنشاء موطن اليهود) إلى الحدِّ من هجرة اليهود السنوية منعًا من اندلاع الحرب بين ليلةٍ وضحاها في وطنٍ عربي ذي موقع استراتيجي وحيوي لإمبراطورية بريطانيا التجارية والعسكرية. ولكن مع نهاية الحرب العالمية الثانية تصاعدت الأزمات في المنطقة من جديد. فقد اتضح أن النازيين قتلوا خمسة إلى ستة ملايين يهودي أوروبي بدم بارد وكان الناجون يوضعون في «مخيمات للاجئين». فبدا إيجاد وطن لهم في فلسطين هو الحل الأقل كلفةً والأكثر رأفةً بهم. في جميع الأحوال، آمن ترومان الذي لم يزر الشرق الأوسط يومًا، بذلك، فضغط على الحكومة البريطانية لمنح مئة ألف تأشيرة دخولٍ إلى فلسطين فورًا وعرضت الولايات المتحدة أن تدفع كل تكاليف النقل والطعام. وهؤلاء الأشخاص، بحسب ما قاله رئيس المنظمة الصهيونية العالمية اليهودية، شايم وايزمان لترومان، «سوف يُنبتون الزهر في الصحراء».

أُعجب ترومان الذي تربّى على معالم الإنجيل، حاييم وايزمان، وتأثّر بدموع شريكه في بيع الخردة إدي جونسون الذي كان يقنعه بمقابلة القائد الصهيوني. كما تلقى الرئيس الأميركي رسائل واتصالاتٍ كثيفة من الناخبين اليهود في البلد يطالبون بأن تساعد الولايات المتحدة اللاجئين. وبين العام ١٩٤٥ والعام ١٩٤٨ سعى من دون جدوى ليبقى على الحياد. وقال لأحد الداعمين لقضية اليهود: «لست متحدّرًا من نيويورك. كل هؤلاء الأشخاص يناضلون لقضية مميزة. ولكنني أميركي.»[١] كما استقبل ترومان وفوداً قادمة من دول عربية مجاورة حذّرته من العواقب التي

(١) كتاب Robert Donovan ذو العنوان Conflict and Crisis، ص. ٣١٩.

قد تنتج من «وهب» أرض عربية لليهود الأوروبيين. وحذر أيضًا مسؤولو وزارة الخارجية الأميركية ترومان من زعزعة استقرار مهمة بريطانيا التي لا تُحسَد والتي تقوم على حفظ النظام في فلسطين، حيث كان إرهابيو العصابات اليهودية الهاغانا والأرغون وشتيرن يأخذون الجنود البريطانيين كرهائن ويعدمونهم ويفجرون القنابل في مبانٍ إنكليزية كفندق كينغ دافيد. (ووصف ترومان الوضع قائلاً: «يبدو أنهم يعاملون «المستضعفين» [أي العرب] فيما يملكون القوة كما عوملوا حين كانوا هم «مستضعفين» من قبل».)[1] وقال ترومان بغضب عن جماعات الضغط الصهيونية: «لم يستطع السيد المسيح إرضاءهم عندما نزل إلى الأرض، فكيف يتوقع أحدٌ أن يحالفني الحظ»[2]؟ غير أن عددهم عكس واقعًا سياسيًا في الولايات المتحدة. فقال للدبلوماسيين الأميركيين الذين يهتمون بقضايا الشرق الأوسط: «أنا آسفٌ يا سادة ولكن علي أن أستجيب لمئات الآلاف الذين يتوقون إلى نجاح الصهيونية فليس هناك مئات آلاف العرب في البلد».[3]

في نهاية المطاف كان قلب ترومان مع اللاجئين الأوروبيين وبالتالي مع الأقلية اليهودية في فلسطين (٦٢٥٠٠ من أصل مليوني نسمة تقريبًا) الذين سيعتنون بهم. فشرح له مستشاروه («الحكماء» جورج مارشال ودين أتشيسون وأفريل هاريمان وتشارلز بوهلين وجايمس فوريستال) العواقب طويلة الأمد لعدم الاستقرار في الشرق الأوسط خصوصاً المتعلقة بتوريد النفط إلى الغرب وإمكانية أن تلجأ الدول العربية إلي الاتحاد السوفياتي ما سيعطيه قوة تأثير في المنطقة وحتى قاعدة في البحر الأبيض المتوسط. غير أن مستشارين سياسيين وانتخابيين آخرين حذروا الرئيس أنه إذا امتنع عن مساعدة اللاجئين اليهود على الهجرة إلى فلسطين فسيساعدهم الجمهوريون ما سيؤدي إلى عواقب سياسية وخيمة بالنسبة إلى الديمقراطيين في الانتخابات النصفية في العام ١٩٤٦ وفي الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٤٨.

(١) كتاب Man of the People لـ Hamby، ص. ٤٠٨.
(٢) كتاب Conflict and Crisis لـ Donovan، ص. ٣١٩.
(٣) كتاب Man of the People لـ Hamby، ص. ٤٠٥.

وبذلك وجد ترومان نفسه بين فريقين. فلو تسلَّح بالحزم نفسه وقوة الإقناع عينها كما عندما نشر عقيدة ترومان وخطة مارشال وإمداد برلين الجوي لكان تحمّل مسؤولية الولايات المتحدة لضمان تسوية تفاوضية في فلسطين. وبدلاً من ذلك، وفيما كانت الولايات المتحدة ترفض منح تأشيرات هجرة إضافية للاّجئين اليهود والناجين من المحرقة، تدخل ترومان من بعيد، إلى أن رفع وزير الخارجية البريطاني إرنست بفين عن نفسه المسؤولية بشأن مصير فلسطين في أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٤٧، عندما قام بخطوةٍ عدّت الأضعف في تاريخ البلاد وأعلن أن بريطانيا ستسحب كل قواتها في شهر أيار/ مايو من العام التالي وأنها ستسلم تفويضها من جديد إلى الأمم المتحدة التي لم تكن تملك الإمكانات لفرض النظام.

وفي نهاية المطاف أوصت الأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر بتقسيم فلسطين بأغلبية الثلثين، سواء أكان ذلك عادلاً أم لا. وبعد أن رفض المسؤولون الفلسطينيون والبلدان العربية المجاورة أحكام تقسيم الأمم المتحدة (التي وهبت ٥٣٪ من البلاد، بما فيها صحراء النقب التي كانت موطنًا للبدو العرب طوال أربعة آلاف سنة)، اعترف ترومان بموطن اليهود الجديد بعد إحدى عشرة دقيقة فقط من انسحاب آخر جندي بريطاني في الرابع عشر من أيار/مايو ١٩٤٨. غير أن هذه الخطوة لم تساعد قط على تهدئة يأس العرب أو على قبولهم خطة الأمم المتحدة للتقسيم أو لتقدم دعواتها لوصاية موقتة فيما استمرت المفاوضات أو على تجنب هجمات الدول العربية المجاورة العسكرية.

جاءت تصرفات ترومان طوال فترة المأساة عكس تحذيرات وزارة خارجيته بعد أن حثه مرافقه السابق في البحرية الذي أصبح في ما بعد مستشارًا في البيت الأبيض، النقيب كلارك كليفورد، على ذلك. وبالتنازل عن الانتداب وسط تصاعد الدعوات الأميركية إلى زيادة هجرة اليهود، «حوّل رئيس الوزراء البريطاني في العام ١٩٤٧ الانتباه عن بلده إلى الولايات المتحدة التي أصبحت القوة الأكثر كرهًا في

الشرق الأوسط»، بحسب ما قاله وكيل الوزارة أشيسون لترومان.[1] ولا تزال الولايات المتحدة تحمل هذا اللقب حتى يومنا هذا.

دفع ذلك وزير الخارجية الأميركية، الجنرال مارشال إلى التمرّد بشكل استثنائي (بصفته جندياً مدرّباً)، فقال بوجه القائد الأعلى والرئيس التنفيذي في الولايات المتحدة أنه لو كانت الانتخابات الأميركية تقام في ذلك اليوم لكان «صوّت ضدّ الرئيس».[2] وكان ذلك اتهامًا همجيًا لسلوك ترومان المتناقض. فقد ضمن ترومان قيام موطن للناجين من المحرقة ولسائر اليهود بأسرع وقت، بعد أن نصحه بذلك شريكه السابق إدي جاكوبسون والدكتور وايزمان وكلارك كليفورد (الذين أنذروه قبل انسحاب بريطانيا بأنه سيخسر انتخابات العام ١٩٤٨ ما لم يعترف بقيام دولة إسرائيل) خصوصًا أمام مطالبة الكثير من الأميركيين اليهود بوطن يهودي بدلاً من مجرّد توفير تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة، ما كلّف ترومان ثمنًا باهظًا. فوصف ترومان في ما بعد الضغط الذي تعرّض له قائلاً: «لم أشهد شيئًا من هذا القبيل لا من قبل ولا من بعد، حتى عندما صرفت ماك آرثر».[3] وفي النصف الثاني من العام ١٩٤٧ وحده، تلقى ترومان مئة وخمسة وثلاثين ألف رسالة وبرقياتٍ وعرائض بهذا الخصوص.

على الرغم من أمر ترومان بالاعتراف بإسرائيل، الذي صدر في غضون دقائق، لم تكن الدولة الجديدة قادرة على الاستمرار من دون دعم الولايات المتحدة الاقتصادي والعسكري أو تحقيق السلام في المدى البعيد من دون معاهدات تفاوضية مع الأكثرية الفلسطينية السابقة والدول العربية المجاورة لها، ما حمّل الولايات المتحدة مسؤوليةً لم تشهدها من قبل ولم تردها وما زالت مستمرة حتى اليوم.

واتضح أن خصم ترومان في الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٤٨ كان حاكم

---

(١) كتاب Present at the Creation: My Years in the State Department لدين آتشيسون Dean Acheson صفحة ١٧٥.

(٢) كتاب Conflict and Crisis لـ Donovan، ص. ٣٨٢.

(٣) كتاب Miller ذو عنوان Plain Speaking، ص. ٢١٦.

ولاية نيويورك الجمهوري وصاحب الكلام المعسول توماس ديوي، الذي أظهرت استطلاعات الرأي انتصارًا محتملاً له، إلى حدّ أنّ ترومان همس لخصمه في برنامج الانتخابات في أيدل وايلد قائلاً: «احرص يا توم عند وصولك إلى البيت الأبيض على حلّ مسألة السمكرية حبًا بالله»[1] بحسب ما نقلته الصحف. (ولم يكن الأمر يتوقف على السمكرية فحسب فالبيت الأبيض كان يتطلب إعادة بنائه من الداخل بالكامل).

أدرك ترومان أنه كان متأخرًا في الرأي العام وفي دعم الإعلام، فاستعاد نشاطه كما في العام ١٩٤٠ عندما ترشح ضدّ حاكمٍ آخر، لويد ستارك، وقال لمساعدٍ له: «إنه كان يجاري خصمه وإنه كان متأكدًا أنهُ سيحتل الصدارة يوم الانتخابات».[2] كما أنه توقع الولايات التي كان سيتفوّق فيها بعدد الأصوات في اللحظات الأخيرة. وفيما مكث ديوي في المنزل، هبط ترومان بطائرته الرئاسية في مدينة إنديبانديس وقام بجولته «الرئاسية الخاصة» في سيارة البولمان المضادة للقنابل، التي عرفت بقاطرة فرديناند ماجلان، المجهزة بميكروفون ومكبرات الصوت. وفي مدنٍ كديترويت وجّه ترومان خطابه إلى عمال صناعيين وصل عددهم إلى المئة ألف. وتخلى ترومان عن خطابه الروتيني ولجأ إلى الارتجال كما في بداية مسيرته منتقدًا ديوي والكونغرس الجمهوري «الذي لا يفعل شيئًا» والأشخاص الذين يطاردون منتقدي الشيوعيين والمضللين الذين ينتمون إلى الحزب الجمهوري، فأصبح الناس يهتفون له: «أرهم ما أنت عليه يا ترومان». ومع ترشح نائب الرئيس السابق هنري والاس كمرشح مستقل ومعارضة المرشح الديمقراطي الجنوبي ستروم ثورموند لمشروع قانون ترومان للحقوق المدنية، الذي وضع له حزب الديكسيكرات حدًّا، شعر ترومان بوجوب الاندفاع وهذا ما فعله فيما كان بمنزلة مُستضعَف الشعب بينما بدا ديوي (مثل ستارك قبله) أرستقراطيا بعيدًا خارج صفوف العامة.

(١) كتاب Conflict and Crisis لـ Donovan، ص. ٤١٣.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٢٣.

وشكل ذلك خطوة تجديد متقنةً لترومان الذي كان موقفه قتاليًا وحازمًا في مواجهة الشيوعيين في الخارج من دون المخاطرة في حربٍ عرضية أو طائشة. وحجز الرئيس الأميركي غرفةً في فندقٍ في ميسوري بشكلٍ سرّي. وفيما أعلنت أن.بي.سي. أن المعركة تسير لمصلحة ديوي، أخلد ترومان إلى النوم، وقد أيقظه مساعدوه في الرابعة فجرًا ليقولوا له إن إحصاءات إيلينوا أظهرت أن الولاية قد صوتت له. فأجاب ترومان «هذا يكفي! لنخلد إلى النوم من جديد وننزل في الغد حتى ننتظر البرقية من ذلك الشخص». كان من الصعب على المساعدين عدم تقدير رئيس كترومان وخصوصاً عندما نظر إلى زجاجة الويسكي من نوع البوربون على المنضدة وقال: «حسنًا يا شباب، سنشرب كأسًا ونعود إلى النوم. سوف أسكب الكأس الأولى».(١)

وفاز ترومان في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨ حاصدًا ٤٩,٥٪ من الأصوات مقابل ٤٥,١٪ لديوي، أي ثلاثمئة وثلاثة ممثلين انتخابيًا مقابل مئة وتسعة وثمانين ممثلاً لديوي وتسعة وثلاثين لثورموند التمييزي (ولا شيء لوالاس)، مخيباً بذلك توقّعات استطلاع غالوب.

واتضح أن ترومان حقق نجاحًا ضئيلاً في خلال ولايته الثانية غير المتوقّعة (الولاية المنتخَبة الأولى) نسبةً إلى سنواته الثلاث الأولى في البيت الأبيض أو «السجن الأبيض العظيم»، كما سمّاه ترومان وزوجته. ففيما ساعدت عقيدة ترومان (وهو اسمٌ تمّ تأليفه في العام ١٩٤٧) على حفظ توازن الحرب الباردة في أوروبا، عجزت عن إيقاف اندلاع الحرب العربية-الإسرائيلية في العام ١٩٤٨. من جهة أخرى، لم يرد ترومان أن يُلزم القوات أو أن يطلب إلى الكونغرس مبالغ طائلة لدعم نظام شيانغ كاي-تشيك القومي في الصين، حيث سعى الجنرال مارشال من دون جدوى إلى دعم ائتلاف بين شيانغ والقائد الشيوعي ماو تسي تونغ. وتأكيدًا لتوقعات مارشال، كان الحزب القومي فاسدًا وسيئ القيادة بحيث لم يستحق دعمًا عسكريًا. وفي نهاية العام ١٩٤٩، احتلت قوات ماو بكين وانسحبت أخيرًا القوات القومية مع مليوني

(١) المصدر السابق، ص. ٤١٣.

لاجئ إلى تايوان. فأعلن ماو من الساحل نشوء جمهورية الصين الشعبية الشيوعية التي تضم خمسمئة وخمسة ملايين نسمة. واعترفت بريطانيا ودول أخرى بنظام ماو كأمر واقع تمامًا كما اعترفت الولايات المتحدة بإسرائيل في خلال لحظات. أما ترومان، واحترامًا لرأي الكونغرس فرفض القيام بذلك، ما جعل العلاقات الأميركية- الصينية تغرق في سبات عميق جيلاً كاملاً وانتقده اليمين الأميركي الإمبريالي لأنه «خسر» الصين لمصلحة ماو.

غير أنّ الولايات المتحدة لم تملك الصين يومًا لـ»تخسرها»، ولكن ذلك لم يمنع الجمهوريين من التحول من انعزاليين إلى مثيري حروب. ومع أنه كان محظوظًا لتجنبه حربًا في آسيا كادت تؤدّي إلى سقوط ضحايا بضخامة الحرب ضدّ اليابان، لكن ترومان لم يكن محظوظًا جدًّا في كوريا. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، انقسمت كوريا الخاضعة لسيطرة اليابانيين المستبدين منذ العام ١٩١٠ إلى منطقتين شمالية وجنوبية، تحت وصاية الروس والأميركيين. وفي الرابع والعشرين من حزيران/يونيو، اجتاح جيش كوري شيوعي بقيادة كيم إيل سونغ («قائدنا العظيم») الجنوب عبر خط العرض ٣٨ وصولاً إلى المنطقة الأميركية. وهكذا، وقع ترومان في مأزقٍ صَعُب عليه الخروج منه.

شنّ كيم إيل سونغ هجومًا فجر يوم الأحد عندما كان معظم جنود كوريا الجنوبية خارج الخدمة، استعان فيه بمئة وخمسة وثلاثين ألف فوجٍ ومئتين واثنتين وأربعين دبابة و مئة وثمانين طائرة سوفياتية الصنع، وعُدَّ هذا الهجومُ على الصعيد العسكري خطوةً حاذقة ولكن كارثية على الصعيد السياسي. كان ستالين قد أوقفه في العام السابق وحذره منذ وقتٍ قريب من أن يجتاح المنطقة الجنوبية إلا إذا كان واثقًا بأنه سيربح بسرعة. فقد كان كل شيء يتوقف على السرعة.

عاد الرئيس ترومان إلى واشنطن مباشرةً من مدينة إنديباندس في ميسوري حيث كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع في إثر تسلمه تقارير عن الهجوم في شمال كوريا. بغية توفير الوقت، رفع ترومان القضية أمام مجلس الأمن في الأمم المتحدة من دون

انتظار قرار رسمي من الكونغرس. واستطاع ترومان تجنب حق السوفيات في النقض نظرًا إلى انسحاب الاتحاد السوفياتي موقتًا من المجلس، الأمر الذي عكس تردد ستالين في القضية. هكذا طلب ترومان وحصل على قرارٍ واضحٍ (ثلاثة قرارات في ما بعد)، يدين الهجوم ويدعو الكوريين الشماليين إلى الانسحاب تجنبًا لعقوباتٍ اقتصادية وعسكرية.

وحتى ذلك الحين، اتخذ ترومان دورًا قياديًا دوليًا وكسب تأييد العالم الحر بأسره. غير أن الأحداث التالية خرجت على السيطرة السياسية على يد الجنرال دوغلاس ماك آرثر.

كان ماك آرثر البالغ من العمر سبعين عامًا طويل القامة وأنانياً إلى درجة جنون العظمة، وكان لا يزال القائد العام للقوات الأميركية في شرق آسيا والقائد الأعلى للحلفاء في اليابان. وعندما تخلّت قوات كوريا الجنوبية عن العاصمة سيؤول واستمرّت في التراجع جنوبًا، أرسل ماك آرثر، القائد العام لقوات الأمم المتحدة، جنودًا أميركيين من اليابان. وقد ساهم هؤلاء في تحسين الوضع في كوريا الشمالية ولكن لم تتوقف الأزمة في المنطقة. ولكن بعد تمركز وحدة عسكرية جديدة وراء الحدود الكورية الشمالية على الساحل الأوسط الغربي لشبه الجزيرة في إنشون في الخامس عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٥٠، هزم ماك آرثر جيش كيم إيل سونغ الغازي ببراعة وبوقت وجيز، فأعاد السيطرة على خط العرض ٣٨ وسعى إلى ملاحقة العدو شمالاً وتوحيد كوريا ليس كدولة شيوعية بل كدولة ديمقراطية تحت رعاية أميركية.

وفي الثامن والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٥٠، كانت الحرب الباردة في أوجها. ويمكن القول إن تاريخ الإمبراطورية الأميركية كان معلقًا برجلين، ماك آرثر وترومان. بالتأكيد في فورة انتصار عظيم في معركة إنشون (وهي عملية أمر بها ماك آرثر على الرغم من آلاف الأصوات التي نصحته بعدم القيام بهبوطٍ غير مستقر مماثل)، كان ماك آرثر مقتنعًا بأنه هزم العدو وبأنه كان قادرًا على هزم الفارين من جيش كوريا الشمالية في غضون أسابيع أو حتى أيامٍ، إذا سُمح له بتخطي خط العرض ٣٨. ومن

هناك كان قادرًا على المهاجمة شمالاً تجاه الحدود الصينية والاتحاد السوفياتي. لذلك أرسل برقية إلى واشنطن للحصول على موافقتها.

غير أن قرار الأمم المتحدة لم يسمح بتجاوز خط العرض ٣٨. كما خشيت وزارة الدفاع الأميركية تدخل القوات السوفياتية والصينية أمام أي تقدم أميركي، إذ كان وزير الخارجية الصيني تشو إن لاي قد هدد باتخاذ خطوة عسكرية إذا تمّ تجاوز خط العرض. وكان كل ذلك سيتضخم بسهولة ليصبح حربًا عالميةً ثالثة.

وكانت حينئذ الحسابات الخاطئة قد تؤدّي إلى أحد الأخطاء العظمى في التاريخ العسكري، غير أن ماك آرثر رفض تلك المخاوف وطمأن واشنطن بأن القوات السوفياتية والصينية في كوريا الشمالية كانت ضئيلة ولم يكن هناك أية علامات تشير إلى استعداد قوات خارجية لدخول البلد.

لو عارض ترومان ماك آرثر وأوقف قوات الولايات المتحدة والأمم المتحدة على خط العرض ٣٨ وهدد بعد ذلك بحرب ذرية إذا أعاد الكوريون الشماليون هجومهم على الجنوب، ما كان المؤرخون ليدينوه ولأصبح أحد أعظم الرؤساء الأميركيين، وفي مصاف فرانكلين روزفلت. كما كان من الممكن أن يتمّ ترشيحه لولاية ثانية بصفته الحارس الهادئ وإنما الحازم للسلام والأمن الدوليين. من جهة أخرى، لم يكن الشيوعيون السوفيات والصينيون قد أرسلوا أي قوات إلى الجبهة بعد ولم يكن مرجحاً أن يفعلوا ذلك للمساعدة على هجوم كوري شمالي ثانٍ على قوات الأمم المتحدة. غير أن المؤرّخين يكتبون التاريخ ولا يصنعونه.

وفي وقتٍ لاحق ندم ترومان على عدم صرفه ماك آرثر. وقال في مقابلة له: «لقد فكرت في الأمر كثيرًا وقد استنتجت أنه (أي ماك آرثر) في بعض الأحيان ويا للأسف لا يكون سليم العقل وهو يجبر كل من حوله على إطاعته، كان علي صرفه».[١] لم يسع أي من أعضاء إدارة ترومان إلى صرف هذه الشخصية الأسطورية التي كانت

(١) كتاب Miller ذو العنوان Plain Speaking، ص. ٢٩١.

العقل المدبر في الحرب العالمية الثانية والتي حملت اليابان على الاستسلام، خوفًا من إثارة اتهاماتٍ أخرى «بالتساهل» مع الشيوعيين. وفي اجتماعٍ لأعضاء مجلس الوزراء المسؤولين عن موظفي هيئة الأركان المشتركة، قال ترومان: «لقد أردت صرفه وإرسال الجنرال برادلي ليحل مكانه. غير أنهم أقنعوني بألا أفعل ذلك. وقالوا إن ذلك قد يحدث ضجةً عارمة فلم أصرفه ولكنني أخطأت».(1)

كان مستشارو ترومان على حق بشأن نفور الجمهوريين، فبعد أن صرف ترومان وزير الدفاع لويس جونسون بعد بضعة أيامٍ وعين الجنرال مارشال مكانه، أدين من قبل الجمهوريين في جلسة تأكيد تعيينه واصفين إياه «بقائد الخونة».(2)

وأمام وعد ماك آرثر بالانتصار الكامل (وبالتالي إعادة توحيد كوريا بالقوة كدولة ديمقراطية)، راهن ترومان ومستشاروه، بمن فيهم مارشال، على تفوق ماك آرثر في المعركة.

وأمِلَ ماك آرثر أن تكون المعركة أمرًا محتمًا على غرار كيم إيل سونغ عند مواجهته الأمم المتحدة. وفي التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٥٠ اتصل الجنرال مارشال بماك آرثر عبر الراديو ليطلب إليه عدم إثارة موضوع تجاوز خط العرض ٣٨ فيما كان ينهي حملته الانتخابية.

غير أن الرئيس ترومان كان قلقاً حيال المراهنة على جنرال سبعيني عنيد. فأمر وكالة المخابرات المركزية (وهي منظمة أنشأها بعد الحرب العالمية الثانية لتتولى مهمات مكتب الخدمات الإستراتيجية الأسطوري)، بالتحقق من تأكيد ماك آرثر أن القوات الصينية لن تتدخل، وأنها غير قادرة حتى لو أرادت ذلك. وعلى الرغم من أن وكالة المخابرات تيقنت صحة رأي ماك آرثر، ظلت الشكوك تنتاب ترومان. ووسط الابتهاج بانتصار ماك آرثر في معركة إنشون، اجترأ ترومان على عدم مواجهة

(١) المصدر السابق، ص. ٢٩٢.

(٢) كتاب جورج مارشال Forrest C. Pogue ذو العنوان George C. Marshall: Statesman ١٩٤٥-١٩٥٩ ص. ٤٧.

الاتهامات الموجهة ضدّه لإيقاف جنرال البلاد الشهير على حافة الانتصار الأميركي المفاجئ و«المحتّم». ولكن كلّ قطرة من دمه تعود إلى أصله المتواضع في ميسوري حذّرته من الغرور. وفي الخامس عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٥٠، اجتاز ترومان أربعة عشر ألف ميل للوصول إلى جزيرة وايك وسط المحيط الهادئ بغية مقابلة ماك آرثر شخصيًا لأول وآخر مرة في حياته. وهناك، على غرار محاولة يوليوس قيصر إقامة علاقة مشاركة مع مدينة بومبي، حاول الرئيس الأميركي أن يكون حضاريًا وأن يتعرّف وجهًا لوجه، إلى الجنرال المغرور علنًا الذي يهتمّ بمصالحه الشخصية فقط. فطمأن ماك آرثر ترومان من جديد في جلسةٍ خاصة معه وأمام شهود (بمن فيهم رؤساء الأركان المشتركة ووزير الدفاع) أنه سيضع حدًّا «للمقاومة المنظمة في كوريا بحلول عيد الشكر (في السادس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠) وأنه سيعيد أفواج الجيش الأميركي الثامن إلى اليابان بحلول «عيد الميلاد» وأكد له أن السوفيات والصينيين لن «ينفقوا الأموال على معركة خاسرة» والتدخل في الصراع.[١]

غير أن النتيجة كانت كارثة حقيقية. فقد زجت الصين بقوات في المعركة وأعداد هائلة (مئتان وستون ألفاً)، إذ إنها لم تستطع الوقوف مكتوفة الأيدي ومشاهدة الدولة الشيوعية المجاورة لها تدمّر، حتى ولو تسبب كيم إيل سونغ لنفسه بتحمل عبء جديد. ولاحظ ترومان متذكرًا «لقد تدخلت الصين بكامل قواها»، ولكنه لم يستجب لدعوات زملائه بصرف ماك آرثر، مرتئياً أن الوحدة الوطنية أهمّ من إلقاء المسؤولية على الآخر.[٢]

وأمام تغير مسار سيؤول أربع مرّات والفظائع المرتكبة من كلا الطرفين، تحوّلت الحملة على اليابان إلى مجزرة دموية. وما كان يبرهن عن حزم الأمم المتحدة لدعم الاجتياح العسكري الشيوعي تحول إلى ورطة مادية ومعنوية. ومع بداية شهر كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠، اختار الجنود والمسؤولون الدبلوماسيون الانسحاب من كوريا بالكامل، فقد اعتبر رئيس أركان الجيش الجنرال «لايتنينغ» جو «كولينز، أن «كوريا

---

(١) كتاب Donovan ذو العنوان Conflict and Crisis، ص. ٢٨٦ و٢٨٧.

(٢) كتاب لجيفري بيريت Geoffrey Perret ذو العنوان Commander in Chief، ص. ١٦٩.

لا قيمة لها»[1]، وكذلك فقد رأى رئيس وكالة المخابرات أن من المهم «الخروج من كوريا».[2] وفي المقابل، انتقد ماك آرثر الهزيمة الشبيهة «بانهزام ميونيخ»، واختار بدلاً من ذلك، نقل الحرب إلى الصين ومحاصرة مرافئها ومهاجمة مدنها جوًا باستخدام أسلحة ذرية ونقل القوات الصينية القومية من تايوان للمحاربة في كوريا وإطلاق هجوم بري على الصين من تايوان...

وفي غضون شهرين مصيريين، حوّلت مخاطرة ترومان في الوقت غير المناسب، الانتصار المحتمل إلى هزيمة فادحة. وقد أدت قيادة الولايات المتحدة التي استحقت ببراعة دور «شرطة الأمم المتحدة» في أيلول/سبتمبر ١٩٥٠ (كما حذر ستالين كيم إيل سونغ في العام ١٩٤٩)، إلى حربٍ كبيرة، حرب وصفها محذرًا رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال برادلي، أنها الحرب الخطأ في المكان والزمان غير المناسبين. وفضلاً عن ذلك، كانت الآن حربًا للحفاظ على فخر الجيش الأميركي وشرفه (فقد أجبر الجنرال واكر على القيام بأكبر انسحاب للجيش الأميركي، الذي كانت تطارده الصين، منذ الحرب الأهلية)، بدعم اليميني القومي سينغمان ري، الذي لم يعرف عنه الأميركيون شيئًا. كما تبدد تماسك الأمم المتحدة الذي تعزز في مواجهة اجتياح شمال كوريا، إذ زاد تهديد ماك آرثر بإطلاق القنبلة الذرية التوترات بين الحلفاء الأوروبيين والولايات المتحدة، التي كان تضامنها مع حلف شمال الأطلسي في العام ١٩٥٠ يصب في مصلحة الحريات الديمقراطية في العالم أكثر منه في مصلحة الحصول على ثروات مستوطنٍ ياباني سابق.

في جميع الأحوال، حوّل سوء تقدير ماك آرثر ووثوق ترومان به، مصير الولايات المتحدة نحو الأسوأ. وعندما بادر ماك آرثر في ربيع العام ١٩٥١ إلى إلقاء اللوم علنًا على ترومان وإدارته (في رسالة مفتوحة وجهها إلى زعيم الأقلية الجمهورية في الكونغرس)، بدلاً من إلقاء اللوم على نفسه، أقاله ترومان. وفي التاسع من نيسان/

(١) كتاب Another Such Victory لآرنولد أ. أوفنر Arnold A. Offner، ص. ٣٩٨.

(٢) كتاب Tumultuous Years لـ Robert Donovan، ص. ٣١٤.

أبريل ١٩٥١ قال ترومان للجنرال برادلي: «لن يستقيل هذا السافل» وسيدخل مضمار السياسة «أريد صرفه».(١)

غير أن الأوان كان قد فات. فقد غذى «استشهاد» ماك آرثر (الذي تم تكريمه في احتفالات شارك فيها ملايين عند عودته إلى الولايات المتحدة) روايات حول «اللوبي الصيني» في أميركا مثّلت حجة للذين كانوا يشجعون اللجوء إلى الأسلحة النووية لفرض الهيمنة الأميركية في الخارج. أما على الصعيد الداخلي، فقد حصل الوحش الماك كارثي، أي حملة السيناتور جو ماك كارثي الهادفة إلى التخلص من الوجود الشيوعي السري الكامن في الحكومة وفي مجالي الصناعة والترفيه في أميركا، على فريسةٍ دسمة.

وبإعلان حالة الطوارئ في البلد في الخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠، أُجبر ترومان على تحمّل ثمن خطأ ماك آرثر الذي أدى إلى تدمير بلده ومذابح رهيبة. وتميّزت السنتان التاليتان على جبهة القتال بسمات البطولة الجبارة التي بُذلت فقط في سبيل إعادة إحياء الإنجاز الذي حققته الولايات المتحدة في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٥٠، وهو تحديد خط العرض ٣٨ كالحدود الوهمية التي تقسم البلد بين كوريا شمالية وكوريا جنوبية. وقد أدت المعركة إلى وقوع حوالى مئة وسبعة وستين ألف ضحية في صفوف القوات المسلحة الأميركية، من بينها ثلاثمئة وستة وثلاثون ألف وستمئة وستة وثلاثون قتيلاً ومئة وثلاثة آلاف ومئتان وأربعة وثمانون مصاباً وستة عشر ألف قتيلٍ من قوات الأمم المتحدة الأخرى وأربعمئة وخمسة عشر ألف قتيلٍ من جنود كوريا الجنوبية ومدنييها. كما قُدر عدد القتلى في كوريا الشمالية بخمسمئة وعشرين ألفاً ووصل عدد الضحايا الصينيين إلى تسعمئة ألف.

وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، توجه مجرمان من نيويورك كانا قد سافرا وحجزا غرفتين في فندق هاريز في العاصمة واشنطن، إلى منزل بلير حيث كان يمكث

(١) كتاب Plain Speaking لـMiller، ص. ٣٦٦.

الرئيس موقتًا، وأطلقا النار على رجال الأمن المنتشرين حول المبنى، محاولين الدخول لاغتيال ترومان.

كان ذلك اليوم حارًا، فكان ترومان يستلقي على فراشه بملابسه الداخلية بعد أن حضر اجتماعًا مقلقًا في الصباح في الشارع المقابل، في الجناح الغربي للبيت الأبيض، حيث أعلن مدير وكالة المخابرات أن الوكالة قد اقترفت خطأً وأن خمسة عشر إلى عشرين ألفاً من قوات أفواج الجيش الصيني دخلت المعركة في شمال كوريا.

ولو استخدم القوميون من بورتوريكو أسلحةً أقوى من نوعين من المسدسات (مسدس لوجر ومسدس P-38، مزودين تسعاً وستين رصاصة) لكانا نجحا في عملية الاغتيال. ولكن في غضون دقيقتين أُطلقت سبع وعشرون رصاصةً فقُتل أحد المجرمين وشرطي من البيت الأبيض فيما أُصيب المجرم الثاني وشرطيان آخران من البيت الأبيض بجروحٍ بالغة. وعندما هرع الرئيس ونظر من النافذة ليكتشف بنفسه مصدر الفوضى، سمع صوتًا يصرخ عن الرصيف «عد إلى الوراء! عد إلى الوراء!»[1] وبكل شجاعة، ارتدى ترومان ملابسه ونزل الدرج ليذهب لحضور حفلة إزاحة الستار عن تمثال ممثل تشرشل العسكري في خلال الحرب العالمية، المارشال الميداني سير جون ديل، في مدافن أرلينغتون.

وبعد صدور حكمٍ بإعدام المجرم الناجي، دُهش هذا الأخير بعد أن خفف الرئيس حكمه إلى السِّجن المؤبد. وقد قال ترومان مفكرًا في وقتٍ لاحقٍ: «لطالما كان رأيي أنك إذا كنت في منصبٍ كهذا ويريد أحدهم قتلك فسيقتلك على الأرجح وليس هناك سبيل للفرار من هذا الواقع. فهذه هي حال الرئيس ولا أرى أي طريقة لتفادي ذلك».[2] غير أن وكالة المخابرات لم توافقه على الرأي. فأُعطي ترومان سيارة ليموزين مصفّحة مع أرضيةٍ مضادة للألغام الأرضية وسقفٍ يحمي من القنابل،

(١) كتاب Conflicts and Crisis لـDonovan، ص. ٢٩٤.

(٢) كتاب Plain Speaking لـMiller، ص. ٣٦٦.

لمجرد عبور جادة بنسيلفانيا ومُنع عليه المشي. فأصبح بحسب قوله سجين الرئاسة.(١)

كانت محاولات الاغتيال التي قام بها المجرمان من بورتوريكو أمرًا مُسلمًا به ولكن، وكما تساءل المؤرخون لاحقًا، لماذا تفشّت في الولايات المتحدة عدوى سُميت في نهاية المطاف بالماك كارثية حين برزت البلاد كأقوى دولة في العالم اقتصاديًا وعسكريًا بعد الحرب العالمية الثانية؟ ولماذا لم يبذل ترومان جهدًا أكبر للحدّ من تفشي هذه العدوى التي أنقصت لسنوات من مستوى الولايات المتحدة بحيث أصبحت دولةً شبه بوليسية يؤدي فيها مكتب التحقيقات الفدرالي دور جهاز مخابرات «شتازي» الغرب بدلاً من دوره الفعلي، فهو يملك ملفاتٍ «سياسية» عن كل قائدٍ سياسي محتمل وفعلي في البلاد، بالإضافة إلى آلاف المواطنين؟

والجواب هو أن ترومان حاول تجنب المصائب التي كانت تلوح في الأفق. وبأمرٍ من السلطة التنفيذية في الواحد والعشرين من آب/أغسطس ١٩٤٧، شكل مجلس مراجعة الولاء في لجنة الخدمة المدنية للتحقيق عن أي شخص وعن كل موظف دولة وُجهت ضده تهم وإشاعات «بعدم الولاء» للولايات المتحدة. وقد حقق المجلس، بمساعدة محققين من مكتب التحقيق الفدرالي، مع عشرات آلاف الأشخاص، فصُرف ما بين أربعمئة وألف ومئتين من بينهم في خلال ولاية ترومان، فيما استقال ما بين ألف وستة آلاف شخص والكثير منهم استقالوا احتجاجًا بسبب شعورهم بالاشمئزاز.(٢) بدا هذا العدد ضئيلاً، ولكن مؤسفًا بالطبع، نسبةً إلى موظفي الدولة الذين بلغ عددهم قرابة مليونين ونصف مليون. ولكن بدل من أن تظهر النتائج روح الوطنية ومصداقية الغالبية الأميركية العظمى، عززت الخوف والبغض بين المواطنين القلقين الذين حرصوا على تحمل أخطاء غيرهم وسط جو صعب من إعادة البناء في فترة ما بعد الحرب، وفي ظل ارتفاع الأسعار وانتشار أخبار سرقة أسرار السلاح النووي لمصلحة الروس. فكان لا بد لسياسيّ من أن يتخذ الخطوات المناسبة

(١) كتاب Truman لـ McCullough.

(٢) كتاب Man of the People لـ Hamby، ص. ٤٢٩.

للحد من موجة الخوف والذعر، وكان هذا السياسي هو السيناتور جو ماك كارثي.

ففي التاسع من شباط/فبراير، في مدينة ويلينغ، غرب ولاية فرجينيا، كان السيناتور ماك كارثي، سياسيًا ثرثارًا ومدمنًا الخمر وقد انتقل من الحزب الديمقراطي إلى الحزب الجمهوري، وقد اكتسب سمعةً سيئةً عبر زعمه أنّه يمتلك ورقةً مزيفةً وادعى أنها تحتوي على أسماء أكثر من مئتي «جاسوسٍ» شيوعي يعملون في الحكومة الأميركية.[1] غير أن القائمة كانت مزيفة والزعم مجرد كذبة والسيناتور دجالاً فاسدًا، وكل ما كان في سيرته الذاتية كان مجرد اختلاق، بدءًا ببطولته بعنوان «جو المدفعي الخلفي» وصولاً إلى إصاباته في الحرب. غير أن منصبه كرئيس لجنة الكونغرس الدائمة المتخصصة في التحقيق، أعطاه حرية التصرف لاتهام موظفي الدولة بالشيوعية، وذلك بمساعدة السيناتور روبرت تافت الذي كان يكره ترومان ويسعى للوصول إلى منصب الرئاسة وجي إدغار هوفر، مدير مكتب التحقيق الفدرالي الذي احتقر ترومان أيضًا.

ربما كانت كل الإمبراطوريات عرضةً للمذابح الداخلية سعيًا وراء السلطة أو محافظةً عليها. فقد بدا الهجوم الذي شنّه ماك كارثي على أفضل موظفي الحكومة الأميركية مشبّعًا بالحقد وخاليًا من أي لياقةٍ اجتماعية إذ إن دافعه كان الحسد أكثر منه أي رؤية إيديولوجية مدروسة. وعلى الرغم من غرق البلد في أجواء الحرب المرّة ضدّ الشيوعيين في كوريا وفي ظلّ القلق حيال تسرب المعلومات المتعلقة بالقنبلة الذرية الأميركية، جذبت أحاديثه عن الجواسيس والاتهامات التي ألقاها بشأن الغش في أعلى المراكز، الانتباه السياسي والاجتماعي.

وخوفًا من تفكك وحدة البلاد على يد غوغائي من ولاية ويسكونسن، أعلن الرئيس ترومان حالة الطوارئ في البلاد ودعا مستشاريه للاجتماع في الثامن والعشرين من شباط/فبراير ١٩٥١. فقد استفاد ماك كارثي من الامتيازات التي منحه إياها الكونغرس، للتشهير من دون خوف وتشجيع «الترهيب والتلميح» و«الحيل

(١) كتاب Senator Joe McCarthy لـ Rovere، ص. ١٢٣ و١٢٤.

القذرة» و«التنمر وإيذاء الأبرياء».[١] وتساءل الرئيس كيف سينتهي الأمر وماذا سيقترحون عليه فعله؟

وقد حضر النائب العام جاهزًا للإجابة عن هذا السؤال وأقرّ أمام المجتمعين أنه كان يحمل «ملفًا كبيرًا ولاذعًا»[٢] عن ماك كارثي وحياته الاقتصادية والخاصة الفاسدة، يتضمن تفاصيل عن شركائه الجنسيين في السنوات الأخيرة «بما يكفي للإحاطة بمشروع السيناتور ماك كارثي المتباهي».[٣]

ضرب الرئيس الطاولة بكفه ولكن ليس ليعلن أنه كان بين يديهم الآن سبل لفضح الرجل المزيف القادم من ولاية ويسكونسن. وفي وقت لاحق، ذكر الكاتب جون هيرسي الذي كان حاضرًا في الاجتماع، الأسباب التي منعت ترومان من نشر الملف، قائلاً: « يجب ألا تطلبوا إلى رئيس الولايات المتحدة أن ينزل إلى هذا المستوى المتدني. لا يمكن لأحد، ولا حتى الرئيس، الاقتراب كثيرًا من شخصٍ حقير وأن يتوقع الحصول على شيء غير من تفوح حقارته. إذا كنتم تعتقدون أن أحدهم يكذب عنكم، فالطريقة الوحيدة للإجابة هي قول الحقيقة الكاملة».[٤]

وكان ذلك يعكس سذاجة ترومان المأسوية. أما النتيجة فقد كانت أسوأ مما تخيلها الجميع. وأشار جوزيف غولدن إلى أن كون الخوف واللامبالاة والجهل، هي الثقافة المرضيّة للعصر، يعني «أن الولايات المتحدة دخلت طوال عقدٍ كاملٍ، أي في الخمسينيات، فترة جمود فكرية وأدبية وسياسية».[٥] أما دين أتشيسون، وزير الخارجية الشجاع في إدارة ترومان، فقد كتب عن «تعدد محاولات الاغتيال غير

(١) مقالة Truman Would Answer With Truth لجون هيرسي John Hersey نُشرت في ص. St. Petersburg Times في السادس من آب/أغسطس ١٩٧٣.

(٢) كتاب Aspects of the Presidency طبعة (New Haven: Ticknor and Fields) عام ١٩٨٠ لـ John Hersey، ص. ١٣٨.

(٣) كتاب Counsel to the President لكلارك كليفورد Clark Clifford، ص. ٢٩٠.

(٤) المصدر السابق، ص. ٢٩٠ و٢٩١.

(٥) كتاب The Best Years ١٩٤٥ ١٩٥٠ لجوزف غولدن Joseph Goulden، ص. ٤٢٧.

المسؤولة للشخصيات، هذه المحاولات المخجلة والعدمية في الخمسينيات»[1] التي أثّرت في الحكومة الأميركية وفي الجامعات وفي الخدمة المدنية (التي اضطر أعضاؤها إلى حلف يمين الولاء والخضوع للتحقيق الفدرالي)، والتي تطلبت «عقدًا كاملاً للانتعاش».[2] أما كلارك كليفورد الذي كان حاضرًا أيضًا في الاجتماع المتعلق بملف ماك كارثي، فكتب لاحقًا « من السهل تسليط الضوء على ماك كارثي اليوم، فيما يستخدم المحافظون عبارة «المكارثيّ» لوصف التكتيك السياسي الوسخ وغير العادل، ولكن الواقع المرّ الذي يجب ألا نغفله هو أن جو ماك كارثي سيرهب واشنطن وقسمًا كبيرًا من البلاد إلى أن يدمّر نفسه»، إذ أعطى مجاناً ذخائر للشيوعيين في الخارج الذين امتلكوا حق وصف الولايات المتحدة كدولة شبه بوليسية وليس كدولة ديمقراطية حقيقية.[3] ولأنّ ترومان أشرف من أن ينزل إلى مستوى ماك كارثي، سمح له أن يكمل «حيله» لثلاث سنوات أخرى، استمرّ تأثيرها لفترة أطول.

كان ترومان في سنة رئاسته الخامسة عندما قرر، في ربيع ١٩٥٠، حتى قبل أن تبدأ الحرب الكورية عدم الحكم لولاية أخرى. وأشار في مذكراته، في السادس من نيسان/أبريل ١٩٥٠، «إنّ كين سناتوس وواشنطن هما أكبر مثال على ذلك. فعندما نسيت روما كين سناتوس بدأت الانهيار»، ليظهر أن بعد انتهاء ولايتيهما، عاد كلّ من الرئيس واشنطن وكين سناتوس إلى مزرعتيهما، وكين سناتوس بعد أن حكم روما موقتًا في العام ٤٣٩ قبل الميلاد. وفي نهاية مدة ولاية ترومان، كان قد حكم البلاد سبع سنواتٍ وتسعة أشهر. وكتب بعدها قائلاً: «لن أترشح لولايةٍ أخرى ولن أقبل تعييني لولايةٍ أخرى»[4] (غير أنه لم يقل ذلك في العلن كيلا ينعته المواطنون بالرئيس المنتهية ولايته).

---

(١) كتاب Present at the Creation لـAcheson، ص. ٣٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٦٩.

(٣) كتاب Counsel to the President لكلارك كليفورد Clark Clifford، ص. ٢٩٠.

(٤) كتاب Off the Record لـFerrell، ص. ١٧٨.

وفي الواقع، لم يُعرض على ترومان البقاء لولايةٍ أخرى. فأمام الجمود المستمرّ في الحرب الكورية وابتعاد الديمقراطيين الجنوبيين المؤيدين للتمييز العنصري أكثر فأكثر عن الحزب الجمهوري، لاقى الرئيس المحاصر دعمًا ضئيلاً أو حتى معدومًا من أعضاء الكونغرس والسيناتورات القلقين حيال فرصهم بإعادة انتخابهم. وكلما وضع أحدهم اسمه على لائحة المرشحين للانتخابات الرئاسية الأولية، كان ترومان يُهزَم بشكلٍ قاطع. وعلاوةً على ذلك، عندما قال الجنرال أيزنهاور، القائد الأعلى لحلف شمال الأطلسي الذي يتمتع بشعبية كبيرة في أوروبا، بأنه سيستقيل من منصبه ليترشح للرئاسة كجمهوري إذا اختاره الحزب الجمهوري في الاتفاقية السياسية التي وقعها في صيف ١٩٥٢، شعر ترومان بالأسف فقد كان يأمل أن يترشح الجنرال كديمقراطي.

عكس فوز أيزنهاور في الانتخابات الرئاسية وسيطرة الجمهوريين على الكونغرس وعلى مجلس النواب، أن الدولة تعبت من الحروب. فقد وعد الجنرال أيزنهاور الأميركيين بأن أول ما سيفعله هو «التوجه إلى كوريا» ووضع حد للجمود، إمّا بالقتال حتى النهاية الحاسمة وإما بإرجاع الجنود إلى وطنهم. وقدّم ترومان طائرته والإحاطات الانتقالية مع موظفيه للرئيس المنتخَب وعقد اجتماعًا معه في البيت الأبيض المجدد حديثًا.

وفي المكتب الرئاسي، أعاد هاري ترومان الكرة الأرضية التي أعطاه إياها أيزنهاور قبل سنين، اعترافًا بمسؤوليات ترومان التابعة للإمبراطورية. كان ترومان بينه وبين نفسه يائسًا. وذكّرت مارغريت ابنة ترومان بتوقعات والدها الذي قال: «سوف يجلس هنا ويعطي الأوامر!! ولكن شيئًا لن يحدث. آيك المسكين، لن تكون الرئاسة كالجيش. وسوف يجدها مسببة للكبت جدًّا».[1]

وبذلك، غادر كين سناتوس أميركا الحديثة والمزارع وبائع الخردة السابق، البيت الأبيض من دون أي حارس شخصي أو معاش تقاعدي.

(١) كتاب Harry S. Truman لمارغريت ترومان Margaret Truman، ص. ٥٥١ و٥٥٢.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

اختلف هاري ترومان عن سلفه أف.دي.آر، في الخلفية والشخصية. ففيما كان فرانكلين روزفلت كريمًا ويغمر الناس بحضوره ويرفع رأسه الذي يشبه رأس الأسد عندما يضحك أو يطرد خصومه، كان ترومان قصيرًا وصلبًا وكانت عيناه تشبهان الينابيع المدورة من وراء نظارتيه السميكتين. وفي الواقع، كان الرئيس الوحيد في القرن العشرين الذي كان يضع نظاراتٍ بشكلٍ دائم، حتى عندما سبح في مسبح البيت الأبيض.

بلغ طول ترومان خمس أقدام وعشرة إنشات وكان يزن ١٨٥ رطلاً. كان يحبّ أن يلبس بذلاتٍ مزدوجة الصدر وفاتحة اللون، مع قميص مغسول جيدًا ومنديل بالعقدة الخماسية في جيب الصدر ودبوس المحاربين القدامى في الحرب العالمية الأولى على طية صدر السترة. لم يكن يتمتع بدفء ساحر ولكنه كان صادقًا وثابتًا بطريقة منطقية. ولو أخذنا السحر وحده في الاعتبار لكان دوايت أيزنهاور ترشح للرئاسة في العام ١٩٤٨ بدلاً من العام ١٩٥٢ ولكان تغلب على ترومان بسهولة.

اعترف ترومان بافتقاره إلى الجاذبية الخطابية الساحرة، فقد كان يخاطب الغير بطريقة مهينة ومضحكة في حين كان يوضح أفكاره ومشاعره في مذكراته وفي رسائل لم تُرسل مئات منها.

كان ترومان يعشق زوجته باس. وعندما ألقت عليه التحية ببرودة بعد أن سافر من واشنطن إلى مدينة إنديباندنس وسط عاصفةٍ ثلجية ليمضي معها عيد الميلاد، جُرح ترومان لدرجة لا توصف. وكتب في رسالة لم يرسلها «لن تعرفي يومًا ما شعرت به عندما عدتُ إلى المنزل ذلك اليوم بعد أن قمتُ بأعمال كثيرة لم أرد القيام بها [بصفته رئيسًا في العام ١٩٤٥] ورأيتُ الشخص الوحيد في العالم الذي يهمني رأيه وموافقته ينظر إلي بقرف ويقول لي إنني عدت في النهاية إذ لم أجد سببًا للبقاء بعيدًا...»[1]

(١) رسالة الثامن والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥ الواردة في كتاب Strictly Personal and Confidential طبعة Monte M. Poen، ص. ١٧٣.

والحقيقة هي أن أمام حسه الكبير بالمسؤولية وحسن نيته، كان ترومان غير صبور وسريع الغضب. غير أنه لم يسمح لنفسه بأن يفقد أعصابه في العلن إلا في بعض الحالات النادرة التي خلع فيها قناعه، كاليوم الذي اجترأ فيه مذيع موسيقي في واشنطن بوست على انتقاد أول حفلة غناء لابنته مارغريت، حيث استشاط ترومان غضبًا. فكتب للصحافي رسالة لاذعة ختمها وأرسلها بنفسه قائلاً له: «آمل أن ألقاك يومًا، وإذا فعلت سوف تحتاج إلى أنفٍ جديدٍ وقطع لحوم لا تحصى لتخبئ بها عينيك المزرقتين وربما إلى كرسي متحركٍ»!(١)

لم يكن ترومان مغرورًا فاعتقد المغرورون الآخرون أنهم قادرون على التفوق عليه، من لويد ستارك مرورًا بجايمس بيرنز وصولاً إلى دوغلاس ماك آرثر. ولكن لم ينجح أيٌّ منهم في ذلك. غير أن حماته الثرية مادجي والاس كانت كالكارثة بالنسبة إليه. فلم تتقبل زواج ابنتها باس بترومان طوال سنوات لاعتباره مجرد «مزارع أوساخ». لقد استغرق ترومان عدة سنواتٍ للفت نظر باس، إلهة طفولته (التقاها أول مرة في صف الدين عندما كان في السادسة من عمره) ليتمكن في نهاية المطاف من إعجاب أمها لتقبله زوجًا لابنتها. ومثالاً على ذلك، انتقدته حماته يوم زفافه لأنه ارتدى بذلة من الصوف الخفيف مع معطف بدلاً من الكتان.

أما بالنسبة إلى زوج مادجي والاس، فقد كان رجلاً سيئًا وثرثارًا ومدمنًا الكحول وقد أطلق النار على نفسه حتى الموت في الحمّام، مما دفع السيدة والاس إلى التعلق بابنتها والسعي لكسب الاحترام بأي ثمن. وقد كان الثمن الذي طلبته مقابل موافقتها على زواج ترومان بابنتها هو أن يسمحا لها بالإقامة معهما أينما مكثا، وهذا ما فعلته. وتوفيت في البيت الأبيض قبل شهر من انتهاء مدة رئاسة ترومان.

وصف أحد كتاب سير حياة الرؤساء الإنكليزي ترومان «بأكثر الأزواج المخلصين في تاريخ الرئاسة الأميركية».(٢) فقد كان بالتأكيد الأكثر إخلاصًا في كتابة رسائل

(١) رسالة السابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٠ الواردة في كتاب Truman لـMcCullough، ص. ٨٢٩.
(٢) كتاب Truman لروي جينكينز Roy Jenkins، ص. ١٥.

لزوجته، مما أعجب المؤرخين وأثار شكوك باس. وُصفت زوجة ترومان بالسيدة الأولى «المملة والقصيرة والبدينة والباردة»، فلم تتبنَّ أية قضية عظيمة (أو صغيرة) وقد كانت يداها تعرقان كلّما تكلمت في العلن (ما حاولت تجنبه في كل مرة) ولم تؤمن بتعزيز حقوق المرأة وقد هاجمها عضو الكونغرس آدم كلايتون باول ذو العرق الأسود لحضورها حفلة استقبال لفتيات الثورة الأميركية الداعمة للتمييز العنصري وتعرضت لانتقادات شديدة لعبورها الخط الفاصل لرؤية إنغريد برغمان تمثل في مسرح كان لا يزال معزولاً عنصريًا. ولكن على الرغم من كل شيء، بقيت باس حبّ حياة ترومان الوحيد هي وابنته مارغريت («مارجي»).

لم تعمل باس والاس قط بعد إتمام دروسها. وكانت سعيدة لكونها ربة منزل. ساعدت زوجها على الحسابات عندما عمل كبائع خردة وعلى معاملاته عندما كان سيناتورًا. نادرًا ما كان ترومان يلقي خطابًا أو يرسل رسالة قبل أن تدقق فيها، علمًا أن الصفات التي تتمتع بها كالانعزال والحذر الشديد واستقامتها كانت تعادل عزمه وسرعة غضبه وتهوره. وسأل ترومان خطيبته الجديدة في رسالة في العام ١٩١٣ «ما هو شعورك كونك مخطوبة لريفيّ أخرق يطمح إلى أن يصبح حاكم ميسوري والرئيس التنفيذي للولايات المتحدة؟ سوف نكون محظوظين إذا استطاع أن يصبح مزارعًا متقاعدًا. سوف أحاول بجهد قدر الإمكان وأظن أنني سأتوصل إلى نتيجة. لن تندمي يومًا على مرافقتي في السرّاء والضرّاء فسأسعى دائمًا إلى الأفضل».[١]

لم يعرف ولاء ترومان لزوجته أي حدود. وإذا أساء أحدهم التكلم عليها عوقب إلى الأبد. ومع تقدّمها في السن، أصبح إخلاصه لها أعمق. وقد علق بعد رؤية إعلان لمارلين مونرو «إن الرجل الحقيقي يفضل المرأة الأكبر سنًا». بعث ترومان رسائل إلى زوجته وصلت أعدادها إلى مئات في كل يوم كان بعيدًا عنها. وعندما رآها يومًا تحرق بعض رسائله سألها «ماذا تفعلين بحق الله؟» فأجابته قائلةً: «إنني أحرق

(١) رسالة العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٣ الواردة في كتاب Dear Bess لـ Robert Ferrell، ص. ١٤٠ و١٤١.

رسائلك». فقال لها معترضًا: «باس! لا يجب أن تحرقيها». فقالت: «لمَ لا؟ لقد قرأتها عدة مرّات.» فأجابها «ولكن فكري في تاريخنا!» فقالت له: «لقد فعلت».[1]

لا نعرف كم رسالة من رسائل ترومان قد أحرقت باس. ولكن أكثر من ألف رسالةٍ لا تزال موجودة وتعكس بنظرة حميمة وساحرة براعة ترومان ودقة ملاحظته وطموحه وروحه المرح وولاءه وحبه.

وذات مرة، عندما كان في بوتسدام، أوصله ضابط أميركي إلى الفيلا الخاصة به وعبّر عن استعداده لفعل أي شيء للرئيس وحتى «أن يدبر له نساء». فقاطعه ترومان قائلاً: «اسمع يا بني، لقد تزوجت بحبيبتي وهي لا تواعد غيري وأنا لا أواعد غيرها. أريد أن يكون هذا مفهومًا. إياك أن تذكر هذا النوع من الأمور أمامي مرةً أخرى».[2]

ولما كان ترومان مثالاً للحياة الزوجية بالنسبة إلى سلفه أف. دي. آر. (وإلى خلفائه أيزنهاور وكينيدي وجونسون)، إلا أنه لم يكن بأي شكلٍ من الأشكال متزمتًا أو معارضًا للتسلية خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالموسيقى. ففي عرضٍ مسرحي للعسكريين بعد فترة وجيزة من تعيينه رئيسًا في العام ١٩٤٥، أدهش ترومان العالم بعزفه على بيانو رأسي أمام ثمانمئة شخص فيما كانت لورين باكال الممشوقة جاثمة على البيانو. (وقد أثارت الصورة أطنانًا من الرسائل المبعوثة من قبل «النساء المسنّات» اللواتي اعتبرنها غير لائقة بمنصبه كنائب رئيس). حتى أنه أدهش رئيس الوزراء تشرشل بحسب ما قاله طبيبه لورد موران. فكتب في مذكراته في بوتسدام «عند خروجه، مرّ ترومان بالقرب من بيانو في إحدى الغرف، فتوقف وسحب كرسيًا وعزف عليه لفترة».[3] كما أقام الرئيس حفلةً لستالين وتشرشل في شارع القيصر رقم ٢ في بوتسدام حيث عزف مقطوعة مينويت (الرقصة الكلاسيكية) لباديريفسكي على نوتة الجي التي تعلمها على يد باديريفسكي شخصيًا بعد أن قدّم ترومان حفلة موسيقية في مدينة كنساس عندما كان في الثانية عشرة من عمره. وبعدئذ، عندما

(١) المصدر السابق صفحة vii.

(٢) كتاب Truman لـ McCullough، ص. ٤٣٥.

(٣) كتاب The Struggle for Survival للورد موران Lord Moran، ص. ٢٩٨.

المدرسة، وكان يعدّ طويلاً في ذلك الوقت (٥,١٠ أقدام ويدان كبيرتان جدًا وعينان زرقاوان ووجه جميل). عقد اللفت السويدي اتفاقًا مع أخيه وهو أن يعمل أحدهما عدة سنوات ليتعلّم الآخر في الجامعة ومن ثمّ يعكسان الأدوار. فذهب أخوه الأكبر منه إلى جامعة ميشيغن- إلا أنه لم يردّ له هذه الخدمة.

لكن ذلك لا يهم. فبعد تخرّج أيزنهاور في الثانوية، عمل ستاً وثمانين ساعة في الأسبوع في مصنع الزبدة المحلي، وفاز في امتحانات تنافسية وحصل على توصيات عالية المستوى في أكاديمية وست بوينت العسكرية حيث دخل طالباً مبتدئاً في العام ١٩١١. في الواقع، إن أيزنهاور قائد بالفطرة ويتمتّع بذاكرة قوية وورث من والده طبعًا عصبيًا أمضى حياته يحاول السيطرة عليه. حتى أن والدته كانت تحاول أن ترسّخ فيه الفكرة التالية: «من يستطع السيطرة على أعصابه أعظم ممن يجتاح مدينةً برمّتها»[١]. وساعدت هذه الكلمات أيزنهاور على تطوير آرائه الحقيقية. وقال في هذا الصدد: «حققت ما حققته في الحياة عبر تعلّمي كيف أخفي أنانيتي وذكائي».[٢]

في العام ١٩١٥، عُيّن أيزنهاور ملازماً ثانياً، وصحيح أن خريج أكاديمية وست بوينت كان فقيرًا إلا أنه كان محبوبًا، وكان يتمتّع بقدرات هائلة ومع ذلك لم يكن مدّعيًا. كما أنه كان يتحلّى بجاذبية كبيرة تشدّ الرجال والنساء على الرغم من خجله. وفي العام ١٩١٦، تزوّج فورت سام هيوستن ابنة رجل أعمال مليونير يعمل في مجال تعليب اللحوم. منع المليونير الملازم من الانضمام إلى سلاح الجو المُنشأ حديثًا خوفًا من أن تصبح ابنته أرملةً شابةً. وهكذا، عند دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، طُلب إلى أيزنهاور أن ينظّم تدريبًا لحوالى عشرة آلاف جندي يعملون في الدبابات لدخول الحرب في فرنسا. ولسوء حظه، كان عمله في الإدارة فعالاً جدًا، لذلك تمّ إبقاؤه في أميركا، في حين ازداد عدد الجيش بشكل كبير من مئة وستة

(١) المصدر السابق، ص. ٣٤.

(٢) كتاب Confessions of a White House Ghostwriter لجايمس سي هومز James C. Humes طبعة Washington DC: Regner ١٩٩٧، ص. ٣٩.

آلاف في العام ١٩١٦ إلى ٢,٤ (مليون) فرد بعد ثلاث سنوات. وتم تكريمه بإعطائه ميدالية الخدمة المتميّزة.

وتم تخفيض رتبته بشكل موقت من كولونيل ملازم إلى نقيب، ومن ثمّ رُقّي مرةً جديدةً إلى رتبة رائد وبعدها إلى ملازم ثانٍ. وفي خلال العشرين سنة التي أمضاها أيزنهاور في الجيش، لم يقد يومًا معركةً على الأرض، إلا أنه كان مقدّرًا جدًا لمهارته كمدرّب كرة قدم وكضابط وكلاعب بوكر يدخّن السيجارة تلو الأخرى.

كان يهتمّ بالتحديث والمكننة، وعلى الرغم من تقليص عدد الجيش في خلال فترة ما بعد الحرب إلى ثلاثمئة ألف فرد في العام ١٩١٩، شارك أيزنهاور بصفته مراقب في أول حدث من نوعه، بحيث عبرت كتيبة من الجيش طريقاً عبر القارات على الدرّاجات النارية. وشكّل هذا الحدث أساس مشروعه لنظام الطرق السريعة في الولايات المتحدة الذي قاده في خلال ولايته. من ناحية أخرى، خدم في باناما ومن ثم في أوروبا (في لجنة الجنرال بيرشينغ للمعارك الأميركية) كما خدم في واشنطن العاصمة. وهناك خدم ضابطاً مساعداً لقائد رئيس أركان الجيش الأميركي الجنرال دوغلاس ماك آرثر، وشهد على هذا الأخير وهو يرفض تلقي الأوامر مباشرةً من المسؤول التنفيذي، فأمر ماك آرثر وحدات الجيش الأميركي (التي يقودها جورج أس. باتون) بعبور جسر أناكوستيا وتدمير أحزمة البؤس التي أُنشئت في الحرب العالمية الأولى (هوفرفيل) حيث يعيش فيها المحاربون القُدامى الذين يطالبون بدفع العلاوات التي وُعدوا بها في الثامن والعشرين من تموز/يوليو ١٩٣٢، في خضمّ الكساد الاقتصادي. وعُد هذا الأمر تحدّيًا متعمّدًا للسلطة السياسية، ونقل كاتب السير العسكرية[١] عن لسان أيزنهاور: «إنّ هذا الحدث أحد أكثر الأحداث خزيًا في تاريخ أميركا».

كذلك، قال أيزنهاور لاحقًا عن ماك آرثر[٢]: «لا يمكنني أن أفهم كيف أن

(١) كتاب Eisenhower لـ D'Este، ص. ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢٤.

مغفّلاً مثله أصبح جنرالاً». ولكن في ذلك الوقت كان هو مجرّد رائد ولم يكن يرغب في مواجهة رئيسه، الذي كان يعد المحاربين القدامى الذين يُطالبون بالعلاوة شيوعيين يتظاهرون بالضعف. وكان أيزنهاور يرى أنه «كان عبدًا في دائرة الحرب» بقيادة ماك آرثر، إلا أنَّ السنوات الخمس التي أمضاها في العاصمة خوّلته أن يلتقي وزراء وسيناتورات وأعضاء في الكونغرس، وأن يشاركهم في الطعام ويعمل وإياهم. وشكّلت هذه السنوات خبرةً قيّمةً وتمهيداً لتسلّمه منصبًا منتخبًا وطريقةً لطيفةً لعكس سنوات «نفيه» إلى الهادئ.[1]

وفي العام ١٩٣٤، عيّنه أف.دي.آر. في الفيليبين (وهي مستعمرة أميركية كان يفترض أن تُمنح استقلالها في العام ١٩٤٥) برتبة رئيس المهمات العسكرية الأميركية فيما عُيّن الجنرال ماك آرثر بطريقة غير منطقية مارشالاً ميدانيًا لجيش الفيليبين الهزيل، وأصرّ على اصطحاب أيزنهاور معه برتبة جنرال في الجيش الفيليبيني، فوافق هذا الأخير على الذهاب، لكنه رفض الرتبة ما جعل ماك آرثر يمقته. وقال الضابط ماك آرثر الذي لا يكلّ مستهزئًا[2]: «لقد كان أفضل موظف عمل تحت إمرتي».

من ناحية أخرى، لو بقي أيزنهاور في الفيليبين، لكان انتهى به الأمر مأسورًا لدى اليابانيين، هذا لو كان استطاع أن يتخطى مسيرة الموت في باتان وظروف أسرى الحرب الرهيبة. على صعيد آخر كان الكولونيل الملازم قد أمضى معظم حياته في القصر الجمهوري في مانيلا يلعب البريدج مع الرئيس الفيليبيني مانويل كويزون وحُرم الاتصال بزملائه في الجيش، فعُين مجددًا في الولايات المتحدة في أواخر العام ١٩٣٩. وقاد لوقت قصير كتيبة للمناورات من ثم خدم رئيساً لأركان فيلقٍ أول بصفة كولونيل، ومن ثم بصفة عميد. وفي نهاية المطاف، أثمر صفاء ذهنه إلى جانب قدرته على تأدية الأعمال الصعبة خصوصًا بعد أحداث بيرل هاربر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، أن أصبح جزءًا من فريق تخطيط العمليات الذي يعود إلى دائرة

(١) المصدر السابق، ص. ٢٢٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٣٥.

الحرب التابع للجنرال جورج مارشال. وبهذه الصفة، أرسله مارشال إلى إنكلترا في الربيع التالي لدراسة جدوى تنفيذ الحلفاء اجتياحًا عبر القنوات في العام ١٩٤٢.

أحب البريطانيون أيزنهاور، فعُين قائداً أميركياً للساحة الأوروبية. وفي رسالة إلى زوجته كان لا بدّ من أن يكون «دبلوماسيًا بعض الشيء ومحاميًا ومروّجًا وبائعًا وشخصيةً اجتماعيةً مرموقةً وكاذبًا (أقله ليتهرّب من الشؤون الاجتماعية) وممثلاً ومالك عبيد مستبدًّا ومحبًا للبشر وخطيبًا وفي أحيان قليلة (أي في بعض الأوقات القليلة السيئة) جنديًا»[1].

أدى أيزنهاور كل هذه الأدوار ببراعة تامة. وكانت أفكاره الإستراتيجية والتكتيكية موضع شك (فعلى سبيل المثال لقد كان مأخوذًا باللورد لويس ماونت باتن، أدميرال بريطاني شاب وقد أيّد بشدة تنفيذ يوم العمليات في العام ١٩٤٢ بوحدة واحدة. وعندما خطط ماونت باتن لتنفيذ هجوم بوحدة واحدة في القناة الإنكليزية في ديبيه في شهر آب/أغسطس، قتل وجُرح وأسر ما يفوق الثلاثة آلاف وخمسمئة جندي كندي وحليف في يوم واحد، ما أحبط على مدى سنتين أي محاولة مستقبلية لتنفيذ اجتياح عبر القنوات). ومع ذلك، فإنّ نزاهته التامة وإخلاصه الوطنيّ عوّضا من فشله في حرب كان على الحلفاء الفوز بها ما دام الروس مستمرين في المواجهة في الشرق وما دامت الصناعة الأميركية مستمرة في إنتاج الطائرات والسفن والدبابات والمدافع.

وفي ما يتعلّق بإستراتيجية الولايات المتحدة «في القضاء على ألمانيا أولاً»، اكتسب أيزنهاور شهرة وسمعة القائد الأعلى الذي يمكنه أن يقود بلُحمة فريقًا دوليًا، لأنه قد عُيّن رئيس أركان قوات الجو والبحر والأرض التابعة للحلفاء لتنفيذ «عملية المشعل» وهي عبارة عن اجتياح الحلفاء لشمال غربي أفريقيا في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢، على الرغم من عدم ارتياحه في أداء دور قيادي غير بارز. وكتب لزوجته من الجزائر على بُعد مئات الأميال من المعركة: «كنت أقرأ عن قادة الجيش

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٥.

وأحسدهم على ما كنت أظنه حرية مطلقةً في التحرّك واتخاذ القرارات». «يا لها من فكرة! إنّ حياتي مزيج من السياسة والحرب، فالحرب شنيعة، إلا أنني مدرّب عليها!» أما السياسة، في المقابل فكانت «حقدًا واضحًا وخالصًا» تتطلب ليس وقته القيّم فحسب بل أيضًا «طباعه الجيدة» بغية قيادة قضية الحلفاء(١).

من جهة ثانية، جعل استسلام سائر قوات ألمانيا والمحور في شمال أفريقيا في الثاني عشر من أيار/مايو ١٩٤٢ في تونس من السياسة والحقد يستحقان التضحية. كذلك، فإنّ اجتياحات الحلفاء التالية في سيسلي في تموز/يوليو ١٩٤٣ وفي الساحل الإيطالي في أيلول/سبتمبر ١٩٤٣ أضفت على سمعة أيزنهاور المتنامية رونقاً. وفي السابع من كانون الأول/ديسمبر، وفي خلال الذكرى الثانية لأحداث بيرل هاربر، زار الرئيس أيزنهاور في تونس في طريقه إلى القمة التي تجمعه مع تشرشل وستالين في طهران. فقال له أف.دي.آر.: «حسنًا يا أيك، ستقود عملية أوفرلورد» أي اجتياح بدء العمليات المقرّر لربيع ١٩٤٤.(٢)

وفي وقت لاحق، سأل جايمس نجل أيزنهاور، أف.دي.آر لماذا اختار والده بدل الجنرال مارشال، فأجاب شارحًا: «إنّ أيزنهاور أفضل سياسي بين أفراد السلك العسكري، فهو قائد بالفطرة يمكنه إقناع الآخرين بالسير معه وهذا ما نحتاج إليه في منصبه أكثر من أي صفة أخرى.»(٣) كان أيزنهاور يتمتّع بانفتاح شفاف وعزيمة قوية، وبذلك تفوّق على المنازعات الداخلية التي تفسد ائتلاف الحرب. حتى أنّ ستالين قد انبهر بطبعه فعلّق قائلا: «إنّ الجنرال أيك رجل عظيم ليس بفضل إنجازاته العسكرية فحسب، بل أيضًا بفضل طبيعته المحبّة والقريبة إلى القلب واللطيفة والصريحة. فهو ليس مجرّد رجل عسكري خشن مثل سائر أفراد السلك العسكري» (٤).

---

(١) المصدر السابق، ص. ٣٧٥.

(٢) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect ١٨٨٠-١٩٥٢ لستيفن آمبروز Stephen Ambrose، ص. ٢٧٣.

(٣) كتاب Eisenhower لـD'Este، ص. ٤٦٧.

(٤) كتاب Ike: His Life and Times لبيرز برندون Piers Brendon، ص. ١٩٤.

وهكذا أثمرت قدرة أيزنهاور على قيادة فريق الحرب التابع للحلفاء الغربيين، فبصفته القائد الأعلى دعم خطط الجنرال مونتغومري لإنزالات يوم بدء العمليات، وبعدها دعم خطط الجنرال برادلي لإيجاد مخرج في النورماندي (باستخدام قاذفات القنابل لفتح طريق الخروج من غابات النورماندي). كذلك دعم مسيرة باتون إلى لوار وألمانيا. يأخذ عليه بعض المؤرّخين تلقيه أوامر ميدانية في أيلول/سبتمبر ١٩٤٤ أدت إلى تشتيت قواته (جبهة عريضة) وفشله في أرنهيم (بريدج تو فار) والأسوأ من كلّ ذلك، هجوم الألمان المضاد في الأردين (معركة الثغرة) حيث مُني الجيش الأميركي بخسارة ثمانين ألف جندي. تمكّن كل من مونتغومري وباتون من احتواء هجوم ألمانيا المضاد، وبعد شهرين سيّرا قوات على طول نهر الرين نحو برلين وفيينا.

انتُقد أيزنهاور لأنه لم يأمر بالاستيلاء على برلين من الغرب بعد أن كانت القوات الأميركية قد قطعت ألبه كما انتُقد لأنه فشل في توفير شروط مكتوبة من روسيا لدخول الحلفاء المدينة. إلا أنّ التزامه المطلق أهداف الحلفاء طغى على سذاجته وأخطائه التكتيكية. وبعد استسلام ألمانيا غير المشروط في السابع من أيار/مايو ١٩٤٥، أصبح أيزنهاور بطل أوروبا المحررة، وأكثر الأميركيين احترامًا في القارة. في الواقع، وبعد كتاب «كروزاد إن يو روب» (Crusade In Europe) (هذا عنوان الكتاب الذي كتبه)، أصبح ذا شعبية واسعة في الولايات المتحدة، وعلَت الأصوات التي تطالب بترشّحه للرئاسة تمامًا على غرار ما جرى مع الجنرال يوليسيس غرانت بعد الحرب الأهلية.

كانت شعبية أيزنهاور واسعة جدًا في الوطن إلى درجة أنّ الرئيس الجديد ترومان الذي كان قد خدم في منصبه ثلاثة أشهر فقط أعلن وهو في طريقه إلى قمة بوتسدام أنه مستعدّ لأن يتنحى لأيزنهاور بكل سرور إن رشح نفسه بصفته ديمقراطياً وأن يعود هو ليشغل منصب نائب الرئيس.[1] إلا أنّ الجنرال أكد للرئيس أنه ليس لديه أي طموح على الصعيد السياسي حتى أنه لم يصوّت بأي انتخابات رئاسية في السابق.

(١) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect لـStephen Ambrose، ص. ٤٠٩.

في إطار آخر، ولدى تقاعد الجنرال مارشال بعد استسلام اليابان، أخذ أيزنهاور مكانه كرئيس أركان الجيش بعد أن كان قد قلّده رتبة جنرال ذات خمسة نجوم. شكّل هذا التعيين مصدر فرحة عامرة لابن منظف المحرّكات. (توفي والده في العام ١٩٤٢ قبل ترقّي أيزنهاور، لكنّ أمّه عاشت لتشهد على عودة ابنها منتصرًا من أوروبا). زار أيزنهاور اليابان في جولة على القوات الأميركية التي تخدم في الخارج (بما في ذلك الصين حيث أعلمه الجنرال مارشال، مبعوث الرئيس بحتمية هزم شيانج كاي تشيك). وهناك التقى دوغلاس ماك آرثر، الضابط الذي كان مسؤولاً عنه وزميله الجنرال الحائز خمسة نجوم: قائد القوات الأميركية في الشرق الأقصى.

والتقى قائدا الحرب العالمية الثانية الأميركيان وجهًا لوجه بعد العشاء في العاشر من أيار/مايو ١٩٤٦ في المكتبة في منزل الجنرال المجاور للسفارة الأميركية في طوكيو. وفي هذا الوقت أصبح أيزنهاور فعليًا مسؤولاً عن ماك آرثر. وبقيت مسألة الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٤٨، أي بعد سنتين، عالقة بين الرجلين فكلاهما مرشح أساسي للانتخابات ومرغوب فيه إلى حدّ كبير. وحين أثار أيزنهاور أخيرًا المسألة، زعم ماك آرثر أنه وفي سنّ السادسة والستين وكونه يكبر أيزنهاور بعشر سنوات، فهو ليس لديه أدنى فرصة للنجاح ولكنّه كان متيقناً أنّه سيُطلب إلى أيك أن يُرشّح نفسه. فأجاب أيزنهاور ماك آرثر مع ابتسامة ساخرة قائلاً: «صحيح، أكمل على هذا المنوال وستحقق مرادك حتماً!».[1]

وفي هذا الصدد، علّق كاتب السيرة الرسمي لأيزنهاور: «لم يقنع أي من الرجلين الآخر»[2]. عقب تقاعد أيزنهاور وترك منصبه كقائد للجيش الأميركي، أصبح بالفعل الرئيس ولكن رئيس جامعة كولومبيا في نيويورك وليس رئيس الولايات المتحدة. وفي خريف عام ١٩٥٠، ومع اشتداد التوتّر الإستراتيجي بشأن نيات روسيا في بداية

(١) كتاب Eisenhower لجيفري بيريت Geoffrey Perret، ص. ٣٦٨.

(٢) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect لـAmbrose، ص. ٤٤١.

الحرب المأساوية في كوريا، سأل الرئيس ترومان أيزنهاور أن يعود إلى الخدمة العسكرية بصفته القائد الأعلى لقوات الحلف الأطلسي في أوروبا. قبل الجنرال هذا التعيين لشعوره بالواجب وشغل هذا المنصب في باريس ابتداءً من كانون الثاني/يناير ١٩٥١. ولم تكن السياسة الأميركية بعيدةً عن سعيه لتوحيد أمم أوروبا الغربية في قوات دفاع متماسكة خصوصًا عندما اعترض في العام ١٩٥٢ المنافس الجمهوري المحتمل السيناتور روبرت تافت (ابن الرئيس تافت) على مشاركة الولايات المتحدة في قوات الحلف الأطلسي وأعرب عن رغبته في إعادة كل الجنود الأميركيين الذين ما زالوا في أوروبا إلى وطنهم.[1]

خشي أيزنهاور أن تقع الولايات المتحدة من جديد في الانعزالية تحت إدارة الجمهوري تافت كما جرى في الحرب العالمية الأولى، فمزّق ملاحظةً كان قد علّقها فحواها أنّه سيكمل عمله مع قوات حلف الأطلسي كجندي وسيرفض أي محاولة ليسميه الحزب الجمهوري مرشحه للرئاسة للسنة التالية[2]. وأشار أنه منفتح على فكرة الترشّح للرئاسة وإطاحة التيار الانعزالي الذي يرعاه تافت.

وفي باريس سُلّم أيزنهاور شريطًا باليد، يعرض مسيرةً تم تنظيمها في شباط/فبراير ١٩٥٢، في ساحة ماديسون سكوير في نيويورك دامت ساعتين بحيث وضع الحشود دبابيس تحمل شعارًا «نحن نحبّ أيك» وهم يهتفون: «نحن نريد أيك» (حملت الطيارة جاكلين كوشران الشريط ونادته بطريقة معبّرة «السيد الرئيس»)، بعدئذ أعلن أيزنهاور قراره التاريخي الاستقالة من السلك العسكري، والترشّح إلى الرئاسة[3] إن سمّاه الجمهوريون مرشحهم.

أما في البيت الأبيض، فضبط الرئيس ترومان الذي أمل أن يرشّح أيزنهاور نفسه

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢٣.
(٢) كتاب Eisenhower لـ Perret، ص. ٣٩١.
(٣) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect لـAmbrose، ص. ٥٢٣.

بغية إبقاء الانعزالية بعيدةً عن الحكم، يعلّق بسخرية قائلاً: إنّ الجمهوريين يطبّقون قاعدة «البوابات الذهبية والفضية» وقد أكد الرئيس أنها «لن تكون سوى نحاس وتنك»(١).

وفهم أيزنهاور بسرعة أنّه لا بد من إبرام شبه اتفاق مع الشيطان للانضمام إلى صفوف رجال السياسة وهو أمرٌ تمرّس به طوال حياته(٢).

لحسن الحظّ، أصبح أيزنهاور من خلال مسيرته المهنية، خبيرًا في التنازل عن كبريائه والبحث عن طريقة للمساومة والسيطرة على أعصابه. بعد مرور سنوات، عندما قال له أحد الصحافيين في خلال مقابلة ما إنّه لم يكن مؤهلاً ليكون سياسيًا فردّ قائلاً: «ما الذي تقوله بحق السماء؟ لقد أمضيت معظم حياتي منذ بلوغي في مجال السياسة وأكثر أنواع السياسة نشاطًا. فلم أجد أي مؤسسة في العالم للسياسة دور فيها أكثر من القوات المسلّحة الأميركية»(٣).

وبفضل جهود السيناتور لودج الدؤوبة وفريقه، فاز الجنرال دوايت د. أيزنهاور على السيناتور تافت في الاقتراع الأوّل في خلال مؤتمر الجمهوريين في واشنطن في الحادي عشر من تموز/يوليو ١٩٥٢ وأصبح أوّل جنرال أميركي في القرن العشرين يرشّحه حزب سياسي للانتخابات الرئاسية. وأثار انتصار أيزنهاور مسألة من سيكون نائب الرئيس.

نُصح أيزنهاور، بغية توحيد صفوف الجمهوريين، باختيار شخص مقبول من داعمي خصمه المؤيد للانعزالية الذين كان يسمّيهم أيزنهاور «المتطرّفين» أو «المحاربين القدامى». وكان هذا الشخص موجوداً وهو سيناتور كاليفورنيا(٤) ريتشارد نيكسون «المتعطش إلى السلطة على غرار كاسيوس».

(١) كتاب The Presidency of Harry S. Truman Tumultuous Years: 1949-1953 لـ Robert Donovan، ص. ٣٩٤.

(٢) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect لـ Ambrose، ص. ٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢٠٦ و٢٠٧.

(٤) كتاب Richard Milhous Nixon لـ Conrad Black، ص. ١٨٥.

كان أيزنهاور قد التقى نيكسون ساعةً من الوقت في باريس عندما كان القائد الأعلى للحلف الأطلسي في العام ١٩٥١، ووجده متملّقًا وإنما ذكيًا. كان نيكسون قد اكتسب سمعةً وطنية على أنه معادٍ للشيوعية، ولكنه كان يؤمن أنه يستطيع أن يوفّر توازنًا جغرافيًا عبر تمثيله الساحل الغربي. وهكذا، وبعد تسمية أيزنهاور، استدعى الجنرال نيكسون إلى جناحه في فندق بلاكستون وطلب إليه الانضمام إليه في «حربه للمحافظة على المثاليات»[1]. فوافق نيكسون وكان هذا عرضاً سيندم عليه أيك إلى حدّ كبير.

الجزء الثاني: الرئاسة

وفي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢، بعد أن قطع واحداً وعشرين ألف ميل في قطار خاص بالحملة الانتخابية وثلاثين ألف ميل بالطائرة، وبعد أن حافظ على تسمية نيكسون كنائب له على الرغم من الإشاعات عن «صندوق نيكسون السري»، فاز أيزنهاور بالانتخابات بسهولة (حصل على ٥٥ ٪ مقابل ٤٥ ٪ في التصويت الشعبي وحصد أربعمئة واثنين وأربعين صوتًا مقابل تسعة وثمانين صوتًا في الانتخابات الطالبية).

خاب أمل ترومان لأنّ أيزنهاور لم يتمكّن من وضع حدّ للاتهامات التي وجهها الجمهوريون إلى الجنرال مارشال بشأن «خسارة» الصين، ودعا ترومان الرئيس المنتخب بكل كرم إلى البيت الأبيض، وبدا هذا الأخير سيىء المزاج على غير عادته. في خلال هذا اللقاء قدّم الرئيس لأول مرة في التاريخ مساعدة صادقةً على نقل مقاليد الحكم، فطلب إلى فريق عمله إطلاع فريق الرئيس المنتخب على التفاصيل، حتى أنّ أيزنهاور حصل على طائرة ترومان ذي إنديباندنس (The Independence) ليذهب إلى كوريا مع لجنة تقصّي الحقائق التي وعد بها الشعب.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٠٦ و٢٠٧.

كان أيزنهاور يرى أن إنزالات ماك آرثر في إنشون في العام ١٩٥٠ ومعركته الجريئة على خط عرض ٣٨ شمالاً «ممتازة» على الصعيد العسكري، حتى أنّه رحّب برغبة ماك آرثر المثيرة للجدل في استعمال الأسلحة النووية. إلا أنّ زيارة الرئيس المنتخب إلى كوريا (على متن طائرة عسكرية عادية) بيّنت له الحقيقة. كان الجنرال مارك كلارك القائد الأميركي يرحّب بفكرة شن هجوم آخر على قوات شمال كوريا والصين شبيه بهجوم ماك آرثر. وعندما رأى الرئيس بأمّ عينيه الجبهة العريضة الممتدة على ثلاثمئة ميل والأرض الصلبة، قدّر المحارب القديم ورئيس أركان الحملات في المغرب وتونس وسيسلي وإيطاليا وفرنسا وألمانيا أنّ هجومًا مماثلاً يتطلّب ما لا يقلّ عن ثلاثمئة ألف جنديّ. وقال لكلارك: «أفهم بمَ تفكّر من الناحية العسكرية ولكن فوّض إلى الشعب إنهاء هذه الحرب، فهذا هو قراري»[1]. إذًا لا وجود لأي هجوم أميركي.

في هذه الأثناء، أعلن ماك آرثر «خطة سرية» سيكشفها للرئيس المنتخب شخصيًا فقط من شأنها أن تضع حدًا للحرب الكورية. وفي نيويورك، في الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥، شرح الرئيس المنتخب للرئيس المستقبلي حلّه ألا وهو تهديد ماو تسي تونغ حاكم الصين الشيوعية بأنّه سيقصف مدن الصين الأساسية بالأسلحة النووية وسيدمّر قاعدة الصناعة الصينية. وفي حال فشلت هذه المحاولة، اقترح ماك آرثر رمي حزام إشعاعي على الحدود بين الصين وكوريا الشمالية في الوقت الذي تجتاز قوات الولايات المتحدة والأمم المتحدة خط عرض ٣٨ شمالاً وشنّ هجومات برمائية وأرضيّة.

فهم أيزنهاور أنه يتكلّم مع شخص مجنون وأنّ الأمم الست عشرة المشاركة في الأمم المتحدة كحلفاء لأميركا في كوريا لن توافق على بدء الاستعدادات لحرب عالمية ثالثة. وتبيّن له أنّ مسؤوليته التاريخية تتجلى في إبقاء العالم آمنًا وبسلام إن أمكن لا أن يسعى إلى تحقيق الخيالات الواسعة.

(١) كتاب Eisenhower لـ Perret، ص. ٤٢٦.

بالتالي أتى ردّ الرئيس على خطة ماك آرثر هادئًا جدًّا، إلا أنّ تصرّفه تجاه الرئيس ترومان الذي كان لا يزال رئيس الأركان لم يكن لائقًا. فقد رفض دعوةً إلى البيت الأبيض مع فنجان القهوة التقليدي قبل حفلة التنصيب المزمع عقدها في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٥٣. وكذلك، كان لقاؤهما في خلال جولة في السيارة حول مبنى البرلمان باردًا جدًا. وحين رأى ابنه جون يقف على المنصة مأذونًا من خدمته العسكرية في كوريا لهذه المناسبة، استشاط غضبًا وسأل عن الشخص الذي أعطاه المأذونية. فحدّق ترومان إلى أيك غير مصدّق وأجابه عن سؤاله قائلاً[1]: «أمر رئيس الولايات المتحدة أن يأتي ابنك ويحضر حفلة تنصيبك».

بعد مرور ثلاثة أيام، شكر أيزنهاور، في رسالة مكتوبة، ترومان على مراعاته، ولكن الأوان كان قد فات، ونتيجة لذلك لم يتخاطب أعظم إمبراطوريين أميركيين على قيد الحياة على مر السنوات الثماني التالية.

كانت كلّ من الحملة الانتخابية ومشكلة إنهاء الحرب على كوريا تثقلان كاهل الرئيس الجديد وبدا ذلك جليًا من خلال ازدرائه خطة القيادة في البيت الأبيض منذ تولّيه الرئاسة، فقال مستشيطًا غضبًا[2]: «لو كان لديّ فريق مماثل في خلال الحرب لكنّا خسرنا». وسرعان ما وضع بنيةً استبداديةً لفريق العمل في البيت الأبيض فعيّن للمرة الأولى في تاريخ الرئاسة قائد أركان عملياً جدًا وأمانة عامة من الدرجة الأولى كما فرض على مجلس الأمن القومي عقد اجتماعات أسبوعية والقيام بمؤتمرات صحفية منتظمة، وفرض أيضًا على الحكومة عقد اجتماعات أسبوعيّة من دون تصويت وإنما لتقديم النصح للرئيس. مثلت هذه التغييرات بدايةً لإدارة عصرية للبيت الأبيض تشبه إدارة المقار، وأصبح يُسمّى هذا الأسلوب من الإدارة الرئاسة الاستبدادية. وكان يقول أيزنهاور في هذا السياق: «لا يمكن للتنظيم أن يحوّل الغبي إلى عبقري، ولكنه يزوّد عقل الغبي الوقائع التي يحتاج إليها ويساعد على تفادي الأخطاء الناجمة عن

(١) كتاب The President Eisenhower لـStephen Ambrose، ص. ٤٢.

(٢) كتاب Eisenhower لـPerret، ص. ٤٣٦.

تقديم المعلومات المغلوطة».[1] كان يبدأ الرئيس نهاره عند الصباح الباكر، لم يكن يحبّذ تلقي الاتصالات، ويشجع فريق العمل على تقديم تلخيص مؤلف من صفحة واحدة عن الملفات ، كان يستمع بتأنّ ويسأل أسئلةً بعيدة النظر ويأخذ وقته في التعمّق في التفكير في قراراته حتى لو كان يخاطر بالظهور متردّدًا.

وبحلول ربيع العام ١٩٥٣ ، ومع موت ستالين وفشل ثاني هجوم أرضي صيني هائل في كوريا تزايدت احتمالات التوصّل إلى وقف إطلاق النار. من جهة، رفض سنكمان ويك رئيس كوريا الجنوبية قبول أمة منقسمة، ومن جهة ثانية، قال له أيزنهاور بكل وضوح إنّ عليه قبول هذه المساومة وإلا ستسحب الولايات المتحدة كل قواتها. في هذه الأثناء هيأ أيزنهاور مدافع ذات رأس نووي وطائرات حربية تحسبًا للنزاع، وبعث برسالة عبر رئيس الوزراء البريطاني فحواها أنه سيستخدم هذه الأسلحة في حال بدأت الصين اجتياحًا على الجنوب (وهذا تهديد كان على ترومان استخدامه لو أنّه منع ماك آرثر بحزم من تجاوز الخط ٣٨ شمالاً قبل سنتين). وفي السادس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٥٣، تم توقيع هدنة. وفي طريق أيزنهاور إلى قاعة البثّ في البيت الأبيض لإعلان وقف الاعتداءات، قال لأحد المصوّرين: «انتهت الحرب آمل أن يعود ابني قريبًا إلى وطنه». [2]

لم تكن الأحكام التي يطلقها أيزنهاور على الناس والأشخاص محقّة دائمًا، إلا أنه كان يتمتّع بنعمة أساسية كان نابليون يتمنى لو يجدها لدى ضابط ما وهي الحظّ. لم يكن أيزنهاور يؤيد أية عقيدة ولكنه لا ينسب نجاحه إلى جهوده فقط. ونظرًا إلى وفاة السيناتور ماك آرثر نتيجة السرطان في العام ١٩٥٤ برز ماك آرثر كمرشح للانتخابات، لو كان الرجلان المرشحان عن الحزب للانتخابات الرئاسية لعام ١٩٥٢ لكان المؤرّخون اندهشوا لدى مراجعتهم أحداث الماضي وفرحوا بحسن

(١) وفقًا لما كتب أندرو غودباستر Andrew Goodpaster في مقدمة كتاب Waging Peace: How Eisenhower Sahped and Enduring Cold War Strategy لروبرت آر. بوي Robert R. Bowie وريتشارد أتش إيمرمان Richard H. Immerman طبعة New York: Oxford University Press عام ١٩٩٧ صفحة vi

(٢) كتاب Eisenhower لـPerret، ص. ٤٥٦.

حظ أميركا لكون أيزنهاور هو الذي تولى الرئاسة. كان أيزنهاور يتمتع بذكاء عالٍ ومبادئ مثالية نبيلة وقدرة على قيادة الناس وجمعهم في فريق واحد، وانتقاله من شخص متقلِّب المزاج وعصبيّ إلى موظف حكومي ناجح، وبذلك حقق أيزنهاور نجاحًا أكبر بكثير مما كان المشكِّكون يتوقعون. حتى أنّ نسبة شعبيته غالبًا ما كانت تصل إلى سبعين بالمئة، وكذلك أقرّ الكونغرس ذو الأغلبية الجمهورية ثمانين بالمئة من التشريعات التي اقترحها (كان أيزنهاور بكل حكمة يحرص على ممارسة لعبة الغولف مع قائد الأغلبية في مجلس الشيوخ). كان قد وعد بتخفيض الضرائب ولكنه رفض أن يلبي هذا الوعد إلى حين تحقيق التوازن في الميزانية. وأصدر توجيهًا جديدًا لمجلس الأمن القومي يتضمّن الإستراتيجية الأميركية لدعم وحماية تايوان وكوريا الجنوبية وإسرائيل من أوروبا الغربية واليابان لأن ذلك إرث «إضافي» مشؤوم يعود إلى حقبة ترومان وهو إرث لا يمكن للولايات المتحدة أن تتخلىَ عنه لدواعٍ أخلاقية. كانت تتضمن هذه الإستراتيجية العامة عدم انخراط أميركا في الحروب الخارجية طوال عهد أيزنهاور، واستمرّت هذه الإستراتيجية خمسين سنةً وأدت إلى تنامي ثروة الولايات المتحدة لتحافظ على مركزها كأكبر قوة اقتصادية في العالم. ولكن عند كل خطوة كان يواجه معارضةً واسعةً لا من الديمقراطيين بل من الجناح اليساري المتشدّد في حزبه خصوصًا السيناتور ماك كارثي. ولاحقًا بعدما دمّر ماك كارثي نفسه بنفسه، وجد الناس صعوبةً في فهم الخوف والهلع اللذين أثارهما عبر التحقيقات التي كان يترأسها والتابعة لمجلس الشيوخ والتي تشبه محاكم التفتيش التي كانت في أثناء الإمبراطورية الإسبانية أو ما هو أسوأ المحاكم العلنية التي كان يستخدمها الاتحاد السوفياتي، ما جعل من ماك كارثي ظاهرةً منحرفةً في المجتمع الأميركي المتحضّر بل إنّ هذه التسمية غير منصفة بحق المنحرفين. والحقيقة هي أنّ ماك كارثي لم يكن يتحدّث باسمه فقط بل أيضًا باسم السياسيين المتشدّدين الذين ينتمون إلى الطرف المظلم من السياسة الموجودة عند الحزب الديمقراطي والجمهوري. وعلى غرار كل منشق، أصبح الديمقراطي السابق أكثر عدائيةً وتعصّبًا وأصبح يتمسّك بمبادئ الحزب الجمهوري أكثر من الجمهوريين أنفسهم، وفي العام

١٩٥٣، عندما تسلم الجمهوريون الرئاسة وأصبحوا الأغلبية في الكونغرس ازدادت قدرة ماك كارثي بسرعة على تصدّر عناوين الصحف وإثارة المشاكل. وفي بداية الكونغرس للمرة الواحدة والثمانين مع أغلبية جمهورية في المجلسين (ولو بفرق صوت واحد في مجلس الشيوخ)، تم تعيين ماك كارثي رئيسًا للجنة مجلس الشيوخ للعمليات الحكومية ومن ثم هو عيّن نفسه رئيس اللجنة الفرعية الدائمة للتحقيقات، وهي لجنة من دون دور بارز.

وما أن أنهى أيزنهاور حفلة تنصيبه حتى اجترأ ماك كارثي، ويا للدهشة، على معارضة تعيين الجنرال والتر بيديل سميث رئيس الأركان الشهير في خلال الحرب وسفير الولايات المتحدة في روسيا وأوّل مدير لوكالة الاستخبارات المركزية مساعداً لوزير الخارجية. وعندما أرسل أيزنهاور بغضب إنذارًا إلى ماك كارثي عبر قائد الأغلبية في مجلس الشيوخ، سمّى ماك كارثي الدكتور جايمس ب. كونان رئيس جامعة هارفرد ليكون المفوّض السامي الأميركي في ألمانيا. في حين تمكن أيزنهاور من جعل ماك كارثي يتراجع عن معارضته من خلال زميل ماك كارثي نائب الرئيس وعضو الكونغرس السابق، وجده يعارض تسمية تشارلز أ. بوهلين سفيراً للولايات المتحدة في روسيا وهو ضابط كان حاضرًا في يالطا واستهدفه ماك كارثي لأنّه لم يرفض اتفاق يالطا.

دامت جلسة بوهلين في مجلس الشيوخ أربعة أيام كاملة، كوّن خلالها أيزنهاور صورةً أوضح عن الحزب الجمهوري وهو يعمل. عندئذ بدأت لجنة ماك كارثي الدائمة تعقد جلسات استماع بشأن وجود مخرّبين في الإدارة الجديدة، وما من كذبة أكثر شناعة أو اتهام أكثر وقاحة ويعدّ هذا عملاً حقيراً جدًّا حتى بالنسبة إلى ماك كارثي الذي نفذ كل ذلك بمساعدة مستشاره القانوني روي كوهن وقد فوّض إلى نفسه بنفسه شنّ هجوم لفضح العدو الشيوعي داخل أميركا، وهذه عقيدة، على الأرجح، مسؤولة عن كل الشرور الظاهرة في العالم. طبعت ثقافة الخوف المريضة وثقافة الشك عمدًا عمليات التطهير التي نفّذها كل من ستالين وهتلر. وأجبر جون فوستر دالز، وزير خارجية أيزنهاور الجديد، على طلب «شهادات وفاء» من الستة

عشر ألف وخمسمئة موظف في الأقسام الحكومية وتطهير المناصب الحكومية من «الشيوعيين واليساريين ومؤيدي العهد الجديد والمتطرّفين والمتحررين» ما أدى إلى تصنيف الإعلام ومنع الأدب المتحرر واليساري من مكتبات السفارات الأميركية في أنحاء العالم.

كان ماك كارثي المتحدث الوضيع وكثير الاستطراد خطيبًا منفّرًا، هو الأخير من هذا النوع من السياسيين الذين سيطروا لسنوات على عناوين الصحف، وتمكنوا بفضل الحصانة التي يوفّرها لهم الكونغرس من الكذب من دون حساب. من جهة ثانية رفض أيزنهاور تمامًا على غرار سلفه أن يتحدّث أو يتعامل مباشرةً مع ماك كارثي حتى أنه قال خفيةً: «لن أدخل في مناحرة مع ذلك السافل»(١)، ولام الرئيس بشدة «الناس الذين رفعوا من شأنه خصوصًا الكتاب والمحررين والناشرين» وأشار أيزنهاور في يومياته: «أنا حقًا أرى أنّ التجاهل هو أكثر الوسائل فاعلية لوضع حدّ لهذا النوع من مثيري المشاكل».(٢)

وكان أيزنهاور محقًا في ما يتعلّق بردة فعل ماك كارثي ولكنه مخطئ بكون السيناتور مثيراً للمشاكل، فهو لم يتخيّل يومًا أنه سيهاجم المؤسسة التي يبجّلها الرئيس وهي المؤسسة العسكرية.

في الواقع، جنّدت المؤسسة العسكرية دافيد شاين المساعد المفضّل لروي كوهن مستشار ماك كارثي الرئيسي. استشاط ماك كارثي غضبًا فبدأ يوجّه شرّه نحو وزارة الدفاع فسرعان ما وجد أعضاء الجيش الرفيعو المستوى أنفسهم مدعوين للمثول أمام لجنة مجلس الشيوخ التابعة لماك كارثي. فردّ الجيش عبر الزعم أنّ ماك كارثي وكوهن (وهو مثلي جنسيًا وتوفّي من الإيدز) قد استغلا سلطتهما موقتًا للحصول على معاملة خاصة لشاين. ترأس جلسات الاستماع السيناتور كارل مونت بعدما أجبر ماك كارثي على التنحي، وتحوّلت إلى مسرحية وطنية وشكلت أول تحقيق للكونغرس

(١) كتاب Ike لـ Brendon، ص. ٢٤٥.

(٢) كتاب The Eisenhower Diaries لـRobert H. Ferrell، ص. ٢٣٤.

يُنقل على التلفاز منذ بدئها حتى آخر كلمة وشاهدها قرابة عشرين مليون متفرّج.

وتحوّلت التغطية المباشرة لماك كارثي إلى فضيحة حين عنّف أحد ضباط الجيش الرفيعي المستوى بقوة العميد الركن رالف زويكر (الذي شارك في يوم بدء العمليات وجُرح وتمّ تقليده وسامًا) وقال له إنّه «غير أهل» للبزة العسكرية» وعقله بالكاد يوازي عقل ابن الخامسة». وهكذا أصبحت جلسات الاستماع عارًا على أميركا. من ناحية أخرى، طلب ماك كارثي الاطلاع على وثائق وزارة الدفاع واستدعى مسؤولين في البيت الأبيض من فريق عمل أيزنهاور، وبذلك لم يكن مجلس الشيوخ وحده المهزلة العالمية. خرج ماك كارثي وأتباعه عن السيطرة، وأدرك الرئيس ذلك متأخرًا، ما جعله يشعر بالأسى على الحزب الجمهوري ومجلس الشيوخ.[1] وفيما هو يشاهد سلوك ماك كارثي عبر التلفاز الموجود في البيت الأبيض سمعه أحدهم وهو يقول: «يُحزنني الشعور بالأسى على مجلس شيوخ الولايات المتحدة»[2].

كان كل أصدقاء أيزنهاور من أصحاب الملايين وكانت معاداته للشيوعية تسري في عروقه ولكنه لم يعد قادرًا على الوقوف من دون أن يحرّك ساكنًا ويتفرّج على ماك كارثي وهو يحوّل أميركا إلى نسخة عن الاتحاد السوفياتي من خلال الاتهامات والترهيب والتخويف والمحاكم العلنية التي تُنقل عبر التلفزيون الوطني. حتى أنه أُشيع أنّ ماك كارثي سيترشّح إلى منصب الرئاسة في العام ١٩٥٦، ما دفع أيزنهاور إلى القول: «السبب الوحيد الذي يجعلني أترشّح مرّةً أخرى إلى الرئاسة هو أن أقف في وجهه»[3] مع أنه كان قد قرر أن يخدم ولاية واحدة. وقال عن تطلعات ماك كارثي للوصول إلى الرئاسة: «إنه طموح» ولكن «وإن عاد الأمر إلي سيكون آخر شخص في العالم يصل إلى سدّة الرئاسة»[4].

لم يعِر أيزنهاور حتى تلك اللحظة أهميةً إلى مسار الأمور، إلا أنه بدأ يقلق

(١) كتاب The President Eisenhower لـStephen Ambrose، ص. ٥٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٦٧.
(٣) المصدر السابق، ص. ٦٠.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٦٢.

جدًا إلى درجة أنه قال لمساعديه إنه قد يترك الحزب الجمهوري مع مجموعته من المغامرين في الجناح اليساري بمن فيهم السيناتور باري غولد ووتر و«أعدّ بصمت لتأسيس حزب جديد». فكرَ في التوجه شخصيًا من كل عضو في الكونغرس ومن كل حاكم يرى أنّ «فلسفته السياسية العامة معتدلة». وفي هذه الأثناء، عقد العزم على التغلّب على ماك كارثي في جلسات الاستماع الخاصة بالجيش.

اعتمد القائد الأعلى السابق بصفته الرئيس إستراتيجيةً مختلفة لمواجهة ماك كارثي بدل رفضه مباشرةً. فاستدعى النائب العام هربرت برونل بعد أن أوجد قاعدةً قضائيةً جديدةً باسم «حصانة السلطة التنفيذية»، وهي قاعدة تمنع الكونغرس من استدعاء أي موظف يعمل في فريق الرئيس أو الاطلاع على ملفاتهم إلا إن كانوا يعرقلون عمل الرئيس في أداء واجباته الدستورية كصاحب السلطة التنفيذية في البلد. وبذلك يسلَم كل فريقه من محاكم ماك كارثي التي تشبه المسرح الهزلي.

لا شكّ في أنّ «حصانة السلطة التنفيذية» غيّرت طبيعة السلطة الرئاسية في الولايات المتحدة. كما أنها عززت في السرّاء والضرّاء، ما كان قد أصبح مسبقًا رئاسة استبدادية متعاظمة بفضل جيش أميركا وقوتها الاقتصادية المتنامية في العالم. وأحبطت المطاردة التي يقوم بها ماك كارثي. وهكذا أصبح ماك كارثي لا حول له ولا قوة بعدما حُرم الضحايا والوثائق، وما كان على الرئيس بعدها سوى انتظار أن يتم التحقيق مع ماك كارثي شخصيًا حول ادعاءاته المتعلّقة بقضية شاين. وفي التاسع من حزيران/يونيو ١٩٥٤ وفي خلال فترة ما بعد الظهر، وصلت جلسات استماع اللجنة الفرعية إلى ذروتها، فوافق ماك كارثي، في اتفاق تعاقدي عُقد قبل جلسة الاستماع، على عدم توجيه اتهامات بالشيوعية لأي عضو من الفريق القانوني التابع لمجلس الجيش. بالتالي فتح ماك كارثي في خلال الاستجواب المجال أمام حقد خرج عن سيطرته. وفجأةً أطلق على التلفاز تهمةً جديدةً فاتهم رئيس مكتب الجيش القضائي بإيواء محام ذي ميول شيوعيّة.

فاستوقفه جوزيف ويلش محامي الجيش الأساسي، وأخذ نفسًا عميقًا وتوجه

إلى السيناتور الجمهوري وقال له أمام عشرين مليون مشاهد: «أيها السيناتور، أظن أنني حتى هذه اللحظة، لم أقدّر وحشيتك وتهوّرك... أليس لديك سيدي ذرة لياقة؟ ألم يتبقّ لديك أية ذرة احترام؟» وعندما حاول ماك كارثي الرد، قاطعه ويلش طالبًا إلى رئيس الجلسة السيناتور مونت «استدعاء الشاهد الثاني»[1]. فوقف الحاضرون في الغرفة مصفّقين. أما ماك كارثي الذي ذُلّ عبر التلفاز، فالتفت إلى كوهن وقال له بصوت مصدوم: «ماذا جرى توًا؟» وكان الرئيس يشاهد كل ذلك من البيت الأبيض فغمرته فرحة عارمة ودعا ويلش إلى مكتبه الرسمي ليهنّئه شخصيًا فقال له مع ابتسامة عريضة[2]: «لقد تعاملت مع مهمة صعبة مثل الأبطال».

من ناحية أخرى، غيّر أيزنهاور نظرته إلى دوره كرئيس للولايات المتحدة وكقيصر بعد رؤيته شرّ ماك كارثي. فمُنع هذا الأخير من الدخول إلى البيت الأبيض ومن كل قاعات الاستقبال الحكومية بأمر واضح من الرئيس. وللردّ على كل هذه المسائل أعلن ماك كارثي أنه «سيترك» القائد الجمهوري واتهم الرئيس علنًا «بالضعف واللامبالاة» في طرده للشيوعيين، حتى أنه زعم أنه قد ارتكب شخصيًا خطأً رهيبًا عندما صوّت لأيزنهاور في العام ١٩٥٢ ظنًّا منه أنه معاد حازم للشيوعية[3].

مع كل هذا، لم يتأثر الرئيس البتة، بل بدا أنّه اكتسب طاقةً إضافيةً من نزاعه مع ماك كارثي، حتى أنه قال لجيم هاغرتي ملحقه الصحافي «إني مسرور لأن الفرصة أتيحت لي. لدي سبب واحد يجعلني أقوم بذلك ليس المحافظة على السلام في العالم فحسب، بل بناء حزب جمهوري تقدمي في هذا البلد. وإن أراد أعضاء اليمين أن يفتحوا الحرب فلهم ذلك، وإن أرادوا ترك الحزب الجمهوري وتأسيس حزب ثالث لا دخل لي بذلك، ولكن قبل نهاية ولايتي إما يعكس الحزب الجمهوري

(١) كتاب A Conspiracy So Immense: The World of Joe McCarthy لدافيد أم أوشينسكي David M. Oshinsky طبعة New York: Free Press عام ١٩٨٣ من ص. ٤٦٢ إلى ص. ٤٦٥.

(٢) كتاب Eisenhower لـ Perret، ص. ٥٠٤.

(٣) كتاب Eisenhower: The President لـ Ambrose، ص. ٢٢٠.

التقدمية وإما لن أكون جزءًا منه بعد الآن»[1]. أما في ما يتعلّق بإمكانية أن يرشح المتشددون للرئاسة شخصًا من اليمين متمسكًا بعقائده من أمثال ماك كارثي فعلّق الرئيس: «سيكون عليهم تغيير فكرهم، فسوف أذهب إلى كلّ بقعة في البلد وأشنّ حملةً ضدهم وسأحاربهم في الصميم»[2].

وأصبحت الإمبراطورية الأميركية أمام مفترق طرق. فقال الرئيس عن الجمهوريين الذين ساعدوه ليصل إلى سدة الرئاسة: «الحقد يعمي قلوبهم، وهم لن يتراجعوا». فأراد المتشددون أن يمنعوا التجارة مع الدول الشيوعية رافضين قبول وجهة نظر أيزنهاور وهي حين تُنتشل هذه الدول من الفقر، سيندثر سحر الشيوعية. فقد قال الرئيس في هذا السياق: «إنّ التجارة أقوى سلاح دبلوماسي ويجب أن نزيد من حجمها لا أن نقللها». وتابع كلامه بغضب[3]: «وكل من يقل إن التجارة مع دولة تابعة للاتحاد السوفياتي، هو في الواقع خائن، لا يعرف ماذا يقول». في المقابل، عندما بدأ نيكسون نائب الرئيس يتحدّث بهذه اللهجة المتشددة، استدعاه أيزنهاور إلى البيت الأبيض وطلب إليه أن «يخفف من حدته»، وقطع عليه أيزنهاور الطريق عندما حاول أن يبرّر له أنّه عنى بكلامه أنشيسون وترومان فقط وليس الحزب الديمقراطي ككل. وقال له إن استعمال كلمة خائن «لا يمكن تبريره» وأمره بالتوقف مباشرةً.[4]

نجمت عن التضحية بمن لا ذنب لهم وعن الوطنية شبه الفاشية خميرة للجمهوريين اليمينيين العنيفين، وهو أمر خطر جدًا بالنظر إلى ترسانة أميركا النووية المتنامية. في الواقع، كانت تنتج الولايات المتحدة قنبلةً نوويةً يوميًا بالإضافة إلى الـ ١٦٠٠ قنبلة التي كانت تملكها عندما أصبح أيزنهاور رئيسًا. وفي المقابل، لم يكن الاتحاد السوفياتي قد استعمل أي سلاح نووي على الصعيد التشغيلي. ونتيجةً لذلك، طالب

(١) المصدر السابق، ص. ٢٠٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢٠ و٢٢١.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٠٢.
(٤) المصدر السابق.

ماك كارثي بتعيين ماك آرثر مكان جون فوستر دالز لعرض سياسة أميركية خارجية أكثر قوةً. ومرّةً أخرى، تجاهله أيزنهاور عالمًا أنه لو كان يعرف «الحرس القديم» كما كان يسميهم بضعف الاتحاد السوفياتي على صعيد الأسلحة النووية التشغيلية، لكان من الأصعب السيطرة على هجوم ماك كارثي.

على صعيد آخر، تحوّلت فيتنام إلى تجربة. فكان يحرس الموقع الفرنسي دين بيان فو المعزز حديثًا الحدود اللاوية التي كان قائد الثورة الوطنية الشيوعية هو شي منه يتزوّد عبرها ما يحتاج لطرد المستعمرين الفرنسيين. كان الفرنسيون قد زعموا أنّه لا يمكن اختراق ثكنتهم، ولكن ما إن لاح في الأفق خطر أن تحاصرهم وتجتاحهم قوات هو شي منه حتى طلبوا مساعدة أميركا.

كان أيزنهاور قد أرسل مساعد وزير الخارجية الجنرال بيدال سميث ليدرس وضع الفرنسيين. فأوصى هذا الأخير باللجوء إلى جيش الصين الوطني التابع لشيانغ كاي تشيك خوفًا من انتشار الشيوعية في جنوب شرقي آسيا. أما الأدميرال رادفورد رئيس أركان القوات المشتركة فنصح باللجوء إلى القنبلة الذرية. فردّ أيزنهاور قائلاً: «لا بدّ أنكما مجنونان! يا إلهي، لا يمكننا أن نلجأ إلى هذه الأساليب الرهيبة ضدّ الآسيويين لمرة ثانية في أقلّ من عشر سنوات»[1]. لم يكن منطقيًا على الصعيد العسكري بالنسبة إلى أيزنهاور شن حرب أميركية فرنسية في غابات فيتنام، وكان يبدو أنّه لا أمل أن يوافق الكونغرس على شن حرب على فيتنام تقودها الولايات المتحدة خصوصًا وأنّه لم يكن قد تم الاعتداء على أي أميركي ولم يتأثر أي طريق تجارة أميركية أو سوق كبيرة أو مصدر معادن حتى تلك الساعة.

وبعد أن درس أيزنهاور كل الاحتمالات (وغيّر رأيه عشرات المرات) اعترض على مستشاريه، فترك الفرنسيين لخسارتهم أمام دين بيان فو. وفي حزيران/يونيو ١٩٥٤، تم توقيع هدنة في جنيف مشابهة لتلك التي توصّل إليها أيزنهاور مع كوريا. فأنهت الهدنة الاعتداءات في الهند الصينية وقسمت موقتًا فيتنام على خط عرض

(١) المصدر السابق، ص. ١٨٤.

١٧، ومُنحت استقلالها رسميًا مع جلاء الفرنسيين، وعُقدت الانتخابات التوحيدية الوطنية في العام ١٩٥٦.

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٥٥، تعرّض أيزنهاور لنوبة قلبية، ولكن لم يتحدّث أحد عن مدى خطورتها. وهو يتعافى، حاول أن يتخلّص من نيكسون، مقترحًا في السادس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، وبما أن شعبية نيكسون لا تزال منخفضة، أنه سيستفيد من خبرة أكبر في منصب في الحكومة يمكن لأيزنهاور أن يعيّنه فيه وبالتالي يتخلّص منه بسهولة. حتى أنّ أيزنهاور تحدّث عن الترشح لولاية ثانية ولكن بصفته ديمقراطيًا، وترشيح ربما حاكم ديمقراطي من أوهايو فرانك لاوش أو قاضي القضاة التقدمي إيرل وارن أو وزير البحرية روبرت أندرسون أو حتى شقيقه ميلتون لتولي منصب نائب الرئيس. أي شخص عدا نيكسون، فتذمر[1] نيكسون قائلاً: «لم يحبني يومًا». فرفض نيكسون التراجع ودعمته زوجته بات في قراره، وجمع بقدر الإمكان وعودًا بالدعم للمؤتمر الوطني للحزب الجمهوري في الصيف عبر كتابة اسمه كمرشح لمنصب نائب الرئيس على آلاف لوائح الاقتراع الأولى في نيوهامبشير وجعل زملاءه السابقين في الكونغرس يقدمون دعمهم له خطيًا لاستمراره بمعاداة الشيوعية ووقوفه في وجه مشروع قانون زيادة الضرائب الذي اقترحه الديمقراطيون.

وكان واضحاً أنّ ريتشارد ميلهاوس نيكسون، وعلى عكس نائب أف.دي.آر هنري والاس في العام ١٩٤٤، لن يتراجع عن حقه في منصبه. فهم أيزنهاور متأخرًا في العام ١٩٥٢ في الوقت الذي انكشفت فضيحة نيكسون المالية أنّه قد حان الوقت للتخلي عنه. ولكن عندئذ كان قد فات الأوان. فاضطرّ أيزنهاور إلى أن يقبل على مضض تجديد ترشيح نيكسون لمنصب نائب الرئيس آملاً أن يعفيه مرضه (فقد كان يعاني نوبة التهاب معوي ما تطلّب إجراء عملية مجازة في أمعائه في الثامن من حزيران/يونيو ١٩٥٦) من أزمات ولاية ثانية إن تم انتخابه مجددًا وذلك لمصلحة الأمة.

---

(١) كتاب Nixon: The Invincible Quest لـConrad Black، ٢٢٣ و٢٢٤.

ها قد أتت الأزمة الكبرى، وذلك حتى قبل الانتخابات. وفي التاسع والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٥٦، تمكن الرئيس أخيرًا من توقيع قانون الطريق السريع الذي كان يحثّ الكونغرس على توقيعه منذ أكثر من سنة بغية إنشاء نظام وطني للطريق السريع المفتوح ما بين المدن يشبه الطرقات الرومانية في الأزمنة التقليدية(١).

وفي الثاني والعشرين من آب/أغسطس، تمت إعادة تسمية الرئيس بالتصفيق في خلال مؤتمر الحزب الجمهوري في سان فرانسيسكو. وبعيد ذلك، برزت أزمة دولية كبرى في الشرق الأوسط بشأن ملكية قناة السويس.

في البداية، كان أيزنهاور لا يزال في مرحلة التعافي من العملية الجراحية ولم يكن قادرًا على تصديق أنّ فرنسا وبريطانيا يمكن أن تتخذا قرارًا أحاديًا في التحرّك العسكري من دون الحصول على دعم الأمم المتحدة أو التصرّف بسرية بالتعاون مع إسرائيل وهي الدولة التي تحتاج أكثر من أي دولة أخرى في الشرق الأوسط إلى إبراز حسن نيتها تجاه جيرانها العرب. افترض أيزنهاور أنّ هذه الخطط تعود إلى أفكار ونستون تشرشل العظيمة، الذي استنفد صبر جميع من عملوا معه أو بإشرافه بسبب نظرته والأحداث السيئة التي نفّذها بدءًا بمعركة جاليبولي وصولاً إلى جزر الدوديكان في الحرب العالمية الأولى. لكن الحقيقة هي أنّ فكرة اجتياح قناة السويس تعود إلى خلف تشرشل السير أنتوني إيدن الذي أصر على أنّ رئيس مصر جمال عبد الناصر كان شبيهًا لهتلر.

ولكن لم يكن يوافقه أيزنهاور في الرأي. في الواقع، إنّ قرار عبد الناصر في تموز/يوليو ١٩٥٦ تأميم قناة السويس حرّك الاستبدادية البريطانية والفرنسية من جديد (كتب أيزنهاور في هذا السياق في يومياته(٢) «لقد صَبّ الآن الزيت على النار»)، ولكن كان يرى الرئيس أنه «من حق عبد الناصر» أن يسيطر على القناة في ظل التأميم واستهزأ بتأكيد البريطانيين أنّ البحّارة المصريين لن يتمكنوا

(١) راجع كتاب تشيستر جاي باش الابن Chester J. Pach, Jr وإلمو ريتشاردسون Elmo Richardson المعنون The Presidency of Dwight D. Eisenhower، ص. ١٢٣ و١٢٤.

(٢) كتاب Waging Peace لـ Dwight D. Eisenhower، ص. ٣٤.

من قيادة السفن من دون المراقبة البريطانية[1]. (تجدر الإشارة إلى أن البحّارة المصريين تمكنوا في خلال الأسابيع الستة الأولى من تسيير ٢٥٤ سفينة من دون أي مساعدة، ويعدّ هذا الرقم رقمًا قياسيًا بالنسبة إلى قناة). وبالإضافة إلى ذلك، حذّر أيزنهاور رئيس الوزراء البريطاني إيدن قائلاً: «قد يكون النجاح العسكري في البدء سهلاً ولكن في نهاية المطاف سيكون الثمن باهظًا»[2].

ومرة جديدة، وضع ذكاء أيزنهاور صاحبه في نزاع مع أعضاء حزبه، حتى أنّ قائد الأغلبية في مجلس الشيوخ الديمقراطي ليندون ب. جونسون نصحه أن «يقول لهما (لبريطانيا وفرنسا) إنهما تحظيان بدعمنا المعنوي ولتستكملا ما بدأتاه»[3]. كذلك رحّب وزير الخارجية، جون فوستر دالز، باللجوء إلى التهديد. عارض أيزنهاور من جديد، لأنه يخاطر بالانزلاق إلى الحرب في حال تعرّضت الأمة للتهديد أو الاعتداء. فحثّ إيدن على «عدم تحويل عبد الناصر إلى بطل عربي» علمًا أنّ هذا الأخير يحبّ المبالغة، وعلى غرار مقاربة الجسر الجوي نحو برلين التي وضعها ترومان لتحدٍّ مماثلٍ، لإيدن، نصحه أيزنهاور العمل بسرعة على الصهاريج الضخمة وأنابيب النفط الجديدة وتزوّد النفط من الولايات المتحدة، فيما تستفيد الولايات المتحدة من علاقتها المميزة مع المملكة العربية السعودية[4].

ولكن لم يمتثل لا إيدن ولا الإسرائيليون لذلك. وفي خلال توجهه إلى الشرق الأوسط، اكتشفت طائرة التجسس الجديدة التابعة لأيك أنّ إسرائيل حصلت على ستين طائرة ميستير وهي طائرات حربية فرنسية وليس الأربع وعشرين التي كانت تملكها وفقًا للإعلان الثلاثي لعام ١٩٥٠، الذي حافظ على الوضع العسكري الراهن في المنطقة. بالإضافة إلى ذلك، أشارت التقارير إلى أنّ البريطانيين والفرنسيين يعدّون قوات اجتياح على جزر قبرص، فيما يقوم الإسرائيليون بالأمر عينه، وأصبحوا

(١) كتاب Eisenhower: The President لـAmbrose، ص. ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص. ٣٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص. ٣٣٩.

مستعدين لاجتياح الأردن. من جهتها حثّت وكالة الاستخبارات المركزية أيزنهاور على الموافقة على اغتيال عبد الناصر، ولكنه رفض رفضًا قاطعًا، مرتئياً أنه «سيشعل العالم العربي» وإن نجحوا قد يكون خلفه أسوأ منه بكثير. فأمر أيزنهاور دالز أن يقول للإسرائيليين أن يتخلّوا عن فكرة شن هجوم على الأردن لأنّ ذلك سيُجبر سائر العرب على التوجه إلى الاتحاد السوفياتي لتزوّد الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، ويمكن لذلك أن يؤدي «في نهاية المطاف إلى وضع المنطقة تحت السيطرة السوفياتية»[١].

لكن، ولسوء حظّ أيزنهاور، أصرّ البريطانيون والفرنسيون والإسرائيليون، وبدأ رئيس الوزراء الإسرائيلي دافيد بن غوريون بالاستيلاء على الضفة الغربية، مراهنًا على انشغال الأميركيين بالانتخابات الرئاسية ودعم اليهود في الولايات المتحدة وانشغال المصريين في الدفاع عن القناة التي تمّ تأميمها أخيراً ضد الفرنسيين والبريطانيين. وحذّر أيزنهاور بكل وضوح من أنّ ذلك «سيؤدي حتمًا إلى كارثة»[٢]. وفي الواقع، بدأ أيزنهاور يتساءل ما إن كان مضطرًا إلى «استعمال القوة» بغية إيقاف الإسرائيليين حتى ولو أدى ذلك إلى خسارته في الانتخابات. ولفت في هذا الصدد: «ها قد خسرت أقله نيويورك ونيو جيرسي وكونيتيكت». ولكنه أشار إلى دالز أنه لن يسمح للخوف أن «يؤثر في إطلاقي للأحكام المناسبة»[٣]. كما أنه قال سرًا لأحد مساعديه: « لا أفهم ما الذي يحاول الإسرائيليون فعله، ربما يظنون أنه لا يمكنهم العيش من دون المزيد من الأراضي». فما الفرق بين التكتيكات التوسعية التي يلجأ إليها الإسرائيليون وتكتيكات هتلر، على المدى الطويل؟ «ولا أفهم كيف يمكنهم أن يعيشوا من دون التوصل إلى شروط أخلاقية وسلمية للعيش مع سائر العالم العربي المحيط بهم»[٤].

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر شنّ الإسرائيليون هجومًا على

(١) المصدر السابق، ص. ٣٥٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٥٣.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٥٦.
(٤) المصدر السابق، ص. ٣٥٨.

الجزء المصري من صحراء سيناء متوجهين نحو قناة السويس في حين توقعت وكالة الاستخبارات المركزية هجومًا على الأردن. وكان يأمل الإسرائيليون من خلال الهجوم أن تُقفل مصر القناة ما يوفر ذريعة مقنعةً لبريطانيا وفرنسا لتشاركا في الاجتياح. وبذلك، تكون «الكارثة» التي توقعها أيزنهاور قد بدأت.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وقَعت إعلان لندن الثلاثي في الخامس والعشرين من أيار/مايو ١٩٥٠، وجاء في الإعلان أنّ الموقعين يلجأون إلى الحلّ العسكري فقط في حال انتهكت إسرائيل أو أي من الدول العربية «الحدود أو خطوط الهدنة» وذلك حفاظًا على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط. ومع ذلك، تجاهلت كل من فرنسا وبريطانيا الإعلان تمامًا ، ولم تعودا تعملان على منع إسرائيل من تخطي الحدود بل تساعدانها على اجتياح مصر ما لم تسحب فريق عملها وقواتها العسكرية عشرة أميال وراء القناة. استاء الرئيس أيزنهاور مما جرى وأصدر بيانًا من البيت الأبيض يشجب هذا الخداع وأشار مساعده إلى أن الرئيس «لا يأبه البتة إن خسر الانتخابات أم فاز بها» وإن أخرجه التصويت الشعبي الأسبوع المقبل في خلال انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر «فلا بأس»[١]. شعر الرئيس أنه قد تعرّض للخيانة ووقف في صفّ مصر. وأردف الرئيس بأسف عميق[٢]: «لم يسبق لي أن رأيت قوّى عظمى تُحدث فوضى بهذا الحجم وتُفسد الأمور إلى هذا الحدّ»، وأعلن قائلاً: «كانت هذه أكبر غلطة في زمننا» ودعا إلى وقف إطلاق النار وفرض حظر عسكري وتجاري على إسرائيل إلى حين سحب كل قواتها[٣].

اندهشت الأمم الصغيرة التابعة للأمم المتحدة من موقف أيزنهاور وأعجبت به وكذلك الأمر بالنسبة إلى الناخبين الأميركيين. في المقابل، تجاهل إيدن الرئيس واستكمل المكيدة الإنكليزية والفرنسية وفي الواحد والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر، سمح بقصف القاهرة. فردّ عبد الناصر آمرًا بإغراق السفن الموجودة في

(١) المصدر السابق، ص. ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص. ٣٦١.

القناة. من جهة أخرى، وفي آخر خطاب للرئيس في خلال حملته الانتخابية قال عن الوضع المعقّد في الشرق الأوسط والاستعمار البغيض الذي ينفّذه حلفاؤه: «لا يمكننا أن نسنّ قوانين للضعفاء وقوانين للأقوياء، ولا يمكننا أن نضع قوانين لحلفائنا وأخرى لأعدائنا، وإلا لن نتمكن يومًا من إحلال السلام»[1].

ولكن ما أحزن قلب الرئيس على وجه الخصوص هو أنّ قصر نظر كل من بريطانيا وفرنسا وفّر فرصةً ذهبيةً لروسيا لخنق انتفاضة شعبية ضدّ السوفياتية اندلعت في هنغاريا في الثالث والعشرين من تشرين الأوّل/أكتوبر ومن دون أي عقاب. كان الاتحاد السوفياتي قد وعد بسحب جنوده، ولكنه لم يف بوعده بل أرسل إلى بودابست مئتي ألف جندي وأربعة آلاف دبابة، فقتلوا أربعين ألف معارض هنغاري. فنصحت وكالة الاستخبارات المركزية بإنزال المؤن والمساعدات للمنشقّين، فيما نصح آخرون الرئيس باجتياح القوات الأميركية هنغاريا من خلال القواعد الموجودة في ألمانيا ولكنّه هزّ رأسه بقلق رافضًا الاقتراح وقال إنّه يصعب الوصول إلى هنغاريا وراء الستار الحديدي «تمامًا مثل التبت»[2]. تجاهل رئيس الوزراء السوفياتي نيكولاي بولغانين السخط الناجم عن الأعمال القمعية (إلى درجة أنّ رئيس الوزراء الهنغاري أجبر على السعي إلى طلب اللجوء الدبلوماسي، إلا أنّ الروس قاطعوه وهو في طريقه وأعدموه) واقترح، في رسالة وجهها إلى الرئيس أيزنهاور، أن توحّد روسيا والولايات المتحدة قواهما وترسلا قواتهما إلى مصر. وحذّر في رسالته نظيره الأميركي قائلاً: «إن لم نوقف هذه الحرب، قد تكبر وتتحوّل إلى حرب عالمية ثالثة»[3].

تجاهل أيزنهاور اقتراح بولغانين وأصرّ على أن تراقب الأمم المتحدة عملية التوصل إلى وقف إطلاق النار وعدم السماح لوجود أي قوات تابعة للقوى العظمى الخمس. وافق رئيس الوزراء البريطاني بتردد على وقف إطلاق النار يوم السادس من

(١) المصدر السابق، ص. ٣٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٦٧.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٦٨.

تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦ يوم الانتخابات الأميركية، في حين لم يوافق بن غوريون على ذلك.

وإزاء أزمة دولية، تصرّف الرئيس بهدوء ورفض أن يوافق على استبدادية الاستعمار الإنكليزي والفرنسي الإجرامي أو على حب إسرائيل للمغامرة. وصحيح أنّ الديمقراطيين قد حققوا مكاسب كبيرة في مجلسي النواب والشيوخ، إلا أنّ شعبية أيزنهاور أعادته إلى سدّة الرئاسة، فألحق، للمرة الثانية، هزيمةً شنعاء بخصمه أدلاي ستيفنسون في الانتخابات الرئاسية. وشكل هذا الانتصار فوزًا ساحقًا بحيث حصد أيزنهاور أربعمئة وخمسة وسبعين صوتًا في الانتخابات الطالبية مقابل ثلاثة وسبعين للديمقراطيين، كما حصل على عشرة ملايين صوت تقريبًا في الاقتراع السري.

وهكذا، أسكتت شعبية أيزنهاور الكبيرة مثيري المشاكل في الكونغرس من الجمهوريين والديمقراطيين. كما تمكن الرئيس من فرض عقوبات على بن غوريون، فقد اقتطع أربعين مليون دولار أميركي كانت تقدم هبةً إلى إسرائيل من الضرائب الأميركية وستين مليون دولار كانت تُقدم على شاكلة سندات، وكل ذلك بغية إجباره على تطبيق قرار الأمم المتحدة الذي يقضي بسحب القوات الإسرائيلية من غزّة.

في المقابل، قاوم بن غوريون، وطالب بحقّ إدارة «القطاع» ومراقبته، كما أنه طالب بالحصول على ضمانات دولية لتتمكن إسرائيل من استخدام خليج العقبة. من جهة أخرى، أمل بن غوريون أن تتمكن مجموعات الضغط اليهودية في الولايات المتحدة من جعل الكونغرس يُقنع الرئيس أن يعمل وفقًا لجدول الأعمال هذا، كما كانت حال رئاسة ترومان، لكنّه كان يستخفّ بذلك بعزم أيزنهاور. أما بالنسبة إلى القادة في الكونغرس، فقد تركوا المسألة بيد الرئيس، وفي الأول من آذار/مارس ١٩٥٧، أعلنت غولدا مائير المتواضعة باسم بن غوريون «انسحاب إسرائيل الكامل والتام» من الأراضي التي احتلتها في خلال حرب السويس. وبناءً عليه، أمر عبدالناصر بإخلاء قناة السويس التي أصبحت بعد هذا الإعلان ممرًا مائيًا مصريًا، وهكذا انتهت الحرب.

وقد شكل هدوء أيزنهاور في تعامله مع أزمة قناة السويس، دليلاً دامغًا على تدريبه الطويل في الجيش وخبرته في مسائل الحرب. وقد برهن الرئيس أيزنهاور عن قدرة عظيمة على القيادة من خلال البقاء خارج الاعتداءات في الشرق الأوسط وإجبار المشاركين فيها على الانسحاب، فضلاً عن ضمان ألا يكون للاتحاد السوفياتي أي وجود في المنطقة وألا يُترك من دون حساب على المجازر التي ارتكبها في هنغاريا.

لم يكن أيزنهاور يحاول نزع فتيل المشاكل على الصعيد الخارجي فقط، فقد حظي الرئيس بدعم الأكثرية الساحقة من الأميركيين في ما يتعلّق بإدارته للسياسة الخارجية، كما حظي أيضًا بدعم أغلبية الكونغرس، ولم يكن ليخاطر بخسارة هذا الدعم بالتطرق إلى المسائل الداخلية غير المتفق عليها مثل الحقوق المدنية. ولكن سير الأحداث لوى ذراعه وأجبره على غير ذلك.

وفي العام ١٩٥٤، صدر قانون براون مقابل مجلس التعليم عند المحكمة العليا، وحدد هذا القانون «المدة» لبدء إدماج المدارس الرسمية القائمة على التمييز العنصري في أميركا ابتداءً من الحضانة وصولاً إلى الصف الثالث ثانوي. وذكّر الرئيس حكومته بهذا القرار قبل الانتخابات في العام ١٩٥٦. وحذر قائلاً: «المشكلة هي أننا لا نستخدم الوقت كما يجب، فعلى العكس، بقيت الولايات تناقش وتقول «إنها ستتخطى القرار»»[1]. وفي الواقع، لم يكن يحق للأميركيين من أصل إفريقي أن يصوتوا، فعلى سبيل المثال، يتمتع سبعة آلاف شخص يعيشون في ولاية ميسيسيبي من أصل مليون بحق التصويت فقط![2] وعلى الرغم من خسارتهم الفادحة في خلال الحرب الأهلية المندلعة بسبب الاستعباد والحقوق المدنية، تمكن الديمقراطيون في الجنوب من مقاومة تشريعات الحقوق المدنية منذ حقبة إعادة الإعمار. من الواضح أنهم لن يتخلّوا عن سعيهم للمحافظة على الفصل العنصري من دون معركة. من ناحية أخرى، نقل مكتب التحقيقات الفدرالي أن أعداد الأعضاء في منظمة الكو كلاكس

(١) كتاب Ike لـ Brendon، ص. ٣١٩.

(٢) كتاب Eisenhower: The President لـ Ambrose، ص. ٤٠٦.

كلان ارتفعت ارتفاعاً مخيفاً، فضلاً عن ارتفاع مبيعات المسدسات الصغيرة في الجنوب. وقد أدى تصاعد التوتّرات الناجمة عن التمييز العنصري وقتل المزيد من الأميركيين من أصل إفريقي من دون معاقبة الفاعلين حسب القانون ومن دون بروز أي رد قضائي (لأنّ القضاة البيض كانوا يرفضون إعلان أنّ المدعى عليهم البيض مذنبون)، إلى ظهور خطر نشوب الحرب الأهلية.

كان أيزنهاور معروفًا بالتزامه الهدوء في ظروف مماثلة إلى أن تخمد مشاعر الحقد، ولكن عندما تبين له أن ذلك لن يحدث لا سيما وسط اشتعال القادة الديمقراطيين في الجنوب من الغضب، قدّم أيزنهاور بتردد إلى الكونغرس مشروع قانون متواضعاً حول الحقوق المدنية في العام ١٩٥٧، وكان هذا المشروع يُطبّق قضائيًا على صعيد الولايات لا الحكومة ككل. وفي الثامن عشر من حزيران/يونيو أقر مجلس النواب القانون الذي أعاقه السيناتورات الديمقراطيون. وكذلك، ومع مماطلة ستورم ثرموند (الذي استمر في المماطلة مدة أربع وعشرين ساعة وهي مدة قياسية، وذلك على الرغم من أنه قد حظي سراً، بطفل من امرأة سوداء) مع غيره من المتعصبين، اضطرّ قائد الأكثرية ليندون جونسون إلى الحدّ من القانون وجعله مشروع قانون فقط للحصول على حق التصويت والسكن. ورأى أيزنهاور أنّ هذا القانون يحتاج إلى عقد كامل لتتم مراجعته. وأطلق أحد السيناتورات من الشمال على مشروع القانون هذا اسم «حساء شبه دجاجة ماتت جوعًا»[1]. وفي التاسع من أيلول/سبتمبر ١٩٥٧، أقر أيزنهاور القانون ووقعه، وقد أتت نتيجته عكسيةً في الجنوب بما أنه أشعل الحقد أكثر بين الطرفين.

كان يرى البيض في الجنوب أنّ مسألة المدارس الرسمية المختلطة بين البيض والسود تشكل خطورة أكبر من مسألة التصويت، وكان المتعصبون مستعدّين لحل المسألة بأنفسهم. وعندما فتحت المدارس أبوابها بعد عطلة الصيف، حاولت مجالس

(١) عن السيناتور بول دوغلاس Paul Douglas في كتاب ١٩٠٨-١٩٦٠ Lone Star Rising: Lyndon Johnson and His Times لروبرت دالاك Robert Dallek، ص. ٥٢٦.

المدارس المخصّصة للبيض إدخال تلاميذ أميركيين من أصل إفريقي، فاشتعل العنف المافيوي ودعم الحاكمون المافيات التابعة للبيض بدلاً من دعم الأطفال السود. وتحوّل أورفال فوبوس حاكم أركنساس إلى شخصية عالمية عندما أمر الحرس القومي التابع للولاية بمنع تسعة أطفال سود من ارتياد ثانوية ليتل روك سنترال Little Rock's Central High School. لم يكن الرئيس الذي كان يمضي العطلة في نيوبورت يريد أن يُرسل إلى العالم رسالةً مماثلةً، وخوفًا من انتفاضة استدعى الحاكم فوبوس إلى رود آيلاند ليبرر فعلته.

وفي الرابع عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٥٧، واجه فوبوس الرئيس. كان الحاكم جنديًا في المشاة، خدم في أوروبا في الحرب العالمية الثانية تحت إمرة الجنرال أيزنهاور الذي يمكنه، بصفته الرئيس، أن يضم الحرس القومي إلى الحكومة ما لم ينصع فوبوس للقانون. وسينتج من صراع القوة بين الرئيس والحاكم أمر واحد، وفي هذا السياق قال أيزنهاور: «ستكون الولاية هي الخاسر الوحيد»[١]. فنصح الحاكم بالعودة إلى أركنساس وبضمان دخول الأولاد بسلام إلى المدرسة. بدوره، وعد فوبوس الرئيس بتنفيذ الأوامر. ولكن فور عودته إلى أركنساس، نكث فوبوس بوعده ما أدى إلى فوضى عارمة بحيث تدفق حشد من المتعصبين البيض الذين تم دعوتهم عبر الهاتف والراديو إلى ثانوية ليتل روك سنترال حاملين المسدسات والعصي الحديدية لمنع الأطفال السود من دخول المدرسة.

وبحلول الثالث والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٥٧، تحولت المسألة إلى كارثة على صعيد الولاية والأمة. وبعد ظهر هذا اليوم، استدعى الرئيس أيزنهاور قائد الجيش الأميركي الجنرال ماكسويل تايلور الذي كان قائد فريق المظليين وشارك في إنزالات يوم بدء العمليات بقيادة أيزنهاور العليا. وبحلول الليل، تم إنزال خمسمئة مظلي من وحدة سلاح الجو مئة وواحد وتمركزوا في مواقعهم في وسط المدينة حاملين الحراب. فأعلن الحاكم عبر التلفزيون الرسمي استنكاره لمجيء جنود سلاح الجو

(١) كتاب Waging Peace لـDwight D. Eisenhower، ص. ١٦٦.

الآتين لردع المافيا التابعة للبيض قائلاً «تُلطّخ سكاكينهم الباردة والمسنونة بدماء المواطنين الأبرياء الساخنة». في المقابل، اتهم السيناتور ريتشارد رسال الرئيس باستعمال طريقة هتلر في الهجوم على أميركيين مدنيين.[١]

أما بالنسبة إلى أيزنهاور، فقد صعب عليه تقبل هذه الاتهامات. فقد شكّل استدعاء الجيش الأميركي لحماية تسعة أطفال يحاولون دخول المدرسة اتهامًا لتعصّب البيض. ولفت أيزنهاور إلى أنّ السوفيات «يشمتون بنا بسبب هذه الحادثة ويستغلونها لتشويه سمعة أمتنا».[٢] وردّ في رسالة وجهها إلى السيناتور رسال «ألا يخجل فوبوس وأتباعه مما فعلوا؟ فعدم التصرف في هذه الحال يساوي الرضوخ للفوضى الغوغائية وحلّ الاتحاد».[٣]

وبعد ثلاثة أسابيع، أظهر استطلاع رأي غالوب أنّ ثمانية وخمسين بالمئة من المشاركين دعموا طريقة أيزنهاور «في التعامل مع أزمة ليتل روك»، في حين لم يوافق عليها ثلاثون بالمئة. وعلى الرغم من كل ذلك، تحول فوبوس في أركنساس إلى بطل شعبي خصوصًا عندما جرى ما كان أيزنهاور يخشاه، إذ قام فوبوس بإقفال المدرسة عندما ضمّ أيزنهاور الحرس القومي إلى الحكومة. ففضّل الحاكم عدم الحصول على تعليم ثانوي على أن يُنفّذ قرار الإدماج.

وعُدّ قرار أيزنهاور الذي يقضي بإرسال الوحدة ١٠١ من سلاح الجو إلى ليتل روك تتويجًا لرئاسته بصفته حامي الدستور، وأرسل رسالةً واضحةً إلى العالم فحواها أنّه في ظلّ صراع الأحرار ضد استبداد الشيوعية، لن يقبل استبداد البيض المتعصبين ومافيات القتل في بلده. وقال في رسالة وجهها إلى السيناتور رسال: « لا يستوعب عقلي كيف تشبّه قواتنا بقوات هتلر. فقد كانت تُستخدم هذه القوات لتحقيق مآرب ديكتاتور يخلو قلبه من الرحمة، فيما تدخّل جيشنا للحفاظ على مؤسسات الحكومة الحرة».[٤]

---

(١) كتاب Eisenhower: The President لـ Ambrose، ص. ٤٢١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤٢٢.

(٤) المصدر السابق.

بالإضافة إلى ذلك، تمّ لوم أيزنهاور على تردده، فعلى الرغم من تهنئة الليبراليين له، تيقّن من خلال تعامله مع فوبوس الحاكم الديمقراطي، أنّه لا يمكن استئصال العنصرية تجاه السود بالقوة، تمامًا كما لم يستطع جنود الاتحاد استئصاله في خلال الحرب الأهلية وبعدها. في الواقع، تعدّ العنصرية وباءً أميركيًا بامتياز أصاب موجات هجرة الأوروبيين البيض المتتالية إلى الجنوب على مدى ثلاثمئة سنة. وفي الأشهر التي أعقبت أزمة ثانوية سنترال، تراجعت شعبية أيزنهاور المنيعة، خصوصًا في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٧، بعد انتشار خبر إطلاق روسيا قمر «الرفيق المسافر»، سبوتنك١ بنجاح إلى الفضاء.

اندهش الأميركيون لدى سماعهم تصريح رئيس الوزراء الروسي خروتشوف في موسكو عندما قال إنّ الاتحاد السوفياتي قد فاز في سباق غزو الفضاء وبالتالي فاز في سباق التسلّح. لم يكن الاتحاد السوفياتي يملك قاذفات قنابل لقصف الولايات المتحدة، وقد حققت إنجازًا كبيرًا حين أصبحت قادرةً على إطلاق قمر وصاروخ باليستس عابر للقارات ذي رأس نووي، يذكر بقذائف فاو ٢ التي كانت تُستعمل في الحرب العالمية الثانية. يمكن لمثل هذا الصاروخ أن يضرب كل مدينة أميركية من دون أي عقاب لأنّ من المستحيل رصده وإيقافه. حتى أنّ إمكانية الرد مشكوك فيها بالنظر إلى أنّ ثلاثة أرباع طائرات بي ٥٢ ستُدمر في خلال أول هجوم روسي. ووصل الحد ببعض المستشارين الأميركيين إلى نصح الرئيس بشنّ ضربة دفاعية على الاتحاد السوفياتي تسبب محرقةً نووية، قبل أن تصبح قاذفات الصواريخ السوفياتية شغالةً.

لم يقتنع الرئيس بالاقتراح، إلا أنه أمر بزيادة اختبارات القنابل الهيدروجينية وزيادة إنتاج طائرات البوينغ بي ٥٢ بسرعة وتسريع المنافسة بين البحرية والجيش من حيث تطوير صاروخ سبوتنك أميركي.

ولكن لسوء الحظ أدى التسرّع إلى ارتكاب الأخطاء. ففي السادس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٧، انتهت أول محاولة أميركية لإطلاق صاروخ إلى التسبب بخزي

رهيب، فقد انفجر الصاروخ بعد بضع ثوان على إطلاقه. وكذلك، لم تكن محاولة الخامس من شباط/فبراير ١٩٥٨ أفضل بكثير، فقد انفجر الصاروخ أيضًا ولكن بعد فترة أقصر من المحاولة الأولى. وكذلك لم يبلغ ثقل الجزء المتفجر من الصاروخ سوى أربعة باوندات بالمقارنة بسبوتنك ٣ الذي تم إطلاقه إلى الفضاء في أيار/مايو والذي وصلت حمولة القسم المتفجر فيه إلى ثلاثة آلاف باوند ١٩٥٨.

ومع كل هذه الأحداث، بدأت رئاسة أيزنهاور العظيمة تتراجع، خصوصًا بعد أن تعرّض الرئيس وهو في السابعة والستين من عمره لسكتة دماغية في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧.

وعلى الرغم من استعادة الرئيس أيزنهاور عافيته الجسدية كاملة بمرور الوقت، إلا أنه غرق في الاكتئاب. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، قال لوزير خارجيته جون فوستر دالز إنه وعلى ضوء الأزمة القلبية التي تعرّض لها والالتهاب المعوي الذي عاناه والسكتة الدماغية التي أُصيب بها، ربما من الأفضل أن «يتخلّى»[1] عن الرئاسة إن لم يستطع حضور اجتماع حلف شمال الأطلسي المزمع عقده.

وخوفًا من أن يقوم نائب الرئيس ريتشارد نيكسون بقيادة الترسانة النووية، نصح دالز الرئيس بالعزوف عن قراره. مع ذلك، فإن المكتوب يُقرأ من عنوانه، فأيزنهاور لم يحب نيكسون يومًا ولم يكن مرتاحًا لفكرة أن يتسلّم مقاليد السلطة الإمبراطورية الأميركية. والأهمّ من كل ذلك، أن أيزنهاور بدأ يخسر ثقته بنفسه فقد تخلى عدد من أهمّ الشخصيات الرفيعة المستوى عنه، وانزلقت أميركا في مأزق الكساد ووصلت نسبة البطالة إلى ثمانية في المئة، وبدأت الضغوط بغية توفير التمويل الفدرالي للناس لتوفير ملاجئ ضد السلاح النووي. ومع أن أيزنهاور حاول تهدئة الأمور، من خلال مؤتمراته الصحفية وخطاباته التي كان يوجّهها إلى الأمة، إلا أنه لم يكن يومًا خطيبًا مفوّهاً (على الرغم من كونه كاتبًا ممتازًا)، كما أن عباراته التي تبدو قديمةً وباليةً جعلته يبدو غير واقعي ولطيفاً أكثر مما ينبغي، ما

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٠.

شكّل منفذًا للديمقراطيين الطموحين على غرار ليندون جونسون الذي كان يطمح إلى الوصول إلى سدة الرئاسة.

وفي قمة اكتئاب الرئيس في شباط/فبراير ١٩٥٨، توصّل إلى اتفاق سري وخاص مع نائبه، وبموجب هذا الاتفاق يحق لنيكسون أن يتبوّأ منصب الرئاسة في حال كان أيزنهاور أضعف من أن يسلم السلطة. وكذلك الأمر، كان دالز مريضًا جدًّا، وبدا الجو كئيبًا. وفي السابع والعشرين من آذار/مارس ١٩٥٨، قدّم بولغانين استقالته، فأصبح سيرغيفيتش خروتشوف رئيس الوزراء وقائد الحزب وبالتالي القائد الفعلي للاتحاد السوفياتي. فظنّ أيزنهاور أنّ بإمكانه تحسين العلاقات بين القوتين العظميين في العالم.

وتجدر الإشارة إلى أنه علينا ألا ننسى ما عُدّ لاحقًا مقدمةً للمواجهة النووية الأسطورية التي دارت بين كينيدي وخروتشوف والتي كادت تغرق العالم بحرب عالمية ثالثة وذلك نظرًا إلى الاهتمام الذي حظيت به.

من جهة أخرى، شبّه أيزنهاور دوره كرئيس بدور المحافظ الذي يضبط الشباب المتهوّرين الاستبداديين لأنه فضل اللجوء إلى ما سمّاه المؤرّخون إستراتيجية «اليد الخفية». فاستعان بوكالة الاستخبارات المركزية لمراقبة الأنظمة المنقادة في أقطار العالم على غرار إيران (حيث ساعدته وكالة الاستخبارات المركزية على إطاحة رئيس الوزراء وتعيين الشاه لترؤس عرش الطاووس مكانه) وأميركا الجنوبية (حيث تمت إزاحة رئيس غواتيمالا). ولكن التعامل مع خروتشوف كان أمرًا مختلفًا تمامًا. فسيؤدي فشل أيزنهاور ويا للأسف إلى تلطيخ إرثه بعد ست سنوات استثنائية من القيادة.

من جهة أخرى، شجب الرئيس السباق إلى التسلّح كما أنه حزن جدًّا على وفاة جون فوستر دالز، وزير خارجيته في الرابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٥٨. من هنا، ومن دون أن يتعمّد ذلك، قرر أن يحاول شخصيًا عقد السلام مع الاتحاد السوفياتي. فوجه الرئيس، في العاشر من تموز/يوليو ١٩٥٨، دعوةً إلى خروتشوف لزيارة الولايات

المتحدة. وافق هذا الأخير بعد اثني عشر يومًا، وتم تحديد موعد الزيارة في صيف ١٩٥٩. كانت هذه الزيارة حينئذ أوّل زيارة لقائد من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة التي كانت حليفة الاتحاد السوفياتي والتي تحوّلت إلى «العدو اللدود» بعد تداعيات الحرب العالمية الثانية.

في هذا السياق ، سجّل خروتشوف يومياته التي أظهرت لاحقًا انعدام الثقة العميق الذي وجب عليه تخطيه قبل مغادرته الاتحاد السوفياتي في أيلول/سبتمبر ١٩٥٩. وقال في هذا الصدد: «أعترف أنني كنت قلقًا». في الواقع كان خروتشوف قد سبق أن زار الهند وإنكلترا «ولكن هذه الزيارة مختلفة لكونها إلى أميركا». ليس بالضرورة لأنه يرى أن الولايات المتحدة أهمّ من بريطانيا من حيث الثقافة، «بل لأن قوتها تكتسب أهميةً قصوى»[1]. فقد كان للقوة أهمية لا يُستهان بها.

في الواقع، كان خروتشوف قد قابل الجنرال أيزنهاور مرتين في الماضي، مرةً في موسكو في العام ١٩٤٥ وفي جنيف في العام ١٩٥٥. وكان قد تجادل مع نيكسون، نائب الرئيس في خلال افتتاح المعرض الأميركي الوطني في موسكو في أواخر تموز/ يوليو ١٩٥٩ في المطبخ الذي كان يجسد بناء المطبخ الأميركي الحديث القائم على تكنولوجيا تخفف من العمل (وسُمي هذا الجدال بـ«نقاش المطبخ»). وقع هذا الحدث على الأراضي الروسية حيث تمكن خروتشوف من الاستهزاء من دون رحمة من الاستهلاكية الأميركية العاطلة أمام المراسلين السوفيات المنحازين. أما الآن، فسيكون هو على الأراضي الأميركية ومعه أندريه غروميكو وزير خارجيته مصطحبين زوجتيهما. حتى أنّ الزيارة المخطط لها إلى ملاذ الرئيس في مريلاند، التي أعيد تسميتها كامب دايفد تيمنًا بحفيد أيزنهاور، أثارت الريبة في قلب القائد الرئيسي (ولكن هدأت هذه المشاعر عندما علم أن هذا الملاذ هو بيت ريفي روسي اصطحبه إليه لتكريمه). ولفت خروتشوف في يومياته «يجب ألا تنسوا أن ستالين، الديكتاتور الروسي ما انفكَ يقول لنا طوال حياته وحتى مماته، إننا لن نتمكن أبدًا

(١) كتاب Khrushchev Remembers: The Last Testament لخروتشوف Khrushchev، ص. ٣٧٤.

من الوقوف في وجه القوى الإمبريالية، وفي المرة الأولى التي سنتواصل في خلالها مع العالم الخارجي سيمزّقنا أعداؤنا إربًا إربًا، وسنشعر بالضياع ولن نكون قادرين على الدفاع عن أرضنا»[1]. كان حينئذ متوترًا، وكانت أعصابه «مشدودةً من شدة الحماسة لأنه سيلتقي قائد البلد الذي يمثّل أكبر تهديد عسكري في العالم وسيناقش معه مسائل مهمة مثل التعايش السلمي والتوصل إلى معاهدة لحظر السلاح النووي والتخفيف من عدد القوات المسلحة وانسحاب بعض القوات وإقفال القواعد العسكرية الموجودة على الأراضي الأجنبية. كما أنني كنت أتطلّع قدمًا إلى إرساء علاقات مع عالم الأعمال الأميركي».[2]

كان أيزنهاور متوترًا، يتقاسم وخروتشوف خبرات مشتركة. كان يصغر هذا الأخير أيزنهاور بثلاث سنوات ولكنه كان أكثر صلعاً، وُلد من أب فلاح أمّي وترعرع فقيرًا في الريف. وفي خلال عشاء على شرفه في البيت الأبيض، اعترف خروتشوف أنّ «لبلدينا نظامين اجتماعيين مختلفين، فكل يؤمن أن نظامه هو الأفضل. ولكن بالطبع علينا ألا نتطرّق إلى المسائل الخلافية في ساحة النزاع المفتوح، فليحكم التاريخ أيّ من النظامين هو الأفضل. فإن اتفقنا على هذا المبدأ، يمكننا أن نرسي علاقات على أساس السلام والصداقة».[3]

ولكن، يا ليت صحّ ذلك! اصطحب أيزنهاور رئيس الوزراء الروسي بمروحيته الرئاسية إلى كامب دايفد، حيث أمطر خروتشوف الرئيس بقصص عظيمة عن رفيق السلاح ستالين وعن الحرب في روسيا. فقد كان خروتشوف معروفًا باسم «جزار أوكرانيا»، وكان بصفته المفوّض السياسي مسؤولاً عن ضمان تنفيذ أوامر ستالين على أرض المعارك في كييف وخركوف وستالينغراد وكيرسك التي أسفرت عن عدد هائل من الضحايا (على سبيل المثال رفض ستالين إجلاء مدينة ستالينغراد والمحاربة في الأراضي العالية في الشرق التي يمكن الدفاع عنها)، وفق ما قال خروتشوف لأيزنهاور.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٧٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧٥ و٣٧٥.
(٣) كتاب Waging Peace لـDwight D. Eisenhower، ص. ٤٤٠.

في المقابل، اعترف الرئيس أنّه وجد قصص خروتشوف «مذهلة». لكن، وفي سياق عالم ما بعد الحرب، تبرز مسألة كيفية تعايش الإمبراطوريتين بسلام في الوقت الحاضر وفي المستقبل. وكذلك، أخذ أيزنهاور خروتشوف ليرى مزرعته في غيتسبرغ ووعده بإرسال رؤوس من ماشيته من فصيلة آنغوس إلى روسيا. وقد تسارّا أنهما يتعرّضان دائمًا إلى المضايقة المتواصلة والتملّق من قبل المستشارين العسكريين لزيادة الإنفاق على التسلّح والدفاع ما يؤدي تلقائيًا إلى زيادة تدريجية في سباق التسلّح تمامًا كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى. (وسأل أيزنهاور بسخط أحد الجمهوريين المزعجين في الكونغرس: «كم مرةً علينا أن نعيد الكرة؟»[1] ولكن، عندما انتقل القائدان الإمبرياليان إلى مناقشة الإجراءات العملية لتعزيز «السلام والصداقة»، ظهر جليًا أنّه لا يمكن لأي من الإمبراطوريين أن يتخذ أي خطوة خوفاً من التعرّض إلى الاتهام أو الإطاحة أو الاغتيال. ففي الواقع، يسيطر الديمقراطيون اليمينيون على الكونغرس منذ انتخابات منتصف الولاية في العام ١٩٥٨. بالتالي، وفي ما يخص مسألة الدفاع، لن يقبل أبدًا الموافقة على مراقبة التسلّح، الأمر الذي قد يحدّ من تفوّق أميركا في مجال السلاح النووي. كما أنّهم يرون أنّ السوفيات لن يقبلوا أبدًا التفتيش لمراقبة التسلّح في مجتمعهم المغلق. وبالإضافة إلى المجابهة العسكرية، ثمة مشكلة انقسام النظام السياسي. من جهة أخرى، كان خروتشوف متعوّداً ضرب الطاولة للحصول على مراده، حتى أنه كان يعتزّ بقوته كديكتاتور وهمي ويتخيّل «مع أنكم أنتم (الأميركيون) أغنى منا في الوقت الحالي... في المستقبل القريب سنصبح بغناكم وفي المستقبل البعيد سنتخطاكم»[2] وذلك من خلال قدرة المكتب السياسي على قيادة الاقتصاد السوفياتي.

أما أيزنهاور فما كان باستطاعته إلا أن يهزّ رأسه. كان قد جال بخروتشوف في أنحاء أميركا، طوال عشرة أيام لزيارة الشعب الأميركي والمصانع الأميركية وليرى بنفسه ومباشرةً حكومات الولاية والمدينة مقابل الحكومة الفدرالية. كما أنه رتّب

(١) كتاب Eisenhower: The President لـAmbrose، ص. ٤٥٦.
(٢) كتاب Waging Peace لـDwight D. Eisenhower، ص. ٤٤٠.

زيارة له إلى هوليوود ومزارعه الخاصة آملاً أن يرى رئيس الوزراء الطاقة المسالمة والمتراكمة للفردية في حال تم إطلاق العنان لها والتشجيع عليها في مجتمع ديمقراطي ومثقف يحيا في ظل دستور مكتوب وفدرالية وقوانين محلية خاصة بكل ولاية.

ولكن يبدو أنَ نتيجة هذا الجهد المبذول أتت عكسية، فقد أراد الرئيس من خلال هذه الجولة أن يترك انطباعًا جيدًا لدى خروتشوف عن فضائل الرأسمالية، ولكنها أدت إلى زيادة قلقه لأنها زادت حسه بالدونية السوفياتية في كل المجالات باستثناء السيطرة العسكرية القمعية والشرطة السرية. وبالإضافة إلى ذلك، وبالنسبة إلى برلين الغربية، كان أيزنهاور لبقًا في الكلام ولكن عنيدًا فيما يتعلّق بضرورة وجود طرقات للدخول إلى الغرب لكي يبقى تحت رعاية قوات الحلفاء الغربية والعسكرية. كما أنه لم يكن مستعدًا لتأييد حلّ حلف شمال الأطلسي فقط بناءً على وعد بانسحاب القوات الروسية من الأراضي المحتلة في أوروبا الغربية، كذلك لم يكن قادرًا على تقديم وعد بإنهاء الحظر التجاري أو الإعفاء من الديون لأنّ المسألة خارجة عن سيطرته.

وهكذا، وبحسب تعبير خروتشوف فشلت المفاوضات بين الإمبراطورين المنحدرين من «الطبقة العاملة». بالتالي يستمر سباق التسلّح، أو الأحرى يستمرّ السباق الروسي في محاولة مجاراة التقدم التكنولوجي في أميركا. وفي هذا السياق، أشار خروتشوف إلى أنّ «أميركا تحاصرنا من كل الجهات بقواعدها العسكرية»، فيما روسيا «وبالمقارنة بالولايات المتحدة، متأخرة جدًا في مجالي رؤوس الطرابيد والصواريخ، كما أنّ الولايات المتحدة خارج نطاق قاذفات القنابل التي نملكها. في الواقع يمكن أن نفجّر حلفاء أميركا في أوروبا وآسيا ونحولهم إلى مجرّد غبار، ولكن لا يمكننا أن نصل إلى أميركا ذات الاقتصاد الهائل والقدرة العسكرية الكبيرة. لقد كنت مقتنعًا أنه طالما الولايات المتحدة متقدمة علينا، لا يمكننا أن نوافق على نزع

السلاح الدولي»،[1] أو أن نقبل «مفتشين يتنقلون في أرجاء الاتحاد السوفياتي» «قد يكتشفون أننا في موقف ضعيف نسبيًا» ما سيجعلهم «ينقضّون علينا».[2]

واستذكر خروتشوف قائلاً: «كان واضحاً أنَ أيزنهاور مثبط الهمة، فقد كان يبدو كرجل وقع في حفرة ثلج وقد تم جرّه من النهر والمياه المثلجة تقطر منه. وعندما حان وقت الغداء، بدا وكأنه في عزاء لا في فرح، أو ربما أبالغ بقولي إنه يحضر عزاءً، فقد بدا الغداء كوجبة تُقدَم لرجل مريض جدًا». ومن ثمّ توجه الرجلان بالسيارة من كامب دايفد إلى واشنطن. «كان واضحًا بالنسبة إلي أنَ أيزنهاور كان محبطًا وقلقًا، كنت أعلم ما يشعر به، ولكن ما كان في يدي حيلة لمساعدته».[3]

بعد هذه الزيارة أيقن خروتشوف أن الولايات المتحدة تتفوق على الاتحاد السوفياتي في كل مجالات الإنتاج المدنية والعسكرية. وبصفة خروتشوف لاعب شطرنج فهو يعلم أنه سيخسر إن بقيت اللعبة مستمرة بشكل منتظم. لذلك، ولدى عودته إلى موسكو، سعى إلى اغتنام كل فرصة لإحداث تغيير جذري من خلال افتعال المشاكل التي ستضع الولايات المتحدة (وحلفاءها) في موقف دفاعي. أول مشكلة هي عرض القوة العسكرية لحل مسألة برلين، فعندما رفض أيزنهاور الارتباك بسبب تهديد خروتشوف الذي طالب بإجلاء قوات الحلفاء من ألمانيا الغربية وفقًا لمهلة زمنية محددة (في الواقع اضطر خروتشوف إلى تأجيل هذه المدة بشكل مستمرّ) ما أدى إلى خسارة رئيس الوزراء الروسي الاحترام على الصعيد الداخلي، وكذلك زاد خروتشوف من حدة استنكاره «للإمبريالية» الأميركية في خطبه. وبدا وكأن كل الظروف تعاكسه، فلحسن حظه، أتته الفرصة المناسبة في الأول من أيار/ مايو ١٩٦٠ ليخدع الرجل الذي تحوّل إلى ألدّ أعدائه بسبب صبره اللامتناهي ونيته الحسنة وعزمه.

ومن ناحية أخرى، كان مزمعاً عقد لقاء قمة حول نوع السلاح والانفراج السياسي

(١) كتاب Khrushchev Remembers: The Last Testament لخروتشوف Khrushchev، ص. ٤١١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤١٢ و٤١٣.

في باريس في منتصف شهر أيار/مايو. من هنا، وبغية تكوين فكرة أفضل عن قدرة روسيا التشغيلية الحالية في مجال الصواريخ، سمح الرئيس أيزنهاور باستخدام طائرات التجسس الأميركية يو ٢ (U2) التي تحلق على ارتفاع عال. ولأن الرئيس يعي أنّه إن أصاب أحد صواريخ روسيا أرض جو، فسيعرض ذلك قمة باريس للخطر كما أنه سيهدد زيارته المُقرّرة إلى الاتحاد السوفياتي بعد القمة (ردًا لزيارة خروتشوف إلى الولايات المتحدة في أيلول/سبتمبر الماضي)، سمح برحلة واحدة وأخيرة فقط. أيقن الرئيس من خلال هذه الرحلة أنه ما من «فرق كبير» بين البلدين من حيث عدد الصواريخ، على غرار ما كان يزعم الثرثارون من الديمقراطيين والجمهوريين، وكانت الولايات المتحدة لا تزال متفوقةً إلى حد كبير من حيث السلاح النووي.

على صعيد آخر، لو كان أيزنهاور قد قبل تقرير وكالة الاستخبارات المركزية ولو وافق على تقرير آخر، لكان أنقذ عهد رئاسته من المأزق الذي وقع فيه، تمامًا على غرار ترومان الذي لو تمكن من إيقاف قوات ماك آرثر ومنعها من عبور خط العرض ٣٨ في العام ١٩٥٠ لكان أنقذ عهده. في الواقع، رجاه نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية أن يُرسل طائرةً أخرى للتحقق من عدم وفرة الصواريخ البالستية العابرة للقارات، فقبل أيزنهاور ولكن بتردد.

من جهة لم تستطع طائرات روسيا المقاتلة أن تصل إلى طائرة يو ٢ الأميركية، ولكن، من جهة أخرى، أُسقطت الطائرة في الأول من أيار/ مايو ١٩٦٠ داخل الأراضي الروسية بمئات آلاف الأميال بواسطة ضربة حظ من مضاد الطائرات، الأمر الذي كان يخشاه أيزنهاور تمامًا. أما المسؤولون في وكالة الاستخبارات المركزية فأملوا أن يكون الطيار غاري باورز قد لقي حتفه لكي لا ينبس ببنت شفة.

ولكن لسوء الحظ، نزل باورز بواسطة المظلة بأمان، وبذلك أصبح يملك خروتشوف طريقةً لم يكن حتى يحلم بها للإيقاع بأيزنهاور ولازدراء الأميركيين وإذلالهم. كان هذا تصرّفًا طفوليًا، إلا أن عواقبه أتت وخيمةً.

والتزم خروتشوف الصمت عمدًا لأيام في ما يتعلّق بنجاة الطيار الأميركي وأخبار

عن بقايا الطائرة. ومع انتشار أخبار اختفاء الطائرة، اضطر أيزنهاور والحكومة إلى بثّ سلسلة الأكاذيب المحرجة، بدءًا بالإنكار الفوري لوقوع حادث مؤسف، من ثم أكدوا أن الرحلة كانت لمجرد استطلاع أحوال الطقس وكان يفترض أن تحلّق فوق تركيا إلا أنها ضلّت طريقها. وأخيرًا، وبسحر ساحر، صعّد خروتشوف المسألة وأظهر على شاشات التلفزيون الرسمي غاري باورز، الطيار الأسير مع شريط التجسس الذي يجرّمه وبقايا من طائرة اليو ٢.

كان أداء خروتشوف في هذه المشكلة متقنًا إلى درجة أنه زعم أن هذه الرحلة كانت مواجهة متعمّدة لاحتفالات عيد العمال في الاتحاد السوفياتي. وفي بلد قائم على حس الوطنية وليس الأجهزة الإلكترونية المنزلية، أسعد هذا الحدث المكتب السياسي وأثار غضب الشعب الروسي، ما شكل انتصارًا إعلاميًا ضخمًا، في لعبة الأباطرة التي كانت خاسرة. ولكن، أخطأ «الجزار الأوكراني» في التقدير عندما طلب إلى الرئيس أيزنهاور، الذي صوّره خروتشوف على أنه لم يكن على علم بما تحاول الاستخبارات فعله، أن يُصدر توبيخًا مهينًا لمستشاريه العسكريين وأن يطرد من بينهم مستشاراً رفيع المستوى لاستكمال الضربة الإعلامية الروسية.

كان أيزنهاور رجلاً يفي بوعوده ويتحلى بالشهامة. كما أنه قد تلقى تدريب الجندي وله مسيرة عسكرية طويلة ومميزة. من هنا لم تسمح له كرامته أن يحمّل المسؤولية لأحد غيره أو ينكر قراره بصفته قائداً للأركان، بغض النظر عن المنطق السياسي. فشرح في بيان له أنّ جمع المعلومات الاستخبارية غالبًا ما تكون نتيجته مؤسفة، إلا أنه جزء لا يتجزأ من الأمن القومي في العالم. لكن، وبسبب الأمن القومي وخصوصًا السرية، لم يكن الرئيس يستطيع أن يشرح في العلن العنصر الأساسي من هذه المسألة أي إنّ الرحلة الأولى بيّنت أنه ما من «فرق كبير» في عدد الصواريخ لمصلحة الاتحاد السوفياتي كما كان يزعم بعض الديمقراطيين على غرار السيناتور جون أف. كينيدي وليندون بي. جونسون في خلال الانتخابات الرئاسية الأولية.

بعد أن التزم أيزنهاور الصمت في ما يخص طائرة اليو ٢، أجبر أخيرًا على

الانصياع ما جعله يبدو بصورة الرئيس غير الفعال على الصعيد الداخلي كما أنه وفر فرصةً دعائيةً أخرى لخروتشوف. وهكذا بدأت معركة حقيقية بين الإمبراطوريتين على صعيد الصحافة والراديو والتلفزيون من دون أن يتراجع أي من الطرفين. ازدادت المسألة تعقيدًا يومًا بعد يوم، ما هدد بتعكير جوّ مؤتمر قمة باريس، الذي كان سيُعقد بعد مرور أسبوعين على حادثة سقوط الطائرة، والذي كان يفترض أن يكون بنّاءً وأن يصبّ في مصلحة الانفراج السياسي.

وهكذا، بدل أن تساعد رحلة غاري باورز أيزنهاور على اكتساب الثقة ليكون شهمًا طاولة الحوار في خلال مؤتمر باريس، عالمًا ومرتاح البال أنّ أميركا تتمتع بفوقية تشغيلية في مجال السلاح النووي، تحوّلت مهمة يوم عيد العمال إلى يوم نداء النجدة.

من جهة أخرى، توجه أيزنهاور إلى باريس عاقدًا العزم على الاعتراف لخروتشوف أنه سمح بالفعل بتنفيذ مهمة طائرة اليو ٢ إلا أنه أمر بعدم إرسال أي رحلات تجسس أخرى إلى روسيا، وذلك لأنّ صواريخ الأقمار الصناعية ستصبح قادرةً قريبًا على تنفيذ هذه المهمة. ولكن الأوان قد فات على ذلك. فوفقًا لأوليغ ترويانوفسكي مساعد خروتشوف الديبلوماسي، قرر هذا الأخير بناءً على حدسه أن يخرّب القمة، وأن يستغل الحرج الأميركي كمنصة لإطلاق حملته الدعائية التي ستخفي دونية روسيا العسكرية، ما سيوفر للاتحاد السوفياتي الوقت لمجاراة الولايات المتحدة. وهكذا قام خروتشوف بإخراج مسرحية جديدة مطالبًا المؤتمر أن يعتذر أيزنهاور علنًا عن اختراق الأجواء الروسية «ومعاقبة المسؤولين. وقد أشار إلى أنه من شبه المستحيل أن يقبل أيزنهاور هذه الشروط. بالتالي، أصبح من المؤكد أن القمة ستفشل حتى قبل أن تبدأ». أما الروس الذين كانوا حاضرين فقد حزنوا كثيراً، «شعر معظمهم، إن لم نقل جميعهم، بالاستياء لأنهم فهموا أنهم ينزلقون مجددًا إلى أسوأ أوقات الحرب الباردة وأنهم سيعودون «إلى نقطة البداية». حتى أنّ نائب وزير الخارجية الروسية، أخذ يدور حول السفارة الفرنسية مرددًا «يا للمأزق! يا للمأزق!»(١)

(١) وفقًا لما جاء عن أوليغ ترويانوفسكي Oleg Troyanovsky في كتاب Nikita Khrushchev لوليام توبمان William Taubman وغيره في فصل عنوانه The Making of Soviet Foreign Policy، ص. ٢٢٦.

بدأت المسرحية في السادس عشر من أيار/ مايو ١٩٦٠، عندما طلب خروتشوف إلى مضيفه الرئيس ديغول أن يحصل على حق أن يكون أول المتحدثين. فأثار رئيس الوزراء السوفياتي ذعر قادة العالم وأعضاء فرق العمل المجتمعين عندما بدأ مسرحيته مهاجمًا الرئيس أيزنهاور والحكومة الأميركية وغدرهم من خلال حادثة طائرة التجسس يو ٢. فطلب ديغول إلى خروتشوف أن يخفض صوته «لأنّ النظام الصوتي في القاعة يعمل بشكل ممتاز ويمكننا جميعًا أن نسمع الرئيس».[١] حتى أنّ الوفد الروسي كان متخوفًا « أن يبالغ في أداء دور الرجل الذي استشاط غضبًا بسبب الإهانة التي تعرّض لها».[٢] وعندما رفع خروتشوف يده مشيرًا إلى السقف ومتذمرًا أن بلده قد تعرض «للاختراق الجوي»، استوقفه ديغول وأشار إلى أن فرنسا تعرضت أيضًا للاختراق الجوي ثماني عشرة مرة عبر صاروخ سبوتنك ٤، الذي أُطلق في اليوم السابق «من دون إذني؟ كيف لي أن أعلم أن الصاروخ غير مزود كاميرات تصور بلدي؟»

وهنا، ازداد غضب خروتشوف، وأنكر هذا الاحتمال بتعابير دينية غريبة بالنسبة إلى شيوعي ملحد، إذ قال: «إن الله شاهد عليّ، يداي بريئتان من عمل مماثل، أتعتقدون أنني قد أقوم بأمر كهذا؟»[٣] حينئذ، سعى أيزنهاور للتخفيف من حدّة التوتّر فأعرب عن أسفه لأن خروتشوف ارتأى أن يسحب دعوته للرئيس ليزور الاتحاد السوفياتي لكنه لم يستأ وأمل أن يتمكّنا من المضي قدمًا لمناقشة مسائل أكثر أهميةً في مجال نوع السلاح.

لم تكن نتيجة المؤتمر جيّدة، فتضاربت المواقف واهتزت الكبرياء وتمت

(١) كتاب Eisenhower: The President لـ Ambrose، ص. ٥٧٨.

(٢) The Making of Soviet Foreign Policy عن Troyanovsky، ص. ٢٢٧.

(٣) كتاب Eisenhower: The President لـAmbrose، ص. ٥٧٩. تعطّل القمر الصناعي "سبوتنك" الذي أرسل قياساً عن بعد وانفجر لدى دخوله مجددًا مجال الأرض بعد سنتين، وزُعم أنّ قطعةً منه وُجدت في وسكونسن.

المساومة.[١] ويتذكر خروتشوف كيف أنه عندما أنهى صياحه «جلست وبصراحة كنت مفعمًا بالمشاعر فقد انتابني شعور بالعدائية وبالفرح العارم في الوقت عينه. وكما يقول أبناء شعبي البسطاء، تسببت باضطراب كبير لدى محاولتي إشعال النزاع». وزعم أنه حين وقف أيزنهاور مع وفده، انتهت القمة. «من ثم رحلنا جميعًا، لقد تسببنا بانفجار بعثر أعضاء الوفود الأربعة كل إلى غرفته. وتحوّلت طاولة المؤتمر التي كان من المفترض أن توحّدنا، إلى غبار من جراء الانفجار».[٢] كان ما قاله صحيحًا من حيث التعبير المجازي وتأجل الانفراج السياسي عقوداً بين الإمبراطوريتين المتنافستين.

على صعيد آخر، كان خروتشوف قد فشل في إجبار الغرب على تسليمه برلين الغربية أو فتح طرقات للدخول إلى المدينة، ومن ثمّ مثل مسرحيته في قمة باريس، وهكذا تحوّل إلى مقاتل يُقاتل خصمًا وهميًا بدل أن يكون صانع سلام حكيماً. فقال المفوض السابق متذكرًا فخره تجاه أحداث قمة باريس: «لقد برهنّا أننا مستعدون للقضاء على أي شخص يحاول مهاجمتنا. فقد تعلّم الأميركيون درسًا قيمًا وهو أن هناك حدوداً لتسامحنا! وأصبحوا يعلمون الآن أن الاستبدادية الأميركية لن تفلت من العقاب إن تخطت حدودها، لقد أظهرنا للعالم كله أنه في حين تركع القوى الغربية أمام عظمة أميركا المالية والصناعية، فنحن لا ننحني ولو لثانية واحدة». لن يسمح هو أو أي سوفياتي آخر، في ظل أي ظروف، «بأن يتم استغلالنا أو بأن نُهان»،[٣] بل على العكس سيرد، بالهجوم المضاد كما جرى في ستالينغراد وكورسك، إنما هذه المرة في أميركا.

---

(١) زعم خروتشوف في مذكراته أنه طلب في إحدى القمم اعتذارًا من أيزنهاور ووعدًا بأنه لن يكون هناك المزيد من رحلات يو ٢ التي أنكرها أيزنهاور بناءً على نصيحة خلف دالز وهو كرستيان هيرتر. إلا أن ذلك غير صحيح. في الواقع، أكد له أيزنهاور أن "قد تمّ تعليق هذه الرحلات بعد هذا الحادث الأخير ولن تتكرر من جديد". من كتاب Khrushchev Remembers: The Last Testament لـKhrushchev في ملاحظة الناشر ص. ٤٥٥.

(٢) كتاب Khrushchev Remembers: The Last Testament لـKhrushchev، ص. ٤٥٥.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤٤٩.

أصبح خروتشوف بطلاً شيوعيًا بالنسبة إلى العالم الثالث لكونه سافر، في خريف العام ١٩٦٠، إلى نيويورك وندّد بـ«الاستبداديين» الأميركيين «العظماء» في الجمعية العمومية للأمم المتحدة وانتقد أيضًا الأمم المستعمِرة القديمة وبطئها في منح الاستقلال لمستعمراتها. كما أنه أنشأ علاقة صداقة علنًا مع الديكتاتور الكوبي الجديد فيدل كاسترو في فندقه المُهاجم في هارلم. وكان يعدّ مسرحيةً جديدةً في كل مرة يرى فيها كاميرات التصوير، ففي نيويورك في التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٦٠، ضرب بقبضته منصّة الأمم المتحدة، وفي الثاني من تشرين الأول/أكتوبر ضرب مكتبه بحذائه. وكما قال أوليغ ترويانوفسكي (الذي كان يرافق خروتشوف) بكلمات بليغة متذكرًا: لطالما كان خروتشوف «ماكرًا بطبيعته، ولكن ظهرت هذه الطبيعة على نحو حاجة ملحة لإحراج أيزنهاور الذي أصبح يسمّيه أمير الظلام».

أحبطت عزيمة أيزنهاور لدى رؤيته خروتشوف إمبراطور الاتحاد السوفياتي يتحوّل إلى مهرج خطير لا يمكن توقع تصرفاته. في الواقع، تعامل أيزنهاور في السابق مع قادة طنانين على غرار ماك آرثر ومونتغوميري وباتون، ولن يسمح لسلوك خروتشوف السيىء أن يفسد عليه الأمور. إلا أن صورة خروتشوف وهو يسيء التصرّف في الأسابيع الأخيرة التي سبقت انتخابات العام ١٩٦٠ (هذه الانتخابات التي ستضع حدًا لولاية أيزنهاور المميزة التي دامت ثماني سنوات) كانت محزنة جدًا. أما بالنسبة إلى الانتخابات، فقد بدا أن مرشحي كلا الحزبين، نائب الرئيس نيكسون والسيناتور جون أف.كينيدي، يتنافسان ليبدو كل منهما الأقوى في ما يتعلّق بمسألة الدفاع والإنفاق العسكري، وليس الأقوى في إحلال السلام، وكان كل منهما يُطلق ادعاءات بشأن «فرق كبير» بعدد الصواريخ بين الولايات المتحدة وروسيا، كما أنهما أطلقا خطب تهكمية حول كوبا. في المقابل تحطمت كل الآمال بإحراز أي تقدم مع روسيا في مسألة نزع السلاح النووي (خصوصًا وأن الصين الشيوعية بدأت بصنع القنبلة النووية) مع تحطم طائرة التجسس يو ٢، محطمةً معها إرث أيزنهاور الإمبريالي.

وألقى أيزنهاور خطابًا وداعيًا متلفزًا من مكتبه الرسمي، وبطريقة لا تُنسى، حذَر في الخطاب من أن تتحوّل «الصناعة العسكرية المعقدة» في بلده إلى قوة عنيفة. في الواقع تعمل «المؤسسة العسكرية الضخمة» مع «صناعة أسلحة هائلة» سعيًا وراء «نفوذ لا مبرر له» في «كل مدينة وكل مبنى تشريعي وكل مكتب عائد إلى الحكومة، ما قد يؤدي إلى كارثة تنبع من بروز قوة في غير محلّها».(١) وفي العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٦١، سلّم أيزنهاور أعباء الحكم لخلفه السيناتور الديمقراطي الشاب والرئيس المنتخب جون ف. كينيدي، الذي تفوق على نيكسون بفرق ضئيل جدًا في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠. وكتب أيزنهاور لدى تقاعده «لقد تقت إلى تقديم سلام دائم للعالم» واستكمل حزينًا: «إلا أنني ساهمت في الوصول إلى حائط مسدود فقط».(٢)

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

منذ أن كان دوايت أيزنهاور مجرّد طفل، أراد أن يكسب كل من حوله محبته وتأييده، وشكل ذلك سرّ قيادته كسياسي في أوقات الحرب والسلم أيضًا. يتحلى بذكاء ثاقب وأنعم عليه الله بقدرة التعاطف مع الغير، وكان أيزنهاور بارعًا بما فيه الكفاية ليفهم تأثير جاذبية الإنسان المحب للخير في عالم التواصل الحديث تمامًا على غرار أف.دي.آر. ومع ظهور التلفاز بعد الحرب العالمية الثانية، وجد نفسه يبتسم ابتسامته الشهيرة على الشاشة. وأصبح أيزنهاور أوّل رئيس يعقد مؤتمرات صحافية عبر التلفاز. وكان يتلقى النصائح في هذا المجال من نجم تقديم الأخبار المذيع إدوارد آر مورو ومن ممثل هوليوود روبرت مونتغوميري، فمنهما تعلّم كيف يوصل رسالته ليس بصفته ممثلاً بل بصفته الشخصية، أي رجل ذي كرامة وتواضع

(١) كتاب Eisenhower: The President لـ Ambrose، ص. ٦١٢.

(٢) كتاب May-Day: Eisenhower, Khrushchev and the U2 Affair لمايكل آر. بيشلوس Micheal R. Beschloss، ص. ٣٨٨.

وأصيل بالفطرة، أي رجل لك شرف التعرّف إليه. وأصبحت ميزة أن يكون الإنسان «لطيفًا» ميزةً أساسيةً يطلبها الشعب من أي مرشح للرئاسة وذلك لسوء حظ خلف أيزنهاور نيكسون «المعقّد» الذي كان يبدو حكيمًا عبر الراديو ولكن محتلاً عبر التلفاز.

أثارت قدرة أيزنهاور على أن يكون محبوبًا الشك في وفائه، فقلّة هم الرجال الجذابون الذين يعرضون وسامتهم ولا يقعون في شباك الإغراءات، ولم يكن أيزنهاور استثناءً للقاعدة تمامًا على غرار فرانكلين روزفلت. في الواقع، ترعرع أيزنهاور على يد أمه التابعة لشهود يهوه وشكلت تربيته هذه دليلاً أخلاقيًا له طوال حياته، ولكنها لم تكن كافيةً لتبعده عن الإغراءات، فمنذ أيام الدراسة كان أيزنهاور يدخن السيجارة تلو الأخرى حتى يصل إلى أربع علب في اليوم. من جهة ثانية، كان يعشق كرة القدم، وشعر بالإحباط عندما تعرّض لإصابة في ركبته في أكاديمية وست بوينت منعته من اللعب من جديد، كما أنه كا يحبّ الصيد على أنواعه. كان القمار والبريدج وكأس من ويسكي البوربون أفضل طريقة للتسلية عندما تمطر وعند حلول الظلام تمامًا مثل ترومان. ساعدت براعة أيزنهاور في لعب القمار على تجميع المال لينتسب إلى الأكاديمية الحربية وست بوينت وكان بارعًا لدرجة أنّه كان يُطرد عن طاولة القمار.

أما في ما يتعلّق بحياته العاطفية فقد كانت تقليدية جدّاً، فهو مثل ترومان، قد اختار فتاةً معه في الثانوية، شقراء ذات عينين زرقاوين اسمها غلاديس هاردينغ. وفي الخامس من آب/أغسطس ١٩١٥، أي يوم تخرّجه في وست بوينت طلب أيزنهاور يد غلاديس للزواج. إلا أنّ والدي الفتاة قد دمرا قصة الحب هذه خصوصًا والدها الذي توقّع «أن أيزنهاور لن يحقق شيئًا في الحياة»[1] كما جرى مع ترومان.

فحاولت غلاديس، التي اعتزمت أن تعمل عازفة بيانو، أن تتماشى مع الظروف خوفًا من ردة فعل والدها، ما جعل أيزنهاور يُغدق عليها برسائل الحب التي أظهرت مدى رومنسيته على الرغم من أنه يبدو صارمًا وطموحًا. فكتب لها مناشدًا «أريد أن

(١) كتاب Eisenhower لـ D'Este، ص. ٨٦.

أسمع منك اليوم أكثر من أي وقت مضى كلمة (أحبّك) كما لم أحبّ أحدًا في حياتي. إن قلت هذا لي سأعرف أنني انتصرت وعندما أسمعك تقولينها، سأعرف أنك ملكي أينما ذهبتِ ومهما فعلتِ، لأنني أحبك بكل جوارحي وأريدك أن تعرفي ذلك وتوقني مثلي تمامًا، وأريدك أيضًا أن تؤمني وتثقي بي كما تؤمنين وتثقين بوالدك».[1]

لم تقل غلاديس هاردينغ له ما أراد سماعه، واختارت أن تتبع مسيرتها الموسيقية. وبالتالي، وفي الفترة الانتقالية بعد هذه العلاقة تم تعيين الملازم الثاني في فورت سام هيوستن الواقعة في سان أنطونيو في ولاية تكساس حيث ركز انتباهه على مهمة أخرى وهي أن يكسب قلب مامي دود فتاة طائشة في الثامنة عشرة من عمرها، قصيرة، جميلة ومدللة، ابنة رجل ثري لا يُرفض لها طلب حتى أنه تغاضى عن هذه العلاقة. شكل الاثنان زوجًا غير مرغوب فيه، أي حسبما قال أحد كتاب السير «قصة حب رومنسية بين شخصين غير مناسبين لكليهما» بين ضابط مشاة مفلس في الخامسة والعشرين من العمر (كان يُعرف بـ«الحاقد على النساء» بعد فشل علاقته مع غلاديس هاردينغ) ومراهقة مفعمة بالحيوية «تغازل بطريقة شائنة» وفارغة تخرجت حديثًا في مدرسة « للفتيات تركز على النشاطات الاجتماعية».[2]

من ناحية أخرى، كتب أيزنهاور لصديق له كان معه في الثانوية «أخرج مع فتاة هي الآنسة دود من دنفر، تمضي فصل الشتاء هنا، جميلة جدًا لكنها تحبّ الواجبات الاجتماعية وهذا أمر يُضجرني، إلا أننا نتفق جيدًا وأمضي معظم وقتي في منزلها عندما أكون مأذونًا».[3] ربما كان يأمل أيزنهاور أن تصل هذه الرسالة إلى حب حياته غلاديس هاردينغ، وقال في الرسالة إنه سيكتب بالتفصيل «عن الفتاة التي أخرج معها بما أنني علمت أنّ غ.هـ. (أي غلاديس هاردينغ) تصبّ كل اهتمامها على عملها».[4]

تزوّج دوايت د. أيزنهاور والآنسة مامي دود في الأول من تموز/يوليو ١٩١٦،

(١) المصدر السابق، ص. ٨٨.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٠٩.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٠١.
(٤) المصدر السابق.

في منزل عائلة دود في دنفر. ولكن بالنظر إلى رجل بذكاء أيزنهاور وطموحه تحوّل زواجه بمامي، الفتاة البارزة في المجتمع إلى تجربة مثل تجربته كجندي بعد الحرب العالمية الأولى تماماً. وفي العام ١٩٢١، توفّي ابنهما الأول أيك الصغير أو «أيكي» (اسم التحبب) من الحمّى القرمزية والسحايا، فبهت بريق شخصية أيزنهاور اللطيفة وأصبح يصعب على الناس فهمه. وقالت زوجته عنه في وقت لاحق: «يملك أيك أكثر ابتسامة جذابة بين كل الذين عرفتهم في حياتي»، وأضافت قائلةً: «ولكن عندما يخفي هذه الابتسامة يُصبح وجهه كئيبًا جدًا».[١]

ولكن في المقابل، حصنتهما وفاة ابنهما الأول في وجه الأعوام العسيرة التالية في خلال تعيينات أيك المختلفة من باناما إلى الفيليبين. لم تكن علاقتهما علاقة شغف أو وحدة روحية كما أنها لم تكن مصدر هدوء وراحة أو محفّزًا على الصعيد الفكري. بل أصبح زواجهما اختبارًا لوفاء أيزنهاور وصبره وقدرته على التخفيف من حدة طباعه العصبية، تمامًا مثل مسيرته المهنية من خلال خدمته تحت إمرة رجال مثل دوغلاس ماك آرثر.

أما بالنسبة إلى مامي دود، فقد كان هذا الزواج اختبارًا طويلاً لها أيضًا. في الواقع كان أيزنهاور يفضل البقاء في المنزل ليقرأ أو يمضي الوقت مع الأصدقاء المقربين على أن يخرج ليسهر أو «يقيم العلاقات الاجتماعية». وقالت بأسف: «إن أيك من الرجال الذين يفضّلون دعوتك إلى تناول البيض المقلي في المنزل بدل الخروج إلى أفخم ناد ليلي في العالم».[٢] كما أنه كان عنيدًا جدًا حتى أنها أخبرت إحدى صديقاتها أنه «لا يمكن لأي امرأة أن تسيّره»، كما أنها قالت لزوجة حفيدها: «يا عزيزتي، لا يمكن أن يوجد أكثر من نجمة واحدة في السماء، وثمة طريقة واحدة للعيش مع رجل من عائلة أيزنهاور وهي أن تدعيه يقوم بالأمور بالطريقة التي يريدها».[٣] وفي العامين ١٩٢٢ و١٩٣٦، أثار الزوجان مسألة الطلاق بالنظر

(١) المصدر السابق، ص. ٩٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ١١٠.
(٣) المصدر السابق صفحة ١١١

إلى مغازلات مامي إلا أنهما لم يودّا أن يؤثّرا في ابنهما الثاني دافيد أو يجرحاه. فاستكملا زواجهما بوفاء، إذا أمكن القول حتى العام ١٩٤٢، حين أعادت سائقته إحياء ذكرى غلاديس هاردينغ، وقلبت حياة الجنرال رأسًا على عقب.

كانت كاي سامرسباي عارضة أزياء سابقة جذّابة جدًا، ممشوقة القامة ونحيفة، صهباء إيرلندية وابنة ضابط خيالة بريطاني، تزوّجت ضابطاً بريطانياً في الهند رفع ضدها دعوى طلاق لأنها خانته مع ضابط أميركي في إنكلترا، عندما أصبح أيزنهاور مديرها. منذ ذاك الوقت، كرست نفسها لسعادة أيزنهاور وراحته. وحتمًا، بدأت الألسن تثرثر، بما فيها لسان كاي. كتبت هذه الأخيرة كتابين عنوانهما Eisenhower Was My Boss (كان أيزنهاور رئيسي) و Past Forgetting (نسيان الماضي). وزعمت في الكتاب الثاني أنها أقامت علاقة حب مع الرئيس في فترة الحرب، وأنهما مرحا جدًا وكانا حنونين كما كتبت أنهما تبادلا القبل لكنّهما لم يمارسا علاقة جنسية، فبعد أداء التجربة والخطأ عجز الجنرال عن ممارسة الجنس لدى عودته إلى لندن قبل يوم الإنزال. قد تكون هذه الحقيقة البسيطة، أي إن إخلاص أيزنهاور العميق لمامي بعد ثلاثين سنة على زواجهما ووفاة ابنهما الأول قد جعلت من ممارسة الجنس في سياق الخيانة أو إشباع الرغبة أمرًا مخيفًا جدًا خصوصًا بالنظر إلى المسؤوليات الجسام التي كانت ملقاةً على عاتقه بصفته القائد في أوروبا وبصيص الأمل الذي يعلّق الجنود والمواطنون في العالم الحر أحلامهم ومخاوفهم عليه.

صحيح أن أيزنهاور لم يستطع ممارسة الحب مع كاي، ولكن هل عرض على السيدة سامرسباي الزواج؟ الأمر الذي قد يعيد قدراته من جديد؟ لم يؤمن أحد أكثر من ترومان بهذه النظرية، فهو يتذكر الرسالة التي أرسلها أيزنهاور إلى الجنرال مارشال في نهاية الحرب العالمية الثانية وفحواها «أنه أراد أن يعود إلى الولايات المتحدة ليطلّق زوجته ويتزوّج هذه المرأة الإنكليزية»، وتذكر ترومان أنه «كان الأمر غريبًا جدًا بالنسبة إلى جنرال في الجيش الأميركي» جنرال ذي خمسة نجوم على الأقل. وأكمل ترومان قائلاً: «ردّ عليه مارشال برسالة لم أرَ مثلها في حياتي. فقال إن حاول أيزنهاور مجرّد محاولة القيام بأمر مماثل فسيطرده من الجيش وسيحرص على ألا

يأخذ نفسًا واحدًا وهو مرتاح، أي سيحوّل حياته إلى جحيم. وتجدر الإشارة إلى أنّ الجنرال مارشال نادرًا ما يفقد أعصابه ولكن عندما يفقدها يتحوّل إلى شخص فائق القوة». بالإضافة إلى ذلك، زعم ترومان أنّه «من بين آخر الأمور التي قام بها بصفته الرئيس هو إزالة هذه الرسائل من ملفه في وزارة الدفاع والتخلّص منها».[١]

نشر صحافي هذه الأقوال في العام ١٩٧٣، ولكن ادعاءات ترومان لم تثبت قط، في الواقع لم يجد أحد الشريط المسجل للمقابلة مع الصحافي.[٢] ويرى معظم المؤرخين أنّ هذه الادعاءات هي مجرد ثرثرة رجل عجوز في الصيف الذي سبق وفاته وبعد مرور أربع سنوات على وفاة أيزنهاور. هل يُعقل أن تكون هذه القصة من نسج الخيال؟ حتى أنّ مامي شكت في الموضوع، واتهمت أيزنهاور بخيانتها مع كاي. في المقابل اعترف أيزنهاور لمامي أنه كان مفتوناً بها لفترة قصيرة. ولكن هل كان افتتانه هذا كافيًا للتفكير جديًا في التقاعد من الجيش ليحيا حياته بعد الحرب مع كاي؟ لو كان الأمر صحيحًا لما كان أول أميركي يخشى العودة إلى منزله لزواج عقيم بعد تجربة استثنائية في النزاع والاجتياحات في أوروبا. كذلك، أمضى أيامًا تعسةً ولا تَعِد بالسعادة بعد انتهاء الحرب مع مامي في شقتها في نيويورك قبل توجهه إلى إنكلترا ليقود اجتياحات يوم بدء العمليات.

وقد تجلت الحقيقة لدى عودة أيزنهاور. ففي العام ١٩٤٨، التقى أيزنهاور كاي مصادفةً في نيويورك وقال لها: «ما بيدي حيلة» (وكان قد ساعدها لتصبح مواطنة أميركيةً)[٣]. وهكذا فضّل الجنرال قاهر الجيوش الألمانية في الغرب الخيار النبيل ذا النتائج الأخلاقية الحسنة، ونتيجةً لهذا الخيار أصبح رئيسًا ذا شعبية واسعة للولايات المتحدة وأصبحت مامي السيدة الأولى المحبوبة والمخلصة، وقالت إنها ترغب في أن تمدّ يدها على السرير المزدوج الجديد الذي اشترته بمناسبة عودة أيك من الحرب

(١) كتاب Plain Speaking لـ Merle Miller، ص. ٣٣٩ و٣٤٠.

(٢) مقال Plain Faking لـ Robert H. Ferrell وFrancis H. Miller، نُشر في مجلة American Heritage، في حزيران/يونيو ١٩٩٥.

(٣) كتاب Eisenhower: Soldier, General of the Army, President-elect لـ Ambrose، ص. ٤١٧.

«وأربّتُ رأسه الأقرع في أي وقت أرغب في ذلك».[١] في الواقع، تحوّل هذا السرير الموضوع في غرفة قيد التجديد ذات اللونين الزهري والأخضر إلى مركز قيادة مامي، بحيث لم تكن تغادر السرير قبل الساعة الثانية عشرة مستمتعةً بفريق العمل الخاص بها في البيت الأبيض وبالامتياز الاجتماعي الذي رافق لقب السيدة الأولى بعد سنوات من الانعزال، في الوقت الذي كان يحارب «الجنرال» في الخارج.

والجدير ذكره أنّ محاولات أيزنهاور الدائمة للسيطرة على أعصابه وطبيعته اللطيفة ميّزته من غيره وجعلت الشعب الأميركي يطمئنّ إلى أنّ إمبراطوريته في أيدٍ أمينة. بالإضافة إلى ذلك، رمز شغفه برياضة الغولف إلى أنه يعرف أهمية الاسترخاء كمكمّل لحسه الكبير بالمسؤولية (وطباعه التي يحاول السيطرة عليها دائمًا)، مع أن مثل هذا مدعاة سخرية للكوميديين. وفي السياق عينه، كان يقرأ أيضًا ويسترنز -West erns كمتنفس للمشاكل التي كان يواجهها يوميًا. وفي العام ١٩٥٠، ابتاع مزرعةً في جتسبيرغ للتقاعد في الريف (وكان هذا أول منزل يملكه). فاستوحى من ونستون تشرشل، وبدأ يرسم كوسيلة للترفيه عن نفسه. كان يقبل الهدايا، ويستخفّ بمُستخدمه الذي يهتمّ بملابسه وكل فريق العمل الذي يرافقه، وكذلك كان يستخف بأصدقائه الفاحشي الثراء الذين كانوا يمضون العطلة عنده ويزورونه. ولكن الويل للذي يقبل الخدمات الخاصة . فهو كان يعتزّ بكونه محايدًا إلى أقصى الحدود وهذا ما جعله أعظم أميركي على الصعيد العالمي منذ الرئيس أف.دي.آر. وربما كان أعظم من هذا الأخير. فكان يردد دائمًا [٢]: «عندما لا يكون للقائد أي حلفاء أو أعداء يكون مغامرًا تمامًا مثل جنكيز خان».

شجب عدد كبير من المحاربين القدامى الذين يعملون معه هذه الحيادية، واتهموا أيزنهاور بأنه لا يتمتع بقومية كافية، في الوقت الذي ميزته هذه الصفة بالذات وجعلته يتفوق ويتميز من سائر الأميركيين في عصره. على صعيد آخر، لم يحرز تقدمًا سريعًا في مسألة التميز العنصري في الداخل (وتجاهل تمامًا حسنات المساواة بين المرأة والرجل) إلا أنه وافق على قرار المحكمة العليا بشأن التعليم الرسمي. وعندما أمر

(١) كتاب Eisenhower: The President لـAmbrose، ص. ٢٩.

(٢) كتاب Ike لـBrendon ، ص. ٢٨٨.

وحدة ١٠١ من سلاح الجو بالتدخل في مسألة ليتل روك، برهن أنه لن يتهرّب من واجباته. ومع أن العنصريين كانوا يحطّون من قدره، لم يشكك هو يومًا في صحة أعماله. واعترف أنه بذلك تحوّل إلى تجسيد الأميركي النبيل في عهد الإمبراطورية الذي من واجبه أن يمثل كل الأميركيين وليس مجرد حزب واحد.

واستفاد أيزنهاور من نصيحة الرئيس ثيودور روزفلت الشهيرة، أو إنه كان يتحدّث بهدوء في الخارج، ولكن على الصعيد الداخلي، كان حازمًا جدًا كمن يمسك عصًا طويلةً، وهنا نتحدث عن القنبلة النووية، إلا أنه على عكس سلفه، لم يحتج إلى استخدام هذه العصا. وفي سياق آخر، ازدهرت أميركا اقتصاديًا من دون أن تتأثر بزيادة الإنفاق العسكري وتوسّعه الزائد. وفي هذا المجال كتب منظم الاستفتاءات الرائد صامويل لوبيل الذي نفذ بحثًا معمقًا ومفصلاً[١] «في تاريخ أميركا، نادرًا ما لقي السعي إلى الهدوء والاعتدال الدعم الذي لقيه في عهد أيزنهاور». من ناحية أخرى، حقق أيزنهاور تطلعات جيله وأهدافه[٢]، مع أنه، بعد رحيله عن البيت الأبيض، كان محط سخرية المؤرّخين الذين أخذوا عليه أنه لم يكن مسهبًا بما فيه الكفاية بالنسبة إلى حقبة الستينيات، مع أنه قد صنّف في المرتبة الثانية والعشرين من أصل واحد وثلاثين رئيساً بعد أندرو جونسون الذي اتُهم بسوء الإدارة. وفي الثامن والعشرين من آذار/مارس ١٩٦٩، توفي أيزنهاور في مستشفى والتر ريد العسكري في واشنطن العاصمة، وتم دفنه في أرض المكتبة الرئاسية التي أُنشئت باسمه. وعلى الأرجح كان أيزنهاور أعظم رئيس أميركي في القرن العشرين بعد ثيودور روزفلت وودرو ويلسون وأف.دي.آر. وافتقد البيت الأبيض والشعب الأميركي بعد رحيله هدوءه وخبرته الواسعة والأمان الذي حققه.

(١) كتاب Revolt of the Moderates لصامويل لوبيل Samuel Lubell طبعة New York: Harper and Brothers عام ١٩٥٦، ص. ٤ و٥.

(٢) استطلاع نفّذه آرثر أم شليزينغر Arthur M. Schlesinger, Sr. شمل خمسة وسبعين مؤرخاً نُشر في العام ١٩٦٢ عن دار William A. DeGregorio بعنوان The Complete Book of US Presidents. بحلول العام ١٩٩٩، أظهر مسح أعدته محطة سي سبان أنّ أيزنهاور يحتلّ المرتبة الثامنة في تاريخ الرؤساء الأميركيين.

الفصل الرابع

جون أف كينيدي

الذي بلغ مستوى العظمة في مرحلة لاحقة

ديمقراطي

الرئيس الخامس والثلاثون

(٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٦١ – ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد جون فيتزجيرالد كينيدي في بروكلين، وهي منطقة تقع في ضواحي بوسطن في ولاية ماساشوستس، في التاسع والعشرين من أيار/مايو ١٩١٧. وقد سمي على اسم جده من جهة والدته، جون «هونيفيتز» فيتزجيرالد، الذي صنع التاريخ كعضو في الكونغرس وبعدها كأول عمدة كاثوليكي أميركي من أصل إيرلندي في بوسط الواقعة في مدينة نيو إنغلاند الساحلية حيث ضمنت نخبة البروتستان الأنجلوساكسون البيض (الواسب) كل المناصب السياسية العليات تقريبًا منذ بدء الحجاج في التوافد في العام ١٦٢٠. وبقي شعار «لا يحقّ للإيرلنديين تقديم الطلبات» شائعًا في مجالس التوظيف عندما نشأ هونيفيتز. غير أنّ فيتزجيرالد المحبوب المرح الذي يعمل بجدّ، تقدّم للتوظيف وتمَ قبوله. وفيما بعد، أشار ممازحًا إلى أنّ الفرق بينه وبين عائلة كابوت وعائلة لودج اللتين وصلتا إلى مناصبهما في القرن السابع عشر، هو «بضع سفن فقط».

في المقابل، كان والد جون أف كينيدي، قليل المرح وكثير الانتقاد. كان جوزيف بي كينيدي ابن صاحب مشربٍ في شرق بوسطن، وكان ذكيًا وطموحًا إلى أقصى الحدود وصنع التاريخ في أميركا بطريقة مختلفة فأصبح أولاً أصغر مدير بنك، وبعد ذلك رئيس حوض بناء الترسانة البحرية في وقت الحرب، وتاجراً بارعاً في البورصة وصاحب شركة إنتاج اسمها مليونير وأول رئيس للبورصة في نيويورك (عينه أف.دي.آر. بوصفه «شخصاً ذا خبرة واسعة في المجال قادراً على إدراة العمل كما يجب»). وتقديرًا لدعم كينيدي لأف.دي.آر.، طلب إليه أن يُعيّنه سفيرًا للولايات المتحدة في لندن في العام ١٩٣٨. إن كينيدي (الذي تجنّب الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى)، شخص يؤيد الانعزالية بشدة، ورفض التدخل في شؤون

أوروبا، وبحلول العام ١٩٤٠، فيما كانت بريطانيا تواجه رايخ هتلر الثالث وحدها، أصبح السفير كينيدي عدوّ تشرشل اللدود في لندن.

كان جوزيف بي كينيدي جونيور، ابن جوزيف بي كينيدي البكر، صورة مطابقة عن والده، فقد كان سطحي التفكير يردّد كلام والده المتعاطف مع النازيين والمؤيد للانعزالية الأميركية في العامين ١٩٤٠ و١٩٤١. غير أن اندفاع ابن السفير كينيدي الثاني، جون أف كينيدي، كان مختلفًا. وقد أمضى معظم طفولته إمّا في مستشفى وإما في غرف المرضى وإما في بيت لإمضاء فترة نقاهة، إذ كان يعاني أمراضًا متكررة. لم يكن يحب المدارس الكاثوليكية التي أرسلته إليها والدته المتدينة والبعيدة، ولذلك نُقل إلى مدرسة شوات الداخلية في كونيكتيكات التي كان يرتادها أخوه والتابعة للأسقفية البروتستانية. وهناك، حصل على أعلى العلامات في اختبارات الذكاء وقرأ بحماسة، غير أنه لم يكن يشارك في أعمال الصف فهدّد بالطرد للاستهتار والتخريب. وعندما يسأله عالم النفس التابع للمدرسة لماذا يسيء التصرف كان الفتى البالغ السابعة عشرة من العمر يجيب قائلاً: «لو لم يكن شقيقي كفوءًا إلى هذه الدرجة، لكان أسهل عليّ أن أكون كفوءًا. إنه أفضل مني في ذلك».(١)

وفيما لم يكن أيٌّ من أفراد عائلة كينيدي يحب القراءة، كان «جاك» يقرأ بشكلٍ مستمرّ. وكان يتمتّع بذاكرة تصويرية قوية وبروح الدعابة الناقد للذات، كما كان يشبه دوايت أيزنهاور بسحره الجذّاب. وحتى مدير مدرسة شوات الذي عانى أربع سنوات بسبب عبث كينيدي غير المقبول عندما كان تلميذًا، أشار في وقتٍ لاحقٍ كم استطاع جاك النجاح بفضل شعره الأشعث وخدّيه الواسعين وأسنانه الكاملة وعينيه الزرقاوين العابثتين. «كانت ابتسامته كابتسامة فتى شابٍ عند وصوله إلى المدرسة لأول مرة، وفي الواقع، كان يفرّ من العقاب على بعض أفعاله بفضل ابتسامته»(٢).

وبالإضافة إلى الابتسامة، كان كينيدي سريع البديهة، حادّ الذهن، يهوى السياسة

(١) كتاب JFK: Reckless Youth لنايجل هاملتون Nigel Hamilton، ص. ١٣٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٢٧.

العالمية. وعندما كان طالبًا في جامعة هارفرد تدرّب في السفارة الأميركية في لندن وباريس، وسافر بعد ذلك إلى روسيا وألمانيا قبل أسابيع من اجتياح النازيين بولندا في أيلول/سبتمبر من العام ١٩٣٩. كما اهتمّ كينيدي بالمسافرين الأميركيين الناجين من السفينة التي أغرقتها الغواصة الألمانية في الحرب العالمية الثانية (سفينة إس إس أثينيا) نيابةً عن والده. وقد اختار موضوعًا لأطروحته لنيل شهادة الدكتوراه هو فشل بريطانيا في إعادة تسليح قواتها في الوقت المناسب لمواجهة عدوان هتلر، وشكل ذلك موضوعًا بارزًا لدرجة أنه، عند سقوط فرنسا واستعداد البريطانيين للاجتياح النازي في صيف ١٩٤٠، نشر في كتاب عنوانه «لمَ نامت إنكلترا why England Slept». وبعد ذلك، شارك الكاتب الشاب في مؤتمر سلام في كاليفورنيا، وعارض والده الذي عصى روزفلت وابتزّ الرئيس ليتمكن من العودة إلى أميركا من سفارة لندن قبل الانتخابات الرئاسية في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٠.

وحذّر الشاب البالغ من العمر الثالثة والعشرين، والده في رسالة قائلاً: «إذا هُزمت إنكلترا فستكون وحدها في عالمٍ متوتّرٍ وعدائي، وفي الواقع قد تكون بريطانيا على وشك الانهزام أو مهزومة على يد مجموعة من القوى الاستبدادية. وبذلك ستشهد البلاد تحولاً عامًا لآراء الشعب الذي سيقول: «لماذا ارتكبنا هذه الحماقة ولم نساعد بريطانيا قدر المستطاع»».[1]

كانت الرسالة فعالة جدًّا. فسحب السفير كينيدي معارضته المخططة لمشروع قانون الإعارة والتأجير. وبالفعل نجت بريطانيا واستطاعت الانضمام إلى الولايات المتحدة في إعلان الحرب على الإمبراطورية اليابانية بعد الهجوم على الأسطول الأميركي في ميناء وقاعدة بيرل هاربر العسكرية.

وبحلول ذلك الوقت، زوّر جاي إف كاي تقرير الطبيب ليخدم في البحرية الأميركية، فبدأ مع الاستخبارات البحرية في واشنطن قبل أن يُنقل للعمل في الزوارق الخشبية العالية السرعة والمزوّدة سلاح الطوربيد. وعند إرساله للعمل في جزر سليمان

(١) المصدر السابق، ص. ٣٩١.

في العام ١٩٤٣، تولى كينيدي قيادة زورق البي تي – ١٠٩، الذي صدمته وأغرقته ليلاً سفينة حربية حديدية، عندما أنهى الزورق الأميركي المزود رادار دوريته وعاد إلى القاعدة. ونتيجةً لذلك، قُتل أعضاء الطاقم، غير أنّ كينيدي أعاد التسعة الباقين إلى برّ الأمان بعد أربعة أيام وخمس ليالٍ وراء الحدود اليابانية.

كتب الروائي جون هيرسي عن حادثة زورق البي تي – ١٠٩ في مجلة نيويوركر The New Yorker في العام ١٩٤٤ ما جعل من كينيدي بطلاً قومياً صغيرًا، غير أن هذه الحادثة دمرت صحته الجسدية، ما أدى في نهاية المطاف إلى إصابته بإعاقة. كما حزن كينيدي كثيرًا عقب وفاة شقيقه البكر الذي كان يتمتع بصحةٍ جيدة، فكتب سلسلة مقالات تقديرية لجو جونيور الذي كان متوقعًا منه دخول مجال السياسة بعد الحرب.

أظهر مجلّد الكتابات الذي نُشر بشكلٍ سرّي الإخلاص القوي والصادق بين أفراد العائلة وتجنب حقيقة افتقار جو جونيور إلى الفكر المستقل وإلى الحكم السياسي الجيد (كان من أوائل المعجبين بهتلر وعارض إعادة تسمية أف.دي.آر. في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي في العام ١٩٤٠). وفي المقابل، لم يرث جاي إف كاي سحر جدّه الأسطوري وتعاطفه فحسب، بل أظهر أيضًا، في وقت مبكِر، قدرة على إصدار الأحكام السياسية الناضجة. وفي العام ١٩٤٦، وأمام إصرار زملائه وأصدقائه في البحرية وجدّه العزيز وبدعمٍ من والده، ترشح جاي إف كاي عن مقعد شاغر لولاية ماساشوستس في الكونغرس. وفي غمرة اندهاش السفير كينيدي العليل، بدا جاي إف كاي شخصًا مناضلاً وأظهر لياقةً طبيعيةً حين وقوفه على المنصة وفي خلال لقائه شخصيًا وأخفى ذكاءه الاستثنائي وراء روح الدعابة. وكان كينيدي مثقفًا جدًا وسافر كثيرًا وكان فضوليًا وتنافسيًا ووسيمًا وقويًا وخليّ البال. عشقته النساء، ولكنه وجد صعوبةً في جذب الرجال. غير أن أسلوبه الذي جمع بين اللامبالاة والفكر العميق بالنسبة إلى شاب في مثل عمره أصبح محاربًا قديمًا حائزًا نياشين، جعله يفوز في نهاية المطاف بتصويتهم أيضًا. وتمّ انتخابه في ما بعد ثلاث مرات عضواً في الكونغرس لولاية ماسانشوستس ما بين العامين ١٩٤٦ و١٩٥٠، ومن ثم ترشح

لمنصبٍ في مجلس الشيوخ في العام ١٩٥٢ ضدّ العضو الجمهوري المميز هنري كابوت لودج الذي نجح بعد بذل جهدٍ جهيد في ترشيح أيزنهاور للرئاسة.

وفي حملة لا تُنسى، وعلى الرغم من قومية الجمهوريين الساحقة، فاز جاي إف كاي وحلّ مكان السيناتور لودج. وصبّ فرق «البضع سفن» الذي تحدّث عنه جاي إف كاي في مصلحته، ووضعه بوجه خصمه البروتستاني الأنغلوساكسوني الأبيض، الممثل الشاب لولاية قديمة أحبّ محاربيها القدامى والمهاجرين والجماعات المحلية وهيئة التدريس في الكلّيات نظرته المتحررة المشابهة لنظرة ترومان إلى الحكومة، أي التركيز على الدفاع والتحالفات الدولية والتعاطف مع القضايا المحلية من إسكان المحاربين القدامى إلى التعليم والحدّ الأدنى للأجور والضمان الاجتماعي.

وبعد تزوجه بجاكلين بوفيير وهي إنكليزية من أصل فرنسي بيضاء كاثوليكية من نيو إنغلند، زادت جاذبية السيناتور الجديد الذي تحدّى رغبة والده وترشّح لمنصب نائب رئيس في مؤتمر الحزب الديمقراطي في العام ١٩٥٦ في الصيف نفسه الذي ترشح فيه ريتشارد نيكسون لإعادة تعيينه نائب رئيسٍ جمهورياً.

ونتيجة ذلك، نجح نيكسون في محاولته فيما فشل كينيدي. وانتقل ترشيح منصب نائب الرئيس الديمقراطي إلى السيناتور إستس كيف أوفر مع فرق لا بأس به من الأصوات. غير أن المؤتمر نُقل مباشرةً عبر التلفاز فساعد أداء كينيدي (الذي تضمن سرده لفيلم وثائقي من ثلاثين دقيقة عن تاريخ الحزب الديمقراطي فضلاً عن ملاحظاته الامتيازية المضللة) هذا الأخير على اكتساب شهرة بالصوت والصورة بصفته مرشحاً شاباً يكاد يبلغ التاسعة والثلاثين من العمر ولا يستهان به.

وفي العام ١٩٥٨، ترشح جاي إف كاي من جديد لمقعد في مجلس الشيوخ، عازمًا على البقاء في أعلى السلّم، وفاز بالغالبية الكبرى في تاريخ ماساشوستس وفي انتخابات مجلس الشيوخ لتلك السنة. وأمام انسحاب أدلاي ستيفنسون من المعركة الانتخابية الرئاسية بعد فشلين، بدا الوقت مناسبًا جدًا لجاي إف كاي ليخطو الخطوة المتوقعة والترشح للانتخابات الرئاسية ممثلاً الحزب الديمقراطي في العام ١٩٦٠،

كما لو كان الأمر مقدّرًا، إذا لم يكن مخططًا له. لم يكن عمله في مجلس الشيوخ مميزًا ولكن حال ترقيته ليشغل منصبًا في لجنة العلاقات الخارجية في المجلس، تكلّم على نطاقٍ واسعٍ عن السياسة الخارجية. وقد صبّت فتوته ومثاليته وذكاؤه وجاذبيته وزوجته الجديدةُ (التي كانت ترتدي ثيابًا باهظة الثمن) في مصلحته في عصر التلفاز. وقد ربح كتابه الثالث، لمحات في الشجاعة Profiles in Courage، جائزة بوليتزر للسير الذاتية في العام ١٩٥٧، على الرغم من أنّ أشخاصًا آخرين قاموا بالأبحاث وبالصياغة الأولية (على غرار كتب ونستون تشرشل)، ما أظهر لديه أصالةً أدبيةً غير اعتيادية. وكذلك، خفف سجله البطولي في الحرب من شبابه وخبرته التنفيذية، ما جعل الحاكم ستيفنسون يبدو رجعيًا حتى في عيون العديد من الليبراليين.

وبذلك مدحت الصحف المحلية كصحيفة ذي بوبليك، ترشيح كينيدي، على الرغم من انزعاج كثيرين من ديانته (لم يُنتخب أي كاثوليكي للرئاسة)، ومن والده الشرّير، جوزيف بي كينيدي، الذي كان يموّل ترشيحه ضمنيًا.

ومن أجل التغلب على خصومه الديمقراطيين الأقوياء، مثل المرشح الفعّال من الدرجة الأولى، زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، ليندون بي جونسون، كان جاي إف كاي يحتاج إلى حملة حيوية وواسعة ومنافسة، كي تبرز شخصيته المميزة وليحصل على دعم المشككين. ولهذه الغاية، قدّم له والده طائرته الخاصة التي حملت اسم ذي كارولاين (وهو اسم ابنته التي ولدت في العام ١٩٥٧). وعلى الرغم من مرضه المستمرّ (الذي حاول كينيدي إخفاءه)، فاز جاي إف كاي في انتخابات الحزب في لوس أنجلس في آب/أغسطس ١٩٦٠، وعرض على خصمه المهزوم، ليندون جونسون منصب نائب الرئيس كبادرة من الشهامة والاحترام، على الرغم من أنه لم يتوقّع أن يتنازل جونسون عن منصبه النيابي القوي في مجلس الشيوخ لقبوله.

ولكن كينيدي فوجئ، إذ قبل جونسون عرضه، ووسط حملةٍ مشوّقة في خريف ذلك العام، بدت المنافسة لمنصب الرئاسة محمومة.

وقد ساعدت مواجهتان على ترجيح كفّة الميزان القومية لمصلحة كينيدي،

كان أولها ظهور شجاع له في هيوستن في تكساس قبل اجتماع ثلاث مئة وزيرٍ بروتستانتي، حيث دافع عن حقه ككاثوليكي في الترشح لأعلى منصب في الدولة. أما المواجهة الثانية فكانت أول مناظرة رئاسية تنقل على شاشات التلفاز، وافق عليها خصمه الجمهوري ريتشارد نيكسون، الذي كان محاورًا بارعًا يتمتع بصوتٍ جهوري. عبر الراديو، بدا صوت نيكسون متماشيًا مع منصبه كنائب رئيس فبدا وكأنه سيربح المناظرات الثلاث، غير أنّ العكس ظهر على التلفاز (بحسب غالوب لاستطلاعات الرأي)، إذ بدا نائب الرئيس يعرق تحت مصباح قوس الكربون كما بدا غير جدير بالثقة أمام خصمه الديمقراطي الواثق بنفسه والضاحك والوسيم.

وجرت الانتخابات الرئاسية في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠، وكانت الأكثر تنافسًا في تاريخ أميركا، أي أكثر تنافسًا من معركة ترومان ضدّ ديوي في العام ١٩٤٨. فقد كان الفرق بين الفوز والخسارة يقتصر على بضع محافظاتٍ متنازع عليها في ولاية إيلينوي، حيث كانت ماكينة عمدة شيكاغو دالي الانتخابية شغالة وحيث غيرت المبالغ الهائلة (التي دفعها جو كينيدي) نتائج الانتخابات، وتمّ التشكيك في التصويت. (فقد وعد دالي كينيدي في وقتٍ مبكر من ذلك المساء قائلاً له: «سيدي الرئيس، بالقليل من الحظ وبمساعدة بعض الأصدقاء المقرّبين، سوف تحصل على غالبية الأصوات في إيلينوي»)[١].

وعندما سُئل كينيدي كيف ستكون ردّة فعله إذا خسر الانتخابات قال: «ستكون سيئة ولكن أقلّ حدةً من ردة فعل نيكسون.»[٢] وقد تبين في وقتٍ لاحقٍ أنه كان على حقّ.

في المقابل، حُثّ نيكسون على الطعن في النتائج. ولكن هذا التحقيق كان ليظهر أنّ نيكسون أيضًا مارس التزوير في الانتخابات. وفي التاسعة صباحًا أقرّ ملحق نيكسون الصحفي بالهزيمة على عكس نيكسون نفسه الذي لم يقرّ بها رسميًا إلا في

(١) كتاب Conversations with Kennedy لبن برادلي Ben Bradlee، ص. ٣٣.
(٢) كتاب Jack: A Life Like No Other لـ Geoffrey Perret، ص. ٢٦٩.

السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٦١ في الكونغرس، بعد أن زاره كينيدي بمروحيته في فلوريدا وعرض عليه منصبًا عاليًا في الإدارة الجديدة (رفضها نيكسون).

الجزء الثاني: الرئاسة

في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٦١ ، حلف جون فيتزجيرالد كينيدي، البالغ الثالثة والأربعين من العمر، اليمين الدستورية بصفة الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة الأميركية، واختير بعد ذلك ليندون باينس جونسون نائبًا للرئيس الذي كان يقف بجانب الرئيس الرابع والثلاثين دوايت دي أيزنهاور ونائبه الرئيس ريتشارد نيكسون المنتهية صلاحيتهما. وكان هؤلاء الرجال الأربعة، أربعة رؤساء متعاقبين في الولايات المتحدة، من دون أن يخدم أيٌّ منهم حاكم محافظة، حيث كان ذلك هو الوسيلة التقليدية للترقي.

عُدّ خطاب القسم الذي ألقاه كينيدي، والذي كتبه تيد سورينسين الذي كان أصغر من الرئيس، الأفضل في نوعه في تاريخ البلاد. فأعلن كينيدي بصوته الواثق والرجولي والعالي «فليسمع الأصدقاء والأعداء على السواء الكلام الذي أقوله من علياء هذا المنبر وفي هذا الوقت، إنّ الشعلة انتقلت إلى جيل أميركي جديد، وُلد في هذا العصر واستقى دروسًا صعبةً من خلال الحرب وتعلّم الانضباط من السلام المرّ الذي أحلّه بصعوبة، جيل فخور بميراثنا العتيق وغير مستعدّ للشهادة على سقوط حقوق الإنسان تدريجاً أو السماح به، وهي التي لطالما التزمها البلد والتي نلتزمها اليوم على النطاقين المحلّي والعالمي. لتعرف كلّ أمّة، أكانت تتمنى لنا الخير أم الشرّ، أننا مستعدون لدفع أي ثمن وتحمّل أي عبء ومواجهة أي مصاعب ودعم أي صديقٍ والتصدي لأي عدو بغية ضمان استمرارية الحرية ونجاحها.» نُقل خطاب الرئيس الجديد عبر التلفيزيون في العالم أجمع، لافتاً الأنظار إلى قائدٍ جديد على رأس الإمبراطورية الأميركية.

وبعد أن عُيّن شقيق كينيدي الأصغر منه في منصب مدّعٍ عام وبقي مقعد جاي إف كاي في مجلس الشيوخ «جاهزًا «إلى أن يصبح تيد الأخ الأصغر في العمر المناسب ليشغله، كان كبيرهما جوزيف كينيدي يرأسهما ضمنيًا، حتى أنّ هارولد ماكميلان، رئيس الوزراء البريطاني، شبّه آل كينيدي بعائلة إيطالية من القرون الوسطى تسيطر على العاصمة. فقد كانت عائلة كينيدي بالطبع، أميركية من أصل إيرلندي، ولكنها كانت تتميّز بحب السيطرة على غرار عائلة ميديتشي الإيطالية، إلا أنها تبعت خطوات عائلة أيزنهاور الرصينة والقوية التي أصبحت فجأةً في خبر كان، على الرغم من مواجهة الرئيس السابق أيزنهاور للأزمات الدولية بنضجٍ وعلى الرغم من الإنجازات التي حققها على الصعيد الداخلي في خلال ولايته.

وفي خلال رئاسة أيزنهاور التي استمرّت لولايتين، ارتفعت معايير الحياة بنسبة ثلاثين بالمئة وأصبح في كل بيتٍ أميركي تقريبًا تلفاز وتمّ بناء طرق سريعة بين مدن القارة الكبرى من ساحلٍ إلى آخر ومن الشمال إلى الجنوب، ولم تُعلن أية حرب ولم يكن هناك أي مشاغبين ليعرقلوا الازدهار الداخلي المتصاعد بعد معركة ليتل روك وقد شهدت البلاد تضخّمًا ضئيلاً يكاد لا يُذكر. وكان من المفهوم أن ينزعج أيزنهاور. فأشار في الصباح الذي أعقب الانتخابات إلى «أنها أكبر هزيمة في حياتي»، بعد أن شعر أن آثاره ستُمحى بسرعة وتُسحَق مع بداية العهد الجديد.[1] كما أنه أسِف حيال الصحفيين «السذّج» الذين رحّبوا بجاي إف كاي كما لو كان «عبقريًا جديدًا في وسطنا غير قادر على ارتكاب أي خطأ وبالتالي لا يستحق أي انتقاد مهما كان».[2]

وبالطبع وبما أنّ الشعب الأميركي والعالم انتظرا الكثير من كينيدي لكونه جاء باسم الجيل الجديد، كان عليه أن يجهد نفسه ليكون على قدر التوقعات. من هنا، وفي آذار/مارس ١٩٦١، أي بعد بضعة أسابيع من انتخابه، حقق أول إنجازٍ لإدارته الجديدة وهو تأسيس فرق السلام وهو برنامج تطوعي لإرسال الشباب الأميركي إلى

(١) كتاب Einsenhower: The President لـAmbrose، ص. ٦٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص. ٦٠٦.

الخارج لمساعدة بلدان العالم الثالث خصوصاً، وبذلك استفاد الرئيس الجديد من الحس المثالي الذي كان يتمتع به الجيل الأميركي الشاب في ذلك الوقت.

جسّدت فرق السلام أفضل عنصر وأكثره إلهامًا في شخصية الرئيس الجديد في واشنطن، بحيث غدا البيت الأبيض بسرعة من خلال أعضائه الجدد «الأفضل والألمع» ، على غرار وزير الدفاع روبرت ماكنمارا الرئيس السابق لشركة سيارات فورد، ومستشار الأمن القومي ماك جورج بوندي العميد السابق (والأصغر في التاريخ) لجامعة هارفرد. من ناحية أخرى، كانت السيدة الأولى قد ولدت صبيًا توًّا، بالإضافة إلى ابنتهما كارولين، فتحولت الأسرة المؤلفة من أربعة أفراد إلى حضانة ساحرة. فانجذبت الصحف إلى هذه الصورة التي تمّ تشبيهها في ما بعد بالكاميلوت الحديثة.

انتشر متطوّعو فرق السلام في دول العالم الثاني والثالث من دون أسلحة. في الوقت الذي فضّل فيدل كاسترو تصدير الأفكار والأسلحة الماركسية، ما شكل خطرًا مُحدقًا بالبلدان الفقيرة في أميركا اللاتينية. وكان الرئيس أيزنهاور قد أنذر مسبقًا قائلاً: «قد نخسر كل أميركا الجنوبية» ما لم تتخذ الولايات المتحدة التدابير المناسبة، وشعر أن على البلاد «التصرف بالطريقة المناسبة»، خشية أن تشعل نيران معاداة الأميركية.[1] وكان أيزنهاور يرى أنّ الغزو الإمبريالي المباشر أمر مستحيل إذ إنه سيؤكد وصف كاسترو للولايات المتحدة أنها إمبراطورية عسكرية خارجة على السيطرة. ولذلك فضّل الطريقة الخفية التي استعملها في إيران وغواتيمالا، أي انقلابًا عسكريًا تحت رعاية وكالة الاستخبارات المركزية السرية، بتمويل بلغ ثلاثة عشر مليون دولار. غير أن أيزنهاور نصح بألاّ يشارك أي جندي من الجيش الأميركي في هذه المهمة أقله في أثناء القتال. كما لم يُسمح لنائب الرئيس نيكسون بالمشاركة في هذه العملية. وفي النهاية، أصرّ أيزنهاور على إيجاد قائد يمكن الوثوق به ليحلّ بديلاً لكاسترو.

(١) المصدر السابق، ص. ٥٨٣.

وقبل أن يتسلّم كينيدي مقاليد الحكم كانت فرص نجاح عملية زاباتا ضئيلة جدًا، ولم يكن الوضع أفضل بكثير بعد مرور أسابيع على توليه الحكم، بالنظر إلى أحاديثه عن دفع أي ثمن وتحمّل أي مسؤولية. وفي الحقيقة كان الديبلوماسيون قد بدأوا بانتقاد هذه الخطة وكذلك احتجّ عليها مساعد وزير الخارجية دوغلاس ديلون (الذي عينه كينيدي وزير الخزانة الأميركية) الذي قال إنها كانت «معروفة في كل أنحاء أميركا اللاتينية» وقد «نوقشت في أوساط الأمم المتحدة».[1] كما لم يبدِ دين راسك وزير خارجية إدارة كينيدي الجديد أي حماسة تجاه هذه العملية تمامًا مثل ويليام فولبرايت، رئيس لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ. بالتالي كان من المستحيل ألاّ يعرف كاسترو بالعملية المرتقبة فتخلّص من كلّ موظفي السفارة الأميركية في هافانا، عادّاً إياهم «خليةً من الجواسيس».

فوصل عدد منفذي العملية الكوبيين إلى ألف وخمسمئة رجلٍ من دون قائد استهدفوا رأس جسرٍ ساحلي في كوبا، وفي السابع عشر من نيسان/أبريل ١٩٦١، سمح الرئيس كينيدي للكوبيين المنفيين المدعومين من وكالة الاستخبارات المركزية باجتياح كوبا ، وعُرف هذا الاجتياح باجتياح خليج الخنازير. وفي غضون ساعات، أصبح الإنزال مُهَدّدًا بالتحول إلى مأساة.

من جهة أخرة، توقع الكرملين من دون أدنى شكّ أن تجتاح القوات الأميركية المنطقة. غير أن كينيدي لم يعتمد أيًا من المسارين. ففيما أذاعت الأخبار قتل واعتقال كل قوات الثورة، وجد كلّ من السيدة الأولى وموظفي البيت الأبيض جاي إف كاي يبكي الأرواح التي زهقت والحريات التي اغتُصبت من دون أي جدوى. فقال السيناتور غولدواتر للرئيس وهو يحثّه على اقتلاع الانتصار من فم الأسد «على الأمة العظمى أن تكون مستعدةً لاستخدام القوة، فالقوة تنتمي إلى من يستخدمها وأنا مستعدٌّ لفعل أي شيء ليكون الاجتياح ناجحًا».[2] واتخذ ريتشارد نيكسون

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠٨.

(٢) كتاب Goldwater لباري غولدواتر Barry Goldwater طبعة New York: Doubleday عام ١٩٨٨، ص. ١٣٥ و١٣٦.

الموقف عينه على خلاف ريتشارد بيسيل الذي توسّل إلى الرئيس باسم وكالة الاستخبارات المركزية لإرسال طائرتين أميركيتين على الأقل «لإسقاط طائرات العدو الحربية». فأجاب كينيدي «كلاّ، لقد قلت لكم مرارًا وتكرارًا إن قواتنا لن تتدخل في المعركة».[١] وعندما طلب رئيس أركان البحرية الأميركية الأدميرال بورك (الذي كان قائد البحرية السابق في إدارة كينيدي في جزر سليمان) الإذن لإرسال سفينة حربية لتدمير دبابات كاسترو المتقدمة، رفض الرئيس من جديد قائلاً: «بورك، لا أريد أن تتدخل الولايات المتحدة في هذه العملية». وفي الأيام التالية، وبعد أن تحولت الكارثة إلى هزيمة، تشبّث كينيدي بموقفه.[٢]

وبدلاً من التدخل، اتخذ كينيدي خطوةً لا تُصدَّق. فقبل الهزيمة ورفض عرض نيكسون باسم الحزب الجمهوري، ليقترح علنًا دعمه إذا أعلن اجتياحًا رسميًا لكوبا (مستعملاً، عند الحاجة، وجود خطر على قاعدة غواتيمالا البحرية كعذر). وفي الواحد والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٦١، عقد الرئيس مؤتمرًا صحفيًا وقد خالف أحد الصحافيين أمر منع طرح الأسئلة المتعلّقة بكوبا (لأنّ ذلك يصبّ في مصلحة الأمن القومي)، فسكت الرئيس برهة ونظر إلى عيني الصحافي من دون انزعاج وقال: «عندما يأتي النصر ينسبه آلاف الأشخاص إلى أنفسهم، ولكن عندما تحل الهزيمة يتنصّل الجميع من مسؤوليتهم، وها أنا أقول إنني المسؤول عن هذه الحكومة وبالتالي عن هذه الخسارة».[٣]

وبذلك أعلن الرئيس الهزيمة رسميًا، ما فاجأ المشاهدين والصحفيين الموجودين. وحتى كينيدي اندهش ببردة فعل الجمهور إزاء اعترافه بمسؤوليته عن هذا الخطأ الفادح. فبينت استطلاعات غالوب للرأي أن شعبيته ارتفعت عشر نقاط، ما أعطاه

(١) كتاب Jack لـPerret، ص. ٣٠٩.

(٢) كتاب Admiral Arleigh Burke لـE.B. Potter طبعة New York: Random House، عام ١٩٩٠، ص. ٤٣٧ و٤٣٨. كان الهجوم الهوائي الوحيد الذي سمح به الرئيس كينيدي أخيرًا للتخلّص من قاذفات القنابل بي ٢٦ التي يملكها الثوار كارثيًا، لأنّ طياري البحرية الأميركية أخطأوا في التوقيت الكوبي.

(٣) كتاب President Kennedy: Profile of Power لـ Richard Reeves، ص. ١٠١.

٨٣٪ من الأصوات الداعمة له. فانتقد الرئيس نتائج الاستطلاع مستنكرًا نفسه قائلاً: «يا إلهي إنها عدوى أيك، فكلما تصرفت على نحو سيىء حظيت بدعم أكبر.»[1]

وكما بدا واضحًا للرئيس، على القائد العام للقوات المسلحة في النهاية أن يستمع إلى صوت ضميره ويتجاهل انتقاد مرؤوسيه المتحمسين الذين يتوقون إلى انتصار الإمبراطورية الذي يكون عادةً على حساب حياة الآخرين. وفي صميم قلبه، ولأنه تأثر بالحرب العنيفة في جزر سليمان، لم يعتبر جاي إف كاي حقيقةً عملية زاباتا، عملية حربية أو هدفاً سياسياً، نظرًا إلى عدم توافر بديل لكاسترو. وكان كينيدي قد زار كوبا بنفسه (وصالات التدليك فيها) عدة مرات في عهد باتيستا قبل مجيء كاسترو. هل تسعى الولايات المتحدة إلى استرجاع نظام باتيستا السياسي والاقتصادي والاجتماعي الفاسد، إلى جانب ممتلكات شركة الفاكهة المتحدة؟ وبأي قائدٍ أو حكومة يمكن الوثوق بهما كان يعد المتمردين الفقراء ؟

وقد اكتشف الرئيس من الشباب الذين التقاهم عند إطلاق فرق السلام أن تسعينيات القرن السابع عشر اختلفت عن ستينيات القرن العشرين. وارتكز خطابه المثالي الذي أوصله إلى الرئاسة (وحسب) على صفة أخلاقية ملهمة أظهرها بكثافة وليس على السخرية وعلى الأساليب التي استعملها السوفيات في هنغاريا. وبعد أن تحمّل مسؤولية الكارثة، طمأن أيزنهاور أنه لن يخطئ في المرة المقبلة وبأنه سيختار ساحات القتال بحذر.

لم تكن كوبا النقطة الوحيدة الأكثر تأثيرًا بين الدولتين الرأسمالية والشيوعية. فإلى جانب مأساة خليج الخنازير، شهد العالم في ربيع العام ١٩٦١ سباقًا بين القوتين الذرّيتين ليرى أياً منهما ستكون أول من يرسل إنسانًا إلى مدار الأرض، بفضل نجاح برنامج قمر سبوتنك الصناعي. فربح الاتحاد السوفياتي هذا السباق بفوز الملازم يوري غاغارين الذي غزا الفضاء في الثاني عشر من نيسان/أبريل ١٩٦١، على ألان شيبارد الذي وصل إلى ارتفاع ١١٥ ميلاً فقط ولم يدر حول مدار الكرة الأرضية،

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٦.

وذلك، بفرق ثلاثة أسابيع. وضمن ذلك انتصارًا إعلاميًا هائلاً للسوفيات، ما عزز فكرة تفوقهم التكنولوجي على العالم الرأسمالي وأكد نيات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية السلمية.

ولو كان أيزنهاور رئيسًا آنذاك لكان تجاهل الإشاعات وأكمل الأبحاث العلمية بصبر. أما الرئيس كينيدي فقد تأثر بمعركة الأفكار الحديثة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وعقب انتصار الملازم غاغارين، أمر بإجراء أبحاثٍ شاملة وسريعة لإيصال الإنسان إلى القمر، غير أن ذلك لم يتحقق في أثناء ولايته.

وما أن هدأت الأوضاع في كوبا وضجة انتصار الملازم غاغارين، حتى سافر كينيدي ليلتقي نظيره إمبراطور فيينا.

شكل اجتماع القمة في الثالث من حزيران/يونيو ١٩٦١، كارثةً ثانيةً لكينيدي في غضون بضعة أشهر. كان سحر كينيدي وحسن تصرفه قد أدهشا أميركا وكانت غالبية الشعب قد سامحته على خطئه في كوبا، غير أن سحره الآن أصبح عبئًا في مواجهته «جزار أوكرانيا».

واعترف كينيدي في ما بعد لجايمس ريستون، وهو صحافي يعمل في صحيفة نيويورك تايمز، أن المواجهة كانت «أصعب ما فعله في حياته».[١] وأشار وزير خارجية كينيدي دين راسك إلى أنّ الرئيس «كان حزينًا جدًا. لم يكن مستعدًا لوحشية عرض خروتشوف» الذي قدم أداءً روسيًا ثابتاً رافضًا عملية نزع السلاح النووي التي تجري بمساعدة مفتشين عسكريين، واقترح من جديد الاعتراف بألمانيا الشرقية وبالتالي التخلي عن السيطرة الرباعية ودخول برلين. كما أنه أصرّ على أنّ روسيا ستستمرّ في دعم الحركات الشيوعية في العالم مهما ارتفع خطر سوء التقدير الذي قد يؤدي إلى حربٍ نووية غير مقصودة.[٢]

(١) كتاب Deadline: A Memoir لجايمس ريستون James Reston طبعة New York: Random House، عام ١٩٩١، ص. ٢٩٠.

(٢) كتاب The Crisis Years: Kennedy and Khrushchev ١٩٦٠-١٩٦٣ لـMicheal Beschloss، ص. ٢٢٤.

وفي هذا السياق، بدا كينيدي في نظر خروتشوف «عديم الخبرة وغير ناضج مقارنةً بأيزنهاور الذي كان رجلاً يتمتع بالذكاء الثاقب والرؤية».[1] في الواقع، كان كينيدي دائمًا مخدّرًا بالكورتيزون بسبب إصابته بمرض الأديسون، وهو مرض قاتل يكمن في التدهور التدريجي للقدرة الوظيفية للغدد الكظرية وتحت تأثير مبنّج النوفوكايين لآلام ظهره وبوصفةٍ نصحه بها الطبيب ماكس جاكوبسون الذي كان يُعطيها للمشاهير لمحاربة مستوى الطاقة المنخفض.[2]

وبعودته إلى موسكو تكلم خروتشوف عن كينيدي واصفًا إياه برئيسٍ غير ناضج وغير شجاع وأكثر من ذلك بأنه غير قادر على مواجهة أي تحدّ. كما كشف أحدٌ أعضاء الاستخبارات الروسية العاملين في أميركا لروبيرت كينيدي أن أقوال خروتشوف في فيينا قد «أخافت» الرئيس بحق. وقال: «حين تضع يدك تحت فستان فتاة، تتوقع منها أن تصرخ لا أن تخاف منك.»[3] وأشار رئيس الوزراء إلى كينيدي قائلاً له: إن من الأفضل أن «نبدأ الحرب الآن» ضدّ برلين على أن نبدأها عندما تطور الإمبراطوريتان أسلحة أكثر تدميراً. فأجاب كينيدي «إن كان هذا صحيحًا فسيكون هذا الشتاء قاسيًا.»[4]

وبالنسبة إلى حلفاء أميركا، بدا الرئيس متشائمًا على نحو مقلق عقب زيارته فيينا. وقد كتب رئيس الوزراء البريطاني ماك ميلان الذي زاره كينيدي في لندن في طريق عودته إلى أميركا، في مذكّراته أن الرئيس كان لا يزال مصدومًا وأنه وصف القمة في فيينا «كمقابلة شخص عادي لنابوليون للمرة الأولى (في أوج سلطته)».[5] وقال كينيدي في هذا الإطار: «حين تكلمت إلى مراسل مجلة تايمز هاغ سيدي موضحاً أن التبادل النووي سيقتل سبعة ملايين شخص في خلال عشر دقائق نظر إلي

(١) كتاب Khrushchev: The Man and His Era لـWilliam Taubman، ص. ٤٩٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧٦٦.
(٣) كتاب The Crisis Years لـ Beschloss، ص. ٢٣٤.
(٤) كتاب ١٩٦١-١٩٦٣ Foreign Relations Of the United States، المجلّد الخامس، طبعة Washington, DC: US Government Printing Office، عام ١٩٩١، ص. ٢٢٩ و٢٣٠.
(٥) كتاب Khrushchev لـ Taubman، ص. ٤٩٥.

وكأنه يقول «وما المانع؟»[1] وقال نائب الرئيس جونسون: «لقد جمّد خروتشوف الدم في عروق رفيقي المسكين من الخوف» وقلّد جاي إف كاي لاحقًا وهو يرجو رئيس الوزراء الروسي.[2]

أما أولئك الذين حاولوا فهم موقف رئيس الوزراء الروسي النابوليوني المتباهي فما كان عليهم أن يُجهدوا أنفسهم. في الواقع، كان خروتشوف ذو الأسلوب التفاوضي القاسي القروي مندهشاً من جبن الولايات المتحدة في كوبا إذ إنه كان قد توقع أن تُفاجئ أميركا كاسترو بغزو كامل لكوبا في غضون أيام. غير أنه صُدم عندما لم تُنزل أي قواتٍ أميركية في المنطقة. وقال ذات مساء لابنه سيرجي: «أنا لا أفهم كينيدي. ما خطبه؟ هل يعجز حقًا عن اتخاذ قرار؟ ربما يفتقر إلى العزم.»[3]

ونتيجةً لفشل سحر جاي إف كاي في فيينا بالإضافة إلى «ضعفه» في معركة خليج الخنازير، انقلبت الموازين في الحرب الباردة التي أصبحت محمومةً. فلم يقلل رئيس الوزراء الروسي يومًا من شأن عزم الرئيس أيزنهاور الإمبريالي، وخصوصاً بعد أن رأى بنفسه قوة أميركا في الصناعة والطاقة في عهده. غير أنّ أيزنهاور كان أشبه بالشقيق الأكبر، إذ إنه كان يكبر خروتشوف بأربع سنوات، فيما كان «الفتى» كينيدي أصغر منه بثلاث وعشرين سنة، وأصغر حتى من ابنه. وفي موسكو، بدأ خروتشوف فورًا مع مساعديه بمناقشة «ما يمكننا فعله لمصلحة روسيا وفي الوقت عينه إخضاع كينيدي لاختبار قوة».[4]

من ناحية أخرى، كان خروتشوف انتهازيًا فيما كان جاي إف كاي واقعيًا. فوالد هذا الأخير كان رجل أعمال قاسياً، وبالتالي لم يكن جاي إف كاي يستغرب العمالقة الضخام المنقادين وراء مآربهم الهوسية الخاصة. وما أساء كينيدي وأيزنهاور

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥٠٠

(٢) كتاب The Crisis Years لـBeschloss، ص. ٢٣٤.

(٣) كتاب Nikita Khrushchev and the Creation of a Superpower لشيرلي بنسون Shirley Benson، طبعة University Park: The Pennsylvania State University Press، عام ٢٠٠٠، ص. ٤٣٦، وكتاب Khrushchev لـTaubman، ص. ٤٩٣.

(٤) كتاب Khrushchev لـ Taubman، ص. ٧٦٦.

فهمه هو إلى أي مدى خرج خروتشوف على قدراته العقلية وإلى أي مدى كان في حربٍ مع العالم، على الصعيد الداخلي والخارجي. فقد كان معارضًا لستالين المستبد، وكان يعتاش من القتال لكسب السلطة كمصارع روماني قديم. وبالتالي، وبغية اختبار شجاعة كينيدي، كان خروتشوف قد أعلن في فيينا أنه كان سيفصل برلين الغربية عن الغرب، وهذا التهديد أدى إلى إجفال زملاء خروتشوف في الهيئة الرئاسية. كان اتخاذ المبادرة في العلاقات بين الإمبراطوريات يختلف تمامًا عن اختبار العزم الأميركي بالمخاطرة بحربٍ نووية على برلين. وقد سأل أعضاء الهيئة الرئاسية: «هل ينبغي وضع حياة عشرات ملايين الروسيين في خطر للوصول إلى جزء من مدينة ألمانية مقصوفة، ستظل إلى الأبد مرتبطة بأدولف هتلر والنازيين، ليسلموه في ما بعد إلى شعبٍ أهدر خروتشوف وجيله دمهما لمحاربته في الحرب العالمية الثانية»؟ وبتأمله في اندفاعه المقامر، أدرك خروتشوف لِمَ رأى زملاؤه أنه كان على خطأ. وعندما أوضح كينيدي في وقتٍ متأخرٍ في فيينا، كما فعل أيزنهاور في كامب ديفيد، أن الولايات المتحدة لن تتخلى عن برلين الغربية، ما عنى ضمنيًا أن الولايات المتحدة لن تعلن حربًا في برلين الشرقية، رأى خروتشوف فرصةً للنجاح تكمن في بناء جدار يفصل بشكلٍ دائم وملموس المدينة التي كانت لا تزال مفتوحة. وبضربةٍ واحدة كان سيستطيع إيقاف عشرات آلاف مواطني ألمانيا الشرقية الفارين إلى ما عرف بالجمهورية الألمانية الديمقراطية. فقام خروتشوف بجولة شخصية وسرّية في برلين بسيارة ليموزين لا تحمل علامة مميزة. وبعدها، وبخطوة مستوحاة من القيادة السوفياتية الإمبريالية، صعّد خروتشوف خطابه العلني تجاه مئات الملايين الذين قد يموتون في محرقة نووية إذا حاربت الولايات المتحدة ضدهم في برلين، وأمر سرًّا بنشر الأسلاك الشائكة والبدء بالهدم لإقامة الجدار. ومن ثم انتظر ردة فعل الغرب.

لم يكن خروتشوف يملك أدنى فكرة عما سيفعله لو راح الحلفاء الغربيون أو سكان برلين الغربية فورًا يقطعون الأسلاك، مؤمنًا بمقولة نابولين: نرمي بأنفسنا في ساحة المعركة ومن ثم نرى ما سيجري.

فقال سيرغي خروتشوف متذكرًا: «لقد كان والدي مسرورًا جدًا» إلا أن أحدًا لم

يعارض بناء الجدار. ومن جديد لجأ خروتشوف إلى الدعاية الإعلامية، فقبل كينيدي ضمنيًا تحدّي السوفيات ولم يتخذ أي إجراءات باستثناء إرسال ألف وخمسمئة جندي في البحرية لضمان حق الدخول العسكري إلى برلين الشرقية الذي نصّت عليه اتفاقية القوى الأربع المنتصرة في الحرب العالمية الثانية.

في الواقع، وعلى الرغم من أنّ جدار برلين كان أمر مؤسفًا بالنسبة إلى الألمان الشرقيين، إلا أنه كان نعمةً أراحت الرئيس كينيدي، إذ إنه أزال أخيرًا الذريعة لحرب محتملة بعد أشهر من التهديدات والإنذارات السوفياتية الرهيبة. فشكّل بناء الجدار ذلك قرارًا وحشيًا ولكن مسالمًا في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تواجه فيه جدارها الخاص الذي أقيم بين ذوي العرق الأبيض وذوي العرق الأسود. فكانت الهجمات على سائقي حافلات الحرية (Freedom Riders) قد أصبحت دمويةً وبعدها وفي أيلول/سبتمبر من العام ١٩٦٢، وقع أول عمل شغب عرقي كبير في عهد كينيدي فيما تجمّع ألفا طالب من العرق الأبيض ومشاغبون في حرم جامعة ميسيسيبي في أوكسفورد ليمنعوا لأول مرة طالباً من العرق الأسود من التسجيل. كان هؤلاء يحملون أنابيب من رصاص ومسدسات ويلقون الحجارة وقنابل المولوتوف، واستقبلوا بالرصاص ضباطًا فدراليين مسلحين كان النائب العام روبرت كينيدي قد أرسلهم ما أدى إلى سفك الدماء. فتعالت الصرخات متوجهةً إلى الرئيس وقال بعضها: «اذهب إلى الجحيم جاي أف كاي»! فيما قالت الأخرى: «اذهب إلى كوبا يا محبّ الزنوج، اذهب إلى كوبا!»[1]

أوقف الرئيس كينيدي إطلاق النار عند ظهوره في نهاية المطاف على الشاشة المحلية من مكتبه الرسمي في الساعة العاشرة من ليل يوم الأحد الواقع فيه الثلاثون من أيلول/سبتمبر ١٩٦٢. مشى كينيدي على خطى سلفه في أزمة ليتل روك، وناشد شرف سكان ميسيسيبي وكرامتهم لقبول حكم القضاة الجنوبيين في الدائرة الخامسة الذين صوتوا لإرسال الطالب ذي العرق الأسود جايمس ميريديث إلى جامعة

(١) كتاب President Kennedy: Profile of Power لـRichard Reeves، ص. ٣٦١ و٣٦٢.

ميسيسيبي. كان هذا هو القانون حتى ولو خشي الحاكم روس بارنيت التمسك به وتحدّى الرئيس كما تحدى الحاكم فوبوس الرئيس أيزنهاور في العام ١٩٥٧. وذكّر الرئيس المشاهدين «تستند أمتنا إلى المبدأ الذي يعتبر احترام القانون طريقةً للمحافظة الأبدية على الحرية أما انتهاكه فهو السبيل الأكيد للوصول إلى الاستبداد. والقانون الذي نعمل به يتضمن أحكام المحاكم النهائية فضلاً عن قوانين هيئاتنا التشريعية، فحتى الأشخاص الذين يحترمون القوانين لا يحبّذونها كلها ولكنهم يلتزمونها ولا يقاومونها... إنّ أنظار الأمة والعالم شاخصةٌ إليكم وإلينا جميعًا. وأنا متيقن أن غالبية الطلاب سيعززون هذا الشرف.»[1]

في الواقع، تمسكت به الأغلبية، غير أن أقليةً صاخبةً ومسلَحةً، لجأت إلى الأعمال المأسوية والدموية. فكان من الضروري إطلاق الغاز المسيل للدموع لمنع المشاغبين الهستيريين من التحول إلى غوغاء وانتشرت صور الضباط الأميركيين الذين كانوا يرتدون أقنعةً تقي من الغاز في كل أنحاء العالم. كما قُتل أحد المتفرجين وصحافي من وكالة الأنباء الفرنسية على يد المشاغبين. وقُتل ثمانية وعشرون ضابطًا بالرصاص وأصيب مئات الآخرين بجروح من جراء الحجارة والقذائف. وأمام هذا المشهد صرخ الرئيس كينيدي بوجه وزير الدفاع وقائد الجيش الأميركي قائلاً: «الناس يموتون في أوكسفورد. وهذا أسوء ما شهدته منذ أربعين سنة»، فيما طلب إليهما نقل أوامره إلى الجنرال بيلينغسلي الذي كان قائدًا استثنائيًا للمظليين حارب في شمال إفريقيا وصقلية وإيطاليا وهولندا ولكن بصفته قائد منطقة محددة، لم يُدخل الشرطة العسكرية لحماية ميريديث الأميركي في وطنه.[2] وفي النهاية، بتردّد، أمر الرئيس الوحدات العسكرية العادية بالانتقال من تينيسي إلى أوكسفورد، تماماً كما اضطرّ سلفه أيزنهاور إلى إعطاء هذا الأمر في ليتل روك منذ خمس سنوات.

لم يكد الرئيس كينيدي ينتهي من الأزمة في ميسيسيبي، التي ذكر بسخرية أنها

(١) Radio and Television Report to the Nation on the Situation at the University of Mississippi الذي نُشر في الثلاثين من أيلول/سبتمبر ١٩٦٢ www.jfklibrary.org/Historical+Resources/Archives.

(٢) كتاب JFK: The Presidency of John F. Kennedy لهربرت بارمت Herbert Parmet، ص. ٢٦٢.

استغرقت الوقت الأكثر إثارةً للاهتمام الذي عاشه منذ أحداث «خليج الخنازير»، والتي أرسل في خلالها ثلاثة وعشرين ألف جندي لحماية ميريديث، حتى اضطرّ إلى تحدّ أكبر: وهو الأسلحة النووية التي كان ينقلها الاتحاد السوفياتي بحرًا إلى كوبا بشكل سرّي.(١)

لم يصدّق لا كينيدي ولا مجلس الوزراء تحذيرات وكالة الاستخبارات المركزية بأن سفنًا سوفياتية كانت تنقل صواريخ نووية إلى كاسترو. أولم ينفِ خروتشوف شخصيًا في رسائله المتبادلة (التي عرفت بـ«الرسائل بين الأصدقاء») أن روسيا لم تكن تنوي إطلاق صواريخ نووية في الجو؟ ألم يعِد مبعوثون غير رسميين لخروتشوف بالأمر نفسه في اجتماعات سرية مع روبرت كينيدي وغيره؟ وفوق كل ذلك، لماذا قد يتخذ خروتشوف مثل هذه المخاطرة المتعمدة التي لا تستوجب سريةً مطلقةً إلى حين تثبيت الأسلحة وتشغيلها ليُعلن أن وجودها واقع فحسب بل استوجبت أيضًا سلسلة أكاذيب قد تسمم العلاقات الجيدة بين الشرق والغرب حتى جيل ثانٍ؟ لم يكن لذلك أي معنى في نظر الرئيس مما دفعه إلى السخرية من تنبؤات مدير وكالة الاستخبارات المركزية الرهيبة.

غير أنّ كينيدي كان قلقًا حيال التداعيات السياسية على الصعيد الداخلي من جراء التطوير العسكري الروسي في كوبا. فكان اليميني الذي يميل إلى التيار الماك كارثي (توفي ماك كارثي في العام ١٩٥٧) يدعو الرئيس كينيدي الخصم الضعيف منذ كارثة خليج الخنازير وكان قد دعا إلى إعادة غزو كوبا ولكن هذه المرة بقوة أميركية ضخمة. وبغية استرضائهم وتأكيد رفضه الخضوع للاتحاد السوفياتي مروّج الحرب، وافق كينيدي على تنفيذ «عملية مونغوس» وهي خطة أطلقتها وكالة الاستخبارات المركزية لزعزعة الاستقرار في كوبا بأية وسيلة ممكنة. كما دعا مئة وخمسين ألف محافظ آخر وسمح في الوقت عينه لنائب وزير الدفاع بإلقاء خطاب يكشف فيه لأول مرة علنًا ورسميًا أنه اقترف خطأً عندما شنّ حملة ضدّ نائب الرئيس نيكسون وأعلن

(١) كتاب President Kennedy لـReeves، ص. ٣٦٢.

أن هناك «فرقاً كبيراً» بعدد الصواريخ لمصلحة الاتحاد السوفياتي. ولكن الحقيقة أن هذا الفرق غير موجود أساسًا، إنما، وكما أظهرت رحلات طائرة التجسس اليو ٢ التي أمر بها أيزنهاور، كانت الولايات المتحدة تتفوق من حيث الأسلحة النووية وأنظمة التسليم البرية والبحرية والجوية. وبذلك، حتى لو وجه الاتحاد السوفياتي ضربة نووية أولى، فالولايات المتحدة لكانت مستعدة للرد على قوة مماثلة والقضاء على الاتحاد السوفياتي في غضون ساعات.

ساعد الخطاب على تهدئة المتشدّدين الأميركيين غير أنه أظهر سوء تقدير فظيعاً أعطى فرصةً جديدةً للزعيم السوفياتي في محاولته «إلصاق التهمة» بالولايات المتحدة. فقال خروتشوف لوزير الدفاع الروسي مالينوفسكي في نيسان/أبريل من ذلك العام: «روديون ياكوفليفيش، ما رأيك في أن نشنّ هجومًا على بلاد العم سام؟»[1] ومع نجاح جدار برلين في تهدئة الأزمة بين البلدين، كانت لا تزال أمام الروس فرص عديدة لإذلال الأميركيين، في لاوس أو الكونغو على سبيل المثال، غير أن هاتين المنطقتين كانتا بعيدتين جدًا عن قارة أميركا. إلا أنَ استخدام كوبا التي تبعد تسعين ميلاً عن فلوريدا منصة للأسلحة التي تستهدف اليابسة، مثّل فرصة لخروتشوف لجعل الأميركيين يفهمون شعور الروس تجاه الصواريخ النووية الأميركية التي تحيط بهم من النروج حتى تركيا.

وعندما علم كينيدي، في السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٢، بنقل الأسلحة النووية بنجاح إلى كوبا بعد تناوله الفطور في البيت الأبيض اندهش بجرأة تحدي خروتشوف الجديد. واعترف الرئيس أن خروتشوف وأتباعه كانوا يكذبون عمدًا في الوقت الذي كانت السفن الروسية تنقل الترسانة النووية عبر المحيط الأطلسي. ولسخرية القدر، قدمت الصور التي التقطتها طائرات التجسس من نوع يو٢ فضلاً عن الأقمار الصناعية، إثباتًا لا لبس فيه، أن كوبا الخاضعة لحكم كاسترو تحولت إلى قاعدة صواريخ نووية روسية.

(١) كتاب Khrushchev لـTaubman، ص. ٥٤١.

وفي السنوات التالية، أعاد المؤرّخون والمعلقون النظر في البقايا والأصول والسياق والخطوات والأخطاء التي أدت إلى كارثة الصواريخ في كوبا. فوضع سوء تفسير كينيدي للوضع الحكومة الأميركية تحت المجهر. وما لا شك فيه هو أن ترومان وأيزنهاور كانا مستعدين لإرسال قوات جوية تليها قوات بحرية وبرية لطمس مواقع الصواريخ، وفقًا لتوقعات كاسترو عندما علم بخطة خروتشوف. غير أن خروتشوف الذي كان محاربًا قديمًا في الحرب العالمية الثانية تحقق الأمر جيدًا مع ضبّاطه. وطمأن كاسترو وأعلمه أن الولايات المتحدة تحتاج إلى أسبوع على الأقل لشنّ غزوٍ برمائي بعد هجوم جوي. وفي هذا الوقت سيستطيع خروتشوف إعلان دعمه لكوبا وأن أي غزو أميركي سيكون إعلانًا لحرب عالمية ثالثة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، وعد خروتشوف بعقد اتفاق علني ثابت ونووي لدعم متبادل بين كوبا والاتحاد السوفياتي، مشددًا على المحافظة على السرية حتى ذلك الحين لجعل مواجهة الأميركيين أمرًا محتمًا. وكان خروتشوف موقناً أنه حالما تصبح الصواريخ السوفياتية العابرة للقارات ومتوسطة المدى، في موقعها في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، سيكون قد فات الأوان على الولايات المتحدة للمخاطرة في مهاجمتها.[١] وسيضطرّ حينئذ كينيدي إلى التراجع فهو الحساس وغير القادر على اتخاذ قرار. وشرح خروتشوف تحليله في ما بعد قائلاً: «ستكون الصواريخ في مكانها آنذاك وجاهزة للانطلاق. وقبل أن تتخذ الولايات المتحدة قرار إزالتها بالوسائل العسكرية يجب عليها أن تفكر جيدًا. في الواقع، كانت الولايات المتحدة قادرةً على ضرب بعض هذه المنشآت ولكن ليس كلها. فماذا لو صمد ثلثها أو حتى واحد على عشرة من بينها...»

كان تحليل خروتشوف صحيحًا. وكان أول ما قاله الرئيس كينيدي: «سنضطر إلى تفجيرهم على الأرجح»، غير أنه سحب كلامه بعد أن تحقّق الجدول الزمني.[٢] كانت الصواريخ أو القنابل النووية في الجزيرة حينئذ، سبباً لتعقيد فكرة الانتقام الفوري

(١) كتاب Khrushchev's Cold War لألكسندر فورسينكو Aleksandr Fursenko وتيموثي نافتالي Timothy Naftali، طبعة New York: Norton، عام ٢٠٠٦، ص. ٤٥٩.

(٢) كتاب President Kennedy: Profile of Power لـReeves، ص. ٣٧٠.

كالتفجير الأميركي الذي لم تكن فاعليته مضمونةً مئة بالمئة. (وبحسب ما أخبر كاتب سيرة حياة خروتشوف بإيجاز، بعد أربعة عقود أكّد المؤرّخون تخمين خروتشوف: كان عدد من الصواريخ السوفياتية متوسطة المدى قد وصل في منتصف شهر أيلول/سبتمبر، وتلته رؤوسه الحربية النووية في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر، وبحلول السادس عشر من الشهر المذكور كانت الرؤوس النووية للصواريخ البالستية العابرة للقارات أيضًا قد وصلت إلى كوبا غير أنها بقيت في المرفأ على متن سفينة روسية في انتظار تفريغها.[1] وفي الوقت الذي رأى كينيدي صور طائرات اليو ٢ كان في كوبا «ثمانون رأسًا حربيًا لصواريخ بحرية وست قنابل ذرية لقاذفات من نوع إل ٢٨ واثنا عشر رأس طربيد من نوع لونا».[2])

وإلى جانب الشك في ما إذا كانت الأسلحة النووية قد وصلت أو ما إذا كانت شغالة، كانت هناك تداعيات سياسية تلوح في الأفق بسبب فشل كينيدي في تصديق تحذيرات مدير وكالة الاستخبارات المركزية. فقال أحد كاتبي السيَر: «لقد اعتقد أنه سيهزم بصفته القائد العام للقوات المسلحة الذي غضّ النظر فيما كان الروس يضعون صواريخ نووية على بعد تسعين ميلاً من الولايات المتحدة.»[3] وفيما وضع كينيدي الصور جانبًا أدرك أنه وقع في الفخ السوفياتي.

ربما لم تظهر أية خطة منذ حملات الحرب الخاطفة التي قام بها أدولف هتلر غالبًا ضدّ نصائح ضباطه، دور الأفراد في صنع التاريخ كما فعلت مؤامرة خروتشوف الخيالية. وقال مساعده ترويانوفسكي في هذا السياق: «كانت المؤامرة من صنع أفكاره وقد تقيد بها على الرغم من كل المخاطر والتحذيرات.»[4]

اعترف الرئيس أخيرًا بما قاله وزير الخارجية السابق دين أتشيسون عن خروتشوف،

(١) كتاب An Unfinished Life: John F. Kennedy ١٩١٧-١٩٦٣ لروبرت دالاك Robert Dallek، ص. ٥٤٤.

(٢) كتاب Khrushchev لـTaubman، ص. ٥٥١.

(٣) كتاب President Kennedy لـReeves ص. ٣٧٠.

(٤) وفقًا لما جاء عن أوليغ ترويانوفسكي Oleg Troyanovsky في كتاب Nikita Khrushchev لوليام توبمان William Taubman وغيره في فصل عنوانه The Making of Soviet Foreign Policy، ص. ٢٣٤.

أي إنهم كانوا «يتعاملون مع رجل مجنون».[1] وحتى ضباط خروتشوف رأوا أنه فقد صوابه ولاحظ الأدميرال أميلكو أن المشروع الكوبي شكل مخططًا غريب الأطوار.[2] غير أنّ رئيس الوزراء الروسي «غريب الأطوار»، جعل من المستحيل على كينيدي أن يتخذ أي خطوة عسكرية من دون المخاطرة بكارثة نووية، أكان عن طريق الخطأ أم لمجرّد تسلسل الأحداث. أما السؤال الذي طُرح فكان كيف ستكون ردة فعل كينيدي.

وفي خلال ستة أيام مصيرية من شهر تشرين الأول/أكتوبر، راجع الرئيس خياراته. فبقي الروس يخفون ما كانوا يفعلون. حسنًا، قرر كينيدي، هذا ما سنفعله. واعتمد عدم الإفصاح عن أي شيء أمام وزير الخارجية السوفياتي غروميكو عندما زاره في البيت الأبيض في الثامن عشر من تشرين الأول/أكتوبر. وفي إثر الاجتماع، قال كينيدي لأحد مساعديه: «كان من المذهل الجلوس والإصغاء إلى الأكاذيب التي تفوّه بها»، ولكن على الرغم من كل شيء لم يقل الرئيس شيئًا.[3] وفي نهاية المطاف، وبعد أن حصل على أدلة دامغة أخرى بشأن قواعد الصواريخ السوفياتية وبعد أن رتّب أموره، قال كينيدي إنه يشاء قول شيء هام عبر شاشة التلفزيون القومية.

وفي الثاني والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٦٢، وفي الساعة التاسعة والنصف مساءً، وبعد أن أرسل صورًا عن خطابه إلى موسكو وإلى العواصم العالمية، توجّه كينيدي بكلامه إلى العالم أجمع. كتب تيد سورينسين (الذي استُدعي من المستشفى حيث كان يخضع لعلاج ضدّ القرحة) كلمة الرئيس جزئيًا، وبثّت شاشة التلفاز بتفصيلٍ ممل التهديد الجديد الذي يمثّله الاتحاد السوفياتي على بعد تسعين ميلاً من ساحل فلوريدا، بإرساله صواريخ نووية إلى مواقع إطلاقها في كوبا في لحظة إلقائه الخطاب و«تحت ستار السرية والخداع». كما دعا الرئيس خروتشوف إلى «إيقاف العملية وإزالة التهديد السرّي والمتهور والاستفزازي للسلام العالمي

(١) كتاب Khrushchev لـTaubman، ص. ٥٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٥١.

(٣) كتاب The Crisis Years لـBeschloss، ص. ٤٥٦.

وللعلاقات المستقرّة بين الأمّتين»، وذلك من خلال الانسحاب من نصف الكرة الغربي وإلا اضطرّ إلى مواجهة العواقب. وفي هذا الوقت، أعلن الرئيس أنه أعطى أمرًا بفرض حصار بحري أو «عزلة إلزامية» حول كوبا لمنع دخول أسلحة نووية إضافية إلى الجزيرة. وأنهى الرئيس خطابه متوجهًا إلى المواطنين الأميركيين قائلاً:

«إن الطريق الذي اخترنا السير فيه مليء بالمخاطر كسائر الطرق، غير أنه الطريق الأكثر تماشيًا مع هويتنا وشجاعتنا كأمّةٍ ومع التزاماتنا في أنحاء العالم. إن ثمن الحرية باهظ دائمًا، ولكن لطالما دفع الأميركيون هذا الثمن. ويبقى طريقٌ واحد يحرَّم علينا سلكه وهو طريق الاستسلام والخضوع.

لا يكمن هدفنا في انتصار القوة بل في الدفاع عن الحقّ، هدفنا ليس إحلال السلام على حساب الحرية، بل إحلال الاثنين معًا على هذا الجزء من الأرض ونأمل إحلاله على كل الأرض. وإن شاء الله سيتحقق هذا الهدف.

شكرًا وعمتم مساء.»

صُدم خروتشوف عندما قرأ الخطاب الذي أرسل إليه مسبقًا في الكرملين. وبعد أن بالغ بفخرٍ ومن دون تحقيق، في شحنه كميةً هائلة من الأسلحة النووية القادرة على تحويل توازن السلطة بين الإمبراطوريتين بضربةٍ واحدة، وجد خروتشوف نفسه في ذلك الحين وسط جو من الخوف والغضب والإحباط. فدعا الهيئة الرئاسية إلى اجتماع طارئ. واعترف خروتشوف لابنه قائلاً «إن الصواريخ غير عاملة بعد وتعجز عن الدفاع، يمكن القضاء عليها من الجو بضربة واحدة».[1] وتراجع الآن أمام زملائه في الكراملين، موضحًا أنه لم يرد يومًا التهديد بحربٍ نووية وأنّ «كل ما أراده هو ترهيب» الأميركيين بغية ردع القوات المناهضة لكوبا [أي طردها]»[2].

أصبح الاجتماع سورياليًا لعدة ساعات، إذ نوقشت فيه عدة خيارات، من «حرب كبيرة» بين روسيا والولايات المتحدة إلى حرب صغيرة بين كوبا والولايات المتحدة

(١) كتاب Khrushchev لـ Taubman، ص. ٥٦١.

(٢) المصدر السابق.

التي لا يكون للسوفيات دخل فيها فيما يسلّمون أسلحة نووية «تكتيكية» (أي ساحة المعركة) إلى الكوبيين. وفي النهاية اختُتم الاجتماع بصراع. وذكر كاتب سيرة حياة خروتشوف، كان هذا خطأ رئيس الوزراء وليس الرئيس. «كانت خطوته العبقرية تهدد باندلاع الحرب بدل تفاديها»، وكل ذلك للحصول على جزيرة لم تكن أهم من برلين، لم تستطع الآن أنواع الطائرات السوفياتية المستخدمة في برلين من إنقاذها ولا السفن السوفياتية من الوصول إليها. فلم يكن بإمكان الروس اختراق الحصار الأميركي من دون التحريض على الحرب.(١)

دارت عندئذ مفاوضات بين واشنطن والكرملين، فيما احتج الناس في العالم واتهموا ولاموا وعبّروا عن قلقهم. وفي نهاية المطاف انسحب خروتشوف. وفي الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، اقتربت ست سفن روسية تحمل معدات عسكرية من الحصار الذي امتدّ على خمسمئة ميلٍ ثم وقفت جامدةً في البحر. فنظر وزير الخارجية دين راسك إلى مستشار الأمن القومي ماك جورج باندي وقال له كلمات حفرت اسمه في التاريخ: «إننا في مواجهة وجهًا لوجه وأظن أن الخصم قد تردد».(٢)

وبالفعل تردد خروتشوف. فكان قد راهن، إلا أنه أعلن هزيمته قبل أسبوعين من الانتصار. وفي الأيام التالية، ومقابل الانسحاب الروسي، حصل خروتشوف على وعد غير ملزم من كينيدي النبيل بأنّ الولايات المتحدة لن تغزو كوبا الشيوعية وبأنها في وقت لاحق ستسحب الصواريخ النووية الأميركية من تركيا ومن الحدود الروسية. وشكل ذلك في الواقع، نتيجةً لا يستهان بها، على الرغم من أنها لم تعدّ انتصارًا في الكرملين أو في هافانا، إذ إنها وضعت العالم على شفير حرب نووية.

ولدهشته، أصبح الرئيس جون أف كينيدي بطلاً عالميًا. فقد صوت أعضاء منظمة الولايات المتحدة العشرون لدعم حصار كينيدي الذي بقي مفروضًا كحصار تجاري. وبدل من أن يتحوّل فيدل كاسترو إلى لينين أميركا اللاتينية، أصبح شخصًا

(١) المصدر السابق

(٢) كتاب The Crisis Years لـ Beschloss، ص. ٤٩٨.

منبوذًا، وماتت ثورته الشيوعية بمبادئها وأهدافها الاشتراكية المثالية. فسبّ كاسترو خروتشوف بغضب (داعيًا إياه بابن العاهرة والأحمق والنذل)، وانتقد بشدّة الأربعة وأربعين ألف جندي روسي الذين غادروا كوبا مع معداتهم الثمينة، مدعيًا في وقت لاحق أنه لن يكتشف أبدًا من حلم منذ البداية بهذه الخطة الجنونية.

وفي أعظم أزمةٍ دولية منذ الحرب العالمية الثانية، أظهر كينيدي حزمًا وزعامةً سياسيةً كبيرةً في سيطرته على الصقور (الجمهوريون) في وطنه وفي اتخاذه قراراً مسالماً لمغامرة استثنائية. ومن دون خداع وتهديد أصبح خروتشوف «ضائعًا» وخُلع عن عرشه بعد فترة وجيزة.[1] وما زاد غمه، كان ماو تسي تونغ الذي تولى دور عرّاب عالم الثورة الماركسي-اللينيني، متهمًا سياسة خروتشوف في كوبا مجرد «مغامرة» تلاها «الاستسلام».[2]

وفيما شارف العام ١٩٦٢ الانتهاء، ومع التخلّص من أزمة الصواريخ في كوبا، ارتفعت استطلاعات الرأي المؤيدة لكينيدي إلى السبعين بالمئة.

وفيما اختبأ الاتحاد السوفياتي تحت غطاء الإمبراطورية القديمة، وفيما كان قطاع الزراعة فيه لا يزال عاجزًا عن توفير المواد الغذائية لسكانه وقطاع الصناعة عاجزًا عن توفير أدنى احتياجات المواطنين من البرادات إلى السيارات، بدت الولايات المتحدة كأنها تخطت خجلها من الفشل في برنامج القمر الصناعي وبرزت بطاقتها الشابة والإبداعية في الصناعة والتجارة والعلوم والموسيقى الشعبية والفن الشعبي والأدب وإمكانية الحصول على التعليم الجامعي. وفي مقابلة تلفزيونية استمرّت ساعة واحدة على شاشة الآي بي سي، في السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢، سُئل الرئيس عما إذا كانت سنتا ولايته حتى ذلك الوقت قد تناسبتا مع توقعاته.

فهزّ كينيدي رأسه وقال: إن المشاكل التي واجهها «كانت أصعب مما توقعت.

(١) كتاب Khrushchev لـTaubman، ص. ٥٨١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٥٧٨.

والمسؤوليات الملقاة على عاتق الولايات المتحدة أعظم مما توقعت، كما هناك عوائق أمام قدرتنا على تحقيق نتائج إيجابية أكثر مما توقعت. وأظن أن هذا ما يواجهه كلّ رئيس، إذ يختلف الأمر بين المستشارين والنواب والوزراء، والرجل الذي يجب عليه اختيار أحد الخيارات المطروحة ويقول هذه هي سياسة الولايات المتحدة.» وأشار بحزنٍ قائلاً: «إذا اتبعت المسار الخاطئ، كما فعلت في بعض الحالات، يتحمّل الرئيس عبء المسؤولية بحقّ»، وأضاف بلغة لاذعة «أما المستشارون فينتقلون إلى نصائح أخرى.»[1]

كان هذا جون أف كينيدي بصورته الأكثر واقعيةً. غير أنه منح نفسه والمشاهدين لحظةً وجيزةً ليعبر عن فخره بإنجازات الولايات المتحدة كقوة عظمى منذ الحرب العالمية الثانية قائلاً: «شكل المئة والثمانون مليون نسمة الذين كانوا في خلال عشرين سنة تقريبًا وسائل مهمةً لحماية العالم من التهديد النازي ومنذ ذلك الوقت، من التهديد الشيوعي، ولو لم يكن النصر لنا لكان الشيوعيون سيطروا على العالم اليوم... وأظن أن هذا الأمر جيد لأننا نشكل ٦٪ فقط من شعوب العالم. أعتقد أننا سنكون مسرورين بأنفسنا في خلال عيد الميلاد هذه السنة.»[2]

ووسط إشراق الازدهار (كانت الولايات المتحدة قد خرجت من ركود طفيف في العام ١٩٦٠ وكانت قد بدأت تزدهر)، ومع الحلّ السلمي لأزمة الصواريخ في كوبا، عدّد الرئيس لنائبه سبعاً وعشرين مشكلة محتملة وجب حلّها في العام ١٩٦٣.[3] غير أنّ هذه اللائحة لم تتضمن قضية الحقوق المدنية أو قضية فيتنام.

وكما فعل أيزنهاور في زمن قضية براون ضدّ مجلس التعليم، أمل كينيدي أن يتمكن من تأجيل ملف الحقوق المدنية حتى ولايته الثانية بعد انتخابات العام ١٩٦٤، فيما كان يتخذ خطواته بحذر لاسترضاء البيض والسود. غير أن الطاقة التي كانت تغمر البلاد في الستينيات ومع ارتفاع الناتج القومي المحلي بنسبة ٤ في المئة

(١) كتاب President Kennedy لـReeves، ص. ٤٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٣٨.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٦٢.

للفرد الواحد، نفد صبر الزعماء السود. ولم يكن بإمكان الرئيس وضع حد للتطلعات التي أثارها في خطابه التاريخي في العام ١٩٦٠ أو وضعها جانبًا إذ إنه خاف أن يخسر انتخابات العام ١٩٦٤. وكان السود قد انتقدوا مشروع قانون حق الاقتراع الذي قدمه الرئيس أمام الكونغرس في شباط/فبراير ١٩٦٣، واصفين إياه بالتمويه. وفي شهر نيسان/أبريل شهدت مدينة برمنغهام في ولاية ألاباما، مسيرات احتجاج بقيادة الدكتور كينغ الذي تمّ اعتقاله. وبحلول شهر أيار/مايو، وبعد إطلاق سراحه، لجأ الدكتور كينغ إلى الأطفال في مسيراته، غير أن الاحتقانات ارتفعت أكثر. فاعتُقل مئات الأشخاص، ونُشرت صور مخيفة من العالم، لمفوض السلامة العامة يوجين كونور الملقّب «بالثور»، وهو يطلق خراطيم المياه على ألف طفلٍ من العرق الأسود فيما كانوا يخرجون من كنيسة معمدانية ويستخدم كلاب الجيرمان شيبرد ضدّهم. وبعد التعرض للإذلال في أزمة الصواريخ في كوبا، كان أمام راديو موسكو فرصة ذهبية ليردّ الضربة في محكمة الرأي العام.

فدُعي كينيدي إلى اتخاذ قرار باستخدام منبره الرئاسي حتى ولو كان ذلك يهدّد فرصه أو فرص الحزب الديمقراطي في إعادة انتخابهما. غير أنّ الرئيس قاوم هذه الدعوات، وفيما اشتدّت تظاهرات الحقوق المدنية في صيف تلك السنة لمواجهة تصلّب الغرب، أتى يوم الحساب. فوصل حاكم ولاية ألاباما جورج والاس إلى حرم جامعة الولاية في الثاني من حزيران/يونيو ١٩٦٣، متعهدًا بأنه سيضع حدّاً شخصيًا لقرار المحكمة بمنع الاختلاط في الجامعات من خلال منع أول طالبين من العرق الأسود من التسجل.

انتقد كثيرون كتاب كينيدي تحت عنوان لمحات في الشجاعة، معتبرين أن كاتبه الحقيقي هو تيد سورينسين كاتب خطب كينيدي الموهوب القادم من نيبراسكا. ومع ذلك، كان مفهوم الشجاعة في السياسة هو برأي كينيدي الاستعداد لتحدي هياكل السلطة التقليدية وكان صادقًا في تقديره لتلك الشخصيات السياسية التي تحلّت بهذه الشجاعة في التاريخ السياسي. والآن وأخيرًا كان دوره قد حان. فكان حتى ذلك الحين قد احتمى كسلفه أيزنهاور وراء صلاحياته القانونية والدستورية لتطبيق قوانين

البلد بصفته الرئيس التنفيذي في أمته. والآن وبعد أن ضمّ حرس ألاباما القومي إلى الحكومة الفدرالية تحت قيادته، وفي خطاب له عبر شاشة التلفاز دام ثماني عشرة دقيقة عشية الثاني من حزيران/يونيو، تكلم الرئيس على عدم المساواة التي يتعرض لها ذوو العرق الأسود في أميركا في مجالات التعليم والقضايا الاجتماعية والأعمال والاقتصاد والتوظيف والرعاية الصحية. وأعلن بصوت «أعمق» وأقوى كانت إليانور روزفلت قد نصحته باعتماده قبل وفاتها، «هذه ليست قضية قانونية أو تشريعية فحسب، بل ما نواجهه هو قضية معنوية. وهذه القضية قديمة قِدم الكتاب المقدس»، وأضاف لمصلحة التمييز في غرب البلاد المتحفظ «وهذه القضية واضحة كالدستور الأميركي. من «منا» قد يغير «بشرته» إذا عانى التمييز والذل اللامتناهيين في الأماكن العامة والمطاعم والمدارس الرسمية وفي نكران حقّ الاقتراع؟ من منا سيكون راضياً عن مستشاري الصبر والتأخير؟ لهذا نحن نواجه قضيةً معنويةً كأمة وكشعب. ولا يمكننا مواجهتها بإجراءات قمعية تنفذها الشرطة. ولا يمكن غضّ النظر عنها فتتزايد الاحتجاجات في الشوارع... حان الوقت ليتصرف الكونغرس والولاية والهيئة التشريعية المحلية وفوق كل ذلك في حياتنا اليومية. التغيير الجذري في متناول أيدينا، ومهمتنا وواجبنا أن نقوم بهذه الثورة وبهذا التغيير السلمي والبنّاء لنا جميعًا.»

وبهذه الكلمات أعلن الرئيس أنه سيقدم مشروع قانون جديداً لحق الاقتراع أمام الكونغرس. أدرك كينيدي أن هذا كان يعني أنه سيخسر الديمقراطيون في الغرب وهذا ما قاله للمستشار التشريعي، ولكن أقله أنه اختار طرفًا.(١)

وفي نهاية شهر آب/أغسطس من العام ١٩٦٣، شهدت واشنطن مسيرةً بقيادة مارتن لوثر كينغ الابن. فحذّرت إحدى صحف المدينة بأن «المخربين أتوا ليقضوا على المدينة العظمى»، غير أنّ المسيرة أثبتت أنها كانت سلمية وغيّر صوت كل من ماهاليا جاكسون والدكتور كينغ التاريخ. فتأثر الرئيس كينيدي الذي علّق بتقدير

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢٢.

حقيقي وهو يشاهد كينغ مستمعاً إلى خطابه العميق تحت عنوان «لدي حلم»، على شاشة التلفاز قائلاً: «إنه رائع! رائع!»[1] وعقب انتهاء المسيرة دعا الرئيس الدكتور كينغ إلى اجتماع خاص في قاعة مجلس الوزراء في البيت الأبيض، حيث هنّأ شخصيًا المبشّر، الذي كان أصغر منه باثني عشر عاماً. وبدأت أكثر شخصيتين بارزتين في جيلهما نقاشاتٍ مفصلة عن عدد الأصوات المضمونة في الكونغرس لمشروع قانون الحقوق المدنية. فقال فيليب رانفولت مؤسس أوّل اتحاد عمالي للأميركيين من أصل إفريقي براذرهود أوف سليبنغ كار برترز Brotherhood of Sleeping Car Porters البالغ من العمر الأربعة والسبعين عامًا «ستكون حملةً عنيفةً. و لا أعتقد أن هناك أحداً قادر على قيادة هذه الحملة أفضل منك سيدي الرئيس».[2] فأخذ الرئيس نفسًا عميقًا ووعد بقيادة الحملة.

وفيما احتلّت الاحتجاجات والتظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية الصدارة على جدول أعمال البلاد، شكلت قيادة الدول الديمقراطية في العالم وتشجيعها تحديًا مماثلاً وخصوصًا في إمبراطورية مزدهرة ملأى بالصقور. وفي حزيران/يونيو ألقى الرئيس خطابًا عميقًا ومثاليًا حول السلام العالمي في الجامعة الأميركية في واشنطن بغية تعزيز نظرته إلى المفاوضات الوشيكة في موسكو حول معاهدة حظر التجارب النووية المحدودة التي وافق الروس على توقيعها في الخامس والعشرين من تموز/يوليو، والتي اشمأزّ منها الشيوعيون في الصين. وسأل كينيدي بصورة بلاغية «عن أي نوع من أنواع السلام نتحدث؟ ليس السلام الأميركي الذي يفرض على العالم من خلال أسلحة حربية أميركية» ولكن السلام الذي يحدّ من التوتّرات التي لا مفرّ منها من خلال «التسامح المتبادل» والاحترام.

وفي ضوء التسوية الإنكليزية-الروسية التي تم التوصل إليها في لاوس التي لطالما عُدت «موقع قلاقل» في جنوب شرقي آسيا، فضلاً عن الحلّ السلمي الذي

(١) المصدر السابق، ص. ٥٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٨٥.

تم التوصل إليه في نهاية المطاف بخصوص أزمة الصواريخ في كوبا، بدا ذلك نبيلاً وواقعيًا، لكن وكما أشار خروتشوف إلى أفريل هاريمان (المفاوض الرئيسي في الولايات المتحدة لمعاهدة حظر التجارب النووية)، إن هذه الكلمات، على الرغم من بثها المستمر عبر الراديو والشاشة السوفياتية، لم تقلل من «إمبريالية» الأميركيين. وقال خروتشوف: « كان هناك العديد من الرأسماليين الذين تعاملوا مع قضايا في أوطانهم، في حين أن الإمبرياليين هم رأسماليون يتدخلون في شؤون الآخرين، كما تفعلون في جنوب فيتنام.»[1]

وأتت كلمات خروتشوف هذه، بعد إخفاقه الإمبريالي في كوبا، عميقةً ولكن لم تكن عبثاً. فقبل سنتين، حذر الرئيس ديغول كينيدي من أن التدخل في فيتنام سيشكّل «ورطةً كبيرةً» إذ كان للفرنسيين خبرة في ذلك. وقال له: «سوف تغرقون في مأزق لا متناهٍ على الصعيد العسكري والسياسي بغض النظر عن الأموال التي ستُنفقونها والقوات التي ستنشرونها.»[2] ومع أنّ ديغول كان على حق، لكنه لم يكن يدرك إلى أي مدّى وصل قرع طبول الحرب في معقل الديمقراطية الأميركية. فمنذ عشرين سنة، منع الانعزاليون الجمهوريون الرئيس من توريط القوات لحماية الديمقراطية في أوروبا، والآن، أمضى كينيدي أول سنتين من عهده محاولاً إسقاط الصقور الذين عينهم بنفسه في إدارته، ومن بينهم دين راسك وروبرت ماك نامارا ووالت روستو والأخوان وليام وماك جورج باندي، وكل ذلك بغية إظهار التعاون بين الحزبين للمحافظة على الأمن في أميركا. و«عبّر الرئيس عن شعوره القوي» ضدّ توريط القوات الأميركية في فيتنام، إذ إن حلفاء أميركا الأساسيين، أي فرنسا وبريطانيا، عارضوا هذه الخطوة، بحسب ما ورد في محضر مجلس الأمن القومي في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦١. وحذر الرئيس من أن التدخل في حرب الفيتنام من دون دعم الحلفاء قد يولّد «انتقادًا داخليًا حادًا» فضلاً عن «معارضة قوية

(١) المصدر السابق، ص. ٥٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٤٩.

من دول أخرى في العالم»، مشيرًا إلى أنه بإمكانه أن «يجادل بشدة معارضًا التدخل في منطقة تبعد عشرة آلاف ميل ضدّ ستة عشر ألف مقاتل فيتنامي [فيتكونغ]»، يدعمهم مئتا ألف فوج شيوعي قومي في شمال فيتنام، حيث «قضى الملايين على مر سنوات من دون أي جدوى».

وبدلاً من إسكات الصقور، سعى الرئيس إلى استرضائهم بما تحوّل إلى مساومة كارثية، فأرسل حوالى ستة عشر ألف جندي «استشاري» أميركي بين العامين ١٩٦١ والعام ١٩٦٣، في محاولة لتحسين الحكومة الفاسدة وغير الفاعلة وغير الديمقراطية التي عين نغو دينه ديم المتحدر من جنوب الفيتنام نفسه رئيسًا عليها.

لم يكن كينيدي متوهمًا، ففي النهاية، كان قد حارب في معركة قاسية ضدّ اليابانيين في جزر سليمان في العام ١٩٤٣ وعرف عدد القوات الجوية والبحرية والبرية اللازمة لإبعاد قوات العدو المتأصلة وخصوصًا في حرب العصابات، وفي ظل طقس استوائي. كما كان قد زار الفيتنام (شمالاً وجنوبًا) في العام ١٩٥١، حيث استنتج أن الفرنسيين لم يخطئوا في البقاء في المنطقة المستعمرة من البلاد فحسب، ولكنهم توهموا أيضًا أنهم قادرون على قمع انتفاضة هو شي منه القومية. وقد أقرّ كينيدي في مؤتمر صحفي في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢ «بحجم صعوبة المشاركة في حرب عصابات»، وخصوصاً «في ساحة قتال صعبة مثل أرض جنوب الفيتنام».[1] وقال الرئيس لقائد القوات البحرية أرليغ بورك، الأدميرال المحارب البارز إنه «أخطأ» عندما قال إن على الولايات المتحدة المحاربة في لاوس، ورفض أي دعم إضافي من وكالة الاستخبارات المركزية للجنرال المعارض للشيوعيين فومي نوسافان، الذي فشل فشلاً ذريعًا في محاربة حركة باثيت لاو الشيوعية. وقال كينيدي لصديق صحفي «إن الجنرال فومي مجرد سافل»، وعارض إصرار الأدميرال بورك الذي قال إن على الولايات المتحدة أن تقف وتحارب في جنوب الفيتنام إن لم

(١) كتاب An Unfinished Life لـDallek، ص. ٦٦٦.

تحارب في لاوس.[١] وتابع بورك ساخرًا بطريقة أزعجت الرئيس «وإذا لم تحارب في جنوب الفيتنام، فهل ستحارب في تايلاند؟»[٢]

من ناحية أخرى، فهم كينيدي أن الإمبراطوريات العظمى تزدهر فقط إذا تمكّنت من حماية ثرواتها ومواردها الدائمة والمحافظة عليها. فلذلك، يجب أن تركز على الميادين الحيوية الأكثر تأثيرًا، لكي لا تنجرف في صراع مكلف ومله قد يزيد من مشكلاتها. على صعيد آخر، كان الرئيس أيزنهاور قد عارض مستشاريه ورفض مساعدة الفرنسيين في المحافظة على الفيتنام كمستعمرة غير شيوعية. وعلى أمل تهدئة الصقور في إدارته وفي وزارة الدفاع، حاول جاي أف كاي بيأس إبقاء قضية الفيتنام خارج جدول أعماله وبعيدًا عن مؤتمراته الصحفية وعن صفحات الصحف الأميركية الرئيسية، على أمل التخلص من هذه القضية التي شكلت مشكلةً سياسية في أميركا والتفاوض في الوقت المناسب في تسوية أو ترك الرئيس ديم وشركائه لمواجهة مصير بلادهم. غير أنه شعر بأن الأمر يستدعي الصبر. وفي السادس والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٦٣ ألقى الرئيس كينيدي في برلين المنقسمة خطابًا شعبيًا صاخبًا عنوانه «أنا من برلين» وسط بهجة مليون شخص من برلين الغربية وكانت برلين لا تزال أهم رموز الحرب الباردة والإصرار على الغربية الديمقراطية. ولكن ماذا عن غرب الفيتنام حيث كان الرهبان البوذيون يحرقون أنفسهم احتجاجًا على نظام ديم الفاسد؟ في هذا الإطار، نصح السيناتور مايك مانسفيلد قائد الأكثرية في مجلس الشيوخ، الرئيس كينيدي بعدم الإصغاء إلى وكالة الاستخبارات المركزية أو إلى الجيش، اللذين كانا متحمّسين لتحيّن الفرصة لسفك الدماء بعيدًا عن سيطرة واشنطن، وشدّد على «عدم أهمّية المنطقة بالنسبة إلى مصالح الولايات المتحدة الخاصة». حثّ السيناتور، بكلمات تركت بصمةً على مرّ التاريخ الأميركي، الرئيس أن يسأل نفسه ما إذا كان «جنوب الفيتنام» «مهماً لنا» بحقّ، كما كان يدعي مؤيدو الحرب في تلك

(١) كتاب President Kennedy لـ Reeves، ص. ٣٠٩.

(٢) كتاب Commander in Chief لـ Geoffrey Perret، ص. ١٨٨.

المنطقة.[١] فهزّ كينيدي رأسه علامةً للنفي فيما درس كيفية الانسحاب.[٢] وشرح الرئيس لأحد مساعديه بعد أن تكلم مع مانسيلد لافتًا إلى أنه «إذا حاولت الانسحاب كليًا من الفيتنام سنكرر الخطأ عينه الذي أدى إلى بروز ماك كارثي، ولكنني يمكنني اتخاذ هذه الخطوة بعد انتخابي لولاية ثانية» في العام ١٩٦٤.

وفيما أحاطت به المشاكل والقضايا الأخرى، من الحقوق المدنية مرورًا بقلقه حيال إعادة انتخابه ووصولاً إلى إيجاد فرقة مستشارين لموضوع الفيتنام الذي انقسم إلى نصفين متساويين بين الصقور والحمائم (الديمقراطيون)، قام كينيدي بالخطأ الجوهري نفسه الذي قام به في خليج الخنازير وعملية النمس. فبغية استرضاء اليمين، قام الرئيس بخطوة ندم عليها حتى آخر لحظة في حياته، فعين السيناتور السابق كابوت لودج الجمهوري المعارض بشدة للشيوعية في منصب سفير الولايات المتحدة الجديد في سايغون وأرسل برقيةً أعرب فيها عن موافقته على دعم لودج الانقلاب ضدّ ديم، وهذا الانقلاب سيؤدي إلى تأسيس مجلس عسكري، يمكن لوكالة الاستخبارات المركزية والجيش التعاون معه لمحاربة ثوار الفيتكونغ.

وفي خريف ١٩٦٣، فشل الرئيس كينيدي في أن يطرح على نفسه أو يجيب عن السؤالين التاليين، أولاً كيف ستكون النظرة تجاه هذا المجلس في جنوب الفيتنام كمحطة «ديمقراطية» وثانيًا ما إذا كان هذا المجلس فعلاً سيكون أقل فسادًا وأكثر فاعلية في إدارة هذا البلد الآسيوي. في الواقع، لم يكن كينيدي يتمتّع بخبرة أيزنهاور وهيبته بصفته جنرالاً في القيادة العليا، من حيث تعامله مع الجيش. كما كان يفتقد «اليد الخفية» التي تمتع بها أيزنهاور في علاقته المقربة مع وكالة الاستخبارات المركزية. وفوق كل ذلك افتقر كينيدي إلى الخط الذي كان يتمتّع به أيزنهاور.

وفي وقت متأخر، في الأيام التي أعقبت مراسلته للودج، أدرك كينيدي أنه اقترف خطأً لا يُغتفر لا بل مروعًا وحاول استعادة أو إلغاء البرقية غير أنه أدرك

(١) كتاب An Unfinished Life لـDallek، ص. ٦٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص. ٦٦٨.

أنه كان عالقًا، فإذا فشل الانقلاب ستبدو الولايات المتحدة تمامًا كالبلد المشين والإمبريالي والفضولي أي على غرار ما وُصف في خليج الخنازير. وقال للودج: «إذا أسأنا التقدير فمن الممكن أن نخسر مكانتنا الكاملة في جنوب شرقي آسيا بين ليلة وضحاها».(١) أما إذا نجح الانقلاب، فسيبدو الأمر مماثلاً، إذ لم تكن هناك أي ضمانة بنجاح المجلس الجديد في محاربة الثوار الشيوعيين أفضل من ديم حتى مع مساعدة الأميركيين.

وبذلك استمرّ الانقلاب في الفيتنام بدعم أميركي سري. وفي الساعة الثانية إلا ربعاً من ليلة الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣ اعتُقل الرئيس ديم مع شقيقه بناءً على أوامر جنرالات جنوب الفيتنام، وعلى الرغم من محاولات كينيدي تدبير نقلهما خارج البلاد مع مبلغ مليون دولار أميركي قدمته وكالة الاستخبارات المركزية لتسهيل نفيهما، تمّ اغتيالهما في ناقلة الأفراد التي كانا يسافران فيها. وتذكر الجنرال ماكسويل تايلور رئيس هيئة الأركان المشتركة (الذي لم يدعم خطة الانقلاب)، كيف أن الرئيس كينيدي «قفز من مكانه وخرج بسرعة من الغرفة مصدومًا ومرعوبًا» عندما نُقل إليه الخبر.(٢) وعندما صعد إلى الطابق الثاني بكى كثيرًا بحسب ما قالت جاكي.(٣) وتمامًا كيوليوس قيصر، لم يعتبر الرئيس الأمر مجرّد خطأ بل رأى أنه عمل شيطاني.

لام كينيدي نفسه. وغرق في حالة اكتئاب إذ إنه أدرك أنه شارك ليس في انقلاب في بلدٍ بعيد وصعب، من غير المفترض لثرواته أن تغير إستراتيجية الولايات المتحدة فحسب، بل في قتل ديم الرجل الذي التقاه وأُعجب به بدم بارد. هل ينم هذا التصرّف عن الديمقراطية، تلك التي أطاحت النير البريطاني في العام ١٧٧٦ والتي وضعت، دستور الولايات المتحدة، أثمن وثيقة سياسية في العالم؟ وورد بعد

(١) المصدر السابق، ص. ٦٨٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٦٨٣.
(٣) صحيفة نيو هامبشير مقال لـCharles Splading بعنوان Massachusetts Historical Society، وكتاب Jack لـPerret، ص. ٣٩٣.

الحادث بثلاثة أيام في أحد تصريحات كينيدي المسجلة للتوثيق «لم يكن يجدر بي أن أوافق على الانقلاب من دون عقد اجتماع طاولة مستديرة. لقد صدمت بوفاة ديم ونهو. لقد التقيت ديم مع القاضي دوغلاس منذ عدة سنوات. لقد كان شخصيةً مميزةً. صحيح أن التعامل معه في الأشهر الأخيرة أصبح صعبًا، إلاّ أنه طوال عشر سنوات، استطاع أن يحافظ على وحدة بلاده واستقلالها في ظروف مستعصيةً جدًا. وكانت طريقة موته مقيتة جدًا.»[1]

وبعد أسبوعين، اغتيل كينيدي نفسه، على ما يبدو، على يد رجل مسلح منفرد يدعى لي هارفي أوزوالد، ما لبث أن قُتل بدوره فيما كان محتجزًا بعد يومين.[2]

الجزء الثالث: حياته الخاصة

عانى والد جاي أف كاي طوال حياته مشاكل في معدته، وأصبح أخرس وغير قادر على المشي في إثر جلطة دماغية قوية في العام ١٩٦١. أما شقيقته أونيسي فعانت مرض أديسون الحاد. غير أن مشاكل جون الصحية كانت من نوع آخر تماماً، إذ عانى عاهات توازي بحدتها أمراض القلب وشلل الأطفال التي كان أف.دي.آر مصابًا بها، وتطلبت منه شجاعةً كبيرةً لمواجهتها. وفي طفولته كان كينيدي يصاب بسهولة وبشكل شبه مستمر بأمراض كالحمّى القرمزية والجدري والتهاب الشعب الهوائية والحصبة الألمانية والنكاف والسعال الديكي والتهاب الأذن. أما في سن المراهقة وبداية سن

(١) كتاب An Unfinished Life لـDallek، ص. ٦٨٤.

(٢) قتل جاكوب روبنشتاين Jacob Rubenstein مشغّل ملهى ليلي في دالاس أوزوالد Oswald الذي غيّر اسمه قانونًا ليصبح جاك روبيJack Ruby. لم يتمّ التأكيد على ما إذا كان آخرون من قتلة الرئيس كينيدي قد حثوا أوزوالد أو دفعوا له. توفي روبي جراء سرطان حاد في الرئتين والكبد والمخ يوم الثالث من كانون الثاني/يناير ١٩٦٧ في مستشفى بارك لاند في دالاس حيث توفي أيضًا أوزوالد وتمّ إعلان وفاة الرئيس كينيدي. أعلن روبي في تصريح أخير "لا شيء نخفيه لم يكن هناك أحد آخر" «There is nothing to hide. There was no one else» (مقال نشر في الثلاثين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦ في صحيفة تايمز Times بعنوان «A Last Wish»).

الرجولة. فاشتدت آلامه وأصبح من الصعب تحديدها، فتخطت «التهاب القولون» وشك بعضهم في إصابته بسرطان الدم والتهاب المعدة. وتجدر الإشارة إلى أن كينيدي لم يكن يدخّن أو يشرب الكحول، بل كان يتناول المأكولات الخفيفة كالشوربة فقط. ولم يكن للأطباء أدنى فكرة عن أسباب تدهور صحته الجسدية المستمر.

وكما كانت الحال في زمن أف دي آر، عززت عاهات جاي أف كاي الجسدية تقدير الناس لشجاعته (غير أنه لم يسمح لأحد بالإشفاق عليه). غير أن هوس جاي أف كاي الجنسي الحقيقي كان أمرًا مختلفًا. فقد نشأ كينيدي الولد الثاني في عائلة أثرياء جدد، ومنذ صباه عزم على منافسة شقيقه الأكبر ووالده في مجال الجنس. ونظرًا إلى حالته الصحية المتدهورة باستمرار، لم يكن هذا التحدي سهل المنال. فكان والده يقول للفتيات اللواتي كان يجلبهن ابنه إلى بيت العائلة الصيفي في بالم بيتش ساخرًا: «لم لا تحصلن على شخص حي؟»

وفي الجامعة، وبمساعدة صديقه الحميم منذ أيام المدرسة (الذي كان شاذًا جنسيًا ومغرمًا به إلى حدّ العبودية)، بدأ جاي أف كاي مسيرة رومنسية «كزير نساء» أو «كدون جون كينيدي» كما وصف نفسه (في إشارة إلى دون جوان دي ماركو).[١] وكما جمعت أوبيرا دون جوفاني لموزارت ألفين وخمساً وثمانين عشيقةً، بحسب خادمه لابوريلو، أراد كينيدي أن يجمع قائمةً مماثلةً من العشيقات في حياته. كان كينيدي وسيماً وبارعًا ومثقفًا وهو سافر كثيرًا وكانت صحبته مثيرةً للاهتمام، على الرغم من كلّ المشاكل الصحية التي بدا وكأنه تخطاها عندما وقع في سن الرابعة والعشرين في أواخر العام ١٩٤١ في حبّ امرأة مثيرة وجميلة وغريبة ومتزوجة.

كانت إنجا أرفارد تصغر جاي أف كاي بست سنوات وكانت المرأة الوحيدة التي أوشكت على خطف قلبه البارد. وكانت إنجا ستصبح زوجة كينيدي لولا الحرب وتدخل جاي إدغار هوفر. كانت إنجا فتاةً جذابةً وحساسةً وذكيةً وكان سحرها أقوى من عشيقها القادم من ولاية ماساشوستس. كانت ملكة جمال الدانمارك سابقًا وصحافيةً

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٠.

ناجحة في ما بعد، وكانت قد تبعت زوجها الثاني عالم الأنتروبولوجيا وصانع الأفلام الهنغاري بول فيجوس إلى نيويورك. وبعد التحاقها بكلية الصحافة في جامعة كولومبيا، كانت تكتب مقالة لمقابلة في صحيفة واشنطن هيرالد عندما تعرفت إلى كينيدي.

وللمرة الأولى والوحيدة في حياته، أصبح جاي أف كاي مفتونًا تمامًا وأصبح الثنائي حديث الصحافة في واشنطن، ما حمل زوج إنجا الذي كان يغار عليها، على أن يدفع لمحقق خاص كي يلاحقها هي وصديقاتها ويتهمها أمام وكالة التحقيق الفدرالي كعميلة محتملة مع العدو. (كانت إنجا قد حصلت على مقابلات حصرية في الثلاثينيات مع هتلر وعدد من النازيين الرفيعي المستوى في دول مجاورة لألمانيا).

لم تكن الاتهامات تستند إلى أية ركائز، ولكن، حالما بدأت وكالة التحقيق الفدرالي بمراقبة السيدة فيجوس، دق ناقوس الخطر خصوصًا عندما تمّ تحديد هوية الرجل الذي كان يقضي الليلة في شقتها بصفته ابن السفير الأميركي في بريطانيا العظمى. وما زاد الطين بلةً في قضية التحقيق مع امرأة مشتبه في كونها جاسوسة ألمانية محتملة، هو اكتشاف أن الضابط الصغير كان يعمل في مكتب رئيس الاستخبارات البحرية، ما زاد احتمال وقوع فضيحة لم تكن لا البحرية ولا السفير الأميركي في بريطانيا العظمى مستعدين لها، في ضوء معركة بيرل هاربر. عندئذ أُقيل جاي أف كاي فورًا من منصبه في الاستخبارات في واشنطن وأُرسل إلى شارلستون جنوب ولاية كارولاينا حيث أوكلت إليه مهمات التدريب والأمن.

وعلى الرغم من إنذاره بعدم المضي في علاقته مع إنجا، رفض جاي أف كاي التزام هذا الأمر وتوسل إليها لتقبل الزواج به. فكان مغرمًا بها إلى أقصى الحدود وأراد أن يُرزق ولداً منها. وفي هذا الإطار قال محرر الصحيفة التي عملت بها إنجا إن والد كينيدي احتجّ قائلاً: «بحق الله جاك، إنها امرأة متزوجة»، غير أن جاك أجاب قائلاً: «لا آبه لذلك».[1]

حافظ جاي أف كاي على رسائل حبّ إنجا حتى وفاته، كما حافظت هي على

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٠.

رسائله. وأدركت إنجا، خصوصًا بعد أن أخبرها بذلك السفير كينيدي، أن علاقتهما التي اشتعلت في الوقت الذي كانت تواجه البحرية الأميركية أسوأ هزيمة لها في التاريخ كان مصيرها الفشل. بالنسبة إليها، كانت طموحات جاي أف كاي واقعية وقابلة للتحقيق على الرغم من صغر سنه، بفضل شخصيته وذكائه ومواهبه. وأظهرت سجلات علاقتهما الحميمة التي شكلت جزءًا من تحقيق وكالة التحقيق الفدرالي، ليس العلاقات الجنسية المتكررة بين الاثنين بل أيضًا، تمعُّن جاي أف كاي في شؤون العالم وفي سير الحرب المحتمل في المستقبل وفي طموحه أن يصبح رئيس الولايات المتحدة.

وقالت إنجا: «إننا نشكل ثنائيًا رائعاً»، مدركةً أن زواجهما كان أمرًا مستحيلاً وأن كينيدي سيصل يومًا ما إلى الذروة في السياسة. فقالت له: «إذا متُّ قبل أن تصل إلى آخر درجة في سلَّم النجاح، إذًا عزيزي جاك، وإن كانت هناك حياة أخرى بعد الموت كما تؤمن أنت، أكنت في الجنة أم في الجحيم، ستكون هذه هي اللحظة التي أمد لك يدي لأساعدك على المحافظة على توازنك على هذه الدرجة.»[1]

وحتى لو تبع جاي أف كاي قلبه المسحور بدلاً من عقله وتزوج إنجا وسعى لبناء مسيرة مهنية في الكتابة والصحافة السياسية (كما فعل لفترة وجيزة بعد الحرب)، هل كانت إنجا ستتمكن من تغيير شخصيته كزير نساء؟ بالتأكيد، سيشك كاتب السير الحقيقي في ذلك. ولكن كانت إنجا من دون أي شك، المرأة الوحيدة التي قلبت حياة جاي أف كاي «رأسًا على عقب» (كما غنت مارلين ديتريش بشكل فاتن في ذي بلو أنجيل)، والتي كان يغار عليها جنسيًا واصفًا إياها بالمرأة الأخّاذة. كانت إنجا شقراء وسريعة البديهة وعطوفة بطبعها وموهوبة في اللغات وقد سافرت كثيرًا وهي ذات خبرة واسعة في الحياة ولم تكن تخشى الجنس وكانت مفعمة بالأنوثة والجمال وأذابت قلوب الرجال من أصغرهم إلى أكبرهم. كذلك، عذبت «إنجا بنجا» (على ما كان جاي أف كاي يسميها) جاي أف كاي كثيرًا، فقد شكل قراره

(١) تزوجت Inga إنجا الممثل الهوليودي تيم ماك كوي Tim McCoy وعاشت لترى جاي أف كاي يفوز بمنصب الرئاسة واغتياله من ثمّ توفيت هي إثر سرطان بعد الاغتيال بعشر سنوات في العام ١٩٧٣.

ترك منصبه «الآمن» في شارلستون في جنوب كاليفورنيا للتطوع في مهمة حيوية في البحر على الرغم من مرضه المزمن، ردة فعل إزاء معركته للحصول على إنجا وهي معركة لم يكن ليربحها إلا إذا تم تسريحه بلا شرف من الخدمة في البحرية في زمن الحرب وتجاهل تحذيرات والده. ولكن، نظرًا إلى ولائه إلى وطنه وطموحاته، كان هذا الأمر غير وارد بالنسبة إليه.

في جزر سليمان، كان يستمع كينيدي بلا توقف إلى أغاني الحب التي كان يغنيها سيناترا في الراديو المتنقل. كان جاي أف كاي يحلم بإنجا بين مهمة ليلية وأخرى وراء الحدود اليابانية. وكان يبدو غير عابئٍ باحتمال الموت ومسيّرًا وفقًا للحبّ ومستعدًا دائمًا لخدمة وطنه ومتمتّعًا بروح الدعابة التي يسخر بها من نفسه. وعندما حطم زورق الدورية بي تي باصطدامه بالرصيف، عند عودته بسرعة إلى القاعدة بعد إتمام إحدى مهماته، وواجه المحكمة العسكرية بتهمة تعريض ممتلكات الحكومة للخطر بسبب الإهمال، لم يشعر كينيدي بالندم ونقل عنه قوله: «يصعب إيقاف زورق بي تي ١٠٩!»[١]

بالطبع، لم يستطع أحد إيقاف جاي أف كاي بعد علاقته مع إنجا، وفي الواقع كان سلوكه انتحاريًا. وكتب لإنجا ليعبر لها كم يشتاق إلى رؤيتها من جديد قائلاً: «إذا أصابني أي مكروه أؤمن بأني لو حييت حتى المئة سنة لكنت تقدمت في السنّ وليس في الخبرة، تبدو هذه الكلمات حارقةً كالجحيم... باختصار... أنت الشخص الوحيد الذي أقول له هذا الكلام. في الواقع شكل تعرّفي إليك أبرز لحظة في ست وعشرين سنة بارزة».[٢]

وكان زملاؤه يتساءلون دائماً كيف شارك شاب ثري يصاب دائمًا بالمرض ومدلل في الحرب؟ أينما ذهب، كان الناس ينجذبون إليه. فقد تحوّلت شجاعته في إبقاء طاقمه على قيد الحياة بعد غرق زورق الدورية إلى أسطورة. كما أنه أظهر لدى

(١) المصدر السابق، ص. ٥٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص. ٦١٧.

قيادته في وقت لاحق زورقاً من نوع بي تي ٥٩ تحت إطلاق النار، حزمًا أكبر، فضلاً عن ترقيته ليصبح ضابطًا تنفيذيًا محققًا تقييمًا بدرجة ٤،٠ على الأداء والقيادة. ومن ناحية أخرى، صحيح أن جاي أف كاي كان يكتب رسائل حب لإنجا حين كان في المناطق الاستوائية بعيدًا عنها، إلا أن ما بينهما كان قد انتهى. وفي تلك المرحلة، كان يزن ١٤٠ باوندًا فقط وكان شاحب اللون، يكاد لا يقدر على المشي من جراء الآلام في ظهره، وقالت إنجا لابنها في هذا السياق: «كانت حالته زرية».[١]

إلى جانب صحته المتدهورة وتجربة الحرب المخيبة والملأى بخطر الموت، دلت نهاية علاقة كينيدي بإنجا على نهاية البراءة في حياته. فقُتل شقيقه جو جونيور فيما كان يقود بشجاعة قاذفة بحرية في مهمة سرية في إنكلترا في آب/أغسطس ١٩٤٤.[٢] وبعد ذلك قُتل زوج شقيقته كاثلين الشاب النقيب اللورد هارتنغتون في بلجيكا في خلال اختراق للحلفاء من النورماندي.

وفيما كانت إنجا بعيدةً عنه وبعد وفاة شقيقه وزوج شقيقته، راوحت مشاعر جاي أف كاي بين الاكتئاب ونوع من التصميم الهوسي على الاستفادة من كل لحظة في ما يتعلق بهاجسيه: السياسة والنساء. وفي لحظة تهور، وبعد مرور فترة وجيزة على انتخابه عضوًا في الكونغرس، يُقال أنه تزوّج سرًا دوري مالكولم وهي امرأة جميلة وشقراء كانت تشبه إنجا وقد طلّقت مرتين، وهي شخصية بروتستانتية بارزة اجتماعيًا في بالم بيتش.

وإذا كان ذلك صحيحًا، فقد أخطأ كينيدي في التقدير إن ظنّ أن عمله الناجم عن تحدٍ لا مبالٍ سيكون مقبولاً لدى عائلة كينيدي. فقد عانى والده «نوبة غضب ساخطة» بحسب ما قاله صديقه شاك سبالدينغ، الذي أمره جو كينيدي «بإبطال» هذا الزواج في محكمة المقاطعة، فتمَ الأمر بسرعة (في خلال أيام من السجلات المكتوبة بخط اليد).[٣]

(١) المصدر السابق، ص. ٦٣٧.
(٢) المصدر السابق، من ص. ٦٥٨ إلى ص. ٦٦١.
(٣) تشارلز سبلادينغ Charles Splading لقاء مع الكاتب.

وفي رحلة إلى إيرلندا وإنكلترا بصفته عضواً شاباً في الكونغرس، شخّص طبيب الملك سير دانييل دافيس، حالةً مروعةً لدى كينيدي. فبرؤيته بشرة جاي أف كاي البرونزية، شخص الطبيب لديه مرض أديسون في مراحله المتقدمة وتوقّع أن يعيش كينيدي قرابة السنة. وعلى متن سفينة اسمها الملكة إليزابيث في طريق عودته، شعر جاي أف كاي بالمرض ثانيةً وبدا له التشخيص صحيحًا. فتلا عليه كاهن كاثوليكي مسحة الموتى. ولحسن حظ كينيدي، كان طبيب أميركي يدعى جورج ثورن من أوائل من وصف الكورتيزون لمعالجة المصابين بمرض الأديسون. وبسرية كاملة بدأ كينيدي بتناول الأدوية التي وصفها الدكتور ثورن والتي أوقفت المرض لفترة لم يتمكن أي طبيب من تحديدها. وفي العام ١٩٥١، وفي زيارة له إلى اليابان، عانى جاي أف كاي نوبات متكررة من مرض الأديسون وأقيمت له من جديد المسحة غير أنه نجا.

وأصبحت حينئذ لعبة الحياة التي لطالما عاشها كينيدي بتنافس إلى أقصى مستويات المرح، تحديًا خطيرًا، فكيف يصبح سياسيًا حقيقيًا ذا رؤية واضحة، وكيف يخدع الموت مثل أف.دي.آر. بعد إصابته بشلل الأطفال، وذلك ليس بغية تحقيق طموحاته التي حلم بها لوقت طويل فحسب، بل أيضًا لتحقيق حلم عائلته وتمنيات أصدقائه وتوقعات زملائه وآمال الداعمين له الذين تزايد عددهم والذين كانوا يؤمنون بقدرته على القيادة التي كانت جذابة ولو بدت حزينة ومعطلة.

وكما جاء وصف شكسبير للأمير الشاب هال، ألقى جاي أف كاي بنفسه في مسيرة سياسية في واشنطن بعد أن ضمن مساندة ولاية ماساشوستس. وتبين له أنّ السياسة بقضاياها وشخصياتها ساحة قتال من نوع جديد. وميزت الحسابات السياسية كل قرار في حياته حتى الزواج. وفي مقابلة له في أواخر الأربعينيات قال عضو الكونغرس كينيدي إنه يودّ الزواج «بفتاة بيتوتية. بفتاة هادئة تكون زوجةً وأمًا محبة ومتفهمة [للأولادي]. لا يهمّ لون عينيها أو طولها، ما دامت بيتوتية. وعندما أجدها، ستكون حتى السياسة في المرتبة الثانية بالنسبة إلي».[1]

(١) كتاب The Kennedy Men ١٩٠١-١٩٦٣ للورانس ليمر Laurence Leamer.

غير أن هذا الكلام كان مجرّد هراء. فلم يبحث جاي أف كاي عن زوجة مماثلة جديًا، ولم يكن سيسمح يومًا بأن تحل السياسة في المرتبة الثانية، فبعد علاقته بإنجا وزواجه الوهمي بدوري مالكولم، لم يظهر كينيدي أي اهتمام بالزواج. حتى أنه لم يواعد يومًا فتاة «بيتوتيةً» ولا حتى امرأة جديرة. وفي الواقع، زاد قلق والده الذي كان مموله الرئيسي ومبيض أموال وسياسياً عريقاً، فضلاً عن آخرين من بين موظفيه، إزاء سمعته كعابث. صحيح أن زواجه بإنجا المطلقة كان سيقضي على كل تطلعاته الرئاسية (وكذلك الليالي التي أمضاها سرًا مع دوري)، غير أن بقاءه عازبًا كان سيجعله أيضًا مرشحًا ضعيفًا.

وبذلك، خضع جون فيتز جيرالد كينيدي، أجدر العازبين في الكونغرس بعد فوزه ضدّ السيناتور لودج في العام ١٩٥٢، لإلحاح والده وتزوج في السنة التالية جاكي بوفير الكاثوليكية وابنة والدين متطلقين.

كانت جاكي بوفير فتاةً مهذبةً (أُطلقت في المجتمع لأول مرة العام ١٩٤٧-١٩٤٨ في نيوبورت في ولاية رود أيلند) ومثقفة وارتادت جامعة فاسار والسوربون وجامعة واشنطن. وكانت تعمل كثيرًا مصورة صحفية في جريدة واشنطن تايمز - هيرالد، وهو المنصب عينه الذي كانت إنجا أرفاد تشغله عندما قابلها جاي أف كاي. غير أن وجه الشبه بينهما اقتصر على الوظيفة. كانت جاكي أصغر من السيناتور باثني عشر عامًا، ولم تكن جميلة وكانت كتفاها عريضتين ولا تتمتع بأي جاذبية، وكان قياس حذائها عشرة وكانت تركب الخيل ومتكبرة إلى حدّ كبير منذ نشأتها. وكانت مهووسة بما سمته «المال الحقيقي»[1] بصفتها ابنة الزوجة المفلسة لهيو دي أوخنكلوس وارث الشركة النفطية ستاندارد أويل من مزرعة هامرسميث في كونيكتيكات.

لم يبدِ جاي أف كاي أي اهتمام أولي بها. وظهرت قصة حب رومانسية كئيبة وعشوائية في البطاقة البريدية الوحيدة التي أرسلها كينيدي إلى خطيبته فيما كان بعيدًا عنها. وعندما رقص أحد مساعدي جاي أف كاي معها في الزفاف العظيم

(١) أليستار فوربز Alistair Forbes، مقابلة مع الكاتب.

في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٥٣ وسألها متى وقعت في حبّ كينيدي لأول مرة توقفت عن الرقص وأجابت «ومن قال إنني أحبه؟»[١] ولكن عندما صور أحد المصورين جاي أف كاي فيما كان يرقص مع امرأة أخرى جذابة، قيل أنها كانت إحدى عشيقاته، حطمت جاكي آلة التصوير.[٢]

غير أن محاولات جاكي حماية نفسها من حبه كانت فاشلة. فمثل غالبية النساء اللواتي سُحرن به، عشقته، وفي حالتها، أحبته تمامًا كما أحبت رغمًا عنها والدها الضال الذي كان ثملاً لدرجة أنه لم يكن قادرًا على تسليمها لزوجها يوم زفافها. وهكذا بدأ زواج السيد والسيدة جون أف. كينيدي المأسوي.

في سير القياصرة الاثني عشر، وصف سويتونيوس حياة الإمبراطور كاليغولا الخاصة باشمئزاز واضح قائلاً: «من الصعب تحديد ما إذا كانت طرائق زواجه أو إنهاء عقوده الزوجية أو الطريقة التي تصرف بها كزوج هي الأكثر بشاعة.» وبالطبع، كان هناك عدة أوجه شبه محزنة بين تصرفات كاليغولا وجاي أف كاي في إطار الزواج وخارجه. وبحسب الأصدقاء، واعد جاي أف كاي في مرحلة خطبته نساءً أكثر من أي وقت آخر. كما لو أراد أن يثبت أنه لن يتوقف عن ذلك أبدًا. وبالطبع رفض التوقف عن ملاحقة النساء بعد زواجه وكأنه كان يعاقب جاكي لاعتقادها أنهما كانا سيشكلان ثنائيًا حقيقيًا.

في سفراته إلى أوروبا في فترة ما قبل الحرب، فهم جاي أف كاي نظام الفئات الأوروبي، فهو إطار يمكن للأشخاص المتميزين من الطبقات الغنية العليا فيه أن يفعلوا ما يحلو لهم لأي أحد، وراء قناع «التهذيب»، وبحمايةٍ من البنية الاجتماعية الهرمية الصارمة وفي إطار قوانين القدح والذم الملزمة. وقد أعجب جاي أف كاي بهذه اللاأخلاقية لكونه الابن المتميز لمليونير كبير، ولطالما فسرت أخلاقه تهوّره في حياته الخاصة. ومقابل تقدير زوجته الصادق والكبير لكل ما كان أوروبيًا كالألبسة

(١) جايمس ريد James Reed، مقابلة مع الكاتب.
(٢) جايمس ريد James Reed، مقابلة مع الكاتب.

والمأكولات والتاريخ الأوروبي، كان جاي أف كاي وبقي أميركيًا أصيلاً في ذوقه واهتماماته وفوق كل ذلك في نظرته العنيفة إلى الحياة. فكان يحب الرياضات التنافسية ككرة القدم الأميركية والتجذيف والغولف. وكان يحب الرقص وعالم الفن والاستعراض، وقد شاطر السرير في برودواي وهوليوود بفخر مع نجمات الشاشة الفضية في مسيرته المهنية أكثر من أي ممثل آخر، ومن بينهن جين تييرني وغرايس كيلي وجاين مانسفيلد ومارلين مونرو. ولأنه لم يكن واثقًا كم سنة سيعيش أراد أن يعيش الحياة إلى أقصى الحدود أكان على الصعيد السياسي أو الملذات الشخصية، وهذا ما فعله في الحقيقة. وقالت غلوريا إميرسون في وقتٍ لاحق بصفتها صحفية صديقة له إنه «كان يمشي نصف عارٍ في حفلات نهاية الأسبوع سوى منشفة يلفها حول خصره، مبرزاً عظامه وضلوعه وساقيه. عليك أن تتمتّع بثقة عالية بالنفس للقيام بعمل مماثل. لم أقابل يومًا شخصًا مثله بكل ما لديه من جرأة وقوة وقلة صبر وفظاظة. كان رجلاً غير مستعد للانتظار، رجلاً سيحصل على كل ما أراده. وكان سينتقل من مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ ليصل إلى البيت الأبيض. وكان ذلك مثيرًا جداً».[١]

وفي العام ١٩٥٤، تزوجت بات شقيقة كينيدي بالممثل بيتر لاوفورد، الذي سهل علاقة كينيدي المقربة من فرقة سيناترا الفنية التي عرفت «برات باك». وعلى الرغم من أنه اضطر كرئيس للجمهورية إلى رفض وجود سيناترا وعربدته العارية قرب المسبح، خشيةً أن تتسرب الأخبار في الصحف، لكن تهوّر جاي أف كاي لم يقل البتة. احتقر كينيدي تباهي جاكي الاجتماعي والفني (حملت لقب «المفوضة» في عائلة كينيدي)، ولم يتحمل تقلب مزاجها عندما كان يعاني ألمًا مستمرًا. واقتصرت حياته في العام ١٩٥٣ على أمرين: اللهو الجنسي أو التعهد السياسي الجاد والتنافسي، غير أن جاكي لم تكن قادرةً على توفير أي منهما لزوجها نظرًا إلى اختلاف شخصيتيهما. (فكانت تقول: له «اعذرني يا جاك لأنني فاشلة إلى هذه الدرجة»[٢]). لطالما

(١) كتاب The Dark Side of Camelot لسيمور هيرش Seymour Hersh، ص. ٢٢.
(٢) كتاب The Crisis Years لـBeschloss، ص. ٤٧٣.

كان غير مبالٍ بالنساء بقسوة، باستثناء إنجا التي حطمت قلبه. والآن كان يفجر ألمه لجاكي التي أُجبر على الزواج بها لدواعٍ سياسية وعائلية. فكان زفافهما وشهر عسلهما وزواجهما بنظره كذبةً تمامًا كزواجه الأول، أي مجرّد ادعاء.

أما بالنسبة إلى جاكي فكان ذلك أكثر مما تمنت. وبحلول العام ١٩٥٩، بحسب ما نُقل فيما بعد، تحولت مشاعرها من الحبّ إلى اليأس، وكان ذلك أمرًا معلومًا نظرًا إلى سلوك جاي أف كاي. اعتنت به بعد العمليات الجراحية في ظهره ولكن لم تحصل على الكثير في المقابل، إذ أجبرت هي وأهله وأقرباؤه وأصدقاؤه على القسم على عدم البوح بحقيقة حدة مرضه وكثرة معاشرته للنساء. وبعد أن قلق جاي أف كاي خوفاً من تسبب الأمراض المنقولة جنسيًا بعدم قدرته على الإنجاب، قام باختبار الخصب الذي كانت نتائجه إيجابية. غير أن جاكي كانت قد أجهضت مرةً وبالطبع توخت الحذر عندما أصبحت حاملاً في العام ١٩٥٦ في إبان اتفاقية شيكاغو الديمقراطية. وفور انتهاء الأعمال السياسية، سافر جاي أف كاي إلى أوروبا من دون جاكي واختفى بعد أن استأجر سرًا يختًا في البحر المتوسط مع شقيقه والزميل ويليام تومسون زير النساء والغني، «للاسترخاء» مع شابات. وعندما نزفت جاكي ومات الجنين في أميركا، تابع كينيدي رحلته، ولم يعد إلى الوطن إلا بعد أن اتصل به جورج سماثرز صديقه في مجلس الشيوخ وتلا عليه قانون الشغب. ومن ناحية أخرى، لم يكن غريباً أن تطالب جاكي في نهاية المطاف بالطلاق، وكما قيل، طالبت بمبلغ مالي من «ممولها» جوزيف بي كينيدي، كشرط لتتنازل عن طلب الطلاق ولتبقى زوجة السيناتور طوال فترة الحملة الانتخابية في العام ١٩٦٠. كان جوزيف كينيدي ضامناً انتخاب ابنه غير أنه أدرك أنّ هجران جاكي لزوجها كان سيقضي على فرصته بالفوز في الانتخابات، فوافق بالتالي على دفع المبلغ.

وفور فوز كينيدي في الانتخابات، التزمت جاكي الاتفاق. غير أن جاي أف كاي لم يكن قد قام بأي اتفاق بشأن سلوكه. وعندما سأله مساعده وكاتب خطبه ديك

غودوين عما إذا كانت الرئاسة في البيت الأبيض تضيّق على حبه لمعاشرة النساء نظرًا إلى ضغط وسائل الإعلام، ابتسم الرئيس ابتسامة عريضة وهزّ رأسه نفيًا وقال: «لم يكن ذلك يومًا أسهل مما هو عليه هنا يا ديك!»(١)

أنجبت جاكي لكينيدي ولدين يتمتعان بصحة جيدة ، هما فتاة في العام ١٩٥٧ وصبيّ في العام ١٩٦٠. وفي البيت الأبيض كسبت تقديرًا كبيرًا إذ صنعت لنفسها دورًا جديدًا بصفتها السيدة الأولى. على خلاف إليانور روزفلت التي كدحت للدفاع عن حقوق المرأة وحقوق الفقراء، وعلى خلاف بيث ترومان الخجلى التي بقيت بعيدة عن الأضواء تحت مراقبة والدتها، ولم تتطلع إلى تناول العشاء أمام التلفاز مع زوجها عند عودته من المكتب البيضوي إلى القسم العائلي، مثل مامي أيزنهاور. ولكن، جهزت جاكي نفسها لكي تصبح ليس أمًا لولدين في البيت الأبيض وحضانتهما فحسب، بل لأن تصبح أيضًا عميدةً شابة جذابة في الصور وأنيقة في لباسها ومقدرة للتاريخ الثقافي، ورحبت بشخصيات أجنبية وفنانين وديبلوماسيين عند استقبالهم في البيت الأبيض، ككليوبترا القرن العشرين، فيما زينت العقار الريفي غلين أورا بذوق مخفي، وهو عقار استأجرته في نادي الخيول في فيرجينيا حيث كانت تحب ممارسة صيد الثعالب.

وبازدياد حنان كينيدي بعدما أصبح أبًا، بات سلوكه تجاه جاكي أكثر رقة، حتى ولو لم يتغير خارج نطاق زواجه. وفيما أصبحت جاكي شخصيةً معروفةً بمفردها كسيدة البلاد الأولى، بدأ يقدّر أسلوبها وقال في باريس في طريقه إلى فيينا كلمات حفرت التاريخ: «لست سوى الرجل الذي يرافق جاكلين كينيدي إلى باريس».(٢) وشكل روح الفكاهة لديه والسخرية من نفسه وحكمته إلى جانب ذوق جاكي الرفيع في الموضة والاحترام الذي فرضته، ثنائيًا خلابًا، وخصوصاً في صورهما أو أفلامهما مع ولديهما (التي لم تقبل جاكي أن يصوّرها إلاّ مصورون ذوو ذوق رفيع كريتشارد أفيدون).

(١) ريتشارد أن غودوين Richard N. Goodwin للكاتب.
(٢) صحيفة نيو يورك تايمز New York Times في الثالث من حزيران/يونيو ١٩٦١.

ووراء الواجهة الأنيقة، وجد كينيدي نفسه وسط منافسة في منصبه كرئيس أكبر مما توقع، وبحاجة أكبر إلى تناول الأدوية الطبية والجنسية. وكلما زادت المسؤولية في الرئاسة كبر إدمانه وقلق موظفيه خصوصاً بعد أن خرج والده من الصورة لإصابته بجلطة. وبدا وكأنّ ملابس جاكي الأنيقة وتجميل أظفارها (كانت تهمس عند تكلمها مع أشخاص ترغب في خداعهم)، عززا رغبة كينيدي في «الانتقام» من أولئك الذين أذعنوا لمنطق النخبة والتكبر. ففي مرحلة الطفولة، كان إصرار والدته روز الباردة على تقليد تصرفات الأشخاص من الطبقات العليا وهوسها بأفضل مصمّمي الأزياء يثير غضب كينيدي، وتكرر ذلك عندما أصبحت كل من جاكي وروز تتنافسان في لقب «المرأة الأكثر أناقةً في أميركا». وعلى الرغم من التعاطف الذي أبداه طوال حياته، لم يفهم كينيدي أن هذه الادعاءات كانت مجرّد ردة فعل على خيانة زوجيهما.

وكلما تأنقت جاكي، خلع كينيدي ملابسه، حتى أنه كان يستقبل زواره وهو عارٍ، مثل ممرضة والده بعد الجلطة. وقالت ريتا دالاس في هذا السياق: «كلّ ما كنت أفكر فيه هو ماذا أمكنني أن أقول لرئيسٍ عارٍ؟» وأخبرت كيف ألقت إليه منشفة إلى الحمّام وقالت له: «تستر بحق الله».[١] خبأ هذا المرح مشكلة أعمق وشبه مرضية انعكست في قلة حسه للياقة في التكلم مع الآخرين في حياته الخاصة. أما في العلن، فكان معروفًا بفصاحة كلامه السريع والذكي، التي زاد كاتب خطبه تيد سورينسين من حدتها، مضيفًا نفحة ساميةً، ولكن بعيدًا عن الإعلام، وبعد أن كان ينفد صبره من الأشخاص الذين كانوا يضجرونه أو يمرون عليه أو يخيبون أمله، كان كلامه يُمطر تعابير نابية بذيئة فكان يكرر من دون توقف كلمات مثل «حقير» و«تبًا» و«أخرق» و«نذل» و«ابن العاهرة».[٢] كان كينيدي خطيبًا يتمتّع بذاكرة صورية واشتهر بقدرته على حفظ المعلومات وتلخيص جوهرها. وفيما كان عمله سريعًا وملهمًا وواقعيًا وذكيًا ورؤوفًا، كان كينيدي يرى أن حياته الخاصة هي ملكه

(١) كتاب Forty Ways to Look at JFK لغريتشين روبن Gretchen Rubin، ص. ١٨٥.

(٢) بن برادلي Ben Bradlee لقاء مع الكاتب.

وكان له الحرية ليفعل بها ما يشاء. وكل ما أراده هو التخلص حرفيًا من زي الرئيس والاستمتاع بالعراء و«المرح» في مسبح البيت الأبيض أو في بيت العائلة الصيفي في بالم بيتش.

ولكونه الرئيس، كانت وكالة المخابرات السرّية قادرة (ومجبرة) على أن تحمي حياته الخاصة، حتى في الأوقات التي رأت فيها بدهشة زعيم بلد الحرية يجازف ويخاطر ويتصرف في غياب زوجته كمراهق في غياب والديه. فأصبح العاملون في البيت الأبيض قواده، يرافقون «عشيقاته مجهولات الهوية» إلى البيت في غياب جاكي من دون تسجيل أسمائهن أو تكلف عناء إخضاعهنّ للإجراءات الأمنية على المدخل. فبات مسبح البيت الأبيض يشبه الحمّام الروماني، وأجبر رجال الخدمات السرية على إبقاء مشاهد العربدة بعيدًا عن المجرمين وعن الإعلام.

وسألت إحدى صديقاته الأرجنتينية التي عرفت كينيدي منذ سن التاسعة عشرة، بعد أن شعرت بالأسى حيال الفضائح المتعلقة «بعشيقات» كينيدي اللواتي بلغ عددهن المئات، من بغايا المافيا مثل جوديث كامبيل إلى الفتيات المتحدّرات من عائلات من الطبقة العليا، «هل كان سيئًا إلى هذه الدرجة؟ وكيف كان يجد الوقت؟»(١)

وربما يكمن الجواب عن السؤال الأخير في أن علاقات الرئيس مع كل من عشيقاته لم تدم طويلاً. وحتى جاكي تذمّرت من أن كينيدي لا يعرف شيئًا عن المداعبة، بحسب ما قالته عالمة النفس الخاصة بها، بعد وفاتها. ويبدو أن الرئيس لم يكن مهتمًا بالحب الحميم الذي بقي مدينة بعيدة أو محرمة بالنسبة إليه. وفي نطاق السياسة العامة كالفقر أو التخلف العقلي أو الاضطهاد العرقي، أظهر كينيدي انفتاحًا وفضولاً وتعاطفًا وعزمًا على إحداث التغيير من خلال الشجاعة السياسية. غير أنه أصبح شديد الإدمان على اللهو بعد ساعات العمل، مع تقدّمه في السن ومتابعته خداع الموت إلى درجة أنه لم يقدر أن يُقلع عن ذلك. فكانت حياته الخاصة منطقة

(١) Anna ‘Chiquita’ C’arcanos مقابلة مع الكاتبة.

يُحظر حتى على أقرب أصدقائه الرجال الذين تعجبوا من التناقض في شخصيته الدخول إليها، ولم يستطيعوا ردعه. فبذلك أظهر في حياته المهنية آدابًا وعقلانيةً فيما تجاهل في حياته الخاصة الخطر وربما تجاهل أيضًا الأخلاق. وفي ختام غداء خاص مع صديقه تشاك سبالدينج في جناح كينيدي في فندق كارليل في نيويورك، سأل كينيدي صديقة سبالدينج الجديدة ما إذا أرادت دخول غرفة النوم معه «للتحلية» فقبلت. وعندما تذكر سبالدينج الحدث بعد ثلاثين عامًا، لم يستطع أن يفسر لماذا لم يمنع كينيدي أو طالب بحقه كسيدها حينئذ أو بعدها قائلاً: «لم أمنعه.. هذا ما كان عليه»[١]. فقد كان كينيدي الرجل الذي أحبه كصديق.

وربما يكون هذا جوهر المسألة. ففيما بدا كينيدي عاجزًا بعد علاقته بإنجا عن الخوض في علاقة حب متبادل ورعاية ، لم يتوقف الناس من كلا الجنسين عن محبته. وكان جواب جاكي مماثلاً لجواب سبالدينج. فكانت تسمّي كينيدي «الأرنب» لحاجته المستمرة إلى ممارسة الجنس، وكانت تقدم لزوارها مساعدتها البالغة من العمر الثالثة والعشرين قائلةً: «هذه الآنسة تورنور التي يشاطرها زوجي السرير.»[٢] كما تم توظيف بريسيلا وير وجيل كوان كمساعدتين في الحملات وهما تبلغان اثنين وعشرين عامًا ، وتم تسجيلهما في عداد موظفي البيت الأبيض كمساعدتين، غير أنهما عرفتا «كفيدل» و«فادل» المسؤولتين عن خدمة الرئيس عند استدعائهما. فكانت جاكي تقدمهما أيضًا إلى زوارها كـ«فطائر زوجي». وعندما أعلنت بريسيلا أنها أرادت أخذ دروس في الطباعة سألها الرئيس «لماذا هل أصبحتِ طموحةً؟»[٣]

كانت مضيفات الطيران والصحافيات والفنانات والأمهات والزوجات (كماريلا أغنيلي، زوجة مدير شركة سيارات الفيات) اللواتي وقعن في سحر كينيدي، تجهلن غالبًا، كزميلة شقيقة جاكي لي في الصف، هيلين شافشافادزي، أنه كان يواعد نسوة أخريات في الوقت عينه. وقالت عنه هيلين في وقت لاحق: «كان أمرًا إلزاميًا وشكل

(١) تشارلز سبلادينغ Charles Splading لقاء مع الكاتب.
(٢) كتاب Forty Ways to Look at JFK لـ Rubin صفحة ٢٣٩.
(٣) المصدر السابق.

نقصًا في شخصيته. كان يخرج على السيطرة».[1] أما مساعده السياسي فريد دوتون مشبهه «بإله يمارس الجنس مع أية واحدة حينما يشاء».[2] وحتى جاكي راحت تدبر له سراً شابات على غرار ماري ماير وروبين باتلر وفيفي فيل وماري غمبل، لإرضاء زوجها حول مائدة الطعام. وكما قالت هيلين شافشافادزي: «كانت جاكي مسؤولة» في قصر الحريم، وفي الواقع صححت جاكي في نادي دوبلداي للكتب كتابًا عن الحريم في الشرق وقالت «إن اختيار عشيقاته هي عادة فرنسية».[3] غير أن ميول الرئيس للجنس الجماعي كانت أقل فرنسيًا وأكثر رومانيًا وربما كان تدبير الشركاء بمنزلة تجارة وتعزيز للمتعة، فكان الجنس مجرّد وسيلة تسلية أي بعبارة أخرى لم يكن شبيهًا بالحب الذي كان أمرًا مختلفًا ومدفونًا مع الماضي.

وعلى الرغم من أنّ الخيانة في حياة كينيدي الخاصة أدهشت المساعدين الجدد وعاملي المخابرات السرية، لم «يخن» أحد منهم الرئيس، إذ لم تؤثر حياته الخاصة في أدائه في البيت الأبيض، والعكس صحيح. فبعد سذاجته عند تولي الرئاسة في البداية، كبُرت ثقة الرئيس أكثر فأكثر بدوره الاستثنائي كقائد لبلد الحرية ومدبّره كما تجلّى في توليه أزمة الصواريخ في كوبا.

هل كان الأمر إذًا كما اعتقدت جاكي، أي الخوف الدائم من الضجر بإضاعة الساعات الثمينة خارج العمل في حياة عرف منذ البداية أنها ستكون قصيرة؟ أكان هذا هو ما فسّر تهوره في الرئاسة؟ هل كان السعي وراء الشابات والتخطيط والمنافسة المستمرة في العلاقات الجنسية مع شابات جميلات مجرد مخرج ولو موقت من الألم الحاد والتقدم في السن والاكتئاب؟ هل كان ذلك في البيت الأبيض وسيلة تجريبية ومُثبتةً للتخلص من التوقعات العالية والأعباء التي تُثقل كاهل الرئيس؟

مهما كانت الأسباب التي دفعت كينيدي للتعرض للمخاطر، فلا بد من أنه

(١) كتاب Grace and Power: The Private World of the Kennedy White House لسالي سميث Sally S. Smith ١٤٣.

(٢) كتاب President Kennedy لـ Reeves، ص. ٢٩١.

(٣) كتاب Grace and Power لـ Smith، ص. ١٤٣.

تمادى بها ومن أنها كانت عميقة، وعميقة جدًا وتتطلّب منه تأييدًا عاجلاً للإصلاح. كما كانت عشيقاته أقل من يتذمر، فقد نشأن في زمن «كان يفترض بالنساء أن يتنافسن في الحصول على أفضل رجل وبطريقة ما لم أشعر يومًا أن سلوكي كان غير أخلاقي أو فظيعاً» هذا ما قالته إحدى العشيقات الشابات(١) التي كانت في العشرين من العمر والتي كانت «تتناول العشاء في البيت الأبيض» تليه ممارسة الجنس «في غرفة نوم أبراهام لينكولن».(٢)

وتساءل الكتاب في السنوات التالية، إلى متى كان سيبقى هذا السلوك بعيدًا عن الإعلام. فبالطبع، عرّض هذا السلوك الرئيس للفضائح، وبالفعل في خريف العام ١٩٦٣ حذّره أصدقاؤه ذوو النية الحسنة من الفساد المالي في صفوف فريق عمله الخاص في البيت الأبيض، واختار عدم التحقيق في الفساد أو السيطرة عليه خوفًا من أن يتهمه المتهمون بمخالفات أخرى فاضحة.(٣)

وفي جميع الأحوال، لم يتخل كينيدي قط عن حبه الأول، أي السياسة. وكان مصممًا على الترشح لولاية ثانية في العام ١٩٦٤ والفوز بالأغلبية الساحقة. وبذلك، أقنع جاكي بمرافقته إلى فورت وورث في تكساس في الواحد والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣ ، لحشد التأييد للحزب الديمقراطي. وقد قال مرةً لكلير بوث لوشي: «أعجز عن النوم من دون ممارسة الجنس».(٤) غير أنه أراد أن ترافقه جاكي على الرغم من أنه بحسب أحد وكلاء المخابرات السرية «لم يكن يمرح عندما كان مع جاكي. ولطالما كان يعاني صداعًا. كنت تراه متخاذلاً بالفعل من دون ممارسة الجنس. لقد كان أشبه بديكٍ رشق بخرطوم مياه.»(٥) غير أنه كان سعيدًا بموافقة جاكي على مرافقته إلى ما كان يدعوه «بلاد الجوز»، مدركاً أنها لم تحب القيام

(١) كتاب The Dark Side of Camelot لـHersh، ص. ١٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٨.
(٣) المصدر السابق، من ص. ٤٤٢ إلى ص. ٤٤٦، بالإضافة إلى بول كوربن Paul Corbib إلى الكاتب.
(٤) كتاب Forty Ways to Look at JFK لـRubin ص. ٢٤١.
(٥) كتاب The Dark Side of Camelot لـHersh ص. ٢٣٨.

بحملة ومقابلة «عامة الشعب» الذين كانوا ينادونها «جاكي» بدلاً من الاسم الذي فضلته «جاكلين».[١]

وفي اليوم التالي في الثاني والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، سافر الرئيس والسيدة الأولى إلى لاف فيلد خارج دالاس حيث استقلا سيارة الليموزين المكشوفة وتوجها إلى وسط المدينة حيث أقيمت حفلة غداء يباع فيها الطبق بمئة دولار، لجمع التبرعات في ترايد مارت. وكانت هذه المرة الأولى منذ حفلة التنصيب في العام ١٩٦١، التي تزور فيها جاكي القسم الغربي من منزلها في غلين أورا في فيرجينيا، مع أنها قامت بعدد من الرحلات إلى الخارج، بما فيها رحلة لمدة شهر إلى أوروبا حيث كانت ضيفة في منزل أرسطو أوناسيس.

وفيما ابتسم كينيدي بابتهاج للجمهور آملاً أن يصوت المئتا ألف شخص المقدرون للحزب الديمقراطي في انتخابات العام المقبل، لم تستطع جاكي أن تظهر ابتهاجًا مزيفًا وأصرّت على أن تضع نظارات شمسية سوداء، كما لو كانت زوجة ديكتاتور من أميركا الجنوبية. فطلب كينيدي إليها أن تخلعها لكي يراها المهنئون بطريقة فضلى.

فخلعت جاكي النظارات غير أن الشمس أحرقت عينيها فوضعتها من جديد. فقال لها الرئيس من جديد: «جاكي اخلعي النظارات!» وكانت هذه كلماته الأخيرة لها. فبعد أن انطلقت سيارة لينكولن كونتيننتال المكشوفة (كان قد رفض أن يركب سيارة مغلقة بدلاً منها) بعد أن أبطأت حول المنعطف اليميني في مقاطعة ديالي بلازا، سُمع دوي إطلاق نار. كان الرئيس قد قال في وقت سابق: «إذا أراد أحدهم أن يطلق النار علي ببندقية طويلة من النافذة فلا يستطيع أحدٌ إيقافه».[٢] وقد كان على حق. فقد اخترقت الرصاصة المصوبة من الأعلى عنقه. والطلقتان الأخريان جعلتا الجريمة أكثر شناعةً، مودية بحياة آخر القياصرة العظماء.

(١) كتاب Perret لـ Jack ص. ٣٩٧.

(٢) المصدر السابق.

الفصل الخامس

ليندون ب. جونسون

الذي لُعن في مرحلة لاحقة

ديمقراطي

الرئيس السادس والثلاثون

(الثاني والعشرون من تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٦٣ -

العشرون من كانون الثاني/يناير من العام ١٩٦٩)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

أبصر ليندون بينيس جونسون النور في السابع والعشرين من آب/أغسطس من العام ١٩٠٨ في كوخٍ مؤلّفٍ من غرفتين يقع على ضفاف نهر بدرنالس، وهو أحد الروافد الصغيرة والموحلة التابعة لنهر كولورادو، في منطقة هيل كونتري التي تبعد خمسة وستين ميلاً عن مدينة أوستن، في ولاية تكساس.[١]

كان والد ليندون، سام إيلي جونسون الابن، تاجرًا يعمل في بورصة القطن، وهو قد خسر كل ما لديه ولم يعد يملك سوى ما يستر به عورته. أما والدته، ريبيكا بينيس جونسون، فقد كانت امرأة متديّنة تحمل شهادةً جامعية في الصحافة وتعشق الأدب والشعر والأحلام. وقد عُرفت عائلتها بتاريخها العريق في المجال السياسي والتبشير المعمداني، فوالدها محامٍ شغل منصب وزير خارجية تكساس، وأفلس.

عاش ليندون السنوات الخمس الأولى من حياته في منطقة ريفية فقيرة حتى قررت عائلته أخيرًا استئجار منزلٍ في مدينة جونسون سيتي والانتقال إليه. وهناك، عمل والده في مجال السمسرة العقارية، وقد سبق أن تم انتخابه كعضوٍ في المجلس التشريعي لمدينة أوستن وأعيد انتخابه ثلاث مرات بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. وعلى الرغم من كل ذلك، بقيت عائلة جونسون تفتقر إلى المال ومنزلها يفتقر إلى أدنى متطلبات الإمدادات الصحية.

كانت ريبيكا تتمتع بعزمٍ وإرادة، وهي كانت تحرص في غياب زوجها على إبقاء بكرها في السرير بجانبها. فقد بقي ليندون، الفتى الذكي، صاحب الجسم النحيل والطباع الجامحة، ابنها المفضل بين أطفالها الخمسة.

---

(١) كتاب The Years of Lyndon Johnson: The Path to Power للكاتب والصحفي روبرت كارو Robert Caro (نشرته دار نشر knopf في نيويورك) الصادر في العام 1982، ص. 52.

عندما بلغ ليندون الخامسة عشرة من عمره، هرب مع مجموعةٍ من أصدقائه للعمل في كاليفورنيا لمدة عام. لكن أشهرًا قليلة أمضاها في العمل الشاق في مجال بناء الطرق السريعة في مناطق تكساس الريفية كانت كفيلةً بالنسبة إليه ليدرك أن العلم شرطٌ أساسي لتسلّق سلّم النجاح في الحياة. لذلك، التحق بجامعة «سان ماركوس» في جنوب غربي تكساس حيث كان يعمل ويدرس في آن، فحصل بعد عامين على شهادة في التعليم، ثم تابع تحصيله العلمي لفترة أربع سنوات تكللت بحصوله على إجازة في مادتي التعليم والتاريخ. ولتسديد قسطه الجامعي، عمل مساعداً لمدير الجامعة، ثم أصبح بنفسه مديرًا في مدرسةٍ ريفية صغيرة أميركية مكسيكية. وقد اكتسب من هذه التجربة عزمًا وإصرارًا خالدين للدفاع عن الفقراء والمظلومين والمضطهدين بسبب التمييز العنصري. وفي العام ١٩٣٠، عمل كمدرّسٍ ثانوي في هيوستن.

عُرف جونسون في مراهقته بـ«المشاغب الذي لا يمكن تأهيله»، إلا أن الاندفاع الاستثنائي الذي أظهره لطلابه في المدرسة الأميركية المكسيكية، ثم في ثانوية هيوستن، كان خير دليلٍ على حس المسؤولية الكبير الذي يتمتع به والطموحات الواسعة لديه التي تتخطّى حدود غرفة الصف. وقد عمل جونسون في شبابه مع والده في المجلس التشريعي في أوستن حيث نشأ لديه ولعٌ بالديمقراطية، هذه الديمقراطية التي كانت تترعرع وسط مناخ مخملي ويتم التعبير عنها بالتقاليد والخطابة والتفاصيل القانونية، بالإضافة إلى التاريخ الذي يتمّ الاستشهاد به باستمرار والمقايضات السياسية التي تُحاك خلف الأبواب المغلقة. وعندما التُمست منه المساعدة على إدارة حملة أحد السياسيين المحليين الذي رشّح نفسه للمجلس التشريعي، عرض خدماته ليكون مدير الحملة. وفي العام ١٩٣١، طلب إليه الانتقال إلى واشنطن دي. سي أو العاصمة ليكون أمين سر لعضو الكونغرس ريتشارد كليبير من تكساس.

لم يشهد تاريخ الكونغرس على رجل عشق العمل اليومي في كابيتول هيل بقدر ما فعل ليندون بينيس جونسون لدى وصوله إلى واشنطن. فقد شكّل منذ البداية ظاهرةً مميّزةً، إذ كان يُبدي طاعةً تامة في خدمة رؤسائه واستبدادًا شديدًا في توجيه مرؤوسيه. كما أنه أعاد إحياء مجموعة مناظرة كانت مثل كونغرس مصغّر وترأسها وهو لا يزال

في سن الثالثة والعشرين. وفي الرابع من آذار/مارس ١٩٣٣، شارك في حفلة تنصيب الرئيس روزفلت وقد كان يراوده حلم واحد، وهو اعتلاء تلك المنصّة يومًا ما كرئيس للجمهورية بدلاً من مجرّد أمين سر. فقد كان هذا المساعد المبتدئ في الكونغرس الذي يكتفي بأربع إلى خمس ساعاتٍ من النوم ليليًا مصابًا بوهم عظمةٍ توازي عظمة نابوليون إلى حد أنه ترشح لرئاسة «جامعة تكساس للفنون والصناعات» في مدينة كينغزفيل في جنوب تكساس. وفي حين رُفض طلبه لكونه بعيد المنال، عُرِضت عليه وظيفة براتبٍ يبلغ عشرة آلاف دولار أميركي سنويًا كعضوٍ في مجموعة ضغط تابعة لشركة «جينيرال إلكتريك». وما كاد جونسون يقبل العرض حتى أعلن روزفلت في السادس والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٣٥ تشكيل «إدارة شباب وطنية» جديدة بموجب قرار تنفيذي. كما تم إعلان تعيين مدير لكل واحدة من الثماني وأربعين ولاية وتخصيص ميزانية قيمتها سبعة وعشرون مليون دولار أميركي.

لم يتوانَ جونسون في انتهاز الفرصة، وبمساعدة معلّمه سام رايبرن، وهو عضو الكونغرس من ولاية تكساس، تمكّن من إقناع فرانكلين روزفلت بسحب تعيينه لرئيس اتحاد واسع الخبرة لإدارة ولاية تكساس وتعيين ليندون جونسون البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا في هذا المنصب في أوستن.

أصبح جونسون أصغر مديرٍ على الإطلاق لبرنامج العهد الجديد في أميركا وتزوّج في العام ١٩٣٤. وفي وطنٍ يضمّ عشرين مليون شخص يعتاشون من الإعانة الحكومية، وجد جونسون أنّ منصبه لا يوفر له إمكانية مساعدة مئة وخمسة وعشرين ألف شاب فقط من تكساس على الحصول على التوجيه اللازم والعثور على عمل (وبالتالي على التمويل الجامعي)، بل أيضًا فرصةً لإثبات نفسه كقائد ناجح. ولم يفوّت عليه هذه الفرصة. ففي العام التالي، قامت إلينور روزفلت بزيارة إلى ولاية تكساس التي تشكّل تُسع المساحة القارية للولايات المتحدة، وطلبت مقابلة المدير الشاب الذي «يؤدّي عملاً ممتازًا».[١]

(١) كتاب Lone Star Rising: Lyndon Johnson and His Times, ١٩٠٨-١٩٦٠ للمؤرخ روبرت دالاك Robert Dallak، ص. ١٤٣.

في الواقع، كان جونسون قد بدأ في ذلك الحين بالتخطيط للبروز في حملته الانتخابية. فلا شك في أن حصوله على مقعدٍ في مجلس الشيوخ في تكساس كان أمرًا مغريًا في البداية، إنما كان لجونسون تحفظاته عنه. فقد سبق له أن وعد زملاءه في الكابيتول في واشنطن أنه سيعود يومًا ما بصفته عضوًا في الكونغرس. وفي شهر شباط/فبراير ١٩٣٧، نجح في انتخابات استثنائية لمجلس النواب الأميركي عن مقاطعة تكساس العاشرة. وبذلك، لم يصبح جونسون العضو الأصغر سنًا في الكونغرس فحسب، بل حظي بفرصة لقاء رئيس الجمهورية الذي كان يزور مدينة غالفستون في رحلة على متن اليخت الرئاسي في خليج المكسيك في خلال الربيع والذي طلب مقابلة النابغة الديمقراطي الشاب. فتقدّم عضو الكونغرس المنتخب حديثًا نحو الرئيس روزفلت «باندفاع القطار الذي يشق طريقه»، كما وصفه الرئيس نفسه لاحقًا، ليلقي عليه التحية على الشاطئ. كما رافق جونسون الرئيس في اليوم التالي في طريقه إلى كينغزفيل، ومن هناك إلى فورت وورث. وما إن عاد الرئيس إلى واشنطن حتى أوصى المخطِّط الإستراتيجي الرئيسي لديه، واسمه تومي كوركوران، قائلاً: «لقد تعرّفت إلى شابٍ مذهل نال إعجابي، وأريدك أن تمدّه بكل ما تقدر عليه من المساعدة». فصرّح كوركوران[١] بعد مضي عدة سنوات قائلاً: «كل ما تطلّبه الأمر كان رحلة على متن قطار».[٢]

حقق عضو الكونغرس جونسون نجاحًا باهرًا في إدخال مشاريع «إدارة تطوير الأعمال» والإسكان وتزويد المناطق الريفية الكهرباء إلى المقاطعة التي يمثلها في تكساس حتى أن الرئيس روزفلت طلب إليه أن يتولى رئاسة «الإدارة الكهربائية الريفية». وعلى الرغم من أن جونسون رفض العرض، لم تنفك علاقته بالرئيس تزدهر في الأعوام التالية لتحقيق مصلحة الفريقين. فقد كان روزفلت يحيل عقودًا عسكرية ضخمة على جونسون في تكساس، فيحيلها جونسون بدوره على شركة «براون أند

(١) كتاب The Years of Lyndon Johnson: The Path to Power للكاتب والصحفي روبرت كارو Robert Caro، ص. ٤٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٤٩.

روت» التي تموّل حملات دعم تكساس لروزفلت وبراون لليندون. وازدادت ثقة جونسون بنفسه إلى حدّ أنه كان يستطيع اقتحام مجلس الشيوخ الأميركي. فعندما توفي السيناتور موريس شيبارد من جرّاء نزيفٍ دماغي في نيسان/أبريل من العام ١٩٤١، وبُعيد تسلّم روزفلت الرئاسة للمرة الثالثة، خاض عضو المجلس الشاب، ابن الاثنين والثلاثين عامًا القادم من خلفية ريفية، معركةً قاسية ضد خصمه الديمقراطي أيضًا، الحاكم «بابي أودانييل» القادم من تكساس.

أمضى جونسون حياته العملية برمّتها وهو يسعى إلى تحقيق أهدافه من دون أن يسمح لأي عائقٍ أن يقف في طريقه. بيد أنه ليلة الانتخابات قام بخطوةٍ غير حكيمة إذ أعلن أمام الجميع أنه متفوّق على خصمه بفرق بسيط. ثم توجه جونسون إلى غرفته في فندقٍ في مدينة جونسون وخلد إلى النوم، حيث قامت والدته ريبيكا الفخورة به بحراسة باب غرفته لتمنع عنه المتطفّلين. أشرقت شمس الصباح على جونسون حاملةً له خبر فوز خصمه عليه بفرق ألف وثلاثمئة وأحد عشر صوتًا، بعد أن قام بالتلاعب بصناديق الاقتراع التي كانت متوافرة في منازل بعض القضاة. وعندما توجه عضو المجلس إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس في الثلاثين من تموز/يوليو ١٩٤١، وهو لا يزال مذهولاً مما حدث، استقبله الرئيس وهو يضحك عاليًا وقال له: «يبدو يا ليندون أن أبناء مدينة تكساس أمثالك لم يتعلّموا الدرس الذي اكتسبناه نحن هنا في نيويورك، وهو أن على أي مرشح أن يجلس فوق صناديق الاقتراع فور انتهاء عملية الانتخاب».[١]

لكن ما لبث فشل جونسون في الوصول إلى مجلس الشيوخ أن فقد أهميته بعد الهجوم الذي شنّته اليابان على مرفأ بيرل هاربر في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١. وهو كان قد سبق له أن تطوّع للخدمة في البحرية الأميركية في العام ١٩٤٠، وذلك بعد أن أعاد روزفلت إحياء مشروع القانون، لكنه لم ينجح في ذلك. كما أن جونسون ساهم في إنقاذ قانون الخدمة العسكرية الاختيارية الذي كان قد تم سنّه قبل سنة،

(١) المصدر السابق، ص. ٧٤٢.

أو مشروع القانون، من السقوط أمام الانعزاليين في العام التالي بفرق صوتٍ واحد. ولتعرب له الحربية عن امتنانها، تجاهلت ملفه الطبي الضعيف وعيّنته برتبة رائد. غير أن الحربية لم تسمح له بتأدية الخدمة فعليًا في البحر لأنه لم يكن يعرف التمييز بين مقدّمة السفينة ومؤخرتها. في المقابل، تم تكليف عضو الكونغرس الشاب العمل على الإنتاج البحري الحربي في تكساس والجنوب الغربي برعاية وزارة البحرية الأميركية، وذلك بعد أن حصل جونسون على إذنٍ بالتغيّب من البيت الأبيض.

لم يتقبّل الرائد جونسون ألا يكون المدير الآمر الناهي، فأصرّ على الرئيس أن يعيّنه أولاً لواءً بحريًا مسؤولاً عن الإنتاج الحربي في زمن الحرب، ويعيّنه لاحقًا وزيرًا للبحرية بعد ذهابه في مهمة قاسية إلى أستراليا وجزر سليمان بالنيابة عن الرئيس.(١)

كان روزفلت بحارًا ماهرًا وقد عمل مساعداً لوزير البحرية على مدى ثماني سنوات، إلا أنه لم يصبح يومًا وزيرًا، ولم يكن ينوي تعيين عضو مجلس مبتدئ في سن الأربعة والثلاثين في منصبٍ كهذا. وبعد أن رفض روزفلت الترقية البحرية وغطت اللجنة الفرعية للسيناتور ترومان التي كانت تتميّز بالنفوذ والقوة على ترؤّس روزفلت للّجنة الفرعية للبيت الأبيض المكلّفة تناول قضايا الإنتاج في زمن الحرب، شعر جونسون بضعف موقفه. وفي نيسان/أبريل ١٩٤٥، عندما توفي روزفلت وتسلم ترومان الرئاسة، خشي جونسون من الأسوأ. فروزفلت كان أقله معجبًا بالطاقة الاستثنائية والحماسة المتميّزة التي كان يتمتع بها عضو الكونغرس الشاب. أما ترومان الذي علم بأمر الصفقات المالية الغامضة التي كانت تأخذ مجراها في تكساس، فرفض أن يبني أي علاقة مع جونسون.

وهكذا، فقد جونسون أي أمل في تبوؤ منصب رئاسة اللجنة قبل عشرين عامًا آخر بسبب قوانين الأقدمية، وبالتالي قرر القيام بمحاولة أخرى للوصول إلى مجلس الشيوخ في العام ١٩٤٨ في سن التاسعة والثلاثين.

(١) كتاب The Years of Lyndon Johnson: Means of Ascent للكاتب والصحفي روبرت كارو Robert Caro، ص. ٢٩.

واتّسمت حملة جونسون للوصول إلى مجلس الشيوخ في العام ١٩٤٨ بشراسة تضاهي منافسة نيكسون التي تزامنت معها في كاليفورنيا، مع فرق وحيد، وهو أنّ جونسون في تكساس كان في مواجهة «كوك» ستيفنسون، وهو ديمقراطي مثله، عُرف برئيس مجلس النواب السابق ونائب حاكم الولاية السابق والحاكم السابق الأكثر الشعبية بين العام ١٩٤١ و١٩٤٧. فستيفنسون، الذي كان يكبر جونسون بعشرين عامًا، عارض خطة مارشال ووضع حدًا لتمويل المحتاجين، كما تجاهل عملية إعدام جرت في مدينة تيكساركانا من دون محاكمة قائلاً: إن «بعض الزنوج» يستحق أن يُعدم.(١)

وشكّلت حملة المنافسة للمرشّحين الديمقراطيين المعركة الأكبر في حياة جونسون. فمن جهة، كان ستيفنسون، وهو الرجل البسيط الهادئ والمعروف بـ«حاكم الشعب الريفي»، يحظى بدعم أصحاب مصالح النفط في تكساس والفئة المحافِظة والعنصرية بشكلٍ كبير. أما جونسون، فكان يحظى بدعم السياسيين وأصحاب الأموال. وإذ أنفقت كلتا الجهتين ما يقارب المليون دولار، تجاوزت الحملة حدود الواقعية إلى حد أنها كادت تكون حلقة تدريب لرواية جورج أورويل ذات العنوان «ناينتين إيتي فور» (التي نُشرت في العام التالي). كان جونسون السبّاق في استخدام طائرة مروحية للحملة، وهي من نوع سيكورسكي إس-٥١، يبلغ طولها ستين قدمًا وتتّسم بثلاث شفرات دوارة (أُطلق عليها فورًا اسم «الطاحونة الطائرة»)(٢)، وكانت تحوم فوق مزارع تكساس ومناطقها. وقد عمد جونسون إلى مخاطبة الشعب بواسطة مكبّر للصوت معلّق إلى عمود داعم للإطارات، فكان يقول: «مرحبًا جميعًا! أنا صديقكم ليندون جونسون المرشّح لمقعدٍ في مجلس شيوخ الولايات المتحدة. آمل أن تصوّتوا لي في يوم الانتخابات الأولية، واصطحبوا أقرباءكم ليصوّتوا معكم!»(٣)

(١) كتاب Lyndon B. Johnson: Portrait of a President للمؤرخ روبرت دالاك Robert Dallak، ص. ٦٥.

(٢) كتاب The Years of Lyndon Johnson: Means of Ascent للكاتب والصحفي روبرت كارو Robert Caro، ص. ٢١٤. بعد إتلاف محرّك الطائرة من صنع سيكورسكي، استخدم جونسون مروحية أصغر حجمًا ذات جهاز إنذار طوله خمسة أقدام من نوع D-47، بالكاد كانت قادرة على التحليق بالمرشح ومكبر الصوت الخاص به في الأسابيع الأخيرة: كارو Caro، ص. ٢٤٧ من المجلد الثامن.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢١٩.

لم يكن هذا تدخلاً إلهيًا بل نسخة جونسون الخاصة لابتكار الحلول المفاجئة. فقد مهّد له الرجال طريقه إلى المدن وبثّت الإذاعات إعلاناته نهارًا وليلاً، في خلال المعركة التي خاضها عضو الكونغرس الشاب ضد الحاكم السابق الذي بدأ يطعن في السن. وقد التزم جونسون نصيحة روزفلت حرفيًا إلى حد أنه لم يجلس على صناديق الاقتراع فحسب، بل خبّأ النتائج الأولية عن خصمه لكي يتمكّن من تعديلها عندما يتفوق عليه ستيفنسون، وهو الأمر الذي كان يخشاه.

في الأيام التي أعقبت الانتخابات، تمكّن ستيفنسون من الحد من احتمال تفوّق خصمه عليه شيئًا فشيئًا حتى انتصر هو في النهاية. فقد كانت نتيجة الانتخابات هي الأكثر تقاربًا في تاريخ تكساس، حيث تفوّق جونسون بسبعةٍ وثمانين صوتًا فقط.

حملت حملة تكساس الشرسة للعام ١٩٤٨ توقيع ليندون ب. جونسون الذي سار على خطى زميله عضو الكونغرس المبتدئ ريتشارد م. نيكسون، إذ تحالف مع الشيطان لتحقيق مبتغاه. كما أنه، شأنه شأن نيكسون، استفاد فورًا من الطاقة المشتعلة في داخله لبلوغ أهدافٍ أكبر. وفي غضون عامين، تم تعيينه ممثلاً عن الحزب الديمقراطي في البرلمان، ثم وفي غضون أربع سنوات، تم تعيينه قائدًا في مجلس الشيوخ لحزب الأقلية، وهو الحزب الديمقراطي.

إنما في حين استخدم نيكسون حنكته السياسية ليدعم جو ماك كارثي، استفاد منها جونسون ليحطّم السيناتور الزميل. وفي ربيع العام ١٩٥٤، سمح جونسون لشاشات التلفزيون ببث جلسات الاستماع الخاصة بجيش ماك كارثي، حتى أنه سهّل الأمر، لكي يشاهد الشعب الأميركي ما «يخطط له الوغد»[١]، كما جاء على لسان جونسون نفسه. وفي الخريف، نظّم جلسات استماع لمجلس الشيوخ أدّت إلى تصويت سبعة وستين شخصًا مقابل اثنين وعشرين لمصلحة «ديانة» ماك كارثي بتهمة استغلال قوانين مجلس الشيوخ والتشهير بمواطنٍ أميركي صالح بشكلٍ عام[٢].

(١) كتاب An Unfinished Life: John F. Kennedy, 1917-1963 للمؤرخ روبرت دالاك Robert Dallek، ص. ١٨٩.

(٢) المصدر السابق.

وفي العام ١٩٥٥، عندما غيّر السيناتور الجمهوري انتماءه الحزبي، أصبح جونسون، في سن السادسة والأربعين، قائد حزب الأكثرية في مجلس الشيوخ، واستحق بالتالي اعتباره أسرع من تبوّأ هذا المنصب في تاريخ مؤسسة اشتُهرت بأعضائها الذين لوّن الشيب شعرهم.

وطبعًا، سرعان ما بدأت الأصوات ترتفع بشأن «الإعصار» الذي قد يصبح الرئيس المقبل. لكن، وبما أنّ السياسة الأميركية الشعبية كانت وستبقى متقلّبة، برز منافس ديمقراطي بديل في العام ١٩٥٦ بدا للوهلة الأولى شابًا ساحرًا ومدللاً ووسيمًا ومتأثرًا بوالده أكثر مما يلزم وغير محترف إطلاقًا ليكون مرشحًا لمنصب نائب الرئيس، وقد كان هذا الشاب هو السيناتور جون أف. كينيدي.

لم ينجح كينيدي في الترشح لمنصب نائب الرئيس في العام ١٩٥٦، بيد أنه عندما فاز في الترشح للمركز الأول في مؤتمر الحزب الديمقراطي الوطني بعد أربع سنوات في لوس أنجلس وطلب إلى جونسون، من باب اللياقة، أن يكون المرشح الثاني، فاجأ هذا الأخير حتى أقرب مساعديه بالتفكير جديًا في الأمر. وعلى الرغم من أن جون أدامز كان قد عدّ هذا المنصب «أسخف ما ابتكره الإنسان»، قام جونسون بحساباته. فما كان الشعب يجهله هو أنّ كينيدي يعاني مرض أديسون الذي غالبًا ما يكون مميتًا. وبالتالي، قد يكون عرض كينيدي وسيلةً لجونسون تعزز فرصة وصوله إلى مكتب الرئيس الرسمي بحكم وفاة كينيدي، ورأى أنه لن يستطيع تحقيق ذلك الهدف بنفسه. وهكذا، فاجأ جونسون كينيدي بالقبول.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٠، فازت قسيمة كينيدي-جونسون الانتخابية في انتخابات دخلت التاريخ لأنها وسمت بالتزوير والتكتلات. وهكذا، أصبح جونسون في كانون الثاني/يناير ١٩٦١، نائبًا لرئيس الولايات المتحدة، وحل بالتالي مكان عدوّه اللدود، نائب الرئيس الاجتماعي ريتشارد نيكسون.

كان نيكسون قد راهن على النتيجة النهائية نفسها عندما تخلّى عن مقعده في مجلس الشيوخ ليترشّح لمنصب نائب الرئيس في العام ١٩٥٢، إلى جانب الجنرال

أيزنهاور، بيد أن رهانه لم ينجح. فالرئيس، وبعد فوزه بالانتخابات، تجاهل نيكسون تماماً إلا في أوقات الحملات الانتخابية. وكذلك، وجد ليندون ب. جونسون نفسه مهمّشًا من كانون الثاني/يناير ١٩٦٩ حتى خريف العام ١٩٦٣، إذ لم يكن كينيدي يعيره أي اهتمام إلى حد أنه كان يمضي معه أقل من ساعتين للنقاش الفردي في خلال العام ١٩٦٣ برمته[١]. وما زاد الأمور سوءًا أنّ الرئيس كينيدي كان يجد صعوبة في الحصول على موافقة مجلس الشيوخ على برنامج أعماله التشريعي الليبرالي من دون النفوذ الواسع الذي يتمتع به جونسون في المجلس لكونه قائد الأكثرية. وفي ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٣، وقعت الكارثة التي، شأنها شأن كارثة بيرل هاربر، ستبقى محفورة في البال والذاكرة.

الجزء الثاني: الرئاسة

بقي جونسون، حتى آخر يوم من حياته، يشك في وجود مخطط شائن وراء جريمة اغتيال كينيدي أبعد من قضية الرجل الفردي التي توصلت إليها هيئة وارن، والتي سرعان ما تبناها الرئيس. لكن لم يبرز أي دليل مهم يشير إلى مؤامرة من هذا النوع على الرغم من أن بعض الشكوك تمحورت حول تورّط المافيا و/أو المنفيين الكوبيين الذين لم تكن جروحهم قد التأمت بعد منذ غزو خليج الخنازير.

ما لبث جونسون أن تحوّل من إعصارٍ يتقدّم بسرعةٍ هائلة إلى زوبعةٍ لا تعرف حدودًا. فبعد مرور يومين على جريمة الاغتيال، بدأ جونسون يخطط للحصول على موافقة المجلس على قانون الحقوق المدنية الذي كان معرّضًا للخطر وعلى اقتطاع أحد عشر مليار دولار من الضرائب. وكما بدأ ترومان عهده الرئاسي فجأةً في لحظة حدادٍ وطني كان يمر فيها الوطن، وذلك من خلال رسالته إلى مجلس الشيوخ، أعدّ

(١) كتاب The Crisis Years: Kennedy and Khrushchev, ١٩٦٠-١٩٦٣ للمؤرخ مايكل بيشلوس Michael Beschloss، ص. ٥١٣.

جونسون خطابًا مميزًا بعد ثلاثة أيام من مقتل كينيدي. والجدير ذكره أنه أمر كتّابه بتخصيص صفحةٍ كاملة تدور حول الحقد، مثلاً: «الحقد الدولي – الحقد المحلي – هذا الحقد الذي يولّد عدم المساواة...هذا الحقد الذي يولّد الفقر...لهذا علينا أن نحصل على قانون الضرائب – هذا الحقد الذي يولّد الظلم – ولذلك، علينا أن نحصل على قانون الحقوق المدنية. فالحقد سرطانٌ ينخر وجودنا الوطني».[1]

والتزم جونسون كلمته. فهو كان يحصل على كل ما يريده تمامًا كما فعل عندما انتصر أمام معارضة انضمامه إلى هيئة وارن من قبل معلّمه السيناتور الجنوبي واسعِ النفوذ ريتشارد راسل من جورجيا، وذلك بعد أسبوعٍ من جريمة الاغتيال. فقد ركز جونسون على وطنية راسل، إذ صرخ به عبر الهاتف قائلاً: «لم يسبق لك أن خيّبت أمل وطنك بك. فلست أنا المستفيد، بل وطنك...أنت مرجعي في هذه الهيئة وسوف تفعل ما أقوله لك! ولا تشرح لي نطاق نفوذك لأنني أعجز عن إلقاء القبض عليك ولن أجعل مكتب التحقيقات الفدرالي يتتبّعك، لكنك وبكل تأكيد ستخدم بلدك – وأنا واثق بذلك!»[2]

ورضخ راسل بالفعل لمطلب جونسون الذي أضاف لاحقًا اتجاهًا ثالثًا إلى برنامج العمل التشريعي الذي توقف العمل عليه للرئيس المغدور، وكان ذلك الحرب على الفقر. فقد صرّح في خطابه الشهير للكونغرس في الثامن من كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤ قائلاً: «تعلن هذه الإدارة اليوم والآن إطلاقها حربًا مطلقةً على الفقر في أميركا. ونحن لا نطمح إلى التخفيف من عوارض الفقر، بل نضع نصب عينينا التوصل إلى استئصال الفقر من الوطن، والأهم من ذلك، إلى تفاديه».[3]

وفي إطار البحث عن فرصة تحوّل المأساة إلى أملٍ بإجراء تغييرٍ فعلي في أميركا،

(١) كتاب Taking Charge: The Johnson White House Tapes, ١٩٦٣- ١٩٦٤، طبعة المؤرخ مايكل آر بيشلوس Michael R. Beschloss، ص. ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص. ٦٧.

(٣) المجلد الأول من كتاب Public Papers of the Presidents: Lyndon B. Johnson, ١٩٦٣-١٩٦٤ (الذي نشره مكتب الطباعة الحكومي الأميركي في العام ١٩٦٥)، ص. ١١٤.

دعم الديمقراطيون الليبراليون جونسون حتى أصبح لا يُقهر. وقد أشار السيناتور هيوبرت همفري من مينيسوتا إلى أنّ أساليب «الترهيب والتخويف» التي يعتمدها الجمهوريون وحزب الديكسيكرات المحافظ ستستمر ويا للأسف، لكن «وبينما هم منشغلون في ذلك، سنكون نحن في صدد بناء أميركا أفضل»، أي بناء الجمهورية على أساس «مكافحة الفقر والنمو الاقتصادي والسلام العالمي والأمن والعناية الطبية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والتربية وتوفير فرص للشباب». أما جونسون، فردّ على ذلك قائلاً: «يا للروعة، ما كان يمكن لهذه الكلمة أن تكون أفضل من هذا، فهي أفضل ما سمعته»، وبعد ثمانية أشهر، اختار جونسون همفري ليكون مرشحًا لمنصب نائب الرئيس معه في الانتخابات الرئاسية[1].

إنما أحلام جونسون وهمفري الطموح سرعان ما ستذوب وتصبح مريرة. ولكن في ذلك الوقت، وفي المرحلة الافتتاحية لحملة جونسون كليبرالي، قام جونسون بتجاوز كل العوائق في أكبر عرضٍ للقيادة الرئاسية المحلية منذ عهد كينيدي الأول. والجدير ذكره أنّ جونسون لم يحظَ برضى زملائه السابقين في المجلس في أثناء شغله لمنصب نائب الرئيس، إلى حد أنه لم يعد يدوس أرض المجلس الذي كان يرأسه، حتى أنه توقف عن الذهاب إلى الردهة الخاصة بالحزب الديمقراطي حيث كان يعقد اجتماعاته طوال اثني عشر عامًا. ففي الواقع، شعر من كان يومًا «سيد المجلس» القاسي أنه بات مرفوضًا وغير مرغوبٍ فيه إلى هذا الحد. لكنه الآن قد أصبح مسؤولاً عن قيادة وطن وكان يأمل استخدام جريمة اغتيال سلفه نقطة انطلاقه نحو العظمة. فقد شرح لاحقًا بقوله: «كان عليّ أن أحوّل برنامج الرجل المتوفى إلى قضية شهيد»، وذكر أن هدفه يكمن في أن تأخذ القضية شكلاً تشريعيًا بحيث تتحوّل إلى واقع. فحسب قوله: «كينيدي سيُخلّد بهذه الطريقة، وكذلك أنا».[2]

(١) كتاب Flawed Giant: Lyndon Johnson and His Times, ١٩٦١-١٩٧٣ للمؤرخ روبرت دالاك Robert Dallek، ص. ٦٣.

(٢) كتاب Taking Charge: The Johnson White House Tapes, ١٩٦٣- ١٩٦٤، طبعة المؤرخ مايكل آر بيشلوس Michael R. Beschloss، ص. ٣٠.

لم يسرّ محبو كينيدي بذلك. وفي الوقت الذي كانت جاكلين، المتعلّمة في باريس والتي تختار الموضة على حساب الراحة، حزينةً حزنًا يشبه أسطورة مدينة كاملوت الضائعة الرومانسية، تعاون مساعدو كينيدي السابقون وفكّروا في إمكانية تنصيب شخص آخر من عائلة كينيدي على العرش الامبريالي. وبدأت الألسنة في ماساشوستس وبعض ضواحي العاصمة تلمّح إلى احتمال حصول خيانة، ما ذكر المؤرخين بمسرحيات شيكسبير التاريخية التي لمّح فيها إلى قصص المكائد التي تتم بها المناورة في محكمة النهضة.

لم تلقَ شجاعة جونسون السياسية استحسانًا لدى صفوف حزبه الديمقراطي الذين أعطوها اهتمامًا مبالغًا. فأصرّ جونسون قائلاً: «سأكون الرئيس الذي سيُنهي ما بدأه الرئيس لينكولن». وعندما حذّره السيناتور راسل من اقتراح مشروع قانون الحقوق المدنية الذي ماطل به كينيدي في الكونغرس، رد عليه جونسون قائلاً: «ابتعد يا ديك عن طريقي وإلا فسأؤذيك فأنا لا أنوي أن أتلكأ وأساوم». وكذلك، عندما حذّره راسل من أن «ذلك سيجعله يخسر الجنوب والانتخابات ككل»، فحنى الرئيس رأسه قائلاً متوعّدًا: «إن كان هذا هو الثمن فأنا مستعد لدفعه بكل سرور».[1]

إلا أنّ راسل لم يغير رأيه البتة وقال بصراحة ووضوح: «سنقاوم حتى آخر رمق أي إجراء أو تحرك قد يؤدّي إلى إحلال المساواة الاجتماعية». ومع ذلك، وفي الثلاثين من آذار/مارس ١٩٦٤، حصل مشروع قانون جونسون للحقوق المدنية على عدد كاف من الأصوات (ثلثا مجلس الشيوخ) ليتم إقراره، على الرغم من مماطلة الجمهوريين والديكسيكرات في مجلس الشيوخ، ما وضع حدًّا لمعارضة الإدماج العنصري في أميركا على الصعيد التشريعي، بعد مرور قرن على الحرب الأهلية.

وفي الثاني من تموز/يوليو ١٩٦٤، وقّع جونسون بكل فخر في الغرفة الشرقية في البيت الأبيض وأمام مئة شاهد قانون الحقوق المدنية الذي عُدّ إنجازًا استثنائيًا في ذاته. وعُدّ هذا التوقيع أعظم توقيع لجونسون كرئيس للولايات المتحدة بكل

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١١٢.

ما للكلمة من معنى، فهو قد صحّح الإجحاف الذي كان وباءً منتشرًا في الولايات المتحدة منذ الحقبة الاستعمارية. وكان الرئيس قد استنفد كلّ مهارات الإقناع التي يتمتع بها على الصعيد العام والخاص لإقرار هذا القانون كإجراء صادر عن الحزبين، لذلك كان متوتّرًا من جراء فكرة نقل الحدث على التلفاز لأنه يعلم أنّ ذلك يسرّع انتشار الخبر وبالتالي وقف دعم الديكسيكرات للحزب الديمقراطي.

وتمامًا كما حذر السيناتور راسل، سيكون لقانون الحقوق المدنية تداعيات وخيمة على الديمقراطيين، حتى أنّ بيل مويرز مساعده، دخل تلك الليلة غرفته فوجده في حالة حزن لا توصف، وسأله عن سبب إحباطه، فردّ جونسون متنهّدًا: «لأنني أظنّ يا بيل أنني قدمت أصوات الناخبين في الجنوب إلى الجمهوريين على مدى سنوات كثيرة مقبلة».[1]

إن كان ذلك صحيحًا، فإنه لن يحدث بين ليلة وضحاها. ففي هذه الأثناء حصل جونسون على تخفيض الضرائب وفقًا للاقتصاد الكنزي للطبقة المتوسطة، ما خفّض الضرائب بنسبة تسع عشرة في المئة لثمانين مليون فرد، وبموجبه بالكاد يدفع ذوو الدخل المنخفض ضريبة. وكذلك، استفادت الشركات من تخفيض الضرائب بنسبة درجتين في المئة. ويعد هذا الإجراء، مشروع قانون تحفيزياً سيؤدي، كما كان يُقال، إلى زيادة إنفاق المستهلكين والاستثمار في مجال الصناعة، كما سيؤدي إلى تخفيض نسب البطالة وزيادة إجمالي الناتج القومي. وهكذا، أعطى تخفيض الضرائب مفعولاً فوريًا. فتخطت البورصة عتبة الثمانمئة نقطة للمرة الأولى ما جعل الديمقراطيين يتوقعون نصرًا ساحقًا في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر على الرغم من مسألة قانون الحقوق المدنية المتنازع عليه.

ولكن هل سيتمكّن جونسون من تحقيق النصر؟ في الواقع، كان جونسون يتمتع بطباع حادة إلا أنه في بعض الأحيان كان يميل إلى فقدان الثقة بنفسه، وعندما يتذكر طفولته الشاقة، وبالنظر إلى خلفيته، ينتابه فجأةً شعور بأنه مجروح وغير محبوب

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٠.

وخاطئ ووضيع إلى حدّ أنه لا يستطيع الاستمرار. فبالمقارنة بالليبراليين الشماليين كان هو تقدمياً جنوبياً عرف الفقر الحقيقي، ومع ذلك كان يشعر بالدونية أمام الذين يتحدثون بكل فصاحة عن الفقر. فكان يزعم، أنه بالنسبة إلى هؤلاء «أنا لا أساوي شيئًا، هذه كانت حالي وهكذا سأظل. لقد أقررت القانون الذي يريدونه إلا أنهم لم يعترفوا لي بهذا الجميل».[١] من جهة أخرى، أثارت مشاحنة بينه وبين روبرت أف. كينيدي المتميز استياءه. وتجدر الإشارة إلى أنه أبقاه النائب العام إلا أنه قرر ألا يرشّحه ليكون نائبه في حال ترشح هو للرئاسة. فقال جونسون المحارب حتى الموت في هذا السياق: «لا أريد أن يرد اسمي في التاريخ على أنني الرجل الذي سيطر عليه من هو أدنى منه في المنصب وأجعل نائب الرئيس ينتخبني».[٢]

وفي الواقع، كان هذا الشعور متبادلاً، فقد كان روبرت كينيدي قد وصف الرئيس بالإنسان «اللئيم والعنيف الذي يشعر بالمرارة، أي إنه يشبه الحيوانات بأمور عديدة»، «فهو كآكل اللحوم «قادر على افتراس البشر حتى الأقوياء منهم، وأعني بالأقوياء ماك بوندي أو بوب ماكنمارا، فهو قد تخلّص منهما. كان رئيسنا (كينيدي) رجلاً محترمًا وعطوفًا أما هذا الرجل فهو عكس ذلك تمامًا». [٣]

صحيح أنّ جونسون قد يكون حيوانًا، ولكن مهما قيل عنه، يبقى هو الرجل الذي وحّد البلد بعد الاغتيال الرهيب الذي أودى بحياة سلفه، واستطاع أن يستغلّ المأساة لتنفيذ جدول أعمال ليبرالي في الكونغرس تكريمًا للرئيس الراحل جاي أف كاي. ولكن ما أقلق جونسون في الحقيقة هو التصرّفات الغريبة التي شهدها المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري في نيوجرسي وخصوصًا تصرفات السيناتور باري غولدواتر.

في بداية الأمر، لم يظنّ جونسون، على غرار العديد من الديمقراطيين، أنّ فلسفة غولدواتر السياسية التي أوردها في كتاب ضمير المحافظ Conscience of a Conservative (حول الحكومة الكبيرة في الداخل وتحركات الحكومة الأميركية

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٣.

(٢) كتاب Taking Charge، طبعة المؤرخ بيشلوس Beschloss، ص. ٣٨٨.

(٣) المصدر السابق.

الكبيرة في الخارج) ستجعل منه مرشحًا جمهوريًا. على الصعيد المحلي، «لا يمثّل الجمهوريون شيئًا» قال الرئيس ساخرًا[1]، وإن لم يمثلوا شيئًا، ولو أتوا إلى هنا للتحدث عن إحياء زراعة الذرة أو أي مسألة أخرى تافهة يكونوا قد حققوا شيئًا ولكن، بحق الله، كل ما يفعلونه هو المعارضة، يعارضون كل شيء ويحاولون تشويه سمعتنا وترهيبنا.[2]

وبدا أن محاولات تشويه السمعة نجحت ليس فقط على الديمقراطيين بل أيضًا على خصوم غولدواتر في الحزب عينه. وفي هذا السياق، تحدّى حاكم نيويورك الجمهوري المتواضع نلسون روكفلر نداء غولدواتر «للقيم» فحصل على الطلاق في العام ١٩٦١ وتزوج للمرة الثانية في العام ١٩٦٣. وتجدر الإشارة إلى أنّ روكفلر كان قد كابد خسارة فادحة أمام غولدواتر في انتخابات الحزب الجمهوري الأولية في كاليفورنيا. فلم يستطع نيكسون أو السيناتور لودج إيقاف موجة الغلو الوطني التي خلقها غولدواتر. ومن ناحية أخرى قال جونسون: «ثمة الكثير من الحمقى في كاليفورنيا» الذين يملكون الأموال الطائلة ولديهم مرشح محتمل «مهووس إلى حد كبير»[3] يدعو إلى إرسال قوات مشاة البحرية إلى الفيتنام و«تفجير» شمال الفيتنام[4]. لكن وعلى الرغم من ذلك، حصل غولدواتر على عدد أصوات كاف داخل الحزب ليصبح المرشح الرسمي للحزب الجمهوري. وأكمل الرئيس استنكاره قائلاً: «يريد أن يُطلق القنبلة النووية على الجميع، لا أصدق أن الناس موافقون على ذلك،» ولكنه اعترف أنه في بلد مثل الولايات المتحدة «يمكن للناس أن يقبلوا ذلك».[5]

(١) باعتباره أحد أتباع النظرية الشعبية في القرن التاسع عشر.
(٢) كتاب Taking Charge، طبعة المؤرخ بيشلوس Beschloss، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الثلثاء في الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٦٤، ص. ١٩٠.
(٣) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار السبت في الثامن من شباط/فبراير ١٩٦٤، ص.٢٣١.
(٤) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار السبت في السابع من آذار/مارس ١٩٦٤، ص. ٢٧١.
(٥) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الخميس في الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٤، ص. ٣٨٢.

وعلى صعيد آخر، سُرَ عدد كبير من الجمهوريين بتصويت غولدواتر ضد مشروع قانون الحقوق المدنية في الثامن عشر من حزيران/يونيو، على غرار كلير بوث لوس زوجة هنري لوس مؤسس مجلة التايم. وفي الشهر التالي، وفي خلال مؤتمر الحزب الجمهوري في سان فرانسيسكو تربّع غولدواتر على عرش الحزب الجمهوري الذي هو، لسخرية القدر، حزب أبراهام لينكولن الرجل المنفتح. وفي السادس من تموز/ يوليو ١٩٦٤، ألقى غولدواتر خطاب قبول الترشح وفيه انتقد بشدة سياسة الاحتواء البالية التي اتبعتها الولايات المتحدة عقوداً من الزمن.

كان خطاب غولدواتر مخيفًا لشدة تعصبه فجاء فيه ما يأتي: «في عهد الديمقراطيين شهدت قدرتنا على ردع الحرب استقرارًا سلبيًا، حتى أنها تراجعت بشكل إرادي. وفي عهد الديمقراطيين خضنا نزاعات متعثَّرة، رافضين بخوف التصرف إزاء أي اعتداء، ورافضين بخبث إطلاع شعبنا على مشاركتنا الكاملة في النزاعات تاركين خيرة رجالنا يلقون حتفهم في ساحة القتال بطريقة مأسوية ومن دون أي هدف محدد وبعيدًا عن أي كرامة أو احتمال بتحقيق الانتصار».

وكان غولدواتر واضحًا جدًا بكلامه فقال: «نحن نحاول أن نحل محل إدارة لطالما تحدثت وأسهبت في الكلام عن الحريات» من دون أن تناضل على أرض الواقع من أجل المحافظة عليها. وزعم لافتًا إلى أنّ السياسة الأميركية منذ انتخاب جاي أف كاي لم تكن سوى إيمان متعمّد بـ«وهم أنّ العالم الغارق في النزاعات سيحل مشاكله وحده ويتحوّل إلى عالم يعيش بتناغم إن لم نتصادم مع الآخرين أو نُغضب القوى المعتدية»، وهي سياسة احتواء مستمرّة أطلق عليها اسم «سياسة الكلام الخاوي». واستكمل مشيرًا إلى أنّ الفشل في مواجهة الشيوعية «عزز جدار العار في برلين، وجلب لنا الخزي في خليج الخنازير، ويؤدي في لاوس إلى قتل الحريات بشكل تدريجي، ويغزو غابات الفيتنام، ويعلن القيادات الضائعة والهدف الغامض والإرادات الضعيفة كما يؤدي إلى خطر تشجيع أعدائنا الألداء على تنفيذ اعتداءات جديدة وخروق جديدة».

وأظهر غولدواتر أنّ السبب وراء كل ما قاله هو مواجهة جديدة وحاسمة في جنوب شرقي آسيا. «ففي الماضي عالجنا مسألة كوريا واليوم سنعالج مسألة الفيتنام. كونوا واثقين بما أقوله، ولا تحاولوا الاختباء وراء إصبعكم، فالحقيقة أننا في حرب ضد الفيتنام، ومع ذلك يرفض، وأشدد على كلمة يرفض، رئيسنا الذي يقود قواتنا أن يحدد ما إذا كان الهدف في الفيتنام هو النصر، فيما يستمرّ وزير الدفاع بتضليل الشعب الأميركي الذي ضحى بحياته وإعطائه معلومات مغلوطة.» أراد الرئيس الجمهوري المحتمل أن «يثير مجددًا مسألة الحرية»، حتى أنه أعلن للمستمعين وسط تشجيع حار «لا يُعدّ التعصّب في الدفاع عن الحريات رذيلةً».(١) وأشار قبطان الزوارق السابق إلى أنه في حال تم انتخابه فسيتخلى عن سياسة الخجل التي اعتمدها «المستشارون» الأميركيون بغية مساعدة المجلس العسكري في جنوب الفيتنام على محاولاته التعامل مع انتفاضة مقاتلي الفيتكونغ. فبدا جليًا أنه يريد الحرب.

وعلى صعيد آخر، أظهرت تسجيلات جونسون السرية في البيت الأبيض بعد ثلاثة عقود أنّ الرئيس وبعض أعضاء الإدارة ذوي المستوى الرفيع والكونغرس الديمقراطي كانوا يعون تمامًا أنّ التجربة الفرنسية في الخمسينيات كانت كارثةً في ذاتها لذلك، لم يريدوا تكرار هذه التجربة المأسوية. وكان جونسون في ربيع وصيف ١٩٦٤، قد ناقش مرارًا وتكرارًا سير الأمور المأسوي المحتمل في حال تدخلت الولايات المتحدة مباشرةً في الحرب في أدغال شبه جزيرة الفيتنام، وأجرى هذا النقاش مع زملائه وخصومه والصحافة والأكاديميين بعد الانتخابات الأولية للحزب.(٢) وفي السابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٤، حذّر السيناتور راسل الرئيس قائلاً: «إن الوضع مأسوي جدًا، فالفوز في مكان مماثل مستحيل»، وذلك فيما كانا يتحدثان عن تدهور الوضع في جنوب الفيتنام حيث رفضت الولايات المتحدة

(١) خطاب القبول الذي ألقاه باري غولدواتر في الرابع من تموز/يوليو ١٩٦٤، راجع موقع http://www.americanrhetoric.com/speeches/barrygoldwater1964rnc.html.

(٢) كتاب Taking Charge، طبعة المؤرخ بيشلوس Beschloss، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار السبت في الثامن من شباط/فبراير ١٩٦٤، كل الكتاب.

إجراء انتخابات وطنية وفقًا لما جاء في اتفاقيات جنيف للسلام خوفًا من فوز السوفيات. في الواقع، ما كانت آخر حكومة «ديمقراطية» في سايغون سوى مجلس عسكريّ مؤلّف من اليمينيين يستغلّ الانقلاب الذي نفذه ضد الرئيس ديم قبل تسعة أشهر. وبالإضافة إلى ذلك، علّق السيناتور راسل رئيس لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ على الموضوع بطريقة لا تُنسى قائلاً: «أي خطوة نتخذها ستكون خاطئةً» فوضع الولايات المتحدة «في الفيتنام يشبه وضع البقرة العالقة بين أعمدة السياج».[1] وكذلك ذكر السيناتور الرئيس[2] بأنّ «الفرنسيين يقولون إنهم خسروا في الفيتنام مئتين وخمسين ألف رجل وأنفقوا ملياري دولار من حكومتهم ومليارين من حكومتنا وما لقوا سوى الهزيمة الشنعاء». وعند هذه المرحلة سأله الرئيس السؤال الذي يساوي أربعة وستين ألف دولار: «ما مدى أهمية الحرب في الفيتنام بالنسبة إلينا؟» فهزّ راسل رأسه معلنًا «ليست مهمة البتة بوجود أنظمة الصواريخ هذه» التي تسمح للولايات المتحدة بردع أي هجوم سوفياتي.[3]

أما بالنسبة إلى غولدواتر، فكانت الفيتنام ذات أهمية قصوى، فهي تشكل وسيلةً له لتنفيذ مهمته في تصدير «القيادة الأميركية الأخلاقية» و«تفجير» كل من يعارضها وفق ما جاء على لسان جونسون في لحظة غضب. ولكن ثمة من يقف وراء غولدواتر أي نيكسون ورونالد ريغان والمحافظون الجمهوريون الشيوخ الذين هاجموا ترومان بعنف لأنه «خسر» الصين في العام ١٩٤٨.[4]

فشعر الرئيس على غرار السيناتور راسل أنه في مأزق كبير، من جهة قرار سلفه

(١) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الخميس في الحادي عشر من حزيران/يونيو ١٩٦٤، ص. ٤٠١.

(٢) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الأربعاء في السابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٤، ص. ٣٦٧.

(٣) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الأربعاء في السابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٤، ص. ٣٦٤.

(٤) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الأربعاء في السابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٤، ص. ٣٦٨.

المصيري الذي يقضي بإرسال ستة عشر «مستشاراً» عسكرياً أميركياً إلى جنوب الفيتنام، ومن جهة أخرى خطب غولدواتر التي تدعو إلى الحرب والتي تذكر بتصميم ماك آرثر على استعمال الأسلحة النووية في كوريا. من ناحية ترومان، فقد طرد ماك آرثر في نهاية المطاف، ولكن هل كان جونسون يتمتع بقوة الإرادة ليتخطى مستشاريه العسكريين ويسحب «المستشارين» الموجودين في الفيتنام؟ ألن يوصف بالانهزامي أو الجبان أو بما هو أبشع من هاتين الصفتين؟

ولكن الحقيقة هي أنّ جونسون يختلف كثيرًا عن ترومان في ما يتعلّق بالسياسة الخارجية. فقد كان يشعر أنه ممزق، فإن سمح للولايات المتحدة بالتدخل مباشرةً في حرب أهلية لن تحقق أكثر مما استطاع الفرنسيون تحقيقه في بداية الخمسينيات، سيُحكم عليه بالفشل، وإن سحب الستة عشر ألف «مستشار» الذين أرسلهم كينيدي إلى الفيتنام[1] فسيلعنه غولدواتر وأتباعه في الحزب الجمهوري، خوفًا من إلصاق أي تهمة به. فلجأ جونسون إلى التردّد الحذر خوفًا من أن يعكس غولدواتر مسار البلد في الأمور ضدّ الديمقراطيين في تشرين الثاني/نوفمبر، ورافضًا أن يسمح للجمهوريين المؤيدين لغولدواتر بمهاجمته مع اقتراب مؤتمر الحزب الديمقراطي في أتلانتك سيتي.

وفي الرابع من آب/أغسطس ١٩٦٤، وصل تقرير مرعب إلى البيت الأبيض يفيد بأن مادوكس، السفينة الحربية العائدة إلى زمن الحرب العالمية الثانية والمُخصصة للتواصل والعاملة على ساحل فيتنام الشمالية في خليج تونكين تتعرّض للهجوم من زوارق بي تي التابعة لفيتنام الشمالية. عندئذ، حثّ المستشارون الرئيس جونسون على الرد بقصف منشآت فيتنام الشمالية.

فأجاب الرئيس بكل حكمة على هذا الاقتراح «يبدو لي أنّه ضعف منّا أن

(١) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الأربعاء في السابع والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٤، ص. ٣٦٩.

نرد على حدث فقط، فنحن لا نملك أية إستراتيجية».[1] فإن اتخذت الولايات المتحدة إجراءً انتقاميًا معاقِبًا فسننجر إلى حرب من دون خطة حقيقية يكون فيها العدو هو صاحب المبادرة. فماذا لو لم يُخف القصف الفيتناميين في الشمال، بل حثّهم على استدراج الولايات المتحدة إلى حرب فعلية؟ في الواقع، كان الجنرال مات ريدجواي مبعوث أيزنهاور إلى جنوب شرقي آسيا، قد قال للرئيس أيزنهاور إنَ تسلم زمام الأمور في المستعمرة الفرنسية المنهارة في فيتنام يتطلب ثماني وحدات من القوات الأميركية وثماني سنوات. من جهته، أعلن السيناتور راسل لأيزنهاور أنهم يحتاجون إلى خمسين سنة لذلك الهدف.[2] فهل كانت الولايات المتحدة مستعدةً لهذا الصراع الهادف إلى مساندة حكم عسكري فاسد غير محبوب وبعيد كل البعد عن الديمقراطية في جنوب الفيتنام؟

من هنا، طلب الرئيس دليلاً يبرهن أنّ السفن التابعة لشمال الفيتنام هاجمت السفن الأميركية. في الواقع، كان محقًا في شكه هذا، فلم تكن تقارير الأدميرال شارب المُعدّة من مركزه في هونولولو، الذي يبعد ستة آلاف ميل عن خليج تونكين، موقع الحادثة، أكيدة. فتبيّن أنّ «ظروف الطقس القاسية» أثرت في رادار السفينة الحربية الأميركية، وأفاد قبطانها محذرًا أنّ السونار قد يدل على وجود أشياء غير موجودة. وفي النهاية، اعترف بوجود سفن تابعة لشمال الفيتنام ولكنه نصح بعدم اتخاذ أي إجراءات إلى حين استكمال «تقويم كامل».

إلا أنّ الأوان كان قد فات، ففي ذروة المعركة الانتخابية، قرّر جونسون أنّ هذه الحادثة البسيطة ستوفر له فرصة للتخلّص من سموم غولدواتر وأتباعه المحبين للحرب من دون الخوض في حرب ما دام يسيطر، بصفته القائد الأعلى، على أعضاء السلك العسكري وفريق عمل الأمن القومي الذين يميلون إلى سفك الدماء. وبعد أن أطلق

(١) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار الثلاثاء في الرابع من آب/أغسطس ١٩٦٤، ص. ٤٩٦.

(٢) المصدر السابق، جزء ليندون بينيس جونسون، نهار السبت في السابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣، ص.٩٥.

ماكنمارا سلسلةً من الأكاذيب الملفقة في السابع والثامن من آب/أغسطس ١٩٦٤، لإخفاء أوامر الولايات المتحدة ومشاركتها من خلال عمليات وكالة الاستخبارات المركزية، أقنع جونسون الكونغرس بمنحه سلطةً للردّ. إلا أنه أصرّ في بثّ تلفزيوني أنه سيأمر بضربة جوية على شمال فيتنام فقط ردًا على «الهجوم المفتوح في أعالي البحار»، وبالتالي لا يصعّد مهمة المستشارين في فيتنام ليحوّلها إلى حرب كاملة.

لم يجرؤ أي عضو في الكونغرس على معارضة قرار خليج تونكين فيما عارضه سيناتوران. فبدا أنّ حكمة جونسون ودهاءه قد عالجا خطر السيناتور غولدواتر المتنامي عبر الإظهار عن حزمه وعزمه بصفته الرئيس.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما ينيف على مئة «مستشار» أميركي قُتلوا في خلال دعمهم لقوات جنوب الفيتنام بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٤. ولكن أتى قرار خليج تونكين ليغيّر الصورة، فحقق تمامًا عكس ما كان يفترض أن يحققه بحيث تحوّل إلى حكم حقيقي بالإعدام لما يزيد على تسعة وخمسين ألف أميركي في السنوات التالية، على ما كان يخشاه السيناتور راسل. كما أنّ القرار تسبب بجروح وعاهات لا يمكن شفاؤها وأدى إلى إدمان المخدّرات والصدمات النفسية في صفوف مئات آلاف الجنود الأميركيين الناجين الذين خدموا في فيتنام. وهكذا، وبدل أن يلقّن درسًا للفيتناميين في الشمال في خليج تونكين، لردهم عن تنفيذ أي هجوم ضد طاقم العمل العسكري الأميركي ذكرنا بدرس عظيم عن الحرب في التاريخ وهو أنّه من السهل بدء هجوم ولكن من الصعب جدًا الخروج منه.

وبالتالي، ومنذ مؤتمر جنيف في العام ١٩٥٤، لم يعد هناك أي قوات منتظمة جنوب المنطقة الخالية من السلاح أو خط العرض ١٧. فخضع الجنوب إلى الحماية الأميركية وترجّح لوقت طويل في الصراعات الأهلية ليس بين الفيتناميين غير الشيوعيين والشيوعيين (مقاتلو الفيتكونغ) فحسب، بل أيضًا بين البوذيين والكاثوليكيين. فغيّر قرار خليج تونكين النظام الفاعل ما شرّع تسلّح شمال الفيتنام والولايات المتحدة إعداداً لحرب كاملة، وحده ليندون جونسون قادر على إيقافها.

لطالما كان جونسون يخشى الحسد بسبب ذكائه الحاد كسياسي، والدليل على ذلك رفضه أن تُرسل زوجته حذاءه الذي يحمل له حسن الطالع لإصلاح نعله، خشية أن لا يكون متوافرًا في وقت الأزمات. وفي صيف ١٩٦٤، شعر جونسون بالتردد. وجاء في إعلان كان سيقرؤه في مؤتمر الحزب الديمقراطي «أنه لم يعد يتمتع بالقوة الجسدية والنفسية» ليحمل عبء الرئاسة، «أي مسؤوليات القنبلة والعالم والأميركيين من أصل إفريقي ومشاكل الجنوب.» فقد كانت الولايات المتحدة تواجه تحديات جسيمة إلى درجة أنه شك في قدرته على أن يكون قائدًا. حتى أنه قال لمساعده وولتر جنكينز: «هناك شبان أصغر مني سنًا ومستعدون أكثر مني ومدربون أكثر مني ارتادوا جامعة هارفارد. أنا أعرف حدودي.»(١) وهكذا أعلن أنه لن يرشح نفسه للرئاسة. فقال مساعده الذي أمضى إلى جانبه سنوات طويلة وآخرون بهلع: «يا إلهي سوف يقدم استقالته غدًا، وستعمّ الفوضى المؤتمر».(٢)

كان جونسون جديًا في بيان انسحابه، حتى أنه استعاده بعد أربع سنوات.لكن وفي صيف ١٩٦٤، بعد أن قدّم رسميًا إلى الكونغرس اقتراحاته حول مكافحة الفقر في آذار/مارس، وبعد أن تم توقيع قانون الحقوق المدنية، عرف الرئيس الذي لم يُنتخب بعد أنه لا يمكنه التخلي عن البيت الأبيض بكل بساطة وترك السيناتور غولدواتر يتسلم زمام الأمور في الإمبراطورية الأميركية. ومن جهة أخرى، كان روبرت كينيدي الخصم الوحيد الحقيقي في الحزب الديمقراطي إلا أنه لن يتمكن من الفوز في الجنوب ولن يتمكن من الفوز على غولدواتر في تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه. بالإضافة إلى ذلك، كانت لكينيدي وجهات النظر عينها على الصعيد الداخلي وعلى صعيد السياسة الخارجية بما في ذلك مسألة الفيتنام (في ذلك الوقت). فكان الانسحاب من الانتخابات الرئاسية سيجعل من جونسون رئيسًا خالي الوفاض في خلال الشهور الخمسة المتبقية مع سلطة بسيطة جدًا تخوله وقف سفك الدماء خصوصًا في ظل أحداث تونكين.

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١٢٣.
(٢) المصدر السابق.

وفي النهاية، كل ما كان يحتاج إليه جونسون هو الطمأنينة الصادرة عن شخص يحبّه. فعندما أعطته زوجته ما كان يحتاج إليه (قالت له إنه «رجل شجاع مثل هاري ترومان أو أف.دي.آر. أو لينكولن» و تراجعه الآن لا يتماشى مع مصلحة البلد»، بل سيفتح المجال «لأعدائه ليهزأوا به» وسيكون ذلك «خسارةً كبيرة لمستقبلك») تراجع عن بيان الاستقالة.[1] بالتالي قبل ترشيح حزبه له بالتزكية في التاسع والعشرين من آب/أغسطس وألحق بغولدواتر خسارةً فادحةً في انتخابات الخريف في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر.

من ناحية أخرى، أظهر فريق حملة جونسون الانتخابية، من خلال إعلان دايزي المتلفز (حول سحابة الغبار التي يسببها الانفجار النووي) خصمه المنشق المتحدّر من أريزونا على أنه غير مستقر نفسيًا ويميل إلى شن حرب نووية. فساهم هذا الإعلان في تحقيق فوز ساحق لمصلحة جونسون (أربعة وثلاثون مليون صوت مقابل سبعة وعشرين، الأغلبية الكبرى في تاريخ الولايات المتحدة، ثلاثة وستون في المئة)، كما أنه حصل على أكبر أغلبية ديمقراطية في الكونغرس منذ عهد أف.دي.آر في العام ١٩٣٦. وهكذا انتُخب ليندون بينيس جونسون بفضل جهوده ومقدرته.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الديمقراطيين كانوا في منتهى السعادة بما أنّ البلد شهد ازدهارًا اقتصاديًا هائلاً امتد اثنين وأربعين شهرًا، كذلك، حققت جهود مكافحة الفقر نجاحًا باهرًا يوازي نجاح العهد الجديد الذي أطلقه أف.دي.آر.، إلا أن فوز جونسون في الانتخابات لا يعني أنّ أزمة الفيتنام قد انتهت، بل على العكس أصبح الوضع أسوأ.

من ناحية أخرى، كان الرئيس قد أصرّ في خلال رحلة على متن القطار المخصص للحملة الانتخابية أنه لن يسمح «أن يحارب الشبان الأميركيون عن الشبان الآسيويين». ولكن لن يكون أمام الرئيس خيارآخر ما لم يحارب الشبان الآسيويون، إلا إذا أمر بإجراء انتخابات وطنية وفقًا لاتفاقات جنيف أو ساعد المجلس العسكري

---

(١) المصدر السابق.

ليحارب بطريقة فضلى. فارتأى الرئيس أن يساعد المجلس العسكري إلا أنه كان يستشيط غضبًا من المهزلة التي تجري في سايغون. وفي إثر اغتيال الرئيس ديم الذي ساعدت وكالة الاستخبارات المركزية على تنفيذه، جرى انقلاب ثان في كانون الثاني/يناير ١٩٦٤ أطاح الجنرال منه وأدى إلى وصول نغوين خان إلى الحكم وهو جنرال آخر كان قد أوصى بأن تشن قوات الجنوب هجومًا على الشمال. وفي آب/أغسطس ١٩٦٤، أصبح الجنرال أيضًا ضحية انقلاب جديد. وهكذا، أصبح أونه الرئيس «الشرفي» وهو عالم الاقتصاد المتخرّج في جامعة هارفرد ورئيس الوزراء وعمدة سايغون السابق، فيما تسلّم الجنرال خان زمام الأمور العسكرية. ومن ثمّ، وفي الثالث عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٦٤، واجه خان محاولة انقلاب أخرى. وفي خضم كل هذا، حاول جاك فالنتي، مساعد الرئيس جونسون أن يبحث عن عبارة لوصف أجواء الغضب التي كانت تسيطر على البيت الأبيض «يمكننا أن نقول إنّ المسألة تشبه الدوامة التي لا نهاية لها، بحق السماء، أصبحت الانقلابات كثيرة كالبرغوث الذي يحوم حول الكلب.» كما قال جونسون في هذا السياق: «لا أريد أن أسمع المزيد عن أخبار الانقلابات اللعينة، لقد ضقت ذرعًا بها. لابد من إيجاد وسيلة لإحلال الاستقرار لذاك الشعب».[1] وفي هذا المجال أيضًا، وبالنظر إلى غياب سلطة وطنية في جنوب الفيتنام، نصح المستشارون العسكريون ورؤساء الأركان جونسون بجعل قوات الولايات المتحدة تتولى هذه المهمة كما جرى مع كوريا.

إلا أنّ جورج بول مساعد وزير الخارجية ذكر زملاءه أنّ مسألة كوريا تختلف تمامًا، ففي العام ١٩٥٠ كانت الحكومة الأميركية تواجه اجتياحًا ضخمًا تنفّذه قوات كوريا الشمالية، وكانت تتصرّف برعاية الأمم المتحدة. ولكن بول كان يتحدّث من منطلق الحرب.

في الواقع، أظهر المخطِّطون والمستشارون العسكريون الذين عملوا مع جونسون

---

(١) نص مقابلة جاك فالنتي Jack Valenti من مسلسل American Experience على موقع خدمة البث العام لتلفزيون الفيتنام، راجع موقع www.pbs.org/wgbh/amex/vietnam/series/pt_03.html.

عجرفةً استبداديةً تامةً صدمت المؤرّخين بعد نصف قرن، بحيث راوحت أفكارهم وخططهم بين شن ضربة وقائية على منشآت الصين النووية وقصف شمال الفيتنام، متجاهلين تمامًا حاجتهم إلى وجود حلفاء أو خطر فقدان احترام دول العالم في حال فشلت خططهم.

في هذا الإطار، وفي شتاء ١٩٦٤ و١٩٦٥ بعد انتخاب جونسون، أذعن بتردد ولكن من دون رحمة لرؤية غولدواتر حول «كسح الآخرين» تمامًا كما جرى مع جون أف كينيدي الذي خضع للترهيب للموافقة على عملية خليج الخنازير الكارثية في العام ١٩٦١. وتجدر الإشارة إلى أن رؤية غولدواتر تهدف إلى تلقين العالم درسًا حول قوة الأسلحة التي يملكها الجيش الأميركي والتي سيستخدمها في مواجهة «الشيوعية». فطمأن المستشارون جونسون قائلين إن هذه الضربة تهدف إلى تحذير روسيا والصين وكل دولة صغيرة توافق على الحصول على المساعدة منهما.

وحذّرت وزارة الخارجية من دون جدوى أن لا اليابان ولا تايلاندا، جارتا الفيتنام من جهة لاوس، أرادتا حربًا أميركيةً بريةً أو جويةً، كذلك فإن الدول المجاورة في المنطقة لا تؤمن بنظرية «الدومينو»، التي تقضي بأنّ «خسارة» جنوب الفيتنام ستؤدّي حتمًا إلى «خسارة» كل منطقة جنوب شرقي آسيا لمصلحة الشيوعية. بالإضافة إلى ذلك، حذّرت وزارة الخارجية من أن اللجوء إلى الحرب خصوصًا الحرب النووية لن يبهر أياً من روسيا أو الصين، كما أنه لن يُعجب حلفاء أميركا في حلف شمال الأطلسي الذين شعروا أنهم مضللون. كما أن حربًا مماثلة لن تساعد على التوصل إلى حل سياسي بل ستقضي على أي فرصة للتوصل إلى الحل السياسي.

صحيح أنّ ليندون جونسون تمتع بقدرة على إصدار الأحكام الصحيحة مكنته من تنفيذ جدول الأعمال الداخلي في خلال الأعوام التي كان فيها رئيسًا غير منتخب، ولكن هذه المرة لم ينجح. فبدلاً من أن يمسك بزمام الأمور ويسعى إلى التوصل إلى تسوية دولية أو إلى إجراء انتخابات وطنية وفقًا لاتفاقات جنيف، سلم جونسون المسألة «للخبراء» أي مستشاريه العسكريين، سامحًا لهم بتحديد خياراته، بحيث

سيختار هو الخيار الأفضل، حسبما وعد. ولم يكن هذا التصرف يدل على حكم مجموعة صغيرة فحسب، بل ينم أيضًا عن استبدادية أحادية لأن الخيار كان يُنفَّذ «بغضّ النظر عن آراء الآخرين» وفقًا لما قاله المخطط الأميركي الرئيسي.

من هنا، أدّت أحادية الإمبراطورية الأميركية في تحقيق ما ترغب فيه بغض النظر عن رأي حلفائها إلى إطاحة العمل الدؤوب الذي قام به كل من روزفلت وترومان وكينيدي. وبعد أسبوعين على حفلة تنصيب جونسون، تعرّض مهبط طائرات أميركي في بلايكو في السابع من شباط/فبراير ١٩٦٥ إلى هجوم أسفر عن مقتل ثمانية أميركيين. وتمامًا كما جرى لدى حادثة تونكين، مثّل هذا الهجوم ذريعةً قويةً كان الجيش الأميركي ينتظرها بفارغ الصبر.

فاستدعى قائد الأكثرية في مجلس الشيوخ وقائد الأكثرية في مجلس النواب إلى مكتبه الرسمي وشرح لهما الوضع قائلاً إنه وحكومته قد «حافظا على الهدوء لفترة طويلة ولم يلجآ إلى السلاح، وماذا كانت النتيجة؟ ها هم يقتلون رجالنا وهم نائمون في الليل، ولا يمكنني أن أطلب إلى الجنود الأميركيين هناك أن يحاربوا وهم مقيدون بعدة قيود».[١] وزعم أنّ «الجبن قد أدى إلى جرنا إلى العديد من الحروب، فيما لو واجهنا منذ البداية لكنّا وفرنا كل هذه المصاعب على أنفسنا». بذلك، أعلن لهما أنه قد أمر بإغارة على شمال الفيتنام.[٢] فبدأت فعليًا حرب الفيتنام.

من جديد حذر جورج بول من دون جدوى قائلاً: «ما إن ننخرط في هذه الحرب، فلن يكون هناك سبيل للتراجع».[٣] أما بالنسبة إلى الرئيس، فأذعن إلى جنرالاته ومستشاري الأمن القومي آملاً أن يجد أو يتوصّل إلى حلّ يكمن في الحل العسكري الأميركي، وذلك بدل أن يسعى إلى البحث عن وسيلة لنزع فتيل الأزمة

(١) كتاب Vantage Point: Perspectives on the Presidency, ١٩٦٣-١٩٦٩ للرئيس ليندون بينيس جونسون، ص. ١٢٥.

(٢) كتاب American Tragedy: Kennedy, Johnson, and the Origins of the Vietnam War للمؤرخ ديفيد كايزر، ص. ٣٩٨.

(٣) كتاب Shadows of Vietnam: Lyndon Johnson's Wars للمؤرخ فرانك إي فانديفير Frank E. Vandiver، ص. ٣٠.

المتنامية عبر الوسائل الديبلوماسية وبالتوافق مع حلفاء الولايات المتحدة. في الواقع، أراد جونسون أن يقدّم عرضًا ضخمًا يُظهر فيه عظمة قدرة أميركا العسكرية خشيةً من أن يشكك بعض الناس في قوة أميركا وتفوقها، وحتى لو اضطرّ فيما بعد إلى الانسحاب. وبالتالي، أعطى جونسون الضوء الأخضر للبدء مباشرةً وسرًا بالاستعدادات لحرب عصرية يستخدم فيها ترسانة لا مثيل لها من الأسلحة الحديثة، بدلاً من أن يكلّم الشعب عن ضرورة التوصّل إلى حل على الصعيد الدولي بغية المحافظة على السلام. ولكن الرئيس لم يكن يعرف بعد إذا كانت هذه الحرب في الأحراج ستكون جوية أم برية أم بحرية، ولم يكن لديه أدنى فكرة كيف سيتجنّب أن تتحول هذه الحرب إلى حرب مع الصين والاتحاد السوفياتي.

وأخيرًا لجأ الرئيس إلى غارات جوية تدريجية عُرفت باسم رولينغ ثاندر rolling Thunder. بدأت هذه الغارات في الثاني من آذار/مارس ١٩٦٥، وبالتالي نجح جونسون من دون شك في تفادي رغبة غولدواتر في شنّ حرب نووية كانت ستؤدّي إلى مواجهة مباشرة مع الصينيين والروس. وفي الإطار عينه، أدى إلى حمّام دم نتيجة ضخامة المحرقة استمرّ على مدى السنوات التالية، بحيث ذُبح بين اثنين وخمسين ألفًا[1] ومئة واثنين وثمانين ألف[2] فيتنامي مدني من الشمال خلال الاعتداءات الأميركية الجوية، نتيجة رمي الولايات المتحدة حوالى ثمانمئة وأربعة وستين طنًا من المتفجرات من العيار الثقيل.

وعلى صعيد آخر، تم تحذير الرئيس على غرار كينيدي، أنّ الحرب الجوية وحدها ليست فعالة فقصف الفيتناميين الشماليين لا يكفي لجلبهم إلى طاولة الحوار الأميركية، بل على العكس سوف تزيد من عزمهم، على غرار تأثير الغارات النازية الخاطفة في إنكلترا في العامين ١٩٤٠ و١٩٤١. أي بتعبير آخر، سيشجع القصف شمال الفيتنام على إرسال المزيد من القوات لمساعدة مقاتلي الفيتكونغ في الجنوب،

(١) راجع موقع http://www.hawaii.edu/powerkills/SOD.TAB.A.

(٢) راجع موقع http://www.pbs.org/battlefieldvietnam/timeline/index2.html.

ما سيصعّب «الفوز» في الحرب في جنوب الفيتنام لأن المعركة البرية في الأحراج ستكون محفوفةً بالمخاطر والمشاكل بالنسبة إلى الجيش الأميركي. وهكذا، اتضح أنه بدلاً من أن تساهم عملية رولينغ ثاندر في إجبار شمال الفيتنام على التراجع، كان لها مفعول عكسي فحثّته على خوض الحرب حتى الموت.

من هنا، تحوّلت قصة قيادة جونسون للقوات الأميركية على مدى السنوات الأربع التالية بصفته القائد الأعلى إلى كابوس من النقاشات والخلافات وخيبات الأمل والغضب والاتهامات وسفك الدماء على نطاق واسع، بحيث وصل عدد الضحايا إلى حوالى مليون مدني في نهاية الحرب. فقال الرئيس لقائد القوات الجوية موبخًا: «قصف ثم قصف ثم قصف، هذا كل ما تجيدونه، أريد حلاً آخر. فأنتم تعلمتم على حساب المكلفين ولا تستطيعون أن تعطوني أفكارًا وحلولاً حول هذا البلد الصغير».[1] وعلى الرغم من كل ذلك، وإن كان جونسون يظنّ أن هناك حلاً لهذه المسألة عبر مفاوضات السلام بواسطة حكومة الجنوب وليس الفيتناميين الشماليين فقط، فهو مخطئ من دون شك.

ففقد الرئيس الأمل في إجبار الفيتناميين الشماليين على التفاوض من خلال القصف البساطي (في الوقت الذي لم تخسر الولايات المتحدة الكثير من الضحايا)، فاضطر إلى إصدار الأوامر لشنّ حرب برية في جنوب الفيتنام، حيث ستعمل القوات الأميركية وحدها من دون أي مساعدة ولو ضئيلة من الفيتناميين في الجنوب وهم من المرتزقة. وبحلول حزيران/يونيو ١٩٦٥، كان ثمة خمسة وسبعون ألف جندي أميركي في البلد، وبحلول شهر تموز/يوليو سُمح بإرسال مئة ألف جندي، كان مقررًا أن يُردفوا بمئة ألف آخرين في العام ١٩٦٦.

ومع أنّ الجنود كانوا مزوّدين أسلحة مناسبة ولديهم قادة ممتازون، إلا أنهم شكلوا فريسةً سهلةً لوحدات محاربي الفيتكونغ الذين كان يدعمهم هو شي منه تريل من حيث العتاد والعتيد. ولم تتمكّن قوات الجو الأميركية من إيقاف هذا الدعم ولو

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٢٥٥.

ليوم واحد كما حذر السيناتور راسل بناءً على خبرته المريرة في كوريا. وهكذا، ازداد عدد الضحايا الأميركيين وأصبح ثلث الجيش الأميركي من المجندين، وسرعان ما تمَ إرسال أعداد هائلة من المجندين الأميركيين الجدد بين سن الثامنة عشرة والسابعة والعشرين، ما غذى حركةً مضادةً للحرب بدأت بما كان يُسمى مسبقًا ثورة الجيل الثقافية في أميركا والغرب.

وفي غضون أشهر، أتت نتائج حرب جونسون على الفيتنام مضادةً تمامًا لما كان متوقعًا، حتى أنّ زوجته اللايدي بيرد زعمت لاحقًا أنه «لم يكن يملك الجرأة الكافية لخوض هذه الحرب لأنه غير مقتنع بها، فليس هذا ما تصوّره من هذه الحرب»، ولكن في كل مرة يظهر فيها للناس ويتحدّث عن الحقوق المدنية ومكافحة الفقر والأمراض «يشعر الجمهور بالحرج والاضطراب ويخيم الصمت وقد يُصبح بعضهم عدائيين، أما عندما يبدأ الكلام على الدفاع عن الحريات في العالم، أو على تحمّل أي مسؤولية من هذا النوع، فيشعر الجميع بالحماسة».[1] في الواقع، أظهرت استطلاعات الرأي أن السيدة الأولى محقة جزئيًا، فتبيّن أنّ ثلاثة أرباع الأميركيين يؤثرون المفاوضات لحل معضلة الفيتنام، وثلاثة وثمانين في المئة كانوا يؤيدون قصف شمال الفيتنام فيما تسعة وسبعون أميركياً ما زالوا مقتنعين بتطبيق «نظرية الدومينو» على الشيوعيين.

وبدا جليًا أنّ الحرب على الفيتنام، التي بدأت بجو من الحماسة الوطنية، لم تعد توحّد الأميركيين بل تقسمهم، ما شكل تهديدًا حتى للقضايا التي تبناها جونسون مثل المساواة بين الأعراق ومكافحة الفقر.

وبعد مرور خمسة أيام على انطلاق قصص غارات الرولينغ ثاندر في شمال الفيتنام، ظهرت للعالم صورة مخيفة عن شكل الولايات المتحدة التي تمر بمرحلة انتقالية عنيفة لإدماج الأعراق من خلال حالة اضطراب اجتماعي. في الواقع، قاد الكاهن مارتن لوثر كينغ الابن، في مدينة سلمة في ألاباما، مسيرةً سلميةً للمطالبة

(١) المصدر السابق.

بالحقوق المدنية عنوانها «الأحد الأسود»، توجهت المسيرة نحو جسر إدموند بيتوس دعمًا للحق في التصويت. إلا أن المشاركين في المسيرة تعرّضوا إلى هجوم من رجال الشرطة الذين انهالوا عليهم بالضرب والقنابل المسيلة للدموع. فلم يستطع سوى ثلث المشاركين الوصول إلى مونتغومري، في حين قُتل ثلاثة أشخاص. في المقابل، صحيح أنّ الرئيس تمكن من إقرار قانون الحق في التصويت الذي وُقع ودخل حيّز التنفيذ في السادس من آب/أغسطس ١٩٦٥، فأبطل هذا القانون التمييز العنصري في مراكز الاقتراع. لكن تبيّن أن هذا الانتصار أدى إلى خسائر كبيرة، فبعد خمسة أيام من إقرار القانون اندلعت أحد أسوأ أعمال الشغب في حي اسمه واتس يقع في لوس أنجلس. ونتيجةً لذلك، دمّرت معظم المنطقة، وقُتل ثلاثة وخمسون شخصاً وتم اعتقال أربعة آلاف شخص. فلام العمدة «الشيوعيين»، في حين لامت الأكثرية ذات العرق الأسود التي تعاني نسبة بطالة تصل إلى ثلاثين في المئة في ولاية (كاليفورنيا) التي تشهد ازدهارًا اقتصاديًا هائلاً الخمسة آلاف شرطي فكانت تعدهم «حيوانات» مسلّحة.

في الحقيقة، لو كانت هذه الحرب عادلة على غرار الحرب العالمية الثانية لكانت ربّما وحدت البلد وساعدت جونسون على تطبيق جدول أعماله على الصعيد الداخلي. ولكن بعدما قرر الرئيس إرسال مئات آلاف الشبان الأميركيين ليحاربوا في الجزء الآخر من الكرة الأرضية، وجد نفسه يتعرض لهجوم على كل الجبهات. وبدل أن يحثّ قرار شن حرب على الفيتنام حلف شمال الأطلسي على العمل، شعر الرئيس الفرنسي شارل ديغول بغضب عميق فقام في العام ١٩٦٦ بسحب القوات الفرنسية من الحلف وأقفل مركز حلف شمال الأطلسي في فرنسا. وبغياب دعم أي دولة من حلف شمال الأطلسي للحرب على الفيتنام، غرق الحلف في فوضى رهيبة، في حين شعر الفيتناميون الشماليون بالارتياح لدى سماعهم بأخبار احتجاجات الشعب الأميركي ورفض المجندين أداء الخدمة العسكرية.

في الواقع ظنّ جونسون، على غرار غيره من القادة السياسيين في الإمبراطورية، أن الحرب ستكون قصيرة وسيُحارب فيها الجنود النظاميون. وعندما رأت هانوي

أن الولايات المتحدة جدية في رغبتها في مساندة نظام جنوب الفيتنام الفوضوي الذي شهد انقلابات عديدة، وعندما علمت بأنها ستنشر قواتها العسكرية لتستأصل انتفاضة مقاتلي الفيتكونغ والتوقف لمناقشة مشاركة الشيوعيين في الحكم، وافق فيتناميو الشمال على التفاوض بشأن معاهدة سلام. وجاءت شروط المعاهدة مماثلة للمعاهدة المعقودة مع كوريا، أي يتعهد فيتناميو الشمال أن يتركوا السلطة الموجودة في الجنوب غير الشيوعي الذي تحميه الولايات المتحدة، وبذلك تستطيع الولايات المتحدة سحب جنودها في غضون ستة أشهر، على ما قال جونسون. حتى أن الرئيس عرض في نداء يائس نُقل عبر التلفاز أن يقدم تمويلاً بملايين الدولارات لشمال الفيتنام إن ترك الجنوب يخضع لحكم المجلس العسكري. ولكن الشمال رفض هذه الشروط، لأنها تعني أن الجنوب سيتحول إلى دمية في يد أميركا ورئيسها، الراعي العالمي الاستبدادي، وكذلك لن يسمحوا بأي مشاركة للشيوعيين في الحكم. في المقابل، كان جونسون يراهن على استخدام القوة في ما سماه مستشاره للأمن القومي «حرباً كاملة ومحدودة» لإبقاء البلد منقسمًا. ولكن هذه الإستراتيجية لم تنجح.

لطالما تميّز الرئيس بقدرته على وضع نفسه مكان خصمه وتقدير ماذا يحتاج ليعيقه. أما بالنسبة إلى مسألة جنوب الفيتنام، فرأى الرئيس الآتي من تكساس أنه ارتكب خطأ حين وافق على شن حرب بدلاً من رفض احتمال مماثل، فهو اعترف أنه فكر «لو كنت هو شي منه ما كنت أبدًا لأفاوض بل أجبر الولايات المتحدة على خوض «حرب طويلة» لا يكون الشعب الأميركي قادراً على تقبّلها».(١)

في الواقع لم يكن معظم الأميركيين يعرفون فيتنام هذه المنطقة «المضطربة»، ولكنها تحوّلت إلى مسألة تغطي كل المسائل الأخرى على موجات البث الإذاعي والمناقشات السياسية من حيث ارتفاع كلفة الحرب المالية والتجنيد العسكري والمعارضة الشعبية. وكان الكونغرس قد وافق في أيار/مايو ١٩٦٥، على طلب

(١) كتاب Into the Quagmire: Lyndon Johnson and the Escalation of the Vietnam War، للمؤرخ براين فانديمارك Brian VanDeMark، ص. ١٢٣.

جونسون زيادة التخصيصات لتمويل توسيع الحرب بتصويت أربعمئة وثمانية مقابل سبعة أصوات، إلا أنّ هذا التصويت جاء من باب الحس الوطني وأملاً بالتوصل إلى حل سريع. وبدأ الناس يتساءلون متى سينتهي هذا الالتزام اللامتناهي؟ من سيضع حدًا لهذا المأزق؟ أما في البيت الأبيض، فكان جونسون قد دعا وزير الدفاع روبرت ماكنمارا ومساعد وزير الدفاع جورج بول. حثَّ الأول الرئيس على زيادة عدد الجيش مئتي ألف جندي إضافي وعلى تأليف جيش احتياطي من مئتين وخمسة وعشرين ألف جندي، فيما عارضه جورج بول «لا يمكننا أن نفوز» فهو يرى أنّ الحرب ستشكل حملةً «ممتدةً» ذات «نهاية صعبة» أي الانهزام والانسحاب تمامًا مثلما جرى مع الفرنسيين. وأكمل كلامه محذّرًا «لا يمكن لأي قوة عُظمى أن تنتصر في حرب العصابات». وبالتالي، فإن الدرس الوحيد الذي سنلقنه للعالم من خلال استكمال هذه الحرب هو عدم احترام إرادة الولايات المتحدة. شكل ذلك كأسًا مرّةً بالنسبة إلى جونسون بصفته رئيسًا للولايات المتحدة صعُب عليه أن يحتسيها.

في سياق آخر، شكلت الحرب حافزًا للاقتصاد الأميركي النشيط، إلا أن نموّه يعدّ مسألةً أخرى. فقد بدأت نسب الفائدة ترتفع بشكل هائل فيما أصبح عجز الميزانية خطيرًا جدًا! وفوق كل ذلك، اعترف جونسون بأن استمرار الحرب على فيتنام سيستنزف الخزينة ما سيضع حدًا لخططه لمكافحة الفقر في أميركا. فأصبح قانون حق الانتخاب للعام ١٩٦٥ آخر قانون في مجال الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. من جهة أخرى، كان من الضروري زيادة الضرائب لتسديد تكاليف الحرب، ولكن بما أن قرار تونكين منح جونسون تفويضًا من الكونغرس فقط لتنفيذ إجراءات عسكرية انتقامية، لذا كان يلزم جونسون تفويض شعبي لحرب طويلة الأمد، وبالتالي عدت مسألة فرض ضرائب إضافية مسألةً خطيرةً. وبحلول ربيع ١٩٦٦، اضطر جونسون إلى الطلب إلى الكونغرس ٤,٨ مليارات دولار إضافية لزيادة التخصيصات، وبحلول صيف ١٩٦٦، اضطر من جديد إلى اقتراح تخفيضات هائلة في الإنفاق في الوقت الذي كان مشروع القانون الاجتماعي الذي اقترحه يحتاج إلى موارد مالية إضافية، إن أراد له النجاح من دون اللجوء إلى العنف.

وعلى الرغم من التمويل، اندلعت أعمال العنف في البلاد. فشهد صيف العام ١٩٦٦ أعمال شغب في حوالى ثمان وثلاثين مدينة، من شيكاغو إلى فيلادلفيا، فيما نفّس السود الذين كسبوا القوة حديثًا عن إحباطهم بسبب التباين بين مداخيل السود والبيض ومستويات التعليم والفساد في المدن، عن طريق أعمال الشغب والتدمير فيما صرخوا «احترق يا عزيزي احترق».

وهنا ظهر التناقض المطلق الذي برز في الستينيات، ففي حين نظمت الحكومة الأميركية قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية لفرض فكرة «الديمقراطية» الأميركية الخيالية في الخارج، على شعب حاقد ومنقسم بين بوذيين وكاثوليكيين وغيرهم، على بعد مئة ألف ميل ، تفتت المجتمع العظيم القوي والموحد داخل البلد ليصبح فوضى شاملة في المدن، تميزت باحتجاجات الطلاب وتصاعد التوتّرات الاجتماعية بدءًا بالسود المتمرّدين إلى المطالبين بحقوق مثليي الجنس وبحقوق المرأة.

كما شهدت مناطق العنف اغتيالات متتالية. ففي الواحد والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٦٥، اغتيل مالكولم إكس الذي كان وزيرًا إفريقيًا-أميركيًا اجترأ على الانضمام إلى حركة أمة الإسلام وغادرها ليصبح سنيًا، على يد مسلمين من العرق الأسود في مانهاتن. فخاف جونسون أكثر فأكثر على حياته كلما خرج من البيت الأبيض وكان خوفه مبرّرًا.

أثرت الفيتنام تدريجًا في كل ناحية من الحياة الأميركية، وخصوصًا بعد استحالة خوض الحرب من دون استخدام الاحتياطيين واستدعاء المجندين غير المدرّبين. فحاول الطلاب غير الراغبين في دخول الحرب تجنب التجنيد الإجباري من خلال تأجيلها أو الهجرة، فسافر مئة ألف طالب إلى الخارج هربًا من الخدمة ما ساهم في توسيع الفجوة بين الأجيال. كما كبرت مشكلة تمويل الحرب أكثر فأكثر، فبحلول العام ١٩٦٧، أُدخل أربعمئة ألف جندي أميركي في الحرب وفُرِضت رسوم إضافية إجبارية على دافعي الضرائب لمدة عامين كما تم إيقاف برامج إنفاق المجتمع العظيم وتخفيض الإنتاج في البرامج الحديثة.

وكانت ديترويت من أكثر المدن التي شهدت أعمال شغب وحرائق في ذلك الصيف، ما حطم قلب جونسون بعد بذل كل جهوده وعزمه على إقرار قانون الحقوق المدنية وحربه على الفقر. غير أنّ خياره، بصفته رئيساً وقائداً عاماً، خوض الحرب في الفيتنام، لم يكن بالإمكان لوم أحد غيره. وبتصاعد أعداد القتلى في أميركا أسبوعاً بعد أسبوع، بحيث بلغت عشرات الآلاف، انخفضت نسبة شعبية جونسون إلى أربع وثلاثين في المئة. وحتى مساعده الوفي جاك فالنتي استقال من البيت الأبيض، بعد أن توسل إلى جونسون قائلاً: «حاول أن تجد طريقةً للخروج من الفيتنام. فكل ما تعمل لأجله وتؤمن به وتحققه في خطر ما دامت الحرب قائمةً.»[1]

وبوجود مستشاريه للأمن القومي والجنرالات حوله يعدونه بانتصار محتمل إذا تابع الحرب، هزّ رأسه ذا الشعر الجعد بقلق. وعندما دانه الأشخاص الذين كانوا قد أنذروه من تداعيات أفعاله، غرق الرئيس في الخجل والإحباط. فصرخ بوجه السيناتور ماكغوفرن قائلاً: «لا تعطني درسًا آخر في التاريخ بحق الله. لا أحتاج إلى عظة عن أخطائنا في الماضي. علي التعامل مع ما وصلنا إليه اليوم.» ولكن نظرًا إلى رفضه الانسحاب أو عرض التفاوض بشكل فعال أو فرض قراراته على جنوب الفيتنام، كان جونسون سجين أخطائه. «لا أستطيع الانسحاب. فماذا أفعل؟»[2]

وفيما تخبط جونسون في أزمة حرب الفيتنام، حلّ السلام في الشرق الأوسط. فعرف جونسون طوال ثلاث سنوات أنّ إسرائيل كانت تسرع في تطوير قنبلة ذرية في ديمونا في صحراء النقب. وبحلول العام ١٩٦٦، تبين أن إسرائيل كانت تضع رؤوس قذائف ذرية في الصواريخ، غير أنّ جونسون كان منهمكًا في الحرب الشاملة الأحادية الجانب مع الفيتنام بحيث وجد نفسه غير قادر على معارضتها. فتأزمت الأوضاع. فعندما سأل المستشار الخاص جونسون في مطلع شهر حزيران/يونيو عما إذا كان سيدعو إسرائيل إلى الصبر في انتظار مبادرة قومية لفتح مضيق تيران، الذي

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٣٦١.

(٢) كتاب LBJ and Vietnam: A Different Kind of War للمؤرخ جورج سي هيرنغ، ص. ١٩.

كان الرئيس المصري عبد الناصر قد أغلقه بوجه الملاحة قبل أسبوع (ما منع إسرائيل من الوصول إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي)، هزّ جونسون رأسه نفيًا. وقال لجون روش إن الإسرائيليين لن ينتظروا وإن الولايات المتحدة كانت عاجزة عن التدخل. وأقر جونسون بعد تلقيه تقارير استخبارية سرية عن تحرك إسرائيلي قوي «سيضربون المنطقة وليس بيدنا حيلة.»(١) كانت إسرائيل ستخوض الحرب.

ربما ليس هناك ما يظهر الثمن الذي دفعته أميركا لتوسعها الإمبريالي في الفيتنام بقدر ما تفعل حرب الستة أيام التي شنتها إسرائيل في الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧. وبأقل من أسبوع، نجحت إسرائيل في تحقيق كل الغزوات المخطط لها من دون استخدام الأسلحة النووية فهزمت الجيشين المصري والسوري واستولت على صحراء سيناء المصرية واحتلت كل الضفة الغربية والقدس الشرقية واستولت على هضبة الجولان.

وفيما عد جونسون انتصار إسرائيل كارثةً على الشرق الأوسط وعلى الأمن في العالم العربي، وجد نفسه بسبب أزمة الفيتنام، عاجزًا عن الوقوف في وجه إسرائيل كما عجز عن الوقوف في وجه جمال عبد الناصر عند إغلاق مضيق تيران.(٢) فدان اليهود في الولايات المتحدة الرئيس لإصراره على الوقوف على الحياد في حرب إسرائيل، فيما لعنه العرب في الشرق الأوسط لتزويد إسرائيل المعدات ومساعدتها على هجومها الخاطف. وعندما توسل إليه مساعده لاري ليفنسون لإعلان دعمه لإسرائيل في متنزه لافاييت في واشنطن لكسب دعم اليهود وخصوصاً أولئك الذين كانوا ضدّ حرب الفيتنام، صرخ الرئيس بوجهه قائلاً: «أيها الصهيوني المعتوه! لماذا لا ترى أنني أبذل كل جهودي لمساعدة إسرائيل؟ هذا ما عليك قوله للناس»، وأدرك الرئيس أنه لم يكن يقوى على إيقاف الصراع كما كان عاجزًا عن منع نشوبه.(٣)

وبعد بضعة أيام ظهر العجز الأميركي فجأةً عندما شنت إسرائيل هجومًا بقذائف

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٤٢٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٢٩.

وثلاثة زوارق بي تي، على سفينة يو أس أس ليبرتي، وهي سفينة استخبارية أميركية تشبه أهدافها أهداف سفينة مادوكس الحربية، ولكن مهماتها كانت في المياه الدولية قبالة مرفأ بور سعيد. وبعد قصف السفينة الحربية الأميركية بالمدافع وقنابل النابالم، أطلقت زوارق بي تي خمسة طوربيدات شلت حركة السفينة أكثر فأكثر. فمات في هذا الهجوم أربعة وثلاثون أميركياً وأصيب مئة وواحد وسبعون آخرون. وعلى الرغم من اعتذار إسرائيل بعدئذ بحجة أنَ الهجوم جرى عن طريق الخطأ، لم يصدق أحد أقوالها. وأشار المؤرّخ روبرت دالاك إلى أنّ « الإسرائيليين أصروا على تجنب تكرار أحداث العام ١٩٥٦، عندما أجبرتهم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيات والأمم المتحدة على التخلي عن نتائج انتصارهم على مصر.»[١] فلم يُسمح للبحرية الأميركية بمراقبة التقدم الإسرائيلي ناهيك بنقل المعلومات لأعداء إسرائيل.

وبالتالي، أصبح جونسون مكبلاً وعاجزًا عن اتخاذ أية خطوة. وفور أن حققت إسرائيل أهدافها، بزيادة مساحتها ثلاثة أضعاف من ثمانية آلاف إلى ستة وعشرين ألف كلم٢، وبإجبار ثلث مليون عربي على مغادرة الضفة الغربية، التي ضمّتها إسرائيل إلى القدس باحتلالها كلها، فحصلت على «كشمير الشرق الأوسط» أي هضبة الجولان بإرسال قواتها المدرّعة إلى ضفاف قناة السويس وخليج السويس وسواحل خليج تيران. عندئذ، بدأت الأمم المتحدة بترتيب وقف إطلاق النار.

وعلى الرغم من أنّ وثيقة وقف إطلاق النار نصت على انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها، غير أنها بقيت حبرًا على ورق وأصبحت مجرّد شهادة على نجاح إسرائيل العسكري المذهل. فتمسكت إسرائيل بالمناطق التي احتلتها طوال أربعين سنة، ما سمح للإسرائيليين بإنشاء مستوطنات في ما عرف «بالأراضي المحتلة»، وسمح برفض الانسحاب من أي أرض لنصف القرن التالي ما لم يوقع مالكوها السابقون اتفاقية تنص على اعترافهم «بحق إسرائيل في الوجود» وعلى أحكام أخرى، مثل منع عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم. وبذلك، وفيما

(١) المصدر السابق، ص. ٤٣٠.

شكلت حرب الفيتنام أكبر هزيمة في تاريخ الولايات المتحدة، شكلت حرب الستة أيام أعظم انتصار في سجلات إسرائيل العسكرية.

وما زاد على متاعب جونسون، هو أنّ كارثة الولايات المتحدة في الفيتنام عنت أن البلد خسر فرصته الوحيدة في تعزيز العلاقات بين الشرق والغرب. كما قلق الاتحاد السوفياتي حيال الموقف العدائي الذي اتخذته حليفته السابقة وشريكته الشيوعية، جمهورية الصين الشعبية، التي قدمت لها، في السابق، مساعدة تقنية في تطوير القنبلة النووية. والآن، كان الصينيون قد طوروا هذه القنبلة، فشعروا بأن بلدهم بات مساوياً لروسيا ومنافساً لشمال الفيتنام. وبدلاً من الاستفادة من الصراع بين الدول الشيوعية لمصلحة الولايات المتحدة، كانت نتائج حرب جونسون على الفيتنام عكس ذلك تمامًا.

وفي تحدي هو شي منه في قتال مسلح، وجد جونسون نفسه يصارع خصمًا قادرًا على جعل موسكو وبكين تتنافسان في تقديم المساعدة له. وقد شهد المراقبون والمؤرخون بذهول فرنسا وهي تسحب جيشها المنكسر من الفيتنام في العام ١٩٥٤ وتعترف بجمهورية الصين الشعبية في العام ١٩٦٤ وتبدأ التبادل التجاري مع بكين. فدفعت هذه الخطوات واشنطن إلى إرسال مذكرة ديبلوماسية لمعارضة قرار الرئيس ديغول بوصفه «غير حكيم وليس في أوانه».[1] وفي المقابل، وجد الرئيس جونسون نفسه عالقًا أمام انسحاب فرنسا من حرب الفيتنام وغير قادر على دخول سوق الصين التجارية. وبسبب انتصار إسرائيل في الشرق الأوسط فُرضت قيود مشدّدة على أميركا من حيث حصولها على النفط في المنطقة في الوقت الذي تراجع إنتاج النفط في أميركا وهو عنصر مهم للصناعة والتجارة والحاجات المنزلية.

وفيما كانت الصين وإسرائيل تطوّران أسلحتهما النووية، رأى الرئيس السوفياتي ألكسي كوسيغن أنّ الوقت قد حان لعقد قمة مع نظيره الأميركي الرئيس جونسون. وبعد مرور أسبوعين على وقف إطلاق النار مع إسرائيل، اقترح عليه الاجتماع في

(١) مقالة من مجلة تايم Time ذات عنوان 'Chinese Checkers'، عدد ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٦٤.

نيويورك، بمناسبة زيارته للأمم المتحدة. غير أنّ الصورة الحية لتداعيات حرب الفيتنام السلبية أجبرت جونسون على رفض اقتراح الرئيس الروسي خشية أن يقوم أبناء شعبه بالتظاهر لمعارضة الحرب.

كان جونسون في أسوأ مراحل رئاسته. فتقرر في النهاية عقد القمة في جامعة حكومية صغيرة في ولاية نيوجرسي، تعرف بكلّية غلاسبورو الحكومية (التي سمّيت في ما بعد بكلية روان) في الثالث والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٦٧، بعيدًا عن الأنظار وعن متناول المحتجين والمجرمين.

أثبتت قمة غلاسبورو ما لم يكن أحد مستعداً للاعتراف به، وهو أن الإمبراطوريتين السوفياتية والأميركية كانتا قد وصلتا إلى حدود هيمنتها الاستبدادية. فمصر وسوريا اللتان أرسلت إليهما روسيا الأسلحة دخلتا في صراع فيما أظهرت حادثة سفينة يو أس أس ليبرتي وعدم قدرة الولايات المتحدة على التأثير في الدولة التابعة لها في حرب الستة أيام، عجز الولايات المتحدة على الرغم من نفوذها وثرواتها. ولتوفير الاستقرار في المنطقة، دعا كوسيغن جونسون إلى الانضمام إلى روسيا في الضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضي التي احتلتها بغية بدء مفاوضات سلام دائمة، غير أنّ جونسون علم أن موافقته كانت ستشكّل انتحارًا سياسيًا في سياق الانتخابات الرئاسية في العام التالي، ونبه كوسيغن إلى التراجع. وعندما طلب كوسيغن إلى جونسون سحب القوات الأميركية من الفيتنام، أصبح النقاش أكثر برودةً.

وما كان ممكناً أن يصبح عقدًا من الانفراج بعد أزمة الصواريخ في كوبا، وبالتالي معارضة خطاب غولدواتر المحارب في العام ١٩٦٤، تحول إلى معارضة متبادلة. فلم يتم الاتفاق على الحد من الأسلحة النووية، بل استمرت المنافسة في تطوير الأسلحة فيما حاول الروس نشر الصواريخ المضادة للقذائف الباليستية لمواجهة قدرة أميركا المهينة، كما لم يجد الطرفان حلولاً للصراعين القائمين في العالم.

أمر هوشي منه الذي كان على فراش الموت، بتصعيد بالغ ضد مراكز المراقبة العسكرية والمدنية في الفيتنام لكسر الجمود العسكري، كما لو أراد إثبات عجز

قائدي القمة. وبدءًا من الواحد والثلاثين من كانون الثاني/يناير ١٩٦٨، في يوم تيت نغويين دان (المهرجان الفيتنامي لاستقبال السنة القمرية الجديدة)، أدهش الهجوم القادة الأميركيين وضباط جنوب الفيتنام بسبب ضراوته وتوسعه. فتوقع جونسون والجنرالات وقوع ما يشبه «معركة الثغرة» في ألمانيا، باستهداف قاعدة البحرية الأميركية في خي سانه. وبدلاً من ذلك، حاصر الشيوعيون في وقت واحد حوالى ست وثلاثين عاصمة مقاطعات وخمس من بين أكبر مدن العالم الست والثلاثين في المئة من مراكز مقاطعات جنوب الفيتنام.

في البداية، ارتفعت استطلاعات الرأي المؤيدة للرئيس جونسون، وتزايد دعم الأميركيين له. ولكن بمرور الأسابيع والشهور، لم يستطع الرئيس تجنّب أحداث الحرب التي تم بثها عبر التلفاز ومعارضة الشعب له من جديد. وعلى الرغم من أنّ الحرب كانت بعيدة عن حياة الأميركيين اليومية، غير أن التلفاز نقل كل أحداث الحرب المؤسفة وخصوصاً التقارير المتعلقة بمجزرة أميركية في ماي لاي (التي حملت الاسم الرمزي «بينكفيل») استهدفت مدنيين من جنوب الفيتنام غالبيتهم من النسوة والأولاد. وفي خلالها تم ضرب الضحايا وتعذيبهم واغتصابهم وتشويه أجسادهم. وعلى الرغم من شتم الضباط الثلاثة الذين حاولوا منع المجزرة عند عودتهم إلى أميركا، كانت غالبية الشعب الأميركي مرهقة من الحرب وخجلى من المبالغة فيها. كان وزير الدفاع، روبرت ماكنمارا قد أقر أمام الرئيس وزملائه في الخريف الماضي «إن كل ما حاولت أنا ودين راسك فعله منذ العام ١٩٦١ كان فاشلاً. إن متابعة الحرب ستكون خطرة وستودي بحياة الكثيرين وستكون نتائجها غير مرضية».[١]

وفي اجتماع في وزارة الخارجية في السابع والعشرين من شباط/فبراير ١٩٦٨ قال كلارك كليفورد الذي خلف ماكنمارا لاحقاً: «انهار ماكنمارا». وقد قال محاولاً ألا يبكي: «إن القوات الجوية اللعينة تقصف شمال الفيتنام أكثر مما قصفنا ألمانيا

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٤٩٤.

في السنة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، ومن دون أي جدوى! علينا أن ننهي هذا الأمر... فقد خرج على السيطرة.»[١]

وصف جونسون ماكنمارا بالمختل عقلياً، والمشوش بسبب الضغط وحتى بأن لديه ميولاً للانتحار فقبل استقالته. غير أنّ صحة جونسون العقلية والجسدية، بعد حوالى أربع سنوات من حادثة تونكين، كانت تتزعزع. فقد قسمت حربه البلاد والإدارة وجونسون نفسه. فسافر إلى الفيتنام ليلة عيد ميلاد العام ١٩٦٧، بعد أن أوقف القصف على هانوي موقتًا، وشجع القوات الأميركية «على سحق هذا المكان» بغية تحقيق «الانتصار» في الساحة، غير أنه بدأ بالسر بفعل ما رفضه طوال أربع سنوات، أي الضغط على رئيس جنوب الفيتنام الفاسد لبدء المفاوضات مع جبهة التحرير الوطنية الشيوعية، وحتى للسفر إلى روما والتوسل إلى البابا ليرى إذا كان قادرًا على إقناع المقدم تيو الكاثوليكي، بالموافقة على التفاوض مع الجبهة في جنوب الفيتنام.

رفض تيو ذلك ما أجبر جونسون على القتال من أجل «شرف» الأميركيين وذلك دعمًا لنظام بغيض. وقال جونسون مدافعًا عن تشبثه برأيه: «لن أكون أول رئيس أميركي يخسر حربًا» وأمل على الرغم من كل الظروف المعاكسة أن يلزم شمال الفيتنام التفاوض إن ألحق به هزيمةً في خلال هجوم تيت.[٢] ولكن لم يشعر وزير الدفاع الجديد كلارك كليفورد بالتفاؤل الحماسي نفسه الذي شعر به الجنرال ويستمور لاند بالنظر إلى وجود خمسمئة وخمسة وعشرين ألف جندي أميركي في الفيتنام، ما يعد أكبر جيش أميركي ميداني منذ الحرب العالمية الثانية، وإلى طلب هيئة الأركان المشتركة إعداد مئتين وخمسة آلاف عنصرٍ احتياطي ليتم استدعاؤهم، فضلاً عن إعاقة الكونغرس لإقرار ضريبة غير محبّذة على الصعيد الشعبي لدفع التكاليف التي ما انفكّت تزداد.

(١) سيرة الحياة ذات عنوان Counsel to the President للمحامي والمستشار السياسي كلارك كليفورد، ص. ٤٨٥.

(٢) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٥٠٠.

وفي الرابع من آذار/مارس ١٩٦٨، قدَم كليفورد للرئيس تقويماً لحالة فرقة العمل التابعة له. وبحفاظه على نبرة صوت منخفضة وهادئة وباستخدامه لغة المحامي تشارلز ديكنز المملة، عرض بوضوح استحالة الفوز في حرب غير شرعية داعمة لنظام فاسد في بلد ناءٍ ورأى أنَ تأثيرها سيكون سلبيًا في عجز الميزانية الأميركية المتصاعد فضلاً عن تداعياتها السلبية على الشباب الأميركي واحتياطي الذهب وعلى مسؤوليات أميركا تجاه بقية أنحاء العالم إضافةً إلى موقفها أمام حلفائها وتحطيم المعنويات الوطنية. فقال في هذا الصدد»: لسنا متيقنين إمكانية تحقيق فوز عسكري تقليدي». فقد كانت حظوظ النجاح ضئيلة جدًا. وتابع كلامه وأعلن بكل صراحة «يبدو أننا عالقون في الزاوية». وهكذا غيّر رأيه الذي عبّر عنه منذ بضعة أشهر، فقال الآن بوضوح إنه لا يرى «أية نهاية تلوح في الأفق». وبالتالي، فإنّ إرسال مئتين وخمسة آلاف جنديّ إضافي إلى المطاحن البشرية يعني إطالة العذاب.(١)

وفي حين تم تزويد الرئيس التقارير الإيجابية الخاصة بالوحدات القتالية الأميركية في تصدّيها لهجوم تيت، أجبر تقويم كليفورد الرئيس جونسون على إيقاف تركيزه على العمليات التكتيكية ورؤية مدى غباوة استراتيجيته الكبيرة. وكذلك رأى جورج ريدي، الملحق الصحفي الخاص بجونسون أنّ «كليفورد غيّر مسار سياسة الولايات المتحدة». في ما بعد ادعى رئيس استخبارات ويستمور لاند أنّ جونسون قد «طرد توما الشكاك (أي ماكنمارا) ليستبدله بيهوذا»، علمًا أنّ اتهامات مماثلة لحقت بمستشاري هتلر نذكر منهم رومل الذي نصح القائد بصنع السلام في العام ١٩٤٤ بعد غزو الحلفاء لنورماندي(٢). والجدير ذكره أنّ ديك أكسون المعروف بأنه أشدَ الصقور على فيتنام قد قال إنها حرب «لا يمكن الفوز بها».

اعترف جونسون على مضض أنه ولو حدّد عدد الجنود في جنوب فيتنام وأوقف القصف على شمال فيتنام، فلن يتمكّن بالتأكيد من إقناع المجلس العسكري لجنوب

(١) سيرة الحياة ذات عنوان Counsel to the President للمحامي والمستشار السياسي كلارك كليفورد، ص. ٤٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥١٨.

الفيتنام بقبول اتفاق سلام حول تقاسم السلطة، ناهيك بالاجتماع بالفيتناميين الشماليين. وفي حين أصرّ عدد من المستشارين على جونسون ليصمد بغية تصعيد حدة الحرب أكثر فأكثر، التحق قسم آخر بمخيم كليفورد ما دفع جونسون إلى مواجهة المأزق الذي تسبب لبلده الحبيب.

وفي هذا الصدد، تذكر أخو الرئيس سام هيوستن جونسون لعبة الدومينو التي لعباها معًا في إحدى الليالي في البيت الأبيض قائلاً: «كان يجلس هناك وهو يحدّق من بعيد.» فذكّر الرئيس قائلاً: «دورك يا ليندون». فتكلم جونسون أخيرًا: «هذه هي المشكلة، إنه دوري دائمًا». فلعب بيده القوية حائراً وقال أخيرًا: «سام هيوستن، لا بدّ من أن أتخذ قراري بناءً على آراء الخبراء المتعارضة، ولكنني أتمنى بالتأكيد لو أستطيع معرفة ما هو الخيار الصحيح.»(١)

في النهاية، وعلى الرغم من ارتداد ماكنمارا وأكسون وكليفورد، اختار جونسون متابعة الحرب. فأشار ريدي في ما بعد إلى أنّ الرئيس « لم يتعلم يومًا أن يعترف بخطئه، أكانت هذه صفةً حسنةً أم سيئةً بالنسبة إلى شخص عادي، كانت بالتأكيد كارثةً حقيقيةً لرئيس الجمهورية أسفرت عن مأساة كونية. فهو كان دائمًا يشعر أنّ عليه أن يثبت دومًا أنه على حق».(٢)

ولكون كليفورد مطلعًا على أسرار واشنطن الداخلية، لم يشهد يومًا أزمةً مماثلةً كهذه في الحكومة الأميركية. فقد كانت الحرب تهدّد بتمزيق الأمة على كل المستويات: على الصعيد العائلي (كانت ابنة الرئيس جونسون تعارض الحرب إلى أقصى الحدود لأن زوجها عيّن في فيتنام)، والتظاهرات المناهضة للحرب وفي وسائل الإعلام والكونغرس والإدارة. فوعد جونسون أن يقوم ببث وطني في نهاية الشهر لمعالجة هذه المسألة، ولكن ماذا سيكون قراره وماذا الذي سيقوله؟

(١) كتاب My Brother Lyndon لسام هيوستن جونسون Sam Houston Johnson، ص. ٤.

(٢) كتاب Lyndon B. Johnson: A Memoir للصحفي جورج ريدي George Reedy الصادر في العام ١٩٨٢، ص. ١٥٠.

مرة أخرى استدعى جونسون مستشاريه، ونصحته الأغلبية بـ«إيقاف القصف والبدء بالمفاوضات» مع الفيتناميين الشماليين، ما أدى إلى إصابة جونسون بصدمة. فسأل فيما بعد كمدير مدرسة تجاهل فريق عمله أوامره «من الذي غيّر رأي الشباب؟» كما أضاف بسخط «لقد تراجع هؤلاء الأوغاد».[1] ومع ذلك كان يعلم في قرارة نفسه أنهم على صواب وأنه الوحيد، لأنه القيصر الأميركي، القادر على إدارة الخطوة الثانية ألا وهي التفاوض في اتفاق سلام في الوقت الذي يتولى جنوده حماية الحصن. وبعد أن شرب من هذه الكأس المرة، ارتكب جونسون الخطأ الأكبر منذ تونكين لدى محاولته وضع قراره قيد التنفيذ.

وفي الواحد والثلاثين من آذار/مارس ١٩٦٨، جلس الرئيس أمام كاميرات الإعلام في مكتبه الرسمي وأدلى ببيانه الشهير الذي يقضي بوقف قصف شمال الفيتنام والسعي إلى اتفاق سلام معه. لم يكن هذا كل شيء، فقد كان لديه ما يودّ إعلانه أيضًا فأضاف قائلاً: «في حين يوجد أبناء أميركا في ساحة المعركة بعيدًا عنا، وفي حين يواجه مستقبل أميركا تحدياً هائلاً ومع آمالنا وآمال العالم أن يحل السلام يوميًا، لا أعتقد أنه بإمكاني تكريس ساعة واحدة أو يوم واحد من أجل قضايا شخصية أو حزبية أو أي مهام غير المهام الصعبة التي أواجهها أي أن أكون رئيسكم. تبعًا لذلك، لن أسعى كما لن أقبل ترشيح حزبي لي لولاية جديدة.» وهكذا انتهت حياته السياسية.

لم يكن باستطاعة أحد تفسير ما حدث بمن فيهم زوجته. وعلى الرغم من أنّ الإعلان بدا وكأنه وفر له قسطًا من الراحة وكأنّ حمل التاج الإمبراطوري نزل عن كتفيه، ولكن من الوهم أن نظنّ أن زعيم العالم الحر يتمكن، من أن يضع حدًا لمهامه فجأة وبكل بساطة في وسط الحرب من دون الانتقاص من سلطته كرئيس ومن دون أن يوجه ضربةً قاضيةً لحزبه السياسي. شكل وقع الخبر صدمةً لحكومته وفريق عمله والمواطنين ولا سيما الديمقراطيين منهم، ولم يستطيعوا تصديقه. فبغضّ النظر عن

(١) كتاب LBJ: Architect of American Ambition للمؤرخ راندال بي وودز Randall B. Woods، ص. ٨٣٤.

إخفاقاته، فإنّ ليندون جونسون بطبعه، شخصية عظيمة ، وهو الشخصية الأكثر سيطرةً بالمقارنة بمنتقديه في سماء السياسات الأميركية، من الليبراليين المحبين لكينيدي في الساحل الشرقي، إلى أتباع حزب الديكسيكرات في الجنوب.

وقد تحولت ليلة رأس السنة البوذية لعام ١٩٦٨ إلى أحد أفظع الأعوام في تاريخ أميركا. وبعد مضي أربعة أيام على إعلان الرئيس، أي في الرابع من نيسان/أبريل ١٩٦٨ تم اغتيال الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن في ولاية ممفيس تينيسي، فعمّ الشغب جميع أنحاء أميركا ولم تخلُ أي مدينة من هذه الأعمال بما فيها واشنطن. فاشتعلت النيران في أميركا.

فكتب أحد المراقبين في هذا الصدد «ومع بزوغ فجر يوم السادس من نيسان/أبريل غطت سحابة سوداء الأنصاب الوطنية، وكانت عاصمة الولايات المتحدة تحت الاحتلال العسكري». أدى كل ذلك إلى نشر خمسة وسبعين ألف جندي خوفًا من أن تغرق البلاد في الفوضى العارمة.[1] وفي الرابع من حزيران/يونيو اغتيل السيناتور روبرت أف. كينيدي في لوس أنجلس بعد أن كان قد فاز تواً في الانتخابات الأولية الرئاسية في كاليفورنيا، تاركاً التنافس بين يوجين ماك كارثي ونائب الرئيس هيوبرت همفري أيهما يكون مرشح الحزب الديمقراطي في شيكاغو في تموز/يوليو.

ومع شعور جونسون للحظة بالندم على القرار الذي اتخذه بعدم الترشح مرة ثانيةً، راح يستكشف ما إذا كان سيتم تسميته، ولكن كان كل ذلك وهمًا نظرًا إلى الاحتجاجات الغاضبة المناهضة للحرب فقد بدأ يخسر الرئيس شعبيته شيئًا فشيئًا. استقرّت شعبية الرئيس حتى منتصف الثلاثينيات، فيما وصلت مفاوضات باريس إلى طريق مسدود بسبب القصف الأميركي المتواصل الذي لم يوقفه جونسون. وحتى أنّ ملحقه الصحفي الخاص قد سخر منه قائلاً: «كان يتوهم أن تعمّ الفوضى المؤتمر وأنه بسحر ساحر ستتم تسميته كمرشح للحزب الديمقراطي.»[2] على أي حال، قضت

(١) كتاب Pay Any Price: Lyndon Johnson and the Wars for Vietnam للمؤرخ لويد سي غاردنر، ص. ٤٦٣.

(٢) بحسب جورج كريستيان George Christian في كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص.٥٧٣.

وحشية شرطة بلدية دالي في شيكاغو في تعاملها مع المحتجين المناهضين للحرب على الفكرة، ما جعل من غير الآمن للرئيس المحاصر أن يقترب حتى من المدينة أو مواجهة الحشود وهم يهتفون «كم طفلاً قتلت يا ليندون جونسون؟» وفي الثامن والعشرين من آب/أغسطس ١٩٦٨، أرسل هذا الأخير خبرًا إلى رئيس الحزب طالبًا «ألا يندرج اسمه في المؤتمر» وهكذا تم ترشيح نائب الرئيس هيوبرت همفري حسب الأصول.[1]

وبدلاً من أن يدعم جونسون همفري، قام بما لا يمكن تصوّره، ودمّر ترشيحه عمدًا.

وبعد زيارة مدينة سايغون، رفع وزير الدفاع كلارك كليفورد تقريرًا إلى الرئيس يقول إنه كان «واثقًا تمامًا» أنّ حكومة جنوب الفيتنام لا تريد إنهاء الحرب في حين أنّها تتمتع بحماية خمسمئة ألف جندي أميركي وبـ «تدفق مال ذهبي». وبمعنى آخر، كانت جنوب الفيتنام هي المشكلة وليس الشيوعيين. ولكن حين أوصى هيوبرت همفري بإجبار جنوب الفيتنام على تقديم التنازلات من أجل إحلال السلام، وصفه جونسون بالمرتدّ وأمر بالتنصت إلى هاتفه. وبالتالي، حين جاء همفري لزيارة البيت الأبيض، في الفترة التي كان لا يزال فيها نائب رئيس الولايات المتحدة، بعد الحملة الانتخابية في ماريلاند في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٨، رفض جونسون مقابلته. اعترض نائب الرئيس المضطرب على ذلك وغادر البيت الأبيض قائلاً: « قل للرئيس أن يذهب إلى الجحيم!»[2] بعد ذلك، رفض جونسون تنظيم حملة لهمفري في تكساس والولايات الحدودية الرئيسية على أساس أنّ ريتشارد نيكسون، المرشح الجمهوري لانتخابات تشرين الثاني/نوفمبر «يتبع سياساتي عن كثب أكثر من همفري.»[3]

على صعيد آخر، أخطأ جونسون في التقدير عندما وعده ريتشارد نيكسون أنه لن يسيىء الكلام على الرئيس إن استمرّ في قصف شمال الفيتنام، لأنّ هذا الوعد

(١) كتاب Flawed Giant للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٥٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص.٠٥٨٠.
(٣) المصدر السابق.

كلف الإمبراطورية الأميركية الكثير من سفك الدماء الذي استمرّ لسنوات. وفي الثاني من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٨، انتشرت أخبار أنّ الشمال قلق حيال تسلّم نيكسون الحكم في أميركا، لذلك، هو مستعد للتفاوض بجدية مع ممثلي الجنوب حول طاولة الحوار في باريس، مقابل وقف القصف الأميركي. وبالتالي، عمل جونسون مباشرةً على الاستعدادات اللازمة لوقف القصف، واعترف أن «نيكسون سيخيب أمله»، إلا أنه قرر أن إحلال السلام في الفيتنام أهمّ بكثير من مساعدة نيكسون للفوز على همفري.[1]

ولكن الأوان كان قد فات، فقد صرخ نيكسون غاضبًا «وعدني بأنه لن يتوقف (عن القصف)» الذي رفض في البدء أن يصدّق التقرير الذي قدمه له عميله المزدوج الذي كان يعمل لحساب جونسون في البيت الأبيض لأنه «كان قد أقسم أنه لن يفعل شيئًا كهذا».[2] ولكن حين «تحقق نيكسون حدوث ذلك»، بدأ يبحث عن وسيلة ليخرّب مفاوضات السلام التي كان نيكسون يجريها، لأنه كان يخشى أن يخسر معركته الانتخابية للرئاسة في اللحظة الأخيرة أمام نائب الرئيس همفري الذي سيستفيد من مفاجأة شهر تشرين الأول/أكتوبر، وهي السلام. وعندما استدعى جونسون نيكسون ليؤكّد له الخبر العظيم أي إنه سيوقف شن الغارات على شمال الفيتنام بما أنه وافق على شروطه، «أكد نيكسون دعمه للتوصل إلى اتفاق على هذا الأساس».[3] ولكن في الحقيقة، بدأ نيكسون خطةً سريةً قد رسمها ليعطّل مفاوضات السلام، وتقضي هذه الخطة بإقناع الجنوب بعدم المشاركة في المفاوضات.[4]

من جهة أخرى، علم جونسون بخدعة نيكسون عبر تعقّب اتصالاته، وهو أمر غير قانوني، فاكتشف أن نيكسون وجون ميتشيل رئيس قطاعه السياسي، قد استغلاّ آنا شينالت الرئيسة المُشترَكة من حركة «نساء الحزب الجمهوري لدعم نيكسون» لإقناع

(١) المصدر السابق، ص. ٥٨٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، ص. ٥٨٤.

رئيس سايغون تيو بعدم المشاركة في المفاوضات واعدةً إياه بشروط أفضل إن وافق وإن فاز نيكسون بالانتخابات. وقالت المرأة بعد مرور عقود: «لقد كنت على اتصال دائم مع ميتشيل ونيكسون» ولكن لم يكن بإمكان الرئيس أن يفعل شيئًا حيال ذلك خوفًا أن تنكشف مسألة التنصت.[1] وتمامًا كما جرى مع أيزنهاور، سقط جونسون في فخ العمليات السرية.

فصرخ جونسون في مساعديه لأنّ «الخيانة» آتية من جهة نيكسون وقال: «يلقى الشبان الأميركيون حتفهم في خدمة طموحات نيكسون السياسية».[2] حتى أنه اتصل بنيكسون ليشكو، إلا أنّ هذا الأخير أقسم «إنه بحسب علمه، ما من شيء من هذا القبيل». وعندما أقفل الخط، انفجر نيكسون وفريق عمله بالضحك.[3]

بالتالي، انتقد الرئيس الأمر بشدة وقال: «علينا أن نُعلمهم أننا لن نقبل أن يعارضوا المفاوضات، فقد حصلنا على ما عملنا بجهد لتحقيقه وعلينا ألا نسمح لشيء مماثل بالوقوف في طريقنا».[4] لكن وأمام محاولات الرئيس تيو العرقلة، فشلت مفاوضات السلام. وفي الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر، فاز نيكسون بالانتخابات على نائب الرئيس همفري بفرق ٠,٧ ٪ من التصويت الشعبي، وأصبح الرئيس السابع والثلاثين للولايات المتحدة.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

يبدو أن القوى الكامنة في ليندون جونسون قد جعلته يتحلّى بطبيعة غير اعتيادية. فقد كان حجمه كبيرًا، من أذنيه إلى أنفه وطوله حتى رجليه. وهذا ينطبق أيضًا على

(١) المصدر السابق، ص. ٥٩١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٥٨٨.
(٣) المصدر السابق، ص. ٥٩٠.
(٤) المصدر السابق، ص.٥٨٦.

شخصيته. فمنذ بداية مسيرته المهنية، لاحظ زملاؤه وأقاربه والمؤرخون أنّ ليندون كان يحبّ فرض سلطته دائمًا وبشكل هوسي، لأنّ الصفات التي يتميّز بها من ذكاء حاد واندفاع كبير وطاقة عارمة كانت تدفعه إلى ذلك. وعلاوةً على ذلك، اكتشف ليندون من خلال عمله الدؤوب موهبةً ضمنت له النجاح في أي مهنة كانت. وقد تجلّت هذه الموهبة في قدرته على تمييز أهداف الأشخاص وطبعهم ونقاط ضعفهم بسخريته المعهودة. وعلى الرغمِ من أنه لم يكن دائمًا على حق، غالبًا ما كانت سلطته الساخرة على الآخرين تمكنه إما من إخضاعهم وإما في حال لم يخضعوا، من إحباط محاولاتهم الهادفة إلى هزمه. وهكذا، ابتعد عنه خيرة الناس وأكثرهم عقلانيةً وحساسيةً، ولم يبقَ منهم سوى المنكسرين والمستعبدين.

من الصعوبة بمكان معرفة مصدر سخرية جونسون. ولا شك في أن حالته المتواضعة في طفولته التي قضاها في تكساس ومراهقته غير المستقرة وعلاقته بالأرض والمَزارع والحيوانات الأليفة والمتوحشة والصيد ونمط الحياة في تكساس، كلها جعلته لا يتعاطف مع الطبيعة الإنسانية بل يساويها بالطبيعة الحيوانية، بما في ذلك نفسه. وبقدر ما كان يحتقر ذاته لأنه لم يكن أكثر طهارةً وشهامةً، كان يسعى إلى التعويض من ذلك، من خلال بذل مجهود أكبر والتطلّع نحو أهداف أسمى والعمل على مساعدة المستضعفين أو الأقل حظوةً، بشكل هوسي. والجدير ذكره أنّ هذا الاندفاع المستمر لم يكن ناتجًا من أساس روحاني أو ديني. ففي الواقع، هو لم يكن متديّنًا قط لا في طفولته ولا في بلوغه، حتى أن أخاه قال إن ليندون لم تطأ قدماه كنيسةً حتى وصوله إلى البيت الأبيض. ولم يكن دافعه نابعًا من مصدر ديني أو حتى سياسي في المعنى الإيديولوجي أو المدروس. إلا أنه على غرار الرجال الذين ينخرطون في العمل المسلّح ويتوقون إلى الوصول إلى أعلى مرتبة، كان ليندون بطبيعته وميوله محاربًا سياسيًا. وقد وُلد لكي يُحارب ولكن ليس بقبضته (وقد استذكر زميله في الدراسة جبنه الواضح عند أي خطر يهدّد سلامته الجسدية) بل بقوة وعزم لا مثيل لهما للوصول إلى مأربه، إما بالاحتيال وإما ببذل جهد أكبر من أي شخص كان.

وبعد تحقيقه النجاح منذ بداياته الأولى، اعترف ليندون بما قد اكتشفه العديد

من القادة قبله، وهو أن قوة الإرادة هي الورقة الرابحة. فهو كان يرى أنَ الناس هم مجموعة ثعالب وأن نفسه هي الثعلب الأكبر. أما دفاعه عن حقوق الفقراء أو المستضعفين أو الأقل حظوةً فما كان إلا ليزيد من تسلّطه. ومن أجل الحفاظ على هذا التسلط وخصوصًا مع الخصوم، فقد كان يستفيد فطريًا من قدرته على سبر أغوارهم، من خلال قيس حدودهم على سلّم الأخلاقيات والقدرة على التحمّل واستغلال امتنانهم أو خوفهم أو طمعهم أو براءتهم.

عند تسلّق كل درجة من سلّم السلطة المطلقة، كان جونسون أولاً يستعين بمعلمين، أكبر منه سنًا يمكنه أن يفيدهم بجهده وخدمته، حتى ورث منهم هذه السلطة.

ولم يكن للحب أهمية كبيرة في بحثه. وفي الثامنة عشرة، عندما كان لا يزال في ثانوية سان ماركوس، التقى جونسون زميلته في الدراسة كارول دايفس الجذابة التي تتمتّع بطول غير اعتيادي (٦ إنشات). إلا أنه على الرغم من أنه كان يفتخر بنفسه (فقد كان يقول بعد خروجه من الحمام عاريًا في شقته المشتركة: «عليّ أن أمارس بعض التمارين من أجل المحافظة على رشاقتي»)، وعلى الرغم من أنه كان يعتني بمظهره وشعره المموّج والناعم لقضاء الليلة خارجًا، لم يكن محبوبًا من غالبية الفتيات اللواتي كان يواعدهنّ، فقد كنّ يرين أن تبجّحه مبالغ فيه إلى درجة مرضية[1]. غير أن كارول التي تكبر جونسون بعامين كانت تتميز بخجلها وذكائها. وكانت أيضًا ثرية. وقال جونسون: «لقد أغرمت بها منذ اللحظة الأولى». واستذكر قائلاً: «كانت تعزف على الكمان وتكتب القصائد، وكانت لديها أيضاً سيارة بيضاء ذات سقف متحرك قد أهداها إليها والدها صاحب أكبر شركة غذائية في سان ماركوس. وقد دامت العلاقة الرومنسية مدة عامين». وأكمل جونسون قائلاً: «عندما كنا مستلقيين بالقرب من الساقية على كومة من الأعشاب، بدأنا نتحدّث عن موضوع الزواج». وعلى الرغم من أنّ العلاقة كانت واعدة، بما أنها كانت تضمن له الوصول إلى المال والسلطة (بما أن والدها كان عمدة سان ماركوس)، لكنها لم تلاقِ النجاح. ولم تكن

(١) كتاب LBL للمؤرخ وودز Woods، ص. ٢٩٠.

كارول غير مهتمة بالسياسة فحسب، (وقد كان جونسون يشتكي إلى صاحبة الأرض التي استأجرها قائلاً: «أيتها الآنسة سارا، تحب هذه الفتاة الأوبرا، ولكنني أفضل الجلوس على حطبة قديمة مع مزارع والتحدث إليه»[1])، بل كان والدها أيضًا غير مهتم بليندون كمتقدِّم للزواج. وقد انتقل مع زوجته وبناته الأربع من دريبينغ سبرينغز إلى سان ماركوس حتى يضمن بأن بناته لن «يتزوجن أولئك الرعاة هناك» في هيل كونتري من حيث يتحدَّر جونسون[2]. وخاطب والد كارول ابنته قائلاً: «لن أدعك، لن أدع أيًا من بناتي تتزوّج أحدًا من عائلة جونسون المفلسة». «لقد بتّ أعرف هذه المجموعة عن ظهر قلب من جيل إلى جيل، فهم مزارعون كسالى ورجال سياسة قذرون... إنهم لا يساوون شيئًا البتة»[3].

وعلى الرغم من أن جونسون قد جُرح من رفض كارول له بعد عامين من المواعدة، لم يُظهر ذلك قط. ففي الواقع، لقد زادته هذه الحادثة اقتناعاً بأن الحب الرومنسي هو مضيعة للوقت والطاقة. فهو يمكنه ممارسة الجنس مع العاهرات[4]. فقد كان يطلب امرأة ثرية تكرّس نفسها لمهنته ليلاً ونهارًا وتبتعد عن طريقه عندما لا يحتاج إليها. وعندما التقى المرأة الصغيرة الحجم كلوديا ألتا في ١٩٣٤، كان متيقناً أنه قد وجد الشريك المناسب. وفي لقائهما الصباحي الأول في مقهًى في أوستن، شعر بأنه قد أعطى انطباعًا جيدًا ولم يرغب في إضاعة الوقت. فأخبرها بعمله (مساعد عضو الكونغرس كليبيرغ) والأجر الذي يتقاضاه وبوالصه الائتمانية وأهله، ومن ثم طلب إليها الزواج.

لقد عاشت كلوديا الملقَّبة بـ«ليدي بيرد» منذ الطفولة وحدها مع والدها الأرمل وهو رجل أعمال فاحش الثراء وصاحب عشرات المئات من الفدادين. وكانت

(١) كتاب The Years of Lyndon Johnson: The Path to Power للمؤرخ كارو Caro، ص. ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٦٢.

(٣) كتاب My Brother Lyndon لسام هوستن جونسون Sam Houston Johnson، ص. ٢٩ وكتاب Lyndon Johnson and the American Dream للكاتبة دوريس كيرنز Doris Kearns، ص. ٥٧.

(٤) كتاب LBJ للمؤرخ وودز، ص. ٨٠.

لا تزال في الواحدة والعشرين من العمر عندما حصلت على شهادتين من جامعة تكساس. وعلى الرغم من كونها صحافية، كان خجلها مرَضيًا. وعلّقت لاحقًا على عرض الزواج الذي تقدّم به جونسون، قائلة: «لقد ظننت أنها مزحة أو ما شابه».[1]

ولكن هذا العرض كان جديًا. ففي اليوم التالي، اصطحب جونسون ليدي بيرد في زيارة للتعرف إلى والديه في جونسون سيتي. واستذكرت قائلة: «كان المنزل متواضعًا جداً. لقد كان ليندون يعرف ذلك وأنا أيضًا، وقد كان يراقب ردة فعلي.»[2] أي جمال- في الحقيقة في حين يرى زملاء هذه الفتاة وحتى أصدقاؤها أنه بسيط ورثّ الثياب ـ ترى كلوديا ليندون رجلاً مذهلاً ولافتاً للنظر وتصفه قائلةً: « هو نحيل جدًا ولكنه جذّاب جداً، يتميز بشعره الأسود المتموّج وبصراحته ونزاهته، سلوكه صارم لم أشهد مثله يومًا».[3]

طلبت إليه الليدي بيرد أن ينتظر اثني عشر شهرًا للمزيد من التعارف بينهما ولكن ليندون رفض طلبها. في الواقع، ضغط عليها ليخطبا ويتزوجا بسرعة. وقال لها في أكثر رسائل الحب صراحةً، كتب لها فيها عن شخصيته وأرسلها من مكتب عضو الكونغرس في واشنطن «حين أرى شيئًا أعرف أنني أريده ـ أبذل قصارى جهدي لأحصل عليه. حين ترين شيئًا قد ترغبين فيه... تنتقدينه بشدة لتحديد ما إذا عليك أن ترغبي فيه... من ثم... تستنتجين أنّ رغبتك ليست «أبدية» وأنّ « المعقول» هو أن تنتظري عاماً أو ما قارب ذلك»[4]. شكل قوله هذا ضغطًا أكثر مما شكل غزلاً، فقد كانت هذه طريقة عملية يعتمدها، أي يعمل على نقاط ضعف الأشخاص وتردّداتهم وعدم يقينهم، مقابل ما يمتاز به من طاقة الحب القاسي والتركيز والحزم.

بعد مرور عشرة أسابيع قاد عضو الكونغرس البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا السيارة التي استعارها من رئيسه مسافة ١٣٠٠ ميل من واشنطن إلى تكساس ووجّه

(١) كتاب The Years of Lyndon Johnson: The Path to Power للمؤرخ كارو Caro، ص. ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ص.٣٠٠.

إلى كلوديا إنذارًا نهائيًا قائلاً: « إما أن نتزوج الآن وإما لن نتزوج أبدًا، وفي حال ودّعتني الآن فسيعني ذلك أنك لم تحبيني كفاية لتجرئي على الإقدام على هذه الخطوة، وأنا لا أتحمّل فكرة أن أبقى في حالة الشكّ والتردد هذه».[١]

وهكذا، رضخت الليدي بيرد وتزوجا على الفور من دون حضور أي فرد من العائلتين في احتفال مدني تم ترتيبه على عجل في كنيسة القديس مرقس الأسقفية في سان أنطونيو، وبخاتم بلغ ثمنه دولارين ونصف الدولار تم شراؤه من متجر سيرز روباك قبالة الشارع. وفي اليوم التالي اتصلت الليدي بيرد بصديقها المذهول الذي كان أول من عرّفت جونسون به قائلة: « أنا وليندون تزوّجنا ليلة أمس».[٢]

وعلى الفور تحوّل ليندون بينيس جونسون الملقب بالدكتور جيكيل، من متقدم ملحّ للزواج إلى شخص يتصرّف مثل شخصية السيد هايد أي بعنف مع الليدي بيرد وكأنها خادمته وليس زوجته. وقد استذكر أحدهم قائلاً: «كان يحرجها في الأماكن العامة ويصرخ بها عبر الغرف طالبًا إليها القيام بأمر ما. شعر كل أهل تكساس بالأسف على الليدي بيرد، فأنا لا أعرف كيف تمكّنت أن تسكت على ذلك».[٣] بالإضافة إلى ذلك كان يزمجر لدى خروجهما من المنزل قائلاً لها: «ضعي أحمر الشفاه الخاص بك، فأنت لا تبرزين ما أنت عليه.»[٤]

نفذت الليدي بيرد الأوامر ـ كما يفعل الجميع أيضًا ـ لأنّ ليندون هو ليندون: زوبعة بشرية تسحق كل ما في طريقها أرجالاً كانوا أم نساءً. في الواقع، كان والدها طويل القامة أيضًا (٦,٢ أقدام) وديكتاتورياً على الرغم من أنه كان مهووسًا بالأناقة، كثير الشتائم. وكان ليندون يشبهه. وبدا أنّه يستمتع بتحدّي التقاليد والسلوك الحسن: وبحسب تعبير جورج ريدي «هذا أمر في منتهى الفظاظة، وجهد متعمّد واضح ليبدو

(١) المصدر السابق، ص. ٣٠١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٠٣.
(٤) كتاب LBJ للمؤرخ وودز Woods، ص. ١٠٥.

مقرفًا» في نظر المتكبرين أو المثقفين.[١] كما كان وقحًا وفظاً ومتهكّمًا ومهينًا، ولا يشعر بالخجل من البول في الحوض الموجود في مكتبه بينما يجري مقابلة مع أحدهم[٢] أو من الوقوف عاريًا بوجود أحدهم[٣] أو لاحقًا حين حصل على حمامه الخاص، أصبح يترك الباب مفتوحًا وهو يتغوّط بينما يملي أوامره أو يتحدّث مع أحد مساعديه أو زواره. وفيما كان يفتح سحّاب سرواله[٤] سأل صديقًا له أتى للزيارة من تكساس: «هل رأيت أكبر من هذا؟»

وخلف تصرّف جونسون الفظ والمخزي ثمة تحدّ خفي: اقبلوني كما أنا أو ارحلوا. وقد جعل اللايدي بيرد تعسة بسبب خيانته المستمرّة إلى حدّ ما في واشنطن مستخدمًا على طريقة الباشوات أي مكان من مكتبه حتى سيارته وخزانته. وعلى عكس جون أف. كينيدي الذي كان يغوي النساء ليستسلمن له على أمل الوقوع في الحب، لم يسمح جونسون لأي من عشيقاته أن تحلم حتّى في أخذ مكان زوجته. لقد كان يؤمن، أو جعل نفسه يؤمن، أنّه متيّم باندفاعه وطموحه، واهتمامه هو هدية يرفضها الرجل أو المرأة على مسؤوليتهما الخاصة. وقد شبّه أحد المراقبين حريمه في واشنطن بحريم المسرحية الموسيقية أنا والملك The King and I. وقال المراقب: «كانت الأمور تسير بهذه الطريقة؛ تعلم، المشهد حيث تجلس إلى الطاولة مع جميع النساء – واللايدي بيرد هي الزوجة الرئيسية».[٥]

كان تصرّف ليندون في نظر اللايدي بيرد يعكس ديناميكيّة بيولوجية لرجل شهواني– رجلها هي. وشرحت في ما بعد لأحد الصحافيين قائلةً: «عليك أن تفهم، يحبّ زوجي الناس، جميع الناس، ونصف الناس في العالم نساء. هل تظنّ أنّني قادرة على إبقاء زوجي بعيدًا عن نصف الناس؟»[٦] ولكن أزعجتها مغازلة ليندون

(١) المصدر السابق، ص. ٦٤٠.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٣٢.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٠٥.
(٤) المصدر السابق، ص. ٢٩٠.
(٥) كتاب Lone Star Rising للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١٨٩.
(٦) المصدر السابق، ص. ١٩١.

للنّساء، عندما تجاوزت الأمور حدّها وأصبح الجنس تعبيرًا عن المودّة بدل أن يكون تعبيرًا عن مجرّد فيض، ما أبعده عنها عاطفيًا. وتشكل علاقته التي دامت سبع سنوات مع عشيقته أليس مارش التي أصبحت لاحقًا زوجة شارلز مارش راعيه في تكساس خير دليل على ذلك. وهذه الحسناء الإسكندينافية، طويلة القامة وذات الشعر الأحمر وقعت في حبّ ليندون الذي وافق مع شارلز مارش على إقامة علاقة جنسية ثلاثية. من جهة، كان ليندون يحتاج إلى مارش من أجل تمويل حملاته؛ ومن جهة أخرى كانت هي (التي تصغر زوجها بأربعة وعشرين عامًا) تحتاج إلى حماسة الشباب التي يتمتّع بها جونسون؛ بينما مارش – الذي شعر أنّه يملك ليندون – كان سعيدًا بالسماح لها بتسلية نفسها. أمّا اللايدي بيرد فكانت الخاسرة الوحيدة، بعد أن عانت إجهاضًا تلو الآخر، لتلد في النهاية ابنتين فقط وهي في الثلاثينات من عمرها.

وبعيدًا عن أليس مارش، لم تكن اللايدي بيرد في خطر من مغامرات ليندون التي لا تُحصى. وقد برّرت تصرّفه أمام صديق يبدو أنّه كان غاضبًا بسبب مغازلات[1] ليندون قائلة: «أجل، ولكن هذا مجرّد جزء فقط من شخصيته». وكذلك لم يحتفظ جونسون بهذا الأمر سرًّا، فبصفته عضوًا انتُخب حديثًا في مجلس الشيوخ التقى في خلال حفلة في دالاس مساعدة إدارية جميلة تعمل في الإذاعة وتبلغ الثالثة والعشرين من عمرها، فجعلها تسافر إلى أوستن. وتحسّرت لاحقًا قائلة: «لقد ضربت بجميع مبادئي عرض الحائط من أجله»، وهي تعلم أنّها ليست الوحيدة.[2] كانت هيلان غاهاغان دوغلاس زوجة الممثل ميلفين دوغلاس، عضوًا في الكونغرس قد هزمها ريتشارد نيكسون في معركتهما للانضمام إلى مجلس الشيوخ. وهي أيضًا تخلّت عن مبادئها عندما أغواها عضو الكونغرس جونسون في العام ١٩٤٤، واستمرت معه في علاقة جنسية «عند الطلب» في خلال السنوات العشرين التالية. وأكّد ليندون لرئيس مجلس النواب سام رايبورن عندما حذّره من تعريض زواجه[3] للخطر قائلاً: «إنّ بيرد

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب LBJ للمؤرخ وودز Woods، ص. ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢٨٨.

تعلم كلّ شيء عنّي وجميع صديقاتي هن صديقاتها أيضًا». وكان ذلك صحيحًا، وفقًا لاعترافات اللايدي بيرد ومقابلاتها وكما تشهد مذكّراتها.(١)

وفي هذا السياق، قال جورج ريدي في ما بعد(٢): «الجنس بالنّسبة إلى جونسون كان إحدى غنائم الانتصار، كما شكل طريقةً للهروب من ظلّ الموت القاتم. وعندما توفّيت والدته بداء السرطان في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨، فور بلوغه سنّ الخمسين، بدأ ليندون يتصرّف مثل المراهق الذي تسرّب من المدرسة أكثر منه قائداً للأغلبية في مجلس الشيوخ. وكما جاء على لسان ريدي، «أصبح يعاني يوميًا نوبات غضب صبيانية وتهديدات بالاستقالة والإفراط في تناول الكحول، وإضافة إلى ذلك لم يكن والدًا حنونًا تجاه ابنتيه، وأصبحت تجتاحه رغبة جنونية في مرافقة الشباب».(٣) وبعد خمس سنوات انتشر تأثير الفساد، أو بالأحرى هالة الفساد، في البيت الأبيض فوسّعت آفاق السلوك المتطرّف الذي كان يميل جونسون إليه أصلاً. تذكّرت «إحدى ضحاياه» التي اختارت ذلك بإرادتها(٤) قائلةً: إنّ مغازلة امرأة شابة وجميلة كانت تؤدّي إلى علاقة جنسية عابرة على طاولة المكتب. في الواقع كان عدد هذه العلاقات مرتفعًا جدًّا لدرجة أنّه في لحظة غرور وتهكّم، ادّعى جونسون أنّه «حصل على نساء مصادفة أكثر ممّا حصل كينيدي باختياره.»(٥)

شعر جونسون الذي كان يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم في مكتب الرّئاسة الرّسمي أنّه يستحقّ القليل من غنائم النصر الإمبراطوري، غير عابئ بتشبيهه بكاليغولا ونيرون. وكما كانت جاكي كينيدي داعمةً لزوجها، كذلك كانت اللايدي بيرد، فتخفف عنه، محافظةً على رباطة جأشها، واستمرّت تعشق زوجها في حين اندثرت الأحلام التي تقاسماها يومًا مع أحداث الفيتنام وأعمال الشغب.

(١) المصدر السابق، ص. ٤٨١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٨٨.
(٣) كتاب Lone Star Rising لـDallek، صفحة ٥٣٧.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٨٩.
(٥) المصدر السابق.

وقد ألقى مساعد آخر في البيت الأبيض وهو مؤرِّخ جامعة برنستون إريك غولدمان، اللوم ليس على تقاليد تكساس الحدودية حيث السلوك يشبه سلوك الإسكتلنديين الإيرلنديين الغريب، بل على نقص التربية المبكرة لتتناسب مع ذكاء الرجل الشديد والطبيعي. وقد كتب مصحِّحًا للذين لم يروا بجونسون سوى الرجل الذي لا ينفكّ يشتم والذي يبالغ في كل شيء والكاذب «بعد سنوات من لقاء أدمغة من الدرجة الأولى داخل الجامعات وخارجها، أصبحت موقناً أنني لم ألتقِ شخصًا يفوق ليندون جونسون ذكاءً». وعنى البروفسور بكلمة الذكاء «معدّل الذكاء المطلق، عقلاً وسرعة بديهة، وذكاء ثاقباً بالإضافة إلى خياله الواسع ودهائه اللذين لا يشبهان أي إنسان آخر». وعلى الرغم من مواهبه، كان جونسون «وغدًا بكل ما للكلمة من معنى» نسخةً عن هوي لونغز في الثلاثينيات، وهو رجل، على الرغم من بلوغه أعلى المناصب في البلد – بل في العالم – لم يستطع فرض احترامه ومودّته وألفته، وهي الصفات التي وحدها تسمح لرئيس أميركي بأن يحكم بأمانة» في عالم ديموقراطي معاصر».(١)

«إن لم يكن موجودًا فعلينا أن نختلقه» هذا ما قاله شارل ديغول مقتبسًا من ديكارت عن راعي البقر الجديد من تكساس، أي رئيس الولايات المتحدة الذي التقاه في جنازة الرئيس كينيدي في العام ١٩٦٣. واعترف ديغول أنّه مع تسلّم جونسون الحكم قد شارف عهد عظمة الإمبراطورية الأميركية الانتهاء، هذه العظمة الناتجة من سلطتها على العالم التي خفّف رؤساء يتمتّعون برؤية شاملة وبحكمة من وطأتها. كما أعلن ديغول أنّ «روزفلت وكينيدي كانا قناعين لوجه الولايات المتحدة الحقيقي». ولكن على العكس «كان جونسون وجه أميركا الحقيقي. فهو كشف لنا البلد كما هو في الحقيقة أي إنه عنيف وقاس»، وعلى العالم أن يعيش مع تداعيات هذا الوجه.(٢)

(١) كتاب The Tragedy of Lyndon Johnson للمؤرخ إيريك أف غولدمان Eric F. Goldman، ص. ٥٣١.
(٢) كتاب Lyndon Johnson and Europe للمؤرخ توماس ألان شفارتس، ص. ٢٣٧.

دعمت اللايدي بيرد قرار زوجها عدم الترشح للرّئاسة مجدّدًا في العام ١٩٦٨، لأنها كانت مقتنعةً بأنّ صحّته لن تسمح له بخوض الانتخابات لولاية جديدة. غير أنّ التقاعد في المزرعة في تكساس كان الخيار الأسوأ لصحّة جونسون. فهو كان قد أوقف إدمانه التدخين بعد نوبة قلبية في العام ١٩٥٥، واتّبع نظامًا غذائيًّا قاسياً في خلال السنوات التي أمضاها في البيت الأبيض إضافةً إلى ممارسة التمارين الرياضية بانتظام. ولكن ما إن عاد إلى «المنزل» في تكساس حتى تخلّى عن كلّ ذلك. وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٧٣ أصيب ليندون بنوبة قلبية ثانية وهو في الرابعة والستين، ولكن هذه المرّة مميتة.

صُعقت اللايدي بيرد (توفّي ليندون وحده في مكتبه، خوفه الأكبر). وعلى الرغم من أنّ الأميركيين من أصل إفريقي شعروا بالامتنان له، إلا أن معظم الأمة كاد لا يحزن لوفاته لأنه لم يسامحه على شنّ الحرب على فيتنام. وبعد جنازة رسمية في واشنطن نُقل بطل الحقوق المدنية والمساواة العظيم إلى مثواه الأخير، حيث يتحدّر، في مدفن عائلة جونسون في بيديرنالز ريفر.

الفصل السادس

ريتشارد نيكسون

الذي لُعن في مرحلة لاحقة

جمهوري

الرئيس السابع والثلاثون

(العشرون من كانون الثاني/يناير ١٩٦٣ - التاسع من آب/أغسطس ١٩٦٩)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد ريتشارد ميلهوس نيكسون في يوربا ليندا جنوب ولاية كاليفورنيا، في التاسع من كانون الثاني/يناير ١٩١٣. كان الابن الثاني لهانا ميلهوس، متدينة من جمعية الأصدقاء الدينية وزوجها فرانك نيكسون غير المتعلم والسريع الغضب الذي عمل بجهد.

كسب فرانك نيكسون رزقه بالعمل في التصليحات وفي مجال النجارة وكسائق ترامواي وجامع حمضيات، وأخيرًا، عمل في زراعة الحامض والليمون في بستان يمتد على عشرة فدادين أعطته إياه عائلة زوجته. كان منزل سيرز روبوك الذي بناه فرانك بسيطًا وصغيرًا، فيه غرفة علية صغيرة علوها خمس أقدام لأبنائه الخمسة، مات من بينهم اثنان من مرض السلّ في طفولتهما، غير أنّ المنزل كان يحتوي حمامًا داخليًا وأدنى حاجات السباكة. لم يكن فرانك قادرًا على شراء الأسمدة وكان مدخوله غير كافٍ لتوفير لقمة العيش، فتخلّى عن زراعة الحامض في العام ١٩١٩ ليعمل في شركة يونيون أويل النفطية، فيما عملت زوجته في تعليب الحامض، وفي العام ١٩٢٢ أنشأ محطة بنزين ومحل بقالة قرب ويتير.

نشأ ريتشارد، الذي سُمّي على اسم الملك ريتشارد الملقب بقلب الأسد، طفلاً كئيباً ومنعزلاً يذهب إلى المدرسة حافياً يحمل حذاءه وجواربه في كيس من ورق. وعندما كان في السابعة والثامنة من العمر، كان يعمل في فصل الصيف جامع ثمار في حقول الفاصولياء اثنتي عشرة ساعة في اليوم.

وعلى الرغم من أن نيكسون لم يتعلم يومًا قراءة النوتات الموسيقية، فقد كان يتمتع بذاكرة قوية فتعلم البيانو في غرفة جلوس العائلة الصغيرة، وبدا لفترة أنه كان مقدرًا له، على غرار هاري ترومان، أن يتبع مسيرة مهنية في الموسيقى. وفي الحادية

عشرة من عمره، قدم طلبًا للعمل في صحيفة لوس أنجلس تايمز غير أن طلبه قد رفض. وقد كان نيكسون بارعًا في المدرسة وتم حثه على الالتحاق بجامعة هارفرد، غير أن أوضاعه الاقتصادية لم تسمح له بذلك. وبدلاً من ذلك، وبعد أن ورثت عائلته مئتين وخمسين دولارًا أميركيًا من جده تكفي ليتعلم الأبناء في جامعة محلية، التحق نيكسون بجامعة ويتير الصغيرة المجاورة (التي ضمت ثلاثمئة تلميذ فقط)، حيث برز منظماً وناظراً ورئيساً لهيئة الطلاب وهاوياً للتمثيل.

كان طول نيكسون يبلغ حوالى ست أقدام وكان شعره مائجًا وأنفه بارزًا وصوته جهوريًا، فبدا بنظر أستاذ المسرح موهوبًا بما يكفي ليصبح ممثلاً محترفًا، وهذا ما صار عليه في عدة نواحٍ. لم يكن نيكسون غير جذاب، ولكنه كان أنانيًا وهشًّا على الصعيد العاطفي وساعياً إلى جذب النساء. أملت والدته أن يصبح قسًّا، غير أنه كرّس نفسه لتحقيق ذاته في العالم العلماني، بدءًا بالقانون الذي درسه بفضل منحة إلى كلية الحقوق في جامعة ديوك شمالي كاليفورنيا. وفي العام ١٩٤٠ صوت ضدّ فرانكلين روزفلت في الانتخابات الرئاسية.

وعندما تعرضت الولايات المتحدة لهجوم بيرل هاربر، عمل نيكسون في واشنطن مسؤولاً حكومياً للسيطرة على الأسعار، ليخدم بعدئذ في البحرية ضابطاً لوجستياً، وذلك بعد أن تم رفض طلبه لوظيفة في مكتب التحقيقات الفدرالي وبعد أن عمل محامياً في بلدة صغيرة ومساعداً لمدعي عام مدينة ويتير. وكذلك، خدم نيكسون فترة قصيرة في المحيط الهادئ، حيث عمل في الإدارة وراء خطوط الجبهة، وذلك، قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة كمسؤول عن القاعدة في كاليفورنيا.

وبعد أن أُرسل إلى واشنطن العاصمة في خريف ١٩٤٥ ليعمل محامياً في عقود البحرية، أجرى الملازم القائد نيكسون اتصالاً مع لجنة المائة المقرّبة من اليمينيين في مقاطعة الكونغرس الثانية عشرة كاليفورنيا. فأجاب نيكسون بعد تلقي المكالمة التي تنبئه بهذا التعيين «هل أنت جاد؟» ووعد بصب كل جهوده في معركة ما بعد الحرب. تزوّج ريتشارد معلمة في مدرسة ثانوية، ومن خلال مدخولهما (بما فيه أرباح

القمار)، جمع نيكسون خمسة آلاف دولار لحملته. أما الباقي بقد أعطته إياه جمعية سرية للجمهوريين المحليين، بمن فيهم مالك صحيفة لوس أنجلس تايمز.

كان حكم لجنة المئة على رجلها صحيحًا، حتى أنّ حاكم كاليفورنيا بات براون قال في هذا الصدد في وقت لاحق: «لطالما شعرت أنه بسبب فقره انضم إلى هؤلاء الجمهوريين الأثرياء الذين غيروه.»[١]

وبما أنه لم يشغل منصبًا في الحكومة من قبل، لم يكن أحد قادرًا على مهاجمته بسبب تاريخه السياسي، وفي المقابل، ولأنه محام متمرّس، هاجم تاريخ خصمه بقدر المستطاع عبر البحث والتشويه. تمكن نيكسونً، عبر اتباعه الإستراتيجيات التي يستخدمها ماك كارثي في ويسكونسين، من تشويه سمعة عضو الكونغرس الديمقراطي حينئذ، جيري فورهيس، الذي شغل الوظيفة لخمس ولايات، متهمًا إياه بأنه حليف الشيوعيين. وبلغ التحدي بينهما ذروته في أول مناظرة من أصل خمس حيث تحدى فيها فورهيس خصمه من دون حكمة. وعرضت المناظرة التي عقدت في الثالث عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٤٦ في مدرسة جنوب باسادينا الثانوية، للمشاهدين، وشكلت أول مسرحية سياسية من بطولة ريتشارد نيكسون. ففي خلال هذه المسرحية لوّح نيكسون فجأةً بوثيقة مزوّرة ادعى أنها «دليل» على أنّ خصمه متعاطف مع الشيوعية، كما استعمل ياغو منديل ديسديمونا المسروق في مسرحية لوليم شكسبير.[٢]

وشكل التشهير بسمعة عضو الكونغرس فورهيس، ابن مليونير ليبرالي مخلص، على أنه متعاطف مع الشيوعية مفتاح نجاح حملة ريتشارد نيكسون الانتخابية. وأقرّ نيكسون في وقت لاحق قائلاً: «أحب الفوز وأبذل قصارى جهودي لأفوز. عليك أن تحارب لتنجح ويجب ألا تكون في موقع الدفاع عن نفسك. إن الرجال الطيبين والجبناء غالبًا ما يخسرون الانتخابات.»[٣] واعترف بعد الانتخابات التي ربحها بأربعة وستين ألفاً وسبعمئة وأربعة وثمانين صوتًا مقابل تسعة وأربعين ألفاً وأربعمئة

(١) كتاب Richard Nixon and His America للمؤرخ هيربيرت بارميت Herbet Parmet، ص. ٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ١١٣.

(٣) المصدر السابق، ص. ٩٠.

وواحد ثلاثين لخصمه «بالطبع كنت أعلم أنّ جيري فورهيس ليس شيوعيًا».[1] وكان فورهيس أيضًا «رجلاً بارزًا» في لجنة المئة وفق ما حذّره أحد أعضاء هذه اللجنة في مكالمة هاتفية لتهنئته.[2]

وبعد أن أعطي الصلاحية ودُفع له ليكون لاعب الهجوم في حزبه لمهاجمة الاتحادات العمالية القوية (قال: «لقد انتُخبت لسحق أصحاب العمل») ولاستهداف «المتعاطفين مع الشيوعية» ذات النفوذ في الفترة الممتدة بين العامين ١٩٤٧ و١٩٤٩ حين استأثر الجمهوريون بالأغلبية في مجلسَي الكونغرس، وكان نيكسون من ناحيته مصرًا على اغتنام فرصته.[3] لم يكن يتمتّع بتاريخ مميز من الخبرة القتالية كزميله، عضو الكونغرس جون أف. كينيدي، غير أنه كان يتحلّى بالمؤهلات لتصدّر العناوين. وشرح أسباب نجاحه أمام اللجنة الأميركية للتحقيق في نشاطات مجلس النواب (HUAC)[4] قائلاً: «لقد كنت المحامي الوحيد في اللجنة لهذا السبب كان لي هذا الدور البارز». في الواقع، لم تكتشف اللجنة يومًا دلالات ملموسة في ظلّ ادعاءات رئيس مكتب التحقيق الفدرالي العلنية بوجود «ما لا يقل عن مئة ألف شيوعي في البلد»، إلا أنها حدّدت مسار الماك كارثية الخبيث للسنوات السبع المقبلة، المتخصص في نشر الشعور بالذنب والدمار الشخصي من خلال التسريبات والتلميحات المدروسة.[5] كان نيكسون شخصيًا مسؤولاً عن مشروع قانون مندت – نيكسون، الذي نص على تسجيل أعضاء الحزب الشيوعي الأميركي وحرمانهم من جوازات السفر ومنعهم من شغل مناصب فدرالية غير منتخبة. وقد اعترض عليه حتى مكتب التحقيق الفدرالي، إذ إنه كان سيدفع الشيوعيين إلى العمل بشكل سري. أما بالنسبة إلى نيكسون فوفّر له مشروع القانون هذا المجد الذي احتاج إليه في خطوته السياسية التالية، أي في التحقيق في الكونغرس عن ألجير هيس، «المتعاطف مع الشيوعية» البارز في الحكومة.

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٩٤.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٣٣.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٤١.
(٥) المصدر السابق، ص. ١٠٧.

صوّر نيكسون، بواسطة خبرته كهاوٍ في المسرح وتدرّبه كمحامٍ، عمدًا هيس مناصراً مخلصاً للعهد الجديد. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأخير كان مسؤولاً بارزًا ورفيع المستوى في وزارة الخارجية وهو الذي قدّم النصح للرئيس روزفلت في يالطا والذي كان من مؤسسي الأمم المتحدة. فيما وصف نفسه بالوطني الذي ينتمي إلى عامة الشعب الأميركي. وبما أنّ هيس كان رجلاً عصاميًا، إذ إن والده انتحر بعد إفلاسه، فاشتدت المعارضة مباشرةً، إلا أنّ كل هذا حوّل أنظار البلد إلى عضو الكونغرس الشاب المرغوب فيه. وتعمّد نيكسون تسريب معلومات سرّية أعطيت إليه، ونشر إشاعات غير مبرهنة، ووعد شاهده الرئيسي بالتحرر من عقاب الشهادة بالزُّور عندما كذب بشأن خيانة نيكسون لبلده في الثلاثينيات، فيما عمل ليلاً ونهارًا على «سحق» هيس. وقد نجح. فقد حُكم على ألجير هيس بالشهادة بالزور في العام ١٩٥٠ ودين وسُجن أربع سنوات في سجن فدرالي. وفي هذا الوقت، برز نيكسون شخصية وطنية، وأعيد انتخابه في الكونغرس وأصبح اسمه مرادفًا لمُعارض الشيوعية الجمهوري إلى أقصى الحدود. وبالتالي، كان لابدّ له أن يضع نصب عينيه هدف شغل منصب في مجلس الشيوخ.

أما الديمقراطيون، فقد عدّوا نيكسون سرًّا، شخصيةً ليبراليةً مدهشةً، فقد كان مؤيدًا للرعاية الصحية وللتعليم الرسمي وللحقوق المدنية، كان «ليبيراليًا»، كما وصف نفسه «ولكن ليس ليبراليًا متحمّسًا» يمثل «الناس وليس المال والسلطة»، كما كان رجلاً يؤمن بالتعاون بين الحزبين و«بالليبرالية العملية» أو «بالليبرالية التقدمية». في المقابل، كان نيكسون وبصفته مناهضًا وناشطًا في حملة انتخابية، شخصًا عديم الرحمة محباً للانتقام ولا أخلاقياً ومكرساً نفسه بكليته لقضيته الخاصة أي لتحقيق ذاته. وقد وصفه رئيس الكونغرس سام رايبورن، بعد ولايته الأولى «بأكبر مخادع من بين كل الذين خدموا في الكونغرس طوال السنوات التي كنت عضوًا فيه»، غير أنّ نيكسون كان متعنتًا.(١) فبدأ نيكسون بالتخطيط لحملته لانتخابات مجلس الشيوخ

(١) كتاب Richard Milhous Nixon: The Invincible Quest للكاتب والمؤرخ كونراد بلاك Conrad Black، ص. ١٥٩.

في العام ١٩٤٩، قبل ثمانية عشر شهراً من موعد الانتخابات. فانتقد الديمقراطيين بوصفهم حزب «اشتراكية الدولة»، وقال: «يمكنهم أن يسموه اقتصادًا مخططًا أو الصفقة العادلة أو الرعاية الاجتماعية،إلا أنه يبقى على أي حال الهراء الاشتراكي نفسه كيفما نظرت إليه.»[١] وبفضل قضية هيس، تباهى مدعيًا أنه كسب شعبيةً «بنسبة لا تحلم بتحقيقها غالبية أعضاء الكونغرس.»[٢]

غير أن حملة نيكسون في العام ١٩٥٠ لانتخابات مجلس الشيوخ ضدَ هيلين غاهان دوغلاس، التي كانت زميلته في الكونغرس وزوجة الممثل الهوليوودي الشهير مالفين دوغلاس وإحدى أجمل نساء أميركا، باءت بالفشل بشكل مخزي. فتابع انتقاد دوغلاس التي كان مقرّبًا منها حتى ذلك الحين، واصفًا إياها بالمتعاطفة مع الشيوعيين واليسارية إلى أقصى الحدود.[٣] وتعهد نيكسون بشنّ «حملة قتالية وعاصفة وضارية».[٤] وقد نجح في ذلك من خلال المكالمات المجهولة ونصف مليون نسخة عن «جدول أعمال اليساريين» ودعم الممولين ورجال النفط الجمهوريين. لم يكن أي ادعاء أو اتهام فظيعًا بالنسبة إلى نيكسون الذي دعا القوات الأميركية إلى عبور خط العرض ٣٨ في كوريا في إثر اجتياح كوريا الشمالية للجزء الجنوبي من البلد، والذي دان عضو الكونغرس دوغلاس لدفاعها عن مقعد شيانغ كاي تشيك في مجلس أمن الأمم المتحدة معتبرةً أنّ المقعد يجب أن يعطى إلى الحكومة الصينية الشيوعية، وهي سياسة تبناها بنفسه بعد عقدين من الزمن ما أثار شكوك دوغلاس.

وعندئذ بذلت دوغلاس قصارى جهودها في تحذير الناخبين من استعداد نيكسون للكذب والغش ملقبةً إياه «بالعابث المحتال»، ولكن من دون جدوى. وأينما أقام حملته، كان نيكسون يدعي «أنه كان يعرف شخصيًا أنّ ملفات لجنة النشاطات تحوي معلومات مخيفة حول نيات المتعاطفين السرّيين مع الشيوعيين في أميركا، بما فيها وضع

(١) المصدر السابق، ص. ١٤٩.
(٢) كتاب Richard Nixon and His America للمؤرخ بارميت Parmet، ص. ١٨٢.
(٣) كتاب Richard Milhous Nixon للكاتب والمؤرخ بلاك Black، ص. ١٦٢.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٤٩.

السموم في مياه الدولة والموارد الغذائية ومهاجمة المنشآت العامة وتعطيل القطارات والاستيلاء على مخازن الأسلحة وغيرها من الأعمال المماثلة».[1] وشكل إعلان جاي. إدغار هوفر وجود ما يتعدى نصف مليون متعاطف مع الشيوعيين في البلد وكشف جو ماك كارثي أمام الصحافيين لائحة مزوّرة بأسماء مئتين وخمسين ناشطًا شيوعيًا يشغلون أعلى المراتب في الحكومة الأميركية، تُرّهات غوغائية لمصلحة نيكسون. وبذلك، وفي السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠، فاز بالمقعد في مجلس الشيوخ بأغلبية ساحقة (٢،١ مليون صوت مقابل ١،٥ ملايين صوت لدوغلاس).

كان نيكسون آنذاك في السابعة والثلاثين من عمره، أي أصغر عضو في مجلس الشيوخ ممثلاً ثاني أكبر ولاية في أميركا من حيث عدد السكان. وكان باستطاعته البقاء في منصبه في مجلس الشيوخ، لو أراد أن يبقى لبقية حياته، سياسياً عازماً وقادراً على دعم القضايا الاجتماعية في واشنطن من الحقوق المدنية إلى الرعاية الصحية ليقبله الديمقراطيون فيما يتظاهر بأنه يميني متشدّد معارض للشيوعيين ولمؤيدي العهد الجديد في الحملات الانتخابية. غير أنّ نيكسون تطلّع إلى الوصول إلى أعلى المراتب بسرعة. وعند سفره إلى أوروبا في بداية صيف العام ١٩٥١، زار نيكسون مع القائد الأعلى لحلف شمال الأطلسي، الجنرال أيزنهاور. وعقب ذلك، أعلم نيكسون داعم أيزنهاور الرئيسي سيناتور ولاية مساشوستس هنري كابوت لودج، أنه قادر على جعل مندوبي كاليفورنيا يدعمون الجنرال في خلال المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري الذي سيعقد في العام ١٩٥٢. في الواقع نجح في تحقيق ذلك مكتسبًا فرصةً في أن يصبح نائبًا للرئيس.

غير أنّ الأحداث لم تسِر وفق ما خطط له نيكسون. ففي الثامن عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٥٢، وتحت عنوان « رجل ثري مجهول يدعم نيكسون بمبالغ تفوق راتبه»، نُشرت مقالة في نيويورك بوست تقول إن نيكسون مدعوم اقتصاديًا ويموله داعمو الجمهوريين في كاليفورنيا. فانتشرت الفضيحة.

(١) المصدر السابق، ص. ١٥٧.

فذُهش أيزنهاور الذي كان يقوم بحملة تحت عنوان النزاهة التامة في الحكومة (بعد أن تم كشف فضائح عن مسؤولين في إدارة ترومان المنتهية ولايته)، أمام فكرة إمكانية أن يخسر الانتخابات الرئاسية بسبب زميل شاب طموح في الحملة ولكن فاسد طالما تردد بشأنه. وأمام «عزمه حتى الموت» على النجاح، أصرّ أيزنهاور على أن تكون «صفحة فريقه بيضاء كالثلج». وفي قضيتين على الأقل، توسّط نيكسون في وزارة العدل لمساعدة مكتتبين أثرياء، على الرغم من مطالبته بأن يستقيل الديمقراطيون الرئيسيون من الكونغرس لأنهم قدموا خدمات مماثلة. ولذلك فضل أيزنهاور التخلي عن نيكسون فورًا. بيد أن نيكسون رفض ذلك.

وعلى متن قطار الحملة، أعلن نيكسون في محطة ويستل أنه كان ضحية «يساري قذر شوه سمعته»، ما كان تعبيرًا ساخرًا نظرًا إلى استراتيجيته السابقة في الانتخابات. وبصفته محامياً من الدرجة الأولى، أقرّ بأن متهميه بالغوا في بعض ادعاءاتهم التي شملت أثاث بيته ومعطف زوجته المصنوع من الفرو، وهو شيء لم تملكه أصلاً. ولذلك طالب نيكسون أيزنهاور بفرصة لتبرئة نفسه في بثّ تلفزيوني. وأمام تردّده في إعطائه فسحة خشيةً من جذب الرأي العام إليه أكثر، ماطل أيزنهاور في الإجابة فصاح نيكسون به: «أيها الجنرال، يحين وقت في السياسة يكون عليك إما الموافقة وإما الرفض بصراحة»![1]

وعلى صعيد آخر، يستحيل إنكار أهمية «خطاب التشيكرز» (كما أصبح معروفًا) ريتشارد نيكسون في عالم السياسة. وحتى أيزنهاور الذي تعوّد تمثيل الجنرالات كجورج باتون وبرنارد مونتغوميري وشارل ديغول، ارتعب من أداء نيكسون في بثّ محلي شاهده ستون ألف شخص، وهو أكبر عدد مشاهدين لخطاب سياسي في التاريخ.

كانت زوجة نيكسون قد توسّلت إليه في وقتٍ سابق، ألا يقبل عرض أيزنهاور

(١) كتاب Nixon: The Education of a Politician, ١٩١٣-١٩٦٢ للمؤرخ ستيفن أمبروز Stephen Ambrose، ص. ٢٨٢.

منصب نائب الرئيس والتخلي بذلك عن منصبه الآمن كسيناتور. غير أنّ فضيحة معطف الفرو كانت ستدمر مسيرة نيكسون المهنية حتى ولو أنقذت استقالته أيزنهاور والحزب الجمهوري. فحذرته قائلةً: «إذا استقلت فستدمر نفسك. وستفسد حياتك وحياة عائلتك وعلى الخصوص بناتك إلى الأبد.»[1] فقال نيكسون لمبعوث أيزنهاور، الحاكم ديوي: «قل لهم إنه ليس لدي أدنى فكرة، وإذا أرادوا معرفة الحقيقة فعليهم الاستماع إلى البث». وأضاف منذراً «وقل لهم إنني أنا أيضًا أفهم في السياسة».[2]

وكان نيكسون بالفعل جديرًا بالسياسة. وقال في وقت لاحق بأنه كان قد «هيّأ» العرض بأسره من المنبر الذي وقف فوقه، إلى زوجته التي جلست قربه مرتديةً فستانًا من الصوف مصنوعاً في المنزل، حتى أنه ارتجل خطابه فلم يكن أمامه أي نص باستثناء بعض الملاحظات التي كان يحملها. ووصفه أحد كاتبي السير «لقد ترجح ما بين شخصية التاجر البارع من جنوب كاليفورنيا وشخصية أوريا هيب المنافق والخسيس»، غير أنّ أداءه كان فعالاً بشكل ساحر، فيما أبطل نيكسون بادئ الأمر الادعاءات الموجّهة ضده وقلب بعدها الأمور رأسًا على عقب.[3]

وبتعداد أصوله وممتلكاته، أعلن السيناتور الواقع في موقف حرج قائلاً: «حسنًا، هذا كل ما نملكه. هذا كل ما لدينا وكل ما علينا. ليس بكثير، لكنني وبات مقتنعان لأنَّ كل فلس نملكه هو لنا بكل صدق. وعليّ أن أقول إن بات لا تملك معطفًا من فرو. لكنها تملك ثيابًا لائقة تضيف إليها رونقاً لكونها جمهوريةً وأقول لها دائماً إنها تبدو جميلة مهما ارتدت.» وصحح قوله بعدئذ: إنهم قبلوا هديةً بعد الانتخابات الأخيرة. «سمع رجل في تكساس بات عبر الراديو تقول إن ابنتينا الصغيرتين ترغبان في الحصول على كلب. وصدقوا أو لا تصدقوا، في هذا اليوم قبل مغادرتنا لهذه الحملة، تلقينا رسالة من محطة يونيون ستايشون في بالتيمور لإبلاغنا وصول طرد لنا... كان الطرد صندوقًا فيه كلب صغير من نوع كوكر شبانيل أرسله الرجل من

(١) كتاب Richard Milhous Nixon للكاتب والمؤرخ بلاك Black، ص. ٢٢٩.
(٢) كتاب Six Crises لريتشارد نيكسون، ص. ١١٠.
(٣) كتاب Richard Milhous Nixon للكاتب والمؤرخ بلاك Black، ص. ٢٤٨.

تكساس. كان لونه أبيض وأسود ومنقطاً، أطلقت عليه ابنتنا الصغيرة تريسيا، البالغة السادسة من العمر، اسم تشيكرز. وكما تعلمون، إن البنتين تحبان الكلب وأود أن أقول إنه على الرغم من كل الادعاءات بشأنه سوف نحتفظ به.»

بكى الكثيرون عند سماعهم هذه الأقوال. غير أنّ الخطاب لم يقتصر على ذلك، فقد قدم السيناتور نداءً لأجل «الرجل الصغير» في السياسة الأميركية، قائلاً: إن خصم أيزنهاور الديمقراطي، الحاكم أدلاي ستيفنسون، كان رجلاً ثرياً ورث ثروةً من والده، وهذا أمرٌ مقبول، غير أنّ الرجال «ذوي الأحوال المادية المتواضعة» استحقوا فرصةً أيضًا، واقتبس الرئيس الجمهوري أبرهام لينكولن الذي كان قد قال «لا بد من أن الله قد أحبّ عامة الشعب لأنه خلق كثيرين منهم.» ودعا بذلك الحاكم ستيفنسون ومرشحين آخرين أن «يتقدموا أمام الشعب الأميركي كما فعلت ويدلوا ببيان كامل عن تاريخهم الاقتصادي. وإذا لم يفعلوا، فسيكون ذلك برهانًا على أن لديهم ما يخفونه.»[1]

صنع خطاب تشيكرز التاريخ السياسي والتلفزيوني. ومع أنّ أيزنهاور انتظر يومًا آخر ليبدل رأيه، حتى يظهر من كان الأكبر بينهما، استحال عليه بعد ردة فعل الجمهور الإيجابية التخلي عن نيكسون. فكان لا بد من أيزنهاور وأميركا متابعة العمل مع نيكسون.

عرف نيكسون ما كان يجول في عقول الجمهور وأدرك حاجته لأن يعرّف بنفسه كمرشح أميركي عادي وغير استثنائي، كرجل له زوجة وأولاد وبيت ورهن وديون وكلب. فتلاعب بوقاحة بمشاعر المشاهدين العاديين وكسب تعاطفهم بخدّيه الممتلئين ووجهه البريء والكئيب. لم ينجح أيّ من القياصرة الأميركيين الذين تلوه، في حملاتهم، من دون إقامة التواصل العائلي والإنساني من خلال شاشة التلفاز.

فقال له الجنرال أيزنهاور عند استدعائه إلى اجتماع في فرجينيا: «أنت الشاب الذي أريده» وسمح له بالعمل على الحملة (على الرغم من ارتعابه عندما قال نيكسون إنّ ترومان كان «خائنًا»).

(١) نقلاً عن المصدر السابق، ص. ٢٤٩.

لكن فور فوزه في انتخابات العام ١٩٥٢ وتعيينه رئيسًا للبلاد، بالكاد سمح أيزنهاور لنيكسون بدخول البيت الأبيض. ولم يسمح لنائبه بحضور اجتماعات مجلس الوزراء والحكوميين البارزين. كما حاول أن يعرقل إعادة انتخابه في العام ١٩٥٦ فعرض عليه منصبًا رفيعًا في الحكومة، غير أنَ نيكسون رفض بالطبع العرض خشية أن يخسر فرصته في الحلول مكان الرئيس إذا توفي في خلال ولايته. وبعد أربع سنوات ضمنت موافقة أيزنهاور المُتردّدة عدم تغلب نيكسون عليه، وذلك، عندما هُزم نائب الرئيس في انتخابات العام ١٩٦٠ أمام السيناتور جون أف. كينيدي.

استاء نيكسون من نية الرئيس السيئة نظرًا إلى أن حفيد أيزنهاور، دايفد، تزوج جولي ابنة نيكسون الجذّابة. وبأي حال، كشّر نيكسون عن أنيابه. فرفض عروضًا بالانضمام إلى مكاتب محاماة في نيويورك وعاد إلى العمل محامياً في كاليفورنيا. وبعد أن نصحه الرئيس كينيدي، كتب كتابًا عنوانه «الأزمات الستّ»، فكان الكتاب الأكثر مبيعًا ما سمح له بشراء منزل جميل في بيل اير بالقرب من غروشو ماركس. فتوسلت إليه زوجته قائلةً: «دعنا لا نترشح، لم لا نبقى في البيت عائلة تتمتّع بالخصوصية»، آملةً أن تقنعه بالتخلي عن حلمه السياسي.[1] بيد أنه، وعلى الرغم من الوعود التي قطعها لها، لم يكن ينوي الابتعاد عن السياسة. وعلى الرغم من نصائح زوجته وبعض المستشارين، اغتنم الفرصة في خريف العام ١٩٦١ ليترشح لمنصب حاكم كاليفورنيا، واضعًا بذلك حجر الأساس للوصول إلى الرئاسة.

غير أنّ الزمن كان قد تبدّل. وقد تذمّر نيكسون عندما كان الحضور في اجتماعات حملته ضئيلاً قائلاً: «هذا ما عليك توقعه من هؤلاء الفلاحين الحقيرين المحليين. لن أعطيهم حتى بقايا طعامي».[2] صنع خطاب نيكسون التنازلي بمرارته اللاذعة التاريخ، بعد ليلة من شرب الكحول، وبحسب بعض المصادر، بعد الإساءة إلى زوجته إلى درجة أنها لم تستطع الظهور علانية. وقال نيكسون للصحفيين: «أود أن

(١) كتاب Arrogance of Power: The Secret World of Richard Nixon للكاتب أنطوني سمرز Anthony Summers، ص. ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٢٦.

أقول شيئًا أخيرًا، فيما أغادركم أريدكم أن تعلموا كم ستخسرون. لن أقف إلى جانبكم بعد الآن، لأنه سيكون هذا آخر مؤتمر صحفي لي يا سادة».[1] وادعى أنه سيتخلى عن السياسة إلى الأبد. فأعلنت مجلة تايمز «كانت هذه فرصته الأخيرة، لن يحلم ريتشارد نيكسون بأن ينتخب لأي منصب سياسي آخر.»[2]

ومع ارتفاع نسبة التأييد للرئيس كينيدي في استطلاعات الرأي إلى مستويات قياسية بعد إنهاء أزمة الصواريخ في كوبا في خريف ذلك العام، ركّز نيكسون على كسب المال (مئتان وخمسون ألف دولار سنويًا) وإقامة علاقات مع أشخاص أثرياء مثل وولترِ أنينبيرغ وإلمر بوبست وبيبي ريبوزو ودون كيندال. وانتقل للعيش في شقة من اثنتي عشرة غرفة في الجادة الخامسة في مدينة نيويورك، وراح يجوب العالم كزعيم سياسي قديم وشاب في الحزب الجمهوري، فكسب بذلك دعم زعماء العالم كالجنرال فرانكو وويلي براندت وديغول وجمال عبد الناصر. كما زار فيتنام.

وأمام صراع روكفلر وغولدواتر في الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٦٤، وبعد أن هُزم غولدواتر على يد الرئيس جونسون، بدأ الشعب الأميركي ينسى تدريجًا الخطأ الذي ارتكبه نيكسون في كاليفورنيا. وعلى الرغم من اضطلاعه بدور رجل دولة، خشي الأشخاص الذين عملوا معه عقليته الغريبة. وأنذر توم ويكر في صحيفة نيويورك تايمز قائلاً: «إنه أصعب شخص قد تتعامل معه، فهو يملك اندفاعًا داخليًا يحفّزه على الوصول إلى السلطة وتبرئة نفسه فقد عاش بألم الفشل والإهانة، وهو رجل فرض على نفسه رقابة متشدّدة لا يمكن لأي أحد أن يراها» باستثناء زوجته وطبيبه النفسي.

في هذا السياق، كان الدكتور أرنولد هاتشنيكر أكثر قلقًا مع أنه أقسم على حفظ السرية. فاعترف نيكسون لطبيبه أنه عندما كان ينظر إلى نفسه في المرآة «لا أرى أحداً». كان لا يزال يعاني الأرق والإحباط وبدا كأنه كان يواجه صعوبة في أن يكون

(١) كتاب Nixon: A Life للكاتب جوناثان أيتكين Jonathan Aitken، ص. ٣٠٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٠٦.

على قدر شخصية والدته التي انتمت إلى جمعية الأصدقاء الدينية السامية والمقدّسة. وفي الوقت عينه، ظهرت في البيت ازدواجيته الغريبة، ففي السياسة يستند بشكل كبير إلى «الادعاءات والأكاذيب». وقال نيكسون لأحد مساعديه بعد «بعض الأكاذيب الشنيعة» لأحد الجماهير: «جون، يمكنني أن أقول أشياءً عندما يقولها الآخرون تكون أكاذيب ولكن عندما أقولها أنا لا يصدقني الناس في جميع الأحوال!» فقال المساعد متذكرًا: «ومنذ ذلك الحين أدركت أنني كنت أتعامل مع شخص معقد جدًا».[1]

ومع أنّ الصحافيين كتبوا أنّ نيكسون شخصية من الماضي، وفاشل مشفق على نفسه ورجل حزين لا يتلاءم وأحلام السلطة وزمن الستينيات، لكن تأثيره بقي في إطار الحزب الجمهوري قويًا. ومع تدهور مجتمع جونسون المثالي بوجه الخسائر المتزايدة في حرب فيتنام التي لم تلقَ أي دعم وبسبب أعمال الشغب في الداخل، دقت من جديد ساعة نيكسون. فجمع أكبر دعم اقتصادي من الجمهوريين في التاريخ، وربح الانتخابات الأولية في الحزب الجمهوري عام ١٩٦٨ ضدّ الحكام رومني وروكفيلر وريغان (الذين أُطلق عليهم لقب الراءات الثلاث). وفي المؤتمر القومي الذي عُقد في ميامي في آب/أغسطس ١٩٦٨، حقق فوزًا ساحقًا في الاقتراع الأول، غير أنّه، ويا للمفاجأة المخيفة اختار شخصًا مجهولاً (وغير محقق في أمره) حاكم ماريلاند، سبيرو تي. أغنيو، ليكون نائبه بدلاً من السيناتور جورج رومني الأكثر تميزًا، ما شكل إشارة شؤم ملحوظةً بعض الشيء، ودلّ على عدم ثقته بالآخرين وعدم قدرته على تقاسم الأضواء مع أحد، وهي خطوة غير اعتيادية لإعادة اكتشاف ذاته.

ميزت خطابات نيكسون المدروسة ولايته الثانية في البيت الأبيض، مع كاتبي خطاباته الجديدين بات بوشانان ويليام سفير، وأوصلته إلى أعلى المستويات في الحزب الجمهوري. وقال نيكسون في خطاب قبول الترشيح في ميامي: «إذا نظرنا إلى الولايات المتحدة نرى مدنًا مغمورةً بالدخان والحرائق، ونسمع صفّارات الإنذار في الليل. ونرى أميركيين يموتون في ساحة قتال بعيدة في الخارج، ونرى أميركيين

(١) المصدر السابق، ص. ٣٢٣.

يكرهون ويقتلون بعضهم بعضًا في الداخل. وفيما نرى ونسمع كل ذلك، يبكي ملايين الأميركيين من الألم. هل قطعنا كل هذه الأشواط للوصول إلى هذه الحال؟ هل مات الشباب الأميركيون في النورماندي وكوريا وفالي فورج لأجل هذا؟» وفيما توقف برهة، جاءته الإجابة عن أسئلته من الأفواه الصامتة، هذا الصمت الذي ارتفع وسط الضجيج العالي. إنه صوت غالبية الأميركيين، الأميركيين المنسيين الذين لايصرخون ولا يتظاهرون. هؤلاء الأشخاص الصالحون الذين يتمتّعون بالشهامة. فهم يعملون ويجمعون المال ويدفعون الضرائب ويبدون اهتمامًا. يعملون في المصانع الأميركية ويديرون الشركات الأميركية ويخدمون الدولة. فمنهم يتحدّر معظم الجنود الذين يموتون في سبيل الحفاظ على حرية بلادهم. هؤلاء هم الذين يبعثون الحياة في أميركا والحلم الأميركي.[1]

فشكل خطابه هذا مقاربةً مختلفة لـ«قيم» الجمهوريين المعارضة للشيوعية وللضرائب وللحكومة التي كان الحاكم رونالد ريغان يعلنها. كما جسّد صوت نيكسون الأفضل والمتعاطف والمسؤول، الابن «الصالح» لهانا ميلهوس التابعة لجمعية الأصدقاء الدينية، الابن المطيع والمجهد الذي كان يساعد والده على شراء الخضر وحفظها وبيعها وتوصيلها إلى محل البقالة في يوربا ليندا، وذلك، بلجوء نيكسون إلى الممولين الأغنياء والاستسلام للشر الموجود فيه. وللأسف كان ذلك جانبًا من شخصية نيكسون ناقضه بخطوته التالية، التي طغت عليها الخيانة والتخريب إذ اخترق الرئيس جونسون في آخر لحظة مفاوضات السلام وخرّبها مع شمال فيتنام لإنهاء الحرب الفيتنامية.

وبمنع الرئيس تيو من حضور مفاوضات السلام في باريس، دحض نيكسون انتصار الرئيس وأطاح فرصة نائب الرئيس هيوبرت همفري في الفوز في الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٦٨. وفي منتصف ليلة الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٨،

(١) المصدر السابق، ص. ٣٥٧.

بدا أنّ همفري كان متقدمًا بفرق ١٪ من الأصوات، غير أن الصورة في الانتخابات الطالبية كانت أقل تفاؤلاً. وفي الثالثة صباحًا، أعلن نيكسون الذي كان يحسب أرقام الانتخابات الطالبية على دفتره القانوني الأصفر الشهير، انتصاره في الانتخابات. فاز نيكسون بفرق بسيط يقل عن ١٪، خاطفًا فوزه من بين أنياب الخسارة منتقماً لخسارته أمام جون أف. كينيدي في العام ١٩٦٠.

الجزء الثاني: الرئاسة

وفور تبوّؤ نيكسون سدة الرئاسة في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٦٩، تجنب المكتب الرسمي. فاختار بدلاً منه جناحًا سريًا أو مخبأً، أي الغرفة إي أو بي، في مبنى المكتب التنفيذي القديم المجاور الواقع على طول جادة بنسيلفانيا، وسط مجموعة مكاتب مزدحمة. وشكل حكومة من ذوي القدرات المتواضعة، ضمت وليم روجرز وزير الخارجية الذي كان يكتب رسائل مشفَّرة ليستطيع بنفسه إدارة السياسة الخارجية الأميركية، وهنري كيسنجر مستشار الأمن القومي والعالم السياسي الذي تخرّج في جامعة هارفرد.

ومن الغرفة ذات الرقم مئة وخمسة وسبعين، أصدر الرئيس الجديد، وبمساعدة زمرة من الموالين له وأتباعه المتحفظين، مراسيم وتعليمات جديدة من دون الاضطرار إلى الاجتماع بالأفراد وجهًا لوجه. وقال كيسنجر: «لم أرَ في حياتي مجموعة أوغاد يلحقون مصالحهم الشخصية بقدر هذه المجموعة «وذلك تعليقًا على عصابة نيكسون التي كانت تذكّره بحاشية ممالك القرون الوسطى، والتي كان أعضاؤها أسوأ من زملائه في هارفرد.[1] غير أنّ وليم روجرز رأي أنّ كيسنجر يشكل مشكلةً بوصفه «الميكيافيلي والمخادع والمغرور والمتغطرس والجارح.»[2]

(١) كتاب Nixon and Kissinger: Partners in Power للمؤرخ روبرت دالاك Robert Dallek، ص. ٩١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٩٢.

حُمل الناخبون على التصديق أنّ لنيكسون فرصةً أكبر لإنهاء الحرب بسرعة بالمقارنة بخصمه، وذلك بموجب «خطة سرية».[١] ولكن كما أشار المؤرّخ روبرت دالاك «لم يكن ذلك إلا مؤامرةً للفوز في الانتخابات»[٢] تحولت إلى كارثة قومية عندما اكتشف نيكسون أنه يستحيل تغيير معارضة الرئيس تيو لعقد معاهدة سلام مع شمال فيتنام. فكان حينئذ نيكسون وكيسنجر في وضع حرج، فلم يبق أمامهما حل بديل لإنهاء الحرب سوى إدخال قوى أخرى إلى شمال فيتنام.[٣]

الحقيقة المرة. كان نيكسون يتناول غداءه وحده في الغرفة ذات الرقم مئة وخمسة وسبعين تحت حماية رئيس قطاعه السياسي بوب هالدمان والمسؤول عن الشؤون الداخلية جون أرليشمان. في الواقع، كان يمضي في هذه الغرفة ساعات طويلة يفكر ويخطط ويخيط ويملي فيما عمل على إعادة صوغ السياسة الخارجية الأميركية والتخلّص من المخاوف الداخلية بحجة «بناء منازل في بيوريا».[٤] وبالتالي، رفض الإدلاء بخطاب حال الاتحاد ورفض دائمًا المؤتمرات الصحفية وقرر الاكتفاء بالظهور في المناسبات وتحت مراقبة مشدّدة. كما حاول قدر المستطاع قطع العلاقات المباشرة مع وزارة الخارجية والديبلوماسيين الأجانب. وبدلاً من ذلك، بدأ يسافر من مخبأ إلى آخر مع موكب من موظفيه فيما كان على الدكتور كيسنجر وهالدمان وأرليشمان أن يترجموا قراراته إلى أرض الواقع من دون الرجوع إلى الحكومة أو الكونغرس أو وزارة الدفاع. كما اعتمد على مواليه جون ميتشل الذي عينه نائبًا عامًا لمراقبة أية تسريبات إلى الإعلام. وكل شخص ينشر تفاصيل أو يكشف نيات الرئيس أو قراراته يصبح عرضةً للتنصت، وبمن فيهم كيسنجر. وأصبحت كامبوديا أول ضحية لهذه المقاربة للرئاسة.

سأل المؤرّخون في وقت لاحق، كيف بإمكان رئيس الولايات المتحدة المنتخب

(١) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ ستيفن أمبروز Stephen Ambrose، ص. ١٠٤.
(٢) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١٠٤.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٠٧.
(٤) كتاب President Nixon : Alone in the White House للكاتب ريتشارد ريفز Richard Reeves، ص. ٣٣.

بكل ديمقراطية إعادة صوغ الدور الرئاسي الدستوري وتجاوز الضوابط والموازين المعروفة، أي الكونغرس والمحكمة العليا والإعلام الحر؟

وكانت الإجابة عن هذا السؤال ستار الحرب، وجاءت بعد ثلاثة عقود. فالرئيس جونسون كان قد أطلق الحرب لإرضاء القوميين المتشدّدين والمتعاقدين الإستراتيجيين المنشغلين بنظرية الدومينو التي طغت على التوسع السوفياتي. وبعدئذ عمل رئيس لجان مستشارين متتالية. غير أنّ اهتمامات نيكسون كانت مختلفة. فكما «ضرب كينيدي الجمهوريين من اليمين»، بلغة المؤرّخين، كانت نيات نيكسون متطرفة كذلك، حيث هدف إلى ضرب الديمقراطيين من اليسار، على أمل أن يغير جدول أعماله المعارض للشيوعية ويبحث عن نظام عالمي جديد يستند إلى التقارب والتوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين الشيوعية بصفتها قوى العالم العظمى الثلاث، إذ تمتع كل منها بنطاق سيطرتها الخاص. ولتحقيق هذه الغاية، كان مضطراً إلى إنهاء الحرب في فيتنام بأقرب وقت ممكن. وأمام مقاومة الرئيس تيو كل الإغراءات، قرر نيكسون تصعيد الحرب إلى مستويات لا مثيل لها منذ الحرب العالمية الثانية.

وبفضل صلاحية نيكسون بصفته القائد العام للقوات المسلحة، وضع في الشهر الثاني بعد توليه الرئاسة، خطة قصف جديدة لقطع ممرّ هو شي منه، الذي كان يشكل بوابة للإمدادات ولقوات جيش شمال فيتنام للوصول إلى الجنوب.

وبناءً على الخطة الجديدة، وابتداءً من الثامن عشر من آذار/مارس وحتى السادس والعشرين من أيار/مايو ١٩٦٩، قصفت القوات الجوية الأميركية كامبوديا وجنوب لاوس (عملية القائمة) من دون إعلام وزير القوات الجوية أو العالم الخارجي، وذلك من خلال الإحداثيات المزيفة والدفاتر مزدوجة القيد.

لو نجح التصعيد السرّي لكان نيكسون ومستشارو الأمن القومي قد أُعذروا على القتل الجماعي المتعمد لأنه شكل ضرورةً لتحقيق السلام. لكن ولخيبة أمل الدكتور كيسنجر، لم يُحدث القصف أي تغيير في موقف هانوي، ولم يؤدّ إلى أي نتائج

باستثناء غرق كامبوديا في دوامة الحرب الأهلية التي كان وقعها مأسويًا وأدت إلى هجرة ستمئة ألف لاجئ في لاوس (أي ٢٠٪ من سكانها) وازدياد التنصت غير الشرعي في أميركا إلى المكالمات الهاتفية عندما كشفت صحيفة نيويورك تايمز أخيرًا عن الغارات على كامبوديا.

وبحلول صيف العام ١٩٦٩، أقر نيكسون سرًا أن «الانتصار» أو حتى عقد هدنة على غرار الهدنة مع كوريا كان أمرًا مستحيلاً، مادام البلد منقسمًا قسمين. فطُرِح حينئذ سؤال نابع من الاستبدادية الأميركية المتغطرسة: كيف سيتمكّن قائد القوات المسلحة من إخراج الجيش الأميركي من فيتنام من دون أن يتأذى موقع أقوى دولة في العالم الحر أي الولايات المتحدة كثيرًا؟

كان الرئيس ديغول قد أوصى بالتخلي عن الغطرسة واتخاذ قرار بسيط بترك البلد، كما انسحب الفرنسيون من الجزائر. غير أنّ فرنسا كانت إمبراطوريةً مستضعفةً، انسحبت كعلامة تأقلم موجع على الواقع الأوروبي في مرحلة ما بعد الاستعمار. وعلى الرغم من توقع المنتقدين انهيار الإمبراطورية الأميركية نظرًا إلى الفوضى في البلد وحرق بطاقات الخدمة العسكرية وتعاطي المخدّرات واقتحام حرم الجامعات واحتجاج الطلاب المناهضين للحرب، كان نيكسون مقتنعًا بأنهم كانوا على خطأ، وقد يكون هذا الأمر الوحيد الذي كان محقًا فيه. فأصبح الاقتصاد الأميركي على الرغم من التضخّم والبطالة أكثر إنتاجًا من أي وقت آخر، وخرق الأسواق العالمية، ولم ينقص إلا إعادة القوات إلى الوطن.

فواجه الرئيس المشكلة نفسها التي واجهها سلفه، والتي قضت بإيجاد خطة «لائقة» للانسحاب من فيتنام. وفيما كان لا يزال يدين بالفضل للرئيس تيو في انتخابه، أبقى نيكسون على سرية عملية القائمة أربع سنوات أخرى، أسقط في خلالها مليون طن من القنابل. وفي هذا الوقت، تخبط هو ومستشار الأمن القومي في خطط إيجاد مخرج إذ رفض قبول «أول هزيمة في تاريخ البلاد»، بحسب نيكسون.[1]

(١) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ ستيفن أمبروز Stephen Ambrose، ص. ٣٠٩.

فقلق نيكسون حيال عدم القدرة على تحطيم «قوات من الدرجة الرابعة كقوات شمال فيتنام» من دون اللجوء إلى الأسلحة النووية. ورفض تصديق أنه لم يكن لهوشي منه «أية نقطة ضعف». كما أنه أمعن في التفكير في إمكانية تنفيذ «نظرية المجنون»، أي افتعال سلوك جنوني وغير متوقَّع. فقال لكيسنجر إنه أراد، كما فعل نيكيتا خروتشوف قبله، أن يراه شمال فيتنام و«رعاته» كشخصية همجية وخطيرة تميل إلى الأسلحة النووية، لكي يضطر شمال فيتنام إلى المفاوضة في تسوية في باريس بغية تحقيق الأمن. فقال نيكسون لرئيس القطاع السياسي: «سوف نذكر الموضوع أمامهم». سيجبن العدو الذي سيقول: «لا يمكن منعه عندما يكون غاضباً فهو يضع إصبعه على زر إطلاق السلاح النووي». وشدّد الرئيس قائلاً: «سيكون هوشي منه في باريس بعد يومين متوسلاً لعقد معاهدة سلام».[1]

لكن حتى الممثل البارع نيكسون نفسه، لم يؤمن بأنه قادر على تحقيق ذلك وحده. لذلك، أمر بوضع خطط لهجوم وحشي تحت اسم عملية داك هوك التي ستشكل «هزة سياسية وعسكرية ونفسية قاسية» للعدو، وندم في الواقع على عدم اتخاذه خطوة كهذه فور انتخابه. فقال لكاتب خطاباته بيل سفير: «كان علينا قصفهم والقضاء عليهم فور تولينا مناصبنا». وفي الوقت عينه تابع التفكير في فكرة «الرجل المجنون». فانتشرت الأقوال في البيت الأبيض بأن «الرئيس سيلقي قنبلةً قبل نهاية العام وينهي الحرب ».[2] ولدعم نظرية «الرئيس المجنون»، أمر نيكسون بإرسال «قوى نووية ممكنة إلى قواعد التشغيل»، في خطوة هدفت إلى تخويف الروس ودفعهم إلى الضغط على شمال فيتنام للتراجع.

غير أنّ أياً من هذه الخطط لم تنجح، بل تعالت أصداء الاحتجاجات في أميركا. وفي النهاية، وردًّا على احتجاج ضخم مناهض للحرب ، شهدته البلاد في الخامس عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٩ عرف بالموراتوريوم، رضخ نيكسون أخيرًا لغالبية

(١) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٥٤-١٥٥.

الأميركيين المحتجين، كما فعل الرئيس جونسون قبله. وقد أمل الرئيس الفوز في انتخابات الكونغرس النصفية في العام ١٩٧٠، وإذا أمكن بإعادة انتخابه رئيسًا في العام ١٩٧٢. ولذلك، رفض اقتراحات كيسنجر بتصعيد القصف أو بإرسال قوات أميركية إضافية. بل على العكس، اقترح نيكسون الضغط على تيو للموافقة على «إلغاء الأمركة (من أميركا)» من الصراع، وهي خطوة سميت فورًا «بالفتنمة» (من فيتنام).

بدت «الفتنمة» أفضل بكثير من الهزيمة، بيد أنها تستند إلى الأساس نفسه وهو أنّ الجنوب قد انتهى أمره إذ إن قواته لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها من دون مساعدة الأميركيين على غرار كوريا الجنوبية.

وفي خطاب ألقاه في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٩، حاول نيكسون أن يبين فشله كخطوة شجاعة لحل الصراع في فيتنام، ولام الشمال على رفضه الاستسلام. وفي هذا الوقت، وبالادعاء بأن الحرب كانت تجري بشكل جيد، أعلن أنه سيبدأ بسحب عشرات آلاف القوات كجزء من سياسة «الفتنمة» الناجحة. كما أعلن إنهاء التجنيد الإجباري فور انتهاء الحرب بالنسبة إلى أميركا، مخاطبًا الشباب الأميركي قائلاً: «أريد السلام بقدر ما تريدونه».[1]

أما وراء ستار الادعاءات، بأن الفيتناميين الجنوبيين أصبحوا فجأةً وبأعجوبة قادرين على تحمل أعباء مقاتلة الفيتكونغ والفيتناميين الشماليين، بدأ الانسحاب الكبير. وبحلول نهاية العام، كان نيكسون قد أمر بإجلاء ١١٥٠٠ جندي أميركي، على أن تتبعهم أعداد هائلة في العام التالي.

كانت حسابات السياسي نيكسون صحيحةً حتى ولو جاءت في وقت متأخر. فارتفعت شعبيته إلى أعلى المستويات (ثمانية وستون في المئة). وبمتابعة السياسة العقابية التي قضت بقصف المنطقة بقنابل بي-٥٢، أمل الرئيس أن يستطيع أقله الإفادة من وطنية شعبه، وقال في هذا السياق: «إذا تصرفت أقوى دول العالم أي

(١) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ ستيفن أمبروز Stephen Ambrose، ص. ٣٠٩.

الولايات المتحدة الأميركية، في حالة طارئة، كعملاق عاجز ومثير للشفقة، فستهدد الفوضى والاستبداد الدول والمؤسسات الحرة في العالم». وبرر مواصلة المذابح الجماعية عبر القصف الجوي، ونشر الأطلال في بلد فقير ومحايد مثل كامبوديا من خلال التفجير الشامل، ما بدا غير منطقي بالنسبة إلى المحتجين وأثار استياء المؤرّخين في وقت لاحق، إذ أصبحت كامبوديا «البلد الذي تعرّض إلى أكبر عدد من الغارات في العالم».[1] في هذا الصدد، كانت سجلات التشاورات بين نيكسون وكيسنجر، التي نشرت بعد عدة عقود، مقزّزة جدًا. فكان الرئيس قد شدد لكيسنجر في العام ١٩٧٠ «عليها [أي القوات الجوية الأميركية] أن تجتاح البلاد فعليًا. أريد كل ما يطير أن يجتاح البلاد ويقضي عليها. لا حدود للمسافات ولا للميزانية. هل هذا الأمر مفهوم؟» ولتجنب الشكوك (بعد أن أنذر كيسنجر أن القوات الجوية الأميركية كانت مدربة على مهاجمة القوات الجوية السوفياتية والجيوش العادية وليس المقاتلين في المجتمعات المدنية[2])، كرر نيكسون قائلاً: «أريد خطةً تقضي بإرسال كل ما يطير إلى كامبوديا ليقصف كل هدف متوافر ... كل شيء. أريدهم أن يستخدموا الطائرات الكبيرة والصغيرة وكل ما يستطيعون».[3]

كان «المشهد» في كامبوديا، بحسب ما سماه بسخرية وليم شوكروس، حملة اجتاح فيها خمسة عشر ألف جندي أميركي من دون موافقة الكونغرس فيما ألقت القوات الجوية الأميركية ٢،٧٥ مليون طن من القنابل، ما شكل إبادةً جماعيةً فظيعةً

(١) مقالة ذات عنوان 'Bombs over Cambodia: New Light on US Air War' بقلم تايلور أوين Taylor Owen وبن كيرنان Ben Kiernan، الذي نشر في مجلة The Walrus الكندية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦.

(٢) مقتبس من مقالة أوين Owen وكيرنان Kiernan ذات عنوان 'Bombs over Cambodia' : "تكمن المشكلة سيدي الرئيس في أن القوات الجوية مصممة لخوض المعارك الجوية ضدّ الاتحاد السوفياتي وليس لخوض هذه الحرب... في الواقع ليست مصممة للمحاربة في أي من الحروب التي قد نضطر إلى خوضها".

(٣) ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٠. مؤتمرات كيسنجر الهاتفية التي تم الحصول عليها من أرشيف الأمن القومي في العاصمة واشنطن في التاسع والعشرين من أيار/مايو ٢٠٠٤. راجع موقع www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB/. مقتبس من مقالة أوين Owen وكيرنان Kiernan ذات عنوان 'Bombs over Cambodia'.

من حيث النظرة الإنسانية. فأكثر من عشرة في المئة من القنابل كانت عشوائيةً وبعد أن تم تقويمها لاحقًا في تقرير للحكومة الفنلندية تبين أنه لم ينجم عنها مقتل ستمئة ألف كامبودي فحسب، بل مقتل أكثر من مليون مدني كامبودي من الجوع أيضًا وظهور حركة الخمير الحمر بقيادة بول بوت.

وأثبت التقدم الكبير في التكنولوجيا الغربية وفي صناعة المعدات الاستهلاكية في الستينيات، صحة كلام نيكسون في «نقاش المطبخ» مع نيكيتا خروتشوف في العام ١٩٥٩: فالرأسمالية الاستهلاكية كانت تحقق آمال الأشخاص العاديين لحياة فضلى وهي أكثر فاعلية مقارنةً بالماركسية. وبفضل قرار الرئيس كينيدي بتمويل السباق إلى القمر، حتى انتصار الاتحاد السوفياتي العلمي والهندسي بفضل سبوتنك، أصبح هامشيًا عندما شاهد حوالى مليار شخص في العالم، أي أكبر نسبة مشاهدين في العالم، نهار الأحد في العشرين من تموز/يوليو ١٩٦٩، مركبة إيغل (المركبة القمرية لصاروخ أبولو ١١) تحط وعلماء الفضاء يطأون سطح القمر الرملي.

وفيما تكلم نيكسون عبر الهاتف مع نيل أرمسترونغ وباز ألدرين قال الرئيس: «إنها حتمًا أكثر المخابرات إثارةً إلى البيت الأبيض». إنها بداية عصر جديد. فقد توحّد كل البشر على الأرض في لحظة حاسمة من تاريخ البشرية، وهذا لا يُقدّر بثمن. وعند استقباله الرجلين بعد ثلاثة أيام على متن ناقلة جوية أميركية في المحيط الهادئ، هنأهما نيكسون شخصيًا وقال (خوفًا من الإنجيليين): «إن هذا الأسبوع هو الأسبوع الأعظم في التاريخ منذ الخلق».[1]

وفيما تم إنزال خمس مجموعات أخرى على القمر بعد الإنجاز الأميركي في السنوات الثلاث التالية، طرح السؤال الآتي: هل سيكون الدخول إلى هذا «العصر الجديد» في السبعينيات مرحلة تعايش سلمي سيؤدّي إلى انتهاء الحرب الباردة؟ وإذا كانت هذه هي الحال، فإلى أي مدى ستدفع الولايات المتحدة هذه العملية

(١) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ أمبروز Ambrose ، ص. ٢٨٥.

لتصب في مصلحتها الاقتصادية والأمنية؟ وهل كان الجواب يكمن في ما سماه نيكسون بعد أول هبوط على القمر «بالعقيدة» الجديدة؟

وبالحديث إلى صحافيين في غوام، وصف نيكسون سياسته الأميركية العالمية الجديدة، ولا سيما عملية «الفتنمة» بأنها ساهمت في حفظ ماء الوجه. وبعد قراءة مقالات الصحافيين، قرر أن يطلق عليها اسم «عقيدة نيكسون»، على عكس عقيدة ترومان وأعلن أنّ كامبوديا «هي عقيدة نيكسون بأنقى أشكالها».[1]

كانت كلمة نقي نسبية. ففي مقاربته الجديدة للشؤون الخارجية لن يكون هناك «فيتناميون بعد الآن». ومع أنّ الولايات المتحدة بذلت أقصى جهودها للمساعدة على مواجهة التمرد السوفياتي عند ظهوره، فهي لن «تخوض الحرب» لأجل إحلال ديمقراطية شعوب أخرى.[2] بدلاً من ذلك، سعت أميركا وراء مقاربة جديدة جوهرية للإمبراطورية، قامت على التعايش مع السوفيات، وتجميد سباق الأسلحة وقلب موقفها طويل الأجل ضدّ الصين الشيوعية من خلال ضمها الآن «كدولة مجاورة» في المحيط الهادئ، مع إمكانية تبادل تجاري حقيقي بين القارات، ما شكل وجهًا بارزًا في اقتصاد الولايات المتحدة. فبذلك، لم تُخض الحرب الباردة كصراع من أجل الانتصار، بل أُعيد صوغها لتصبح تفاعلاً بين القوى العظمى، كما كانت الحال في القرن التاسع عشر، مع «نطاق» نفوذ من دون استعمار مباشر.

شكل موقف نيكسون صدمةً للصحافيين الذين كانوا يغطون أخباره منذ الأربعينيات. هل حقًا تغير موقفه ؟ وهل سيطبقه الرئيس؟

سعى نيكسون إلى تلقي المساعدة من عالم نفساني في الخمسينيات، حاول تحويل شخصيته السياسية إلى شخصية يمكنه تقبلها عندما يرى نفسه في المرآة وشخصية يرتاح إليها أكثر. وكانت النتيجة بغالبيتها، رجل دولة يدعى ريتشارد

(١) تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١ من كتاب One World Divisible: A Global History Since ١٩٤٥ للمؤرخ ديفيد رينولدز David Reynolds (الذي نشرته شركة Norton في نيويورك في العام ٢٠٠١)، ص. ٣٥٠.

(٢) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ١٤٤.

نيكسون أكثر وقارًا، يسعى إلى رؤية العالم بصورة أكثر واقعية من كثيرين من زملائه الجمهوريين وحتى الديمقراطيين: وهو أساس عقيدة نيكسون الجديدة. لكن، وكما تبين من مفاوضات السلام في عهد جونسون التي أحبطت الرئيس، لم تختفِ شخصية نيكسون القديمة الطموح والمستاءة والمعذّبة. فكان ظهورها من جديد محتمًا في ظل حياة العزلة التي عاشها كرئيس بحماية حاشيته التي تشمل أشخاصًا بلا أخلاق. فقال له كيسنجر في وقت لاحق: «أصبح الانعزال حاجةً روحيّة ضروريةً»، واصفًا الرئيس «بالرجل المعذب الذي يصرّ على البقاء وحيدًا».[١]

كما وصف كيسنجر الرئيس «بالرجل الغريب جدًا والمزعج جدًّا الذي لا يحب رفقة الناس».[٢] إذ كان نيكسون يرفض تقاسم الأضواء مع أحد أو إعطاء الأهمية لأي كان. وكان نيكسون بنفسه يدرك ذلك. فقد قال بإعجاب عن الرئيس أيزنهاور: «الجميع أحب آيك. ولكن في المقابل، أحب آيك الجميع... ولم يكره أحدًا. فكان آيك مُدهشًا من هذه الناحية، فهو لم يكن يعد الناس الذين يعارضونه «أعداء». كان يقول عنهم إنهم لا يوافقونه في الرأي فحسب».[٣] لم يكن ذلك ما أحس به نيكسون ولم يعمل بهذه الطريقة، فنتيجة لعقليته الانعزالية التي طغت على ولايته فسدت حتى أكثر مبادراته تقدمًا.

كانت اتفاقية (سالت) للحدّ من الأسلحة الإستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مثالاً على أفضل صفات نيكسون وأسوئها. فقد كان وقف السباق إلى التسلّح من أهداف الرؤساء منذ عهد دوايت أيزنهاور. وقد لاحق كينيدي هذا الموضوع فتوصل إلى معاهدة حظر اختبار الأسلحة النووية، ومن جديد نجح الرئيس جونسون في إقناع السوفيات بالموافقة على مقاربة متبادلة لنشر الأسلحة النووية. غير أن الرئيس نيكسون هو الذي أقنع الكونغرس بالتصديق على معاهدة جونسون

(١) المصدر السابق، ص. ٩١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب President Nixon للكاتب ريفز Reeves، ص. ٦٤.

لحظر انتشار الأسلحة النووية التي شهدت تعادلاً بالتصويت في مجلس الشيوخ (فأنقذه نائب الرئيس) لدعم برنامج الصواريخ المضادة للقذائف الباليستية الذي فشل، وذلك، كوسيلة للتوصل إلى الحد من الصواريخ الإستراتيجية، بدلاً من المتابعة بمنهجية من خلال فريق المعاهدة ووزير الخارجية. غير أنّ نيكسون سعى إلى عقد سلسلة «مفاوضات» شاقة في اجتماعات سرية شُبهت باجتماعات البيزنطيين نظرًا إلى طول مدتها، وقد نُفذت مع مستشاره للأمن القومي، كيسنجر أو من خلاله، خشية أن تحظى وزارة الخارجية أو الدفاع بالشكر.

وكانت هذه «نظرية المجنون» التي كتبت سيناريو البيت الأبيض الاستبدادي: إمبراطورية أميركية تدفعها الثروات والاستثمارات والتبادلات والعمل الشاق الرأسمالي، ولكن بقيادة رئيس تسيطر عليه نزواته وقد بدا غير قادر على العمل إلا بسرية على أمل أن يجبر سلوكه الغريب والمنشق الجميع على التخمين وبالتالي الحفاظ على زمام المبادرة بين يديه. وهكذا، وبدلاً من التوصل إلى معاهدة أسلحة مع السوفيات في وقت منطقي، سعى نيكسون إلى القيام بعدة مناورات كجزء من إستراتيجية التفاوض ليشجعهم على الضغط على شمال فيتنام لإحلال السلام، ففشلت هذه المحاولات تماماً، فيما كان يخسر نيكسون أكثر فأكثر من شعبيته بسبب مواصلة الحرب على فيتنام في أيار/مايو ١٩٧٢، ما أجبره على الموافقة على اتفاق حظر أسلحة لمدة خمس سنوات تبين أنه كان مزيفًا.

قدم الرئيس اتفاق سالت إلى العالم بشكل مميز كما لوكان بداية نهاية الحرب الباردة. وخشي الرئيس أن يحظى كيسنجر بكل الأهمية بسببه نظرًا إلى أنه لجأ إلى الدكتور كيسنجر بدلاً من فريقه الرسمي للتوصل إلى هذا الاتفاق. واعترف سرًّا بأن الاتفاقية لا تعني أي شيء ولكنه وافق كيسنجر في الرأي بأنّ نتائجها قد تكون مهمةً إذ قد تسرق فرصة إحلال السلام من يد الديمقراطيين الذين يحبون السلام وبالتالي «قصم ظهر هذا الجيل من القادة الديمقراطيين».[1] وما سيساعد أيضًا على تحقيق هذا الهدف هو استمرارهم باتباع النهج الميكافيلي الانتهازي في الحكومة. وقال

(١) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٢٨٠.

الرئيس لكيسنجر: «علينا أن ندمر ونحطم ثقة الأميركيين بالمؤسسة الأميركية» لكي ينظر «الشعب» إلى ريتشارد إم. نيكسون على أنه هو القائد الحقيقي.[1]

لم تعد المسألة مسألة رئاسة استبدادية متمركزة في البيت الأبيض، ولكن رئاسة رجل مستقل يعمل في مكتب خاص خلسةً وبعيدًا عن البيت الأبيض، رجل لا يمكن التنبؤ بأفعاله ومنعزل وغالبًا هو خارج على السيطرة. بالطبع، بدأ يظهر للعديد من المراقبين في الخارج أنّ أميركا كانت خاضعة لقيادة زعيم من نوع جديد، رئيس تنفيذي غير جدير بالثقة يراهن على مصير العالم كما لو كان يلعب القمار، فيما يستغل طاعة «الأغلبية الصامتة» ودعمها في الداخل.

وعلى الرغم من كل أخطائه وانعزاله، اعترف المراقبون بأنه كان ذكيًا جدًا في المحافظة على المبادرة، فقد كان يمثل الغالبية الوسطية بين الناخبين الجمهوريين والديمقراطيين. في الواقع، أرادت غالبية الأميركيين انسحاب الجيش الأميركي من فيتنام، وكذلك نيكسون. أرادت الغالبية انفراج العلاقات مع الروس، وكذلك نيكسون، حتى ولو تولى مفاوضات بشكل غير عقلاني ومهما كانت اتفاقية سالت الأولى مزيفة. أرادت الغالبية التقرب من الصين الشيوعية وذلك نيكسون. فهو الرجل الذي أطفأ لهيب الخوف والهلع من شيوعية الاتحاد السوفياتي والصين الذي دام عقدين، وداس كل ليبيرالي يعترض طريقه، وهو أول رئيس يحصل على اتفاقية موقّعة تنص على المساواة من حيث الأسلحة النووية والتعايش مع السوفيات. وبعدها، وفي غمرة اندهاش الجمهوريين المتشددين المعارضين للشيوعية ووسط ترحيب «الغالبية الصامتة»، قلب نيكسون موقفه تجاه الصين الشيوعية أيضًا وسعى وراء التقرب من ماو رئيس الصين الشيوعية. فدهش المراقبون متسائلين «هل أصبح السياسي الذي لقب نفسه في بداية مسيرته «بالليبرالي التقدمي» ليبراليًا بحق؟

وفي نهار الأحد الواقع فيه الخامس عشر من آب/أغسطس ١٩٧١، وفي إثر قمة اقتصادية سرية في كامب دافيد، ضمت ثلاثة عشر مساعداً ومستشاراً نقلوا بالمروحية

(١) المصدر السابق.

بمن فيهم رئيس مجلس الاحتياطي الفدرالي، آرثر برنز، ظهر نيكسون على التلفيزيون الوطني ليقوم بإعلان هام. فمع ازدياد حدة التضخّم والبطالة، طالب المضاربون الأجانب بالحصول على الذهب مقابل الدولار الذي يتقاضونه. وتبعًا لهذه المطالبة، قررت الولايات المتحدة التخلي عن معيار الذهب تاركةً الدولار يعوم ما أدى في نهاية المطاف إلى تخفيض قيمته بشكل فعال.

اندهش كل من الحكومات الخارجية ومنتجي النفط ومضاربي العملات بهذا القرار الأحادي والمفاجئ الذي نجح الرئيس في منع تسربه إلى حين النقل المباشر. كما أعلن نيكسون تجميدًا موقتًا للأسعار والرواتب إلى جانب مجموعة تدابير اقتصادية شكلت فضيحةً لداعمي الجمهوريين اليمينيين وعرّضت جورج ماك غوفرن، خصمه المحتمل في الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٧٢ إلى الانهيار. في المقابل، وصف ماك غوفرن الخطاب «بهراء محض وعديم الجدوى وغامض»، وخصوصاً التخلي عن معيار الذهب الذي عده «خطأ مميتاً سيؤدّي لا محالة إلى التخفيض من قيمة العملة».(١)

وبالفعل كان ذلك صحيحًا غير أنّ هذه الخطوة كانت فعالة جدًا. وبالنتيجة، سجل مؤشر داو جونز أعلى نسبة ارتفاع له في يوم واحد منذ بدايته. كان خطاب نيكسون أيضًا متقنًا. فكان الجيش الأميركي سيعود إلى وطنه أبكر مما كان متوقعًا في العام المنصرم وكان جنوب فيتنام سيُترك وحده ما فتح المجال أمام الولايات المتحدة للقيام بما كانت تبرع فيه، أي جمع الثروة. في الواقع، بدأ نيكسون خطابه قائلاً: «إن أمام الولايات المتحدة الفرصة اليوم لتحقيق اثنين من بين أهدافها العظيمة وهما إحلال جيل كامل من السلام وإقامة عصر جديد من الازدهار. لن يعود الدولار الأميركي رهينة المضاربين الدوليين». وبذلك تمّ فرض ضريبة بنسبة عشرة في المئة على كل الواردات مع رقابة على الأسعار للتحقق من عدم تلاعب المضاربين الأميركيين بالسعر. كما قطع الإنفاق الفدرالي فيما مُنحت اعتمادات استثمارية للأعمال وزيادة

(١) المصدر السابق، ص. ٢٨٨.

بقيمة خمسين دولارًا لكل دافع ضريبة. كما قطعت المساعدات الخارجية بنسبة عشرة في المئة. ومخافة أن يظهر كرجل محسن في أميركا وبخيل في الخارج، أنهى نيكسون خطابه بدعوة إلى القوى الاقتصادية قائلاً: «إن كل خطوة اتخذتها الليلة هي مصمَّمة لدعم روح المنافسة وتحفيزها بغية مساعدتنا على التخلّص من عدم ثقتنا والاستخفاف بأنفسنا اللذين يستنزفان كل طاقتنا ويضعفان ثقتنا بقدراتنا... إن بقاء أمتنا في المرتبة الأولى يعتمد على روح المنافسة لديكم وعلى شعوركم بصنع مصيركم واعتزازكم بوطنكم وبنفسكم».(١)

لكون نيكسون محامياً وخائض حملات فطالما كان يبحث عن نقاط الضعف لدى خصمه. وبالاعتراف بأنه كان من الممكن أن تصبّ الضغوط على الاتحاد السوفياتي والصين في مصلحة أميركا، حاول نيكسون الإستراتيجي العالمي عرض نفسه حليفًا للسوفيات في صراعهم الجماعي مع ماو، فيما عرض الأمر نفسه على الصينيين في عدائهم للاتحاد السوفياتي. وبذلك، ناقش من دون الموافقة شنّ ضربة وقائية لمواقع إنتاج الأسلحة النووية السوفياتية، وسعى في الوقت عينه إلى الحصول على لقاء خاص مع ماو وهذا ما حصل عليه في نهاية المطاف. وأشار نيكسون إلى كيسنجر بعد أن دعاه شو إن لاي لزيارة بكين «إنهم يخشون الروس. هذا هو السبب». (٢)

كان نيكسون على حق وعرف كيف يغتنم الفرصة. فاستحق نيكسون لقب «ديك المخادع» بقوة فيما تخلى عن ولائه القديم للقائد الصيني القومي شيانج كاي تشيك، وتملّق ماو تسي تونغ (قال نيكسون بتملق بعد أن انتقد ماو كتبه «إن كتابات الرئيس الصيني هزّت دولة وغيرت العالم») وعبّر عن قلقه حيال سور الصين العظيم ووافق على الحصول على حيواني باندا لحديقة الحيوانات الوطنية في واشنطن. كما أنّه وافق على بيان رسمي أجبر الولايات المتحدة على معارضة الصين لأية خطوة يتخذها الاتحاد السوفياتي «للسيطرة على منطقة المحيط الهادئ في آسيا»،

(١) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ أمبروز Ambrose، ص. ٥١٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٥٩.

كما أجبرها على الاعتراف بمطالبات الصين الشيوعية بأن تصبح تايوان «جزءاً من الصين». أوصى الرئيس بالتوصل إلى «تسوية سلمية لمسألة تايوان على يد الصينيين بأنفسهم»، كما أنه تعهّد بأن تسعى الولايات المتحدة «بشكل نهائي إلى سحب القوات الأميركية والمنشآت العسكرية من تايوان».[1] ولكن، لو كان بيان مماثل قد صدر عن سياسي في الوقت الذي كان نيكسون عضواً في الكونغرس أو في مجلس الشيوخ، لكان هذا الأخير أهانه باتهامه بالخيانة العظمى». أما الآن فكانت هذه الخطوة حكيمةً، ناجمة عن حكمة نيكسون.

وفي شباط/فبراير ١٩٧٢، وبالعودة إلى البيت الأبيض حيث نُقلت رحلته التي دامت أسبوعاً على شبكة التلفزيون المسائية (بفضل فرق الوقت)، أعلن نيكسون فورًا «كان هذا الأسبوع، الأسبوع الذي غير العالم» – محاكاةً لكتاب جون ريد عن الثورة الروسية. ونظرًا إلى أن الرئيس كان طوال حياته يعارض التغيير، بدا أن ما قاله خدعة واضحة. غير أنه كان يحق لنيكسون المنشق أن يفرح بانتصاره، إذ إنّ المنشق وحده يستطيع تغيير مواقفه بكليته بهذه السرعة من دون خجل. فبعد عقود من «تحطيم الشيوعيين»، دخل زعيم العالم الحر عرين الأسد ومدّ يد صداقة محتملة بين القوة الرأسمالية الأكبر في العالم والدولة الشيوعية ذات الأكبر كثافة سكانية في العالم (ثمانمئة وواحد وسبعون مليون نسمة بعد زيادة السكان في خلال عقد واحد مئتي مليون نسمة، أي حجم السكان في الولايات المتحدة). فكان ذلك إنجازًا استثنائيًا مع أنه شكل خيانةً من قبل نيكسون الجمهوري. ففي الواقع، احتال «ديك المخادع» على مموليه وداعميه اليمينيين والمعارضين للشيوعية، وأربكهم باستخدام «الغالبية الصامتة»، التي دعمت مبادرته بأغلبيتها الساحقة.

وفي وقت لاحق من العام نفسه، رشح الحزب الجمهوري نيكسون من جديد للانتخابات الجمهورية، على الرغم من غضب المتشدّدين والرجعيين والمتطرفين الجمهوريين من خطواته الليبرالية. وبعد ذلك، وفيما عقدت مفاوضات متعثرة للتوصل

(١) كتاب President Nixon للكاتب ريفز Reeves، ص. ٣٦٣.

إلى اتفاق مع شمال فيتنام، ربح نيكسون أحد أعظم الانتصارات الانتخابية الساحق في تاريخ الرئاسة، وهزم جورج ماك غوفرن في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢، بحيث حصد سبعة وأربعين صوتًا مقابل تسعة وعشرين مليوناً. وبالنسبة إلى سياسي ارتكب مجزرة في جنوب شرقي آسيا وأثار حربًا أهليةً افتراضيةً في وطنه في أول سنتين من ولايته، شكل هذا الانتصار «قيامةً» استثنائية.

في ولايته الثانية، بدا ريتشارد نيكسون مصمّمًا على متابعة إعادة تشكيل القوات الأميركية في الخارج، فلم يعد يستخدمها باعتبارها قائدة لقوات الحلفاء الغربيين، بل في سبيل مصلحة الولايات المتحدة فقط، بصفتها أكبر قوة اقتصادية وعسكرية في العالم. وقبل إعادة انتخابه بقليل في أيار/مايو ١٩٧٢، قال نيكسون ساخرًا مشيرًا بإبهامه إلى الخريطة على الطاولة: «هنا يوجد هؤلاء الأغبياء. وهنا تقع الولايات المتحدة (أشار إليها). وهنا أوروبا الغربية (أشار إليها)، هذا المكان الصغير المغرور الذي سبب الكثير من الدمار، وهنا الاتحاد السوفياتي (أشار إليه)، وهنا الشرق الأوسط (أشار إليه)... وهنا (أشار) الأفريقيون التافهون... و(أشار) الأميركيون اللاتينيون الذين لا بأس بهم. وهنا نحن. إنهم يستولون على الولايات المتحدة، والآن سوف نمسحهم [نقصف شمال الفيتنام]. ولم يقل ذلك بغضب أو بشيء من هذا القبيل. ولا تتهموني «بالعدوانية»، «فهذا هراء إذ كان علي إنجاز هذا العمل منذ وقت طويل». وتابع بعنف شبيه بخطب هتلر «ولكنني لم أتبع حدسي».[1]

شكلت هذه المقاربة المنشقة والفردية والساخرة والخطيرة والمتبدلة لقضايا العالم مساهمة نيكسون في ما عرف في العام التالي «بالرئاسة الاستبدادية».[2] فبدلاً من التعاون مع الكونغرس، دان نيكسون كل عمليات التفجير الأميركية التي تزامنت مع جهود عقد مفاوضات مع هانوي، من دون الرجوع إلى الكابيتول هيل، تمامًا كما نفّذ كل انقلاباته لتمتعه بالسلطة، بدءًا بزيارته إلى الصين ووصولاً إلى

(١) نص أشرطة نيكسون في تاريخ ٤ أيار/مايو ١٩٧٢، المقتبسة من كتاب Secrets: A Memoir of Vietnam and the Pentagon Papers للكاتب دانييل إلسبرغ Daniel Ellsberg، ص. ٤١٩.

(٢) مجلد The Imperial Presidency للمؤرخ آرثر أم شليسنجر الابن Arthur M. Schlesinger, Jr.

التخلي عن معيار الذهب. غير أنَّ هذا السلوك الخيري-الديكتاتوري لا يعمل جيدًا بوجود تسريبات استحوذت على الرئيس إلى حد الهستيريا.

لطالما كره نيكسون الصحف لانتقاده والآن كرهها لأنها اجترأت على نشر الحقيقة التي شك في أن أحد جماعته يسربها. وفي هذا السياق، لم يعد نيكسون ريتشارد قلب الأسد بل أصبح ريتشارد الثالث، المتآمر العريق الذي يشك في زملائه ويصدر غالبًا أوامر انتقامية، التزم رئيس قطاعه السياسي بوب هالدمان تنفيذها كلها تقريبًا وغالبًا ما كان يتخلى عنها. ومن بين الأوامر التي لم يتخلَّ عنها أمر كان له تداعيات كارثية على الرئيس وخادميه الأوفياء، وهو فضيحة ووترغيت.

لو كان نيكسون أكثر توازنًا عقليًا، أو لو كان يتمتع بحس الدعابة، لما كان الاقتحام الذي عرف بفضيحة ووترغيت ليحدث.

شكّلت فضيحة ووترغيت بداية خسارته للرئاسة، إلا أنها مجرّد البداية. في الواقع، كان نيكسون قد أمر شخصيًا مسبقًا بسرقة مكتب طبيب نفسي مع ملفاته يُزعم أنه كان يُعالج دانييل إلسبرغ الذي كان يُعارض الحرب على فيتنام، فراح يلعن «اليهود الحقيرين» ولجأ إلى وحدة التحقيقات الخاصة المعروفة بـ«السمكريين». وكان الرئيس قد طلب أيضًا إلى مصلحة الضرائب أن تحقق مع كل الذين ساهموا في العمل مع خصمه الديمقراطي هيوبرت همفري والسيناتور موسكي قائلاً عنهم «اليهود السارقون». ومن جهة أخرى، عندما اقترح مساعده في البيت الأبيض جون إرليشمان أن يقتحم السمكريون الأرشيف الوطني الذي يشكل مستودع الدستور الأميركي، وافق نيكسون، قائلاً: «أعطيك الإذن للقيام بذلك»، وقد تم التنصت إلى هذه الكلمات بواسطة نظام التنصت الذي وضعه هو بنفسه.

وقبل إعادة انتخاب نيكسون، بدأ يثير هذا الأخير المخاوف، خصوصًا من الطريقة التي كان يتخلّص بها من أعضاء إدارته والكونغرس وحتى قادة عسكريين رفيعي المستوى كان يرى أنهم يسرقون منه الأضواء. ووصل به ذلك إلى حد التنصت

إلى مستشاره للأمن القومي الدكتور كيسنجر، واتهامه بأنه مصاب «بوهم العظمة» عندما عرض كيسنجر أن يتوجه شخصيًا إلى هانوي للتفاوض مع فيتناميين.[1] فانقلب سير الأحداث بطريقة غريبة، بحيث أصرّ نيكسون أن يزور كيسنجر طبيبًا نفسيًا، لأنه أصبح مهووسًا بمسألة تسريب المعلومات «ونقاط الضعف الداخلية».[2] (حتى أن كيسنجر بدأ يرصد اتصالاته هو شخصيًا ليحمي نفسه).

ولم يكن من الغريب أن يكون لتحقيقات «أحد السمكريين» عن البيت الأبيض نتيجة عكسية، فقد ساده الشك المتبادل والتنصّت إلى المكالمات الهاتفية وعمليات السطو وتسرّب معلومات وانتشار الإشاعات. وفي الثامن والعشرين من أيّار/ مايو ١٩٧٢، بعد مضي سنة على قضية إلسبرغ، وبينما كان نيكسون لا يزال في لينينغراد بعد توقيع اتّفاقية سالت ١ مع ليونيد بريجينيف، أمين سرّ الحزب الشيوعي، تمكّنت وحدة التحقيق من فتح أقفال هدف جديد وهو مركز اللجنة الديموقراطية الوطنية الرئيسي، في الطبقة السادسة من مكتب ووترغيت والمجمّع السكني في فوغي بوتوم، في واشنطن العاصمة.

وجرى أوّل اقتحام بدون عوائق. ولكن بعد ثلاثة أسابيع تفوّقت الغطرسة على الحذر. وفي الثالث عشر من حزيران/يونيو ١٩٧٢، أمر نيكسون مستشاره الخاص تشارلز كولسون بمراقبة خصمه الديموقراطي السيناتور ماك غوفرن على مدى الساعة وذلك إلى حين حلول موعد انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر. وفي الليلة التالية لم يكن مساعدا نيكسون غوردون ليدي وهاورد هانت راضيين عن نتائج الأجهزة التي زرعاها في وقت سابق في المركز الرئيسي للجنة الديموقراطية الوطنية، فأمرا اللصوص بالعودة إلى مبنى ووترغيت. وهذه المرّة تمّ إمساك رجال الرّئيس بالجرم المشهود: ثلاثة أميركيين من أصل كوبي وعميلان سابقان في وكالة الاستخبارات الأميركية، عمل أحدهما لمصلحة لجنة إعادة انتخاب الرئيس.

(١) كتاب President Nixon للكاتب ريفز Reeves، ص. ٣٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤١١.

وفيما كان يستمع نيكسون إلى أخبار السرقة، ضحك باستخفاف وقال: «يبدو الأمر مثل أوبرا هزلية»، وهزئ بلكنة الكوبيين وهزّ رأسه لدى سماعه عن المئة دولار التي وجدوها في جيب كل سارق.[1] في المقابل، كان الرئيس مطمئنًا لأنَ غوردن ليدي، الملازم القوي، كان مستعدًا «لتلقي اللوم» ولن يخون الرئيس أبدًا. من جهة أخرى، رفعت اللجنة الوطنية الديمقراطية دعوىً ضدّ لجنة إعادة انتخاب الرئيس مطالبة بمليون دولار كتعويض عن انتهاك الخصوصية، فيما الرئيس، الذي أمر السمكريين بتنفيذ السرقة ودفع لهم، حاول أن يبقى بعيدًا عن الشبهات، فأصدر بيانًا من البيت الأبيض يقول فيه إن «هذا النوع من التصرفات لا يمت بصلة إلى عمليتنا الانتخابية أو إلى منهجنا المتبع في الحكومة».كما تلا هذا البيان إعلان ينفي نفيًا قاطعًا «ضلوع البيت الأبيض بهذه العملية».[2]

في الحقيقة، ولوهلة، بدا وكأنَ الفضيحة المبهمة بدأت تتلاشى، على الرغم من التحقيقات التي قادها الصحافيان بوب وودورد وكارل برنشتاين اللذان يعملان في صحيفة الواشنطن بوست. وبالتالي استمتع نيكسون بالانتصار الذي حققه في انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٢، ورأى فيه عربون توثيق لكل الجهود التي بذلها في خلال ولايته الأولى. ومن ناحية أخرى، ونظرًا إلى أنه سحب افتراضيًا كل القوات البرية من فيتنام، كان نيكسون يعتمد على القوات الجوية من جديد لوضع حد نهائي للحرب، أو نهايتها بالنسبة إلى أميركا. ورأى أنه سيحقق ذلك من خلال غارات جوية جديدة لمواقع عسكرية في هانوي وهايفونغ، في عملية لاينباكر ٢. وفي فترة عيد الميلاد عام ١٩٧٢، (فيما كان الكونغرس في عطلة لمناسبة العيد وبالتالي لا يمكنه الاعتراض)، أمر الأسطول الجوي من قاذفات القنابل بي ٥٢ برمي أطنان من المتفجرات الثقيلة على فيتنام تضاهي الكمية التي رُميت في خلال الحرب العالمية الثانية. ووصفت صحيفة واشنطن بوست شاجبةً هذا الهجوم «بأكثر الأعمال الحربية وحشيةً وحيوانيةً على الإطلاق، تنفذه دولة سيادية في خلال عشرة

(١) المصدر السابق، ص. ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥٠٧.

أيام ضد دولة أخرى. إنه «تكتيك رجعي»» يمكن أن يتسبب للرئيس بالخزي لدى عودة أعضاء الكونغرس.[1]

وفي المقابل، مع إصرار شمال فيتنام على رفض توقيع معاهدة سلام تعطي الجنوب استقلاله، حبّذ مساعد الدكتور كيسنجر، الجنرال ألكسندر هايغ، زيادة الغارات الجوية لإجبار الشمال على سحب قواته من الجنوب.

وفي باريس، أراد كيسنجر أيضًا وضع حدّ للمفاوضات العقيمة، ملقيًا اللوم على الفيتناميين الذين أسماهم «الحقيرين، القذرين، الذين يجعلون الروس يبدون صالحين.» ولكن الرئيس تيو زعيم المجلس العسكري الجنوب فيتنامي ليس أفضل منهم – «هذا الحقير المجنون»، بحسب تعبير كيسنجر، بما أنّه لا يزال يرفض بعناد ولكن على نحو مفهوم التسوية التي جعله نيكسون يرفضها منذ أربع سنوات.

ولكن الزمن تغيّر، وأصبح حوالى سبعين بالمئة من الأميركيين يشعرون بأنّ الحرب كانت خطأً منذ البداية. وتحوّل القصف الأميركي اللامتناهي إلى فضيحة دولية مع نداءات بإجراء محاكمات على جرائم الحرب في محكمة نورنبيرغ، بسبب عدد الضحايا المدنيين الذين لم يصرّح عنهم، وكلّ ذلك فقط لأنّ الرئيس تيو في نظر كيسنجر، لن يوافق على انتحار جنوب فيتنام. وبالتالي، أصبحت «التسوية الثنائية» بين الولايات المتحدة وشمال فيتنام، التي تتجاهل ببساطة جنوب فيتنام، الحلّ الذي تبنّته الولايات المتحدة. وكان فيتناميو الشمال الذين استنفدوا صواريخهم الأخيرة المضادة للطائرات حول هانوي، قد سئموا أيضًا هذه الحرب. وبناءً عليه، تمّ إعلان وقف إطلاق نار في باريس في الثالث والعشرين من تشرين الثاني/يناير ١٩٧٣ مع استسلام الرئيس تيو للأمر الواقع.

كانت جميع الأطراف التي وقّعت الاتّفاقية، بمن فيها مقاتلو الفيتكونغ، تعلم أنّ اتفاقيات باريس للسلام كانت مجرّد مهزلة. وقد كشف كيسنجر لأحد الصحافيين أن شمال فيتنام على الأرجح سيبدأ الحرب مجدّدًا في الأول من شباط/فبراير ١٩٧٣، أي

(١) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dellek، ص. ٤٤٦.

بعد حفلة إعادة تنصيب نيكسون. كذلك، عد نائب الرئيس تيو هذه الاتفاقات مجرّد «خيانة». ومع ذلك، تمّ إرضاء شرف الأميركيين إن كنّا نستطيع أن نسميه كذلك، وأصبح الأميركيون قادرين في النهاية على التخلي عن جنوب فيتنام بطريقة قانونية تاركينه لمصيره. وتوقّع كيسنجر أن يصمد جنوب فيتنام، في حال كان محظوظًا، سنةً واحدةً قبل أن يسيطر عليه شمال فيتنام، في الوقت الذي سعى هو إلى استعادة قرابة ستمئة أسير حرب.(١) وكانت نهاية مأسوية لحرب كان يمكن إنهاؤها بالطريقة نفسها قبل أربع سنوات لو لم يخرّب نيكسون مفاوضات الرئيس جونسون. فقد قُتل عشرون ألف جندي أميركي إضافي، ولكن الآن أقله قد انتهى الأمر بالنسبة إلى أميركا.

ولكن وراء هذا الفرح العام، لم تكن الأمور على خير ما يرام لأنّ دور الرئيس في سرقة ووترغيت أصبح موضوعًا تتناقله وسائل الإعلام.

وعدا وعود نيكسون بمبالغ مالية، لم يكن قط سبب رغبة مساعدي الرئيس ومرؤوسيه في المخاطرة من أجله واضحًا. ولكن استمرار الرئيس بتشغيل نظام التنصت السرّي، والاحتفاظ بالأشرطة التي تجرّمه بدلاً من أن يتلفها أدّيا إلى رسم نهاية الرئيس المحتمة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الرئيس كان يخشى إلى درجة مرضية أن يخطف كيسنجر الأضواء منه ويكتب مذكّرات تنفي فضل نيكسون في الانتصار على الصين وفي التوصل إلى اتفاقية سالت ١ وإنهاء حرب فيتنام. وفي السابع من شباط/فبراير ١٩٧٣، تمّ تشكيل لجنة التحقيق في قضية ووترغيت في مجلس الشيوخ. وفي الثلاثين من نيسان/أبريل، بدأت الاستقالات الأولى في البيت البيض مع استقالة هالدمان وإرليشمان (اللذان قد دخلا السجن إضافة إلى جون دين مستشار البيت البيض). وفي الثامن عشر من أيار/ مايو، عيّن النائب العام أرشيبالد كوكس بصفته مدّعياً خاصاً.

كانت جلسات استماع كوكس متلفزة كجلسات استماع ماكارثي تمامًا. وقد شاهد نحو خمسة وثمانين في المئة من الأميركيين هذه العملية. وأتت أول رواية

(١) المصدر السابق، ص. ٤٥٥.

في أواخر حزيران/يونيو حين أصبح «المتلاعب الرئيسي» جون دين شاهدًا للجهة المدعية مقابل تخفيض مدة العقوبة بالسجن. وقد سأل نيكسون هايغ الذي بات رئيس القطاع السياسي في البيت الأبيض في شهر أيار/مايو، عما إذا كان يظنّ أن عليه الاستقالة من منصبه كرئيس الأمر الذي سيكون الأول في نوعه في تاريخ الولايات المتحدة.

لم يشجع هايغ ذلك تمامًا على غرار كيسنجر الذي ألقى اللوم على أولئك «الحقيرين الخونة » أي الصحافة وأعضاء الكونغرس الذين «يحاولون تجريدك الآن من كل نجاح». وفي حال صمدت بعزم «يمكنك أن تدخل التاريخ»، وعد الرئيس بأن يكون له كبسمارك (يقول كيسنجر متفاخرًا: «مثلي الأعلى»)، باعتباره الرجل الذي أدى إلى نشوب الثورة العظمى في السياسة الخارجية. [١]

لم يفهم كيسنجر الذي ولد في ألمانيا حقًا نظام الضوابط والموازين الذي جعل من دستور الولايات المتحدة مستندًا فريدًا في تاريخ العالم أو المشاعر المعادية للملَكية التي أشعلت الثورة الأميركية. ولدى بدء الجرذان بمغادرة السفينة التي تغرق أصبح سقوط نيكسون محتمًا. وفي الثالث عشر من تموز/يوليو ١٩٧٣، كشف مساعد رئيس القطاع في البيت الأبيض الطيار في القوة الجوية ألكسندر باتيرفيلد الحائز عدة أوسمة، وهو قيد الاستجواب عن وجود أشرطة سمعية سرية للترصد وهو سر معروف لثلاثة أشخاص فقط. وعلى الفور طلب كوكس والكونغرس إحضار الأشرطة. قاوم نيكسون مستشهدًا بأيزنهاور في أثناء جلسات استماع ماك كارثي «الامتياز التنفيذي».

ولكن أيزنهاور تمتع أقله بدعم نائبه العام للحصول على امتياز كهذا، فيما نيكسون لم يكن لديه أي من هذا حتى أنه طرد المدعي العام إيليوت ريتشاردسون ونائب المدعي العام لرفضهما طرد كوكس. وشكل نزاعه مع الكونغرس ووزارة العدل إستراتيجية مراهنة لا يمكن أن تكون نهايتها إيجابية. وعلى الرغم من أنّ

(١) المصدر السابق، ص. ٤٨٧.

المدعي العام روبرت بورك وافق على طلب الرئيس الذي يقضي بطرد كوكس، وبدأت هذه الخطوة التي من شأنها أن تعزل نيكسون عن الكونغرس تكتسب الزخم.

أصبح يعرف الآن الرئيس ما كان يعني أن يكون مثل ألجر هيس. وبعد أن درس خياراته، قرر نيكسون أن يتمسك بالرئاسة مهما كان الثمن. وفي اجتماع ضمّ أربعمئة محرر من وكالة أسوشيتد برس في أورلاندو في ولاية فلوريدا، اعترف بالأخطاء قائلاً إنه لم يعرقل العدالة،ولن يستقيل وفي حين اعترف أنه «على الشعب معرفة ما إذا كان رئيسهم محتالاً أم لا»، إلا أنه أراده أن يعرف عبر المحررين أنه ليس بمحتال.[1]

وباعتماد استراتيجية المماطلة، ترنّح نيكسون بين الشفقة الذاتية والتبجح. فمنذ صغره عرف حياةً ملأى بالنضال من أجل التعويض من النقص الذي عاشه، أي خلفيته المتواضعة وشخصيته الكئيبة وذلك من خلال اعتماد الصلابة وعدم اللين والروح التنافسي والماكر. وفي بعض الأحيان، كان يبدو وكأنه يستمتع بلعبة القط والفأر ليعوق سلطة القانون في ظل نظام دستوري رأى أنّه يميل إلى الأغبياء والمتواضعين. وفي الواحد والعشرين من آذار/مارس ١٩٧٣، تم تسجيل حديثه مع جون دين حين سأله «كم تحتاج من المال؟ إن أردت المال يمكنك الحصول عليه...يمكنك أخذه نقدًا. أنا أعرف من أين يمكن أن أحصل عليه... أقصد أنه ليس بالأمر السهل ولكن يمكن تحقيقه»، مؤكدًا لهالدمان أنه يمكن أن يجمع مليون دولار.[2] وتابع حديثه «لا يجد مشكلة في ذلك.»[3] ومع ذلك، لم يتمكن من وعد«السمكريين» التابعين له من تفادي السجن. وكذلك، قال: «لا يمكننا أن نقبل الرحمة»، موضحًا أنّ هذه الأموال يجب أن تعوّض من ذلك، وبناءً عليه تم توفير مبلغ خمسة وسبعين ألف دولار ليتم سحبه من خزينته الخاصة وإرساله إلى بيت هانت ذلك المساء.[4]

بالإضافة إلى ذلك، راحت تتزايد مكائد الرئيس حتى أصبحت شبيهة بمكائد

(١) المصدر السابق، ص. ٥٣٩.

(٢) كتاب President Nixon للكاتب ريفز Reeves، ص. ٥٧٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

كاليغولا. بالتناوب اليومي بين الخيارات غير القانونية والعنيفة، كتوفير الرشى غير الشرعية وبذل الجهود لجعل ميتشل ودين وغيرهما يتلقون اللوم في ما يخص ووترغيت وتوجيه التعليمات إلى المدعي بعدم توفير الحصانة (مما شجع المخبرين) متظاهرًا في الوقت نفسه أمام مخبريه أن بوسعهم الاعتماد عليه بغية منحهم عفوًا رئاسيًا يحررهم من دخول السجن. وكان هذا الاقتراح مخاطرةً كبيرة. وفي خضم كل هذا، بدا نيكسون كالعادة وكأنه يستمتع بفورة الأدرينالين في أثناء ممارسة الألعاب الرهانية. فتأثر المحامي دين معلقًا «بالنسبة إلى شخص يُعتقد في بعض الأحيان أنه فاقد السيطرة، أنا أراه حادّ الذكاء».(١)

وفي الوقت نفسه، أصبحت الشؤون الأميركية الخارجية مُهملة فيما أصبح رئيس الجمهورية محاصرًا أكثر فأكثر تاركًا كيسنجر يدير سياسة الولايات المتحدة الخارجية. دفع عدم مبالاة كيسنجر بمعاناة المواطنين في كامبوديا ولاوس، حيث توفي ثلاثمئة وخمسون ألف مدني، المراقبين والمؤرّخين ومحامي الإبادة الجماعية لاحقًا إلى أن يشككوا في دوره كمستشار للأمن القومي في حكومة نيكسون أو أن يدعوا حتى إلى توجيه الاتهام إليه. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن كامبوديا ولاوس المنطقتين الوحيدتين اللتين شارك كيسنجر فيهما في جرائم قتل جماعية وفردية، تمامًا كما جرى في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٧٣ حين حدث انقلاب آخر برعاية وكالة الاستخبارات المركزية في تشيلي، ضد الدكتور سلفادور أليندي الذي تم انتخابه ديمقراطيًا، فتمت محاصرته في القصر الجمهوري وإجباره على الانتحار. وبعد مرور خمسة أيام، هنّأ كيسنجر الرئيس قائلاً: «أعني ... أننا ساعدنا... هيأنا الظروف قدر المستطاع» لإنجاز الانقلاب بنجاح. وقد أضاف نيكسون ممتنًا ومفكرًا بووترغيت «لم يظهر حتى الآن تورّطنا في هذه المسألة».(٢) ولا حتى ظهر ضلوعهما في الشهر التالي لدى اندلاع الحرب في الشرق الأوسط.

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥٩٠.

(٢) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٥١٢.

وصلت الأنباء الأولى المتعلقة بالحرب في الشرق الأوسط في السادس من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣. وأكثر من أي أخبار سيئة أخرى، شلّ وصول هذه الأخيرة إلى العاصمة واشنطن رئاسة نيكسون قبل ستة عشر يومًا على فتح إجراءات الاتهام من قبل اللجنة القضائية التابعة لمجلس النواب. وكذلك، كتب مؤرّخ فيما بعد «بعد ساعتين ونصف ساعة من سماع مخاطر الحرب الإسرائيلية في السادس من تشرين الأول /أكتوبر عند الساعة السادسة صباحًا ، لم يستشر وزير الدفاع كيسنجر الذي كان قد التقى حديثًا نيكسون الذي كان في كي بيسكين في فلوريدا، حيث كان يحتمي من تصاعد الضغوط القضائية الصادرة عن الكونغرس».[١]

وفي الواقع، كان نادرًا ما يوجد الرئيس في واشنطن. فالسجلات تبيّن أنّه في خلال سبعة أشهر، أي منذ شهر نيسان/أبريل حتى نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٧٣، أمضى نيكسون فترة اثنين وثلاثين يومًا فقط في العاصمة، مع العلم أنّ «عشرة منها كانت زيارات طبية» بما أنه كان يعاني الالتهاب الرئوي ويعالج في مستشفى والتر ريد العسكري.[٢]

بالإضافة إلى ذلك، تبيّن أنّ تغيّب نيكسون بعد تهميش وزارة الخارجية طوال فترة رئاسته ليحصر السلطة بين يديه ويدي كيسنجر ما قضى على فرص السلام في الشرق الأوسط. والحقيقة كما كتب مؤرّخ آخر أنه «في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، لم يكن نيكسون في وضع يسمح له بتنفيذ سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط».[٣] وقد دفعه الاكتئاب إلى معاودة الشرب، فقد طُلب إلى مستشار الأمن القومي الجديد برنت سكوكرفت أن يرفض تلقي اتصال من رئيس مجلس الوزراء البريطاني إدوارد هيث في خلال الأزمة وذلك لأنّ الرئيس «ثمل».[٤]

(١) المصدر السابق، ص. ٥٢١.
(٢) كتاب President Nixon للكاتب ريفز Reeves، ص. ٦٠٤.
(٣) كتاب The Flawed Architect: Henry Kissinger and American Foreign Policy للمؤرخ جوسي هانيماكي Jussi Hahnimaki، ص. ٣٠٣.
(٤) المصدر السابق.

أحرز الهجوم الذي شنّته مصر وسوريا لاسترداد سيناء وهضاب الجولان التي رفضت إسرائيل إخلاءهما بعد حرب العام ١٩٦٧، تقدمًا أكبر بكثير مما توقعه محللو كيسنجر. وأمام توسلات الإسرائيليين للحصول على دعم عسكري طارئ، وصف كيسنجر الأزمة للرئيس نيكسون بأنها ليست حربًا بين اليهود والعرب على الأراضي المحتلة، بل حرب بين أميركا والاتحاد السوفياتي للسيطرة على الشرق الأوسط والاستيلاء على نفطه للجيل المقبل.

سمح نيكسون لنفسه بالاقتناع ولكن بحذر، على الرغم من قلقه حيال تداعيات هذه الأزمة. ولذلك وافق على خطة كيسنجر للإنقاذ وعلى إرسال إمدادات عسكرية جوية إلى إسرائيل في غضون بضعة أيام، وكانت أكبر من الإمدادات الإنسانية إلى برلين ضد الاتحاد السوفياتي بين العامين ١٩٤٨-١٩٤٩. انتهت حرب يوم الغفران التي امتدت عشرين يومًا في السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر، بانتصار الإسرائيليين المتشدّدين بدلاً من انتصار المصريين والسوريين ونجاحهم في تحرير الأراضي المحتلة. فأعلن كيسنجر آنئذ أنّ هذا الانتصار كان أعظم إنجاز وانقلابًا عظيمًا على الاتحاد السوفياتي، هذه الإمبراطورية التي سعى نيكسون إلى تحقيق الوفاق معها. إلا أنّه ، بالنسبة إلى السلام في الشرق الأوسط، شكّل هذا الانتصار كارثةً.

ولسوء حظ نيكسون، اندلعت فضيحة أخرى في واشنطن عند اندلاع حرب يوم الغفران. ففي العاشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، أجبر نائب الرئيس سبيرو تي. أغنيو على تقديم استقالته وتحمّل أعباء التعويض عن كل المخالفات المالية التي قام بها عندما كان حاكم ميريلاند.

رفض نيكسون مسامحة أغنيو، وبحث عن نائب رئيس بديل يساعده على مواجهة تحقيق الكونغرس الجاري بشأن فضيحة ووترغيت. وفي النهاية، قرر تعيين عضو من الكونغرس نفسه، وهو قائد الأقلية في مجلس النواب جيرالد آر. فورد من ولاية ميشيغن.

وقد أمل الرئيس بذلك، تهدئة الكونغرس غير أنّ أمله قد خاب. فقد واصل الكونغرس الجلسات بشأن قضية ووترغيت بخطًى سريعة ما كان له تأثير كبير في صحة نيكسون العقلية. وبحلول نهاية العام ١٩٧٣، بدت صحته تتدهور بسرعة للذين سمح لهم بمقابلته شخصيًا. وفي عيد الميلاد وجده السيناتور غولدواتر يتفوه «بهراء لا معنى له».[1] فأشار قائلاً: «رحت أتساءل ما إذا كنت أشهد على تدهور بطيء لتوازن نيكسون العقلي»، غير أنه رفض رفع قضية أهلية نيكسون أمام مجلس الشيوخ.[2] وخوفًا من تأثر الجمهوريين في الرئاسة بتداعيات استقالة نائب الرئيس، اكتفى غولدواتر بإخفاء ملاحظاته في الخزنة.

وبعد إعادة انتخابه بأغلبية ساحقة في العام ١٩٧٢، أي قبل أقل من سنة، تحولت ولاية نيكسون الثانية إلى تقليد ساخر وأدركت عائلته وطبيبه والمقربون منه الباقون أنه لم يعد عقلانيًا. كما رأى قائد العمليات البحرية، الأدميرال زوموالت، أنّ نيكسون وكيسنجر والجنرال هايغ كانوا مصابين بجنون العظمة، وقلق بشدة حيال الأمن في العالم. فوصف زوموالت الوضع لاحقًا قائلاً: «لقد رأى الهجومات عليه بالطبع كجزء من مؤامرة واسعة حاكها المتكبرون لتدمير رئيس يمثل الشوارع».[3]

لو كان نيكسون رجل شارع، لسجن، غير أنّ استمرار كيسنجر في تغذية الارتياب المرضي الذي عاناه نيكسون («إنهم يتهيأون للقضاء عليك ... سوف نريهم من نحن») أدى إلى استمرار مأساة أميركا لعدة شهور، مع المخاطرة بأن يخسر منصب رئيس الولايات المتحدة كرامته وسلطته ما لم يستقِل الرئيس الذي تراجعت شعبيته إلى العشرينات.[4]

ومن دون علم نيكسون، وعد كيسنجر نائب الرئيس فورد، بالبقاء في منصبه كوزير للخارجية في إدارة فورد إذا تم إقناع نيكسون بالاستقالة. غير أنه استمر في التملق والتودد إلى الرئيس كما فعل منذ حملة العام ١٩٦٨. وعلى الرغم من

(١) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٥٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ٥٤٦.
(٤) المصدر السابق، ص. ٥٤٧.

كل الإشاعات عن استقالة محتملة في كانون الثاني/يناير ١٩٧٤، حذر نيكسون الكونغرس بشجاعة بأنه لن يستقيل «بأي ظرف كان». أما الحل البديل للكونغرس فقد كان عزل الرئيس، غير أنه نبه الكونغرس في حال عزله بما هو بالفعل ابتزاز، وأعلن أنه سيذل البلد أكثر إذ إنّه «سيحارب حتى آخر رمق ولو وقف إلى جانبه سيناتور واحد»[1].

في الحقيقة كان هناك حل بديل آخر وهو التمرد على طريقة كين. فبموجب التعديل الخامس والعشرين للقسم الثالث من القانون الذي قدمه الكونغرس والذي وافقت عليه الولايات في العام ١٩٦٧، يمكن استقالة أو عزل الرئيس بسبب عدم قدرته «على تولي سلطات وواجبات منصبه». ولكن نظرًا إلى أنّ أحدًا لم يرد اختبار صحة الرئيس العقلية بشكل رسمي، اعتمد مستقبل أميركا على الإجراءات القضائية، أي ما إذا اجترأ الكونغرس على اتهام رئيس حالي في القرن العشرين، بالاستناد إلى أشرطة نيكسون كبرهان مادي.

غير أنّ الرئيس أمل، من دون جدوى، إنقاذ نفسه كما نجح في الماضي، من خلال خطاب يشبه خطاب التشيكرز. لذلك خطط ليعلن وسط ضجة إعلامية كبيرة في خطاب حال الاتحاد في كانون الثاني/يناير ١٩٧٤، أنه كان قد أقنع منتجي النفط في الشرق الأوسط شخصيًا برفع الحظر عن النفط الذي كان يعطل حينئذ الاقتصاد الأميركي. فرفضت الدول العربية المنتجة للنفط الالتزام قبل أن تبدأ إسرائيل فعلاً بالانسحاب من الأراضي المحتلة. غير أنّ إسرائيل رفضت الانسحاب من هضاب الجولان التي سيطرت عليها. فلم يرفع العرب حظرهم عن النفط، ولم يكن نيكسون قادرًا على قول أي شيء أو التهديد بأي شيء ليبدل رأي أحد الطرفين. فسقط كل ما خطط لقوله في خطابه حول حال الاتحاد فيما وقف الناس في صفوف طويلة في محطات البنزين في أميركا في ربيع العام ١٩٧٤.

كان الحظر العقابي العربي على النفط كارثةً بالنسبة إلى الرئيس. فارتفع التضخم

(١) المصدر السابق، ص. ٥٥٦.

بنسبة خمس عشرة في المئة، وقد شمل الجميع فيما وصل انعدام الثقة بالحكومة إلى مستوى سبعين في المئة نتيجة فضيحة ووترغيت. فحاول نيكسون من جديد نقل خطاب شبيه بخطاب تشيكرز عبر التلفاز في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٧٤ بعد إصدار نسخة أقل هجومية عن مخطوطات لبعض الأشرطة التي أمسك بها.

كان خطاب تشيكرز الذي ألقاه نيكسون قد أنقذ ترشحه لمنصب نائب الرئيس. وبعد اثنين وعشرين عامًا، ومع اتهام سبعة مسؤولين في البيت الأبيض أو أكثر من قبل هيئة محلفين فدرالية كبرى في واشنطن في آذار/مارس ١٩٧٤، ورفض المحكمة العليا طلب نيكسون حجب الأشرطة المقدمة أمام المحكمة عن المدعي العام على أساس «الامتياز التنفيذي»، لم يفلح هذا الخطاب. وعلى الرغم من مرضه الوريدي الحاد، أصر الرئيس على السفر إلى أوروبا والشرق الأوسط في حزيران/يونيو، في خطوة تُظهر أقله في ذلك الوقت، أنه كان عنصرًا مهمًا جدًا للسلام العالمي، لذلك من الأفضل ألا يبدأ الكونغرس بعملية الاتهام. غير أنّ هذا الجهد أيضًا كان من دون جدوى. فتساءل كيسنجر بكل بساطة ما إذا كان نيكسون كان يتمنى الموت ولذلك سافر على الرغم من نصائح الطبيب. (كان الجنرال هايغ يعتقد ذلك). وفي موسكو، كانت محاولة نيكسون عقد اتفاق محادثات للحد من الأسلحة الإستراتيجية فاشلة فلم يكن يركز مدّعيًا أنه كان «يستمع إلى أشرطة البيت الأبيض» في غرفته بدلاً من الإعداد لمحادثات اليوم التالي.

في العلن (أو شبه العلن)، قال نيكسون: «يجب ألّا نُضعف منصب الرئاسة أبدًا، لأنّ قوة أميركا وقوة الرئيس الأميركي أمران أساسيان»، غير أنّ ذلك طرح مسألة ما إذا كان نيكسون يضعف منصب الرئاسة بتمسّكه به.[1] في جميع الأحوال، لم تنجح مناوراته المطولة. وفي السابع والعشرين من تموز/يوليو ١٩٧٤، قدمت اللجنة القضائية التابعة للبيت الأبيض تصويتها التاريخي للتوصية باتهام الرئيس للمرة الثانية فقط في تاريخ البلد. وزادت مواد الاتهام المقترحة في الأيام التالية لتصبح ثلاثاً:

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠٠.

أولاً، إعاقة القضاء، ثانيًا استخدام الوكالات التنفيذية بطريقة غير شرعية، وثالثًا، تحدي محاضر استدعاء اللجنة.

فانصبت كل الاهتمامات الآن على الأشرطة في ذاتها، التي كانت تُفحص كمواد جرمية قبل نشرها. وعندما استمع مساعدو الرئيس إلى شريط الإدانة «سموكينغ غان» المؤرّخ في الثالث والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٧٢، الذي سجل أوامر نيكسون لوكالة الاستخبارات المركزية بإعاقة أعمال مكتب التحقيق الفدرالي في التحقيق في فضيحة ووترغيت، وصلت القضية إلى خط اللاعودة. فتم محو مقطع صغير جدًا إلى درجة أنه أمكن عدة حادثًا، غير أنه نُقل إلى الرئيس أنه نظرًا إلى ما تبقى من التسجيل، لم يكن أمامه أي فرصة لمواجهة الاتهام الناجح في مجلس النواب، ناهيك بالفوز في المحاكمة اللاحقة في مجلس الشيوخ. وصف نيكسون بنفسه الشريط «كديناميت في داخله فتيل بطيء ينتظر الانفجار»، ولعن اليوم الذي كان يعاني فيه التهاب الرئة في تموز/يوليو ١٩٧٣ ما جعله يقاوم رغبته (وتوصيات الآخرين) في القضاء عليه.[1]

فبدأت بذلك المسرحية الهزلية. في الأول من آب/أغسطس ١٩٧٤، قال نيكسون لرئيس قطاعه السياسي، الجنرال هايغ، إنه سيستقيل ولكنه أراد من نائب الرئيس فورد أن يسامحه حالما يصبح رئيسًا. غير أنّ فورد رفض ذلك إذ لم يكن متيقناً التداعيات والنتائج. وفي كامب دافيد في نهاية ذلك الأسبوع، أقنعت نيكسون عائلته المذهولة بمواجهة الاتهامات لجهلها محتويات الأشرطة وتورطه في فضيحة ووترغيت وغيرها من السرقات. (أصيبت زوجة نيكسون بجلطة بعد قراءة نصوص الأشرطة).

وفي السابع من آب/أغسطس، أصدر البيت الأبيض بيانًا بأن الرئيس «لم يكن ينوي الاستقالة». ولكن في الحقيقة، قرر نيكسون الاستقالة. بحسب ما قاله لكيسنجر ذلك المساء، بعد أن سمع أن دعمه في مجلس الشيوخ قد انخفض إلى الستة أو السبعة أصوات، ما كان يعني هزيمةً مؤكدةً له. فتوقع نيكسون نهاية محتمة

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠١.

لكل أحلامه السياسية، ومقاضاته على كل جرائمه الكبرى ومخالفاته، فانفجر بالبكاء.

بكى كيسنجر وقال إنه سيستقيل أيضًا، غير أنّ الرئيس توسل إليه ألّا يفعل ذلك. وفيما مشى بارتياح نحو المصعد، طلب إليه نيكسون التوقف وأن يركع ويصلي معه. وبعدئذ اتصل الرئيس بكيسنجر وتوسل إليه ألاّ يكشف عما جرى. فوعده كيسنجر بذلك، غير أنه نكث وعده فور استقالة نيكسون.

وفي مساء اليوم التالي، في الثامن من آب/أغسطس ١٩٧٤، في التاسعة والدقيقة الواحدة أنهى نيكسون أخيرًا قصة ووترغيت المؤلمة، معلنًا عبر التلفاز مباشرةً من المكتب الرسمي أمام مئة وستين مليون مشاهد «في كل القرارات التي اتخذتها في حياتي العامة، حاولت قدر المستطاع العمل لمصلحة البلد»، مشيراً إلى القرارات «الخاطئة» التي لم تكن عملاً جرميًا أو انتقاميًا ولكن بكل بساطة «أحكامًا» اعتقد «في وقتها أنها تصب في مصلحة الأمة». كان ذلك تصرفًا «كلاسيكيًا» ينم عن شخصيته الحقيقية، كما أحب أن يلقب نفسه، «رجل ذو وجهين»، كما سخر منه السيناتور غولدواتر، فيما وقف في مرحلة تاريخية، أمام أكبر نسبة مشاهدين سجلها خطاب لرئيس في تاريخ التلفاز والراديو.(١)

وفي لحظات، كان المشاهدون والمستمعون يسمعون صوت ريتشارد آخر، ريتشارد الثاني من مسرحية الكاتب شكسبير، الذي حفظه نيكسون في المدرسة. طغت الرداءة والسخافة على كلامه مذكرةً بخطاب تشيكرز الذي أدلى به قبل عقدين. وأعلن ليظهر نفسه ضحية أكثر من مسؤول عن مصائبه «لم أكن يومًا انهزاميًا. والاستقالة من منصبي قبل انتهاء ولايتي تتعارض مع كل غريزة في داخلي. ولكن بصفتي رئيسًا، من واجبي أن أضع مصلحة البلد أولاً. تحتاج أميركا إلى رئيس ومجلس شيوخ يعملان في دوام كامل، وخصوصاً في خلال هذه المرحلة التي نواجه فيها مشاكل داخلية وخارجية». وبعد أكثر من عام من التغطية والكذب على مجلس الشيوخ

(١) المصدر السابق، ص. ٦٠٤.

والاتهامات بحق أقرب مساعديه، وبعد سنة من بدء مؤامرة ووترغيت التي استحوذت على كل انتباهه، قال الرئيس إنه سيضع جانبًا محاولته الأنانية «لمواصلة المحاربة في الأشهر التالية لتبرئة نفسي». وبعد ظهر اليوم التالي، طلب إلى نائب الرئيس تولي زمام الرئاسة.

وفي التاسع من آب/أغسطس، وفيما صعد نيكسون إلى متن مروحيته ليُنقل سريعًا إلى قاعدة أندروز للقوات الجوية، ومن ثم إلى منفى في كاليفورنيا، حمل المحتجون لافتات تطالب بسجن الرئيس. وكان ذلك نهاية حزينة لرئاسة إبادة جماعية.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

كانت شخصية ريتشارد ميلهوس نيكسون الشخصية الأكثر إثارةً للجدل بين جميع القياصرة الأميركيين. وكان والده أميركياً من أصل إيرلندي ولكنه حادّ الطبع لذلك كان يخشاه، ومن جهة أخرى كان يعشق والدته القديسة التي كانت تنتمي إلى جمعيّة الأصدقاء الدينية. ولم يكن والداه يؤمنان بإظهار عاطفتهما. وفي هذا السياق، شرح نيكسون في ما بعد قائلاً: «لا أحد أظهر الدفء والعاطفة مثل والدتي.» وأضاف: «ولكنّها لم تدلّل أياً من أولادها أو غيرهم من الأشخاص الّذين تشعر بحبّ كبير[1] تجاههم، كما هي العادة اليوم، عبر ضمّهم إلى صدرها وتقبيلهم، لذلك أجد هذه الأمور مقزّزةً».

مقزّزة أم لا، شعر نيكسون بالذّنب لبقائه حيًّا بعد وفاة اثنين من أشقائه بسبب مرض السلّ. وأكثر ما كان يعذّبه هو ذكرى آرثر، شقيقه الأصغر الذي سأل عندما عاد نيكسون إلى المنزل بعد غياب سنة تقريبًا أمضاها في مدرسة ثانوية، إذا كان يستطيع أن يخالف قواعد عائلة ميلهوس – نيكسون ويقبّل شقيقه الأكبر. فيخبر نيكسون هذه

(١) كتاب Nixon للكاتب أيتكين Aitken، ص. ١٤.

الحادثة متذكرًا «ضمّني بين ذراعيه وقبّلني على وجنتي»، كما تذكّر أيضًا الأسابيع التي أمضاها وهو يبكي في السرّ عندما توفّي آرثر الصغير الّذي أحبّته العائلة كلّها. وفي السنة التالية أصيب شقيقه الأكبر بالسلّ الذي أنهكه طوال خمسة أعوام قبل أن يقتله.

كان نيكسون ضحية الازدراء في المدرسة بسبب ذكائه ولأنّه كان مدلّل الأساتذة لقّبته بـ «الفتى الكئيب» (في الواقع لم يكن يبدي أي اهتمام بالفتيات، ولأنه لم يكن لديه أخت، كان خجولاً ووحيدًا كما كان يحب الدرس والخصوصية). وفي ما بعد أرجع نزعته التنافسية وطموحه المتصلّب إلى كونه تعرض للكثير من الإهانات والاحتجاجات المستمرة في طفولته. وأشار قائلاً «إن كان ذكاؤك معتدلاً وغضبك عميقًا وقويًا بما يكفي، تتعلّم أنّك تستطيع تغيير هذه المواقف من خلال التميّز والأداء النابع من شخصية قوية، في الوقت الذي يجلس أولئك الذين يملكون كلّ شيء لا يفعلون شيئًا».[1]

وكان لنيكسون علاقات بارزة كثيرة مع الرجال في حياته، من والده وأشقائه إلى رجال مثل هالدمان وإرليشمان ودين وميتشيل وريبوزو وكيسنجر. أمّا في ما يتعلق بالنساء فقد كانت له ثلاث علاقات بارزة فقط طوال حياته.

الأولى كانت هانا ميلهوس، والدته. في الواقع، كانت هانا قد حصلت على تدريب كمعلّمة مدرسة قبل أن تتزوج، وكانت تتقن اللغتين اللاتينية واليونانية؛ وكانت تُعتبر أنّها «تزوّجت شخصًا أدنى منها مستوى». فأصبح نيكسون تلميذها اللامع، والقادر على ترجمة اللاتينية من دون أي صعوبة، إضافةً إلى كونه متضلعاً من التاريخ الروماني. وطوال حياته كان متأثرًا باستقامة والدته الأخلاقية؛حتى أنَ سبب اعتراضه في ما بعد على نشر نصوص أشرطته يعود إلى خوفه أن تصبح لغة الشتائم التي كان يستعملها علنيةً ما سيجعل والدته «تتعذب في قبرها».

وفي حين كان أشقاؤه يواجهون والدهم العدواني (كانت هناك أوقات يُسمع

(١) المصدر السابق، ص. ٢٩.

فيها الصراخ في الجوار»، بحسب ما يتذكّر أحد معارفهم)، كان نيكسون يخشى مزاج والده الإيرلندي السيئ و لا يخاطر بمواجهة غضبه – أو ضربه له بالحزام.[١] وأشار لاحقًا «ربّما يعود نفوري من المواجهات الشخصية إلى هذه الذكريات» بعد أن شاهد طريقة والدته الهادئة والحازمة في مواجهة والده، الذي ترك المدرسة وهو لا يزال في الصف الثالث.[٢] وبالنسبة إلى الأولاد كان لسان هانا الحادّ أشدّ لذعًا من حزام والده، حتى أنه يُقال أنّ شقيق نيكسون الأصغر بكى عندما قُبض عليه وهو يدخّن «قل لها أن تصفعني لا أستطيع تحمّل أن تكلّمني في الموضوع».[٣]

في البدء، كانت حبيبته الأولى بعيدة المنال. عُلا ويلش، فتاة رائعة الجمال، ابنة قائد الشرطة المحلية وهو ديموقراطي يحترم فرانكلين روزفلت ويناصر وجهات النظر المعارضة لتلك التي تعود إلى والد نيكسون الجمهوري الجريء. حتى أنَ عُلا كتبت في مذكّراتها حين كانت في مدرسة ويتير الثانوية «كم أكره ريتشارد نيكسون»[٤]. ولكن حين مثّلا معًا في مسرحية مدرسية (لاتينية)، حيث كان على «الأخرق الذي يحبّ الدَرس»أن يقبّلها، خفّفت موقفها المتزمت وأصبحت مهتمّةً بملقي خطبة التخرّج الموهوب ولكن المضطرب نفسيًا، وهو شاب تظنّ أنّه يتمتّع بموهبة استثنائية في حضوره على المسرح وفي علاقته بالجمهور، بالإضافة إلى السرعة التي كان يحفظ بها دوره وتوجيهات المسرح.[٥] وبالتالي سمحت لنيكسون أن يواعدها، بطريقة أفلاطونية على مدى السنوات الخمس التالية وعقدا خطبتهما في خلالها وادّخرا المال لخاتم الزّفاف. وقد قالت عنه في ما بعد[٦]: «كان لغزًا كبيرًا، وفي معظم الأحيان لا أستطيع أن أفهمه».[٧]

(١) المصدر السابق، ص. ١٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ١٤.
(٤) المصدر السابق، ص. ٢٩.
(٥) كتاب Richard Milhous Nixon: The Rise of an American Politician للروائي روجر موريس Roger Morris، ص. ١٢٦.
(٦) كتاب Nixon للكاتب أيتكين Aitken، ص. ٦١.
(٧) كتاب Richard Milhous Nixon للكاتب والمؤرخ بلاك Black، ص. ٣١.

وكان نيكسون مزاجيًا ومجدًا في العمل، ممزقاً بين الأخلاق والطموح. وسرعان ما أقلق الناس بقدراته اللامعة التي قد يسيء استعمالها. وتتذكّر دوروثي شقيقة عُلا لاحقاً حين قرأت كفّ نيكسون وهو في التاسعة عشرة حين كان لا يزال في الثانوية قائلة: «كدت أُصاب بصدمة. ما رأيته في كفّه كان مسارًا من النجاح الباهر الذي لا يُصدّق وبعدها رأيت أسوأ غيمة سوداء كما لو كانت مصيبة أو شيئًا من هذا القبيل».[1]

وبعد عودته من كلية الدراسات العليا في الحقوق في جامعة ديوك في صيف ١٩٣٥ لقضاء العطلة، طلب نيكسون أن يزور منزل عُلا في ويتير. وقد كان يتحرّق شوقاً إلى معرفة سبب رفضها، فشرحت له عُلا أن هناك حبيباً آخر يكلّم والديها.

وغضب نيكسون كثيرًا بل استشاط غضبًا. فصرخ «إذا رأيتك مرةً ثانيةً فسيكون ذلك قريبًا، وقريبًا جدًا».[2] فيما أعادت عُلا المال الذي ساهم به لشراء خاتم الزفاف، ظلّ يراسلها، واصفًا نفسه «باللجوج غير المرغوب فيه» الذي لم يستطع الاستسلام حتّى الآن.[3] وفي النهاية، في شباط/فبراير ١٩٣٦، استسلم بعد تسعة أشهر، وكتب أنّه «أدرك أكثر من أي وقت مضى كمال طبع والدتي وروعته وعظمته. فهي مثالي الأعلى وعاجزة عن الأنانية». وقد شرح لعُلا قائلاً: «أنت أخذت مكانها في قلبي – كمثال على جميع الرجال أن يسعوا إليه».[4] أمّا نثر نيكسون المنمّق والمثالي فيخفي وجهًا مجهولاً من شخصيته، فبين «طموحه العظيم» من جهة وكبته من جهة أخرى، حتّى طبيبه النفسي وجده في ما بعد «لغزًا ليس بالنسبة إلي فقط بل بالنسبة إلى نفسه».[5] وعلى الرّغم من أنّ فسخ عُلا ويلش لخطبتهما قد تسبّب له بأذًى كبير، كان نيكسون محظوظًا للقائه بعد سنتين، ومن جديد عبر هواة التمثيل، امرأة جميلة أخرى. وهذه

(١) كتاب Nixon للكاتب أيتكين Aitken، ص. ٦١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٦٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، ص. ٦٤.
(٥) كتاب Arrogance of Power للكاتب سمرز Summers، ص. ٩٢.

المرّة كانت ثيلما راين معلّمة مدرسة تبلغ السادسة والعشرين من العمر، ذات شعر براق يميل إلى اللون الأحمر وتتمتع بمظهر نجوم الأفلام، وقد استبدلت اسمها باسم باتريسيا. وطلب نيكسون مواعدتها في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٨، في أول أمسية التقاها (عندما كانت تمثّل في مسرحية عنوانها يثير الشؤم «البرج المظلم»). ولكن حين رفضته ردّ نيكسون: «قد لا تصدّقين هذا ولكن ستصبحين زوجتي يومًا ما».[1]

وقد صدّت بات ريان في خلال ربيع ١٩٣٨ محاولات نيكسون التودّد إليها ولكن استحال عليها أن تتخلّص منه. لقد تشاركا في ذكريات عائلية متشابهة، إضافة إلى مشاعر الاستياء نفسها تجاه المتحدّرين من خلفية أكثر ثراءً. فتجدر الإشارة إلى أنّ والدها أيضًا كان أميركيًا من أصل إيرلندي غير متعلّم ومعدمًا عمل في مناجم التنقيب عن الذهب كما عمل سائق شاحنة ومزارعاً، هو أيضًا كان حاد الطباع، ومات بسبب تحجّر الرئة حين كانت بات لا تزال في السادسة عشرة. أمّا والدتها فكانت مهاجرة ألمانية، تحمّلت نوبات غضب زوجها العنيفة بقوّة عزيمة، إلى أن توفّيت في العام ١٩٢٤، حين كانت بات في الثانية عشرة من عمرها. وعملت بات طوال فترة دراستها (بدوام جزئي كممثلة إضافية في هوليوود)، وكانت ملحدةً ومثل عُلا فسخت علاقتها نهائيًا بالفتى الكئيب. وفي خلال السنتين التاليتين لم يتقدّم لها مرشّح أفضل أو أكثر عنادًا، حتّى أنّ نيكسون كان يقلّها لمقابلة رجال آخرين بحسب مواعيدها ليظهر لها مدى عمق تعلّقه بها. وأخيرًا وافقت بات على الزواج به في صيف ١٩٤٠، حين كانت في الثامنة والعشرين. ولكنّها رفضت زواجاً كنسياً كاذباً، وجرى الاحتفال في نزل في ريفرسايد، كاليفورنيا، حضره فقط عدد ضئيل من الأقارب. بقي ديك وبات متزوّجين لأكثر من خمسين عامًا حتّى وفاتها وهي في الواحدة والثمانين من العمر في العام ١٩٩٣، ولكن استمرار علاقتهما كان نتيجة قوّة الإرادة أكثر من العاطفة.

وعلى غرار الكثيرات من المتزوجات حديثًا، حاولت بات تعزيز الجانب الأفضل من شخصية زوجها. ولكنّها لم تكن قادرةً على إلغاء العناصر المظلمة والشيطانية

(١) كتاب Nixon للكاتب أيتكين Aitken، ص. ٨٦.

في شخصيته. وكما كتب ستيفين أمبروز كاتب سيرة حياة نيكسون في وقت لاحق «كرهت السياسة» ولم يكن هناك أي مصدر سعادة في زواجهما باستثناء ابنتيهما.[1] ومع أنهما انفصلا مدة ما في العام ١٩٥٦، ووعدها بترك السياسة، لكنه لم يستطع ذلك، لأنّه كان مدمنًا الإثارة ويرفض «الملل» الذي ينتج من ممارسة المحاماة، مدّعيًا أنّه «سيقتله في خلال أربع سنوات».

أرادت والدة نيكسون أن يصبح ولدها كاهنًا ولكنه لم يكن يملك القدر الكافي من الإيمان. أما في ما يختص بالسياسة فقد كان يملك العديد من المؤهلات التي تسمح له بدخول هذا المعترك بدءًا بقدرته على الخداع، حتى أنه قال لأحد زملائه في كلية الحقوق: « لن تنجح أبدًا في السياسة، فأنت لا تجيد الكذب.»[2] فقد كان نيكسون يرى أنّ الكذبة وخصوصًا في السياسة تعدّ كذبةً بيضاء ما دامت توصل إلى السلطة وهي أكبر لذة في الحياة. وقد لاحظ طبيب نيكسون النفسي بعد وفاة هذا الأخير وانتهاء صلاحية قسمه بحفظ خصوصية مريضه أنّ « نيكسون كان يعتمد على بات لأنه يثق بها وقد بقيت معه، ولكن صبّ ذلك في المصلحة السياسية، فالحقيقة أنّ السياسة كانت شغفه الوحيد.»[3]

وكذلك، بين الخداع والسلطة يوجد خوض المعركة السياسية، حفزت هذه المعركة ابن البقال وتحوّلت إلى هوس. وقد حركت السياسة، وخصوصًا حب السلطة، قدراته التمثيلية والتحليلية وقدرته على خوض الجدالات والتنبؤ والتآمر. كما سمح له نسج أسطورة شخصية تسعى إلى تحقيق المثل العليا، باستغلال بساطة الشعب الذي كان يصفح عن صفاته السلبية. ومن أجل إبراز نبله علانية، كان يحتاج نيكسون إلى بات كرمز عام لصفائه حتى أنه تغاضى عن اعتراضاتها فكما قالت معترفةً «مصيره كان قدري».[4]

(١) كتاب Nixon: The Education of a Politician للمؤرخ أمبروز Ambrose، ص. ٣٥٠.
(٢) كتاب Arrogance of Power للكاتب سمرز Summers، ص. ٤.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٠.
(4) كتاب Nixon: The Triumph of a Politician للمؤرخ ستيفن أمبروز Stephen Ambrose، ص. ١١١.

في ما بعد تساءل هنري كيسنجر عما كان سيحقق نيكسون من إنجازات لو أنه كان «محبوبًا»، إلا أنه لم يكن يعلم أنّ هذا الأخير كان محبوبًا من قبل عائلته على الرغم من شخصيته المضطربة أو بسببها. [1] وبشكل مدهش، استمدّ، من عائلته وبعض الأصدقاء وفريق عمله المقرّب، حتى لو أنهم كانوا يعرفون علاته، عددًا وافرًا من الأمثلة الدالة على الحب والإعجاب والأهم من كل ذلك الوفاء الفائق. لم تكمن المشكلة إذًا في عدم وجود الحب والإخلاص وإنما في عدم كفايتهما لإرضاء نفس نيكسون المعذبة التي عبّر عنها بمزيج مستمرّ من البلاغة العالية والرغبة في الانتقام. شكل هذا المزيج طموحًا لجوجًا من أجل اتخاذ الخطوات اللازمة التي توصله إلى أعلى منصب سياسي في الامبراطورية التي تساهم لاحقًا في الحفاظ عليه بأي ثمن على الرغم من سلوكه المضلل وغير الأخلاقي وغير القانوني والإجرامي الذي أصبح عليه والذي كشفته تسجيلاته في نهاية المطاف.

شكل ذلك أكبر خيبة أمل، بالنسبة إلى بات وبالنسبة إلى أولئك الأبرياء الذين دعموا بروز محام أميركي موهوب جداً ذي خلفية متواضعة. أما بالنسبة إلى أولئك الذين عرفوا الشيطان الموجود في ريتشارد نيكسون، سواء في السرّ أو كما اتضح في وقت مبكر من حياته المهنية في خلال قضية هيس والمكارثية المتفشية، فلم يُفاجأوا بل على العكس، فقد كان هناك شعور أنهم رأوا هذا المشهد سابقًا. فضلاً عن الخوف مما قد يصيب أميركا في الوقت الذي يقودها رجل كهذا نرجسي مليء بالكراهية والاكتئاب ويعيش نوبات من جنون العظمة جنبًا إلى جنب مع العديد من المواهب.

رأى طبيب نيكسون النفسي أنه، وراء إخلاصه إلى المثل السياسية الأسطورية كاللاشيوعية وحياته في التخفي ووراء سعيه الحاقد إلى السلطة بأي ثمن، يعاني صراعًا لا ينتهي بين تمجيد والدته الطاهرة والمتديّنة، والغضب والخوف اللذين عاشهما وهو طفل بسبب والده المستبد والقاسي الذي يتهجم على والدته وينهال

(١) كتاب Arrogance of Power للكاتب سمرز Summers، ص. ٤٠.

عليها بالشتائم. وقد أسف الطبيب قائلاً: إنَ نيكسون ما تغلّب على هذا الصراع وخصوصًا عندما أدى الخداع والانتقام إلى إرضائه عاطفيًا وماديًا وسياسيًا.(١) وكما تجتذب الشمعة الفراش إلى اللهب، جذب نيكسون الرجال المشكوك في أمرهم والكاذبين ليس لإشباع شجعهم واغتنام الفرص وإنما جعلهم أيضًا «الأغلبية الصامتة» أي لجنة الأميركيين البيض المؤلفة بمعظمها من الذكور والناخبين الذين لم يعرفوا شخصيته الحقيقية والذين أقنعهم مرةً بتصرفاته المصطنعة والتافهة، ما شرّع بعفوية قيادته للقوة العسكرية الأميركية العظمى بسلوك إجرامي سري وبطريقة تنمّ عن جنون العظمة.

وفي أدائه لدور ياغو، أظهر نيكسون مواهب لا تضاهى. ومن بين سائر رؤساء الولايات المتحدة في مرحلة ما بعد الحرب، كان نيكسون أكثرهم مهارة في استخدام تقنيات قاعة المحكمة. وقد زوده حبه للغة اللاتينية منذ الطفولة ولقراءة التاريخ الروماني قوة «الترتيب والمنطق» في تشكيل استئنافه؛ وأضاف إلى ذلك قدرته على اختلاق الأكاذيب العاطفية والرديئة والترفيهية والقدحية المقنعة، مما يجعل منه خطيبًا مقنعًا وخصمًا هائلاً لم يتمكن حتى رونالد ريغان وهو في ريعان شبابه من مضاهاته.

من جهة أخرى، كان نيكسون يحتفظ دائمًا بدفتر ملاحظات أصفر مسطّر يكتب عليه كل أفكاره وخطبه وطموحاته. فهو لم يكن يتوقف عن القيام بالحسابات وعن التلاعب بالآخرين من أجل تحقيق أهدافه الخاصة. فقد كان يعمل مثل المجنون إلى درجة أنه كان يحتاج أحيانًا إلى تسعة مساعدين. استذكرت زوجته، في هذا الإطار أنه حين كان سيناتورًا كان يمضي في كثير من الأحيان الليل كله في قاعة المجلس «كان يعمل هناك حتى ساعات الصباح الأولى... كان يتمدّد على الأريكة لينام بضع ساعات، ثم يستيقظ ليتناول فطوره ويحلق ذقنه ويذهب مباشرة إلى غرفة

(١) المصدر السابق، من الصفحة ٨٨ وحتى الصفحة ٩٩.

مجلس الشيوخ للعمل».[1] كان يتظاهر وكأنه رجل نبيل ـ بدءًا باللا شيوعية ومن ثم التحول إلى تأييد الشيوعية ـ في كل مرة كان يُهزم فيها كان قادرًا على التماس الشفقة والتعاطف، إلى درجة أنّ زوجته ومن ثم بناته رفضن تصديق كل الأشياء السيئة التي كانت تقال أو توثّق عنه. وقد قالت ابنته تريسيا: «ريتشارد نيكسون لا يكذب أبدًا على عائلته ولا على الشعب الأميركي ولا حتى كذبةً بيضاء»[2]، وذلك، على الرغم من شهادة محاميه الخاص فريد بوزاردت الذي عدّ نيكسون « الكاذب الأكثر شفافية الذي عرفه في حياته «.[3]

لقد كان أداؤه ذلك متقنًا ومن واقع الحياة حيث البطل لا يدفع ثمن أي من أخطائه، وإنما كان يكافأ أو يعفى أو يسامح دومًا حتى أنه كان يتم تأهيله حتى نهاية حياته، على الرغم من رقعة الدمار التي خلّفها. وبالتالي، على الرغم من هزائمه وسلوكه الإجرامي، أصبح تلميذ الحقوق الصعلوك في جامعة ديك الذي استأجر كوخًا يخلو من الإمدادات الصحية كي يوفّر المال، رجلاً ثريًا يملك أموالاً طائلةً مشكوكاً في مصدرها ولم يكن يحلم يومًا بالحصول عليها، وساعدته هذه الأموال على تدبير المكائد، ما عزّز صورته كخليفة من العصور الوسطى.

وللأسف، هنا تكمن المأساة العظمى لأميركا، فريتشارد نيكسون رجل فاسد لا يمكن إصلاحه، ومع ذلك فهو مصمّم إلى حد مرضي على كسب السلطة المطلقة وممارستها كرئيس أو قيصر للولايات المتحدة. وكذلك، نجح في قلب قرنين من نظام الحكم الأميركي مدعيًا أنه يقوم بأفضل شيء لوطنه الذي يشمل الأميركيين «الصامتين». إلا أنه بذلك، يعطي مثالاً عن شبه الديكتاتورية بحيث ازدرى تمامًا مجلسي الشيوخ والنواب وهما مجلسان هو نفسه خدم فيهما.

وقد ساعدته قدرته الخطابية البليغة المشابهة لشيشرون على نسج قصته الرئاسية ببراعة، فقد تابع نيكسون تلميع صورته الذاتية بحيث صوّر نفسه أنه وقع ضحيةً نبيلةً

(١) كتاب Nixon: The Education of a Politician للمؤرخ أمبروز Ambrose، ص. ٢٤٤.

(٢) كتاب Arrogance of Power للكاتب سمرز Summers، ص. ٣.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢.

للكيد والعجرفة في خلال بحثه عن العظمة وليس شخصًا غير مستقر لا بل شبه ديكتاتور كما هو في الحقيقة . وقد قال نيكسون لكيسنجر في ربيع العام ١٩٧٢: «كانت مسألة القصف على شمال فيتنام وكامبوديا ولاوس الأمر الوحيد الذي اختلفنا عليه، فأنت كثير القلق حيال المواطنين في حين أنا لا أبالي بهم ولا يهمني أمرهم».[١] وتابع نيكسون مصرًا على ازدراء الانتقادات التي يوجّهها إليه مدافعو حقوق الإنسان وسأل مستشار الأمن القومي « يستحسن أن نحصل على سدود شمال الفيتنام فوراً، فهل سيُغرق هذا الشعب؟» فرد المستشار « قد يقضي هذا الأمر على حوالى مئتي ألف شخص» فاحتجَّ نيكسون ليس من باب الرحمة وإنما لأنه رأى أن هذا الإجراء غير كاف وقال كيسنجر المصدوم: «لا، لا، لا، أفضل استخدام القنبلة النووية، هل فهمت هذا يا هنري؟»

وعلى الرغم من وجود كيسنجر في مركب القتل الجماعي نفسه مع نيكسون إلا أنه قال: «هذا القرار مبالغ فيه كثيرًا» فردّ نيكسون ساخرًا «هل القنبلة النووية هي التي تزعجك، أريد منك أن تفكر على نطاق واسع يا هنري، بحق الله».[٢]

«مؤامرة طائشة وقرارات غير ناضجة ومتسرعة وإجراءات بعيدة عن الواقع وتفاخر وتبجح وانجذاب إلى الحكم بالقوة» ، هذه هي الاتهامات التي وجهتها صحيفة برافدا وغيرها إلى إمبراطور آخر، ألا وهو نيكيتا خروتشوف الذي كان لا بد لزملائه السياسيين أن يطيحوه قبل أن يعرّض الأرض للخطر في العام ١٩٦٤.[٣] وبالتالي، رأى نظراء كل من نيكسون وخروتشوف أنّ هذين شخصان خطيران لا يمكن التكهّن بتصرفهما فهما ذكيان ولكن غير مستقرين، صلبان في سعيهما وراء السلطة تدفعهما مشاعر الاستياء وانعدام الأمن الذاتي. كانا مسؤولين عن وفاة عشرات آلاف الأشخاص. لم يبال نيكسون ما إذا كان سيموت تيو أو شعبه في جنوب فيتنام أم سينجوان؛ فجلّ ما يهمه كما كان يقول هو أنه «لا يمكن للولايات المتحدة أن

(١) كتاب Secrets للكاتب إلسبرغ Ellsberg، ص. ٤١٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤١٨.
(٣) كتاب Khrushchev: the Man and His Era للعالم السياسي وليم توبمان William Taubman، ص. ٦٢٠.

تخسر. لقد اتخذت قراري ومهما جرى لجنوب الفيتنام فسوف نهزم شمالها» وذلك بغض النظر عن موافقة الكونغرس، وتابع كلامه قائلاً: «سوف نستخدم قوة هذا البلد القصوى لمرة واحدة... ضد هذا البلد الصغير المعدم وذلك بغية الفوز بالحرب». لم تكن الهجمات الخاطفة على مدينة هايفونغ ما يريده نيكسون فقد قال في هذا الصدد: «أريد أن يتفتت هذا المكان شظايا. ففي حال استعددنا للقتال، فسنفجر أولئك الأوباش في المكان كله. وسيتمزقون إربًا إربًا»[١].

لا عجب أن أصيبت بات نيكسون بتجلّط الدم لدى قراءتها لمثل هذه النصوص. وكما كشف طبيب نيكسون النفسي لاحقًا أنّ مريضه كان على حافة الجنون، وحتى كيسنجر أطلق عليه في النهاية لقب «المشوّش ذهنيًا».[٢] وكذلك، من المستحيل أن نعرف إن كان مجنونًا حقًا ولكن كانت «نظرية المجنون» (أو ممارسة أعمال جنونية) بالتأكيد مفيدةً فهي جعلت الناس يشفقون عليه وحتى يسامحوه في اليوم الذي ترك منصب الرئاسة.

توفي من غزل حكايات البراءة في سعيه وراء عظمة بلاده رافضًا الاعتراف بالشر الذي اقترفه؛ ومن حصل على عفو رئاسي مثير للجدل ومن حارب بضراوة ليمنع وصول أشرطته إلى عامة الناس ومن عاش العشرين عامًا المتبقية له في الثراء، في ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٩٤. وتمت مراسيم جنازته في يربا ليندا في كاليفورنيا وقد حضرها خمسة رؤساء أميركيين.

---

(١) كتاب Secrets للكاتب إلسبرغ Ellsberg، ص. ٤١٨.

(٢) كتاب Nixon and Kissinger للمؤرخ دالاك Dallek، ص. ٦٠٩.

الفصل السابع

جيرالد فورد

الذي احترمه الشعب

جمهوري

الرئيس الثامن والثلاثون

(من التاسع من آب/أغسطس ١٩٧٤ إلى العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٧٧)

الجزء الأول: الطريق إلى الرئاسة

أبصر فورد النور في أوماها في ولاية نبراسكا في الرابع عشر من تموز/يوليو ١٩١٣، وقد تعمّد باسم ليسلي لينش كينغ الابن. وبعد مرور أسبوعين على ولادته، حملته والدته وهربت به إلى منزل عائلتها في غراند رابيدز في ولاية ميشيغن رافضةً تحمّل سلوك زوجها العنيف والتعسفي ليسلي لينش كينغ الأب الذي كان يعمل بالوراثة بتجارة الخشب.

بعد مرور أربع سنوات على الانتقال إلى غراند رابيدز، تزوّجت المطلقة من جديد، إلا أنها هذه المرة اختارت بناءً متواضعًا وهو جيرالد رودولف فورد. وحمل ابنها الصغير اسم زوجها الجديد لدى دخوله المدرسة. وعندما بلغ سن العشرين، في العام ١٩٣٤، غيّر «جيري» كما كان يناديه الجميع قانونًا اسمه ليصبح جيرالد رودولف فورد الابن.

كان جيرالد فورد دائمًا يقول مستنكرًا: «أنا من عائلة فورد ولست من عائلة لينكولن». في الواقع كان فورد متوسط الذكاء وحساساً، يصب تركيزه على ما يريده ومتشبّثاً وشاباً يتمتع بإخلاص تام. كذلك، كان فورد بطول ست أقدام، كتفاه عريضتان، شعره أشقر وعيناه زرقاوان، كان شابًا وسيمًا ولاعب كرة قدم ماهراً، ويطغى هذا على الذكاء من حيث الأهمية بالنسبة إلى محافظين في ميشيغن[1]. بفضل كرة القدم، حصل على منحة ليرتاد جامعة ميشيغن، ولعب مع فريق الجامعة في المباراة الشهيرة ضد جامعة جورجيا تيك. وكان هذا الفريق قد رفض أن يُنافس ميشيغن في

(١) أظهرت سجلات جامعة ميشيغن التي التحق بها فورد أنه حصل على درجة جيد جدًا في ٧٤ رصيداً ودرجة جيد في ٢٨ رصيداً ودرجة ممتاز في ١٤ رصيداً ودرجة مقبول في ٤ أرصدة، وذلك بحسب تقرير الاستخبارات الداخلية الخاص بجيرالد فورد الذي ولد باسم لينش، في مكتب ملفات الاستخبارات البحرية، بتاريخ ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٤٢، في مكتبة فورد في ميشيغن.

حال سُمح لويليس وورد اللاعب الأسود الوحيد (كان ينام في الغرفة مع فورد حين يسافران من أجل المباريات) باللعب. فأصرّ وورد أن يلعب فورد مكانه، وهذا ما جرى. هزم فريق وولفرينز ميشيغين الفريق العنصري هزيمةً شنعاء: تسعة مقابل اثنين ما شكل مصدر فرح لوورد.

وبعد التخرّج، حصل فورد، الذي كان يعمل نادلاً ومنظف صحون ليعيل نفسه، على وظيفة مدرّب رياضي في جامعة يال. وسرعان ما قُبل في هذه الجامعة في كلية الحقوق الشهيرة. وتجدر الإشارة إلى أن فورد كان شخصًا محترمًا وخلاقًا، شاباً «ذا شخصية جذابة ونبيلاً يتمتع بصفات الرصانة والرزانة» بيد أنه لم يكن «مدعيًا البتة فيما كان وسيمًا جدًا»، هذا ما قاله عنه المسؤول عن قسم الرياضة[1]. و بعد دراسة الحقوق، عاد فورد إلى منزله لممارسة هذه المهنة.

وعلى صعيد آخر، شكلت الحرب العالمية الثانية بالنسبة إلى فورد حجر الأساس لبداية الحياة السياسية الناجحة، على غرار كل الشخصيات التي عاصرتها مثل ماك كارثي وكينيدي وليندون جونسون وجورج بوش الأب. في الحقيقة، كان طلب فورد للانضمام إلى الاستخبارات البحرية (على غرار كينيدي) قد رُفض، بيد أنه، وعلى الرغم من إصابته في ركبته، قُبل في البحرية الأميركية في نيسان/ أبريل ١٩٤٢ . خدم في البحرية ببسالة وتميّز بصفته قائد المضادات الجوية ومساعد البحّار على متن يو أس أس مونتيري وهي حاملة الطائرات الحربية في جنوب الهادئ. وسار على خطى نيكسون، فترك في العام ١٩٤٦ الخدمة العسكرية برتبة ملازم قائد إلا أنه على عكس نيكسون حصد ست عشرة نجمةً حربيةً بين العامين ١٩٤٣ و١٩٤٤.

تحوّل فورد من مدافع عن الانعزالية الأميركية (فقد كان قد عمل في الحملة الانتخابية لوندل ويلكيز في العام ١٩٤٠، وحضر المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري

(١) سجلات جيرالد آر. فورد الشخصية من مكتبة فورد في ميشيغن.

في فيلادلفيا) إلى مناصر غيور لسياسة التعاون الدولية بعدما تعرّضت الولايات المتحدة للاعتداء وهزمت الإمبراطوريتين اليابانية والألمانية. ومن ثمّ حبّذ فكرة أن تقود أميركا العالم الحرّ في مواجهته للسيطرة السوفياتية في مرحلة ما بعد الحرب. من جهة أخرى، كان يودّ أن يهيّيء لمسيرته السياسية في غراند رابيدز، إلا أنّ فرانك دي. ماك كاي المسؤول عن الماكنة الانتخابية في ميشيغن أحبط عزيمته.

وبالتالي، تجاهل فورد ماك كاي، ورشّح نفسه في اللحظة الأخيرة في الانتخابات الأولية المحلية في ميشيغن للحزب الجمهوري عن مقعد في الكونغرس الأميركي. ولمفاجأة الجميع (حتى هو وخطيبته)، تفوق على بارتل جونكمان الانعزالي في المقاطعة الخامسة بنسبة ثلاثة وعشرين ألف وستمئة واثنين وثلاثين صوتًا مقابل أربعة عشر ألف وثلاثمئة وواحد وأربعين صوتًا، في محاولة أولى من نوعها بالنسبة إليه. وبذلك، ضمن لنفسه، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، مقعدًا في مجلس النواب عن مقاطعة آمنة للحزب الجمهوري. والجدير ذكره أنه لم يخسر هذا المقعد قط لثلاثة عشر انتخابات متتالية.

وبالنظر إلى شعبية فورد وتحليه بالمبادئ وسلوكه الجيد، طُلب إليه مرارًا وتكرارًا أن يترشح لمقعد في مجلس الشيوخ، إلا أنّ منصبه في لجنة التخصيصات في مجلس النواب الأميركي ضمن له تنامي أهميته السياسية ورضًى ذاتيًا. وعلى خلاف «نيكسون المخادع» الذي حاول أن يتقرّب إليه لكونه زميله في الكونغرس في العام ١٩٤٩، كان فورد مسرورًا بمسؤوليته السياسية، التي سمحت له، بمرور الوقت، بترؤس الأقلية الجمهورية آملاً أن يصبح يومًا ما رئيس مجلس النواب، في حال كسر الجمهوريون الجليد في العام ١٩٥٠ واستعادوا الأكثرية.

وفي هذا السياق، لم يكتف الجمهوريون بعدم استرجاع الأكثرية، بل تعرضوا إلى «مشكلة كبيرة» بسبب فوز السيناتور غولدواتر الذي عارض الانتخابات الرئاسية التي أدت إلى خسارة ستة وثلاثين مقعدًا جمهوريًا في مجلس النواب في العام ١٩٦٤. عندئذ، أعلن فورد جدول أعماله، كما أعلن أنه «سيسلك طريق الاعتدال

حتى النهاية». كما صرح بكل وضوح أنه يتعهد «مقاومة كل من يحاول السيطرة على حزبنا بأي شكل من الأشكال التي لا تصب في مصلحة الحزب، بل تخدم مصالح خاصة وضيقة».[1]

وبما أنّ فورد جمهوري معتدل ومقدام ووطني مناهض للشيوعية، دعم قرار الرئيس جونسون بإرسال وحدات من القوات الأميركية إلى الفيتنام للمحاربة. بالإضافة إلى ذلك، دعم قراره بتصعيد الأعمال الحربية رافضًا تقرير لجنة سياسة الحزب الجمهوري في مجلس الشيوخ الصادر العام ١٩٦٧ الذي يقضي بإحلال السلام والانسحاب. ومن جهة أخرى، لم يكن فورد خطيبًا موهوبًا، بيد أن موقعه في الكونغرس ونزاهته الشبيهة بنزاهة أيزنهاور بالإضافة إلى وجهات نظره حول المسائل الداخلية، أمور جعلت منه خطيبًا وسطيًا ومحبوبًا في صفوف الجمهوريين، إلى درجة أنه قد نُصح بالترشح لمنصب نائب رئيس نيكسون في صيف عام ١٩٦٨.

ولكن نائب الرئيس نيكسون خالف الجميع في الرأي، ففضّل أن يعين شخصًا غير معروف ولا يملك خبرةً، أي بعبارة أخرى شخصًا لا ينافسه، فوقع الخيار على حاكم ميريلاند سبيرو أغنيو. وقال فورد متذكرًا أنه عندما سمع الخبر «هززت رأسي غير مصدق».[2]

وبالعودة إلى الكابيتول، في إثر فوز نيكسون بفرق ضئيل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٨، دعمه فورد بإخلاص في قراره بتصعيد الحرب على الفيتنام، إلا أنّ نيكسون تجاهله تمامًا. في المقابل، كان نيكسون مقدراً لفورد، من باب التملق فقط، لكونه «نفّذ بعض المهمات» على غرار رفض تيدي كينيدي في مجلس النواب حسبما قال رئيس قطاع فورد متذمرًا. ولكن، في غياب فورد، لم يحاول نيكسون إخفاء ازدرائه للكونغرس أو لقائد الأقلية الجمهورية فيه جون إرليشمان، فلفت غاضبًا

(١) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ دوغلاس برينكلي Douglas Brinkley، ص. ٢٦.

(٢) كتاب Write It When I'm Gone: Remarkable Off-the-Record Conversations with Gerald R. Ford للكاتب والصحفي توماس ديفرنك Thomas DeFrank، ص. ١٠٣.

«كان بإمكان جيري أن يصبح بائع بوليصات تأمين ناجحاً في غراند رابيدز» لو لم يختر الخوض في السياسة، «كذلك، إنه لاعب غولف جيّد لكنه ليس بممتاز».[1]

في المقابل، كان فورد قد قطع وعدًا لزوجته، بالتنحي عن مقعده في الكونغرس في انتخابات العام ١٩٧٦، نظرًا إلى نتيجة أداء الحزب الجمهوري في انتخابات الكونغرس لعام ١٩٧٢، ولصعوبة تحقيق حلمه في أن يكون رئيسًا لمجلس النواب. وحين أُجبر أغنيو على تقديم استقالته بسبب فضائح مالية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٣، اتخذ نيكسون خياره التاريخي الذي وافق عليه مجلس النواب من دون معارضة تُذكر. فبموجب التعديل الخامس والعشرين للدستور الأميركي، وفي السادس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٣، أصبح ليسلي لينش كينغ الابن سابقًا أول نائب للرئيس في تاريخ الولايات المتحدة يتمّ تعيينه وليس انتخابه، في الوقت الذي كان في خلاله الرئيس محاصرًا بسبب المحققين في فضيحة ووترغيت.

لو عيّن نيكسون كلاً من نلسون روكفيلر أو رونالد ريغان أو جون كونالي، أي المرشحين الثلاثة الذين أوصى بهم أعضاء بارزون في الحزب الجمهوري، لما كانوا واجهوا أي مشكلة في إدانة نيكسون على استغلاله السلطة عندما أُجبر على تقديم استقالته، ولكونهم حكامًا مخضرمين لولايات أساسية، كانوا ليمارسوا مهاراتهم السياسية ليحتلوا مكانه. أما جيري فورد فكان من طينة مختلفة، فهو أسير حسه بالإخلاص. وبصفته نائبًا للرئيس، بقي مصرًا على رأيه ومقدّراً للرئيس نيكسون لأنه هو اختاره وليس الكونغرس الذي وافق عليه كممثل للرئيس كما جاء في التعديل الخامس والعشرين. وبالإضافة إلى ذلك، ظل يرى نيكسون قائداً أذكى منه بكثير، وبذلك، كان محقًا. من هنا، قطع فورد في الأشهر التالية، مئة ألف ميل في كل أنحاء أميركا بصفته نائب الرئيس، وسعى إلى طمأنة الجمهوريين والناخبين إزاء براءة نيكسون. شكل هذا العمل، جهدًا نبيلاً ولو بسيطًا وسط ارتفاع حدة الشك والأدلة

(١) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ برينكلي Brinkley، ص. ٣٦.

والعرقلة التي شهدها البيت الأبيض. وبقي فورد مصرًا، حتى اللحظة الأخيرة، على عدم الاستماع أو قراءة أي شيء يدين نيكسون، ما ساعده على أن يكون صادقًا في اعتقاده أنّ الرئيس فعلاً وقع ضحية مؤامرة نفذها اليساريون.

كان فورد من أبناء الكنيسة، مسيحياً متديناً، يصلي من دون انقطاع إلى الله ليمنحه القوة ويرشده. كان إنسانًا يعمل بكد، نيته حسنة ويصدق الناس بسهولة. إلا أن صدقه المشعَ ودفاعه الدائم عن الرئيس لن يحميا هذا الأخير، وهكذا، حين أمرت المحكمة العليا بتسليم تسجيل «سموكينغ غان» الذي يعود إلى تسجيلات فضيحة ووترغيت إلى القاضي سيريكا، شعر نيكسون بالقلق. ونهار الخميس الواقع فيه الأول من آب/أغسطس ١٩٧٤ ، قال نيكسون لرئيس قطاعه، آل هايغ، إنه مستعد لتقديم استقالته في حال أعفي من السجن، فبدأ هايغ بدورة جديدة من الابتزاز. فطلب أن يلتقي نائب الرئيس شخصيًا وعلى انفراد، وأعلمه أنّ الرئيس سيقدم استقالته إن مُنح العفو.

فشرح له هايغ أنه استشار محامياً قال له إنّ الآباء المؤسسين ذكروا المحافظة «على سكون الحكم الذاتي» على ما جاء على لسان ألكسندر هاميلتون، وأعطوا الحق للرئيس في ظل ظروف استثنائية بأن يلتمس الرحمة.

ومع أنّ فورد حصل على تدريبه في كلية الحقوق في جامعة يال، إلا أنه لم يدرس يومًا نقاش هاميلتون الذي يحذِّر من اتخاذ أي خطوة، من باب المغفرة، يمكنها أن «تؤدي إلى إفلات الثوار أو المجرمين الذين يعيقون العدالة من العقاب»، وأن يعطوا مثالاً سيئًا.[1] فصدّق نائب الرئيس لسوء الحظ أنّ هايغ ومحاميه محقان.

(١) أوراق ألكسندر هاميلتون الفدرالية رقم ٧٤، التي نشرت تحت الاسم المستعار بوبليوس (Publius) في العام ١٧٨٨. ويقول النص "لكن التفسير الرئيسي لمنح سلطة العفو في هذه الحال لرئيس القضاة هو التالي: في ظلّ فترة تمرّد أو ثورة، هناك غالبًا أوقات حرجة إذا تمّ توقيت عرض العفو على الثوار والمتمردين فيها قد يعود الاستقرار إلى الأمة. أما إذا لم تؤخذ أي خطوة في هذه الأوقات فقد يصبح من المستحيل استرداد الاستقرار. وغالبًا ما تكون عملية المماطلة في انعقاد البرلمان أو أحد فروعه بغية الحصول على عقابه الناجم عن الخطوة المتخذة، سببًا لتفويت الفرصة الذهبية. فقد يكون تفويت أسبوع أو يوم أو ساعة قاتلاً." غير أنه كان من المستحيل اعتبار نيكسون بصفته رئيساً، متمردًا.

عندئذ، ارتعب فريق عمل فورد من تداعيات أمر مماثل لأنه سيقضي على أعظم فضيلة تحلى بها وهي نزاهته، وذلك إن زعم بعضهم أنه قبل مسألة العفو ليحتل سدة الرئاسة. حتى أنّ زوجته قالت له «لا يمكنك القيام بأمر مماثل يا جيري».[١]

وفي اليوم التالي استدعى فورد، الذي كان كل هدفه أن يوفر على بلده الذل والمهانة إن بقي الرئيس في الحكم، هايغ وقال له إنه أساء التقدير وإنه «ما من اتفاق». حتى أنه تخلَص من ملحوظات زملاء هايغ لكي لا تورّطه لاحقًا في المشاكل.[٢]

من ناحية أخرى، صُعق نيكسون لدى سماعه خبر تغيير فورد لموقفه، حتى أنه قال لرئيس قطاعه إنه غيّر رأيه بشأن الاستقالة وأكمل «فليتهموني، سنحاربهم حتى النهاية».[٣] وهكذا اقتربت مسرحيات نيكسون العديدة من نهايتها، فيما شارفت أيامه في البيت الأبيض الانتهاء.

مع ذلك، بقي فورد وفيًا كعادته، وظلّ يقول في العلن إنّ الرئيس بريء من أي عمل مشين، حتى أنه أعلن في الثالث من آب/أغسطس ١٩٧٤ «أنا أؤمن أن الرئيس بريء من أي اتهام ولم أغير رأيي في هذا الشأن».[٤] ولكن مع انتشار تسجيل «سموكينغ غان» في الرابع من آب/أغسطس الذي يُثبت أنّ الرئيس كان على علم تام منذ البداية بسرقة ووترغيت، ما عاد بإمكان فورد أن يدعي أنّهم سيتمكنون من الخروج من هذه الأزمة. حتى أنّ آل هايغ اعترف قائلاً للقادة الجمهوريين: «لا أرى أي وسيلة تمكننا من تخطي هذه المصيبة».[٥]

وبما أنّ اتهام نيكسون أصبح محتمًا، وبالتالي إمكانية خسارته لراتبه التقاعدي إن دين في محكمة مجلس الشيوخ، أصبح نيكسون عرضةً للانتقاد اللاذع. في

(١) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٢٩٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٠٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(٥) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ برينكلي Brinkley، ص. ٥٩.

الواقع، انتشرت مقاطع من التسجيل، ما جعل عائلته ترى أن السر قد انكشف والأمور ساءت إلى حد كبير. ومع ذلك، كان نيكسون لا يزال الرئيس المتمسك بعرشه، فأصدر بيانًا من ألف كلمة أنكر فيه أن يكون له أي يد في الفضيحة وطلب إلى الحكومة أن تجتمع في السادس من آب/أغسطس ١٩٧٤.

دخل نيكسون قاعة المجلس، وللمرة الأولى من دون أي تصفيق، فوقف واستعدَّ وبدأ خطابه بالكلمات التالية «أود أن أناقش معكم المشكلة الأساسية التي تعانيها أمتنا، ألا وهي التضخم الاقتصادي».(١)

وعندما تذكر فورد الحادثة قال في نفسه: «يا إلهي!» إن الأمر لا يصدّق! (٢)وساءت الأمور أكثر عندما انتقل الرئيس للكلام على الأزمة الدستورية، وعندما أصر على أنّ قراره في إصدار أمر لوكالة الاستخبارات المركزية بوقف تحقيقات مكتب التحقيق الفدرالي في مسألة ووترغيت كان لدواعي الحفاظ على الأمن القومي. إذًا، كان مصرًا على الاستمرار في اللعبة ومواجهة محكمة الكونغرس، بحيث قال بحس من الكرامة المُهانة «سأقبل من دون أي اعتراض، أي حكم يصدره بحقي مجلس الشيوخ».

«هل كان نيكسون يدعي؟» بدا الأمر «سخيفًا» جدًا بالنسبة إلى فورد خصوصًا وأنّ الرئيس قال إنه جعل التسجيل في متناول اليد ليُثبت براءته وليس لأنّ المحكمة العليا أجبرته على ذلك. لكن ويا للدهشة، كان أداء نيكسون مثيرًا للشفقة مثل الذئب المذبوح قبل الموت، ما استدعى الشعور بالتعاطف معه بدلاً من الاهتمام بمصلحة الأمة. وأخيرًا نطق نائب الرئيس.

أصبح فورد يتطلّع إلى إجراءات الاتهام في مجلس النواب التي ستليها محكمة مجلس الشيوخ التي «لا يمكنني أن أتكهّن بنتائجها»، وذلك بدلاً من أن يشرح أنّ على الرئيس أن يتنحى، بكل راحة ضمير. بصفة فورد نائباً للرئيس، كان سيحاول من دون شك أن ينقذ نفسه في خلال المحاكمة لكونه «معنيًا» بالموضوع، أي إنه

(١) كتاب Time and Chance: Gerald Ford's Appointment with History للصحفي كانن Cannon ، ص. ٣١٦.
(٢) المصدر السابق.

سيستفيد إن أجبر الرئيس على الاستقالة. إلا أنه كان مصرًا على أن يفهم نيكسون «إنه قدم لنا أفضل سياسة خارجية حظي بها هذا البلد» وإنه إن دين الرئيس وخلفه فهو «يتوقع من الإدارة أن تدعم السياسة الخارجية ومكافحة التضخم». [١]

ساد صمت رهيب في إثر هذا الإعلان، فكما لفت مساعد فورد لاحقًا مستذكرًا لم يكن هذا الإعلان على قدر «إعلان الاستقلال» الذي كانوا يأملون سماعه، فقد بدا إعلانًا معسولاً.[٢] وكان الأمر نفسه بالنسبة إلى أعضاء الحكومة الباقين في مواجهة أسوأ أزمة في تاريخ الحكومة الأميركية الحديثة، فلم يتجرؤ أحد على طلب الاستقالة من الرئيس.

فهل يُعقل أن يشكل هذا الحدث نهايةً مأسوية لأقوى إمبراطورية في العالم؟ هل اختصر ريتشارد نيكسون إدارته بمجموعة صغيرة من الأغبياء الثرثارين؟ في الواقع، ونتيجةً لذلك، وجد روبرت هاتمان رئيس قطاع فورد، أنه واقع في حالة صدمة. فبعد الاجتماع، رجا أعضاء الكونغرس الجمهوريين نائب الرئيس أن يتحرّك بغية وضع حد لما أصبح أزمةً دستوريةً من الدرجة الأولى. بيد أنّ فورد تشبث برأيه قائلاً إنه لا يمكنه ذلك، لكونه له مصلحة بتنحي الرئيس، إلا أنّه أكد لمساعديه أنَ المسألة مسألة بضعة أيام قبل أن يُذعن نيكسون إلى ما هو محتم. كما أشار فورد، في هذا الصدد إلى أنّه من الضروري تفادي تحطّم السفينة الغارقة، وكذلك، فإنَ الإشاعات في البيت الأبيض كانت قد بدأت تسري حول أنّ الرئيس قد ينتحر في حال ازداد الضغط عليه.[٣] بالتالي، أوضح فورد أن من الأفضل ألا يضغط أحد على رئيس الولايات المتحدة الذي يضع يده على مفتاح إطلاق القنبلة النووية، لكي لا يقوم بعمل جنوني. فبدت إستراتيجية الصبر لإعطاء الوقت لنيكسون ليستوعب الأمور بلباقة، أكثر السياسات حكمةً في هذا الصدد.

ولكن كلمة اللباقة بعيدة جدًا عن شخصية نيكسون، إلا أنه وأخيرًا، وفي السابع من

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٣٠

آب/أغسطس ١٩٧٤، أي بعد مرور ثلاثة أيام على تأكيد تسجيل «سموكينغ غان» وهو الدليل الدامغ على ضلوع الرئيس بالسرقة، استسلم وقرّر أن يستقيل، بعد مرور يومين آخرين. غير أنه لم يستدعِ فورد لإعلامه بقراره هذا، بل وكل إلى رئيس قطاعه نقل هذا الخبر ووصف حالته النفسية. وفي اليوم التالي، وافق الرئيس على لقاء فورد، فقال الرئيس لنائبه في المكتب الرئاسي الرسمي كأنها المرة الأولى «لقد عقدت العزم على الاستقالة، لأن ذلك يصب في مصلحة الأمة».[1] ولم يأتِ قط على ذكر ووترغيت. من ثم وضع رجليه على طاولة المكتب وبدأ يعطي خلفه دروسًا استمرت ساعات عن سياسة أميركا الخارجية والداخلية، وهو أمر لم يفعله في الأشهر العشرة الماضية.

كان يصعب فهم تصرفات نيكسون، فتارةً تشعر وكأنه في عالم آخر، وطورًا تراه جادًا وواعيًا للواقع. في الحقيقة، عجز فورد عن النطق بأي كلمة عندما أدى نيكسون مهزلته الأخيرة، وقال له إنه يشعر «بأنه جاهز لتسلم مسؤولية بهذا الحجم وبأنه أهل لها».[2] ولكن، هل كان فعلاً كذلك؟

عندما قرأ فورد، الرئيس الجديد، مسودة الخطاب الذي سيلقيه بعد تأدية القسم في المكتب الرسمي، الذي صاغه رئيس قطاعه السياسي بوب هارتمان، صرح أنه يريد أن يمحو الجملة التالية «انتهى الكابوس الوطني الطويل». فسأل فورد هارتمان «أليست هذه الجملة قاسيةً على ديك؟ ألا يمكننا أن نخفف من حدتها»؟

فاعترض هارتمان بشدة «كلا، وألف كلا! ألا ترى؟ إنّ هذه الجملة تختصر خطابك برمته. فهذا ما عليك أن تعلنه لكل الأمة ولكل العالم. هذا ما يحتاج الجميع إلى سماعه، هذا ما يريدون سماعه، وهذا ما يجب عليهم سماعك تقوله... عليك أن تقلب الموازين كلها في البلد».[3]

(١) المصدر السابق ص. ٣٣٣
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص.٣٣٨.

فرد فورد قائلاً: «حسنًا يا بوب، أظن أنك على حق، فأنا لم أفكر في الأمور بهذه الطريقة».[1]

بماذا كان يفكر حينئذ لاعب كرة القدم السابق في فريق ميشيغن؟ بقيت الجملة في الخطاب، فارتاح بال هارتمان. بيد أنّ فورد كان يخشى أن يراه الرئيس السابق متحجر القلب. وأدى ذلك إلى إثارة التساؤلات عن عزيمة الرئيس الجديد وعلاقته بمواطنيه.

الجزء الثاني: الرئاسة

أشار ملحق فورد الصحافي، بيل روبرتز، وهو مراسل سابق في مجلة تايم، يوم تسليم السلطة «أظن أنه سيكون رئيسًا جيدًا. يبدو أنّ حول عيني الرئيس التنفيذي الجديد دائرة سوداء وكأنه لم ينم جيدًا. ولكنه كان أيضًا هادئًا وجديًا جدًا وحريصًا على ما كان يفعله. مهما جرى لي، أنا أثق به كثيرًا. وأظن أنه سيكون رئيسًا جيدًا لمجرد أنه يثق بنفسه، وهذا ما كان يعوز نيكسون، وما أعده ضرورةً عند الرئيس. هاري ترومان وجيرالد آر. فورد متشابهان كثيرًا في نظرتهما إلى الحياة وإلى الرئاسة».[2]

نادرًا ما كان رئيس مكتب سابق في مجلة تايم في واشنطن يخطئ في حكمه إلى هذه الدرجة. فلم يشبه فورد ترومان البتة، إلا أنّ «بساطته» بعثت الارتياح بعد رئيس له شخصية «ديك المخادع» المعذب. كان نيكسون قد أصر على حصر الصحافة في غرفة خشية أن تراه يخرج للمرة الأخيرة من مخبئه في مبنى أيزنهاور للمكاتب التنفيذية. وقال روبرتز في هذا السياق: «يا له من تعليق محزن على إدارة نيكسون»، مبتهجًا في المقابل لكون الرئيس الجديد بعد أن رقص مع الملكة عليا

(١) المصدر السابق.

(٢) نصوص المذكرات المسجلة صوتيًا بتاريخ ٨ آب/أغسطس ١٩٧٦، من أوراق جون دبليو (بيل) روبرتز John W. (Bill) Roberts، في مكتبة فورد في ميشيغن.

الأردنية في حفلة استقبال في البيت الأبيض، عاد إلى الداخل ورقص طويلاً مع زوجة ملحقه الصحفي، «وهي صبية آسيوية جذابة جدًا، رقص معها على أغنية «بيغ باد ليروي براون»، بحضور حشد كبير يصفق لهما. كانت السيدة نيسين ترقص نوعًا من الروك آند رول المعدل... كل الفتيات قلن إن الرئيس راقص ماهر. ولكن الفكرة كلها هي أن الناس كانوا يقولون باستمرار «يا له من تغيير. يا له من تغيير. يا له من مكان مذهل هذا البيت الأبيض، إن الجميع يمرحون»».[1]

غير أن الأيام المرحة لم تدم طويلاً، وهذا ما تم تحذير الرئيس المقبل منه في اليوم السابق. وأشار قائد الأكثرية الديمقراطية في مجلس النواب، تيب أوناي عندما استدعاه الرئيس «يا إلهي جيري، أليس هذا بلداً رائعاً؟ هنا نستطيع أن نتكلم بهذه الطريقة وأن نكون أنا وأنت صديقين، وبعد ثمانية عشر شهراً سأطوف في البلاد لأهزمك بقوة». فذهل فورد وقال: «لأنها طريقة غريبة للتكلم مع رئيس الولايات المتحدة المقبل»، وانفجر الاثنان بالضحك.

كان وصول فورد الاستثنائي إلى الرئاسة ونقص استعداده الشخصي درسًا مهمًا للرؤساء الذين تلوه. لم يقرأ التاريخ إلا قليلاً، وكانت نظرته محدودة ولم يكن يتمتع بالحكمة. ما كان يتمتع به هو شخصية جذابة ومستقلة ووفية ولكن عنيدة، تحوّلت لاحقًا إلى عائق له.

فبدلاً من فرض سلطته الجديدة، أخذ فورد قرارًا تعذر تفسيره وهو إبقاء الجنرال هايغ رئيسًا للقطاع السياسي للوقت الحالي.

لم يصدق موظفو فورد الذين رافقوه منذ كان نائبًا للرئيس، القرار الذي اتخذه. فلم يخفِ هايغ نيته البقاء في واشنطن حتى يحصل لنيكسون على عفو، وقام بكل وقاحة بإرسال الأشرطة الجرمية إلى منزل نيكسون في سان كليمانت في كاليفورنيا حتى فيما «وضع موظفو القطاع السياسي عددًا كبيرًا من الأوراق في «أكياس

(١) نصوص المذكَرات المسجلة صوتيًا بتاريخ ١١ آب/أغسطس ١٩٧٦، من المصدر السابق.

للملفات السرية» التي تم تفتيتها بمواد كيميائية»، بحسب ما أفاد به مستشار فورد القانوني بينتون بيكر مصدومًا.(١)

كان غرور هايغ مدهشًا بالفعل. فقد اعتبر أنه كان «الرئيس المنفذ» في الأشهر الأخيرة من ولاية نيكسون، وبدا مصمّمًا على مواصلة هذا الدور قدر المستطاع بعد نهاية هذه الولاية. وبذلك، في اليوم الأول من ولاية فورد، أي في التاسع من آب/أغسطس ١٩٧٤، سأله هايغ ما إذا كان يريد مخاطبة موظفي نيكسون القدماء ليشكرهم ويطلب إليهم البقاء في ذلك الوقت، بغية تسهيل تنظيم انتقال السلطة. حتى أنه طلب إلى فورد أن يشدد بشكل خاص في خطابه، كما كتب هايغ باختصار في مذكراته، «النقطة الثالثة»: أي دور آل هايغ «الاستثنائي والبطولي».

وقد أشار روبرتز بعد بضعة أيام إلى أن مذكرة هايغ لتمجيد ذاته كانت أول دليل على «غرور الأشخاص الذين عملوا في إدارة نيكسون». أما الدليل الثاني فكان موقف تابع نيكسون الثاني، هنري كيسنجر، الذي حصل بطريقة تاريخية ساخرة على جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٧٣.

وبدلاً من أن يفكر في وزير خارجية بديل، استسلم فورد فورًا أمام ضغط كيسنجر ليبقى وزيرًا للخارجية وليكون المرسل الوحيد للمعلومات المتعلقة بالشؤون الخارجية، مستغنيًا عن فريق مستشاريه الخاص. فتوسل موظفو فورد إليه في نيابة الرئاسة ألا يستمع بخنوع إلى هايغ وكيسنجر، وبشكل خاص في توصياتهم بإصدار عفو بحق نيكسون المخزي. كما أظهرت استطلاعات الرأي العام بنسبة عالية، أن الناخبين اعترضوا على العفو الفوري، أقله حتى تظهر الحقيقة، بما أن نيكسون لم يعد قادرًا على احتكار وزارة العدل أو المدعي العام أو الكونغرس.

بعد أن شهدوا العام الأخير من ولاية نيكسون المضحكة المبكية، توقع موظفو فورد مرحلةً جديدةً من مناورات نيكسون فيما استمع فورد إلى توصيات هايغ. وأشار

(١) المذكرة الصادرة في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤، من أوراق بينتون آل بيكر Benton L. Becker، في مكتبة فورد في ميشيغن.

بيل روبرتز في هذا السياق «إن الرئيس الجديد يحب آل هايغ ويعتبره شخصًا رائعًا، ولكنني لست متيقناً صحة ذلك».[1]

لم يكن الآخرون متيقنين ذلك أيضًا، خصوصاً عندما لم يتوقف هايغ عن حث فورد على إعادة توظيف فريق نيكسون. فقال كاتب خطب فورد، ميلتون فرايدمان لبيل روبرتز في الثامن عشر من آب/أغسطس: «هناك قتال خطير وقوي بين الجنرال هايغ وبوب هارمان... فالجنرال هايغ يريد ببساطة أن يسيطر على العملية بأسرها ويجادل الرئيس قائلاً بأنه لا يجدر به التخلص من هيكلية الإدارة الرائعة التي بنيت على مدى عدة سنوات، فيما ذهب هارتمان في الاتجاه المعاكس تماماً فاعتبر أنّ الهيكلية هي التي أدت إلى سقوط نيكسون».[2]

بصفته مساعد فورد الرئيسي، كان أمام هارتمان سبب مقنع للقلق. في الواقع، لم يكن هايغ قد قاد وحدةً أعلى من الكتيبة قط ومع ذلك ترقى ليصبح جنرالاً، وقد بقي على اتصال مع نيكسون بشكل سري. وفي بقية شهر آب/أغسطس ١٩٧٤، كانا على اتصال يومي وأحيانًا كل ساعة فيما كان هايغ يدير المرحلة الانتقالية.

وفي النهاية، في الثامن والعشرين من آب/أغسطس، استسلم فورد لمطالب هايغ المتواصلة باسم نيكسون. وفي اجتماع سري لتهيئة موظفيه بشأن قراره، شرح فورد أنه لن يثق باستطلاعات الرأي أو بنصائح الكونغرس بل سيثق «بضميره». وأنه بدلاً من تحميل الأعباء لمدعي عام قضية ووترغيت الرئيسي، ليون جافورسكي، سيتحمل، بصفته رئيسًا مسؤولية العفو المسبق بنفسه. وكرر قائلاً: «إن ضميري يقول لي إن علي فعل ذلك. لقد تبعت ضميري من قبل وانظروا إلى أين وصلت. أحب ما وصلت إليه. وأود أن أبقى. وإذا كان ما أفعل خاطئًا بنظركم، فإنني مستعد لقبول التداعيات».[3]

(١) نصوص المذكرات المسجلة صوتيًا بتاريخ ١٨ آب/أغسطس ١٩٧٦، من أوراق جون دبليو (بيل) روبرتز John W. (Bill) Roberts، في مكتبة فورد في ميشيغن.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مذكرات باني باتشان (زوجة فيليب باتشان مستشار الرئيس القانوني) بتاريخ ٢٨ آب/أغسطس ١٩٧٦، من مكتبة فورد في ميشيغن.

وبتفوهه بهذه الكلمات، حلّ الذعر في المكتب الرسمي. وقال أحد المستشارين متذكرًا «كسرت الساعة القديمة في الغرفة الصمت مثل موجة طلقات رشاشات».[١]

لماذا فعل فورد ذلك، ولماذا توجه نحو قراره النهائي بخصوصية، حاجبًا «نياته» عن موظفيه في البيت الأبيض، ما عدا هايغ وهارتمان؟ هل كان فعلاً بجهل عدم ولاء هايغ؟ أم كان ذلك أداء العمر من قبل الرئيس السابق الذي جلب العار إلى نفسه؟

خدع الجنرال هايغ وريتشارد نيكسون فورد بالطبع. وبعد أن أنذرت تقارير هايغ أن نيكسون كان ينحدر إلى اليأس الذي قد يؤدّي إلى الانتحار في سان كليمانت، أرسل فورد مبعوثًا، بينتون بيكر إلى كاليفورنيا على أمل أن يقبل نيكسون الاعتراف بخطئه ليجعل العفو يبدو مقبولاً أمام الأمة.

غير أن نيكسون لم يكن في صدد الاعتراف بذنبه. فقد اتصل به هايغ مسبقًا ليعلمه بأن العفو لن يستند إلى الاعتراف بالذنب. فطمأنه هايغ قبل أن تصل طائرة بيكر إلى كاليفورنيا «ليس عليك التخلي عن أي شيء وليس عليك الاعتذار سوف تحصل على العفو».[٢] وبذلك، دهش بيكر عند وصوله حيث لم يرَ أي اعتراف بالذنب يلوح في الأفق. وقال محامي نيكسون لبيكر: «لن يدلي نيكسون بأي بيان اعتراف بتورطه في الجريمة مقابل عفو من جيري فورد».[٣]

غضب بيكر، ففي هذه الحال كان سيعود إلى البيت الأبيض من فوره. لكن تم إقناعه بقضاء الليلة وفي اليوم التالي قدمت إليه مسودة بيان. ذكر بيكر قائلاً عنها: «فاحت منها رائحة تأكيدات براءة». وعندما نجح بيكر أخيرًا في إقناع محامي نيكسون أقله بالموافقة على تقديم بيان غامض يقر الرئيس فيه «باحتكار السلطة»، سُمح له بمقابلة نيكسون، الذي أدى حينئذ دور الملك ريتشارد الثاني المجنون.

(١) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٣٧٣.

(٢) كتاب 31 Days: The Crisis That Gave Us the Government We Have Today للكاتب باري ويرث Barry Werth، ص. ٢٩٤.

(٣) مذكرة بينتون آل بيكر Benton L. Becker الصادرة في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤، من أوراق بينتون آل بيكر Benton L. Becker، في مكتبة فورد في ميشيغن.

فأشار بيكر في مذكرة بعد بضعة أيام «لقد وقف عند دخولي وأظهر نوعًا من التوتر وشبه الذعر لمقابلتي شخصيًا».[1] وكان «أول انطباع» لبيكر عن الرئيس السابق في دوره الجديد «غريب وبشع... فكان ذراعاه وجسمه نحيفين وضعيفين عكسا رأسه الضخم نسبةً إلى جسمه... رجل أتوقع أن ألقاه في مركز تمريض للعجزة. لقد كان عجوزًا. ولو لم أعرف هذا الرجل وكنت أقابله لأول مرة لكنت توقعت أن يكون في الخامسة والثمانين من عمره».[2] اختلطت الدموع مع التشتت والشفقة على النفس وتلميحات إلى كرة القدم والهدايا الصغيرة والتحدي بترتيب غير محدد، فيما أدى نيكسون دوره ببراعة. فأقر جوناثان أيتكين كاتب سيرته المتحفظ الذي قدره في وقت لاحق «إذا كان هذا تمثيلاً فقد كان تمثيلاً مقنعًا».[3] أشار بيكر «بشعره الأشعث ظهر نيكسون بأكثر صورة محزنة ومثيرة للشفقة أراها في حياتي»، وهي صورة بينها نجم المسرح في كلية ويتيير في عرض مذهل.[4]

وبالعودة إلى البيت الأبيض في اليوم التالي، قدم مبعوث فورد المفعم بالتعاطف مع نيكسون، صورةً حساسةً ولكن خاطئة عن سلامة نيكسون العقلية والجسدية، من دون أن يعلم أنّ نيكسون كان يمثل وأنه سيعيش عشرين سنة إضافية. كان نيكسون مقامرًا لا مثيل له وكان يقيم أعلى الرهانات وكان أقوى بكثير من فورد في التلاعب بالآخرين. كان فورد يتحلى بحس عال من الشرف يسير وفقًا له وأمام حث هايغ (الذي كان سعيدًا بإنجازه الأخير ومخادعًا حتى آخر لحظة في حياته، ومعلنًا في مذكراته أن «في كل ما يخص العفو عن نيكسون لم يكن له أي دور»)، سمح فورد أن يتم التلاعب به كالمغفل.[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كتاب Nixon: A Life للكاتب جوناثان أيتكين Jonathan Aitken، ص. ٥٣١.

(٤) مذكرة بينتون آل بيكر Benton L. Becker الصادرة في ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤، من أوراق بينتون آل بيكر Benton L. Becker، في مكتبة فورد في ميشيغن.

(٥) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب جون روبرت غرين John Robert Greene، ص. ٤٢ وكتاب Inner Circles: How America Changed the World للجنرال ألكسندر أم. هايغ الإبن Alexander M. Haig Jr (نشرته شركة Grand Central Publishing في نيويورك في العام ١٩٩٢)، ص. ٥١٣.

بعد تقاعده، اعترف فورد بأنه وقع في شباك نيكسون المخادع. وقال لأحد أصدقائه: «لقد اعتقدت أنه سيكفَ عن المراوغة. ولكنه لم يكن صريحًا كما أملت منه أن يكون. فلم يعترف بذنبه... كنت أقوم بمخاطرة كبيرة [بمنحه عفوًا قبل صدور الحكم]، ولم يبد متجاوبًا البتة».(١) وعلى الرغم من ذلك، وبدلاً من الاعتراف بخدعة نيكسون، سمح فورد لتعاطفه أن يسيطر على شكه وفي صباح يوم الأحد الواقع فيه الثامن من أيلول/سبتمبر بدأ يقوم باتصالاته بزعماء الكونغرس لإعلامهم بقراره، بدءًا بزعيم الأكثرية في مجلس النواب تيب أونيل.

فشرح له قائلاً: «تيب لقد قررت العفو عن نيكسون. وأنا أفعل ذلك لأنني أعتبر أنه قرار يصبّ في مصلحة البلد ولأن قلبي ينبئني بذلك. إن الرجل محبط جدًا ولا أريد أن يدخل رئيس سابق السجن».

فدهش أونيل وأجاب «أنت مجنون. إنني أقول لك الآن، سيكلفك الأمر الانتخابات [المقبلة]«. وأضاف أونيل «آمل ألا يكون ذلك جزءًا من أي اتفاق». فنفى فورد الأمر. فسأل أونيل حينئذ «إذاً لماذا ستفعل ذلك؟»(٢)

فنظر إليه فورد وتنهّد وقال: «تيب، إن نيكسون رجل مريض. ابنته جولي تتصل بي باستمرار لأن والدها محبط».(٣)

كان تعاطف فورد «مع معاناة» نيكسون مصدر فخر له كإنسان، غير أن كونه قابلاً للتلاعب به شكل نذير سوء بالنسبة إلى رئيس أقوى دولة في العالم الجديد. في الواقع، كان نيكسون قد أثار القلق في الخارج «برئاسته الاستبدادية» المنشقة، بحيث هدّأت صورة الرئيس الجديد الذي تمتع بخبرة طويلة في مجلس النواب وبتدرب لمدة سبعة أشهر في منصبه كنائب رئيس، الديبلوماسيين والأسواق المالية في العالم. أما في الداخل، فحذره موظفوه بأنّ الشعب بالتأكيد سيُصدم «بالصفقة»،

(١) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٣٨١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٨٣.
(٣) المصدر السابق.

وهو مشهد أصبح مقلقًا أكثر فأكثر يومًا بعد يوم، فيما لم ينفكّ نيكسون يغيّر في صوغ وثيقة العفو، مطالبًا بأن تبقى أشرطته في البيت الأبيض تحت سيطرته الكاملة (ليكون أمين الأرشيف في الولايات المتحدة مجرد وصي موقت).

وأخيرًا، وفي الثامن من أيلول/سبتمبر ١٩٧٤ تم إعلان العفو، أو إذن «التحرر من السجن» بحسب ما سماه السيناتور غولدواتر بشكل ملائم.[1] فاستقال ملحق فورد الصحافي، جيرالد ترهورست، فورًا معترضًا لأنه لم يتم إعلامه بالأمرمسبقًا. كما أشار بيل روبرتز، نائب ملحق فورد الصحافي، ليلتئذ في مذكراته «أشعر أنه لا بد من وجود سبب ملزم ليتخذ قرار منح العفو الآن، إما مشاكل نيكسون الصحية والعقلية وإما سبب آخر. من ناحية أخرى، تنكر جماعة نيكسون ذلك ولكن لا بد كما يبدو لي أنّ هناك ما بدّل رأي الرئيس، إذ إنه أعلن في أول مؤتمر صحافي له في آب/أغسطس، أنه سيسمح للإجراءات القانونية بأن تأخذ مجراها قبل أن يتخذ هو قراره. أما الآن فانتقل إلى إسقاط الإجراءات القانونية برمتها، ما أزعج العديد من الأشخاص». فاندهشت الصحف، بحيث قال توماس ديفرانك، مراسل صحيفة نيوزويك إلى البيت الأبيض وصديق فورد لروبرتز: «لقد دمّر كل شيء وحكم على انتخابات العام ١٩٧٦ بالفشل مسبقًا».[2]

تراجعت استطلاعات فورد فورًا بأكثر من عشرين في المئة، وتعد هذه النسبة أكبر نسبة تراجع منذ بداية استطلاعات الرأي الرئاسية. وحتى شريكه السابق في شركة المحاماة فيل بوشين، الذي رقاه فورد ليصبح مستشار البيت الأبيض القانوني، هدد بالاستقالة (على الرغم من إقناعه بالتراجع عن قراره). فأشارت زوجة بوشين بعد بضعة أسابيع إلى أن بوشين كان «دائمًا يُحبط من قرارات جيري وأخطائه في إصدار البيانات ومواقفه المترددة (المتغيّرة). وهو لا يثق «بحدث» جيري».[3]

(١) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ برينكلي Brinkley، ص. ٨١.

(٢) نصوص المذكّرات المسجلة صوتيًا بتاريخ ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٧٦، من أوراق جون دبليو (بيل) روبرتز John W. (Bill) Roberts، في مكتبة فورد في ميشيغن.

(٣) مذكرات باني باتشان بتاريخ ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦، من مكتبة فورد في ميشيغن.

وبعيدًا عن توحيد البلد من خلال العفو، اكتشف فورد لسوء حظه أنه سبب الذعر لغالبية الأميركيين، ما صعب مهمته كرئيس انتقالي/وشافٍ بدلاً من أن يسهلها. فكتب توم ديفرانك في وقت لاحق «توقفت عملية الشفاء بين ليلة وضحاها. سعى فورد إلى تقطيب جرح ووترغيت، غير أنه بدلاً من ذلك عمق الجرح أكثر».[1]

كان تيب أونيل على حق. فبدلاً من تهدئة روع «كابوس» نيكسون، سمح فورد لهذا الأخير بالتهرب من العدالة وتجنب الاعتراف بأي شيء أكثر من بعض «الأخطاء»، وسمح له حتى بالاحتفاظ بالملكية الشرعية (وليس الحسية) للدليل المسجل الذي يبرهن السلوك الإجرامي. وفي هذا الوقت، وجد فورد البريء نفسه متهمًا في الدولة بشتى أنواع التهم من التآمر الفظيع إلى التجاهل المتعمد. فأعلنت صحيفة واشنطن بوست أنّ العفو «لم يكن سوى مواصلة للتستر».[2] أما نيويورك تايمز فعلقت «بمنح الرئيس نيكسون رحمةً لا يستحقها وسابقة لأوانها، أهان الرئيس فورد الدستور ونظام القضاء الأميركي. فشكّل هذا التدخل غير المتقن ضربةً قاضيةً لمصداقية الرئيس ولشعور الناس بالثقة بنزاهة الحكومة».[3]

في وقت متأخر، فهم فورد أنه أساء فهم طباع الناخبين الأميركيين، كما فعل عندما دعم نيكسون ضد من سماهم «مجموعة صغيرة من الناشطين». في حين تبيَن أنّ هذه المجموعة الصغيرة قد أصبحت تشكل غالبية الأميركيين.

حاول فورد عبثًا أن يجعل خطأه أمرًا إيجابيًا. فبعد أن لطخ شرفه، وضع جانبًا كل ما جرى ووافق لأول مرة في تاريخ الرئاسة الأميركية أن يشهد شخصيًا ويحلف اليمين أمام اللجنة الفرعية القضائية في مجلس النواب، التي اجتمعت للحصول على تبرير للعفو المبكر. فدفع ذلك عضو الكونغرس إليزابيث هولزمان إلى طرح سؤال بقيمة أربعة وستين ألف دولار أميركي عما «إذا كان هناك صفقة أم لا».[4] فنفى الرئيس

(١) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ٤٦.
(٢) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٣٨٥.
(٣) صحيفة Washington Post وصحيفة New York Times، الصادرتان في تاريخ ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٤.
(٤) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٣٩١.

بغضب («ليس هناك أية صفقة. وتحت أية ظروف»)، غير أنّ العفو المسبق والعاجل والعمومي خلّف وراءه شعورًا بالشك والمرارة في كل أنحاء البلاد.

كان من الواضح أن فترة النقاهة لجيرالد فورد قد انتهت. ومن الآن فصاعدًا، كان عليه أن يثبت نفسه عن جدارة إذا كان يريد فرصةً ليتم انتخابه في العام ١٩٧٦. وكانت المسألة الأولى إصدار العفو بحق المتهربين من الخدمة العسكرية في الفيتنام.

فقد أدت المعارضة لحرب الفيتنام بوصفها حربًا غير عادلة، بالشباب الأميركي إلى حرق بطاقات الخدمة العسكرية ورفض التسجيل والهجرة إلى الخارج ودخول حركات سرية والتغيب من دون مبرر عند تجنيدهم. وبصفته محارباً سابقاً في البحرية في الحرب العالمية الثانية، لم يتعاطف فورد كثيرًا مع هذا الافتقار إلى الحس الوطني، ولطالما عارض منح العفو للفارين من الخدمة العسكرية في الفيتنام. أما الآن، فقد أمل أن يُظهر نفسه كقائد استرضائي للقوات المسلحة، من خلال إظهار بعض التعاطف («إنني أحاول التعامل مع صعوبات الرئاسة عبر اتباع المرونة.»).[1] وبذلك، اقترح في آب/أغسطس ١٩٧٤، «الإدماج المُستحَقّ» في المجتمع الأميركي لمئة وخمسة عشر ألف فار أو أكثر. واقترح أن ينظر في قضاياهم مجلس رئاسي لمنح العفو يؤلف لهذه الغاية، مقابل أن يقوم الفارون بخدمة بديلة للدولة.

وكحل وسطي لقضية محرجة للجمهوريين الوطنيين المتشدّدين، كان الاقتراح حساساً جدًا، غير أنه وقع فورًا ضحية إعلان فورد المثير للجدل والمتزامن للعفو العام عن الرجل الذي مدد حرب الفيتنام أربع سنوات مكلفًا حياة أكثر من مئتي ألف جندي أميركي، معظمهم من مؤدي الخدمة العسكرية. وعند إعلان إنشاء المجلس في منتصف أيلول/سبتمبر ١٩٧٤، زال احتمال أن يداوي جروح الفيتنام تماماً. وفور اجتماع المجلس أثبت بأنه كابوس بيروقراطي. فقد عالج قضايا قليلة جدًا (أقل من عشرين قضية) قبل كارثة انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر وعالج في السنوات التالية عددًا ضئيلاً من القضايا الشرعية.

(١) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ برينكلي Brinkley، ص. ٦٧.

وفي هذه الأثناء، تجلّى غضب الكونغرس تجاه العفو عن نيكسون بعدة طرائق. وإحدى هذه الطرائق كانت طريقة معاملة المرشح لمنصب نائب الرئيس فورد. وبعد أخذ استطلاعات رأي سرية، مال فورد إلى أن يوصي أمام الكونغرس بعضو هذا المجلس السابق جورج بوش من تكساس، الذي كان حينئذ رئيس الحزب الجمهوري الوطني بعد أن كان سفير البلد في الأمم المتحدة. غير أنَ صحيفة نيوزويك أصدرت تقريرًا بأن بوش تلقى ما لا يقل عن مئة ألف دولار من مال نيكسون غير الشرعي للترضية بعد محاولته الفاشلة لشغل منصب سيناتور في العام ١٩٧٠. وفي السابع عشر من آب/أغسطس ١٩٧٤، طلب فورد إلى الحاكم نيلسون روكفلر، الحاكم المليونير السابق لولاية نيويورك الذي تقاعد في كانون الأول/ديسمبر السابق، أن يمهد لترشيحه من جديد في خلال الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٧٦. (كان قد رشّح نفسه في خلال الحملات الجمهورية للانتخابات الأولية في الأعوام ١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨).

على الرغم من اعتباره بحسب معايير الناس متحفظًا وصارمًا حيال الجريمة وداعمًا لعقوبة الإعدام، اعتبر الجمهوريون المتشددون روكفلر ليبراليًا مثل السيناتور غولدواتر والحاكم ريغان. كان روكفلر زير نساء على طراز جون أف. كينيدي، أثار «اليمين [الجمهوريين]»، بحسب ما قاله كاتب خطب نيكسون، بات بوشانان، فيما أرعب «اليسار [الديمقراطيين]» الغاضبين بسبب العفو عن نيكسون، الذين سعوا إلى معاقبة فورد من خلال تأخير التأكيد على التصويت. فطُلب إلى الحاكم روكفلر المثول أمام الكونغرس لمدة سبعة أيام متباعدة قبل أن يوافق الكونغرس أخيرًا عليه في الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤، تاركاً فورد والبلد من دون نائب رئيس حوالى أربعة أشهر.

وفي هذا الوقت لم تكن الأمور أسهل في البيت الأبيض. فقد تابع الجنرال هايغ محاولة إدارة ولاية فورد كمعقله، ولكن هذه المرة تحت رئاسة رجل ضعيف وليس مجنوناً.

كان سلوك فورد الضعيف بوجه الجنرال هايغ يزعج موظفيه وخصوصًا عندما قال له هايغ أن يصرف مساعده الرئيسي الذي خدمه لوقت طويل، بوب هارتمان. غير أنّ المشكلة لم تكمن في جنون العظمة الذي عاناه هايغ فحسب، إنما في عدم استعداد فورد للرئاسة. فلم يكن لديه خطة شخصية، أكان بالنسبة إلى موظفي البيت الأبيض أم الحكومة الجديدة، ولم تكن لديه فكرة واضحة عن كيفية إدارة منظمة كبيرة، وفي الواقع، لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية اختيار أو تأديب مرؤوسيه. فسُمح لهايغ، الذي سعى لأن يصبح رئيس هيئة الأركان المشتركة، على الرغم من خبرته الاسمية كجنرال، طوال أشهر أن يخرج على السيطرة في سلوكه في البيت الأبيض إلى أن أصبح لفورد الشجاعة الكافية للتخلص منه، بترقيته إلى منصب القائد الأعلى في حلف شمال الأطلسي في أوروبا (وهو منصب لا يتطلب موافقة مجلس الشيوخ على الرغم من أنه غير شعبي في أوروبا).

كان فورد قد قال خوفًا من هايغ وجهلاً لكيفية إدارة المنظمات الكبرى، إنه سيستغني عن رئيس القطاع السياسي كليًا عند رحيل هايغ النهائي. ومن جديد، كانت هذه الفكرة حسنة النية سعى من خلالها إلى أن يصبح قريبًا من أكبر عدد ممكن من الأشخاص، مقارنةً بسلفه الذي يحبّ البقاء مختبئًا. غير أن ذلك كان خطأ فادحًا آخر في عالم الاتصالات وصنع القرار، الحديث والسريع.

وكما تكره الطبيعة الفراغ، تكرهه الإمبراطورية أيضًا. كانت فكرة فورد القاضية بلقاء ستة أو سبعة مساعدين متساوين كل يوم جيدة حين كان عضوًا في الكونغرس غير أنه الآن كان قد أصبح رئيس الولايات المتحدة. وكانت أعين العالم بأسره شاخصةً إليه ليروا كيف يقود فريق البيت الأبيض وكيف كان يدير السياسة الاستبدادية الأميركية في العالم. وكما أقر فورد بنفسه «لقد بدأت العمل من دون رئيس قطاع ولكن لم أنجح... فأنت تحتاج إلى مرشح تثق به تمامًا، ويعمل قريبًا منك بحيث

يكاد يكون ذاتًا ثانية لك. فلا أستطيع تصور رئيس من دون رئيس قطاع فعال».[١] إلا أن هذا الكلام جاء بعد ثلاثة عقود.

أما التحدي الذي واجهه فورد في العام ١٩٧٤ فكان استعادة ثقة الناس بالحكومة الأميركية. في الواقع، كان هو على الورق أفضل المرشحين لتحقيق هذه الغاية. غير أنه وعن حسن نية كان يخطئ في كل خطوة خطاها.

عندما كان نيكسون رئيسًا، كان شبه محجوب عن أنظار الشعب، إذ كان يختبئ في مكاتبه المخفية ويدير عمليات البيت الأبيض عبر الهاتف أو من خلال أتباعه الأوفياء والمخلصين جدًا والمناضلين. أما فورد فكان ظاهرًا دائمًا ولكن غير كفوء، وكان موظفو البيت الأبيض أيضًا غير أكفاء. وفي الأشهر التي تلت المرحلة الانتقالية تحول البيت الأبيض إلى فوضى من حيث الإدارة والعلاقات العامة. فكانت اليد اليُمنى تجهل فعلاً ما تفعله اليسرى، وكانت اجتماعاته الكبرى تتم وسط غياب كثيرين أو كان الرئيس يتحدث في خلالها على نحو غير متماسك من دون هدف أو تنظيم. فوصف أحد علماء السياسة الوضع قائلاً: «موظفو البيت الأبيض غير قادرين على إقامة علاقة عملية بين البيت الأبيض والحكومة ناهيك بالعلاقة بين البيت الأبيض والكونغرس».[٢]

كان فورد يدرك أن إدارته الجديدة كانت تهوي وأن استطلاعات الرأي تجاهه كانت تتراجع، فأقر أخيرًا بأن عليه القيام بخطوة إصلاحية. وبدلاً من توظيف مدير ذي خبرة ومحايد بين الحزبين ليعكس نظرته الوسطية، اختار فورد أحد موظفي إدارة نيكسون ليترأس أعمال البيت الأبيض، عضو الكونغرس السابق دونالد رامسفيلد.

كان رامسفيلد قد خدم بولاء في البيت الأبيض في خلال عهد نيكسون قبل أن

(١) كتاب Empowering the White House: Governance under Nixon, Ford, and Carter لكارين أم. هولت Karen M. Hult وشارل إي والكوت Charles E. Walcott (لورانس: مطبعة جامعة كنساس، ٢٠٠٤)، ص. ٣٧.

(٢) كتاب Power Sharing: White House-Cabinet Relations in the Modern Presidency لشيرلي آن وارشاو Shirley Ann Warshaw (ألبانيا: مطبعة جامعة نيويورك الحكومية، ١٩٩٦)، ص. ٦٧.

يُرسل سفيرًا للولايات المتحدة في حلف شمال الأطلسي في آب/أغسطس ١٩٧٤، وأعيد من وظيفته القصيرة الأمد ليساعد آل هايغ على إدارة مرحلة الانتقال الأولى، ليغادر بعدها. من ثمّ أعيد ثانيةً رئيساً للقطاع السياسي. ومن خلال هذا الدور، كان قادرًا أخيرًا على أن يتابع خطة هايغ في القضاء على هارتمان وعلى موالي فورد الآخرين. وعيّن رامسفيلد مكانهم، أحد حراس «إمبراطورية» نيكسون، نائباً له، وهو عضو الكونغرس السابق ديك تشيني.

وبذلك، عاد النظام الإداري ليصلح الفوضى في البيت الأبيض، ولكن حل هذا النظام على حساب السياسة والأخلاق. فقد كان رامسفيلد وتشيني مديرين كفوءين وأثبتا أنهما مسؤولان جديران، غير أنهما كانا جمهوريين محافظين يتبعان نظرة نيكسون إلى سلطة البيت الأبيض الاستبدادية التي تعارضت مع الرئيس الساحر وحسن النية وغير الاستبدادي. وبذلك، طرحت المشكلة الأساس في رئاسة فورد، الذي كان قيصرًا من دون نظرة واضحة إلى ما كان يأمل تحقيقه بالإضافة إلى إكمال سياسة نيكسون في الخارج والداخل، كما أنه غير كفء في قيادة فريق البيت الأبيض إلى درجة أنه وجد نفسه ملزمًا باللجوء إلى موظفي الدولة في إدارة نيكسون البغيضين ولكن الفعالين، الذين كانوا دائمًا على خلاف مع موالي فورد الذين قلّ عددهم. فكانت النتيجة انقسام البيت الأبيض إلى معسكرات متعادية تفتقر إلى الإدارة الرئاسية، وكان ذلك سببًا آخر إلى جانب العفو الكارثي عن نيكسون لتراجع فرص نجاح فورد في انتخابات العام ١٩٧٦، إذا أراد الترشح.

في ذلك الصيف، ارتفعت نسبة التضخّم في الولايات المتحدة لتصل إلى ١٢،٨ في المئة، نتيجة الحظر العربي على النفط إلى حد كبير. وانقسم علماء الاقتصاد في العالم الغربي حول حل مشكلة الأسعار المرتفعة والرواتب المرتفعة وازدياد البطالة وهي دوامة أطلقوا عليها اسم الركود المتضخم. وأمام علامات التراجع الملحوظ، شعر فورد الذي رفض إعادة فرض سقف للرواتب والأسعار، بأنه ملزم بالتصرف، غير أنه وجد نفسه في حيرة بعد عقد قمة اقتصادية رفيعة المستوى في آب/أغسطس ١٩٧٤. فأصبح قراره إعلان حملة تطوعية وطنية للحد من الطلب (وبالتالي من

ارتفاع الأسعار) من خلال تخفيض الاستهلاك والهدر والسفر غير الضروري، تحت عنوان «القضاء على التضخم الآن»، مهزلةً وطنيةً. فوصف وزير الخزانة الحملة، بكل عظمتها «بالسخيفة» فيما خبأ أعضاء مجلس السياسة الاقتصادية «وجوههم من الخجل».[1] كما كتب رئيس إحدى الشركات إلى البيت الأبيض قائلاً: «إن مناشدتك للشعب الأميركي ترويج هذه الحملة الصبيانية تليق بنادي المشجعين في مدرسة ثانوية وليس بإحدى أقوى دول العالم».[2] وبذلك فشلت الحملة بسرعة.

أما اقتراح فورد الأكثر أهمية، الذي قضى بفرض ضريبة إضافية على الأفراد والشركات وخصوصاً شركات النفط ذات الدخل المرتفع، فلم يحقق نجاحًا أكبر. فقد أجبره الكونغرس على إلغاء التدبير وفرض مكانه اقتطاع الضرائب، بغية تحفيز الاقتصاد وتخفيض البطالة، التي كانت قد وصلت إلى ٧،١٪.[3] غير أن ذلك أدى إلى مطالبات «بالتغيير»، ومع ذلك، قلة هم الذين كانوا يرغبون في أن يكونوا في موقع فورد فيما حاول الحد من التضخم من جهة، وتجنب الركود الذي كان يلوح في الأفق من جهة أخرى. ونصح وزير الخزانة وليم سايمون ورئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين ألان غرينسبان الرئيس بتجاهل البطالة وهي سياسة عرفت بـ«دعهم يأكلون الكعك»، بحسب ما سماها مستشار فورد روبرت هارتمان الذي قلق حيال تراجع الجمهوريين في الانتخابات النصفية في الكونغرس.[4]

كانت أزمة أميركا تختلف بعض الشيء عن الاقتصادات الأوروبية وكان تجاوب فورد تجاه الأزمة مندفعًا، فهو كان يأخذ النصائح من مجموعة كبيرة من علماء الاقتصاد ورجال الأعمال الكبار. لكنْ نتيجة العفو عن نيكسون، توتّرت علاقته مع الكونغرس، ما قضى على محاولاته إعادة الوحدة والأهداف المشتركة في قيادة

(١) كتاب Gerald Ford, and the Challenges of the 1970s للمؤرخ يانيك ميكوفسكي Yanck Mieczkowski، ص. ١٤٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص.١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص.١٤٦.

الدولة. وكانت النتيجة هزيمة شبه كارثية في الانتخابات النصفية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٤، حيث ربح الديمقراطيون تسعة وأربعين مقعدًا إضافيًا من الجمهوريين في مجلس النواب. أما في مجلس الشيوخ، فقد خسر الحزب الجمهوري أربعة أعضاء آخرين، ما أعطى غالبية المقاعد للديمقراطيين الذين احتلوا واحداً وستين مقعدًا مقابل ثمانية وثلاثين للجمهوريين. وبذلك حصل الديمقراطيون على الأكثرية التي تخوّلهم التمتع بحق النقض، ما شكل نهاية «الرئاسة الاستبدادية».

فقد وضعت الانتخابات النصفية السلطة بين يدي الديمقراطيين وليس الرئيس. وبذلك فقد فورد تقدمه على خصومه روكفلر وريغان وكونالي في العام الفائت عندما كان مرشحًا لمنصب نائب الرئيس، أي سجله الوسطي في الكونغرس، عندما ناقض فورد مشروع قانون الكونغرس الذي قضى بحظر المساعدات الأميركية إلى حليفتها تركيا لدى اجتياحها جزيرة قبرص ردًا على الانقلاب العسكري اليوناني فيها. إلا أنّ مجلس النواب تجاهل الفيتو وعلى الرغم من أن الرئيس كان بإمكانه تأجيل التنفيذ، فرض الكونغرس الحظر وفقًا للأصول ما حمل تركيا، وهي عضو فعال في حلف شمال الأطلسي، على إغلاق كل مراكز الاستخبارات الأميركية فيها والقواعد العسكرية الأميركية باستثناء قاعدة واحدة لحلف شمال الأطلسي. فقال ديفرانك في هذا السياق: «لقد تبددت النية الحسنة التي تميز بها فورد خصوصاً تجاه الديمقراطيين المقربين منه في كابيتول هيل، بسرعة وتراجعت شعبيته. فأصبح مستحيلاً على فورد أن يصوغ جدول أعمال وسطياً والأصعب أن يتعامل مع التضخّم المنتشر وحرب الفيتنام».(١)

إن كان بعض القادة السياسيين قد رغبوا في الحلول مكان فورد في التعامل مع الركود التضخمي، فإن عدداً ضئيلاً منهم تعامل مع قضية الفيتنام، حيث أطلق شمال البلد في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر هجومه المنتظر لتوحيد قسمي البلد بالقوة. كان يفترض أن تستمر الحملة العسكرية سنتين غير أنها لم تدم إلا

(١) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ٤٦.

بضعة أشهر. وبحلول السادس من كانون الثاني/يناير ١٩٧٥، سيطر الشيوعيون على عاصمة المقاطعة فوك بينه. فتوسل فورد إلى الكونغرس ليسمح بإرسال أموال طارئة أقله لمساعدة جيش جنوب الفيتنام، لكن وكما شرحت له مجموعة من أعضاء الكونغرس «نحن نواجه حربًا داخليةً ضدّ النمو الاقتصادي المعطل وأزمة الطاقة والموارد الأخرى ومشاكل خطيرة أخرى... ولا نستطيع مواجهة وحل هذه الأزمات إذا استمرت الولايات المتحدة بالتدخل في جنوب شرقي آسيا».[1]

بدا فورد مضطربًا جدًا. وأجاب «ليس من مصلحتنا أن نجعل أصدقاءنا في العالم يتساءلون ما إذا كنا سندعمهم»، غير أن القرار كان قد اتخذ.[2] فجراء عفوه عن نيكسون، أصبح فورد منبوذًا من قبل العديد من الديمقراطيين في الكونغرس وكانت سياسة «الفتنمة» التي استعملها نيكسون لتغطية انسحاب الولايات المتحدة من الفيتنام مجرد لعبة زائفة لم تقنع أحدًا. لم تكن المساعدة المالية والتزويدات العسكرية ستؤثر في مسار الحملة. وحتى رئيس جنوب الفيتنام تيو، لم يكن يأمل ذلك. فكان قد وصف اتفاقات السلام في باريس منذ وقت طويل «بمعادلة للاستسلام»، إذ قضت بترك خمسة عشر ألف جندي من شمال الفيتنام في الجنوب، وعرف أن مجلسه اليميني كان سيسقط قريبًا. ومع ذلك، فيما تقدمت قوات شمال الفيتنام، توسل تيو إلى فورد لشن حملة من غارات بي٥٢ و«تزويده الوسائل اللازمة» لصدّ الهجوم. فدعمه كيسنجر والجنرال وياند رئيس أركان الجيش الذي سافر إلى سايغون ونقل إلى فورد «يجب ألا نتخلى عن هدفنا في تحقيق الحرية والاستقلال لجنوب الفيتنام».[3]

من جهة أخرى، فوجىء مصور البيت الأبيض الذي رافق وياند إلى آسيا عندما سأله الرئيس عن رأيه. فأجاب دافيد كينيرلي الرئيس منبهًا «سيدي الرئيس، لم يبق أمام الفيتنام إلا شهر واحد وكل من يقول لك خلاف ذلك يكون كلامه مجرد هراء».[4]

---

(١) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ٢٩٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب غرين Greene، ص. ١٣٧.
(٤) المصدر السابق.

كان كينيرلي على حق. فوسط الإشاعات بأن تيو كاد يتعرض لانقلاب آخر، استقال، غير أنَ الأمل في أن يصبح جنوب الفيتنام شبيهًا بجنوب كوريا محميًا من عدد هائل من القوات الأميركية انطفأ. وتوقف فورد عن تقديم مسودات خطبه إلى وزير الخارجية كيسنجر، وفي جامعة تولين في نيو أورلينز أعلن الرئيس بشكل قاطع (وسط تصفيق صاخب) أنَ الولايات المتحدة «لن تخوض ثانيةً حربًا انتهت بالنسبة إليها».[1] فتم بث رسالة مشفَرة عبر راديو سايغون تعلن «ارتفاع الحرارة إلى ١٠٥ درجات وأكثر» فيما انقضت ثلاث وأربعون مروحية من حاملات الطائرات في بحر الجنوب في الصين، على السفارة الأميركية التي كان قد حاصرها الفيتناميون المدنيون الذين كانوا يسعون إلى السفر إلى برّ الأمان.

وبحلول ليل التاسع والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٧٥، حلقت مروحية فوق المبنى، بعد إخلاء ألف وأربعمئة أميركي وخمسة آلاف وستمئة شخص من جنوب فيتنام. وفي اليوم التالي، وبعد خمسة وخمسين يومًا فقط من هجوم شمال الفيتنام، سقطت سايغون، التي سميت لاحقًا مدينة هوشي منه. وفي هذا الوقت، وفيما انتشرت قوات شمال الفيتنام في سايغون، وقع اعتداء متزامن في عاصمة كامبوديا، فنوم بينه. وفي الأول من نيسان/أبريل ١٩٧٥، تنحى الديكتاتور لون نول الذي كانت أميركا قد مولته، وبعد أسبوع سمح فورد ببدء عملية إخلاء الأميركيين من كامبوديا، التي كان اسمها الرمزي إيغل بول، والتي «أنقذت» مئتين وستة وسبعين شخصًا بالمروحيات.

كانت عقيدة نيكسون «بأنقى أوجهها» قد شارفت الانتهاء، بعد أن نتج منها تدمير بلدين صغيرين، بعيدين عن واشنطن فقط، بجهد لإظهار العزم الأميركي الاستبدادي.

ومع ازدياد البطالة والتضخم، وتزايد الاعتماد على النفط الخارجي وتحت ولاية رئيس جعل من دون سبب الكونغرس خصمًا له بالإضافة إلى استطلاعات الرأي

(١) كتاب Gerald R. Ford للمؤرخ برينكلي Brinkley، ص. ٩١.

التي بينت انعزالاً متزايدًا من جهة الناخبين، تراجع دور الولايات المتحدة الأميركية القيادي في العالم الحر بشكل كبير. فكانت العناوين الرئيسية في ربيع ذلك العام في صحيفة فرانكفورتر العامة الألمانية «أميركا ـ عملاق عاجز»، فيما كتبت ذي إكونوميست عن المسألة تحت عنوان «تلاشي أميركا».

أقر فورد لاحقًا بضرورة التقليل من الإصغاء إلى موالي نيكسون السابقين وأن يكون أكثر واقعيةً وقال مشيرًا إلى التغيير الحاصل: «ربما لم نكن قوة عملاقة، تفرض سيطرتها محاولةً أن تأمر الجميع بأن يفعلوا ما تريده». لم تعد الإمبراطورية الأميركية قوةً عظمى كما كانت في الماضي، لكنها وكما أضاف فورد «لم تكن من دون أي قوة».[1]

تساءل الديبلوماسيون في العالم، بأي اتجاه كان الرئيس سيوجه سفينة الدولة الأميركية الآن؟ فيما شكك حلفاء أميركا في عزم الولايات المتحدة في إثر سقوط جنوب الفيتنام وكامبوديا، ذلك بالإضافة إلى مشاكلها الاقتصادية في الداخل.

شكل كل هذا فرصةً لفورد ليبين موقفه، وأية نصيحة سيتبع أو يتجاهل بصفته القيصر.

وبعد أقل من شهر على سقوط سايغون وفنوم بينه استولى بحارة الخمير الحمر على سفينة تجارية أميركية كانت تنقل قطع غيار عسكرية في خليج سيام، فيما كانت في طريقها إلى تايلاند. وبحسب ما تم تبليغ فورد في الثاني عشر من أيار/مايو ١٩٧٥، أعلن الخاطفون أنّ السفينة غير المسلحة التي حملت اسم «إس إس مايا غويز»، دخلت عمدًا المياه الإقليمية الكامبودية الموسعة جديدًا. فاستدعى فورد موظفي الأمن القومي وحذر الأركان البحرية والعسكرية الأميركية في جنوب شرقي آسيا وقرر أن يجعل الحادثة اختبارًا لعزمه السياسي. فدعا وزير الدفاع جيمس آر. شليسنغر إلى عدم إيلاء الحادثة أي أهمية، غير أنّ كيسنجر (الذي مزح قائلاً لأنه «وزير الخارجية

(١) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ٢٨٩.

الوحيد الذي خسر بلدين في ثلاثة أسابيع»[1]) رفض رؤية أميركا تخسر من كرامتها أكثر وأوصى بتدابير مضادة، تقضي بقصف ساحل كامبوديا «بوحشية».[2]

أصغى فورد بصبر إلى كيسنجر وأدرك متأخرًا أن وزير خارجيته كان في بعض النواحي متهورًا وحتى متوحّشًا كنيكسون. ومع ذلك، كان مطلوبًا منه الرد بطريقة أو بأخرى. وبعد أن استبعد فكرة كيسنجر بشن هجوم جوي قوي على الساحل، أمر القائد الملازم السابق في البحرية فوراً القوات الأميركية باستعادة السفينة التي كانت تقف بعيدًا عن شاطئ كامبوديا بخمسة عشر ميلاً، بالقرب من جزيرة كوه تانغ، قبل أن ينقل طاقمها إلى مرفأ بري.

فحالف الرئيس الحظ. ففي أول انتقال من سفينة إلى سفينة على متن سفينة للقوات البحرية منذ العام ١٨٢٦، سيطرت مدمرة هولت على سفينة مايا غويز في الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٧٥، باستخدام قنابل مسيلة للدموع. وفي الصباح التالي، وردًا على ضغط الحكومة الشيوعية الصينية، تم الأمر بتحرير البحارة الأسرى من سفينة الصيد حيث خبأهم الخمير الحمر ونقلهم سالمين إلى المدمرة الأميركية هولت.

ارتفع التأييد لفورد في الداخل إحدى عشرة نقطة. فقد نجا من أول أزمة دولية من دون الرجوع إلى سلفه، ووضع حدوده، من خلال رفض تصعيد الحادثة كما تمنى كيسنجر، ولكن متجنبًا الاتهامات بالجبن التي نتجت من سيطرة شمال كوريا على سفينة بويبلو الأميركية قبل ست سنوات.[3] ومع أنّ طبيعة الحدث تافهة، إلا أنه شكل

(١) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب غرين Greene، ص. ١٤١.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٥٠.

(٣) سفينة بويبلو الأميركية هي سفينة تجسس استولت عليها كوريا الشمالية في المياه الدولية واحتجزتها في العام ١٩٦٨. وقد تطلب الإفراج عن رجال الطاقم البحري الاثنين والثمانين عشرة أشهر واعتراف القبطان بالذنب عن طريق التعذيب. وبحلول ذلك الوقت كان هيوبرت همفري، المرشح الديمقراطي للانتخابات الرئاسية في العام ١٩٦٨ قد خسر.

«أكبر انتصار سياسي في رئاسة فورد»، بحسب ما قاله أحد كتاب سيرة فورد.[1]

وبالنظر إلى ارتفاع استطلاعات الرأي المؤيدة له، قرر فورد التأكيد على عقيدته المكملة لعقيدة نيكسون على نطاق أوسع. فأعلن أنه سيترشح للرئاسة في العام ١٩٧٦ وأنه سيحضر شخصيًا مؤتمر هلسينكي حول الأمن والتعاون.

ومن جهة أخرى، فيما كان اليمين الأميركي ما زال مستاءً من إقامة نيكسون مع ماو تسي تونغ، و«خسارة» جنوب الفيتنام وكامبوديا لمصلحة أنظمة شيوعية، أشعل عزم فورد على الذهاب إلى أوروبا وتوقيع ما استمر الجمهوريون يعدونه «خيانة يالطا»، نيران الاحتجاجات. ووسط غضب صاعق من المنفى في فيرمونت، ندّد الروائي ألكسندر سولجنستين، الحائز جائزة نوبل، برحلة الرئيس في شهر تموز/ يوليو ووصفها بسياسة الاسترضاء، إذ إن هدف المؤتمر كان تسوية الخلاف القائم حول حدود دول أوروبا الشرقية في مرحلة ما بعد الحرب، بما فيها تشريع السيطرة السوفياتية على بولندا ودول «الاتحاد»، بغية تحقيق الانفراج في العلاقات الدولية.

ومرةً أخرى برهن فورد عن مكانته المتنامية. فمنذ أن خدم في البحرية في خلال الحرب العالمية الثانية كان مؤيدًا لسياسة التعاون الدولية، فيما كان وسطيًا على غرار الرئيس أيزنهاور الذي حاول بجهد أن يجد أرضيةً مشتركةً مع السوفيات. كما أنه لم يدعم قط معاداة نيكسون المتزمتة للشيوعية ورحّب بالتغيير الجذري في سلوك نيكسون وجهوده المبذولة في سبيل الانفراج في العلاقات. لذلك، ما كان هناك أي مانع في أن يبدأ هو علنًا اتباع جدول أعمال صادق لتحقيق الانفراج في العلاقات من دون اللجوء إلى ألاعيب نيكسون. فتجاهل بشجاعة الجناح اليميني في حزبه واقترح ما يتعارض تمامًا مع نظرية «الرجل المجنون» أي سياسة منطقية منفتحة بشأن الأمن العالمي قائمة على علاقات بين الحكومات وعلى الاتفاقات والشفافية.

(١) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب غرين Greene، ص. ١٥١. رغم تفادي احتدام كبير، لم تحل الحادثة دون وقوع مأساة كبيرة. وفور الإفراج عن طاقم مينغيز Mayanguez، شنت مروحية أميركية هجومًا فاشلاً على جزيرة كوه تونغ. وبالدفاع بشدة ضد قوات شمالي الفيتنام في الجزيرة المتنازع عليها، نجح الكامبوديون في صدّ الهجوم الفاشل الذي خلّف ٤١ قتيلاً أميركيًا.

فكتبت صحيفة وول ستريت مستجديةً «لا تذهب يا جيري»، إلا أنّ الرئيس ذهب للقاء الزعيم السوفياتي ليونيد بريجينيف للمرة الثانية وجلس بين قادة خمس وثلاثين دولة شيوعية وغير شيوعية، حتى أنّ ممثلاً عن الفاتيكان كان حاضرًا. فشكلت مواضيع الاتفاقيات الأربع، أي حقوق الانسان والتجارة والسفر والمراقبة المستقبلية، تعبيرًا عن إرادة الدول الغربية الكف عن تهديد الاتحاد السوفياتي الذي لطالما كان وضعه حساسًا، مقابل تحرير التواصل والتجارة وانتقال المعلومات وتطبيق حقوق الإنسان.

ويعد هذا الجهد أيضًا تجسيدًا للرغبة المشتركة «في توسيع عملية انفراج العلاقات وتعميقها واستمرارها وديمومتها».(1)

وهكذا توجه فورد إلى فنلندا للمشاركة في المؤتمر، وكان هو أول رئيس أميركي يزور أوروبا الشرقية منذ الحرب العالمية الثانية. وكان لهذه الزيارة أيضًا عواقب وخيمة في الأعوام التي تلت تمامًا على غرار اتفاقية هلسنكي.

فقال في هذا الصدد القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي ويسلي كلارك لدى ترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية: «لم يسقط الاتحاد السوفياتي بالطريقة التي قالها المحافظون الجدد. فقد شكلت اتفاقيات هلسنكي في العام ١٩٧٥ خطوةً أساسيةً لتمهيد الطريق للعملية السلمية لبناء الديمقراطية في بلدان التكتل السوفياتي. فوقّعت الحكومات الشيوعية في الشرق الاتفاقيات ما ضمن حقوق الإنسان والحقوق السياسية لكل الشعوب في تلك المنطقة، وحصر سلطة الحكومات في التصرف ضد شعوبها. ومهما كان توفير حقوق الإنسان هشًا في ذلك الوقت، إلا أن الاتفاقيات شكلت نقطة انطلاق للمنشقين على غرار عالم الفيزياء الروسي أندريه زاخاروف. ومع أنّ الأمر كان ينتهي بسجن أو نفي هؤلاء المنشقين، إلا أنهم أسسوا منظمات عممت انتهاكات الحكومات العديدة للاتفاقيات ما شد انتباه الغرب وأدى إلى

(1) مشروع التاريخ ذو عنوان Unity and Diversity in Development Ideas: Perspectives from the UN لمستشار الأمم المتحدة إيف بارسيلو Yves Berthelot (بلومينغتون: مطبعة جامعة إنديانا، ٢٠٠٤).

حشد دعمهم. وبذلك، ساهم المنشقون في تشكيل مصدر وحي لمواطنيهم ليعلموا أنّ بإمكانهم مواجهة القوى السياسية المستقبلية.[١]

وفي السنة التالية أيّد جون لويس غاديس، مؤرّخ الحرب الباردة وجهة نظر الجنرال كلارك، وكتب أنّ التزام هلسنكي «حقوق الإنسان والحريات الأساسية» أصبح فخًا للاتحاد السوفياتي، الذي بات يواجه أكثر من أي وقت مضى إدانات أكثر جرأةً من قبل المنشقّين. وأعلن غاديس «لقد بدأ الآلاف من الناس الذين يفتقرون إلى أهمية كل من سولجنستين وزاخاروف بالوقوف إلى جانبهما في محاسبة الاتحاد السوفياتي ودوله التابعة له في إطار حقوق الإنسان». وبتعبير آخر لقد أصبحت اتفاقيات هلسنكي كما وضعها «أسس تشريع معارضة الحكم السوفياتي».[٢]

وفي حال كان فورد يأمل أن تحسّن قيادته الحكيمة الناجحة في فنلندا وشرق أوروبا نسبة التأييد له في استطلاعات الرأي على الصعيد الداخلي، فقد خاب ظنّه. وعبر جعل عقيدة فورد الجديدة المرتكزة على الصبر والاستقرار والنية الحسنة تتماشى مع السياسة الأميركية الخارجية، اعتمد تمامًا مثل أيزنهاور على سمعته الخاصة في ما يتعلّق بصدقه ونزاهته. ولكن أميركا في السبعينيات مختلفة عن أميركا الخمسينيات وبغية إعادة توجيه السياسة الخارجية الأميركية نحو الانفراج والتعايش مع كل من الصين والاتحاد السوفياتي، كان نيكسون اعتمد على عبقريته في التناقض الذاتي والهجوم المضاد ليوقع خصومه في الحيرة. ولكن فورد الصادق الذي يقول الحقيقة مهما كانت، يفتقر إلى المهارة في المجادلة ولم يكن يرغب في التلاعب بالرأي العام. وكانت النتيجة أنّه بدلاً من أن يُرحّب به في الداخل كرئيس للسلام، واجه معارضةً جماعيةً من اليمين الجمهوري، ما أدّى إلى تداعيات وخيمة.

---

(١) كتب الجنرال ويسلي كلارك Wesley Clark في مجلة Washington Monthly عدد أيار/مايو ٢٠٠٤: "يمكن للالتزام المنتهَك، الاستراتيجية التي انتصرت في الحرب الباردة أن تساعد على إعادة الديمقراطية في الشرق الأوسط، إذا فهمتها صقور بوش فقط".

(٢) كتاب The Cold War: A New History للمؤرخ جون لويس غاديس John Lewis Gaddis (نيويورك: مطبعة بينغوين، ٢٠٠٥)، ص. ٢٠٥.

وبعد أن أُحبط الجناح اليميني في الحزب الجمهوري لوقت طويل بسبب قدرة ريتشارد نيكسون على الخداع والتفوق والمناورة في الكلام على الخطباء الناجحين في الحزب من باري غولدووتر وصولاً إلى رونالد ريغان، اتّهم رئيسه الجديد بأنّه «يخون» بيان الحزب السياسي وبأنّه مذنب «بخيانة أوروبا الشرقية» بحسب تعبير سولجنستين.[1] وكان العقائديون الجمهوريون لا يزالون متطرفين في معاداتهم للشيوعية ومستائين بسبب هزيمة أميركا في فيتنام، بالإضافة إلى معارضتهم الحكومة في المسائل المحلية، لذلك، سخروا من مشاركة فورد في اتفاقيات هلسنكي وبدأوا بالترويج لبديل من اليمين الجمهوري يكون مرشحهم الرئاسي لانتخابات ١٩٧٦. وشكل كل ذلك نذير سوء.

واعترف فورد بنفسه بأنّه لم يقم بما يكفي لإيصال جوهر اتّفاقيات هلسنكي وأهميتها (كما اعترف في ما بعد «بأن ذلك يعود إلى فشل في العلاقات العامّة، وأنا أتحمّل الجزء الأكبر من اللوم») أو لنشر حقيقة الانفراج المعتدلة والبعيدة النظر بعد هلسنكي، ما سمح لليمين الجمهوري وحتّى لمنافسه الديموقراطي المحتمل باحتقار الجهود التي بذلها كرجل دولة من أجل أميركا.[2] أمّا في ما يتعلق بالمسائل الداخلية، فقد كان يواجه المشكلة نفسها: كيف سيشرح للشعب الأميركي صعوبة التعامل مع التضخّم المتزايد إلى جانب ارتفاع البطالة والكساد المقترن بالتضخم.

وعلى غرار اتفاقيات هلسنكي، لم يلقَ فورد التقدير الذي يستحقّه على ما أثبت التاريخ أنه ثاني أهم إنجاز في خلال فترة رئاسته أي جهوده لحثّ الكونغرس على إقرار قانون طارئ لتخفيض الضرائب في خلال ربيع ١٩٧٥ بغية تحفيز الاقتصاد والحدّ في الوقت نفسه من الإنفاق الحكومي لسدّ الثغرات الضريبية في سبيل الحفاظ على برامج الحكومة من دون زيادة العجز القومي.

وفي وقت لاحق تحوّلت هذه الجهود إلى أعمال بطولية. نجحت استراتيجية

(١) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ٢٩٨.
(٢) كتاب A Time to Heal للرئيس جيرالد فورد، ص. ٢٩٧.

فورد التي تقضي بحسم ٣٥ مليار دولار من الضرائب التي اقتصرت بشكل كبير على العائلات ذات الدخل المحدود التي سوف تنفق هذه الأموال وتعالج الكساد الكبير. في الواقع، أقر الكونغرس هذه الإستراتيجية في أيار/مايو ١٩٧٥، وكانت نتائجها ملحوظة بحيث تراجعت نسبة البطالة وارتفعت أسعار البورصة ناهيك بارتفاع إجمالي الناتج القومي بنسبة أحد عشر في المئة في الربع الثالث، وهي النسبة العليا التي شهدها البلد في العقدين الأخيرين. ولكن لم يعترف الشعب بفضل فورد على الفور، وحتى أنه تعرّض في أيلول/سبتمبر ١٩٧٥ إلى ما لا يقل عن محاولتي اغتيال.

وفي الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٧٥، كان فورد في ساكرامنتو، عاصمة ولاية كاليفورنيا حيث ألقى خطابًا أمام الهيئة التشريعية وعقد اجتماعًا خاصًا مع الحاكم الديمقراطي جيري براون الذي خلف رونالد ريغان. وللسخرية، فقد شكلت الجريمة موضوع خطاب فورد.

وكذلك، استذكر فورد «كان الطقس في ذلك اليوم صافيًا وكانت الشمس ساطعة»، فقرر أن يمشي من فندق سيناتور.[١] كان هناك عدة صفوف من الناس الواقفين وراء الحبل الذي يحد الرصيف من جهة اليسار. كما أنه كان لا يزال يتذكر بعض الأقوال الجميلة التي علت في أثناء التصفيق «كنت في مزاج جيد فرحت أصافحهم».[٢]

«عندئذ رصدت امرأةً ترتدي فستانًا أحمر فاقعًا. كانت واقفة في الصف الثاني أو الثالث تتحرك معي وكأنها أرادت مصافحتي. وحين أبطأت لاحظت فورًا أنها دفعت يدها تحت أيدي المتفرجين الآخرين، فمددت يدي لأصافحها ونظرت إلى فوهة المسدس من عيار ٤/٥ الذي صوبته مباشرةً إلى وجهي. «[٣]

فقال: «لقد خفضت رأسي»، ومع ذلك كان محظوظًا جداً. [٤] وقد سمع أحد

(١) المصدر السابق، ص. ٣٠٠.
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق

المارة الشابة التي تبلغ ستة وعشرين عامًا من العمر والمحبة للمجرم شارل مانسون الذي ارتكب جرائم جماعيةً تقول متذمرةً: «أتصدق أن الرصاصة لم تنطلق؟» مندهشةً لسوء حظها فيما حاول عميل من المخابرات السرية انتزاع المسدس من يدها.

تم الحكم على لَينيت فروم ذات الصوت الحاد بالسجن المؤبد بعد أن حذَّرت القاضي قائلةً: «في حال استمر فورد الذي لم يكن سوى نسخة عن نيكسون في حكم البلاد فستعرف منازلكم حالة أكثر دمويةً من الهجوم على بيوت تيت ـ لابيانكا وماي لاي معًا.» كذلك، حذَّرت زميلتها في السكن ساندرا غود «يستحق العديد من الأشخاص في أنحاء العالم الاغتيال. وهذه مجرّد البداية، بداية الكثير والكثير من عمليات الاغتيال... فسيتم قتل الناس».(١)

كانت غود محقة، فبعد مرور أسبوعين ولدى مغادرة فورد فندق سان فرنسيس في سان فرانسيسكو بعد إجراء مقابلة تلفزيونية قامت سارة جاين مور التي تعمل محاسبة في منظمة «الناس في حاجة» بإطلاق النار عليه من مسدس من عيار ٣,٨ وقد انطلقت الرصاصة هذه المرة. بيد أنها فشلت في إصابة الرئيس وأصابت مدخل الفندق وفخذ سائق تاكسي، فانتزع أحد المارة المسدس منها ورماها أرضًا قبل أن تطلق النار مرة ثانية. وكذلك قالت السفَّاحة المعجبة بباتي هارست، أي الوارثة التي خُطفت على يد الإرهابيين والتي التحقت بجيش التحرير التكافلي: «أنا آسفة لأنني لم أقتله وأفتح المجال لرياح التغيير. يا ليتني تمكنت من قتله، لقد أقدمت على ذلك بغية افتعال الفوضى».(٢)

وقد بيَّنت محاولتا اغتيال الرئيس فورد القوة الجسدية نفسها التي أظهرها على متن يو أس أس مونتيري عندما صوّب قباطنة انتحاريون على سفينته، وتابع برنامجه لذلك اليوم بشكل عادي من دون أن يذكر «الحادثة». وفي هذا الصدد مزح فورد

(١) مقابلة للصحفية باربرا فروم Barbara Frum مع ساندرا غود Sandra Good على إذاعة سي بي سي في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٧٥.

(٢) مقالة «Squeaky and Sara Jane» لآيلين كيردوجا Eileen Keerdoja، من مجلة Newsweek عدد ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦.

مع الفريق الذي يحدد جدول عمله قائلاً: « لن نقوم بجدولة رحلات كهذه بعد الآن»[1]، كما رفض أن «يستسلم لأولئك الذين يريدون تقويض كل ما هو جيد في أميركا» إلا أنّ ذلك ليس بمستبعد.[2]وكذلك، اتهم القاضي الحاكم الآنسة مور: مستنكرًا الوضع قائلاً: «لو أننا نملك قانون إعدام جارياً لما كنت واقفة الآن أمامي، فأنت نتاج مجتمعنا المتساهل».[3] من ناحية أخرى، قال القاضي الذي يتولى هذه القضية للآنسة مور «ما كنت لتقفي هنا، لو كان قانون الإعدام سارياً وفعالاً في بلدنا» ووصفها بأنها «نتيجة المجتمع المُسامح». في الواقع، لا بأس من مناقشة ما إذا كانت عقوبة الإعدام تحل مشاكل المجتمع المتسامح، ولكن مع شبح الفوضى الذي يهدد البلد، لا بدّ من أن يكون هناك ثمن لظاهرة الثقافة المضادة التي سادت في الستينيات بشكل مفرط، سيكون هذه المرة الثمن سياسيًا خصوصًا مع اتساع قاعدة اليمين الجمهوري داخل الحزب. ويعد كل ذلك أمرًا سيئًا بالنسبة إلى جيرالد فورد الوسطي التقدمي.

كان الانفراج مع الاتحاد السوفياتي صعبًا بما يكفي، وقد استذكر فورد لاحقًا «لم تستغرق تحديات أي سياسة خارجية هذا الكم من الوقت في بداية العام ١٩٧٥ كما فعل رفض إسرائيل الانسحاب من الأراضي التي احتلتها».[4] وبفضل الدعم الأميركي، «أصبحت إسرائيل أقوى عسكريًا من كل جيرانها العرب مجتمعين، وبالتالي أبعد مما كان عليه في أي وقت مضى، مما دفعني إلى التشكيك في تعليل سياستنا. لقد أردت أن يعترف الإسرائيليون بأن عليهم التعويض من ذلك. وفي حال كنا سنعزز قدراتهم العسكرية، فعليهم أن يظهروا بعض المرونة من أجل تحقيق سلام

(١) مقالة «Ford's Brush with Death» لتوم ماثيوز Tom Mathews وآخرين، من مجلة Newsweek عدد ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٧٥.

(٢) مقالة «Those Gunslinging Ladies of California»من مجلة The Economist عدد ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٧٥.

(٣) مقالة «Trials: Life for Sara Jane» من مجلة Newsweek عدد ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٥. تمّ أخيرًا إطلاق مور في العام ٢٠٠٧ وعمرها ٧٧ سنة، بعد أن تخلت عن وجهات نظرها السابقة.

(٤) كتاب A Time to Heal لـFord- صفحة ٢٣٨

عادل وآمن ودائم.»[١] وعلى الرغم من محاولة الرئيس الاستئساد على الإسرائيليين للانسحاب وبدء المفاوضات بحيث هدّد عبر تلفزيون أن بي سي بتحويل القرار في مسألة النزاع القائم ومستقبل فلسطين إلى مؤتمر السلام في جنيف، تاركاً إسرائيل لمصيرها. ولكن لم يكن هناك أي جدوى من هذا التهديد. وكذلك، ومع توفير الأسلحة لإسرائيل لتفوز في حرب تشرين الأول/أكتوبر، ومع ترتيب إجراءات وقف إطلاق النار الذي ساعد إسرائيل على السيطرة على كل غنائم الحرب، حوّل كيسنجر إسرائيل إلى أداة أميركية، الأمر الذي رفضه الإسرائيليون بشدة. بالإضافة إلى ذلك، استذكر فورد غضبه قائلاً»: لم تكف إسرائيل عن المماطلة». ومع ذلك، وبحسب أحد المؤرّخين، أدى تهديد فورد بالتخلي عن إسرائيل «إلى نتائج عكسية، فبدلاً من رضوخ إسرائيل لتهديدات فورد، ازداد الإسرائيليون عزمًا، وقد أدى إنذار كيسنجر حول الإلحاح الصلب، إلى إضعاف معنويات الرئيس.[٢] وفي ما بعد قال فورد عن رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين: « إرهابي سابق في أثناء الانتداب البريطاني في فلسطين» وعن زملاء له: « أحبط سلوكهم الغريب معنويات المصريين وجعلني أستشيط غضبًا». [٣]وكذلك، أسف فورد قائلاً: «قاتل رابين من أجل كل كيلومتر ولكنه لم يفهم أنه لا يمكن الحصول على شيء ما لم تقدم شيئًا آخر في المقابل».[٤]

وفي النهاية أصبحت الولايات المتّحدة وليس الأمم المتحدة ملتزمة توفير قوّة مراقبة دائمة (مهمّة سيناء الميدانية) على الحدود التي وضعت بين مصر وإسرائيل. كما التزمت الولايات المتحدة أيضًا عبر سلسلة من الترتيبات السرية أو مذكّرات التفاهم، عُرفت لاحقًا بسيناء ٢ بتزويد «إسرائيل، بشكل مستمر وطويل الأمد، المعدّات العسكرية وغيرها من المتطلّبات الدفاعية»، كما التزمت دعم «حاجاتها الاقتصادية بمبلغ وقدره أربعة مليارات دولار سنويًا». كما تعهّدت توفير طائرات حربية من نوع

(١) المصدر السابق
(٢) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب غرين Greene، ص. ١٢٨.
(٣) كتاب A Time to Heal للرئيس فورد، ص. ٢٤٠.
(٤) المصدر السابق.

أف ١٦ لقوات إسرائيل الجوية». (التي هي ثالث أكبر قوة في العالم)، فضلاً عن صواريخ بيرشينغ، وضمان حاجات إسرائيل النفطية، وإعداد الخطط لتوفير جسر جوي للإنقاذ في أوقات الأزمات.[1] وبالإضافة إلى ذلك وعدت الولايات المتّحدة سرًا (بدون أن تعلم المصريين) عدم التفاوض لا مع منظّمة التحرير الفلسطينية قبل أن تعترف بحق إسرائيل في الوجود ولا مع أي أحد في الشرق الأوسط قبل أن تستشير إسرائيل أوّلاً أو أن تتابع أي مسار للتفاوض غير قرارات الأمم المتحدة الحالية. وكان رابين في منتهى السعادة.

فرح الرئيس المصري السادات أقله باسترجاع سيناء والجيش المصري المحيط بها، إضافة إلى حقول النفط المصرية التي كانت تحتلها إسرائيل وقناة السويس المهمّة (التي سيُسمح لإسرائيل باستخدامها من الآن فصاعدًا للسفن التي لا تحمل بضائع عسكرية)، فوقّع في أيلول/سبتمبر ١٩٧٥ على مضض معاهدة السلام الإسرائيلية-المصرية ووثيقة وفاته، فقد تمّ اغتياله بعد ذلك بست سنوات. (وكان رابين أيضًا تعرّض للاغتيال بعد عشرين سنة، حين سعى بعد فوات الأوان إلى عقد تسوية سلام دائمة عبر اتّفاقية أوسلو).

وصرف الرئيس فورد انتباهه عن الشرق الأوسط إلى مقاربة أكثر سلميةً لمشاكل أميركا الداخلية. وأعلن صراحة في خطاب حال الاتحاد في كانون الثاني/يناير أنّ «حالة الاتحاد ليست جيّدة، وأنّ الملايين من الأميركيين عاطلون عن العمل. كما أنّ الركود والتضخم يلتهمان أموال الملايين الآخرين». واعترف أنّه ما من حلول بسيطة وتعهّد الاستمرار في السير في طريق الوسط الجمهوري المعتدل. «أظنّ أنّ الاعتدال بالنسبة إلى الجمهوريين هو السياسة الصحيحة».

ولكن حاكم كاليفورنيا السابق رونالد ريغان خالفه في الرأي تمامًا مثل اليمين

(١) كتاب The Iron Wall: Israel and the Arab World (نشرته شركة Norton في نيويورك في العام ٢٠٠١)، للمؤرخ آفي شلايم Avi Shlaim، ص. ٣٣٩-٣٤٠. راجع أيضًا كتاب Heroic Diplomacy: Sadat, Kissinger, Carter, Begin and the Quest for Arab-Israeli Peace (دار نشر Routledge في نيويورك، ١٩٩٩)، للبروفيسور كينث دبليو شتاين Kenneth W. Stein، من الصفحة ١٧٨ وحتى الصفحة ١٨١.

الجمهوري. كما بدأت صحيفة مانشستر يونيون ليدر تشير إلى الرئيس باسم «جيري الأخرق»، وشجبت رؤيته إلى الحزب الجمهوري الذي كان يعده «مظلة متعددة الألوان» يمكنها استقبال الديمقراطيين المستقلين والمعتدلين. وأشار ريغان إلى أنَه قد يسعى للحصول على ترشيح الحزب له للرئاسة، عبر التقدم بصفته حامل راية اليمين ما أجبر فورد على الانضمام أيضًا إلى اليمين ليحرم ريغان الفرصة المؤاتية.

وأصبح فورد ملتزمًا الآن «أحد الأمور القليلة التي تنم عن الجبن التي قمت بها في حياتي» كما أعلن لاحقًا.[1] وبناءً على إصرار رئيس القطاع دونالد رامسفيلد، الذي كان يأمل أن يتمّ اختياره، قرّر فورد أن يتخلّى عن نائبه الوسطي المخلص.[2] وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٥، بعد مناقشة «تنامي قوّة اليمين [الجمهوري]» مع نائب الرئيس نيلسون روكفلر، طلب إليه الرئيس عدم الترشح لانتخابات ١٩٧٦ بصفته نائبه.[3] فوافق روكفلر على الانسحاب ولكن فورد اعترف في ما بعد بأنه لم يرتكب أفظع خطأ فحسب بل «أكبر خطأ سياسي في حياته».[4]

في المقابل، لم تهدّئ إزاحة روكفلر من المعادلة السياسية المرتقبة مع الحفاظ على كيسنجر وزيراً للخارجية بأي طريقة اليمين الجمهوري الذي كان يسعى للقتال. وفي التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٥، تلقّى فورد مكالمةً هاتفيةً من ريغان الذي رفض منصبًا حكوميًا في إدارة فورد. وأعلن قائلاً: «سوف أترشّح للانتخابات الرئاسية، وثق أننا نشكل منافسةً جيدة. آمل ألاّ يؤدّي قراري هذا إلى إحداث انقسام كبير».[5]

وسأل فورد لاحقًا[6] «كيف تستطيع أن تنافس رئيس حزبك الحالي بدون أن تسبّب انقسامًا». في الحقيقة، لقد جرحه تحدّي ريغان بعمق حيث رأى فيه أكثر من

(١) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ٣١١.
(٢) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ٩٣.
(٣) كتاب Time and Chance للصحفي كانن Cannon، ص. ٤٠٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) كتاب A Time to Heal للرئيس فورد، ص. ٣٢٢.
(٦) المصدر السابق.

مجرّد مبارزة شخصية. ورأى أنّ ذلك سيكون نضالاً لتحديد مفهوم الجمهورية في أميركا الحديثة، كمقاربة وسطية للحكومة والحكم والقيادة الاستبدادية في جميع أنحاء العالم.

ولكن التباشير لم تكن واعدة. فمع حلول كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٥، أظهر استطلاع للرّأي أجرته مؤسسة غالوب أن ريغان يتفوّق على فورد بنسبة أربعين في المئة مقابل اثنين وثلاثين في المئة في صفوف الناخبين الجمهوريين.

وبالنسبة إلى فريق حملة فورد شكل هذا الاستطلاع يقظة متأخّرة. في الواقع تشكل حملة ويليام هوارد تافت في العام ١٩١٢ مثالاً لا يُنسى في هذا الصدد على اضطرار شاغل منصب أن يقاتل خصمًا جمهوريًا زميلاً له، وعلى الكفاح الهائل الذي أدّى إلى إبعاد الناخبين الجمهوريين، ما أسفر عن إعادة سيطرة ديمقراطي (وودرو ويلسون) على البيت الأبيض. وتساءل النقاد هل ستتكرّر هذه الحالة في العام ١٩٧٦؟

من دون شك، تعرّض عمل الرئيس إلى الاستقطاع. في الواقع، كان فورد يفتقر، في خلال حملته، إلى لسان ريغان المعسول ومهارات تمثيلية والتصرفات المصطنعة التي كان نيكسون يؤديها بنجاح. من جهة أخرى، رفض نيكسون مساندة الرجل الذي منحه العفو. فبدلاً من أن يقدر حريته، صدم نيكسون فورد عندما ظهر بصحة وعافية ممتازتين، وعندما نكث وعده بزيارة الصين قبل الانتخابات. فتجاهل نيكسون نداءات فورد وسافر إلى بيجينغ في الواحد والعشرين من شباط/فبراير ١٩٧٦، أي قبل ثلاثة أيام تعد أساسيةً من الانتخابات الأولية التقليدية في نيوهامشير. وفي هذا السياق، سُمع برانت سكوكرافت مستشار فورد للأمن القومي لدى سماعه الخبر[١]، يقول: «إن نيكسون رجل حقير»، والجدير ذكره أنّه لم يكن يشتم قطَ.

مع ذلك، تفوق الرئيس على ريغان في الانتخابات الأولية في نيوهامشير، ولكن الفوز كان بفرق ضئيل جدًا أي إنه حصد ألف صوت من مئة ألف فقط. ما أدى إلى تكهّن معركة قد تسبب الخلافات في الانتخابات الأولية التي كانت ستليها.

(١) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ٣١٢

شدّ ريغان أزره بعد أن كاد يفوز، فزاد من حدة هجومه على الرئيس وإدارته، بحيث أطلق اتهامات ما كان باستطاعة فورد ولا المراقبين أن يجاروها. فاتهم ريغان فورد، الرجل الشجاع الذي حافظ على تفوق أميركا عسكريًا والذي أقنع الكونغرس بتوفير أكبر ميزانية لوزارة الدفاع منذ الحرب العالمية الثانية، بالسماح للولايات المتحدة بالتراجع لتحتل المركز الثاني عسكريًا بين إمبراطوريات العالم. صحيح أنَّ هذا الاتهام كان من دون شك اتهامًا زائفًا إلا أنه سمح لريغان بأن يستند في حملته الانتخابية «إلى جعل الولايات المتحدة في المركز الأول من جديد».

من جهة أخرى، تطرّق فورد إلى أزمة التضخم الذي تلاه ركود بمهارات إدارية ممتازة، فقد لجأ إلى أفضل المستشارين الاقتصاديين في الأمة، وعمل يدًا بيد مع الكونغرس الذي تسيطر عليه الأكثرية الديمقراطية. ونتيجةً لهذه الجهود الدؤوبة، بدأت نسب البطالة تنخفض، وارتفعت الإنتاجية وتراجع التضخم. وعلى الرغم من كل هذه الإنجازات الاقتصادية، ما انفكّ ريغان يهاجم الرئيس بسبب النمو الاقتصادي الرديء، كما اقترح تحويل معظم الضرائب إلى الولايات بدل تحويلها إلى مصلحة الضرائب التابعة للحكومة الفدرالية. كذلك، انتقد الحكومة قائلاً إنها مجرّد تعبير عن البيروقراطية، وبالإضافة إلى ذلك، حط من قدر فورد بسبب سياسته الخارجية، إلى درجة، أنه بعد أن خسر هذا الأخير في انتخابات ولاية نبراسكا الأولية لمصلحة ريغان، اضطر فورد إلى تأجيل إعلان اتفاقية مع روسيا حول الاستخدام السلمي للمتفجرات النووية خوفًا من سكب الزيت على النار في ما يخصّ خطاب ريغان الشاجب والمُهدّد. حتى أن الرئيس قد أُجبر على التراجع عن اتفاقية سالت جديدة حول تخفيض الأسلحة. ومن ناحية أخرى، أصبح الرئيس هدفًا لاعتداءات ريغان بسبب محادثات قناة باناما. (ردد ريغان في شأن القناة خطابًا مؤلفًا من عبارة واحدة «في ما يتعلّق بمسألة القناة، نحن بنيناها، نحن دفعنا ثمنها، وبالتالي فهي لنا ... وسنحتفظ بها»[1]).

---

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٥.

على صعيد آخر، كان الرئيس فورد، وهو أكثر الرجال نزاهةً وأكثر الرؤساء التنفيذيين اعتدالاً منذ الحرب العالمية الثانية، يتعرّض للمناورة الإعلامية من قبل ريغان، إلا أنّ فريق عمل البيت الأبيض كان بدوره يدبّر له المكايد. ففي الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، أي ما يُسمى «مجزرة صباح يوم الأحد» كشّر «الفالكونز» عن أنيابهم فهم عبارة عن جمعية سرية بقيادة دونالد رامسفيلد مؤلفة من أتباع نيكسون. فطُرد وليم كولبي مدير وكالة الاستخبارات المركزية الذي كان قد شهد بكل نزاهة أمام لجنة تشيرش ولجنة روكفلر وتم تعيين جورج بوش سفير أميركا في الصين، وهو محسوب على نيكسون، ليترأس المركز الرئيسي لوكالة الاستخبارات المركزية، وذلك خشية أن يختار فورد كولبي ليكون مرشحه لنائب الرئيس. وفي الوقت عينه، مهد رامسفيلد لإزاحة وزير الدفاع جيمس شليزنغر وذلك لأنه لم يقم بتفجير ساحل كامبوديا في خلال حادثة مايا غويز ونجح في جعل نفسه وزيرًا للدفاع. وهكذا، احتلّ ديك تشيني الذي تهرّب من الخدمة العسكرية مكانه رئيساً للقطاع السياسي. وكان تشيني شبيهًا بتوماس كرمال من حيث الشخصية، بحيث كان يميل إلى السرية والأمور غير الشرعية واستهداف الأشخاص على غرار نيكسون، وهذا أمر أقلق زملاءه.[١]

وبالتالي، ما كان بإمكان فورد إلقاء اللوم على أحد سوى نفسه. ففي الواقع كان هو، على ما وصفه الملحق الصحافي للبيت الأبيض «سيد القلب الطيب»، فلم يبقَ أمامه للبقاء في الرئاسة سوى حلين، فإما أن يغطي على جناح ريغان اليميني وإما أن يحكم بطريقة أكثر استبدادية من البيت الأبيض مثلما فعل نيكسون.[٢] من هنا،

(١) منذ ربيع العام ١٩٧٥ بحث تشيني عن طرائق لتوسيع السلطة الرئاسية وتفادي رقابة الكونغرس وإعاقة دور التحقيق الذي تلعبه السلطة الرابعة في الديمقراطية، وخصوصاً صحيفة New York Times إذ أثار نجمها المراسل سيمور هيرش غضبه. وقد شملت ملاحظات تشيني التي ظهرت للعلن بعد ثلاثين سنة "تحقيق مكتب التحقيقات الفدرالي بقضية صحيفة The Times و"وحكم المحكمة العليا بحق هيرش وتايمز" و"مذكرة تفتيش "للبحث عن أوراق هيرش في شقته"". ملف "Dick Cheney's Memos from 30 Years Ago" بقلم لويل بيرغمان Lowell Bergman مارلينا تلفيك Marlena Telvick (بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٨، من مكتبة جيرالد آر فورد. راجع موقع http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/newswar/preview/notes%20553docu%20ments.html، تمّ الحصول عليها في الأول من نيسان/أبريل ٢٠٠٨.

(٢) كتاب Gerald Ford للمؤرخ ميكوفسكي Mieczkowski، ص. ١٦١.

تخلى فورد عن نائبه الوفي والوسطي وتخلّص من كل أعضاء إدارته المعتدلين، وروّج، من جهة أخرى، تابع نيكسون اللاأخلاقي. وشكل هذا الإجراء محاولةً أخيرةً لتنفيذ الحلين. ولكن لم يكن مضمونًا ما إذا كانت هذه المحاولة ستجعله مرشح الحزب، فكيف ستنقذ رئاسته في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦ .

وتجدر الإشارة إلى أنّ فورد قد انتُخب ثلاث عشرة مرة في الكونغرس، إلا أنه، ويا للدهشة، لم يشارك في أي انتخابات أكثر من انتخابات عن مقعد الكونغرس لمقاطعة غراند رابيدز. فسلّم بصعوبة الأمر قائلاً: «وجدت نفسي فجأة في بُعد آخر، فلم أكن أفهم الفرق الشاسع بين الترشح في مقاطعتي والترشح لمنصب الرئيس».[١] وشكل هذا اعترافًا خطيرًا.

وأظهر فورد ضعفاً كبيراً لدى تصديه للهجوم المستمر من قبل الجناح اليميني وخصوصًا عندما جابه ادعاءات ريغان الوقحة التي لا تنسى. في الواقع، استقال مدير حملة الرئيس، ولم يكن بديله يوحي كثيرًا بالثقة عندما أعلن أن عمله يقضي باستكمال عمل سلفه «بدل إعادة ترتيب الأمور الشائكة». [٢]

وعلى صعيد آخر، صرح الرئيس فورد سرًا أن انتقادات ريغان اللاذعة لرئاسته هي عبارة عن «هجوم غوغائي، وقد كرهته».[٣] ومع أن معارضي ريغان بالكاد وصل عددهم إلى مئة مندوب في خلال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري، لكن كان واضحاً أنّ ريغان، في مختلف الأحوال، كان يقود ثورةً محافظةً ضخمةً ضد سياسات فورد المعتدلة. وكما جاء على لسان جون ج. رودس «عمدت جماعة ريغان إلى بذل قصارى جهدها في سبيل إحراج الرئيس فورد» خصوصًا عندما أصرت عليه لتغيير سياسته الخارجية عبر التصويت على بيان جديد عنوانه «الصواب والخطأ في السياسة الخارجية». وهكذا، أصرّ ريغان على شن حملة جديدة معادية للشيوعية معتبرًا نفسه قائد الحملة، وذلك بدلاً من السعي من أجل تحقيق انفراج في العلاقات مع روسيا وتشجيع الأنظمة الشيوعية تدريجًا على التحرر.

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٨.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣١٦.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٢٣.

وفي نهاية المطاف، فاز فورد الرجل المحترم والمحبوب نظرًا إلى نزاهته التامة بترشيح الحزب في خلال المؤتمر القومي في التاسع عشر من آب/أغسطس ١٩٧٦، حاصدًا مئة وسبعة عشر صوتًا. فكتب رئيس المؤتمر في هذا الصدد «بذلك، انتهى أحد أكثر فصول مسيرتي السياسية توترًا وسلبيةً». إلا أن الفصل التالي كان أصعب بكثير مما سبقه.

في المقابل، رفض ريغان وأتباعه دعم حملة فورد (وفي معظم الأحيان، حتى أن يصوّتوا للرجل الذي كانوا يسخرون منه واصفينه «بالرئيس الأبله»). وبالتالي، قاد الرئيس حزباً منقسماً على نحو مُهلك. من ناحية أخرى، كان بإمكان الرئيس أن يتباهى، وهذا ما فعله في الواقع، على غرار أيزنهاور، بإنجازات عديدة. فهو قد وضع حدًا لحرب خارجية وجعل الأمة تعيش بسلام، وتوصل إلى انفراج أدى إلى استقرار ملحوظ في الحرب الباردة التي كانت تشكل خطرًا كبيرًا. كذلك، تغلّب الرئيس على حالة الكساد المقترن بحالة تضخم (بحيث انخفض التضخم إلى النصف، وتراجعت مستويات البطالة) وأصبحت كل المؤشرات الاقتصادية إيجابية. وعلى الرغم من كل ذلك، أنذرت هزيمة الرئيس القريبة في انتخابات الحزب على يد عقائدي حازم من اليمين بما هو أكثر من مجرّد شرخ داخل الحزب الجمهوري. ففي مجتمع منقاد وراء الشخصيات البارزة حيث وسائل الإعلام والدعاية الحديثة تؤدي دورًا متناميًا، سلّط هذا الشرخ الضوء على تزايد أهمية دور العلاقات العامة في عصر السياسة الحديث. وفي هذا الخصوص، كان الرئيس متأخرًا جدًا، فلم يكن يتمتع لا بالقدرة على التمثيل ولا بالحضور الصارخ على شاشات التلفاز. ومن دون هاتين الميزتين، ومهما بذل فريق الرئيس من جهود، لن يتمكن من التقديم إلى الشعب حضورًا فعالاً. وهكذا، طُرد روجرز مورتن، ثاني مدير لحملة الرئيس فورد. فتولى شخص ثالث هذه المسؤولية، فيما كان فورد الذي تأذى كثيرًا من حملات ريغان السابقة، يواجه جيمي كارتر، حاكم جورجيا السابق، وهو مرشح الحزب الديمقراطي الذي يتمتع بجاذبية كبيرة.

كان أمام فورد شهران قبل انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر، وكان يعوّل على

ثلاث مناظرات ستُنقل عبر التلفاز في وقت الذروة، وتعد هذه الخطوة الأولى منذ مناظرات كينيدي ونيكسون التي جرت منذ ستة عشر عامًا. حقق نجاحاً في المناظرة الأولى حول السياسة الداخلية، بيد أنه تعثّر في المناظرة الثانية. وفي دفاع فورد عن اتفاقيات هلسنكي، خالف نقد كارتر الذي يعد سياسة الانفراج نوعًا من الاسترضاء. فدافع الرئيس عن سياسته معلنًا أنه «ما من هيمنة سوفياتية في شرق أوروبا، ولن يكون هناك أي وجود لهذا النوع من الهيمنة في ظل إدارتي».

فرك سبعة وخمسون مشاهداً عيونهم غير مصدقين عندما سمعوا الرئيس يقول ما من هيمنة سوفياتية في شرق أوروبا. وتابع فورد ليصب الزيت على النار عندما زعم أنّ اليوغوسلافيين والرومانيين والبولنديين «لا يرون أن بلدانهم خاضعة للاتحاد السوفياتي». وفي محاولة منه لتفسير مقصده لفت إلى أن «كلاً من هذه الدول تتمتع بالاستقلال والحكم الذاتي والسيادة على أراضيها. ولا ترى الولايات المتحدة أنّ هذه الدول خاضعة لسيطرة الاتحاد السوفياتي».

فاستفاد كارتر من هذه الهفوة وردّ على فورد قائلاً إنه يرغب في أن يرى «السيد الرئيس يُقنع الأميركيين من أصل بولندي وتشيكي وهنغاري» بأنّ دولهم ليست «تحت نير هيمنة الاتحاد السوفياتي وإشرافه خلف الستار الحديدي».

فحاول الرئيس رأب الصدع في ما بعد إلا أنه فشل لأنه تمسّك برأيه ولم يتراجع عن خطئه. وبالتالي، كان لتشبثه برأيه تداعيات مشؤومة، خصوصًا عندما ارتكب السيناتور روبرت دول مرشحه لمنصب نائب الرئيس زلةً أخرى. في الواقع، وفي خلال المناظرة الوحيدة التي شارك فيها، انتقد الديمقراطيين بشكل لاذع، معتبرًا أنهم جميعًا مسؤولون عن كل الحروب الأميركية التي اندلعت في القرن العشرين والتي أسفرت عن مقتل ١/٦ مليون أميركي،» وهو عدد يكفي لملء مدينة ديترويت» حسبما جاء على لسان دول الذي كان يُعرف بلسانه اللاذع. إنّ هذا القدح المتعمّد لم يرق المواطنين المحبين لوطنهم من كلا الحزبين. وكانت هذه حماقة ما كان نائب الرئيس روكفلر ليرتكبها لو أبقاه فورد. وبالإضافة إلى أنّ دول خسر المناظرة أمام

والتر مونديل فقط هبطت ثقة المعتدلين بالبطاقة الانتخابية الجمهورية أيضاً، تبعًا لحملة انتخابية أدت إلى الانقسام داخل الحزب.

وحتى مخطط فورد الإستراتيجي الأساسي قال له في مكتب الرئيس الرسمي: «سيدي الرئيس، أنت سيىء جدًّا كمرشح سياسي».[1] وعلى الرعم من ذلك، وبالمقارنة باستطلاعات الرأي المأخوذة في الصيف في خلال مؤتمرات الحزب، كان أداء فورد جيدًا بشكل ملحوظ في تحسين نسبة التأييد له بحلول نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر، فأحرز التعادل ووضع حدًا لتقدم كارتر غير الخبير بنسبة عشرين نقطة في غضون ثمانية أسابيع. فاقتنع فورد أن بإمكانه سبق خصمه.

إلا أنّ عودة الرئيس إلى الحكم كانت مجرّد سراب، فقد كان الإقبال على التصويت ضعيفًا جدًا، بحيث توجّه في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦ خمسة وأربعون في المئة فقط من الناخبين إلى صناديق الاقتراع وهي أدنى نسبة منذ ثمان وعشرين سنة. استمر الفرز حتى ساعات الصباح الأولى. فعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كان ديك تشيني، رئيس قطاع الرئيس لا يزال يحسب الأصوات معتبرًا أنه مع هاواي وكاليفورنيا وإيلينوي وأوهايو يمكن أن يصل التصويت لمصلحة الرئيس بالكاد إلى مئتين وسبعين صوتًا. فوجىء الصحافيون ونظر بعضهم إلى بعض قائلين «هاواي!»

في النهاية عند الساعة التاسعة من صباح يوم الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦، نقل تشيني الخبر المشؤوم وهو أنّ كارتر فاز لكونه حصد مئتين وسبعة وتسعين صوتًا انتخابيًا مقابل مئتين وأربعين صوتًا لفورد. ما يعني أنه فوز لا بأس به بالنسبة إلى مزارع الفستق السابق من بلاينز جورجيا.[2] فاستاء الرئيس كثيرًا.

بقي الرئيس فورد في البيت الأبيض شهرين ونصف الشهر إلى حين نهاية ولايته ولكنه كان حزينًا جدًا لدرجة أنّ الصحف كتبت عن «كآبة جيري فورد».

(١) كتاب The Presidency of Gerald R. Ford للكاتب غرين Greene، ص. ١٧٧.

(٢) فاز كارتر بـ٤٠,٨٣ مليون صوت في الانتخابات فيما حصل فورد على ٣٩,١٤ مليون صوت.

وفي العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٧٧، توجّه الرئيس الأميركي الوحيد الذي لم يُنتخب على متن طائرة تابعة للقوات الجوية الأميركية[١] ٢٦٠٠ إلى رانشو ميراج وهو المنزل التقاعدي الذي اشتراه في صحراء كاليفورنيا بالقرب من بالم سبرينغز.[٢]

خدم فورد ثمانمئة وستة عشر يومًا في البيت الأبيض وهي أقصر مدة رئاسة أميركية في القرن العشرين.[٣]

الجزء الثالث: الحياة الشخصية

كبر جيرالد فورد في منزل ومجتمع مستقيمين في غراند رابيدز في كنف والدته الصارمة جدًّا في انتقاداتها في حال خيّب آمالها بصفتها عضوًا متديّنًا في كنيسة أسقفية، وزوج أمّه المتديّن والمتعلّق بمبادئه الذي يعمل بجد ولكن يعاني ضائقة مالية. وقد عرف فورد الذي كان يهتمّ بإخوانه الثلاثة غير الأشقاء الذين هم أصغر منه سنًّا أنّ عليه العمل من أجل تحقيق أي أمر يرغب فيه.

كما عانى فورد لفترة من الوقت بسبب تلعثمه. وكان يعمل وهو في الخامسة عشرة من عمره في مطعم محلّي في غراند رابيدز، يغسل الصحون ويحضّر الهمبرغر عندما دخل رجل وبعد أن حدّق إليه لمدّة عشرين دقيقة، قدّم نفسه قائلاً: «أنا ليسلي كينغ، والدك. هل أستطيع أن أصطحبك لتناول الغداء؟»[٤]

لم يكن كينغ هو الذي يدفع يومًا مبلغ خمسين إلى خمسة وسبعين دولارًا في

---

(١) كان يُستخدم اسم سلاح الجو واحد أو الاسم السري Angel عندما يكون الرئيس على متن الطائرة. أما اسم سلاح الجو ٢٦٠٠ فكان يستخدم في كل الحالات الأخرى.

(٢) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ٦٢.

(٣) خدم فورد في المجموع ٨٩٦ يومًا إلى أن تولى كارتر الرئاسة. فيما مات (أو اغتيل) رؤساء القرن التاسع عشر، وليم هاريسون وزاشاري تايلور وجيمس جارفيلد، خلال ولايتهم بعد أن خدموا لمدة أقصر من كارتر

(٤) كتاب A Time to Heal للرئيس فورد، ص. ٤٦.

الشهر الذي يفترض أن يدفعه للمساهمة في إعالة الولد. بيد أنه أعطاه خمسة وعشرين دولارًا نقدًا، واصطحبه لتناول الغداء في مكان آخر. كما أنَه قدّم له زوجته الثانية. ومن ثمّ، صعد في سيارة لينكولن جديدة – وليس سيارة فورد – وقادها عائداً إلى المنزل في وايومنغ. وفي تلك الليلة، بعد أن أخبر فورد أهله راح يبكي. ولم يرَ والده البيولوجي قط بعد ذلك.

لقد كان فورد حادّ الطبع، ولكن والدته علّمته أن يسيطر عليه عبر إرساله إلى غرفته، سامحة له بالخروج فقط حين يصبح جاهزًا «لأناقش منطق الخطأ الذي ارتكبته».[1] كما زرع فيه والداه «أهميّة الصدق».[2] وعلى غير عادة كان أعسر وهو جالس، ولكنّه يعتمد على اليمنى عندما يقف. فبالتالي كان فورد يكتب بيده اليسرى ولكنّه يرمي الطابة بيده اليمنى. كما سمحت له ملامحه الوسيمة وأداؤه الرياضي الذي يوازي أداء النجوم إضافة إلى استعداده للعمل بجدّ سواء في الملعب أو في دراسته، أن يدخل أخيرًا كليّة الحقوق في جامعة يال في نيو هيفن، مع سايروس فانس وسارجنت شريفر. وجعلته أيضًا يقع بين ذراعي فيليس براون التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وهي نحيفة وشقراء وتتمتّع بجمال مذهل كما أنها كانت ترتاد جامعة ولاية كونيكتيكت للإناث القريبة.

فقال فورد لاحقًا في هذا السياق: «غرقت في حبّها للمرّة الأولى في حياتي»، وسرعان ما أصبح الاثنان ثنائيًا.[3] وسرعان ما تخلّت فيليس الفاتنة عن دراستها وانتقلت إلى نيويورك كعارضة أزياء في دار باورز، وغالبًا ما كانت تظهر على غلاف مجلّتي كوزموبوليتان ولوك. وحتّى أن حبيبها، طالب الحقوق الوسيم ومدرّب كرة القدم في الكلية ظهر إلى جانبها في خمس صفحات مصوّرة في مجلّة لوك في العام ١٩٤٠، تحت عنوان «فتاة من نيويورك وحبيبها من جامعة يال يمضيان عطلة رائعة بالتزلج» في ستو، فرمونت. وكُتب تحت إحدى الصور «بعد عشاء مثير في الفندق، تسكّعا وغنّيا وشربا البيرة ورقصا وتكلّما عن التزلج، ومن ثم ذهبا إلى السرير».

(١) المصدر السابق، ص. ٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٤.
(٣) المصدر السابق، ص. ٥٥.

وقد استثمر فورد من راتب التدريب في يال مبلغ ألف دولار في دار الأزياء التي أسستها فيليس. وقد حوّلت «علاقة الحب المتأجّجة كما أسماها التي دامت أربع سنوات»، رجل وسط الغرب الأميركي المنغلق على نفسه إلى زير نساء على طريقة رجال نيويورك، بحيث كان الثنائي يحتسي النبيذ ويتناول العشاء ويلعب الورق ويحضر المسرح ويتزلّج على غرار أي ثنائي من نيويورك.[1] كان فورد مغرمًا أكثر من فيليس، وعلى الرّغم من «أننا تحدثنا عن الزواج بعد حصولي على شهادة الحقوق وإيجاد عمل محترم»، لم يتزوّجا.[2] وقد عُرض على فورد عمل في مكتب محاماة في نيويورك، ولكنّه شعر أن هذا العمل بعيد المنال وهو مشتاق إلى العودة إلى غراند رابيدز. وتذكّر أنّ مهنة «فيليس» لعرض الأزياء كانت تزدهر في نيويورك ولم تظنّ أنّها قادرة على ترك كل هذا. كما تذكّر أيضًا «الحزن» الذي سبّبه[3] انفصالهما. وتذكّر في شيخوخته أنها كانت «ذكيةً جدًّا وجميلة جدًّا وفتاة حقًّا رائعة». وقد كشف لأحد أصدقائه «أكلّمها مرة كلّ خمس سنوات أو أتصل بها في حال كنت في رينو». وضحك قائلاً: «لكنّني لا أطلب إليها المجيء إلى غرفتي في الفندق»، قال هذا مثل «العاشق المتيّم الذي كنت عليه في السابق».[4]

وعلى الرغم من أنّ إخوانه الثلاثة غير الأشقاء الذين يصغرونه سنًّا قد تزوّجوا وانتقلوا، كان فورد لا يزال يعيش مع والديه. فشجعاه بعد الحرب العالمية الثانية على مواعدة بيتي آن بلوم وارن المطلّقة والجميلة والراقصة وعارضة الأزياء السابقة التي كانت تعمل منسّقة موضة في متجر في غراند رابيدز. وفي هذا الإطار، اعترف فورد صراحة «في البداية» «لم يفكّر أحد منّا أنّ العلاقة كانت جدّية» ولكن مع الوقت اكتشفا انسجامهما. وعقدا خطبتهما وإن شرح فورد أنّه يحتفظ بسرّ لم يستطع كشفه لها طوال ستّة أشهر أخرى.

(١) المصدر السابق، ص. ٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص. ٥٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ١٨١.

وقد قال يومًا دوق ويلينغتون، الذي لم يصبح قائدًا عسكريًا ميدانيًا عظيمًا فحسب، ولكن أيضًا رئيس وزراء بريطانيا المتميّز إن الفوز في معركة واترلو قد تم على ملاعب مدرسته القديمة، إيتون. وبالتالي آمن جيرالد فورد أنّ الرياضة التنافسية لم تهيئه للقتال فحسب، بل بفضل شغفه القوي، هيأته للسياسة أيضًا. وقد أعلن في ما بعد «كلاعب كرة قدم تواجه انتقادات من الموجودين على مقاعد الملعب ومن الصحافة، وكلّهم أشخاص متعنتون يظنّون أنّهم يعلمون كلّ شيء. فقد ساعدتني تعليقاتهم على تطوير آلية دفاع عن نفسي، وفي السنوات التالية كلّما كانت الانتقادات تنهال عليّ كنت أُدير لها ظهري».[1]

وأمّا سرّ فورد فكان أنّه سيخوض الانتخابات كمرشّح الكونغرس الجمهوري ولكنّه «لم يكن واثقًا بردة فعل النّاخبين في ما يتعلّق بزواجه براقصة سابقة مطلّقة».[2] ولم تمتعض بيتي أو تتردّد (على الرّغم من أنّ زواجها كان سيكلّفها صحّتها، وإلى حد ما سعادتها). وحين وصل فورد إلى المذبح يوم زفافه في ١٥ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٤٠ كان حذاؤه لا يزال ملطّخًا بالوحل. وسيم ومحترم ويمكن الاعتماد عليه، فقد جعل من عودته إلى المنزل كلّ يوم أحد قاعدة، على الرّغم من أنّه كان دائمًا «جاهزًا» لاستقبال أبناء دائرته الانتخابية الذين أتوا ليكرّموه. (وقد فوجيء مزارع محلّي عندما رأى فورد، الذي وعده بأن يحلب له الأبقار لمدّة أسبوعين في حال ربح الانتخابات، يصل عند الساعة ٤:٣٠ صباحًا ليفي بما وعد به بعد فوزه). ولكن بالنّسبة إلى بيتي كان الزواج ليوم واحد في الأسبوع، وهي تربّي أولادهم الأربعة، قاسيًا، ويفسّر جزئيًا إدمانها المسكّنات، بعد أن سبب لها ضغطاً على العصب بألم متواصل.

وقد وجد فورد نفسه بطريقته اللطيفة والمخلصة راضيًا أكثر ممّا حلم به يومًا، ولكن بيتي لم تكن كذلك. وفي منتصف الستينيات كانت بيتي تمزج المسكّنات والكحول وعانت «انهياراً» بحسب تعبيرها، وهي تخرج من منزلها غير متيقنة إن

---

(١) كتاب A Time to Heal للرئيس فورد، ص. ٥٢.

(٢) مقالة «The 38th First Lady: Not a Robot at All» للكاتبة جاين هوارد Jane Howard، من صحيفة New York Times عدد ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤.

كانت ستعود، كواحدة من مجموعة الزوجات والأمهات الصامتات غير الراضيات «لا يفكِّرن ولا يهمهنّ أنفسهنّ».[1]

وقد كتبت في ما بعد، «جيري الذي كان دائمًا مساندًا، لام نفسه على بؤسي. وقد اعترف مرةً لصحافي أنّه بسبب جدول أعماله كان علي أن أؤدي دور الأم والأب مع الأولاد».[2] وعانت التهاب البانكرياس، ولكن قد «أزهرت حين أصبح فورد رئيسًا. لم يعد فورد يتغيب كثيرًا، وقد أصبحت شخصًا مهمًا، فأنا السيدة الأولى».[3]

ولسوء الحظ، لقد تبيّن في خلال فحص روتيني أن بيتي، السيدة الأولى تعاني سرطان الثدي، ما سبب انزعاجاً للرئيس فسر جزئيًا شرود ذهن فورد في خضمَ كارثة منح نيكسون العفو. أراد فورد استئصال مشكلة نيكسون بأسرع وقت ممكن على غرار السرطان. واستعادت بيتي عافيتها بعد الجراحة، ولكن بالتأكيد أرخت الكحول لسانها حين قامت بما أصبح في ما بعد المقابلة الشهيرة مع مرلي سايفر في برنامج «ستون دقيقة» الذي بثّته محطّة سي بي سي في ١٠ آب/أغسطس ١٩٧٥. ووصفت في خلالها قرار المحكمة العليا في العام ١٩٧٣ جعل الإجهاض قانونيًا، في قضية رو ضدّ وايد، كأفضل أمر في العالم ... وعدته قرارًا عظيمًا جدًا. واعترفت أنها ربما كانت جربت الماريغوانا عندما كانت شابة لو كان تعاطيها شائعًا. كما افترضت أنّه يُحتمل أن يكون أولادها جميعًا قد «جرّبوا الماريغوانا» بما أنّ « الشباب يتمتّعون الآن بحرية كاملة». ولكن الفضيحة الكبرى التي قد تسبّبت بصدمة جاءت في التقرير الذي نشرته صحيفة نيويورك تايمز في اليوم التالي تحت عنوان «بيتي فورد قد تتقبّل أن تقوم ابنتها بعلاقة غرامية». وحين سُئلت ماذا ستكون ردّة فعلها لو كشفت لها ابنتها سوزان التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها أنّها على علاقة غرامية، أجابت السيدة الأولى: «حسنًا، لن أفاجأ، فهي كائن بشري طبيعي تمامًا مثل جميع الشابات».

(١) كتاب Betty: A Glad Awakening لبيتي فورد Betty Ford (دار نشر Doubleday في نيويورك، ١٩٨٧)، ص. ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص.٣٢.

وردّ الصحافي الذي يجري المقابلة مندهشًا «إنها أصغر من أن تبدأ بإقامة العلاقات». في المقابل لم تحاول السيدة الأولى تصحيح الوضع بل ردت بيتي بفخر «نعم، هي طفلة كبيرة، فقد أشرت بصفة عامة إلى أنها علاقات قبل الزواج مع الشريك المناسب يمكن أن تخفض من نسبة الطلاق». وفي ما بعد سألها الصحافي عن «الضغوط التي تعيشها المرأة في واشنطن»، فأجابت السيدة الأولى معترفةً بأنها عديدة «يعتمد الأمر على العائلة وعلى طبع الزوج، أكان متسكعًا أو بيتوتيًا».[١]

وقد كانت المرة الأولى التي تتكلم فيها السيدة الأولى بصراحة عبر التلفزيون الوطني، ما خلق حالة توتر كبير لدى الأشخاص الفاضلين في الحزبين. وفي دالاس أعلن قس أكبر طائفة معمدانية جنوبية في العالم في خلال مؤتمر صحفي أنه كان «مرتعبًا». فقد استنكر قائلاً: « لا يمكنني أن أتصوّر أنّ سيدة هذا البلد الأولى نزلت إلى هذا النوع من العقلية الهزيلة، لا يمكن أن أتصوّر أنها تقبل أن تنخرط ابنتها في هذا النوع من العلاقات الجنسية غير الشرعية. ابنتها هي!»[٢] غرقت محطة سي بي أس بأكبر عدد من الرسائل التي سبق أن عرفه أي بث تلفزيوني. إضافة إلى ذلك تجمّعت التظاهرات أمام البيت الأبيض. وبعد مشاهدة الرئيس البرنامج، تنهّد وهو ينفخ في غليونه ذي الماركة المعروفة معلقًا «حسنًا يا عزيزتي لقد خسرنا حوالى عشرين مليون صوت ولكن لا بأس».[٣]

وبعد ذلك بأسبوع، شوهدت السيدة الأولى ضاحكة وهي في إجازة في فيل في كولورادو وهي تقول: «لم يطردني من البيت، ولكنه رمى وسادةً في وجهي.»[٤]

وصف ناشر صحيفة يونين ليدر مانشستر اليميني المتطرف بيتي بأنها «غبية» و«فاسقة». بمرور الأيام، وجد منظمو الاستفتاءات أنّ خمسة وسبعين في المئة من

(١) مقالة «The 38th First Lady: Not a Robot at All» للكاتبة هوارد Howard.

(٢) مقالة «A Family Affair» بقلم ساندرا سالمانز Sandra Salmans وتوماس ديفرنك Thomas DeFrank من مجلة Newsweek عدد ٢٥ آب/أغسطس ١٩٧٥.

(٣) إذاعة سي بي أس في ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧.

(٤) مقالة «A Family Affair» بقلم سالمانز Salmans وديفرنك DeFrank.

الذين شاركوا في الاستفتاء يدعمون حق السيدة الأولى بالتعبير عن رأيها بصراحة وأن يكون لها رأيها المستقل، كما يدعمون موقفها المؤيد للإجهاض وممارسة الجنس قبل الزواج وتعاطي المخدرات الخفيفة على الرغم من أنه يثير غضب الأصوليين المسيحيين والمحافظين الجمهوريين المتصلبين. وكان الرئيس أيضًا يرى ذلك. وعقبها، أعلن الملحق الصحافي الخاص بالبيت الأبيض «كف الرئيس منذ عهد بعيد عن القلق أو الاندهاش من تصريحات زوجته».(١)

وقد ذكّر ذلك الناخبين بإليانور روزفلت. وإن لم تكن بيتي من مناصري حقوق المرأة، إلا أنها أصبحت بين ليلة وضحاها رمز النسوية، «أفضل أنواع النساء المتحررات» فحتى أنّ بيتي فريدان حيّت السيدة الأولى.(٢)

ومع ذلك، لم يتمكن بعضهم الآخر من تأييد ذلك ولم يكونوا سعداء به. وقد ذكر فورد في مذكراته أنّ جزءاً من تحدي ريغان في الانتخابات الأولية في الحزب الجمهوري أثير من خلال المقابلة التي عُرضت على شاشة سي بي أس، التي أدت، من دون شك، إلى حشد دعم الفاضلين الغاضبين له.

وبمسامحة صراحة بيتي علنًا، أثبت الرئيس فورد حبه ووفاءه واحترامه الحقيقي لزوجته. بيد أنه لسوء الحظ كان يسمح لها بارتكاب أخطاء أخرى كتناول الكحول. وكذلك، أدّت هزيمة فورد في الانتخابات الرئاسية في العام ١٩٧٦ وانتقاله إلى كاليفورنيا إلى إدمان بيتي الكحول أكثر فأكثر وانخراطها في دوامة من الثمل ما انتهت حتى واجهتها العائلة برمتها في العام ١٩٧٨. ولحسن حظها واجهت الحقيقة في ما بعد واعترفت بأنها أصبحت مدمنة كحول حتى في البيت الأبيض قائلة: «لأنني كنت غائبة الذهن سواء تم تقديم الكحول أم لا». بدأت تتابع عملية التأهيل وأصبحت المتحدثة الأبرز عن العلاج من إدمان الكحول والأدوية المخدّرة في الولايات المتحدة في القرن العشرين لكونها رئيسة مركز بيتي فورد.

(١) مقالة «The 38th First Lady: Not a Robot at All» للكاتبة هوارد Howard.

(٢) مقالة «A Family Affair» بقلم سالمانز Salmans وديفرنك DeFrank.

كرّس الرئيسان الصادقان والشجاعان حياتهما للعيش معاً، وأمضيا تقاعدهما في رانشو ميراج في كواتشيلا فالي التي تبعد عشرة أميال عن مدينة بالم سبرينغز في كاليفورنيا. وفي أحد الأيام ظهرت فيليس براون وسألتها إن كان من الممكن أن تقوم بزيارة سريعة لحبها القديم، وقد سجّل صديق فورد قائلاً: «كان الجواب كلا. فهما لم يتحدثا من جديد ولكنه كان ممزقًا من دون شك. فقد كانت الأيام التي أمضاها مع فيليس براون من أجمل ذكرياته. وقد استذكر فورد «لم تحبّ بيتي فورد يومًا تلك الفتاة الوقحة» تلك التي « تزوجت سابقاً ثلاث مرات أو حتى أربع مرات». وقد أشار توماس ديفرانك «فكان من المستحيل على فورد، أكثر الرجال نزاهةً، أن يقابلها من دون أن يعلم بيتي بذلك، فبعد ما يقارب ستين عامًا من السعادة الزوجية، لم يكن مستعدًا أن يخاطر بجرح مشاعر حب حياته الوحيد، أي المرأة التي وصفها قبل أسابيع قليلة من وفاته «بأعظم نعمة في حياتي»».[١]

وقد أصبح فورد، الذي كان سابقاً مؤيدًا للانعزالية، أكثر القياصرة الأميركيين تواضعًا والأقل طموحًا والأكثر اعتدالاً وتسامحًا. كما تمكّن من تثبيت سلوك السلطة الأميركية في العالم، مطمئنًا حلفاءه وموجدًا أرضيةً مشتركة مع خصومه، وقد كان ذلك إنجازًا لا يستهان به في تاريخ الإمبراطورية. وفي السادس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، تعرّض المحارب القديم الذي حصد العديد من الأوسمة في خلال الحرب العالمية الثانية لجلطة قلبية قاتلة. كان يبلغ ثلاثة وتسعين عامًا، وهو أكبر رجل شغل منصب رئاسة الولايات المتحدة ووري في ساحة متحفه في غراند رابيدز.

(١) كتاب Write It When I'm Gone للكاتب والصحفي ديفرنك DeFrank، ص. ١٨١-١٨٢.

الفصل الثامن

جيمي كارتر

انتُقد في البداية واحتُرم في النهاية

مهزلة الجميع بدايةً ومحط احترامهم لاحقًا

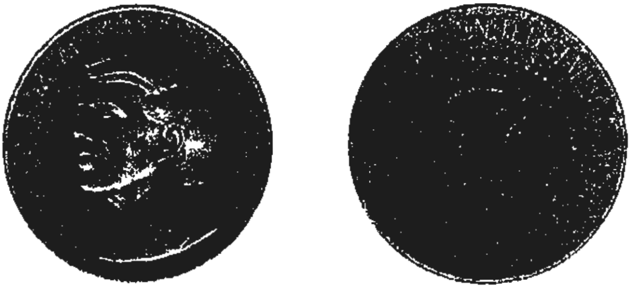

ديمقراطي

الرئيس الثالث والتسعون

(من العشرين من شباط/فبراير ١٩٧٧ إلى العشرين من شباط/فبراير ١٩٨١)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد جايمس أيرل كارتر الابن، المسمّى على اسم والده، جايمس أيرل كارتر الأب، في الأول من تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٤ في قرية بلاينز التي تبعد مئة وعشرين كيلومترًا عن جنوب سافانا في ولاية جورجيا. وكتب كارتر لاحقًا «كان يسوع المسيح وحتى موسى قد شعرا بالراحة في مزرعة تقع في قلب الجنوب في خلال الربع الأول من القرن»، فهو يرى أن الحياة في جورجيا الريفية بدون المكننة حياة بدائية.[١] ومثلما بنى والدا ريتشارد نيكسون منزل العائلة في يوربا ليندا من قائمة معروضات سيرز روباك، كذلك فعل والدا كارتر فباعا منزلهما الأول مقابل منزل شبيه بمنزل نيكسون من قائمة معروضات سيرز روباك أيضًا في أرشيري المجاورة لبلاينز.

لم يكن جايمس أيرل كارتر الأب طويل القامة (٥,٨ أقدام) بيد أنه قوي البنية وكان ملازمًا في سلك الكوارتر ماستر في الحرب العالمية الأولى. كان يتمتّع بما يسمّيه الجيران «لمسة الملك ميداس» الذي كان يحوّل أي شيء يلمسه إلى ذهب، بدءًا بالأعمال ووصولًا إلى الزراعة فالأملاك. كان يمزج الصرامة في أثناء العمل – خصوصاً في ما يتعلق بالدقة ـ مع المتعة خارج العمل وكان يحب لعب القمار أيام الجمعة بعيدًا عن المنزل، حسبما تذكرت والدة كارتر، كما أنه كان صاخبًا يوم السبت في نادي إلكس الليلي حيث كان يرقص مع غالبية النساء الجميلات.[٢]

كان جيمي كارتر، الابن البكر من أصل أربعة أطفال لجايمس أيرل كارتر الأب يعد والده مثاليًا. وعلى الرغم من أنّ والد جيمي كان يحب ابنه، إلا أنه لم يكن يعده

---

(١) كتاب An Hour Before Daylight لجيمي كارتر Jimmy Carter صفحة ٢٦ .

(٢) المصدر السابق، ص. ١٢١

مثاليًا، وأعطاه بسخرية لقب «الشخصية المهمة»، وكان هذا اللقب يصف تمامًا كارتر وحبه لنفسه الذي طوّره في سن مبكرة. استمر هذا اللقب مع كارتر من خلال مرحلة الجامعة وبعدها.

كان صاحب «الشخصية المهمة» يبلغ ٥,٣ أقدام ويزن مئة وواحد وعشرين باوندًا حين غادر المدرسة الثانوية. ومع ذلك، كان كارتر مصمّمًا على مغادرة جورجيا والانضمام إلى البحرية الأميركية مع أنه لم يرَ البحر أو يسبح فيه من قبل. عمل والده سنتين مع عضو الكونغرس المحلي ليدعم طلب جيمي لارتياد الأكاديمية البحرية في أنابوليس. بعد أن ارتاد الجامعة في أرشيري مدة سنة، ثم دخل معهد جورجيا للتكنولوجيا لسنة أخرى ليدرس الهندسة ومواد أخرى قد يحتاج إليها، دخل كارتر أنابوليس. عندئذٍ، أي في صيف ١٩٤٣، كانت أميركا تخوض الحرب لسنتين تقريبًا وكان قد بلغ طول صاحب «الشخصية المهمة» ٥,٩ أقدام، وكان ذا شفتين ثخينتين وفم كبير بالإضافة إلى ابتسامة دائمة وشعر أشقر كحقل الذرة وكثيف، أما وزنه فكان لا يزال أقل من مئة وثلاثين باوندًا.

كانت ثقة كارتر بنفسه مذهلة، خصوصًا بالنسبة إلى ابن مزارع الفول السوداني الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره ولم يرَ الشرق من قبل. وهو شاب ولد في عائلة لم تكمل دراستها في المدرسة ناهيك بدراستها الجامعية. لا شك بأن ذلك الأمر أغضب رؤساءه ما أدى إلى جعله يقوم بالأعمال الصعبة والشاقة فيما حاولوا تذكيره «بمكانته» ومحو الابتسامة عن وجهه.

لم تنجح سياسة الأعمال الشاقة لأنّ كارتر واجه ظروفاً مماثلة لسنوات طويلة، وبعضها كان يمكن أن يكون مميتًا. فعلى سبيل المثال عندما كان في السادسة عشرة من عمره، تم الاعتداء عليه جسديًا لأنه أصرّ على أنّ أحد المزارعين لم يحصل على الدفعة المنتظرة من الحكومة للمحافظة على الأرض، عندما كان يعمل بدوام جزئي كمراقب لزراعة المحاصيل في إدارة تحسين الزراعة التابعة للحكومة. وادعى كارتر في وقت لاحق «لقد كنت دقيقًا في عملي» فخوراً بأنّ مشرف المنطقة دعم

طالب السنة الثانوية الأخيرة في حساباته. وبالنظر إلى أنّ جده كان قد قُتل في خلال «سوء تفاهم» مماثل (ملكية مكتب) فقد كان إصرار كارتر يُعد مغامرةً، حتى أنه هو شخصيًا اعترف أنه سرّ عندما جاء الموسم التالي وكان هو قد رحل ليدرس في الجامعة، فتفادى عقاب المزارع المظلوم.[1]

بالإضافة إلى ذلك، تثير قوة عزيمة كارتر الدهشة التي تدلّ على إصرار تام وعناد كبير على الرغم من صغر حجمه. ولكونه تعرّض مرات عديدة للضرب على يد والده، لم يمانع أسلوب الأعمال الشاقة في أنابوليس، ولم يكن يأخذ الموضوع بطريقة شخصية. إلا أنّ عدم قدرته على فهم وتغيير تأثير سلوكه الصحيح والصالح في الآخرين تحوّلت إلى نقطة ضعف بالنسبة إلى شخص يتمتع بهذا القدر من الموهبة.

تخرّجت دفعة أنابوليس السابعة والأربعون في العام ١٩٤٦، وكان قد سبق لكارتر أن خدم على متن السفينة الحربية يو أس أس نيويورك في مهمّة حراسة السواحل في العام ١٩٤٤، ثمّ على متن السفينة الحربية يو أس أس وايومينغ. وأخيرًا حين تخرّج مُنح منصبًا على متن السفينة الحربية المتضررة يو أس أس ميسيسيبي التي خدمت في خلال حرب المحيط الهادئ. ومع قرار ترومان إلقاء قنبلة ذريّة وإنهاء الحرب في المحيط الهادئ، توقّف استخدام جزء كبير من بقية الأسطول الأميركي مع المحافظة عليه. وأصبح كارتر بحسب تعبيره «أكثر من شعر بخيبة الأمل في البحرية والسلك العسكري بشكل عام».[2]

وبحسب زميل في الصف أصبح في ما بعد طبيبًا، وهو فرانسيس هرتزوغ، كان كارتر «وحيدًا» عاجزًا أو غير راغب في إقامة «صداقات حميمة». وبالعودة إلى الماضي رأى هرتزوغ أنّ هذا الأمر علامة قوّة وليس علامة ضعف. وعلى الرغم من نظرته العامة وسلوكه الإيجابيين، «لم يكن كارتر يحتاج» إلى الناس لدعم «حبه لذاته ولشخصيته، فقد كان يتمتّع بشخصية قوية جدًّا». في الواقع، أثبت كارتر في

(١) المصدر السابق، ص.٧١.

(٢) كتاب Jimmy Carter: A Character Portrait لبروس مازليش Bruce Mazlish وإروين دايموند Erwin Diamond ص. ١٠١.

أنابوليس قدرته القيادية البارزة والنادرة وفكره التحليلي الذي بقي مصرًا على تطبيقه عمليًا، تمامًا مثل والده. ولكن هل كانت البحرية الأميركية التي تمّ تقليص عددها بعد الحرب المكان المناسب أو هل كان ثمة منبر آخر أكثر تحديًا؟ وتأمّل د. هرتزوغ في وقت لاحق «مرّة في الألف سنة يأتي شخص يسيطر على تفكيرهم ويستفيد منه بقدر ما يستفيد من تفكيره.»[1]

وبموازاة ذلك، فكّر كارتر جديًا في الاستقالة من البحرية. ولكن لجنة طلاب سابقين حازوا منحة رودوس في جامعة أكسفورد رفضت طلبه للحصول على هذه المنحة في مقابلة الفرز النهائي. وادّعى كارتر في ما بعد أنّ هذا كان أوّل الفاشلين الكبيرين اللذين عرفهما في حياته قبل أن يصبح رئيسًا. وكالعادة، ألقى كارتر اللوم على اللجنة؛ ففي النهاية اشتكى من أنه أجاب بالكامل وبشكل صحيح «على كلّ سؤال قد يخطر في بالهم» من الأحداث الحالية إلى علم الفيزياء النووية. لم يقصد كارتر أكسفورد من قبل ولم يستطع أن يفهم كيف تمكن تلميذ أعلن أنه لم يعد يعرف شيئًا عن التاريخ بعد وفاة إليزابيث الأولى في العام ١٦٠٣ من النجاح في دخول الجامعة وهو يشعر أنّه في منزله وسط أبراج أكسفورد القديمة أكثر منه. ونتيجةً لهذا الرفض، قدّم كارتر طلبًا للانضمام إلى الخدمة على متن غواصة في البحرية الأميركية.

هذه المرّة نجح طلب كارتر من جميع النواحي. فبعد حفلة زفاف بسيطة من فتاة محلية من بلاينز في جورجيا وبعد تدريب على متن غواصة في لندن الجديدة في كونكتيكت، خدم الشاب في خلال جولات طويلة على متن الغواصة يو أس أس بومفرت من طراز بلو صُنعت منذ ثلاث سنوات تحمل ألف وخمسمئة طن وتعمل على الكهرباء والديزل. وقد قذفته إحدى العواصف ثلاثين قدمًا بعيدًا عن مركز القيادة، ولكن لحسن حظّه هبط بأعجوبة على سطح السفينة شاعرًا أنّ العناية الإلهية كانت إلى جانبه. وأعلن أنّه يستمتع بحياة العزلة في مكان ضيق تحت البحار، حيث

(١) كتاب Jimmy Carter لـ Mazlish و Diamond، ص. ١٠٠

حسّن مهاراته القيادية، أي ذكاءه الثاقب وثقته المطلقة بقدرته وسهولة تعاطيه مع فريق صغير من الزملاء والمرؤوسين والحفاظ في الوقت نفسه على موقعه الشخصي الثابت. وكان يهتمّ برجاله تمامًا مثل والده متبعًا الشعار الذي أُعطي له «اهتمّ بهم، فهم مهندسيّ» وطلب إليهم كذلك مثل والده (الذي كان لديه المئات من المزارعين المستأجرين الذين يعملون في أراضيه العديدة) أن يثقوا باحترافه مقابل ثقته بهم. ولقد عُيّن في ما بعد في منصب ضابط مهندس على الغواصة الجديدة يو أس أس كي ١ التي تعمل على الكهرباء وعلى الديزل والتي أُطلق عليها في ما بعد اسم باراكودا، وقد أُطلقت ووضعت في الخدمة في العام ١٩٥١، وبمرور الوقت أصبح الضابط التنفيذي «ومؤهلاً لقيادة الغواصة». وحين لم يُعيّن القيادة في السنة التالية، تقدّم بطلب ليخدم في البحرية الأميركية في مشروع ذي نظرة مستقبلية وهو الغواصات التي تعمل على الطّاقة النووية، الأمر الذي يتطلّب مقابلةً خاصّةً مع القبطان الأسطوري هايمن ريكفر، الذي يعد بشكل عام القائد الأكثر قساوةً في البحرية. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٢ قبله ريكفر.

ومجدّدًا، لم يبنِ الملازم كارتر صداقات ولكن كان الجميع يحترمه لقيامه بواجباته بمهنية عالية في بيئة تسعى إلى الكمال (كان ريكفر مشهورًا بالمقولة الآتية «لم ليس الأفضل؟»)، في الوقت الذي كانت البحرية الأميركية تسعى لتحديث أسطولها الموجود في مياه الحرب الباردة المتجمدة التي تتحوّل إلى حرب أكثر برودة.

أثبت ريكفر أنّه مشرف صارم، ولكنه يكافئ نخبة فريقه. وعُيّن كارتر في لجنة الطاقة الذرية الأميركية في نيويورك ومن ثمّ في واشنطن العاصمة، ليساعد على تطوير أول غواصتين تابعتين للبحرية الأميركية تعملان على الطاقة النووية، بعد أن بدء العمل على بناء يو أس أس نوتيلوس (وضع الرئيس ترومان صالب السفينة في حزيران/يونيو ١٩٥٢) ويو أس أس سي وولف وهي سفينة يبلغ طولها ثلاثمئة وسبعاً وثلاثين قدمًا وتضمّ على متنها ثلاثة عشر ضابطًا واثنين وتسعين جنديًا، أصبح الملازم كارتر في ما بعد كبير الضباط المهندسين.

وعندما وُضعت في الخدمة كسرت سي وولف الرقم القياسي العالمي في الغوص المتواصل إضافة إلى سرعة تفوق عشرين عقدة تحت الماء. ولكن الملازم كارتر لن يكون على متنها. في تموز/يوليو ١٩٥٣، استدعي إلى بلاينز في جورجيا حيث تمّ فجأةً تشخيص مرض والده وهو سرطان البنكرياس في مراحله الأخيرة وكان في الثامنة والخمسين من العمر، وتجدر الإشارة إلى أنّ والده كان قد عُيّن في مقعد نائب ديمقراطي متقاعد.

كان جيمي كارتر حاضرًا في الغرفة في بلاينز في الثالث والعشرين من تموز/يوليو ١٩٥٣ حين لفظ والده «أنفاسه الأخيرة».[١]

وفي هذا السياق، ذكر كارتر لاحقًا «كنت في قمّة النجاح بالنسبة إلى ضابط شاب في رتبتي»، واثقًا بأنّه يستطيع «بلوغ أعلى رتبة في البحرية».[٢] ولكن الإجازة العاطفية القصيرة التي قضاها إلى جانب والده وهو على فراش الموت طرحت السؤال المزعج ما إذا كان الله قد خبّأ له تحدّيًا مختلفًا أي بتعبير آخر إن عليه أن يستقيل من مهمّته وينقذ أعمال العائلة الزراعية التي تضمّ أكثر من خمسة آلاف فدّان من الأراضي والمحال والمنازل والمستودعات وغيرها من المباني التي أمر والده بتقسيمها لكي تباع بسهولة أكبر.

ومن جهة أخرى، كانت روزالين زوجة كارتر فخورةً بكونها زوجة ضابط بحري طموح يغطس إلى الأعماق، وفي الحقيقة لم يزورا بلاينز إلا نادرًا في خلال السبع سنوات والنصف الأخيرة. وبالتالي، «كان غضبها وصدمتها مفهومين» عندما أخبرها الملازم كارتر، بعد بضعة أيام، حين عاد إلى واشنطن أنّه قرّر الاستقالة من البحرية الأميركية والعودة إلى «مسقط رأسه».[٣] واعترف كارتر بعد حوالى الأربعين سنة

(١) كتاب An Hour Before Daylight لـ Carter، ص. ٧٥

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق.

قائلاً: «لقد كادت تتخلى عني».[١] وكما في القصص التوراتية لقد غضب شقيق جيمي كارتر الذي يبلغ السادسة عشرة من قرار شقيقه الأكبر العودة، واعترف بيلي في ما بعد[٢] «كنت أستشيط غضبًا». وكذلك، اشتعل النقيب ريكفر غضبًا بسبب خسارة أحد تلاميذه المختارين فيما كان هو يتخبّط في ذلك الوقت في صراع مرير ليصبح لواء في البحرية، وعد استقالة كارتر من مهمّته «خرقًا للولاء».[٣] وهكذا ثبت أن الانتقال إلى بلاينز أحدث صدمةً. وأعلنت روزالين زوجته قائلة: «أصبحت كئيبةً أكثر فأكثر، لم أكن أرغب في العيش في بلاينز. لقد غادرت ذلك المكان وانتقلت وتغيرت... وظننت أنّ أفضل جزء من حياتي قد انتهى.»[٤]

ولكنّ الحقيقة هي أنّ الجزء الأفضل قد بدأ. فقد كانت السيدة ليليان، والدة كارتر في منتهى السعادة. وقد أوضحت لاحقًا «كان عليه أن يعود، فكلّ ما نملك كان على المحكّ».[٥]

وعندما عاد كارتر إلى بلاينز وهو في التاسعة والعشرين من عمره فقط تبيّن أنّه ورث لمسة ميداس السحرية التي كان يتمتّع بها والده. فجمع بمرور المبالغ المستحقّة لوالده، وأعاد تنظيم أملاك العائلة وأراضيها والأهم من كلّ ذلك استثمر مكننة زراعة الفستق. كما شجّع والدته على مغادرة بلاينز وأجبر زوجته على تخطّي خجلها. وأخيرًا في العام ١٩٦٢، حين كان كارتر يشغل منصب رئيس مجلس إدارة مدرسة مقاطعة سومتر، طُلب إليه أن يكون مرشّح المقاطعة لمقعد في الكونغرس.

ولكنه رفض، لأنّه حسب أنّه لا يملك فرصةً للفوز؛ وأكثر من ذلك في حال فاز، سيبعده المقعد في الكونغرس عن عمله. وبعد ذلك بوقت قصير، كرهه

(١) كتاب Jimmy Carter: A Comprehensive Biography from Plains to Postpresidency لبيتر جي بورن Peter G. Bourne، ص. ٨١.

(٢) كتاب Jimmy Carter لـ Bourne، ص. ٨٦.

(٣) كتاب Jimmy Carter لـ Mazlish وDiamond، ص. ١٠٠ وكتاب An Hour Bedore Daylight لـ Carter ص. ١١٨.

(٤) كتاب Jimmy Carter لـ Bourne، ص. ٨٢.

(٥) المصدر السابق، ص. ٨١.

الناس لمحاولاته تحديث النظام التربوي المحلّي، فقرّر أن يتخطّى كراهيته لمعظم السياسيين والترشّح كعضو محتمل في مجلس الشيوخ عن ولاية جورجيا، وفقًا لقوانين الانتخابات المباشرة الجديدة.

ففي جورجيا الريفية المتأخّرة كثيرًا عن بقية البلاد، كانت الجرائم الانتخابية لا تزال سائدة. فقد كان يتمّ ملء صناديق الاقتراع بشكل روتيني، بحيث كان الناخبون البيض المعارضون يتعرّضون للترهيب في الوقت الذي يتمّ استبعاد الناخبين السود تحت طائلة الإعدام. وعلى الرغم من أنه كان يتمتّع بشعبية في مقاطعته، وعلى الرغم من أنّه فاز قانونيًّا عبر الأصوات التي أُدلي بها في صناديق الاقتراع، خسر مهندس الغواصات النووية السابق الانتخابات الأولية.

وبدعم من زوجته، اعترض كارتر على النتيجة فهو شهد شخصيًا التزوير العلني الذي ارتكب بدون أي خجل في عدّة مراكز اقتراع. وبالتالي، وقّع عريضته أكثر من ١٠ في المئة من الناخبين المسجّلين في الولاية الأكثر تضرّرًا معتبرين أنه قد تم التخطيط لسباق مجلس شيوخ مثل سابقيه. وأمام دهشة الجميع، وبعد أن رُفض في البداية، وعلى الرغم من التهديدات التي شملت حياته وممتلكاته، نجح كارتر وأعلنت في ما بعد صحيفة أتلانتا، وبعدها كلّ إذاعة محلية ونشرة إخبارية أنّه تمّ خرق[1] «كلّ قوانين الانتخابات المنصوص عليها». وبعد أن فاز في دعواه القضائية، حصل جيمي كارتر على مكانه الشرعي في مجلس شيوخ جورجيا في اللحظة الأخيرة. وقد قال في وقت لاحق: «إذا كانت أحلى بسمة سياسية واحدة تقف وراء نجاحي، فهي المثابرة».[2]

كانت المثابرة بالتأكيد ضرورية. فإنّ السياسة الجنوبية فقط «عمل قذر» كما وصفتها زوجة كارتر، التي كانت خائفة بسبب التهديدات بحرق مستودع الفستق الذي يملكونه، بل إن مسألة إلغاء الفصل العنصري في المدارس والجامعات

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٣
(٢) المصدر السابق، ص. ١٣١

كانت قد وصلت إلى ذروتها. فقد نُدّد بالرئيس كينيدي حين ألقى خطابه المتعلّق بالحقوق المدنية وفرض قبول طلاب سود في جامعة ألاباما. ولقد تبع إقرار قانون ليندون جونسون الناجح والمتعلّق بالحقوق المدنية في «مجتمع عظيم» ردود فعل معادية: بروز اليمين الجمهوري الأبيض بقيادة عضو مجلس الشيوخ باري غولدواتر (مستخدمًا «حقوق الولايات» ككلمة أساسية لرفض الإدماج). وحتّى والد كارتر عارض الإدماج (على الرغم من وفاته بين ذراعي ممرّضته السوداء الوفية). وسقط عضو مجلس شيوخ الولاية الديمقراطي في دوامة قضية حاسمة في حياته وأعلن ترشحه لمنصب الحاكم بناء على برنامج سياسي يعتمد على الحقوق المدنية.

وقد تبيّن لاحقًا أنه قد ارتكب خطأ فادحًا. وعلى الرغم من أنّ كارتر نظّم بلا كلال حملة كمحافظ في مجال الضرائب ومعتدل في سائر المجالات، خسر علنًا أمام ليستر مادوكس العنصري. وبعد أن حُرم كارتر منصب الحاكم، استسلم لليأس (وبحسب تعبير صديقه ومساعده وكاتب سيرته، الطبيب النفسي د. بيتر بورن فقد عانى «انهيارًا تفاعليًا حادًا»). ولكن أنقذته شقيقته روث، وهي معمدانية مؤمنة. وعلى الرغم من أنها طُردت من عملها كمدرّسة لغة إنكليزيّة بسبب تكلّمها حصريًا عن الله، كان تأثيرها في شقيقها الأكبر حين كان يمرّ بأزمة شخصية عميقة كبيرًا جدًا. فأعاد كارتر «تقويم» علاقته بالله وأصبح مسيحيًا وُلد من جديد، ما أحدث نقطة تحوّل في حياته.

مع قبوله الهزيمة والتبشير بالمعمدانية في بنسيلفانيا وماساشوستس بصفته «شاهد للمسيح»، لم يكتشف كارتر فحسب، عبر تعليم الدين المسيحي في العام ١٩٦٨، أنّ فرح المساعدة يجعل حياة الآخرين «أكثر فرحًا» بل أصبح أيضًا قادرًا تدريجًا على إدماج إخلاصه الإنجيلي في طموحه السياسي المتجدّد ـ أي ترشحه من جديد عن الحزب الديمقراطي لمنصب حاكم جورجيا في العام ١٩٧٠.

هذه المرّة بدأ الحظ يبتسم لكارتر. وقد أعطى هذا المرشح الأشقر الكثيف الشعر الذي يتمتّع بعينين زرقاوين وشفتين كبيرتين انطباعًا جيدًا عبر شاشات

التلفزيون والإذاعات. أمّا شخصيًا فقد كانت جاذبيته باهرة وكان يشعّ نزاهةً وذكاءً خارقًا وقناعةً تامة. حتّى أن أكثر منتقدي كارتر عدوانيةً في جورجيا عده «أفضل مرشح سياسي قد رأيته في خلال السنوات الخمس والعشرين أو الثلاثين الأخيرة في السياسة الأميركية. وعند مواجهته وجهًا لوجه ترى أنّه على الأرجح أكثر إقناعًا من أي أحد آخر». (١)وتجدر الإشارة إلى أنَّ استطلاعات الرأي أظهرت أنّه متقدّم على منافسيه، بمن فيهم الحاكم السابق، كارل ساندرز، الذي ترشّح مجددًا، ما أدى إلى تدفّق المال من «المصالح الخاصّة» التي عدّها كارتر شعبية.

فاز كارتر حسب الأصول بترشيح الحزب الديمقراطي. وبناءً على بيان سياسي يرتكز على إعادة تنظيم الحكومة وإصلاح النظام الضريبي والحكومة المنفتحة والتناغم العرقي وحماية البيئة، اتجه مزارع الفول السوداني إلى الفوز بسهولة ضد منافسه الجمهوري في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠.

وهكذا أثبت جيمي كارتر أنه حاكم نموذجي لدولته، فقد أعاد تنظيم البيروقراطية الحكومية المشتتة إلى حدّ كبير وزاد إيراداتها وأعاد إصلاح نظامها القضائي الذي كان يديره الأشخاص وفقًا لمعرفتهم لا مهاراتهم تاركاً فائضًا في نهاية السنوات الأربع التي قضاها في منصبه. كما أعلن وبدون خجل في خطاب تنصيبه «لقد أصبح زمن التمييز العنصري من الماضي»، وبما أنّ جورجيا في ذلك الوقت كانت تنفّذ ما يقوله حاكمها، عُد جيمي كارتر على نطاق واسع تجسيدًا «للجنوب الجديد».(٢)

ولكن كارتر كان يطمح إلى تحقيق ما هو أكثر من ذلك. ففي العام ١٩٧٢، أي في منتصف ولايته كحاكم، قام بمحاولة هادئة لبلوغ منصب نائب الرّئيس، معتبرًا نفسه السياسي الذي يستطيع أن يضمن نجاح الحزب الديمقراطي في الجنوب الجديد الذي تخطى مشاكله لمرشحي الرئيس ونائب الرئيس. ولكن شعر بالخزي عندما لم يختره يوجين ماك غوفرن، المرشّح الديمقراطي المناهض لحرب الفيتنام

(١) كتاب Jimmy Carter لـMazlish وDiamond، ص. ١٨١.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٩٣.

كمرشّح لمنصب نائب الرئيس في مؤتمر الحزب القومي ذلك الصيف. فبدلاً منه، اختار ماك غوفرن عضو مجلس الشيوخ توماس إيغلتون بدون أن يتحقق من خلفيته بدقة. وعندما تمّ اكتشاف ما لدى إيغلتون من تاريخ طبّي من الانهيار العصبي، يستلزم دخوله المستشفى وسحب ترشيحه، أصرّ ماك غوفرن على عدم ترشيحه بل اختار صهر تيد كينيدي سارجنت شرايفر الذي قاد فيالق السلام ولكن لم يتمّ انتخابه في أي منصب. ولكن الرئيس نيكسون هزم كل من ماك غوفرن وشريفر شر هزيمة فقد حصد خمسمئة وواحداً وعشرين صوتًا مقابل سبعة عشر صوتاً في الانتخابات الطالبية، و٤٦,٦ مليون صوت مقابل ٢٨,٤ مليوناً في التصويت الشعبي.

خاب ظنّ كارتر بسبب تجاهل ماك غوفرن وتعهّد ألاّ يحاول الترشح للمركز الثاني مرة أخرى. وشرح قائلاً: «عليك أن تجامل الناس، وأنا لا أحبّ ذلك».[١] وبتشجيع من مجموعة موالين متحمّسين رأوا فيه شبهًا لجون كينيدي، بدأ الاستعدادات لمسيرته الشخصية إلى واشنطن ودخوله البيت الأبيض. ومن جهة أخرى، وإلى جانب شخصيته الإيجابية يمكنه أن يتحلّى بجرأة لاذعة فقد كان ريتشارد نيكسون يثير عصبيته فقال عنه بعد الكشف عن فضيحة ووترغيت ولكن قبل نشر «الأدلّة الدامغة» علناً «في خلال مئتي سنة من التاريخ، «هو الرئيس الأكثر خداعًا الذي رأيناه يومًا، وأظنّ أنّه ألحق العار بالرئاسة». كما اعترف أنه «لطالما كنت أكره نيكسون، وقد كنت أعيش في كاليفورنيا عندما ترشّح ضدّ هيلين غاهاغان دوغلاس»، وقال بحق: «فليس من طبيعة ذلك الرجل [أن يستقيل]». ولكن تعلّق نيكسون بالمكتب الرّسمي لم يفده بشيء، وقد كان كارتر موقنًا أنّ نيكسون سيُتّهم بسوء الإدارة. «أظنّ أنّ الدليل موجود وهو تأثير العديد من الأعمال التي تبيّن أنه مذنب في تنفيذها».[٢] وحين سأله سكوتي ريستون أحد الصّحافيين في نيويورك تايمز عمّ ينوي القيام به حين تنتهي ولاية حكمه (لكون الحكّام في

(١) كتاب How Jimmy Carter Won: The Victory Campaign from Plains to the White House لكاندي ستروود Kandy Stroud، ص. ١٦.

(٢) المصدر السابق.

جورجيا لا يستطيعون الترشح لولايتين متتاليتين)، فاجأ مجلس إدارة تحرير التايمز بإعلانه «أخطَط للترشّح لمنصب الرئاسة.»[1]

وما أن غادر قصر حاكم جورجيا في كانون الثاني/يناير ١٩٧٥، حتى نفذ كارتر ما أعلنه، متمنيًا ألا يشارك السيناتور تيد كينيدي أشهر ديمقراطي في البلاد في المنافسة التي تجري مرّة كلّ أربع سنوات.

فاستجيبت صلوات كارتر ولم يشارك تيد كينيدي في المنافسة. ولم يكن كارتر معروفًا في البداية في الأوساط العادية، ففي الواقع في نادي الصحافة القومي في واشنطن في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٥، نُقل عن أحد المحرّرين قوله: «كارتر؟ يترشّح للرئاسة؟ لم يسمع أحد به قطّ، هذه مزحة».[2] وسرعان ما بدأ كارتر يعمل على حملته الانتخابية لتغيير هذه الصورة. قد يكون قصير القامة ولكنّه تفوّق على منافسيه بيرش بيي وجورج والاس وفريد هاريس وموريس أودال ولويد بينتسون وهنري جاكسون وغيرهم من الذين يرغبون في بلوغ الرئاسة. فقد برهن أنّه خصم صعب لكونه حاد الذكاء يركّز على ما يريده في السياسة ويقوده العزم والإيمان القوي. كذلك، كان يتباهى بمهنته السابقة في البحرية الجديرة بالثناء، وبمسيرة ناجحة في مجال الأعمال إضافةً إلى أداء ممتاز في سن قوانين والحاكمية في الجنوب الجديد، ما يعني أنّه يملك مؤهلات استثنائية كمرشّح للرئاسة.

واختار كارتر بحكمة عدم الترشح ضدّ الرئيس الموقت، جيرالد فورد، بل ضدّ صورة سلفه ريتشارد نيكسون الموسومة بالخزي. وأصبح شعار كارتر في الانتخابات «لن أكذب عليكم أبدًا.» وعزّز قسمه من جديد. كما أعلن «إن كذبت عليكم في أي وقت أو ضلّلتكم أو خنت ثقتكم أو أمانتكم، أريد منكم أن تأتوا وتخرجوني من البيت الأبيض».[3]

(١) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٢٥٠

(٢) كتاب James Earl Carter: The Man and the Myth لـPeter Meyer، ص. ٣

(٣) كتاب James Earl Carter: The Man and the Myth لـPeter Meyer، ص. ٣

ولكن صورة فورد الجمهوري التي تتسم بالصدق والصفاء خطفت من كارتر بعض الأضواء ووقفت بوجه مخطَّطاته، علمًا أنّ الرجلين كانا من المحافظين المعتدلين. ولكن لم ينقذ حاكم جورجيا السابق سوى حاكم كاليفورنيا السابق. فلم ينفكّ الجمهوري رونالد ريغان في خلال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري ينتقد زميله في الحزب، شهرًا بعد شهر وينتقل من انتخابات أولية إلى أخرى في الولايات ومن مؤتمر حزب إلى آخر. وبالتالي، وعلى الرغم من أنّ الرئيس فورد بقي مرشّح الحزب الجمهوري الوحيد، فلم يكن لديه سوى أسابيع قليلة بعد المؤتمر ليصلح الضرر ويتصدّى للتحدّي الذي يمثله كارتر ومرشحه لمنصب نائب الرئيس عضو مجلس الشيوخ في مينيسوتا والتر مونديل.

كذلك، نجح فورد في تخفيض نسبة تأييد كارتر في استطلاعات الرأي من عشرين نقطة إلى حد تحقيق التعادل ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الوقت للقيام بما هو أكثر من ذلك. بيد أنّ فورد ارتكب خطأً فادحًا في خلال المناظرة الرئاسية الثانية عندما تطرّق إلى السيطرة السوفياتية على أوروبا الشرقية الثانية. ما شكّل نقطةً لمصلحة كارتر الذي استغلّ الهفوة وأبقى فورد تحت مراقبته بما أنهما اقتربا من الانتخابات. وتجدر الإشارة إلى أنّ كارتر ارتكب هفوةً بدوره لقبوله مقابلة مع مجلة بلاي بوي.

وعلى صعيد آخر، كانت قوة كارتر الداخلية تنبع من كونه وُلد من جديد في المسيح، في بلد علماني مبني على الفصل الدستوري بين الكنيسة والولاية. في الواقع، أصبحت حماسة كارتر المعمدانية تشكل مصدر قلق كبير للكثيرين من بين الناخبين الكاثوليك وغير المعمدانيين. وفي محاولة ليثبت أنه لم يكن متعصّبًا دينيًا رضي بمقابلة غبية مع مجلة البلاي بوي، بيد أنه تجاوز حدود المنطق. فلدى مغادرته مكتب الصحافي، حاول أن يبدي استقلالية تفكيره من خلال معرفة تعاليم السيد المسيح الذي يقول: «أنا أقول لكم إنّ كل من ينظر إلى امرأة بشهوة فقد زنى». ففي الواقع، وكما أشار الحاكم السابق إنّ ذلك مثير للسخرية بما أنه في حال اتخذ هذا الكلام حرفيًا يكون قد وضع «معايير مستحيلة علينا»، فكارتر

على غرار أغلبية الرجال العاديين، نظر إلى عدد من النساء بشهوة؛ وأنا أيضًا زنيت روحيًا عدة مرات».(١)

بدا رأي كارتر وكأنه منحرف فلا بد أنه تسبب بحدوث ضجة كبيرة في الصحافة. فباعتباره يتبع الإنجيلية المسيحية لم يكن أساسًا يحظى بشعبية في الأوساط اليهودية، فقد كانوا يحبون استشهاده بالعهد القديم وليس بالعهد الجديد. بيد أنه، وبعد المقابلة مع البلاي بوي، وجد كارتر نفسه مرفوضًا من قبل مجموعات أخرى بمن فيها زملاؤه المعمدانيون، وذلك نتيجةً للسلطة التي حصلت عليها الصحافة التي باتت قادرة على إطاحة سياسي. وعلى الرغم من أنّ بعض الناخبين قرروا التغاضي عن هذه الزلة في نهاية المطاف، إلا أنّ هذا الأمر أثار مسألةً ما إذا كان ضابط الغواصة النووية ومزارع الفول السوداني نائب جورجيا على قدر تسلم أعمال السياسة الوطنية القاسية في عصر انعدام الرحمة لدى الصحافيين الذين يكشفون فضائح السياسيين ويشوّهون سمعتهم.

وفي ليلة الانتخابات في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر١٩٧٦، ومع أنّ كارتر كان منهكًا، ظلّ واضعاً ربطة العنق الحمراء الذي تعطيه حسن الطالع، جلس يشاهد على التلفزيون من أتلانتا في ولاية جورجيا صدور نتائج انتخابات ماساشوستس حيث فاز في حين كان قد خسر فيها في خلال الانتخابات التمهيدية الديمقراطية. وفي الساعة الثالثة والنصف صباحًا من اليوم التالي اعترف الجمهوريون بالهزيمة في ميسيسيبي مانحين كارتر الأصوات الطالبية التي يحتاج إليها من أجل الفوز بمنصب الرئاسة. وقد نجح في ذلك.(٢)

الجزء الثاني: الرئاسة

وانطلاقًا من شعاره المعروف، بعد إلقاء خطاب القسم وتناول الغداء في

(١) كتاب Bourneلـ Jimmy Carter، ص. ٣٤٧.

(٢) أظهر الفرز الأخير أنّ كارتر حصد ٢٩٧ صوتًا انتخابيًا مقابل ٢٤١ للرئيس فورد. أما في التصويت الشعبي فحاز كارتر ٤٠,٢ مليون صوت مقابل ٣٨,٥ مليون لفورد.

الكابيتول، أصر كارتر على أن يصبح أول رئيس في العصر الجديد، يتخلّى عن سيارة الليموزين المصفّحة ويتوجه إلى البيت الأبيض سيرًا برفقة زوجته. كما قرر أن يرسل ابنته الصغرى إيمي، البالغة التاسعة من العمر، إلى مدرسة حكومية فاختار مدرسة ستيفنز الابتدائية.

قام الرئيس بهذه اللفتات الرمزية بصدق عميق، مصمّمًا على ألا يسمح للغرور بأن يغيره. فرفض فكرة «تحية الرئيس» في ظهوره الرسمي وأصرّ على أن ينقل بسيارة عائلية بدلاً من الليموزين المصفحة ودعا زوجته لتكون أول سيدة أولى تحضر اجتماعات الرئيس، وحتى اجتماعات الحكومة بوصفها مستشارة. وفي «اجتماعات البلدة» الخاصة حاول أن يُشعر كل مواطن بأنه يتمتع بحق مساو في التدخل باتخاذ القرارات.

ربما كان كارتر غريبًا آتياً من جنوب البلاد، غير أنه كان شجاعًا جدًا في القضايا التي اقترح معالجتها. وعلى الرغم من أنه كان قد ترك البحرية الأميركية منذ وقت طويل، فقد أصبح الآن القائد الأعلى. وعندما قيل له إن غالبية أعضاء مجلس الشيوخ عارضوا منح العفو للهاربين من الخدمة العسكرية في حرب الفيتنام، قال كارتر: «لا آبه حتى ولو عارضني الأعضاء المئة، فمنح هذا العفو هو ما يصحّ فعله».[1] وفي اليوم الذي خلف حفلة التنصيب، أي في الواحد والعشرين من كانون الثاني/ يناير، ١٩٧٧، منح الرئيس العفو بكل بساطة، من خلال توقيع نظام تنفيذي في هذا الخصوص. كما بدأ عملية شاقة في التمهيد لقوانين جديدة تخص مجموعة كبيرة من القضايا، من إصلاح الرعاية الصحية والاجتماعية إلى المحافظة على الطاقة. كان المبشّر السياسي يقظًا ونشيطًا.

في البداية، استجاب الشعب بإيجابية لمقاربة كارتر الديمقراطية الجديدة. وفي آذار/مارس ١٩٧٧، وصلت استطلاعات الرأي المؤيدة له إلى مستويات لم يشهدها أي رئيس في مرحلة ما بعد التنصيب منذ الحرب العالمية الثانية. غير أن الإمبراطوريات

(١) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٣٦٦

لا تعمل بنجاح من دون عجرفة وغرور، ففي الواقع عدت هاتان الصفتان فضائل في ذروة ازدهار الإمبراطورية الرومانية التي كانت ملأى بالآثار والأقواس والألعاب والمدارج وأقواس النصر لتكريم الفائزين في الحروب الخارجية (الذين تطلب منهم قتل خمسة آلاف جندي عدو على الأقل في المعركة). أما الآن وفي المقابل، كان على رأس الإمبراطورية الأميركية رئيس كان ملازمًا في البحرية عفا فورًا عن أولئك الذين رفضوا القتال في حروب مماثلة! والأسوأ من ذلك، بالنسبة إلى المطلعين في واشنطن، أنّ كارتر أظهر قلة احترام تجاه أعضاء مجلس الشيوخ والكونغرس وحتى تجاه الرقم الثالث في ترتيب الرئاسة، رئيس مجلس النواب وزميله في الحزب الديمقراطي، تيب أوناي.

كان أوناي قد حذّر بثقة، الرئيس المنتخب في المرحلة الانتقالية من عدم معاملة الكونغرس كما عامل مجلس نواب جورجيا، أي بتجاهل النواب المنتخبين والإصغاء إلى الشعب. فأجاب كارتر أن هذا ما كان يقترح فعله تمامًا. فأجاب أوناي «حبًا بالله سيدي الرئيس إنك تقترف خطأ فادحًا».[1] وعندما وضع كارتر أوناي في»أسوأ مقعد» في خلال حفلة الافتتاح في مركز كينيدي، ذهل أوناي ولكنه استمر في ذم الرئيس. فقال رئيس مجلس النواب السمين مشتكيًا: «حتى أنّ نيكسون عاملنا أفضل من ذلك!»[2] إذ إنه لم يقدّم سوى قهوة ولفة في أول فطور للكونغرس في البيت الأبيض، بدلاً من وجبة إنكليزية كاملة.

أما سائر الأمور فاستمرت على حالها. كان المسؤول عن العلاقات الذي عينه الرئيس ليؤدي دور الوسيط، مهمًا جدًا في العلاقات بين الرئيس والكونغرس. وعد إصرار كارتر، ضدّ كل الاحتجاجات، بتعيين صديق له من جورجيا، فرانك مور، وهو شخص غير معروف إطلاقًا في العاصمة، أمرًا له تداعيات وخيمة. فقال جاك واستون الذي وضعه الرئيس على رأس فريق تنظيم المرحلة الانتقالية: «لقد أدركت أن أمر

(١) كتاب Jimmy Carter: American Moralist لكينيث إي. موريس Keneth E. Morris، ص. ٢٤٣
(٢) المصدر السابق.

إدارة كارتر قد انتهى منذ اللحظة التي سمعت بها أنه سيتم تعيين مور».[1] فيما علق عضو آخر ذو خبرة في الكونغرس من جورجيا «لقد دل ذلك فورًا على أن الكونغرس هو مجرد مجموعة هواة».[2] وقال تيب أوناي إنّ العلاقة بين الاثنين اللذين كان يفترض بهما أن يكونا حليفين، كانت أشبه «بحلم بشع».[3]

ولو كان كارتر قادرًا على تعيين فريق استبدادي قوي وكفوء في البيت الأبيض وقيادته، لكان نجا من طريقة تعامله مع الكونغرس، وخصوصًا غش وسائل الإعلام بغية المحافظة على دعم الشعب الذي كان يعتمد عليه. بالإضافة إلى ذلك، رفض كارتر تعيين رئيس للقطاع السياسي، الأمر الذي أثار استياء السياسيين من المحاربين القدامى. فشرح لاحقًا وجهة نظره في هذا السياق «لم أرد يومًا أن يكون لي رئيس قطاع كبير يقف بيني وبين الأشخاص الذين يعملون معي. لطالما أردت أن يكون عشرات الأشخاص على اتصال مباشر بي طوال الوقت، من دون أن يضطروا إلى الوصول إلي من خلال رئيس انتقالي... لا أمانع حتى أن يكون الأشخاص العشرة أو الاثنا عشر غير متفقين فيما بينهم».[4]

في الحقيقة، أدت مقاربة «اللاهرمية» (بحسب ما أسماها كارتر) في قيادة البيت الأبيض المتناثر (وغالبًا مضلل) بحيث كان هو المركز، إلى تنافس الجميع في كسب اهتمامه والحصول على رضاه. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ فورد تنبّه أقله إلى الخطأ الذي ارتكبه في بداية ولايته على غرار كارتر، غير أن هذا الأخير لم يكن مستعدًا ببساطة للاعتراف بخطئه لا آنئذ ولا في وقت لاحق. وتساءل كارتر، ألم يعمل جون أف. كينيدي من دون رئيس قطاع وجعل من نفسه أكثر رئيس يظهر علنًا وعند متناول الجميع منذ الحرب العالمية الأولى، إلى جانب زوجته؟ ألم يشجع الرئيس لينكولن أن يكون هناك «فريق خصوم» في إدارته، فيما أدى دور الحاكم وشخص ذي رؤية؟

(١) كتاب Jimmy Cater لـBourne، ص. ٣٦١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب Jimmy Cater لـMorris، ص. ٢٤٤.
(٤) كتاب Jimmy Cater لـBourne، ص. ٣٦٠.

لكن ولسوء الحظ لم يكن جيمي كارتر شبيهًا بلينكولن أو بجاك كينيدي، الذي أمضى أربعين عامًا سياسياً في واشنطن وعين شقيقه بحكم الأمر الواقع مسؤولاً تنفيذيًا.

كان جدول أعمال كارتر الخيالي وإمكانية الوصول إليه مصدر فخر له، غير أن عدم قدرته على إدراك حدود قدرته القيادية في البيت الأبيض أخافت موظفيه، فهم قد راقبوا تعثّر كل الاقتراحات التي أغرق بها الحكومة. فاعترف أحد مساعدي كارتر من جورجيا في نيسان/أبريل ١٩٧٧، أي بعد ثلاثة أسابيع فقط من توليه الرئاسة «اسمع، إننا نحاول تحقيق ما يفوق قدرتنا».[١] غير أنّ الرئيس رفض الإصغاء إلى فريقه مثل القبطان كويغ، فازدادت الفوضى في البيت الأبيض سوءًا.

أما القضية الرئيسية التي أراد كارتر حلها فكانت أزمة الطاقة في أميركا. ففي العام ١٩١٠ أنتجت الولايات المتحدة حوالى سبعين في المئة من النفط في العالم. وبحلول وقت تنصيبه، كان البلد يستورد خمسين في المئة منه. فقد أصبحت الإمبراطورية مدمنةً النفط، ما كان سيؤثّر في سيطرتها العالمية ما لم تتحرك لإصلاح الوضع. وكتب كارتر في وقت لاحق «لم يكن لدي أدنى شك بأنّ أمننا القومي كان في خطر»، مسميًا الطاقة «المُعادل المعنوي للحرب».[٢]

من هنا رأى كارتر أنّ الحلّ يكمن في التخلّص من إدمان أميركا وبالتالي، المحافظة على البيئة. وفي خطاب ألقاه من مكتبة البيت الأبيض وهو يرتدي سترةً صوفيةً، توجه كارتر إلى كل بيت وفق أسلوب فرانكلين دي. روزفلت، وطلب إلى الشعب الأميركي في يوم من البرد القارس من مطلع شباط/فبراير العام ١٩٧٧، خفض التيرموستات في بيوتهم (بعد أشدّ موجة شتاء شهدتها البلاد) إلى خمس وستين درجة فهرنهايت في النهار وخمس وخمسين درجة في الليل. وفي المقابل، وعد بخطة جديدة للطاقة في خلال تسعين يومًا.

---

(١) كتاب James Earl Carter Jr لبورتن كوفمان Burton I. Kaufman، ص. ٢٢.

(٢) كتاب Keeping Faith: Memoirs of a President لـJimmy Carter، ص. ٩١.

صحيح أن الرئيس كان يُقابل بتجاوب من الرأي العام، إلا أنّه ولسوء الحظ، تبين أنّ هذا الإعلان كان سابقًا لأوانه وأن خطته كانت طائشة مع أنها تناسب البيئة كثيرًا. من ناحية أخرى، كانت الطرق السريعة في الولايات المتحدة أشبه بطرق الرومان الحديثة لكونها تصل بين المدن الرئيسية والمراكز التجارية والصناعية في أميركا. وبالتالي، وعلى الرغم من أنّ بعض الأميركيين كانوا مستعدين لارتداء سترات أو كنزات صوفية، إلا أنّ قلة من سائقي السيارات أو الشاحنات الأميركيين كانت مستعدة لاستبدال مركباتها بأخرى موفرة أكثر للبنزين. فشبه كارتر صعوبة إقناع الأميركيين بذلك، بصفتهم مواطني الإمبراطورية المسيطرة العالمية المتميزين، وشبّه كارتر لاحقًا صعوبة إقناع الأميركيين بقبول هذه الخطة لكونهم مواطني الإمبراطورية المسيطرة ويتمتعون بامتيازات عديدة «باقتلاع الأضراس»، وأشار إلى أن «عليهم أن يكونوا مستعدين للتضحية وتغيير عاداتهم» من دون أن يضطروا إلى مواجهة كارثة بحجم كارثة بيرل هاربر توقظهم على واقع الحال.[1] وعلى الرغم من الجهود البطولية التي بذلها رئيس مجلس النواب تيب أوناي، فشل الكونغرس في مواجهة تحدي كارتر. وفورًا عارضت سبع عشرة لجنة في مجلس النواب وخمس في مجلس الشيوخ مشروع قانون كارتر. فأصبح واضحًا أن كارتر ، بصفته القائد الأعلى، سعى إلى حماية الإمبراطورية الأميركية ومواردها النفطية، لكن، وبصفته رئيساً، كان شبه عاجز عن تغيير سلوك المواطنين، ولاسيما ما خص شراء السيارات واستخدامها.

شكل إدراك كارتر لأزمة الطاقة القريبة والبعيدة الأجل في أميركا إثباتًا لذكائه غير أنّه أظهر مدى بعده عن الواقع. فبعد ثلاثين عامًا كانت الأمور مختلفة، ولكن في هذه الأثناء، انتقد كارتر في مذكراته في التاسع من حزيران/يونيو ١٩٧٧، كيف أن «تأثير جماعات الضغط ذات الاهتمامات الخاصة كان لا يصدق». فمع حلول الصيف، سحب مجلس الشيوخ مشروع قانون مجلس النواب للطاقة وأحاله على مجموعة لجان تعنى بهذه القضية، فيما أشعلت شركات تصنيع السيارات وشركات

(١) المصدر السابق، ص. ٩٧

النفط عناد الجمهوريين وحثتهم على التهديد بالمماطلة. وهكذا سخر المنتقدون من المُعادل المعنوي وشبهوه بمواء القطط. وبالتالي، لم تكف مهلة التسعين يومًا للتوصل إلى الحل.

وعلى صعيد آخر، أشار المراقبون إلى أن كارتر ليس شخصًا يسير وفقًا لجموحه، بل إنه شخص مفرط النشاط وعنيد إلى حدّ كبير وذو عزم هائل، قادر على حفظ كم هائل من معلومات مكتوبة وشفوية كانت تصل إليه عبر فريق عمله «اللاهرمي». بيد أن الرئيس كان غافلاً عن كيفية قيادة فريق سياسي موحّد. في الواقع، كان يصعب فهم وجود صفات مماثلة لدى رجل تدرب على أن يكون قائد غواصة، ولكن حين سأل المحللون طاقم البحرية فهموا الظروف الخاصة التي تعمل بها الغواصات تحت المياه، فهي تشمل طاقمًا صغيرًا من الفرق المُختارة، يعمل ضباطها معاً من دون حاجة إلى نظام هرمي لفرض تنفيذ الأوامر. كذلك، وتحت لقب «الخدمة الصامتة»، كان دورهم يقتصر على البقاء مختفين، ليس عن العدو فحسب، بل عن بقية أعضاء البحرية وللموجودين على البر.

غير أنّ البيت الأبيض لم يكن بغواصة. وبعيدًا عن العمل في جو من الصداقة، كان موظفو الرئيس يتعاركون كالكلاب، وكانوا يقومون بتسريبات متعمدة إلى الصحف التي كانت بأجمعها مقدرة لهم، ليزيدوا الضغط عند فشل الطرائق الداخلية. وللحد من تكرار أخطاء البيت البيض ونزاعاته، واجه الرئيس صعوبة أخرى، فعلى خلاف الرئيس كينيدي الذي قاد سفينة بي تي في معركة ضد اليابان، لم يقد الملازم كارتر أي غواصة بشكل فعلي، فظهر افتقاره إلى الخبرة في إعطائه الأوامر وإلغائها في وقت لاحق. فقد تخلى فورًا عن وعده بدعم الفلاحين الأميركيين، بعد أن حسب الرئيس المحافظ ماليًا قيمة الخسائر التي ستؤثر في جهوده لتحقيق ميزانية متوازنة. كما سحب رأيه بوهب خمسين دولارًا لكل دافع ضرائب، وتخلى عن إصلاح الإنفاق على الرعاية الاجتماعية لأنه مكلف جدًا، كما ماطل الكونغرس في مشروع قانون إصلاح الضرائب الكبير الذي أعلنه مطولاً والذي كان مصممًا ليكون أكثر بساطةً وعدلاً للأقل ثراءً، وعارض أحكامه بشتى الوسائل.

وبعد أن كانت نسبة تأييده خمسة وسبعين في المئة في البداية، انخفضت هذه النسبة إلى ما دون الخمسين في المئة بحلول نهاية العام ١٩٧٧. فقد انتفض الشعب أمام قوانين الكونغرس المتغيرة والمشحونة والفوضوية، ولام عليها البيت الأبيض وطالب برأس الإمبراطور أو أقله برأس أحد أتباعه. فاستهدف رئيس مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض وصديق كارتر بيرت لانس الكونغرس بأكثريته الديمقراطية. وفي الواحد والعشرين من أيلول/سبتمبر رمى كارتر لانس لتأكله التماسيح مشيرًا في مذكراته «كان ذلك أسوأ يوم في حياتي».[1] غير أن التضحية لم تؤدِ إلى أي تحسن، وبحلول نهاية السنة وبارتفاع نسبة الانطباعات السلبية حيال الرئيس من ستة في المئة إلى أكثر من ثلاثين في المئة من المشاركين في الاستطلاع، أوردت مجلة تايم السببين الشائعين لذلك وهما «أن كارتر لم يفِ بوعوده وبدا عاجزًا عن تحقيق الأهداف».[2]

أما المعلق السياسي فيكتور لاسكي فلم يكن واضحًا البتة. فكتب بطريقة غير مؤدّبة مقتبسًا من ونستون تشرشل قائلاً: «إنه لمن النادر في تاريخ الجمهورية أن يأتي رئيس يظهر بهذه السرعة عاجزًا عن تولي أبسط شؤون الدولة».[3]

ما الخطأ الذي وقع؟ لخص جايمس شليسنغر، الرجل الذي عينه كارتر وزيرًا للطاقة، المشكلة بأفضل طريقة على الأرجح. فأشار شليسنغر في وقت لاحق إلى أن «جيمي كارتر رجل إصلاحي غريزي وليس حذراً. لقد أخطأ في دخوله البيت الأبيض على بساط سحري، معتقدًا أنه كان على علاقة بالشعب تتجاوز الحاجة إلى تدبير الأمور في مراكز السلطة التقليدية». كما بدا أن هناك شيئاً لم تحبه الصحف في الرئيس، غير أن شليسنغر عجز عن تفسير الأمر في رجل صادق وواضح ونقيض ريتشارد نيكسون الشرّير. وما كان أكثر إثارة للقلق هو أن العداء أصبح متبادلاً. فقد وصف كارتر الصحفيين الذين كان لهم دور في إسقاط صديقه بيرت لانس

(١) المصدر السابق، ص. ١٣٥.

(٢) كتاب James Earl Carter لـMeyer، ص. ١٩٦.

(٣) كتاب Jimmy Carter: The Man and the Myth لفيكتور لاسكي Victor Lasky، ص. ١١.

«بالاستغلاليين». كما أشار شليسنغر إلى أن الرئيس أصبح معروفًا في الإعلام «بالبارد والشرّير»، ما كان «خطأ واضحًا» إذ إن من جهته، كان كارتر «رجلاً لطيفًا ودافئًا ومراعياً وجذاباً». غير أنه في حماسته التبشيرية «تولى الرئيس أمورًا كثيرة وبذل جهودًا ملحوظة» في إطار جدول زمني مستحيل. «لقد سمى نفسه رجلاً مصيريًا، وكأن القدر أو الله قد اختاره ليكون رئيسًا للولايات المتحدة. ولكن بحلول خريف العام ١٩٧٧، كان كارتر في مأزق بالكاد استطاع الخروج منه».(١)

كان كارتر يعمل ثمانين ساعة في الأسبوع بدلاً من الخمسين ساعة التي وعد بها، وكان لا يزال يعمل من دون رئيس قطاع، واستمر في الاتكال على الهيكلية «اللاهرمية» لموظفي البيت الأبيض، على ألا يجتمع المتحدثون العشرة في الغرفة نفسها، ناهيك بالاتفاق على استراتيجية جماعية. فعلق فيكتور لاسكي مضطربًا من مشهد البيت الأبيض الذي تحول تماماً إلى مجلس بلدي متنافر النغمات «لقد ولّى عهد رئاسة فرانكلين دلانو روزفلت وخلفائه الإمبرياليين».(٢)

وأسوأ من ذلك، بقي كارتر قلقًا حيال تجنب الاتهامات (أو الذنوب) بإدارة «رئاسة إمبريالية» في الخارج والداخل. وبالنسبة إلى شليسنغر فقد عبر عن أمله قائلاً: «في إدارتي سأكون قادرًا على تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي على أساس العلاقات مع إنكلترا نفسها».(٣)

الاتحاد السوفياتي على مثال المملكة المتحدة حليفة الولايات المتحدة في حلف شمال الأطلسي الرئيسي؟ ما الذي عناه الرئيس بهذه الملاحظة؟ هل سيؤيد الرئيس الاتحاد السوفياتي وفق المعايير نفسها كأي دولة غربية ديمقراطية؟ أم أنه اعتقد أن انفراج العلاقات يعني انتهاء الحرب الباردة؟ وفي مقابلة تلفزيونية مع

---

(١) كتاب James Schlesinger مركز ميلر للتاريخ الشفهي تموز/يوليو ١٩٨٤ مع تحيات مكتبة كارتر في أتلانتا، جورجيا.

(٢) كتاب Jimmy Carter لـ Lasky، ص. ١٤.

(٣) كتاب Working in the World: Jimmy Carter and the Making of American Foreign Policy لروبرت أ. سترونغ Rpbert A. Strong، ص. ١٧٨.

الرئيس قبل انتخابه بكثير لاحظ بيل مويرز أن «الشعب يشك في إدراكك للواقع أكثر مما في نزاهتك».[1] كان ذلك إدراكاً عميقًا.

كانت مدة أول اتفاق محادثات للحد من الأسلحة الاستراتيجية تنتهي في تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٧٧، وكان من الضروري توقيع اتفاق مماثل آخر، زاد احتمال توقيعه عند تولي كارتر الرئاسة. فعين شخصين كفوءين ولكن متنافسين، سايروس فانس، «الحمامة» في منصب وزير الخارجية وزبغنيو بريجنسكي «الصقر» في منصب مستشاره للأمن القومي، ليساعداه على الشؤون الخارجية. ولكن إذا أمل كارتر أن يكون ليبراليًا ومتحفظًا في آن على الساحة العالمية، فقد احتاج إلى التثقيف بكثرة. وفي وقت قريب جدًا، كشف الرئيس عن خطته فيما هاجم موسكو حيال محاكمات الناشطين في حقوق الإنسان مثل أناتولي شارانسكي، فيما دعم المنافسة بين الشيوعيين في الصين والاتحاد السوفياتي ورفض التوصل إلى حل وسط في أحكام معاهدة محادثات الحد من الأسلحة الإستراتيجية التي لم تكن في مصلحة السلاح النووي الأميركي. وبحلول صيف العام ١٩٧٧، رفض ليونيد بريجنيف، رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي، عرض كارتر عقد قمة، ما زاد احتمال زوال انفراج العلاقات، وأثار النفور في أوروبا، حيث غضب رئيس وزراء ألمانيا الغربية هيلموت شميدت بسبب مقاربة كارتر للديبلوماسية الإمبريالية.

ومن جديد، سمح كارتر لنفسه بالتكلم عن قناعة أخلاقية، بعد أن غضب بسبب اعتقال السوفيات لألكسندر غينسبرغ ويوري أورلوف وشارانسكي. وبالسماح لنفسه بأن يكون الناطق باسم الأميركيين في الشوارع، خسر كارتر سلطته الرئاسية، فيما اضطرب الكرملين حيال نيات الإمبراطورية الأميركية الحقيقية. فتطلب توقيع محادثات الحد من الأسلحة الإستراتيجية الثانية سنتين إضافيتين. وبحلول ذلك الوقت كان قد فات الأوان للحصول على مصادقة مجلس الشيوخ. (لم يصادق عليها رسميًا يومًا).

---

(١) كتاب James Earl Carter لـMeyer، ص. ٤.

وبرئاسة نائب الرئيس كارتر، والتر مونددايل، وضع مجلس الأمن القومي في أول اجتماع له باناما والشرق الأوسط في أولويات إدارة كارتر القادمة. فكاد حق امتلاك قناة السويس المتنازع عليه أن يؤدّي إلى اندلاع حرب عالمية في العام ١٩٥٦ عندما صادره الرئيس المصري جمال عبد الناصر من المالكين المشغلين الفرنسي والإنكليزي. فأمل كارتر أن يتجنب وقوع مثل هذا الأمر بشأن قناة باناما، وخصوصًا منذ أن استخدم رونالد ريغان القضية كعصا ليضرب الرئيس فورد من دون أن يهزمه في انتخابات تعيين مرشح للرئاسة في الحزب الجمهوري في العام ١٩٧٦.

سعى ريغان إلى المحافظة على الممر المائي الأميركي الحيوي بين المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي، وهو خط يمتد على خمس مئة وثلاثة وخمسين ميلاً مربعًا حصلت عليه الولايات المتحدة في صفقة بيع أراضٍ مشكوك في أمرها، بين أيدي الأميركيين. وفي المقابل، شعر الرئيس كارتر المعارض للإمبريالية بأن على ملكية القناة أن تعود في متناول باناما بالطريقة المناسبة وفي الوقت المناسب. أثارت أعمال الشغب الخطيرة في الستينيات شبح صراع مسلح حول حق الملكية، فيما أشار تقرير صدر عن البنتاغون إلى أنه تطلب مئة ألف جندي لإعادة الأمن في القناة في حال تمردت باناما أو السيطرة عليها. فقال كارتر، إذا كان ممكنًا أن يعاد التفاوض في معاهدة توفّر الوسطية والأمن ومرور السفن من كل الدول، فستكون جميع الأطراف راضية. فسارت الأمور في مصلحته، وتم توقيع معاهدات بين كارتر وتوريخوس في أيلول/سبتمبر ١٩٧٧، كما صدق عليها مجلس الشيوخ في العام التالي، بعد نضال جبار في كابيتول هيل وبعد تصويت حاسم على التصديق الأخير. فأقر كارتر في مؤتمر صحفي «أعتقد أنني سأعادل ذلك تقريبًا مع صعوبة أن يعاد انتخابي رئيسًا». [1]

إذا كان من الصعب عقد اتفاق يضمن الأمن حول قناة باناما، فكان توفير السلام في الشرق الأوسط أصعب بعد.

---

(١) كتاب Working in the World: Jimmy Carter and the Making of American Foreign Policy لـ Robert A. Strong، ص. ١٧٨

وكانت سخرية «التدخل» الأميركي (كما سماه بريجينيف) في الشؤون الداخلية لدولة أخرى أن كارتر عندما سعى إلى الضغط على الاتحاد السوفياتي بشأن تسويته والشعوب المجاورة، وجد نفسه عاجزاً عن انتقاد تصرفات إسرائيل من دون إثارة اتهامات بلاده له بعدائه للسامية. كان كارتر يكن اهتمامًا خاصًا لفلسطين جراء تعلقه بدينه وبالإنجيل، وكان قد زار إسرائيل بدعوة من رئيسة الوزراء غولدا مائير في العام ١٩٧٣، عندما كان حاكمًا لولاية جورجيا. فكان دعمه لأمن إسرائيل يستند إلى اهتمامه البعيد بالمحافظة على أثريات أراضي الانجيل، التي اعتبرت مقدسة للمسيحيين واليهود. فشرح لاحقًا في هذا السياق «لم أكن أية مشاعر تجاه البلدان العربية فلم أزر أيًا منها أو أقابل أيًا من زعمائها».[١] غير أن ذلك تغير حالما أصبح رئيسًا.

وبعد أن خاضت إسرائيل أربع حروب لإنشاء ذاتها والبقاء، بدا أنها تصر على عدم إعادة الأراضي التي ربحتها وعدم الموافقة على تأسيس دولة فلسطينية (أمرت لجنة الأمم المتحدة بتأسيسها في العام ١٩٤٧)، كانت فكرة وقوف أميركا على الحياد، وخصوصًا أمام تأثير التصويت اليهودي في الانتخابات الأميركية، ضعيفة. ومع ذلك، قرر كارتر معالجة القضية وهي خطوة عدها مستشاروه وموظفوه «اقتراحًا خاسرًا».[٢] أراد أن يساعد إسرائيل على تحقيق الأمان الدائم، لكنه لم يرَ أن هذا الأمر كان مستحيلاً إذا بقيت إسرائيل متشبثةً بالأراضي التي احتلتها في جزيرة سيناء وغزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، وهي أراضٍ لم تحتلها القوات العسكرية فحسب ولكنها شجعت الصهيونيين على نشر مستوطناتهم فيها. وكانت هذه قد تتطلب طرق مرور من إسرائيل، وحماية عسكرية لكل مستوطنة ما جعل انسحاب اليهود النهائي، الذي طالبت به الأمم المتحدة في قرارها ذي الرقم ٢٤٢، صعبًا أو حتى مستحيلاً.

أما استيعاب الفلسطينيين في إسرائيل الكبرى، إذ إن الفلسطينيين العرب تفوقوا

(١) كتاب Keeping Faith لـCarter، ص. ٢٧٥

(٢) المصدر السابق، ص. ٣١٥

عددًا على اليهود، كان أمرًا صعبًا على السياسيين الإسرائيليين قبوله، غير أن انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة والموافقة على إنشاء دولة فلسطينية مجاورة، كان أشبه بوهب ثقة عمياء تتجاوز مشيئة معظم الإسرائيليين، نظرًا إلى رغبة معظم العرب القوية في «محو إسرائيل من الوجود». اختلفت آراء اليمين الإسرائيلي مثل آرييل شارون وإسحق رابين في ما إذا كان من الأفضل إبقاء السيطرة العسكرية على الدول المجاورة أي لبنان وسوريا والأردن ومصر، فيما نشروا المستوطنات اليهودية وأبقوا فلسطين التي كانت لا تزال خارج سيطرتهم معدمة وعاجزة ومنقسمة قدر الإمكان.

فكان من مصلحة كارتر أنه لم يرَ أي خير في عناد إسرائيل. ونظرًا إلى حاجة الولايات المتحدة إلى النفط من الشرق الأوسط، لم يكن من مصلحة أميركا الإستراتيجية أو من مصلحة إسرائيل، إذا رغبت هذه الأخيرة في الحصول على دعم الدول الغربية السياسي والعسكري والاقتصادي المستمر. ولذلك أعلن كارتر أنه لا بدّ من أن يكون للفلسطينيين أرض.

وبالعودة إلى الماضي، اقترف الزعماء العرب خطأً فادحًا في عدم الموافقة على خطة لجنة بيل البريطانية لتقسيم فلسطين في العام ١٩٣٧، التي كانت ستعطي المستوطنين اليهود خمسة عشر في المئة من فلسطين، على أن يحافظ الفلسطينيون على خمسة وثمانين في المئة من أراضيهم. ثم اقترفوا بعدها (مع الدول العربية المجاورة) خطأً آخر برفض خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧، في نهاية انتداب بريطانيا، عندما بقي ستة وخمسون في المئة من الأراضي المنتدبة مخصصة لهم.[١] ويذكر أن الخطة الثانية وضعت في أثناء تفوق الفلسطينيين عددًا على الإسرائيليين باثنين مقابل واحد، ما جعل التقسيم غير عادل، ولكن هل كانت هذه الأخطاء في الحكم سببًا لاستمرار الفلسطينيين تحت احتلال اليهود العسكري كأسرى حرب، أو ليعيشوا لاجئين يفتقرون إلى أدنى الحاجات الأساسية في دول

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/1947_UN_Partition_Plan#cite_note-5

أخرى؟ أراد كارتر أن يكون للفلسطينيين «حق الانتخاب والاجتماع ومناقشة القضايا التي تؤثّر في حياتهم، وحق الملكية من دون الخوف من مصادرة أملاكهم وحق التحرر من الحكم العسكري»، ما يؤدّي إلى قيام دولة فلسطينية، حتى ولو بقي سبعة وسبعون في المئة من الدولة العربية الأساسية بأيدي الإسرائيليين، حالما ينسحب هؤلاء من الأراضي العربية المحتلة.

لم تبدُ التوقعات لإيجاد حل إيجابي في الشرق الأوسط جيدة عندما أصبح كارتر رئيسًا. ولم تتحسن هذه التوقعات عندما بالغ رئيس الوزراء إسحق رابين حيال مقتل خمسة وثلاثين إسرائيليًا في حافلة على يد عضو فاسد من منظمة التحرير الفلسطينية، التي سعت إلى تمثيل العرب الفلسطينيين. وباحتلالها جنوب لبنان، قتلت قوات رابين آلاف المدنيين الأبرياء، ما ذكر بردّ النازيين على الاعتداءات الحزبية في الحرب العالمية الثانية، وأثارت القلق حيال ما إذا كانت إسرائيل سعت إلى توفير مجال حيوي إضافي لها في لبنان هذه المرة. وحتى ذلك الحين لم يستطع كارتر فعل أي شيء غير حظر بيع قنابل عنقودية إضافية لإسرائيل، نظرًا إلى قوة مجموعة التأثير في البرلمان في أميركا. وفور هزم رابين على يد رئيس الوزراء الجديد مناحيم بيغن، وهو يميني إسرائيلي آخر، دعا كارتر شبه يائس إلى عقد قمة في كامب ديفيد ليرى ما إذا كان من الممكن إيجاد حل أقله للحرب القائمة بين إسرائيل ومصر، التي كان رئيسها أنور السادات. وبقراءة سيرتي حياة الزعيمين، أدرك كارتر أن بيغن ولد في برست ليتوفسك وكان مطلوبًا من قبل بريطانيا بتهمة القتل الجماعي بصفة إرهابي من منظمة الإرغون في فلسطين في العام ١٩٤٦-١٩٤٧ (إذ كان مسؤولاً عن قتل ٩١ شخصًا). وكرئيس لحزب حيروت في إسرائيل وبنصيحة من قبل عضو منظمة الإرغون شموئيل كاتس، أصبح بيغن ملتزمًا توسيع المستوطنات الإسرائيلية، خصوصًا في جوديا وسماريا بدلاً من عقد معاهدة سلام (اعتُبرت وهمية) قد تضمن السلام في دولة إسرائيل الهشة.

من جهته، عارض الرئيس السادات أيضًا الهيمنة البريطانية، وبالتالي سُجن على يد البريطانيين في مصر في الحرب العالمية الثانية لمساعدة هتلر وموسوليني على

جهودهما «للتحرير» في شمال أفريقيا. فأصبح بذلك هو أيضًا ثائرًا وشارك في انقلاب على ضباط مصريين أطاح الملك فاروق، وقد أصبح هو بعد ذلك نائب رئيس الكولونيل عبد الناصر. كان قرار السادات مهاجمة شبه جزيرة سيناء في «حرب أكتوبر» في العام ١٩٧٣، على الرغم من فشلها، قد جعل منه «بطل العبور» في العالم العربي، وهو لقب، أدرك كارتر في ما بعد، أنه قد يجعل من السادات قويًا بما يمكنه من قلب سير الأحداث وتوقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، في حال استطاع هو انتزاع تنازلات من بيغن. أصبحت الأيام الثلاثة المقررة لعقد القمة في كامب ديفيد مع السادات وبيغن التي بدأت في الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٧٨، ثلاثة عشر يومًا. فكانت الولايات المتحدة، بصفتها المزود الرئيسي بالأسلحة والأموال لإسرائيل، قادرة على الضغط عليها للقيام بتنازلات قد تؤدّي إلى إحلال السلام في المنطقة. ولكن نظرًا إلى تأثير أصحاب الرأي وجماعات الضغط والناخبين اليهود المدرَك في الولايات المتحدة، لم يجرؤ أي رئيس أميركي على المخاطرة باتخاذ موقف مؤيد للفلسطينيين قد يؤدّي إلى توسع الاحتجاجات (وردود الفعل العنيفة في الانتخابات). وقد حذّر مساعدو كارتر أن فشل «القمة» قد يغذي فكرة أن الرئيس كان حسن النية ولكن غير كفوء.

وفي كامب ديفيد، أثبت بيغن أنه كان أكثر تعنتًا من السادات. فقد ارتفع عدد السكان العرب في الضفة الغربية، وهي منطقة تقتصر تقريبًا على المسلمين والمسيحيين، حكمها الأردن بعد العام ١٩٤٨ واحتلتها القوات الإسرائيلية منذ حرب السويس في العام ١٩٦٧، من ستمئة ألف إلى سبعمئة ألف مع نسبة يهود تقل عن واحد في المئة. فبقي بيغن مصمّمًا بشدة على تغيير هذا الواقع. وكان هدفه يقوم على زيادة عدد السكان اليهود في الضفة الغربية مما كان عليه في العام ١٩٦٧ بمئة مرة، وكانت هذه الخطة إستراتيجية ديموغرافية ستثير من دون شك السكان الفلسطينيين، ولكن كان نجاحها سيفرض على العالم أمرًا واقعًا، مما كان سيجعل انسحاب الإسرائيليين الكلي مستحيلاً سياسيًا بوجه مطالبات الصهيونيين بأن تكون المستوطنات موقتة.[١]

(١) http://www.donteverstop.com/files/apn/upl/assets/pressconf191005.ppt#256,3 الشريحة رقم ٣.

كانت اتفاقات كامب ديفيد التي رعاها الرئيس كارتر بنجاح في أيلول/سبتمبر ١٩٧٨ ستؤدّي إلى سلام دائم بين مصر وإسرائيل، وكانت ستكسب بحق الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغن جائزة نوبل للسلام. فدهش الأميركيون من عصا السلام السحرية التي حملها كارتر وارتفعت استطلاعات الرأي المؤيدة له خمسين نقطة في غضون أربعة أسابيع. وحتى صحيفة والستريت هنأته على «قيادته الملهمة».[١]

أما وراء الكواليس فقد كانت كامب ديفيد كارثة مطلقة، فعلى الرغم من موافقة بيغن على سحب القوات الإسرائيلية والمستوطنين المستقبليين من سيناء وبالتالي فك الحصار عن الجيش المصري، لم يتحسن أي شيء بالنسبة إلى الفلسطينيين. فتراجع بيغن عن التزامه إيقاف المستوطنات اليهودية وسحب القوات الإسرائيلية العسكرية من الضفة الغربية وغزة. وكما كتب كارتر بحزن بعد ثلاثين سنة «لم يمنح الإسرائيليون يومًا حكمًا ذاتيًا ملموسًا للفلسطينيين وبدلاً من سحب جنودهم وسيطرتهم السياسية، شدّد القادة الإسرائيليون سيطرتهم على الأراضي المحتلة».[٢] وفي وقت متأخر، أدرك الرئيس أنه كان ضحية «الاحتيال».

وبحسب ما كتبه مساعد كارتر في البيت الأبيض وكاتب سيرته، بيتر بورن، خدع بيغن كارتر في حمله على تصديق أن الإسرائيليين وافقوا على وقف بناء كل المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية. وقال: «على الرغم من حسن نيته كانت حسنة، حول بيغن الحقيقة ببساطة لتلائم جدول أعماله الصهيونية. فقد أعلن بيغن لاحقًا بعد انتهاك الاتفاق، أنه عنى أن بناء المستوطنات سيؤجل ثلاثة أشهر فقط». وبذلك، سمح بيغن ورؤساء الوزراء الذين خلفوه، باستيطان أكثر من ربع مليون إسرائيلي في الضفة الغربية على مر الثلاثين عامًا التي أعقبت الاتفاقات، على الرغم من الأحكام الواضحة التي تم الاتفاق عليها في كامب ديفيد والتي نصت على الانسحاب التام.[٣]

(١) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٤١١.
(٢) كتاب Palestine Peace Not Apartheid لـ Carter، ص. ٥٢.
(٣) كتاب Jimmy Carter لـ Bourne، ص. ٤١١.

كان لا بد من خيبة أمل كارتر جراء ظهور فشله التام في العقود القادمة. «فبفضل المعاهدة الثنائية، سحبت إسرائيل قوة مصر الملحوظة من التسوية العسكرية في الشرق الأوسط، ما سمح لإسرائيل باستعادة حرّيتها للسعي إلى تحقيق أهداف أقليّة متحمّسة ومتفانية من بين مواطنيها، تتلخّص بمحاولة مصادرة الأراضي المحتلة وتحصينها».[1] كان ذلك بالنسبة إلى الصهاينة المتعصبين ولادة مقدسة، أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة فقد عنى ذلك دمارًا كان سيؤدّي إلى احتجاجات مندّدة بالأميركيين في العالم العربي ومهاجمة القواعد الأميركية والموظفين الأميركيين وتزايد تهديد الأمن الداخلي في أميركا. وكان ذلك، في وقوعه، كارثة.

أشار المؤرّخون في هذا السياق إلى أن قيادة إمبراطورية عظيمة بدلاً من مجرد دولة، كان يتطلب أكثر من نية حسنة لتحقيق السلام. فقد حاول كارتر بكل بساطة التصرف كوسيط نزيه بين عدوّين متحاربين، وليس كإمبراطور أميركي استطاع، نظرًا إلى اعتماد إسرائيل على الدعم العسكري والاقتصادي الأميركي، إجبار إسرائيل على الانسحاب من سيناء ووقف الاستيطان غير الشرعي في غزة والضفة الغربية وضمان ولو موطن صغير للفلسطينيين في المنطقة. فتوقفت التهديدات بتوسع السوفيات في المنطقة عند إرسال مصر مستشاريها الروس إلى موطنهم، ففي الواقع لم تُظهر أية دولة عربية في الشرق الأوسط أي اهتمام ملحوظ تجاه الشيوعية. وبغياب الوجود السوفياتي في الشرق الأوسط، كانت الولايات المتحدة قادرة على العمل المحايد الضامن للسلام والنفط في المنطقة. ولكن بدلاً من ذلك، ونتيجة قمة كامب ديفيد، بدت إسرائيل وكأنها «تحالفت مع أميركا في جميع النواحي إلا من حيث التعبير».

ظهرت نتائج هذا التحالف ببطء. فقد ارتعبت دول عربية أخرى كالأردن والسعودية ورفضت ضمّ جهودها إلى اتفاقات سلام أوسع في المنطقة، طمح إليها كارتر حقًا. وفي قمة مجموعة السبع في طوكيو في العام ١٩٧٩، دان رئيس الوزراء الألماني شميدت ودول أخرى من حلف شمال الأطلسي «تدخل» كارتر في الشرق

(١) كتاب Palestine Peace Not Apartheid لـ Carter، ص. ٥٢.

الأوسط الذي أثار منتجي النفط العرب وحملهم على رفع أسعار النفط للمرة الرابعة في خلال خمسة أشهر. فارتفعت أسعار النفط في أميركا أكثر فأكثر، ما عرّض الرئيس الذي اعتمد على الدعم الشعبي بدلاً من دعم الكونغرس أو الحزب، لمشكلات داخلية خطيرة. وبإغلاق تسعين في المئة من محطات البنزين في نيويورك في نهاية الأسبوع في الرابع من تموز/يوليو، بدأ الشعب يتساءل «ماذا يفعل كارتر في اليابان وكوريا فيما كل المشاكل كانت في الداخل؟»، بحسب ما قال له مساعده الرئيسي هاميلتون غوردان.[١]

وباعتباره رقيقًا جدًا من قبل المحافظين ومحافظًا جدًا (ومربكًا) من قبل الليبراليين، لم تبدِ رئاسة كارتر وسطية بقدر ما بدت تفتقر إلى التناسق وحسن الحكم والتوجه. فأعلن نائب الرئيس والتر مونديل أنه يودّ الاستقالة لأن الرئيس لم يعد يمثل الحزب الديمقراطي، بتبادل «نظرة معظم واشنطن أن كارتر وموظفيه كانوا غير أكفاء وعاجزين عن فهم آلية الكونغرس الداخلية وغير قادرين على إيصال رؤية واضحة ومقنعة إلى الشعب»، بحسب ما قاله بيتر بورني.[٢] وفي نهاية المطاف، قال مونديل لكارتر في وجهه إن مقاربته للرئاسة كانت خاطئة تماماً.

وبما يصب في مصلحته، صنع كارتر التاريخ بدعوته مئة وخمسين شخصًا إلى كامب ديفيد في ثمانية أيام، واستمع بانتباه إلى انتقاداتهم وشكاواهم. وفي الخامس من تموز/يوليو ١٩٧٩ ، وجه الرئيس إلى الأمة خطابًا مدروسًا نال ترحيبًا حسنًا على شاشة التلفاز، مدركاً خيبة أمل الأميركيين الذين كانوا ينتظرون في الصفوف في محطات البنزين، ومشدّدًا على الطاقة التي شكلت اختبارًا مهمًا لإرادة الدولة. وبعدها طلب إلى الحكومة كلها وموظفي البيت الأبيض الاستقالة.

غير أنّ مجزرة البيت الأبيض، كما سميت فورًا، أعطت طابعًا معاكسًا للتصفية الداخلية بالنسبة إلى نية كارتر. فقد غرقت واشنطن في موجة أزمات داخلية. إذ

(١) كتاب Bourneل Jimmy Carter، ص. ٤١١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٤٣.

عين الرئيس هاميلتون غوردان رئيسًا للقطاع السياسي، غير أن مستشار الأمن القومي زبغنيو بريجنسكي رفض إطاعة أوامره، ولم يكن الوحيد الذي رفض ذلك. وبمرور الأسابيع، اندمج خطاب الرئيس الذي نال تقديرًا في الخامس عشر من تموز/يوليو مع «المجزرة» وحس الأزمات، فعُرف في وقت لاحق بخطاب «الضيق».

وبالفعل بدا الضيق يؤثّر في كارتر، بالمعنى الحرفي. ففي الخامس عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٧٩، وبعد نقض تهديدات موظفيه أجمعين، شارك الرئيس في سباق برعايته على طول عشرة كلم بالقرب من كامب ديفيد وانهار أمام الكاميرات فتم نقله فورًا، ما دفع الكاريكاتوريين جميعاً في العالم إلى استغلال الحادثة كرمز لنهاية ولاية الرئيس. وكان ذلك على الرغم من انخفاض التضخم الذي ثبت على نسبة ستة في المئة فيما ارتفع النمو الاقتصادي بالوتيرة نفسها واستقرت البطالة على نسبة ستة في المئة أيضًا، فضلاً عن مجموعة كبيرة من التشريعات التي كانت تمر أخيرًا بالكونغرس، أي مشاريع القانون المتعلقة بالمحافظة على الطاقة وإنشاء وزارة للتعليم وبالموافقة على مشروع إصلاحي تطوعي ومنح مساعدة مالية للطلاب المتوسطي المدخول وضمان تمويل أفضل للمدارس ورفع الضوابط عن النقل بالشاحنات والقطارات وعن القطاع المصرفي والاتصالات.

كان ذلك قليلاً جدًا ومتأخرًا ومفرقًا جدًا. وفي غداء في البيت الأبيض في العشرين من أيلول/سبتمبر ١٩٧٩، نقل السيناتور تيد كينيدي أنباءه السيئة. كانت احتمالات إعادة انتخاب كارتر ضئيلة، إذ إن ٧٠٪ من الناس الذين شاركوا في الاستطلاع لم يؤمنوا بإمكانية إعادة انتخابه، وقرر كينيدي الترشح ضده في تعيينات حزبهما.

وفي بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، مهد كينيدي لإعلان ترشيحه رسميًا للرئاسة، ولكن قبل أن يتمكن من ذلك، حلّت كارثة من نوع آخر.

في كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، اختار شاه بلاد فارس النفي الموقت بغية «الراحة واستعادة عافيته». وفي شباط/فبراير، توجّه آية الله الخميني ذو الثامنة والسبعين،

من منفاه في باريس إلى طهران. فسار ملايين الأشخاص في الشوارع، فيما بقي الجيش على الحياد في انتظار ما سيحدث. من جهة أخرى، حاصرت مجموعة من العصابات الماركسية السفارة الأميركية، في حين واجههم مؤيدو الخميني. وسرعان ما بدأ الثوار المسلحون المؤيدون للخميني يعتقلون الأفراد وينفّذون الإعدامات في كل أنحاء البلد. وفي خلال الأشهر التالية عملت حكومة مهدي بازركان العلمانية مع سلطة الخميني وهي سلطة الأمر الواقع الدينية ولكن في ظلّ أجواء متوتّرة ومشدودة، فأعلنت الحكومة الإيرانية التزامها تجاه القضية الفلسطينية، ما يتعارض مع سياسة الشاه المناصرة لإسرائيل، ومع ذلك أعلنت أيضًا التزامها التام استكمال علاقات طيبة مع الولايات المتحدة. أما على الصعيد الشعبي، فاستمرت العصابات تردد بغضب شعارات مناهضة للولايات المتحدة بالنظر إلى الدعم العسكري والاقتصادي الذي توفّره لإسرائيل، مطالبة بعودة الشاه للمحاكمة.

من جهة أخرى، صَعُب فهم لم سمح الرئيس كارتر للشاه الفاحش الثراء، الذي نقل منفاه إلى جزر الباهاما ومن ثمّ إلى المكسيك، بزيارة الولايات المتحدة للعلاج. فمن دون شك، حذّر من تبقى من فريق عمل السفارة الأميركية في طهران الرئيس من خطورة الأمر، ولكن هنري كيسنجر وزبغنيو بريجنسكي مارسا الضغط على الرئيس لمصلحة الشاه، مساهمين باتخاذ أحد أكثر القرارت خطورةً في تلك الحقبة (ولكن بطبيعة الحال، لم يقبل أي منهما تحمّل مسؤولية هذا القرار). في المقابل، وعدت حكومة بازركان بعدم القيام بأي تحرك انتقامي، ولكن بالنظر إلى وضع البلد المضطرب، كان هذا الوعد خُلّباً. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٩، أُدخل الشاه مستشفى سلون كيترينغ ميموريال. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى إيران، هاجمت عصابة مسلّحة من الثوار السفارة الأميركية في طهران يوم الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، ولكن هذه المرة من دون أي تدخل أو اعتراض من الحكومة أو قوات الخميني. أخذ الثوار كل أعضاء فريق عمل السفارة، الثلاثة والستين، رهائن بالإضافة إلى ثلاثة دبلوماسيين أميركيين كانوا يزورون وزارة الخارجية الإيرانية في

ذلك اليوم.[1] وقام الثوار بذلك العمل باسم الخميني مطالبين بعودة الشاه إلى إيران ومواجهة «عدالة الثوار».

وتجدر الإشارة إلى أنّ كارتر كان قد سأل بتبصر فريق عمله قبل بضعة أشهر «هل بمقدور أي منكم أن يقول لي ماذا يمكننا أن نفعل إن احتُجز دبلوماسيونا العاملون في السفارة كرهائن؟» ساد حينئذ الصمت، ولم يُجب حتى نائب الرئيس. فعلّق الرئيس وأجاب بما تحوّل إلى نبوءة «لا أظن ذلك» واستكمل الرئيس كلامه متأملاً «في ذلك اليوم، سنجلس هنا بوجوهنا الشاحبة والمدهوشة ونكتشف أننا تعرّضنا لضربة موجِعة».[2]

ها قد أتى هذا اليوم، ولم يكن بريجنسكي يملك أي خطة للحالات المماثلة. فأمر كارتر باقتراب أسطول أميركا السادس مع حاملتي طائرات حربية من الساحل الفارسي. ولكن مع تهديد آية الله الخميني بإخضاع الرهائن الأميركيين إلى المحاكمة وتدمير السفارة الأميركية إن قامت الولايات المتحدة بأية محاولة لإنقاذ الرهائن، لم يكن أمام كارتر سوى الاعتراف بأنّه عاجز عن القيام بأي خطوة باستثناء إيقاف تصدير النفط إلى إيران وتجميد كل الأصول الإيرانية في الولايات المتحدة، إلا إذا أراد إشعال حرب بسبب هذه الحادثة. وفي السابع من نيسان/أبريل ١٩٨٠، قطع الرئيس العلاقات الدبلوماسية مع إيران، ومن ثم في الحادي عشر من الشهر عينه أشار إلى فريق عمل الأمن القومي أنه أراد خطة إنقاذ، وكانت وزارة الدفاع قد أعدت هذه الخطة وأصبحت جاهزة للتطبيق.

وفي الرابع والعشرين من نيسان/أبريل، أُطلقت العملية باسم إيغل كلو (عملية مخالب النسر Eagle Claw Operation). وفي خلال العملية تم استعمال الطوافات التي نقلتها حاملة الطائرات الحربية يو أس أس نيميتز لتلتقي في صحراء إيران قوة الإنقاذ التي نُقل أعضاؤها على متن معديات هرقل سي ١٣٠. من ثمّ نُقلت قوة الإنقاذ

(١) تم إطلاق ١٣ في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ وواحد في تموز/يوليو ١٩٨٠ فيما بقي ٥٢ مُحتجزين.
(٢) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٤٥٥.

بطوافات نيميتز إلى حيث كان مقررًا أن تحط خفية خارج طهران ليلاً وتنتزع الرهائن من مخالب معتقليهم في اليوم التالي.

في الواقع، كان من الغريب أن يوافق الرئيس على عملية سخيفة كهذه بالنظر إلى حلمه في شبابه أن يكون قائدًا للقوات البحرية. فحذّر سايروس فانس، وزير الخارجية الرئيس ولوّح بالاستقالة التي ستصبح نافذةً في اللحظة التي يبدأ فيها تنفيذ العملية وقال متنهّدًا: «أنا أضمن لك أنَ خطبًا ما سيقع، فالأمور لا تسير أبدًا كما يقولون».[1]

في المقابل، أمر كارتر بإيقاف العملية، وسط عواصف رملية ووجود مفاجئ لأفراد الجيش الإيراني ووقوع حادث مميت أسفر عن مقتل ثمانية جنود أميركيين وترك ست طوافات أميركية في الصحراء ومعدية سي ١٣٠ محروقة وملفات سرية تضمّ لائحة بأسماء سائر عملاء وكالة الاستخبارات المركزية العاملين في طهران. وروى بيتر بورن عن الحادثة ما يأتي: أعطت خطة الإنقاذ غير المتقنة «انطباعًا أنّ الرئيس عاجز عن الدفاع عن شرف أمته في وجه ثالث قوة في العالم».[2]

على صعيد آخر، لم تكن كارثة أسر العاملين في السفارة الأميركية المأساة الوحيدة التي حلّت على الرئيس كارتر في عهده. في الواقع، بدلاً من استكمال مسيرة حذرة للمحافظة على الانفراج في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، قام بخطوة كارثية أخرى، وهذه المرة في ما يتعلّق بأفغانستان. فالاتحاد السوفياتي كان يزوّد الملك الأفغاني المستشارين العسكريين والأسلحة منذ العام ١٩٣٣، وأصبح في العام ١٩٧٣ يزوّد حاكمها الديكتاتوري الماركسي. وفي صيف ١٩٧٩، سمح كارتر لزبغنيو بريجنسكي أن يحاول نسخته من «اللعبة العظيمة» وهي لعبة المنافسة الاستبدادية في التفوّق في آسيا الوسطى التي تعود إلى سنوات بعيدة.

ولكن، كانت خطة بريجنسكي غبيةً جدًا نظرًا إلى فترة الانفراج، فكانت

(١) المصدر السابق، ص. ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق.

تقضي الخطة بحثّ الاتحاد السوفياتي على اجتياح أفغانستان كيما يعلق جيشه في مأزق مشابه لمأزق الجيش الأميركي في أفغانستان. وعندئذٍ، ستقوم الولايات المتحدة بما لم تفعله طوال فترة الحرب الباردة وهو، إلى حد كبير ومباشرةً، دعم تيار المعارضة في أفغانستان الذي يهدف إلى محاربة الجيش السوفياتي»[1] حسبما قال بريجنسكي متفاخرًا. وشرح بريجينسكي باعتزاز قائلاً: «ووفقًا للنسخة الرسمية «لم تتدخل وكالة الاستخبارات المركزية إلا بعد اجتياح روسيا لأفغانستان، ولكن الحقيقة التي بقيت مخفيةً حتى هذه اللحظة (١٩٩٨) هي أنّ الرئيس كارتر وقّع في الحقيقة الخطوط التوجيهية الأولى قبل الاجتياح بستة أشهر في الثالث من تموز/يوليو ١٩٧٩، معطيًا توجيهاته لوكالة الاستخبارات المركزية بتقديم المعونة لمعارضي النظام الأفغاني المناصر للاتحاد السوفياتي. وفي ذلك اليوم كتبت ملحوظةً للرئيس شرحت فيها وجهة نظري أن هذه المساعدة ستجرّ السوفيات نحو تنفيذ الاجتياح».[2]

فأطلق الرئيس كارتر في ذلك اليوم عملية سايكلون التي تقضي ببذل جهود جبّارة لتسليح الثوار المجاهدين وتمويلهم سرًا بغية زعزعة استقرار النظام الأفغاني وإجبار السوفيات على التدخل ليس من خلال المستشارين فقط تمامًا كما حدث مع الولايات المتحدة في الفيتنام عام ١٩٦٤. ومن هنا، شكّل مقتل مئة مستشار روسي الحجة الدامغة. ارتدى الروس الزي الأفغاني وحاصروا كابول بهجوم مفاجئ في السابع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩، وقتلوا الرئيس الشيوعي حفظ الله أمين وعيّنوا مكانه مستبدًا شيوعيًا أكثر امتثالاً للاتحاد. وفي الوقت عينه، قامت قوات البر السوفياتية بقيادة المارشال سولوكوف باجتياح أفغانستان من الشمال. فكانت حينئذٍ سعادة بريجنسكي عارمةً.

(١) مقابلة مع زبغنيو بريجنسكي في أرشيف الأمن القومي
.http://www.gwu.edu/~nsachiv/coldwar/interviews/episode-17/brezinski1.html

(٢) مقابلة لفنسنت جوفير Vincent Jauvert نشرت في صحيفة Le Nouvel Observateur في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٩٨ مع Zbigniew Brzezinski فقال هذا الأخير: "أجل، الاستخبارات الأميركية دخلت أفغانستان قبل الروس".

على صعيد آخر، حرص الروس، بطريقة بشعة، على تحديث المجتمع الأفغاني الإسلامي الإقطاعي من خلال حكومة كابول. في المقابل، عملت الولايات المتحدة على البقاء خارج هذا الوضع المعقد، لكونها لا مصلحة لها فيه. لكن، وبفضل بريجنسكي كان العكس صحيحًا.

وبما أنّ تحفيز وكالة الاستخبارات المركزية المتعمَد للروس على تنفيذ الاجتياح بقي سرًا، تظاهر الرئيس كارتر بالدهشة وبالاشمئزاز من توغل الروس. وأعلن للشعب الأميركي وللعالم في الرابع من كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، أنه سيفرض حظرًا على الحبوب الأميركية المُصدّرة إلى الاتحاد السوفياتي، مُضرًا بالمزارعين الأميركيين ذوي الإنتاجية العالية وبالروس. كذلك قرر أنّ الولايات المتحدة ستقاطع الألعاب الأولمبية التي ستجري في موسكو في العام ١٩٨٠.

وفي العام ١٩٩٨، سئل بريجنسكي «ألا تندم على هذا اليوم؟» فردّ حاسمًا «أندم على ماذا؟ كانت عملية وكالة الاستخبارات المركزية فكرةً ممتازةً... فقد نجحت في استدراج السوفيات إلى الفخ الأفغاني، تريدونني أن أندم على هذا؟ في الحقيقة، وفي اليوم الذي عبر الروس رسميًا الحدود كتبت للرئيس فورد قائلاً: «أمامنا فرصة لجعل الروس يقعون في مأزق يشبه مأزقنا في الفيتنام».

كان محقًا في قوله هذا. فقد استمرّت الحرب الروسية عشر سنوات، حاربوا في خلالها في جبال أفغانستان على أرض يتعذر اجتياحها. وتطلبت هذه الحرب ست مئة وعشرين ألف جندي روسي، لقي خمسة عشر ألف منهم حتفهم، وأصيب أربعة وخمسون ألفًا بجروح، وأربع مئة وخمسة عشر ألفًا بالمرض قبل انسحاب الكرملين. وقال بريجنسكي، في هذا الصدد، متفاخرًا: لقد كان عقدًا صعبًا جدًا «وضع حدًا للإمبراطورية السوفياتية». وسأل «ما هو الأهم بالنسبة إلى التاريخ؟ انهيار الإمبراطورية السوفياتية أم طالبان؟ مجموعة من الأصوليين الإسلاميين أم تحرير أوروبا الوسطى وإنهاء الحرب الباردة؟» حين قيل له أن الأصولية الإسلامية أصبحت تشكل بحلول العام ١٩٩٨ «خطرًا عالميًا» قاطع بريجنسكي المقدَم وقال

له كلمات أصبحت خالدة: «لا تكن أحمق! لا وجود لخطر إسلامي عالمي آت من الشرق. إنّ فكرة الأصولية الإسلامية غبيةٌ جدًا!»[1]

وُلد بريجنسكي في بولندا، وكبر في كندا في خلال الحرب العالمية الثانية، عندما اجتاح النازيون بولندا ومن ثم عندما أصبحت دولة تابعة، لذلك كان بريجنسكي متعصبًا في خلال الحرب الباردة. فهو لم يكن يرى أي فائدة من الانفراج. فبدلاً من يرى أنّ أن الإمبراطورية الشيوعية كانت متعثرة وأنها سوف تتفكك تدريجًا بسبب نقاط ضعفها الموجودة، انضمّ إلى الجمهوريين في خشيتهم من تنامي قوة الاتحاد السوفياتي والوصول إلى العاصمة واشنطن وغيرها من عواصم العالم الحرّ. وزعم أنّ «في ذلك الوقت، كان السوفيات يرددون أنّ كفة الميزان في التاريخ رجحت لمصلحتهم: وأنّ الاتحاد السوفياتي سيتفوق علينا في الأداء الاقتصادي ويتقدّمنا في التخطيط الإستراتيجي وكان يحمل راية صراعات التحرير الوطنية. كان الاتحاد السوفياتي يتقدم نحو إفريقيا كما أنّ لديه نقطة انطلاق في أميركا اللاتينية». فبالنسبة إليه، كان هذا كافيًا للتخلي عن الانفراج لمصلحة تنفيذ سياسة أميركية أكثر عدوانيةً، على غرار دعم الانتفاضة في أفغانستان، وفي العام ١٩٨٠، إطلاق التحذيرات للروس بعدم إرسال المزيد من القوات إلى بولندا للقضاء على تيار ليش فاليسا. قال بريجنسكي: «لن نقبل بعد الآن الانفراج، سنستعيد المنافسة في كل الميادين». وقال عن عقيدة كارتر الجديدة أنها إستراتيجية جديدة للحرب الباردة تجاهلت تمامًا نمو الأصولية الإسلامية وكيفية تأثير هذا في اعتماد أميركا الكبير على النفط وليس الاتحاد السوفياتي.[2]

مع انتهاء مرحلة الانفراج، وعدم وضع حدّ للحركة الاستعمارية الإسرائيلية في الأراضي المحتلّة، واستمرار النقص في تلبية حاجات النفط وارتفاع أسعار الغاز بشكل مخيف على الصعيد الداخلي وارتفاع التضخم من جديد، لم تتم المصادقة

(١) المصدر السابق.

(٢) مقابلة مع Zbingniew Brzezinski في أرشيف الأمن القومي.

على اتفاقية سالت ٢، ولم تحلَّ أزمة الرهائن في إيران. وفي خضمّ كل هذا، بدت مناشدة الرئيس لكل أميركي «أن ينظر ويقول ماذا يمكننا أن نفعل لنجعل بلدنا يبدو ممتازًا» في حالة احتضار. وبدأ كارتر عندئذٍ يطالب الكونغرس بزيادة الإنفاق على الدفاع بنسبة خمسة في المئة، إضافةً إلى الثلاثة في المئة. فيما ازداد التضخم بشكل هائل في نيسان/أبريل من العام ١٩٨٠ ليصل إلى عشرين في المئة، فيما ارتفعت نسبة الفائدة على الاحتياطي الفدرالي إلى ثماني عشرة في المئة. بالإضافة إلى ذلك، ارتفعت نسبة البطالة في بعض المناطق من المدن مثل شيكاغو إلى خمس وعشرين في المئة.[١] وهكذا، وعلى الرغم من مواجهة كارتر الواضحة والصريحة للاتحاد السوفياتي، أصبح المشهد الاقتصادي بالنسبة إلى المواطن الأميركي العادي أكثر سلبيةً مما كان عليه عندما تسلّم كارتر سدة الرئاسة. وفي المقابل، صبّ هذا الواقع في مصلحة خصومه.

من الممكن أن يعكس تغيير إدارة كارتر المفاجئ نحو اليمين مجرّد نمط لا بدّ منه في الثقافة والسياسة الأميركيتين. من جهة أخرى، فتح هوس بريجنسكي بالشيوعية الروسية أبواب جهنم على الجمهوريين تمامًا مثلما جرى مع باري غولدواتر ورونالد ريغان، خصوصًا وأنّ أزمة الرهائن في إيران لم تُحل بسرعة.

وفي هذا السياق، اعترف بريجنسكي بأن أزمة الرهائن في إيران «شكلت ضربةً قاسيةً على الصعيد السياسي» بالنسبة إلى رئيسه ولكن ليس بالنسبة إلى أميركا. أما بالنسبة إليه، فهو يرى أن لا أهمية لأي شيء بعيدًا عن إثبات إستراتيجية أميركا الاستبدادية، التي لم تأخذ قط بالاعتبار بروز المحاربين الإسلاميين.[٢] كذلك، كان يعتبر أن الاتحاد السوفياتي إذ استطاع إرسال جيش إلى أفغانستان فيمكنه أيضًا إرسال قوات إلى إيران، فزعم أنّ «إيران ستكون أضعف من أفغانستان أمام الاتحاد السوفياتي، وفي كل الأحوال، فإن الخليج الفارسي سيكون مفتوحًا أمام قوات

(١) كتاب Jimmy Carter لـ Bourne، ص. ٤٥٨.

(٢) مقابلة مع Zbingniew Brzezinski في أرشيف الأمن القومي.

السوفيات الجوية التكتيكية من خلال القواعد التابعة لها في أفغانستان. من هنا، كنا نرى أنّ للتدخل السوفياتي في أفغانستان تبعات إستراتيجية مهمة بغض النظر عن الدوافع الكامنة خلفه».[1]

في المقابل، شكل هوس بريجنسكي بالشيوعية السوفياتية خطرًا على جدول أعمال السلام الذي يتبعه كارتر ووضع الرئيس في موقف حرج، خصوصًا وأنه كان يؤمن بشدة بحقوق الانسان. ولكن بالمقارنة بالمتشددين اليمينيين لم يكن خطاب الرئيس حول الحرب الباردة مقنعًا بما فيه الكفاية. وكذلك، أصبح سجلّه في السياسة الخارجية أكثر تعقيدًا من جهوده المبذولة على الساحة الداخلية. وبالتالي، رأى المحللون الإستراتيجيون الجمهوريون أن بإمكان أي خصم من اليمين الجمهوري إزاحته واحتلال مكانه. وبموازاة ذلك، رأى المحللون الإستراتيجيون الديمقراطيون في ربيع ١٩٨٠ أنّ سياسة كارتر المحافظة مثل التخلي عن انفراج العلاقات وزيادة الإنفاق العسكري جعلت منه ضعيفًا أمام أي خصم ديمقراطي ليبرالي على غرار تيد كينيدي.

في الواقع، وفي خلال الأسابيع الأولى من أزمة الرهائن في إيران، التفّ الأميركيون حول رئيسهم بدافع الحس الوطني، ولكن بعد أن «طال الانتظار» (بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الغاز) وقع كارتر في مأزق لم يستطع الهروب منه. وكذلك، تخلى عنه الناخبون اليهود عندما أعطى التعليمات لإدارته بمساندة قرار الأمم المتحدة الذي يقضي بتفكيك كل المستوطنات غير الشرعية في الضفة الغربية. فقال له مدير حملته محذرًا «إما أن تجد طريقة لتغيير ما جرى وإما سوف تخسر نيويورك». وقد كان محقًا فقد خسر الرئيس نيويورك في الانتخابات الأولية (كما خسر كونيتيكت المجاورة لنيويورك) لمصلحة السيناتور كينيدي بفرق قدره ستة عشر في المئة.[2] في الواقع كان كارتر يدير كارثتين الأولى «كارثة الرهائن والأخرى، كل

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٤٥٩.

سائر المسائل». وفي حين كانت نسبة التأييد للرئيس تتراجع إلى أدنى مستوياتها، بدا أنّ المنافسة في الرئاسة ستنحصر بين كينيدي وريغان.[1]

وفي خلال الانتخابات الأولية في ربيع العام ١٩٨٠، من جهة، ما انفكَّ كينيدي ينتقد زميله الديمقراطي من اليسار، ومن جهة أخرى، سدّد له ريغان الضربة تلو الأخرى من اليمين. ومع ذلك، رفض كارتر الاستسلام، معتمدًا على إيمانه بالله وعلى أن يفهمه المواطنون الأميركيون العاديون. وفي النهاية، تمسّك الرئيس كارتر في الثاني عشر من آب/أغسطس ١٩٨٠، بإعادة ترشيح نفسه وأعلن ذلك في خلال المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي، ولكن ذلك كان بعيد المنال. فوفقًا لاستطلاعات الرأي كان ريغان يسبق الرئيس بثلاثين في المئة، وبالكاد كان أمام الرئيس شهران لسد هذا الفرق.[2] فما كان أمام كارتر، في شهر تشرين الأول/أكتوبر سوى أن يأمل، بمعجزة، أن يتمكن من التفاوض للإفراج عن الرهائن الباقين في إيران، فيتم اعتباره منتصرًا بفضل إيمانه المسيحي وتضحيته، وليس بفضل خطاباته الشجاعة.

صحيح أن جيمي كارتر كان يتمتع بقوة العزيمة إلا أن أيامه كانت قد ولّت. فقد كان ريغان قد ارتكز في حملته الانتخابية في الجنوب على مبدأ «حقوق الولايات»، وهي تسمية مؤيدة لمعاداة الإدماج أو العنصرية. وعلى الرغم من أنه لم يرتّد يومًا الكنيسة، تمكن من حشد دعم واسع في صفوف المسيحيين الإنجيليين الذين تخلوا عن رئيسهم المعمداني المؤمن بأعداد هائلة. وفي خضمّ الضائقة الاقتصادية وحالة الضياع الدولية، بدا خطاب ريغان حول هراء معاداة الشيوعية، الذي كان يستخف به الليبراليون في الساحل الشرقي، أكثر وضوحًا من خطابات الرئيس. بالإضافة إلى ذلك، كان العفو الذي منحه الرئيس للذين تهربوا من الخدمة العسكرية في خلال حرب فيتنام لا يزال يغيظ المحبين لوطنهم من اليمينيين، فيما وجدت دعوات ريغان للاقتطاعات الضريبة ورفع المزيد من القيود عن التجارة

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٦١.

والصناعة آذاناً صاغية في صفوف الجماعات التي تمارس الضغط والممولين والناخبين.

وعلى الرغم من كونه ديمقراطيًا، لم يحظ كارتر يومًا بوجود قاعدة حزبية حقًا، سواء بين منظمي الحزب أو في اتحاد النقابات العمالية أو الكونغرس أو بين أعضاء مجلس الشيوخ. فقد اعتمد دومًا على الشعب الغامض الذي استجاب في العام ١٩٧٦ إلى وعد الصراحة المثالي الذي أقامه بعد سنوات من خداع نظام نيكسون، فضلاً عن إعلان رغبته في معالجة مشكلة الطاقة والنفط. ولكنه لم يحلها فعليًا إلا إذا كانت خطوط الغاز في المحطات تعتبر طريقًا فعالاً في الحد من الاستهلاك. بالإضافة إلى ذلك فشلت جهوده في الإصلاح الحكومي القائم على تنظيم الدوائر والاعتراض على إنفاق المحسوبية والاسترضاء وتعجيل إصلاح الخدمة الاجتماعية، من أجل إيقاف ريغان عن حث أنصاره على رؤية الحكومة على أنها المشكلة وليس الحل بالنسبة إلى مشاكل أميركا.

وفي الحملات السابقة، كان كارتر هو المتحدي دومًا وليس الذي يتم تحديه. وبدلاً من أن يقدّم نفسه كشاغل مكتب الرئيس الأساسي الواثق بنفسه في الأوقات الحرجة، ويقدم رؤية عن شكل ولاية كارتر الثانية، خاض صراعاً مع صورة ريغان وكأنهما في عراك شأناً هجومًا عليه مصوّرًا إياه شبه مختل عقليًا مستعدًا لإطلاق سباق تسلح نووي شامل، مفككًا بالتالي، مجتمع جونسون العظيم. كذلك، قال عنه إنه رجل كاذب، وممثل من الدرجة الثانية، مثير الكلام من دون أي معنى جوهري، فصوّره على أنه مصدر خطر في عالم عدواني.(١) وعلى عكس نصيحة فريق عمله، وافق كارتر على إجراء مناظرة تلفزيونية مع ريغان ليبين قصده للشأن العام. وقد تبين أن ذلك كان خطأً فادحًا.

وفيما بعد أشار تيب أونيل « حين يتعلق الأمر بفهم أحداث اليوم، يكون جيمي كارتر هو السياسي الأذكى الذي عرفته. فمدى معرفته كان استثنائيًا، فقد كان يتكلم

(١) المصدر السابق، ص. ٤٦٢.

بثقة على الطاقة والمسألة النووية والسفر في الفضاء والشرق الأدنى وأميركا اللاتينية وحقوق الإنسان والتاريخ الأميركي إضافة إلى أي موضوع قد يتم طرحه.»[١] ولكن لم يكن الذكاء هو المشكلة وإنما القيادة الفعالة والشخصية. وكذلك، أمضى ريغان حياته على شاشة التلفاز فحظي من خلال مواجهة تلفزيونية واحدة بفرصة تكذيب وصف كارتر له حتى أنَ معاون هذا الأخير قد ارتعد جراء الفكرة.

وبفضل الحملات الناشطة، عكس الرئيس في التاسع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠ تقدم ريغان في استطلاعات الرأي، بل كان متقدمًا بنقطتين، مع اقتراب مناظرة كليفلاند أوهايو المرتقبة في الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٠. وفي الواقع استمع جمهور التلفزيون برمته إلى صوت ريغان قليل الخشونة وإلى فكاهته، وقاموا بمقارنة ذاك الشيخ الهوليوودي الطويل والوسيم بالرئيس الصغير البشوش والذكي والتقي والحاد وسريع الانفعال في بعض الأحيان. بذلك، ارتقى الرئيس في أعين الشعب إلى مستوى الخدمة في المكتب الرئاسي الرسمي.

وعلى الرغم من كل ما رمى إليه كارتر، كان ريغان هادئًا ومن الصعب هزه لسبب وجيه. وكذلك وصل كتاب الرئيس السري الملخص حول السياسة الخارجية بشكل لا يصدق إلى ريغان، مما سمح له أن يتعرف كل حجج كارتر أو جوهره. والآن فشلت محاولات كارتر في رسم خصمه وكأنه شخص يصعب السيطرة عليه فشلاً ذريعًا، في حين كان ريغان يتنفس الصعداء وهو رابط الجأش وواثق بنفسه بما « أنهما سيبدآن من جديد».

بالإضافة إلى ذلك، استذكر رئيس أركان كارتر هاميلتون غوردان «لقد هرعنا إلى الأسفل واستقبلنا الرئيس وروزالين اللذين وصلا إلى وراء الكواليس»، فقال كارتر بذعر وهو يشدّ على يديه»: كيف كنت؟» فردّ غوردان هاتفًا « لقد ربحت أيها الرئيس! لقد فعلتها!»[٢]

(١) المصدر السابق، ص. ٤٢٨.

(٢) كتاب Crisis: The Last Year of the Carter Presidency لهاميلتون جوردان Hamilton Jordan، ص. ٣٥٧.

إلا أنَّ استطلاعات الرأي سرعان ما أظهرت خلاف ذلك، حتى أنَّ شقيق غوردان اعترف في مكالمة هاتفية أنه قد كان فاشلاً: فقال لغوردان «لقد أحسن الولد المخادع، فلقد أبلى أفضل من كارتر.»[1] بالإضافة إلى ذلك، أثبت أنَّ إيجاز ريغان كان مدمرًا بصفة خاصة. فقد سأل وهو ينظر مباشرة إلى كاميرا التلفزيون بنظرة المتألم «هل أنت أحسن حالاً مما كنت عليه من أربع سنوات؟ هل أصبح ذهابك إلى المتجر وشراء الأغراض منه أسهل الآن؟ هل انخفضت نسبة البطالة عن المعدل التي كانت عليه من أربع سنوات؟ هل ما زالت تحظى أميركا بالاحترام نفسه الذي عرفته من أربع سنوات في العالم؟ هل تظن أننا بأمان وأننا نتحلى بالقوة نفسها التي تحلينا بها منذ أربع سنوات؟؟»

بعد ذلك، روى غوردان أن كارتر أجبر على اتباع التكتيك نفسه، أي ما يسمّى بـ«مؤشر البؤس» ضد الرئيس فورد في العام ١٩٤٥. فقد عاد الآن ليطاردهم وبدا كارتر كلوح خشبي في الضوء تمامًا كما جرى مع فورد.

وكذلك، بدا وكأنّ حيازة ريغان لكتاب كارتر الملخص وانتصاره في المناظرة الرئاسية الوحيدة لا يكفيان، فكان هناك ما يشبه حالة تخريب ريتشارد نيكسون لمفاوضات السلام التي قام بها الرئيس جونسون في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٨، لا بل سبب أكثر فظاعة لنجاحه. وبسبب خوفه من قيام الرئيس بـ«مفاجأة تشرين الأول/أكتوبر» من خلال الحصول على الإفراج عن رهائن السفارة الأميركية في إيران، استخدم ريغان حملة مديره ويليم كاسي لعدة أشهر من أجل متابعة اتفاق «أسلحة من أجل الرهائن» السري مع إيران (التي كانت بحاجة ماسة إلى الأسلحة، في حال اندلعت الحرب بين إيران والعراق في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠). بالإضافة إلى ذلك، كان يستبعد كارتر التوصل إلى اتفاق على الأسس الاتفاقية على عكس ريغان. ومع ذلك، أدت موافقة آية الله على الإفراج عن الرهائن إلى ما بعد الانتخابات الأميركية إلى جعل كارتر يحظى حتمًا بالأمل الأخير في سحق ريغان.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٥٨.

بالإضافة إلى ذلك، لا يحمل تاريخ سياسة الولايات المتحدة الانتخابية أمثلة عديدة على سلوك سيئ وخيانة مماثلين قد برهنا عن فاعليتهما في كسب السلطة العليا. وفي الوقت الذي بقي كارتر غير عالم بعمل ريغان المنافي للقانون، تابع السعي وراء الإفراج عن الرهائن على طول الخطط الدبلوماسية التقليدية. لم يتم عقد أي صفقات وانتظرت الحكومة من نظيرتها الإيرانية أن تقرر. وبالتالي، وكما يتذكر هاميلتون غوردان في ظلّ المنافسة الضارية التي جمعت المتزاحمين، «أصبحت نتيجة الانتخابات بيد المتعصبين الموجودين في الناحية الأخرى من العالم الذين لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم، أي الثوار الذين يكرهون الولايات المتحدة ورئيسها التنفيذي. وفي حال وقع أمر دراماتيكي يوم الاثنين (تشرين الثاني/نوفمبر) كالإفراج عن الرهائن، فسيكون من شأنه أن يسمح لنا بكشف ريغان؛ فيمكن أن تعني إشارة سيئة يوم أحد البرلمان الإيراني فوز ريغان».[1]

تزامنت الأخبار الصادرة عن طهران مع عودة الرئيس إلى البيت الأبيض من شيكاغو حيث كانت حملته سيئة، فقد كان المجلس يعدّ شروطًا جديدة. فقد نجحت مكايد كاسي السرية (فكانت ستتم مكافأته ليصبح مدير وكالة الاستخبارات المركزية). كما استذكر غوردان من على متن سلاح الجو الواحد، أنّ كارتر قد اعترف « بمجموعة من الأخبار المذهلة» التي سيعتمد إنهاء الانتخابات الرئاسية عليها، مع العلم أنه لم يكن سيتم تقرير النتيجة « في ميشيغن أو بنسلفانيا أو نيويورك وإنما في إيران».[2]

في الحقيقة إنّ النتيجة قد حسمت في أميركا بالفعل من قبل وليم كاسي. وفي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٠، خسر كارتر بحسب الأصول الانتخابات ذات نسبة الإقبال المنخفضة، وسُحق بأغلبية ساحقة في مباراة ينال الرابح فيها كل شيء في المجمع الانتخابي، حيث حصل كارتر على ٤٩ صوتًا فقط مقابل ٤٨٩ لريغان.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٦١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٦٢.

كان كارتر مستاءً جدًا. وفي حين كان لا يزال يجهل خيانة ريغان، تابع البيت الأبيض بذل جهوده للحصول على قرار الإفراج عن الرهائن في طهران، مدعوماً بوعد آية الله الذي يقضي بتحريرهم. وعلى الرغم من أنّ إنجاز ما بعد الانتخابات هذا سيحرم كارتر، إلا أنه خطّط في حال جرت الأوضاع على ما يرام أن يسافر إلى ألمانيا لاستقبال الرهائن ليكون قادرًا على العودة لحضور حفلة التنصيب، ولكن فريق ريغان وعد الإيرانيين بمزيد من الأسلحة غير القانونية في حال أجّلوا توقيع هذا الاتفاق. وفي الساعة السادسة من يوم التنصيب، أي في العشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ قام المفاوضون الإيرانيون بتوقيع الاتفاق أخيرًا (في الجزائر العاصمة بما أنّ الولايات المتحدة قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إيران). وحين نادى كارتر ريغان ليعلمه بالبشرى السارة، أخبروه أنّ هذا الأخير لا يزال نائمًا ولا يمكن إزعاجه. فكان ذلك أشبه بنهاية مذلة لرئاسة جمهورية منحوسة مخيبة جداً للآمال.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

وحده الطبيب النفسي أقدر على فهم ماهية الرابط الذي جمع جايمس إيرل كارتر الابن بروزالين سميث. هي المرأة التي أصبحت، وفقًا لكلمات كارتر في العام ١٩٧٦ عندما ترشح للرئاسة، «امتدادًا لذاتي».[١] ففي سن الثامنة عشرة كانت روزالين خجلى جدًا لا بل غير اجتماعية، لا أصدقاء مقربين لها باستثناء روث كارتر شقيقة جيمي. ومع ذلك، وبعد موعد لمشاهدة فيلم، اعترف كارتر، ملازم البحرية، لوالدته أنه وجد المرأة التي يودّ الزواج بها، وهي فتاة تكمّل شخصيته المنعزلة، فهي التي لن تهتم بالأمور المنزلية وتحمل أولاده فحسب ولكنها ستكون أيضاً «نصفه الآخر»، الشخص الوحيد في العالم الذي يمكن أن ينفّس عن أعبائه وهمومه بصدق وصراحة.

(١) كتاب Jimmy Carter لـMazlish وDiamond، ص. ١٠٤.

وهذا ما كانت عليه روزالين بالفعل. فقد كانت «حبيبة والدها» حتى بلغت سن الثالثة عشرة حين توفي هذا الأخير. وكما هي حال جيمي، أصبحت روزالين الأخت الكبرى المسؤولة عن ثلاثة إخوة من عائلة سميث. كانت أنيقةً وجميلةً وذكيةً وجذّابةً، درست مجال الديكور والسكريتاريا في جامعة ساوث ويسترن جورجيا الحكومية. وغدت زوجة الضابط النموذجية لتصبح في ما بعد زوجة رجل أعمال زراعية نموذجية (فقد شغلت منصب محاسب في شركة كارتر للفول السوداني). كانا يقومان بكل شيء معاً كأنهما واحد. وقد دفع حب جيمي الشديد لوالدته ليليان إلى التخلي عن مهنته كملازم في البحرية من أجل إنقاذ أعمال العائلة وذلك على الرغم من اعتراض روزالين. ولكن قبل تغيير المهنة انتهت المنافسة بين هاتين المرأتين بسرعة. فقد انتقلت ليليان من منزل العائلة وسافرت إلى الهند لتخدم في فيلق السلام، في الوقت الذي ساعدت روزالين زوجها على إدارة الأعمال الزراعية وعلى الترشح للمناصب الانتخابية.

وفي كثير من الأحيان لم تر روزالين مصير زوجها السياسي بالطريقة نفسها التي نظر إليها الكثيرون. وبعد كل شيء، حللت روزالين منطقيًا حياة شقيق جيمي بيلي كارتر «الفاشل» لمعرفة المنحنى الذي كان من الممكن أن تتأثر به حياة «الناجح» جيمي. لقد ترعرعا في العائلة نفسها وفي أوضاع مماثلة، فقد أصبح بيلي مرشد جيمي: هو جمهوري مؤيد للتمييز العنصري اهتم بعد مغادرته مشاة البحرية وبيع حصته من ميراثه، بأعمال رش السماد وأمضى أكثر أيام حياته في تناول الخمر. وكذلك، سُجن مرتين، وسخر من الكنيسة المعمدانية (فقد سماها «حفنة من المنافقين»)، فضلاً عن استغلاله لاسم أخيه الأكبر ليغني نفسه مما أدى إلى إجراء تحقيق في مجلس الشيوخ (بيليغايت) كما فشل في انتخابه عمدةً في بلينس. له ستة أطفال وتوفي نتيجة السرطان وهو في الواحدة والخمسين، لكن ومع ذلك كان معروفًا في جورجيا بـ«الشاب الطيب».[1]

(١) كتاب How Jimmy Won لـ Kandy Stroud ص. ٤٧

ولكون جيمي كارتر مسيحيًا مؤمنًا، لم ينتقد أخاه ولم يتحوّل ضده على الرغم مما سبّبه من مشاكل وإحراج. في الواقع، كان بيلي كارتر تجسيدًا للافتقار إلى الإرادة التي كانت أحد أهمّ العناصر التي ميزت شخصية جيمي كارتر، والعامل الذي جعل الآخرين يتبعونه تدريجًا سعيًا وراء المجد السياسي. وأشار الدكتور بيتر بورن، الطبيب النفسي وصديق عائلة كارتر قبل الانتخابات الرئاسية «كان أفراد عائلة كارتر يلجأون إليه لتلبية حاجاتهم»، بدءًا بروزالين التي باتت دعامة جيمي حين تتأزم الأمور أو تخرج على السيطرة، ورفيقته في كل الأحيان والأوقات، وقادرة على قراءة أفكاره وتكملة جمله وتأدية الصلوات معه، حتى أنها كانت قادرة على جعله إقناعه بكلامها (كما هي الحال حين أصرّت على أن يجعلها مسؤولةً عن لجنة الصحة العقلية وسمح لها بالمشاركة في اجتماعات مجلس الوزراء).

ولكن ما يبقى محل أخذ ورد هو مسألة النظر إلى مثل رباط زوجي وثيق وعصري كهذا بالنسبة إلى سياسي يحتاج إلى إيصال قوة إرادته وسلطته إلى الآخرين، هل يعدّ نعمةً أم عائقًا. وفي الحقيقة، أصبحت روزالين الصخرة التي يتكئ عليها جيمي، فلا ريب أنها ساهمت أكثر من أي شخص آخر في إيصاله إلى السلطة وتحقيق العديد من الإنجازات. ولكن، في المقابل، أدى هذا الرباط القوي أيضًا إلى فصله عن أكثر متطلبات الرئاسة الأميركية أهميةً في إحدى مراحل الإمبراطورية، ألا وهي قيادة الآخرين. وعلى الرغم من كل طموحه وذكائه (اعتبرت ناشرة واشنطن بوست كاترين غراهام، أنّ كارتر «أكثر الرؤساء ذكاءً ممن عرفتهم في حياتي») وتدريبه لذاته وسلوكه الأخلاقي والسنوات العشر التي أمضاها من حياته البالغة في البحرية الأميركية، فشل كارتر في تطبيق عنصري القيادة الأكثر أساسيةً على مستويي السياسة الوطنية والدولية العليا أقله: الحاجة إلى فرض رؤية واضحة يمكن أن يؤيدها الآخرون، فضلاً عن القدرة على تفويض الآخرين في حال أراد النجاح لهذه الرؤية.(١)

فضلاً عن ذلك، تقيّد جيمي كارتر بواقع رافقه منذ الطفولة فقد كان «مولعًا

---

(١) كتاب Jimmy Carter لـBourne، ص. ٤٢٨.

بالسيطرة». وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا المصطلح تم إدراجه في المفردات العامة بعد توليه الحكم في العام ١٩٧٧.(١) وكذلك، قيل أنه حين حصل ولده على علامات سيئة في المدرسة، أمضى أسبوعًا كاملاً يدرس هو بغية تعليم ابنه بنفسه في سبيل تحسين علامته، الأمر الذي كان برأي جيمي وليس ابنه هو الأهم. (كان لم لا يكون الأفضل؟ عنوان كتاب حملة كارتر في العام ١٩٧٦.) وقد قيل في البيت الأبيض إنه لم يكن يقرأ كميات هائلة من الأوراق التي من شأن رئيس الأركان أو المساعد أن يفرزها أولاً فقط، وإنما كان يضع الجدول اليومي الخاص ويحرص على ممارسة لعبة التنس في ملعب البيت الأبيض.

في المقابل، تسلّط مثاليته في ما يتعلّق بالتزامه تجاه تعليم ولده وتنظيم الوقت لاستخدام ملعب التنس في البيت الأبيض، الضوء على علة التدقيق داخل شخصية جيمي كارتر المذهلة: وهو عيب امتنعت زوجته روزالين المخلصة والوفية والملتزمة والصادقة والحنون عن البوح به تمامًا كما فعل فريق عمله المتسامح.

في حين كان محاطًا بزوجته وأبناء مسقط رأسه «مافيا جورجيا» الذين كان يعتمد على ولائهم، أظهر أمير بلاينز شعورًا غريبًا بانعدام الأمن الذي لربما يعود إلى تحدّره من المناطق النائية. وعلى الرغم من ذكائه المتوقد، بدا عليه وكأنه يتعامل بتكلف وعدم راحة مع ذوي الموهبة الكبرى أو الذين يتساوون معه من حيث الموهبة أو الخبرة أو المهارة. وقد أدى ذلك إلى انعكاس جانب إضافي لا بل جانب أكثر أهمية ألا وهو فشله في النضج مع منصب الرئاسة. فمنذ عهد أف.دي.آر. حتى جيرالد فورد، نضج كل أسلافه تقريبًا في خلال مدة توليهم الحكم في البيت الأبيض ليصبحوا على قدر مسؤولية الرئاسة. ولكن مع تزايد مشاكل جيمي كارتر، أصبح أكثر انعزاليةً بدل أن يزداد انفتاحًا، معتمدًا بشكل كبير على الصلاة وعلى تشجيع روزالين. فضلاً عن ذلك، كان يذهب بشكل أكثر انتظامًا إلى منتجع كامب ديفيد ملتجئًا إلى نسخته الخاصة من عقلية نيكسون حول الاختباء، ولكن من دون أن يتمتع بمقدرة

(١) مقال لوليم سافير William Safire نُشر في صحيفة نيويورك تايمز في السابع من أيار/مايو ٢٠٠٠ بعنوان On Language.

نيكسون على التلاعب أو الغش أو اعتماد الحيل السحرية كأنها أداء تلفيزيوني بارع ما أوصله مجددًا إلى «الأغلبية الصامتة». وكذلك، أصبح خطاب كارتر «المتردد» بشأن أزمة الثقة مثالاً مؤسفًا على خطئه في قراءة ما ينتظره الشعب من رئيسه. وبدلاً من ذلك، شعر الكثيرون أنّه كان يرصد اهتمامه الأكبر بروزالين، مثبتًا لها ولله وليس للشعب مدى نبله وإخلاصه ورزانته. وقالت روزالين بعد ذلك: «لا يمكنني فهم هزيمتنا ولا بأي شكل. فمن غير العدل أن تندثر كل آمالنا ومخططاتنا وأحلامنا المتعلّقة بالبلد بمجرد إنهاء فرز الأصوات يوم الانتخابات»، مستخدمة كلمة «نحن» على نحو معبّر.(١)

وكذلك، تخلى جيمي كارتر حين فات الأوان عن رئيس أركان صارم وعن نظام القيادة الهرمي، وتظاهر بأنه ديمقراطي ورجل عادي في حين كان يتصرف كشخص مولع بالسيطرة، وأحيانًا ضعيف ومضلل. نادرًا ما كان يبدي ثقةً حقيقيةً بفريق عمله لا بل لم يفعل ذلك قطّ، الأمر الذي يمكن أن ينتقل بين الأفراد في هرمية السلطة الإمبراطورية. وفي الواقع، كان يوحي في كثير من الأحيان العكس تمامًا، أي، لو كان لديه الوقت،كان يوحي أنه قد يقوم بالأعمال أفضل منهم بكثير. من جهة أخرى، غضبت الصحافة من عدد الأخطاء التي ارتكبتها إدارة كارتر ومن ادعاء الرئيس معرفته لكل شيء ولتديّنه وتقواه والعمل الدؤوب واستقامته التي انقلبت ضده. وكذلك فعل الناخبون، في نهاية المطاف.

وبالتالي أصبح من السهل لممثل أفلام سابق من الدرجة الثانية، يميني ذي أفكار حمقاء ومفاهيم مغلوطة ليس أن يهزم كارتر في العام ١٩٨٠ فحسب، وإنما أيضًا إظهار كيف يجب أن يتصرف الرئيس من حيث قيادة البيت الأبيض وتبيان فشل جيمي كارتر كإمبراطور.

من هنا، اشترى كارتر عشرين فدانًا في جبال إليجاي في جورجيا وبنى كوخًا

(١) كتاب Everything to Gain: Making the Most of the Rest of Your Life لجيمي كارتر Jimmy Carter وروزالين كارتر Rosalynn Carter طبعة New York: Random House عام ١٩٨٧، ص. ٩.

بنفسه (وفرشه) له ولروزالين، حين رفضه الرئيس الجديد والصحافة وحتى المرؤوسون الذين ظن أنهم أصدقاؤه.إلا أنّ هذا التواضع لم يلقَ صدًى لدى الكثيرين. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض المشاكل المتعلقة بمكتبته الرئاسية (مستودع إلزامي لأوراق الأباطرة السابقين) في أتلانتا فضلاً عن الاتهامات التي تشير إلى أنه يخفي وراء وجه التواضع والألفة ما يعرف بـ«التعجرف»، إلى درجة أنّ سكان جورجيا سئموا من تصرّفه الظاهر كشخص متواضع، في حين كان بالفعل متعجرفًا جدًا. وكذلك، كتب محرر سياسي في صحيفة أتلانتا جورنال بسخرية في العام ١٩٨٣ «شعرنا كلنا بالذنب قليلاً لأننا خدعنا الولايات التسع والأربعين الأخرى في ما يتعلّق بكارتر، ولا نقدر على وجوده حولنا ليذكرنا دائمًا بهذه الحقيقة.»[١]

وفي أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، شعر جيمي كارتر بالأسى العميق على وفاة أخته ووالدته، فضلاً عن أنّه لم يتمكن يومًا من فهم سبب الحقد الذي تولّد لدى بعض الناس تجاهه، تمامًا كما لم يدرك دوره في فشل رئاسته. وعلى نحو مماثل، كانت تعاني روزالين المشكلة عينها، فهي التي محت أصلها المتواضع وأحلّت مكانه نوعاً من الكبرياء. ومع ذلك، وبعد قضاء عامين في المنفى الاختياري في إليجاي، استعادا نشاطهما ونفضا عنهما غبار الأسى، وبدأ كارتر برفقة روزالين حياةً جديدةً. فقد كرّس العقود الثلاثة التالية من حياته في سبيل تحقيق السلام والمصالحة والمشاريع التطوعية التي تعالج الفقر والمسائل الدبلوماسية والزراعة التي تهدف إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي.

ناهيك بكل هذا، برهن عمل كارتر مع منظمة هابيتات فور هيومانيتي Habitat for Humanity عن مثاليته المتجسّدة في معظم أعماله. والواقع أنّ كل هذا كان ينبع من إيمانه وشجاعته الشخصية الكاملة جسديًا وعقليًا في سعيه لتحقيق السلام الذي سيأخذه إلى كل ركن من أركان الكرة الأرضية، بدءًا ببورت أو برنس وصولاً إلى

(١) كتاب Jimmy Carter لـMorris، ص. ٢٩٣

بيونغ يانغ ومن دارفور إلى الضفة الغربية ومن إرتريا إلى كوبا، مما أدى إلى حصوله على جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في العام ١٩٩٨ وجائز نوبل للسلام في العام ٢٠٠٢.

قد يكون افتقر جيمس إيرل كارتر الابن إلى حسن الحظ الذي لا يقدر بثمن، وفشل في أن يكون إمبراطورًا أميركيًا، غير أنه حقق نجاحًا باهرًا بعد مغادرته البيت الأبيض، فهو قد غيّر حياة عدد لا يحصى من الأشخاص المحتاجين في العالم. وبدلاً من أن يُدفن في مكتبته الرئاسية في أتلانتا أو في المقبرة الوطنية في أرلينغتون في فيرجينيا، طلب أن يُدفن لدى موته في قرية بلاينز الصغيرة مسقط رأسه في جورجيا. وأخيرًا تجدر الإشارة إلى أنّ العالم الهندي المتميز الدكتور سواميناثان قال في كارتر في خلال فترة ما بعد الرئاسة أي في أثناء تقاعده وعمله من أجل الإنسانية إنه «غاندي أميركا».[1]

(١) كتاب Jimmy Carter لـDr. M. S. Swaminathan عالم زراعة يُعرف بـ"أبو الثورة الخضراء في الهند". وكتاب Jimmy Carter لـPeter G. Bourne، ص. ٤٨٧.

الفصل التاسع

رونالد ريغان

الذي بلغ مرحلة العظمة بالنسبة إلى المحافظين

جمهوري

الرئيس الأربعون

(من العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨١ إلى العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨٩)

الجزء الأول : الطريق إلى البيت الأبيض

وُلد رونالد ويلسون ريغان في السادس من شباط/فبراير ١٩١١، في شقة مستأجرة فوق مصرف في بلدة تامبيكو الصغيرة في ولاية إيلينوي حيث كان والده جاك بائع أحذية متجول. وقد كان اسم ويلسون شهرة والدته نيلي قبل الزواج، أما اسم رونالد الذي تمّ اختياره في اللحظة الأخيرة كان بديلاً عن دونالد، لأنّه كان الاسم الذي اختارته إحدى شقيقات نيلي لابنها. كره ريغان اسمه، وطلب أن يُطلق عليه اسم «الهولندي» في إشارة إلى نكتة ترددت في العائلة بحيث قال والده وهو ينظر إلى المولود الجديد «يبدو كرجل هولندي صغير وسمين، ولكن من يدري قد يكبر ويصبح رئيسًا يومًا ما».[١]

كان جاك ريغان من جذور أميركية من أصل إيرلندي. كاثوليكي غير ممارس، أسمر وذو مظهر وسيم، حكواتي بالفطرة، على ما وصفه ريغان في ما بعد «يتمتع بهبة التملّق والسحر كالجني» .[٢] لم يحصل جاك ولا نيلي – التي كانت متديّنة ترتاد الكنيسة الإنجيلية، من والدين أميركيين إسكتلنديين من أصل إنكليزي- سوى على دراسة ابتدائية محدودة، وافترضا أنّ أولادهما سيحذون حذو والدهم (الذي كان يأمل أن يفتح متجر أحذية خاصًا به) كبائع أحذية.

كان ريغان خجولاً جدًا، وصبيًا قصير القامة، وهو الأصغر سنًا بين أولاد عائلة ريغان الأربعة. أمضى سنوات عديدة من دون أن يدرك أنّه يعاني ضعف النظر. بيد أنه كبر ليصبح طويل القامة (٦ أقدام وإنش واحد) ورياضيًا في المدرسة الثانوية القريبة من ديكسون حيث انتقلت العائلة حين كان في التاسعة من عمره. وبمساعدة

---

(١) كتاب An American Life لرونالد ريغان، ص. ٢١.

(٢) المصدر السابق.

والدته التي كانت تمثّل في المسرحيات وتتلو المقاطع الدرامية في كنيستها، أصبح هو أيضًا ممثّلاً يستمتع بالإطراء. وقال في وقت لاحق: «لا أتذكّر ما قلته ، أو لا أستطيع أن أتذكّر، عن أدائي الأوّل، ولكنّني لن أنسى أبدًا ردة فعل الناس: ضحكوا وصفّقوا».[1]

وقد وجد ابن بائع الأحذية في إيلينوي الخجول الذي كان يعاني عدم الأمان والخوف من الأماكن المغلقة (ما جعله في وقت لاحق يخاف الطيران) الحرية في تصفيق الجمهور. في الواقع، كلّ ما كان يقوم به تقريبًا في حياته من كرة القدم إلى عامل إنقاذ وثمّ السياسة ينبع من عزمه الثابت على سماع كلمات الإطراء.

وفي العام ١٩٢٨، حاز ريغان منحة دراسية للطلاب المحتاجين في مدرسة يوريكا الصغيرة في إيلينوي. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يغسل الصحون ويعمل نادلاً بين الفصول المدرسية وعامل إنقاذ في خلال العطل (يدّعي أنّه أنقذ سبعة وسبعين شخصًا من الغرق)، مما مكّنه من التخرّج في علم الاقتصاد بتقدير لا بأس. وهو قليل الثقافة، ولكن مثل ريتشارد نيكسون في ويتير كان ممثلاً هاويًا وموهوبًا، يدفعه طموحه ليمثل على خشبة أكبر المسارح. وفي خلال فترة الكساد الكبير خسر والده عمله، ولم ينقذه سوى برنامج أعمال الرئيس روزفلت، في حين كان ريغان يتوق إلى الحصول على وظيفة في الإذاعة بصفته مذيعًا. وقد حصل على الوظيفة عن جدارة في WOC في دافنبورت، إيلينوي. ولكون ريغان «هولنديًا» كان أداؤه جيدًا فأصبح مذيعًا رياضيًا في محطة الخمسين ألف واط WHO في ديس موينس، ويكسب خمسة وسبعين دولارًا في الأسبوع. أما والده، فقد تخلّى عن العمل نهائيًا بسبب إدمانه الكحول الذي لم يستطع أن يتخلّص منه.

وهكذا تحوّل ريغان إلى أسطورة إيلينوي بفضل مهارته كمذيع في الراديو، وخصوصًا قدرته على جعل لعبة كرة حية تؤثّر في عقول الناس من وراء المذياع. وعلى صعيد آخر، وبعد أن قام بزيارة موقع فيلم لجين أوتري الذي كان يُصوّر في

(١) المصدر السابق، ص. ٣٥.

استوديو ريبابليك بيكتشور Republic Pictures في هوليوود، وقع في غرام عالم الأفلام. وبعد اختبار على الشاشة، تسلم ريغان برقية في نيسان/ أبريل ١٩٣٧ تعلمه أن وارنر برذرز كانوا مستعدين ليقدموا له عقدًا لمدّة سبع سنوات مقابل مئتي دولار في الأسبوع. وقد أرسل ريغان برقية إلى وكيله في ديس موينس يطلب إليه «التوقيع» قبل أن يغيروا رأيهم.

أمّا نيلي والدة ريغان، بصفتها عضواً مناصراً من تلاميذ ديكسون في جماعة المسيح، فكانت قلقة حيال ذهاب «الهولندي» إلى «مكان شرير مثل هوليوود»[١]. وهكذا، وبحلول العام ١٩٤١، كان ريغان يكسب اثنين وخمسين ألف دولار عن كل فيلم، وكانت رسائل معجبيه تحتلّ المرتبة الثانية بعد إيرول فلين، حتى أنّ ريغان بات يطلق على نفسه لقب «إيرول فلين من بالتيمور سان».[٢] في آب/أغسطس ١٩٤١، استدعي لأداء الخدمة العسكرية قبل بضعة أشهر من أحداث بيرل هاربر، ولكنّه حصل على التأجيل. ولكن بعد الهجوم الياباني، وانتهائه من تصوير فيلم مع إيرول فلين (Desperate journey) ناداه الواجب ليلتحق بسلاح الفرسان في الجيش. ولخيبة أمله أعلن أنه غير مؤهّل للقتال بسبب ضعف نظره.

لقد خلف المقدّم جاك وارنر في وحدة أول فيلم سينمائي في سلاح الجيش الجوي، ورقّي ريغان إلى نقيب، يعرض أفلام التدريب ويعمل بصفة مدير موظّفي وحدة أول فيلم سينمائي.

في إطار آخر، انضمّ ريغان إلى لجنة هوليوود الديمقراطية، وبقي عضوًا مخلصًا في الحزب، مع العلم أنه كان معجبًا بالرئيس روزفلت في خلال فترة الكساد. وأحسن استخدام المهارات التي طوّرها في تقديم أفلام تدريب القوة الجوية، وتطوّع ريغان لإلقاء خطابات المنظمات الديمقراطية مثل لجنة المحاربين الأميركيين القدامى، ولجنة الثلاثة آلاف مواطن هوليوودي مستقل للفنون والعلوم والمهن التي تبنّت برنامج

(١) كتاب Ronnie and Nancy: Their Path to the White House – ١٩١١ – ١٩٨٠ للكاتب بوب كولاتشيلو Bob Colacello، ص. ٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص. ١١٨.

مكافحة الأسلحة النووية. في العام ١٩٤٦ طُلب إلى ريغان الترشح للكونغرس بصفته ديمقراطيًا، ولكنه رفض. ليس لأنه لا يستطيع التخلي عن طموحات فيلمه فحسب، بل لأنّ الديمقراطيين في الساحل الشرقي انقسموا فيما بينهم بسبب الصراعات على السلطة اليسارية والخوف من تسلّل الشيوعية، بحيث شهد عنف العصابات الإجرامية في هوليوود بأمّ عينيه.

لم يسبق لريغان أن رأى معركةً حقيقيةً، ولكنه رأى أمام بوابة وارنر برذرز الرئيسية في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥، ما سُمّي لاحقًا معركة بوربنك. فخاض النجارون المضربون عراكاً مع العمال المنضمين إلى الاتحادات العمالية المنافسة، وقد اختُطف ثلاثون ألف عامل ومنتج أفلام في هوليوود وأصبح مصيرهم معلقًا بالفدية. وقد استُعمل الغاز المسيل للدموع والسلاسل والأنابيب والمطارق إضافة إلى خراطيم مياه وحدات الإطفاء لتهدئة الجو والعنف. كما خيبت سلسلة أحداث الاتحادات أمل جاك وارنر الذي تعهّد عدم التصويت للديمقراطيين مجدّدًا. وحين تلقّى ريغان تهديدًا بالقتل من مجهول، زوده الأستوديو مسدس سميث وويسن وحاملة مسدسات، ووجد نفسه دائم الحذر. وكذلك هدّدت مجموعة من السفّاحين الاتحاديين روبرت ميتشوم بالطريقة نفسها، فقال هذا الأخير: «بصفتك أميركيًا، تستطيع أن تسألني ما العمل، ولكن اللعنة، إياك أن تقول لي أنا ماذا عليّ أن أفعل».[1]

ونتيجةً لتهديدات النقابيين اليساريين غضب ريغان على الليبراليين بقية حياته. كذلك، تم تفجير حافلة وارنر برذرز التي يستقلّها عادة إلى موقع وارنر أمام عينيه. وبصفته عضوًا في مجلس اتّحاد ممثّلي الشاشة أصبح مفاوضهم الرّئيسي، وفي خريف العام ١٩٤٦، وانطلاقًا من شكّه في مؤامرة شيوعية لتدمير هوليوود، بدأ الإبلاغ عن زملائه اليساريين، متخذًا الاسم الرمزي تي ١٠، كواحد من «مخبري» مكتب التحقيقات الفدرالي الثمانية عشر في هوليوود.[2]

(١) المصدر السابق، ص. ١٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٧١.

وبدون دعم نقابة ممثّلي الشاشة، انهارت في النهاية معركة النجارين، وفي آذار/ مارس ١٩٤٧، انتُخب ريغان رئيس نقابة ممثّلي الشاشة وفاز على جين كيلي. وفي العام ١٩٤٨، صوّت ريغان للجمهوريين في الانتخابات الرئاسية للمرّة الأولى، مدليًا بصوته لتوماس ديوي. وعلى الرغم من أنّ ريغان لم يبدّل رسميًا عضويته المسجلة في الحزب الديمقراطي لعدة سنوات، اعترف لصديق «أنا بدّلت انتمائي».(١)

وقد أقسم ريغان أنَه لن «يبقى» أبداً في التلفزيون. ولكن عندما انهارت مهنته في التمثيل في هوليوود، عرضت عليه جنرال إلكتريك عقدًا بتقديم بثّ الدراما الأسبوعية على شاشة سي بي أس، مقابل راتب مرتفع قدره مئة وخمسة وعشرون ألف دولار، فوافق على العرض. وإضافة إلى ذلك، وبناءً على طلبه سُمح لمضيف التلفزيون الجديد الوسيم بأن يجول في أنحاء أميركا ويلقي خطابات مباشرة في مصانع عديدة لجنرال إلكتريك كجزء من برنامج علاقات الموظّفين بالمجتمع. وبالتالي منح عقد التلفزيون ريغان دعمًا مهنيًا على صعيدين: اكتساب سمعة واسعة من خلال التلفزيون الوطني، إضافة إلى جمهور مباشر يستمع إلى شرحه السياسي. وفي خلال أربع سنوات ادّعى أنّه تحدّث إلى حوالى مئتي ألف عامل في جنرال إلكتريك وملقيًا خمسة عشر خطابًا في اليوم في مقاهي الشركة ومصانعها وقاعاتها. كما قال له أحد المدراء التنفيذيين في جنرال إلكتريك إنه كان «مطلوبًا كمتحدّث شعبي أكثر من أي أحد آخر في البلد باستثناء الرئيس أيزنهاور».(٢)

وبعد معركة بوربنك استمتع ريغان بالحرب الباردة لكونه معاديًا للشيوعية إلى أقصى الحدود؛ وبالفعل دعم إلى حدّ كبير اليمين الجمهوري في البيت الأبيض، رافضًا مثلاً حضور الاحتفال الذي نظّمه الرئيس أيزنهاور على شرف نيكيتا خروتشوف في خلال زيارته إلى هوليوود.

وبموازاة ذلك، صحيح أنّ آراء ريغان أسعدت أصدقاءه الأثرياء في كاليفورنيا، على

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٧٩.

غرار المليونير والتر أنتبيرج، إلا أنها دفعت زوجته الأولى إلى الارتباك والطلاق، وخيّبت ظنّ معارفه الليبراليين، خصوصًا حين دعم ريغان جمعية جون بيرش ومرشحيها السياسيين، الذين كانوا منهمكين في التخلّص من ضريبة الدخل التصاعدية والضمان الاجتماعي وفي الاعتراض على حافلات المدارس. ففي الانتخابات الرئاسية عام ١٩٦٠، صوّت ريغان للجمهوري ريتشارد نيكسون، ومن جديد صوّت لنيكسون عن ولاية كاليفورنيا في سباق انتخابات حكام الولايات في العام ١٩٦٢. وفي نهاية المطاف، غيّر ريغان ميوله السياسية بشكل نهائي مبررًا هجره مدّعيًا أنّه «لم أتخلّ عن الديمقراطيين بل هم تخلّوا عنّي».[١] لم يكن الديمقراطيون وحدهم من تخلوا عنه، بل أيضًا جنرال إلكتريك وذلك، بعد أن رفض تخفيف اللهجة اليمينية في خطاباته الموجّهة إلى الموظّفين. وفي هذا الإطار، اعترفت زوجته الثانية نانسي قائلة: «انهار روني».[٢] وتوسّل ريغان إلى رئيس مجلس إدارة الوكالة الذي كان يدير عقد جنرال إلكتريك قائلاً: «ماذا أستطيع أن أفعل شارلي، لا أستطيع التمثيل مجدّدًا، لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر، كيف يُفترض بي أن أعيل عائلتي»؟[٣]

أما الإجابة عن هذه الأسئلة فكانت واضحة بالنسبة إلى عضو مجلس الشيوخ باري غولدواتر، المفكّر الأكثر تحفظًا في مجلس الشيوخ، وغيره الذين نصحوه بالترشح لمركز سياسي. وهكذا، وفي عصر يتزايد فيه حبّ المشاهير، ما كان على ممثّل الأفلام السابق، المعروف باسم «المرح» من دوره في فيلم Knute Rockne: All American، إلا أن يحوّل شعبيته الواسعة التي اكتسبها عبر التلفاز إلى شعبية في صفوف الناخبين الجمهوريين.

وبقي ريغان متردّدًا، ليس بسبب حرجه من طلاقه فقط، ما قد يؤدّي إلى الانحطاط في معركته الانتخابية، بل بسبب شعوره بأنّ الوقت غير مناسب، مع هزيمة نيكسون وتزايد شعبية الرئيس كينيدي بدلاً من تراجعها. وفي العام ١٩٦٣، قام

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كتاب Dutch: A Memoir of Ronald Reagan للكاتب إدموند موريس Edmund Morris، ص. ٣٢١.

ريغان بمحاولة يائسة وأخيرة ليصبح ممثل أفلام، فشارك في فيلم أُنتج ليعرض على التلفزيون عنوانه The Killers. ولكن الفيلم فشل فشلاً ذريعًا تاركاً له سبيلاً واحدًا للمال والشهرة: السياسة.

واعترف ريغان، كما اعترف كفلاؤه الماليون، أنّ وسائل الاتصال، وخصوصًا التلفزيون كانت كلَ شيء في العالم الحديث. من هنا، ألقى ريغان خطاباً لمدة نصف ساعة في العام ١٩٦٤ في خلال المؤتمر القومي الجمهوري لدعم حملة غولدووتر، وضمّنه اقتباسات من لينكولن (الجمهوري) وأف.دي.آر (الديمقراطي). فأصبح هذا الخطاب الحدث الأبرز في خلال المؤتمر. وقد جعلت قدرته على إخفاء رؤيته اليمينية بواسطة الدعابة الشعبية واحترام عظماء الحزب الديمقراطي على غرار أف.دي.آر مقبولاً في صفوف الناخبين الوسطيين أكثر من غولدواتر نفسه. فتدفقت الأموال إلى خزينة الحزب الجمهوري.

وأخيراً في شباط/فبراير ١٩٦٥، وافق ريغان على المشاركة في الانتخابات لمقعد حاكم كاليفورنيا بصفته جمهوريًا. وتجدر الإشارة إلى أنّ كاليفورنيا قد تجاوزت نيويورك من حيث الكثافة السكانية في الولايات المتحدة، فهي تضمّ تسعة عشر مليون نسمة ويحتلّ اقتصادها المرتبة السادسة في العالم. أمّا بالنسبة إلى ريغان فقد كان ذلك يعني أنّ عليه أن يتخطّى خوفه من الطيران رافضًا الصعود إلى متن طائرة منذ العام ١٩٣٩، بعد هبوط صادم أدى إلى الاحتجاز في الثلج في شيكاغو. ولكنّه أصبح جاهزًا لمواجهة التحدّي بفضل تناول الأدوية والمشورة العلاجية. وأصبحت نانسي مديرة حملته الشخصية، بينما أصبح أصدقاؤه وزملاؤه في التمثيل مموّليه وجامعي التبرعات.

كان ريغان قد بلغ الرابعة والخمسين، ولم يسبق له أن ترشح لمنصب عام. ولم يكن يعلم أو يفهم ما هو دور منصب حاكم كاليفورنيا وما هي موجباته. وعلى الرغم من أنّه كان يدعم المرشحين الجمهوريين والديموقراطيين بخطاباته في الماضي، فقد كانت خطاباته معادية للشيوعية والفدرالية مع إشارة بسيطة إلى ما كان عليه وراء

الوطنية والحرية الفردية وتخفيض الضرائب ومعارضة الحكومة، وخصوصًا الحكومة في «العاصمة البعيدة». وبالنسبة إلى خصومه فلم يكن سوى ممثل مطلَق، ولد ونشأ في ولاية أخرى، وهو غير مثقف، بحيث لم يسبق وشوهد وهو يحمل كتابًا (على الرغم من أنّه كان يقرأ بنهم الصفحات المضحكة والجرائد ومجلة Reader's Digest). ولكن لاحظ المراقبون السياسيون أنَ الممثل يملك مؤهلات لم يكن من الحكمة لخصومه تجاهلها في عصر التلفزيون.

من ناحية أخرى، وعلى غرار ريتشارد نيكسون، كان رونالد ريغان يملك ذاكرةً ممتازةً للأمور التي يرغب في تذكّرها، وأكثر من ذلك كان قادرًا على تذكّرها وهو يرتجل. وكذلك مثل نيكسون، كان ريغان يتحدّر من خلفية متواضعة، من والد أميركي من أصل إيرلندي ومن والدة قوية ومتديّنة كان يجلّها، مغيّرًا بالتالي أي فكرة في ذهن الناخبين تشير إلى أنّ الجمهوريين كانوا في الواقع جميعهم متكبرين. وبالإضافة إلى ذلك، استثمر ريتشارد نيكسون أصوله المتواضعة في علاقة خاصّة بـ«الأكثرية الصامتة» وكذلك فعل رونالد ريغان. وبعد أن حصد عددًا كبيرًا من الأصوات وفوزه بسهولة بترشيح الحزب الجمهوري، لم يجذب ريغان، في يوم الاقتراع في خريف ١٩٦٦، عددًا قياسيًا من أصوات الناخبين المستقلّين وحسب بل نصف مليون من الديمقراطيين المرتدّين الذين أحبّوا ما رأوا فيه حين سافر في أنحاء الولاية وأحبوا أيضًا ما قاله. فوق كل شيء، أحبّوا طريقة كلامه وكانت الخطابات التي نصّها بنفسه مجمّلة ببعض الملاحظات المريحة التي هدّأت الناس والتي تناولت بشدّة موضوع القيم الأميركية الأساسية التي لم تكن بمعظمها جمهوريةً أو ديمقراطيةً في ذاتها. بشكل عام، رحّب المقترعون بقيَمه القديمة لكونهم مذعورين من سلسلة أعمال الشغب التي وقعت في صيف ١٩٦٥ في مقاطعة واتس والفوضى التي عمّت حرم جامعة كاليفورنيا في بركلي وهي من أكبر الجامعات في الولاية حيث بدا أنّ رئيسها عاجز عن تثبيت السلطة.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦، هزم ريغان حاكم كاليفورنيا الديمقراطي، بات براون، بما يقارب مليون صوت. وأصرّ ريغان على إلقاء خطاب القسم بعد مرور

دقيقتين من منتصف ليلة الثاني من شباط/فبراير عام ١٩٦٧ لأن منجّم زوجته جان ديكسن رأى أن الوقت مناسب أكثر، فضحك الصحافيون. إلا أن سخريتهم زادت الإعجاب بالرئيس فيما شاهد الصحافيون الممثل السابق يؤدّي دوره الجديد. وفي دولة أكثريتها منضمّة إلى أحد الحزبين، أكان ذلك بدعم الفرق الرياضية أم السياسية، برز الحاكم ريغان شخصاً مهذباً إلى حد كبير وسلمياً كما أنه كان ظريفًا وواثقًا بنفسه. كان ريغان متعلقًا جدًا بجوهر مبادئه التي استقاها من قراءته للدستور (الذي أحبّه لأنّه مختصر) لكنه كان عمليًا أيضًا. على صعيد آخر، لم يكن جهله لسياسة كاليفورنيا أو إدارة الولاية يحرجه بأي شكل من الأشكال، بل كان يتمتع بطريقة لتجنّب الانتقاد لدرجة أنه سيستحق عليها في ما بعد اسم «الرئيس المقاوم للانتقادات». وحين كان يواجه سؤالاً صعبًا، كان يجيب قائلا: «لا أدري، لم أكن حاكمًا من قبل». وحين سئل على متن طائرة كيف تغلّب على خوفه من الطيران قال: «تغلّبت عليه! يا للهول! إنني أثبّت هذه الطائرة في الهواء بفضل عزيمتي.»[١]

وتجدر الإشارة إلى أنّ ترومان كان يضع إشارةً على مكتبه تقول: «أنا المسؤول عن كل شيء». أما ريغان فوضع الإشارة التالية على بابه: «التزم القوانين أو اخرج!»[٢] من جهة أخرى، اختار مسائل مهمة ستحدد مسار حكمه والطريقة التي سيتذكّره بها الناس في الانتخابات المقبلة. وبعد أيام قليلة من تسلمه مهامه، طرد رئيس جامعة كاليفورنيا في بركلي وأذِن بإعدام أرون ميتشل وهو رجل أسود كان قد قتل شرطيًا. (خارج منزل ريغان المستأجر في ساكرامنتو، كان هناك أشخاص يتجمعون حاملين الشموع المضاءة، الأمر الذي كان يحثّ ريغان على التساؤل عن سبب عدم دق الأجراس في كل مرة تقع جريمة.[٣]). بيد أنه سباح أنقذ حياة فتاة سوداء صغيرة كانت تغرق في حوض السباحة الخاص به في خلال حفلة للموظفين لأنه كان عامل إنقاذ (وهي عملية الإنقاذ السابعة والثمانون له)، ووقّع مشروع قانون

(١) مقالة 'Flying Scared' من مجلة Time عدد ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٨.

(٢) كتاب Dutch للكاتب موريس Morris، ص. ٣٤٨.

(٣) المصدر السابق، ص. ٣٥١.

الإجهاض على الرغم من أنه لم يكن يحبّذ القانون. ومع اغتيال مارتن لوثر كنغ في تينيسي ومن ثم السناتور روبرت كينيدي في كاليفورنيا واندلاع ما بدا حرباً أهلية سياسية في عاصمة فرنسا، بقي ريغان هادئًا وصارمًا ومتفائلًا بشكل مذهل. وفي إطار آخر، كانت قدرته على اختيار مرؤوسين فعّالين تعود إلى فترة وجوده ضابطًا في وحدة الفيلم السينمائي التابعة لسلاح الجو. ولكن الأهمّ كان سلوكه الرائع الذي كان يشكل مصدر وحي لطاقمه، وكان مسؤولًا عن مئة وخمسة عشر ألف موظف في الولاية، خدموه بإخلاص ومن دون تسريب معلومات. وكتب كاتب سيرة حياته عن طريقة حكمه كرنيس تنفيذي قائلًا: إنه بالنسبة إلى رجل قليل الكلام في الاجتماعات وكان يعمل لساعات قليلة في الكابيتول، فإن طريقته كانت فعّالة بشكل رائع «يمكنني مقارنته فقط بظاهرة المايسترو الذي يسبق الوقت بدقّة وغالبًا ما يفعل ذلك بعينين مغمضتين أمام مجموعة من العازفين قلة منهم ينظرون إليه من مكانهم، ومع ذلك نسمع موسيقى منسجمةً.»[1]

أرسل الحرس القومي إلى بركلي، بسبب الفوضى التي عمّت بيبلز بارك، ونتيجةً لذلك، أصبح الحاكم ريغان عبئًا على الهيبيين في التسعينيات وبطلًا بالنسبة إلى اليمين. مع ذلك، كان قادرًا على جعل رئيس مجلس جمعية كاليفورنيا الديمقراطي المهيمن بوب موريتي، يعمل معه على إصلاح الرعاية الاجتماعية. (قال موريتي: «أيها الحاكم، أنا لا أحبك وأعرف أنك لا تحبني»، ثم أضاف «لكن ليس علينا أن نتحاب لنعمل معاً»[2]).

وخطوة تلو الأخرى، ظهر ريغان وكأنه يهيّىء نفسه لتولي منصب إشراف وطني لا بل دولي حقًا. فقد لوحظ على سبيل المثال كم أنه بدا يحدد رجال الدولة الأكبر منه سنًا الذين كان يلقاهم وكان يدرس كلاً منهم بحسب سلوكه ووقاره وعزمه وصفاته المميزة. ففي الواقع، جعل تشرشل من قبعته المستديرة وسيجاره وبذلته الفضفاضة

(١) المصدر السابق، ص. ٣٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧٥.

علامة ثابتة له، فلم لا يقوم ريغان أيضًا بوضع بصمة لصورته الشخصية في عصره؟ فهو كان طويل القامة ونحيفاً، عريض المنكبين وذا رقبة قصيرة، لذلك كان يحتاج إلى مصمّم خاص لقمصانه، فقرر أن يتفادى القبعات وأن يعتمد ما سماه كاتب سيرته الرسمي «تسريحة بامبادور» أي تصفيف الشعر الأشيب إلى الخلف.

وبموازاة ذلك، انتقد السياسيون الديمقراطيون الذين لم يحركوا ساكنًا للحفاظ على ريغان في صفوفهم، بشدة المرتدّ. فقد كتب الحاكم السابق بات براون في العام ١٩٧٠ «كإنسان وأميركي ينتابني توتّر حاد لمجرد التفكير في أنّ رونالد ريغان قد يصبح رئيسًا للولايات المتحدة.»[١] ولكن كانت أيام براون السياسية قد ولّت (فهو لم يفز بأي منصب انتخابي بعدها) في حين بدا صعود ريغان متناميًا، ووحدهم زملاؤه الجمهوريون كانوا يعيقونه.

بالإضافة إلى ذلك، أدى تنافس ريغان والرئيس فورد في ترشيح الحزب الجمهوري في العام ١٩٧٦ إلى الفوز وإنما بعد نضال شديد، وذلك بعد سنتين من مغادرة ريغان سكرامنتو في نهاية ولايته الحاكمية الثانية (وهو الحد الأقصى لولايات متتالية). وقد أخبر طاقم «مطبخ مجلس وزراء» (كما سمّي لاحقًا) الخاص بريغان ألا يقلق، ومع ذلك ستؤدي هزيمة فورد في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦ ضد جيمي كارتر، إلى جعل ريغان الوارث الافتراضي لمدة أربع سنوات، وقد تم تثبيت ذلك فعلاً.

في الواقع، لم يكن يتمتع أي من المرشحين الجمهوريين بمهارات التكلم كريغان سواء أعبر التلفاز أم مباشرةً، أم بطبعه الفريد كقائد. فقد بدا غير عابئ بالانتقادات، وهادئًا في أوقات المحن وعنيدًا في التعبير عن آرائه وواثقاً إلى أقصى حد بقدرته على إدارة أميركا، إذا ما أتيح له الدعم الانتخابي للفوز والوصول إلى البيت الأبيض باعتباره «مسؤولاً محافظاً». وقد أغضبت كل هذه الحقائق خصومه.

وفي وقت لاحق، وصف مارتن أندرسون الذي نصح نيكسون ومن ثم ريغان في السياسة الداخلية نمط قيادة ريغان بالمغاير تمامًا «للنموذج الكلاسيكي للسلطة

(١) كتاب Reagan and Reality: The Two Californias لإدموند جي براون Edmund G. Brown، ص. ٣٢.

التنفيذية التي تمارس القيادة من خلال التخطيط والتآمر وإصدار الأوامر إلى المرؤوسين». بل «كان شبيهًا بملك قديم أو باشا تركي، يسمح لرعاياه بخدمته من دون بذل أي جهد، بحيث ينتقي الأخبار السارة الجذابة المتعلقة بالسياسة العامة فقط... في حين أنه ينتظر في أعلى درجة من الهدوء وصول الأمور الهامة إليه، ليتصرّف عندئذ بسرعة وبشكل حاسم.»(١)

وبموازاة ذلك، لم يبرهن ريغان عن حسمه يومًا بطريقة أفضل مما فعل في خلال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري الذي عُقد في ديترويت في صيف ١٩٨٠. ولكون ريغان المرشح الرئاسي الجمهوري، عرض منصب نائب الرئيس على الرئيس السابق جيرالد فورد غير حالم بموافقة هذا الأخير. وبالتالي، فوجىء ريغان لدى معرفته بموافقة فورد على « درس» عرضه مع زوجته بيتي.

وفي الإطار عينه، اندهش ريغان لدى سماعه، في الليلة التالية، الصحافي الذي يجري مقابلة مع فورد عبر التلفزيون يستخدم عبارة «الشريك في الرئاسة». فقد سمع إشاعات تقول إن رجال نيكسون السابقين أي هنري كيسنجر وآلان غرينسبان وديك تشيني قد قرروا تشكيل سلطةً ثلاثيةً كما في روما القديمة وكانوا منشغلين في تقديم اقتراح «تقاسم السلطة» إلى مساعدي ريغان. ويقضي الاقتراح بأن يكون فورد نائب رئيس بشكل صوري، فيما يؤلفون هم هيئة الأركان الخاصة بريغان ويقررون من سيكون وزير الخارجية ووزير الدفاع. وكما قال كاتب آخر لسيرة ريغان «كان ذلك أكثر حلقات التاريخ السياسي الحديث غرابة».(٢)

أثارت هذه الحلقة غضب ريغان البالغ، فأمر أكبر معاونيه بالاتصال بكيسنجر فورًا طالبًا إليه التراجع. وعند الساعة الحادية عشرة من مساء الخامس عشر من تموز/ يوليو ١٩٨٠، تم الضغط على فورد لسحب ترشيحه لمنصب نائب الرئيس. فرفع

(١) كتاب Revolution للكاتب مارتن أندرسون Martin Anderson، ص. ٢٨٩-٢٩٠.
(٢) كتاب Ronnie and Nancy للكاتب كولاتشيلو Colacello، ص. ٤٩٢.

ريغان في ما بعد الهاتف وشرح هدفه لفريق عمله بنفسه قائلاً: « سأتصل بجورج بوش، أريد حسم الأمر، فهل من اعتراض على ذلك؟»[1]

إلا أنّ أيًا منهم لم يقدم أي اعتراض، فأصبح جورج هربرت ووكر بوش المرشح الرسمي لمنصب نائب الرئيس الجمهوري. وبعد مرور اثني عشر أسبوعًا عند الساعة الثامنة والخمس عشرة دقيقة من مساء الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٠، وصف تلفزيون أن بي سي نيوز رونالد ويلسن ريغان المنتخب بأنه «مذيع رياضي وممثل وحاكم ولاية كاليفورنيا».[2] وهكذا، هزم ريغان الرئيس كارتر ونال ثلاثة وأربعين صوتًا مقابل خمسة وثلاثين صوتاً لكارتر، وبذلك يكون ريغان الرئيس الأربعين للولايات المتحدة.

الجزء الثاني: الرئاسة

في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨١، وفي خلال خطاب التنصيب، استعد ريغان وأعلن قائلاً: «في ظل الأزمة الراهنة، لا تشكل الحكومة الحل لمشكلتنا، بل هي المشكلة في ذاتها».

أُلقي خطاب التنصيب للمرة الأولى من الجناح الغربي للكابيتول، وعُدّ من أكثر الخطابات تأثيرًا منذ خطاب جون أف. كينيدي قبل عشرين عامًا. لكن هذه المرة لا يدعو الخطاب إلى قيام الفرد بما يستطيع أن يفعله لوطنه بل لنفسه. فقد تم تخفيض الضرائب، أقله للأثرياء، بغية تحفيز النمو الاقتصادي وزيادة عائدات الحكومة، وهي فكرة خاطئة طرحها عليه آرثر لافر وباتت تُعرف بمُنحنى لافر. بموازاة ذلك، أعلن ريغان «إن سألنا أنفسنا لم حققنا الكثير وازدهرنا أكثر من أي أمة أخرى، طوال

(١) كتاب Behind the Scenes لمايكل ديفر Michael Deaver وميكي هركوفيتز Mickey Herkovitz، ص. ٩٦.

(٢) كتاب Ronnie and Nancy للكاتب كولاتشيلو Colacello، ص. ٥٠٥.

سنوات عديدة، نجد أن الجواب عن هذا السؤال هو أننا في هذه الأرض هنا أطلقنا طاقات الفرد وحررنا ذكاءه إلى أقصى الحدود».

فقد كان ريغان مصرًّا على أن يكون حامل بشرى حقبة جديدة بالنسبة إلى الأفراد بدءًا بشخصه وشخص السيدة الأولى. ففي حين كانت عائلة كارتر تمارس التقشف، ولا تُقيم الكثير من الحفلات، وتستعمل السيارات الصغيرة وتحمل أمتعتها بنفسها بكل تواضع، تعمّد كل من ريغان وزوجته القيام بعكس ذلك تمامًا. فقد غنى فرانك سيناترا الديمقراطي في الحفلة الباذخة، وارتدت السيدة الأولى فستانًا قيمته عشرة آلاف دولار، فحلَّ مكان أسلوب بلاينز في العاصمة واشنطن أسلوب هوليوود الساحر. وأُعيد تكرار تحية «حيوا الرئيس» وعادت سيارات الليموزين، كل ذلك، رغبة في الانتقام من سلفه.

فقد فهم الأميركي من أصل إيرلندي، ابن بائع الأحذية من ديكسون في إيلينوي طبيعة رمزية القيادة واستبداديتها بطريقة لم يفهمها سلفه على الرغم من ذكائه وصدقه. فسأل الرئيس في خلال خطابه الافتتاحي «هل يمكننا حل المشكلات التي تعترضنا؟ في الحقيقة إن إجابتي هي نعم، وهنا أقتبس كلمات ونستون تشرشل، لم آخذ القسم الذي أقسمته الآن بنية ترؤس حلّ الاقتصاد الأقوى في العالم».

كان ريغان وثقًا بنفسه بشكل هائل. ففي حين بدا أن كارتر لا يعرف الكثير من الأشخاص، ويثق بعدد ضئيل من الناس، الأمر الذي اضطرّه إلى الاعتماد على الهواة من «عصابة جورجيا» لمساعدته على إدارة أمور البيت الأبيض، جلب ريغان أشخاصًا ذوي خبرة من كاليفورنيا وضمهم إلى فريق عمل البيت الأبيض فضلاً عن بعض الأشخاص من مجموعته. وعيّن جايمس بيكر، مدير حملة بوش، في منصب رئيس القطاع السياسي ليعمل مع إد ميز ومايك ديفر وقد أُطلق عليهم لاحقًا اسم «السلطة الثلاثية المشتركة» ، بحيث يعمل بيكر على الإشراف على السياسات والكونغرس، ويكون نائبه ديفر مسؤولاً عن المواعيد وصورة الرئيس فيما كان ميز يراقب الأوضاع السياسية ويدير مجلس الأمن القومي.

كانت السلطة الثلاثية تلتقي يوميًا عند الساعة السابعة والنصف صباحًا، ويرافق واحد منها الرئيس طوال الوقت، ليفرز له الأمور الأساسية التي كانت تصل إلى مكتبه. وهكذا، ما كان على ريغان إلا القيام بما كان يتقنه، وهو أن يختار من بين الخيارات المتاحة وإيصال قراره إلى الآخرين. وتجدر الإشارة إلى أنَ مكتب الرئيس التنفيذي كان يضم ألفاً وسبعمئة موظف، فيما كان فريق عمل البيت الأبيض يشمل ثلاثمئة وخمسين عضوًا، بالإضافة إلى ما يقارب المليوني موظف حكومي. وبدت بنية القيادة هذه في البيت الأبيض نموذجية، ما جلب العار لسلفه.

ولسخرية القدر، كان يكمن وراء محاولة اغتيال الرئيس والممثل الهوليوودي السابق فيلم هوليوودي عنوانه سائق التاكسي للمخرج مارتن سكورسيزي الذي صدر في الثلاثين من آذار/مارس ١٩٨١، أي بعد شهرين على أداء أعظم دور في حياته. بحيث جاء جون هينكلي الابن، وهو طالب من جامعة تكساس في الثالثة والعشرين من العمر، إلى واشنطن في أحد باصات نقل غراي هاوس، وكان عازمًا على إثبات حبّه لبطلة الفيلم جودي فوستر عبر قتل الرئيس الأميركي بدافع هوسه بها. وكاد جون ينجح في محاولته، فقد كان ينتظر الرئيس لدى خروجه من فندق هيلتون في واشنطن حيث كان يلقي خطابًا.

في خلال الخطاب، كان ريغان يناقش برنامج الاقتطاع من إنفاق الحكومة الهادف إلى تخفيض «الإنفاق الجائر وغير المسؤول» الذي كان يؤدّي إلى ازدياد هائل في العجز القومي، متجاهلاً بإرادته إلحاح وزير دفاعه لزيادة التمويل بنسبة كبيرة تصل إلى عشرة في المئة. وذكّر بذكاء الحاضرين من اتحاد العمال الأميركي أنه لطالما كان من مستخدمي بطاقة عضويته في اتحاد العمال الأميركي ومؤتمر المنظمات الصناعية. وبذلك، قدم ريغان حججه وكأنها كلام منزل. وبعد قليل من الثانية من بعد الظهر، خرج ريغان من مدخل جانبي ليستقلّ سيارة الليموزين المصفّحة.

كان من المفترض لرصاصة «المدمّرة» التي أطلقها هينكلي من مسدس من

عيار ٢٢ أن تكون قاتلة، لكن، لحسن الحظ لم تقتل الرصاصة الرئيس، فأصابت هيكل سيارة الليموزين الذي سحق الرصاصة وحولها إلى قرص انحرف نحو الفراغ بين الباب المفتوح والسيارة، حيث دخلت تحت يد ريغان وأصابت ضلعًا، ومن ثمّ غيرت اتجاهها واستقرت في رئته بعيداً عن قلبه ببضعة ميلليمترات. فأمر ريغان عميل الاستخبارات السرّية الذي كان يحميه بالابتعاد واتهمه أنه كسر ضلوعه. وبعد أن بدأ الدم يسيل من شفتيه قال: «أظن أنني جرحت شفتي».[1] وعلى الفور، أمر العميل السائق بالتوجه إلى أقرب مستشفى وليس إلى البيت الأبيض.

وصلت سيارة الليموزين إلى مدخل مستشفى جامعة جورج واشنطن بثلاث دقائق ونصف الدقيقة، وأصرّ ريغان على الدخول مشيًا على قدميه، إلا أنه انهار. حتى أنّ عميل الاستخبارات السرية قال «أظنّ أننا خسرناه» عندما لم تستطع ممرضة حالات الطوارئ في جناح الإصابات الخامس أن تجد نبضًا.

أما في البيت الأبيض، فوقعت مأساة أسوأ من إصابة الرئيس. بحيث قام آل هايغ تابع نيكسون الذي عينه ريغان وزيرًا للخارجية بتعيين نفسه رئيسًا بالنيابة، ووضع الجيش على أهبة الاستعداد. أصيب الحاضرون بصدمة كبيرة، فهم كانوا يعلمون إجراءات الخلافة، فبمقتضى التعديل الخامس والعشرين من الدستور، أعلن هايغ قائلاً: «أيها السادة، وفقًا للدستور، هذا هو الترتيب: هناك الرئيس يليه نائب الرئيس ويليهما وزير الخارجية.» وبما أن نائب الرئيس كان في تكساس فقد زعم هايغ «أنا المسؤول هنا، في البيت الأبيض».

فعلّق وزير الدفاع كاسبر وينبرغر لافتًا «إنه مخطئ». في حين أشار دونالد ريغان وزير الخزانة والمسؤول عن الاستخبارات السرية «لا يملك أي سلطة تخوّله القيام بأمر مماثل» واستكمل بدهشة عارمة سائلاً «أهو مجنون؟».[2]

في المقابل، شاهد العاملون في البيت الأبيض النزاع المتطرّف على السلطة

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريتشارد ريفز Richard Reeves، ص. ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٠.

وخشوا أن يكون هايغ يخطط «لانقلاب»[١] حسبما قال صحافي لمدير الاتصال والتواصل. فحتى لو نجا الرئيس الذي كان في السبعين من عمره من محاولة الاغتيال، هل سيكون قد أصبح أضعف جسديًا وعقليًا أو الاثنين معًا. فهل ستتمكن إدارة هايغ وزملائه في الحرب المعقدة من إدارة العمليات الحكومية؟ وهل سيتمكن ريغان الذي أصبح ضعيفًا من إدارة الإمبراطورية الأميركية أو حتى إرشادها؟ مع العلم أنَ الكثيرين لم يروا في ريغان سوى الممثّل فارغ الرأس، حتى أن بعضهم عدّة «أخرق خفيف الدم» بحسب تعبير كلارك كليفورد، وزير الدفاع السابق (ومستشار لأربعة رؤساء).

من المستحيل المبالغة في أهمية تعافي ريغان بالنسبة إلى تعافي الولايات المتحدة. فتعافيه أصبح يشبه شجاعة فرانكلين دلانو روزفلت في التغلّب على الشلل لدى إصابته بشلل الأطفال. فقد أمضى نيكسون خمس ساعات في غرفة العمليات مع كميات هائلة من المورفين التي ظلّ بحاجة إليها حتى بعد العملية (التي فقد في خلالها نصف الدم الذي كان في جسمه)، وشكّل ذلك، من دون شك، اختبارًا لمدى سرعته في التغلّب على المشاكل.[٢] وأصبحت شجاعته أسطورةً، فهو كان قد أصرّ على السير إلى المستشفى على الرغم من إصابته برصاصة استقرّت بالقرب من قلبه، ومن ثمّ راح يمازح الأطباء والممرضات وزوجته. كما أنه سأل ممازحًا قبل دخوله للخضوع للعملية ما إذا كان الطبيب جمهوريًا. (فردّ الجرّاح الذي كان ديمقراطيًا «جميعنا الآن جمهوريون»). وعندما كانت الممرضة تتفقّد نبضه سأل «من يمسك بيدي؟ من يمسك بيدي؟ هل تعرف نانسي ما تفعلينه؟»[٣] وعندما وصلت نانسي بعد عشر دقائق شرح لها بسرعة قائلاً: «حبيبتي نسيت أن أنحني».[٤] ولدى استعادة وعيه لم يكن قادرًا كثيرًا على الكلام فكتب بخط غير مفهوم «أود أن أكرر هذا المشهد بدايةً من الفندق».[٥]

(١) المصدر السابق، ص. ٤٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٨.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٥.
(٤) المصدر السابق، ص. ٣٦.
(٥) كتاب Dutch للكاتب موريس Morris، ص. ٤٥١.

تعامل ريغان مع محاولة قتله كأنها مزحة أو فيلم هوليوودي كوميدي، وحوّل بذلك أوقاتًا صعبة جدًا، لا بدّ أنها الأصعب منذ اغتيال كلّ من جاي أف كاي وبوبي كينيدي ومارتن لوثر كينغ، إلى أوقات الخلاص للأمة، وليس أوقات حداد. في المقابل، ارتفعت نسبة التأييد له بشكل هائل بما يزيد على عشر نقاط لتصل إلى ثلاث وسبعين في المئة، وكذلك ارتفعت البورصة. ونتيجةً لذلك، مات الضعف الرئاسي، وليس ريغان. وبعد خروجه من المستشفى، لم يعد أحد ينظر إليه على أنه مجرّد ممثل هوليوودي. وكتب ديفيد برودر من صحيفة واشنطن بوست في هذا الصدد، «ما دام الناس يتذكرون الرئيس يمازح الأطباء والممرضين وهو في المستشفى» وما داموا يذكرونه «لن يتمكن أي ناقد من تصوير ريغان على أنه قاس وفجّ ومتحجّر القلب».(١)

في سياق آخر، أنجز الرئيس للحصول على دعم الكونغرس خطته لتخفيض الإنفاق واقتطاع الضرائب وزيادة ميزانية الإنفاق العسكري. وهي خطة، في الأحوال العادية، كان ليرفضها مجلس النواب ذو الأغلبية الديمقراطية. من هنا، جدّد الرئيس جدول أعماله الطموح، مُطلقًا «ثورة ريغان»، وهي عبارة عن حقبة جديدة من الرأسمالية الريادية غير المحدودة القائمة على تخفيض الضرائب. وفي ظل هذه الحقبة يزداد الأثرياء ثراءً، فيما الطبقة الوُسطى تنعم بحس جديد من الوطنية والدفاع المستمرّ عن «القيم الأميركية» المُحافظة.

من ناحية أخرى، كتب قائد الأكثرية الديمقراطية في مجلس النواب، جيم رايت، في مذكراته أنّ «مقاربة الرئيس الفلسفية سطحية جدًا، ومبسطة بشكل مبالغ به ولا تأخذ في الاعتبار سوى بُعد واحد. فما يحاول نشره هو مجرّد تفاهة اقتصادية مُرفقة بتفسير مبتذل يرفع المعنويات وثرثرة مُلهمة». وكتب رايت أيضًا معترفًا «ولكن، وعلى الرغم من كل ذلك، جعلها مقاربة ناجحة». وهكذا استطاع رئيس السلطة

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٤٥؛ وصحيفة Washington Post عدد الأول من نيسان/أبريل ١٩٨١.

التنفيذية تخطي المقاومة الديمقراطية لمشروع الموازنة الذي وضعه، من خلال اتصالات سرية ولقاءات أجراها خلف الكواليس، فأُقرّ القانون بعد أن حاز مئتين واثنين وثلاثين صوتًا في مجلس النواب مقابل مئة واثنين وتسعين، أما في مجلس الشيوخ فحصد القانون ثمانين صوتًا مقابل خمسة عشر صوتًا. وأيضًا كتب رايت «صحيح أنني مفزوع مما يبدو لي من نقص في العمق، إلا أنني مذهول إزاء مهاراته السياسية، فأنا لست واثقًا ما إذا شهدت لها مثيلاً».[1]

وبالنظر إلى أنّ هذه الكلمات صادرة عن خصم سياسي متمرّس، ديمقراطي متحرر من تكساس، لا بدّ أنها نوع من المديح. في الواقع، التقى وتحدّث ريغان شخصيًا مع أربعمئة وتسعة وسبعين عضوًا من الكونغرس، أي أربعمئة شخص إضافي إلى الذين تحدّث معهم جيمي كارتر في خلال أربعة أعوام على ما روى أحد كتاب السير.[2] ووصف عالم سياسي هذا التحوّل باختصار «برهن ريغان أنّه فهم كيف يكون رئيسًا على عكس جيمي كارتر، فأقل ما يكون هو أن يطوّر علاقته بالكونغرس».[3]

في المقابل، عيّن ريغان أول امرأة في المحكمة العليا وهي ساندرا داي أوكونر. وبهذا التعيين كبح المحافظين من اليمين فهي ليست معادية للشيوعية قط بل أيضًا ضد الإجهاض، أي يمكن أيضًا للمتدينين المتشدّدين أن يرحبّوا بها. كان الرئيس قد أجرى مقابلةً مع أوكونر في البيت الأبيض، وأعجب بفكرة أنها تحب الخيول لأنها ترعرعت في مزرعة في لايزي بي. وبعد المقابلة، اتصل ريغان بجيري فالويل وهو قائد منظمة الأغلبية الأخلاقية الذي عارض خيار أوكونر. فقال له ريغان: «جيري، سوف أعيّن امرأةً في المحكمة العليا، أنت لا تعرف شيئًا عنها، لا أحد يعرف شيئًا عنها، ولكن رجاءً ثق بي»، فردّ فالويل «حسنًا سيدي».[4]

وفي اليوم الذي عاد الرئيس إلى المكتب الرئاسي الرسمي في أيار/مايو ١٩٨١،

---

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٧١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص. ٦٢.

(٤) المصدر السابق، ص. ٧٥.

واجه إضرابًا لمراقبي حركة الطيران. وتجدر الإشارة إلى أنه بموجب القانون، لا يحق لمراقبي حركة الطيران أن يتركوا عملهم، ولكن وفقًا لقائد النقابة روبرت بولي «الإضراب غير القانوني الوحيد هو الإضراب الذي يفشل في تحقيق أهدافه» وأعلن استمرار الإضراب ولو عد غير شرعي. وعلّق ساخرًا «لا يمكنهم أن يجعلوا طائرات هذا البلد تُقلع من دوننا، كما لا يمكنهم أن يجبرونا على القيام بعملنا ونحن في السجن أو نواجه غرامات جائرة».[1]

من الواضح أنّ بولي لم يقرأ سيرة الرئيس، فقد أطلق ريغان على الإضراب العمالي غير الشرعي «الفرار من أداء الواجبات». وعند الساعة الحادية عشرة صباحًا من الثالث من آب/أغسطس، ومن حديقة روز غاردن في البيت الأبيض، أمهل الرئيس المضربين ثماني وأربعين ساعةً للعودة إلى مراكزهم وإلاّ فمناصبهم «ستُلغى» نهائيًا.

فتجاهل ثلاثة عشر ألف مُضرب أوامر الرئيس، ما أظهر سوء تقديرهم له. وهكذا، قامت قوات من مراقبي الطيران التابع للجيش باحتلال مراكز هؤلاء الرجال الذين لم يعودوا يومًا إلى مناصبهم وذلك نزولاً على أوامر الرئيس، وبصفته القائد الأعلى. وتم تعيين مراقبين جدد، ما أدى إلى فضّ الإضراب. وتجدر الإشارة إلى أنّه لم تتم إعادة توظيف المُضربين. وحتى السوفيات أخذوا في الاعتبار هذا الحدث، فقال مراقب من الكرملين في هذا الصدد: «إنه رجل إذا تم استفزازه، فسيذهب إلى أقصى حد للدفاع عن مبادئه».[2]

كان الروس محقين في قلقهم إزاء الحدث. ففي الأول من تموز/يوليو ١٩٨١، دخلت أميركا رسميًا مرحلة الركود الاقتصادي التي تصاحبت مع أعلى نسبة بطالة منذ العام ١٩٤١، كما أنها كانت تواجه عجزًا قوميًا لا ينفكّ يتضخم. وفي ظل كل هذه الأحداث الاقتصادية، رفض ريغان التراجع عن ابتهال «لا للمزيد من الضرائب» الذي أطلقه حزبه الجمهوري، كما أنه رفض الحل البديل الوحيد وهو تخفيض

(١) المصدر السابق، ص. ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٠٤.

الإنفاق الحكومي في ميادين الرعاية الصحية أو التعليم أو الضمان الصحي، وبالطبع رفض تخفيض الإنفاق العسكري الذي سيؤثّر تلقائيًا في هدفه الرئيسي ألا وهو تدمير الإمبراطورية السوفياتية.

في هذا الصدد، لم يكن ريغان قد زار من قبل الاتحاد السوفياتي، كما لم يكن قد التقى شيوعيًا خارج بيفرلي هيلز. إلا أنّ هذا لا يعني أن ريغان ما كان على علم أن وضع الاتحاد السوفياتي الاقتصادي وراء ستار الحرب الباردة، كان أسوأ بكثير من وضع الولايات المتحدة. كما أنه كان على يقين أنّ الوسيلة الوحيدة لجعله ينهار هي استكمال المنافسة الضارية في مجال الإنفاق العسكري.[1]

عدت هذه الإستراتيجية مخاطرةً كبيرةً من شأنها زيادة خطر سوء التفاهم أو الحوادث النووية بين الإمبراطوريتين لا تقليله. كذلك، لم تترك هذه الإستراتيجية المجال أمام الاتحاد السوفياتي لتخفيض الإنفاق العسكري وتحسين اقتصاده (كما ستفعل الصين الشيوعية في السنوات التالية).من جهة أخرى، كانت شخصية ريغان بسيطة، عدواني وقاسٍ بطبعه، من هنا نبعت خطته من تجاهل همّ الوضع الاقتصادي الرديء في الولايات المتحدة والرضوخ لأكبر نسبة عجز في تاريخ البلد، باذلاً قصارى جهده لكسر عزيمة الإمبراطورية السوفياتية ولو كلفه ذلك إفلاس البلد، خصوصًا في نزاعها في أفغانستان وأوروبا حيث كان تيار التضامن البولندي يعارض من جديد القبضة الحديدية التي يمارسها الاتحاد السوفياتي في احتلاله، ولكن يؤيد المناورات التي تنفذها دباباته في وارسو.

في الواقع، كان معظم الرؤساء الذين توالوا على الحكم منذ عهد ترومان والذين اتبعوا «سياسة الاحتواء» يرون أنّ الاتحاد السوفياتي سيسقط من تلقاء نفسه في نهاية المطاف. أما بالنسبة إلى ريغان، فهو كان مقتنعًا أنه بالإمكان «تشجيعه»

(١) منذ مطلع العام ١٩٦٠ أعلن ريغان في خطاباته أن إجبار الروس على "الاعتراف" بتفوق "طرائق العيش" الغربية على الشيوعية السوفياتية يتم عن طريق "جعل اقتصادهم غير مستقر حتى يبين الفرق". اقتباس من كتاب The Crusader: Ronald Reagan and the Fall of Communism للبروفيسور بول كينغور Paul Kengor، ص. ١١٨.

على السقوط. فكان منقاداً وراء اقتناع ما انفك يتنامى أنه يستطيع إطاحة الاتحاد السوفياتي، وذلك ليس عن طريق ثنيه عن جهوده التوسعية في أنحاء العالم فحسب، بل في تحفيز متعمّد لسباق جديد إلى التسلّح. فهذه المحاولة، إن نجحت، فستؤدي إلى إفلاس إمبراطورية عسكرية متعجرفة مُرهقة خصوصًا في أوروبا الشرقية.

من هنا، وفي حين أقنع بريجنسكي الرئيس كارتر بوضع حدّ للانفراج والتصرّف بطريقة دفاعية إزاء نيات الاتحاد السوفياتي المفترضة في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، استفاد ريغان من شهادته في مجال علم الاقتصاد لدعم حدسه بالإضافة إلى «المعلومات الاستخبارية حول الاقتصاد السوفياتي» التي كان يحصل عليها من مستشار الأمن القومي ووكالة الاستخبارات المركزية، والتي كانت تنصحه بعدم القلق حيال نقاط قوة الاتحاد السوفياتي بل تحديد نقاط الضعف.(١) وكتب في هذا السياق في مذكراته «إن الروس في وضع سيىء جدًا، وإن تمكنا من استنفاد أموالهم فسيصرخون مطالبين بمساعدة الولايات المتحدة أو فسيموتون جوعًا».(٢) فشرح ريغان بقرار رئاسي إستراتيجية أميركا السريعة تجاه الإمبراطورية السوفياتية، وهي سياسة تقضي «بإضعاف نظام التحالف السوفياتي عبر إجبار الاتحاد السوفياتي على تحمّل الأعباء الناجمة عن الشوائب الاقتصادية».(٣)

وشكلت الأسلحة التالية جزءًا لا يتجزأ من برنامج ريغان دلالةً على مدى جديته في هذه المحاولة الخطرة: غواصات ترايدنت القاذفة للصواريخ وطائرات حربية من طراز أف ١٤ تابعة للبحرية ودبابات أم ١ وبرنامج جديد للصواريخ البالستية العابرة للقارات. بالتالي، وفي أسوأ الأحوال، سيتمكن ريغان من «إجبارهم على المفاصلة»، إلا أنّ هدفه هو كان أكثر طموحًا. وهكذا لم تعد سياسة أميركا «احتواء» الاتحاد السوفياتي فحسب، بل «عكس» توسعه الذي حققه بعد الحرب.(٤)

(١) المصدر السابق، ص. ١٢٠.
(٢) الجمعة ٢٦ آذار/مارس ١٩٨٢ في كتاب The Reagan Diaries للكاتب دوغلاس برينكلي Douglas Brinkley، ص. ٧٥، وهو مقتبس من مذكرات الرئيس رونالد ريغان اليومية.
(٣) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١٠٥.
(٤) المصدر السابق، ص. ١٠٢ و ١٠٥.

في المقابل، بدا الرئيس مقدامًا في خلال زيارته الرسمية إلى لندن وأوروبا مع أنّ ثلاثة أرباع أعضاء البرلمان البريطاني قاطعوا خطاب الرئيس الذي ألقاه في مجلس النواب البريطاني، وعلى الرغم من ملايين المتظاهرين في الدول الغربية الذين كانوا يطالبون «بتجميد سباق التسلح النووي» وليس إطلاق سباق جديد. ما كان بإمكان أحد ثني ريغان عن شرح «خطته» بنفسه، فقد كان عازمًا. وهكذا، وفي مهد الديمقراطية البرلمانية، عكس ريغان ادعاءات ماركس التي تقضي بأنّ العالم الرأسمالي يواجه أزمةً وأن الشيوعية وحدها قادرة على إنقاذه. وراح يصف الاتحاد السوفياتي على أنه «يواجه مصاعب اقتصادية جمة» وغير قادر «على إطعام شعبه» ويواجه «الانحلال»، فيما «تزدهر» المجتمعات الديمقراطية. وصرّح قائلاً: «لا أريد المبالغة في تفاؤلي» إلا أن الماركسية/اللينينية «ستصبح من أنقاض التاريخ».[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّه فيما كانت الولايات المتحدة تشهد رسميًا مرحلة ركود اقتصادي وتواجه أكبر نسبة عجز لها، بدت تصريحات ريغان الفخورة عمياء تمامًا. أما مارفن كالب عميد مراسلي واشنطن، فقد رأى هذه التصريحات إنجازًا في ذاتها أي «بعد ستين عامًا في السلطة» أصبح الاتحاد السوفياتي في نظر ريغان ينزلق حتمًا نحو الانهزام الاقتصادي، وذلك بالإضافة إلى كونه غير شرعي ومحمياً بقوة السلاح والغولاغ (معسكرات العمل) والشرطة السرّية، خصوصًا وأن الرئيس البالغ سبعين عامًا من العمر على أهبة الاستعداد «للاستيلاء على العالم الشيوعي».[2] حتى أنّ زملاء ريغان فوجئوا بثقته في هذا المجال. وقد أشار ريغان في آذار/مارس إلى السيناتور هاورد بيكر قائد الأكثرية الجمهورية «علينا إبقاء الخناق ضيقًا عليهم، فأنا أريد إخضاعهم حتى يقوموا بنزع سلاحهم، فنقوم نحن بذلك أيضًا. ولكن لا يمكن تحقيق هذه الغاية ما لم نبق الخناق ضيقًا». وقال مشدّدًا: «ونحن قادرون على ذلك، لأننا نضايقهم كثيرًا على الصعيد الاقتصادي».[3] ولإثبات نظريته، أضاف إلى

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٠٨-١٠٩.

(٣) المصدر السابق، ص. ١١٠.

خلاصته تفصيلاً بسيطًا ولكن خاطئًا إلا أنه أصاب الهدف فأعلن «إنهم يبيعون لحم الجرذان اليوم في السوق الروسية».(١)

هل يُعقل أن تكون أميركا قد طعنت، بطريقة غير مؤذية أي عبر سياسة الاحتواء المستمرّة والانفراج، نظام القمع السوفياتي الذي تمت ممارسته من خلال الشرطة والجيش والذي فرض العبودية على شعوب أوروبا الشرقية منذ الحرب العالمية الثانية؟ هذا ما يرغب المؤرّخون في تصديقه، وهذه أيضًا كانت وجهة نظر معظم الأوروبيين المتحررين في ذلك الوقت والأميركيين أيضًا. بيد أنّ تاريخ الاستبداد في القرن العشرين لم يوفر أمثلةً عن نهايات سعيدة مماثلة. فتجدر الإشارة إلى أنّ كارل ماركس كان يفترض أن «البيروقراطية تنتهي في المرحلة الانتقالية إلى الشيوعية» ليحل محلها إدارة غير مركزية عند إحلال النظام الشيوعي الحقيقي، إلا أنّ هذا لم يحدث البتة على أرض الواقع، بل حدث العكس تمامًا. وبالتالي، وعبر إجبار الاتحاد السوفياتي على خوض سباق تسلّح لا يمكنه الفوز به، كان التلميذ المتوسط العلامات في يوريكا والممثل من الدرجة الثانية مصرًا على إنهاء هذا الهراء الماركسي بصفته رئيساً من الدرجة الأولى. حتى أنه كان يملك وسيلةً إضافية لتحقيق هدفه وهو حرب النجوم.

من جهة أخرى، وفي العام ١٩٨١، وعقب إصراره على تحقيق أكبر زيادة على الإنفاق العسكري في تاريخ أميركا في أوقات السلم، بدأ الرئيس الذي يتقدم في السن إعادة النظر في مبدأ الردع النووي برمته. في الواقع، كان في العام ١٩٧٩، قد زار قيادة دفاع الفضاء الجوي الأميركية الشمالية الواقعة على جبل تشيين في كولورادو. وفي خلال الزيارة، تحدّث إلى مخترع قنبلة الهيدروجين البروفيسور إدوار تيلر الذي قال له إنه نظرًا إلى التكنولوجيا المتطورة قد يمكن التوصّل إلى درع دفاعية تحمي من ضربات الصواريخ، على غرار ما فعلت بريطانيا عندما أنشأت محطات للرادارات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية لمساعدتهم على التصدي لأساطيل ألمانيا القاذفة

(١) المصدر السابق.

للصواريخ في حال حدوث اعتداءات. فبدرت هذه المحادثة إلى ذهن ريغان الذي يتمتع بذاكرة انتقائية إلى حد كبير، وحين حضر على مدى خمسة أيام تمريناً عسكرياً على الكومبيوتر باسم مشفّر آيفي ليغ، اتخذ قراره.

سُحر ريغان بالتمرين، هو الذي كان معروفاً عنه حبّه لمحاكاة لعبة البايسبول. قد فوجىء بنهايتها خصوصًا موت الرئيس. فبدت له حينئذ فكرة مبادرة الدفاع الإستراتيجي، التي كانت مدمّرة في جميع الأحوال، سخيفة ولا أهمية لها، بما أنّ الرد الأميركي على موت الرئيس وفريق عمله، وفقًا للتمرين، سيكون عقابيًا وناجحًا، ما سيؤدّي إلى تلوّث العالم وإشعاله بكل ما للكلمة من معنى.

من ناحية أخرى، أنشأ الروس ما يزيد على خمسمئة صاروخ من طراز أس أس٢٠ مع عدة رؤوس نووية مستقلة عن الصاروخ. وبالنظر إلى ضعف صواريخ الأرض الأميركية إزاء الاستهداف السوفياتي، ما كان أمام الرئيس إلا حلاّن «مقبولان». ويقضي الحل الأول بنزع السلاح النووي والحل الثاني يقضي بتطوير أسلحة دفاعية لتعطيل صواريخ روسيا الطويلة المدى وهي في الجو. ولأن ريغان كان يعلم أن لا الأميركيين ولا القوات المسلّحة الروسية سيقبلان الحل الأوّل، لذا اختار الحل الثاني. وبعد مرور بضعة أسابيع على «آيفي ليغ» أعلن الرئيس ريغان في خطاب متلفز من مكتبه الرسمي عند الساعة الثامنة مساءً من الثالث والعشرين من آذار/مارس ١٩٨٣، أنه سيطلق برنامجًا عسكريًا جديدًا، مع العلم أنه لم يخبر سوى عدد ضئيل من الأشخاص بذلك، و«وعد بأن يغير مسار تاريخ البشرية». وهذا البرنامج هو عبارة عن مبادرة الدفاع الإستراتيجي أو كما سُميت لحظة إعلانها «حرب النجوم».

وتجدر الإشارة إلى أنّ كل أعضاء فريق عمل البيت الأبيض وإدارة ريغان بمن فيهم رؤساء الأركان المشتركة عارضوا الفكرة. وحتى كاتب الخطاب الذي ساعد على صوغ الخطاب المتلفز قام بذلك مكرهاً غير مصدّق. كذلك، صُعق نائب الرئيس بوش بالخبر وانفجر رئيس القطاع في مكتبه مندّدًا بالخطاب وصرخ

«علينا أن نجعله يتراجع، فإن ملنا إلى تحقيق هذه الفكرة فسنكون قد أطلقنا أكبر سباق إلى التسلَح في التاريخ. فيما أعلن جورج شولتز وزير الخارجية الجديد (تبعًا لاستقالة آل هايغ التي كانت محبّذة) «هذا جنون».[1] وفي غضون ساعات من الخطاب، بدأت أصوات التنديد ترتفع من الراديو والتلفزيون السوفياتي والعواصم الأوروبية. فقد بدا الرئيس بخطابه كأنه يتحدى اتفاقية منع انتشار الصواريخ البالستية التي كان الرئيس نيكسون قد وقعها، وبالتالي إلزام الولايات المتحدة زيادة الإنفاق بشكل هائل على الأبحاث والتطوير، مما جعل مشروع مانهاتن يبدو كأنه لعبة أطفال.

في الحقيقة، نبعت هذه الخطوة من ثقة ريغان الكبيرة بنفسه، فقد كتب في مذكراته تلك الليلة والليالي التالية عن إيمانه بأنّ «مبادرته ستجعل من الصواريخ النووية تكنولوجيا بالية» حتى ولو احتجنا لتحقيق ذلك إلى عشرين عامًا أو أكثر، يجب علينا القيام بها. كنت أشعر بالسعادة من إعلاني.[2]

ولكن في المقابل، قلة هم الذين سعدوا بإعلان ريغان. في الواقع، أشعل إعلان ريغان نيرانًا حارقة أثرت في مكانته في أوروبا وفي سائر أنحاء العالم لعقود طويلة تالية. كان يوم الصحافة العالمية يومئذ حافلاً، فانتقدت بشدة فكرة الردع هذه واتهمت ريغان بزيادة حدة الحرب الباردة، بحيث أصبحت حصون حلف شمال الأطلسي في أوروبا الهدف الأوّل لمحرقة نووية، بدلاً من أن تكون منطقةً خاليةً من السلاح النووي كما كان الجميع يأمل وذلك من خلال التكيف بصبر مع السوفيات.

وفي خضمّ كل هذه المعمعة، تجاهل ريغان منتقديه حتى في صفوف فريق عمله. حتى أنه لحظ «لم أتوقّع منهم أن يهللوا لي».[3] وشرح بعد أسبوع للصحافيين

(١) المصدر السابق ص. ١٤٣.

(٢) الأربعاء ٢٣ آذار/مارس ١٩٨٣ في The Reagan Diaries، ص. ١٤٠.

(٣) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١٤٦.

المشكّكين أنه لدى تطوير درع مبادرة الدفاع الإستراتيجي، سيتم تقديمها للسوفيات في إطار مناقشات حقيقية حول نزع السلاح «لإثبات أنه ما من داع بعدئذ للمحافظة على هذه الصواريخ (النووية)».[1]

بيد أنّ قلة من الصحافيين صدقت ريغان، هذا إن صدّقه أي منهم، أو حتى صدّق جدوى درع واقية من الصواريخ. ومع ذلك، ابتهج الشعب الأميركي بخطاب الرئيس حول «الدرع» حتى ولو كان مجرّد «قصة خرافية». أولم يكن ريغان من أبناء هوليوود المفضّلين؟ هوليوود مصنع الأحلام الذي أنتج أخيراً الفيلم الثالث من سلسلة حرب النجوم «عودة الجيداي» الذي يحكي عن الحراس الحمر وإمبراطور عنيد على متن نجمة الموت والدروع الدفاعية وتجديد السباق إلى التسلّح ومحطات الفضاء والشر والطائرات الحربية التي تشبه المركبات الفضائية المدرّعة المزوّدة بالمدافع. من هنا، لم يبدُ غريباً سلوك ريغان وخطابه ورؤيته بالنسبة إلى مرتادي صالات السينما. في الواقع، بدا تأكيده على قوة أميركا في المتوسّط على طول الساحل الليبي كأنها سيناريو للمنتج لوكاس، بحيث صدرت الأوامر للطائرات الحربية أف ١٤ بقصف أي طائرة ليبية تحاول التحليق فوق المناورات البحرية الأميركية في خليج سرت الذي كان الديكتاتور الليبي معمّر القذّافي قد أعلن أنه تابع للأراضي الليبية.

وعلى الرغم من الاحتجاجات المتصاعدة من كل أنحاء العالم، بقي ريغان متشبثاً برأيه. فعرض السوفيات تفكيك نصف الأس أس ٢٠ إن قبل الرئيس إلغاء نشر صواريخ التوماهوك والبرشينغ. إلا أن ريغان رفض العرض، وهكذا تخلى الطرفان عن جهود التوصل إلى اتفاقيات للحد من انتشار السلاح النووي في جنيف التي دامت سنتين. الآتي أعظم، وهذا أمر اتفق عليه الطرفان، و«بدأ العد العكسي للحرب النووية» حسبما قال المسؤولون السوفيات، عندما بدأت أيبل آرشر ٨٣ التمرين

(١) كتاب Ronald Reagan: Fate, Freedom, and the Making of History للمؤرخ جون باتريك ديغنز John Patrick Diggins، ص. ٣٤٨.

العسكري، وهو تمرين نفّذه سرًا حلف شمال الأطلسي طوال عشرة أيام في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣، ما جعل القوات الروسية وقوات حلف وارسو تكون على أهبة الاستعداد.(١)

بعد أن قام ريغان بالترهيب، فاجأ السوفيات بإعلان جديد عبر التلفزيون الوطني في كانون الثاني/يناير ١٩٨٤. فكانت الولايات المتحدة الأميركية قد استعادت موقعها عالميًا من حيث التفوق النووي، لذلك، أراد ريغان اللجوء إلى «المنافسة السلمية» أي الحرب الاقتصادية وقبول «التعاون البناء» مع السوفيات.(٢) فتساءل الروس ما إذا كان جديًا بكلامه، وما كان قصده.

في المقابل، أعلن غروميكو وزير الخارجية الروسي من استوكهولم أنّ ريغان صاحب «خطط مجنونة» واتهمه باللجوء إلى «وسائل إجرامية ومضللة» ليحقق «هوسه المرضي» بمبادرة الدفاع الإستراتيجي. ويشكّل هذا الإعلان دليلاً على أنّ ريغان يروّع الكرملين بمواقفه الصارمة. وبالإضافة إلى كون ريغان قد باغت الروس ببرنامج الأبحاث حول مبادرة الدفاع الإستراتيجي، واستكماله بنشر صواريخ جديدة في أوروبا ودعوته إلى التعاون وحتى العودة إلى الانفراج، وكان كل ذلك قد جرى فيما كانت روسيا من دون قائد. ففي التاسع من شباط/فبراير ١٩٨٤، توفّي يوري أندروبوف رئيس الوزراء والمدير السابق للاستخبارات الروسية الذي يصغر ريغان بأربع سنوات. وحين سئل ريغان ما إذا كان سيشارك في مراسم دفن أندروبوف، أجاب بعصبية «لا أريد تكريم هذا الحقير».(٣)

خلف قسطنطين تشيرنينكو الزعيم أندروبوف، وهو كان سيّد التنصّت والبيروقراطية في المكتب السياسي. إنما هو أيضًا كان رجلاً مريضًا يكاد لا يظهر علانية. وفي محاولة منه للحاق بريغان الذي رفع حدة الحرب الباردة، أمر الروس

(١) كتاب Ronald Reagan: Fate, Freedom, and the Making of History للمؤرخ جون باتريك ديغنز John Patrick Diggins، ص. ٣٤٨.

(٢) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٢٠٥

(٣) المصدر السابق.

بمقاطعة الألعاب الأولمبية الصيفية لعام ١٩٨٤، التي كانت تُقام في لوس أنجلس، ورفض السماح لقائد ألمانيا الشرقية إريك هونيكر بزيارة ألمانيا الغربية. كذلك، حاول إضعاف محادثات تحرير أوروبا الشرقية. كما أنه أشار إلى المصاعب الاقتصادية التي كانت تعانيها اقتصادات الغرب الرأسمالية.

ولكن كان الأوان قد فات على هذه الإعلانات. فقد كان الاقتصاد الأميركي قد استعاد نشاطه بشكل كبير وكان ريغان يحقق النجاح تلو الآخر. فقد كان قد دعم بشجاعة الإجراءات التي اعتمدها رئيس المصرف المركزي الأميركي لمواجهة التضخّم، عبر زيادة نسبة الفائدة. وهكذا بدأ الأميركيون يلمسون التحسّن، بحيث تراجعت نسب التضخّم والبطالة، في حين بدا المشهد الاقتصادي السوفياتي في أسوأ حالاته منذ عقود خصوصًا وأنّ الروس مثقلون بنزاعهم في أفغانستان الذي يشبه المأزق الأميركي في فيتنام. وبالتالي، بدا واضحًا لريغان أنّ السترة الروسية الواقية التي أبقت أوروبا الشرقية تحت الاستعمار ومُستعبدة لمدة أربعين عامًا، بدأت تتمزّق، وأنّ روسيا تحتضر أو شارفت تنفيذ «الانتحار الذي تم حثّها على تنفيذه».

وفي صيف تلك السنة، ألقى ريغان أبهى خطاباته في الذكرى الأربعين ليوم بدء العمليات، وجاء فيه: فمن أعالي جرف عمودي في النورماندي، هاجم المغاوير الأميركيون الشباب في السادس من حزيران/يونيو ١٩٤٤ عل الرغم من كل الخسائر التي كابدوها في خلال اجتياح فرنسا، إنهم «شباب بوينت دي هوك. هؤلاء الرجال غزوا الهضاب، إنهم الأبطال الذين ساهموا في تحرير القارة»، قال ذلك، وهو يشير إلى الاثنين وستين رجلاً الذين نجوا ذلك اليوم وكانوا حاضرين في أثناء الخطاب.

فجاء كلام ريغان لاذعًا في سياق الحرب الباردة. فقد كانت شجاعة الجنود الأميركيين في تحرير القارة المحتلة الموضوع الذي كان ريغان قد اختاره عمدًا. فأصبحت أيام القمع العسكري السوفياتي والحكم بالقبضة الحديدية باسم عقيدة بهتت وفشلت معدودة. فلم يعد من المحتمل أن تحل الإمبراطورية السوفياتية خليفةً

للرايخ الثالث التابع لهتلر، لأن قوات الاحتلال السوفياتية كانت تحرس شكلاً جديدًا من الجدار الأطلسي، بدءاً ببحر البلطيق إلى البحر الأدرياتيكي وآسيا. وبالتالي كانت ثقة ريغان أنّ الولايات المتحدة ستفوز ملحوظة إلى حد مقلق. وأعلن من مزرعته عقب عودته وهو يتحقق أنّ مكبر الصوت صالح ظنًا منه أنه لا يعمل «مواطني الأعزاء، يسرّني أن أعلن لكم أنني وقّعت تشريعاً يجعل من روسيا خارجة على القانون إلى الأبد، وسنبدأ بشنّ الغارات بعد خمس دقائق».(١)

في الواقع، جعلت هذه المزحة الكثيرين يقلقون حيال صحة ريغان العقلية. فقد ارتكب العديد من الزلات في تلك السنة. وبدأت تظهر عليه علامات تراجع ذكائه، فهو كان حينئذ في الثالثة والسبعين من عمره وقد نجا من محاولة اغتيال كادت تودي بحياته. ولكن، من ناحية ثانية، كانت الولايات المتحدة تفوز بمعظم الميداليات في الألعاب الأولمبية في لوس أنجلس كتهلل وطني، وبدأ الاقتصاد يزدهر، أي إن الولايات المتحدة حينئذ كانت تختلف كثيرًا عما كانت عليه منذ أربع سنين. وبالتالي، أصبح احتمال فوز المرشح الديمقراطي، نائب الرئيس كارتر، والتر مونديل بالانتخابات أكثر صعوبةً من اجتياح جرف بوانت دي هوك. فلقد كان الديمقراطيون قد توقعوا كارثةً على صعيد الاستقرار العالمي والاقتصاد الأميركي، من هنا وجدوا أنفسهم في موقف حرج جدًا وغير متوقَع.

أما بالنسبة إلى الناخبين، فقد بدأوا أكثر وأكثر يشعرون بامتنان ريغان عليهم لأنه أجرى تغييرًا جذريًا في حياتهم الشخصية بالمقارنة بحقبة الرئيس كارتر التي ما انفكَت تبدو مملة كلما تذكروها. فقد ولّت أيام الوقوف في الصف للحصول على البنزين، كما ولت أيام التضخم الاقتصادي، في حين انخفضت الضرائب بنسبة هائلة، خمسة وعشرين في المئة، وارتفعت المداخيل الحقيقية. كل هذا عنى أنّ أميركا ستشهد حقبة جديدة، برزت في حملة إعادة انتخاب ريغان التي كان شعارها «أشرقت الشمس في أميركا».

---

(١) المصدر السابق ص. ٢٢٨.

ومع ذلك، شعر بعض المنتقدين بخطر محدق، وأشاروا إلى أنه من خلال تشجيع الناس على اعتبار الضرائب نوعًا من السرقة الحكومية، كان ريغان يشجّع عمدًا المواطنين العاديين على الأنانية، مدمّرًا بالتالي حس المسؤولية المشتركة الذي لطالما كان موجودًا منذ عهد أف.دي.آر. والعهد الجديد واستمرّ في عهد كل من الرئيس ترومان وكينيدي وجونسون. وقد عبّر قاضي المحكمة العليا أوليفر وندل هولمز الابن عن هذه الفكرة «إن الضرائب هي ما ندفعه للمجتمع المتحضّر». في هذا السياق، هدّدت بعض أوجه جدول أعمال ريغان بالتلاعب بالنسيج الاجتماعي الأميركي وأيضًا بالثروة المشتركة، من بين هذه الأوجه تشويه سمعة الحكومة الفدرالية عبر التصريح أنها عائق أمام التقدم الاقتصادي والاجتماعي، والسعي إلى إزاحة عبء الرعاية الصحية عن ظهر الحكومة الفدرالية وتحويله إلى الولايات (التي غالبًا ما تكون فقيرة)، والسعي إلى «تحرير» روح المبادرة من خلال إخلال التوازن في مجال الأعمال والمخاطرة بحرية من دون قيود والفساد والتلاعب في الأسواق. وكل ذلك في ظلّ تدهور سريع للبنى التحتية لقطاع النقل والضرر البيئي. ووفقًا للمنتقدين، أصبحت السياسات الاقتصادية «التي روجها ريغان» على غرار «من جانب العرض» و«منحنى لافر» و«التسلسل التنازلي» (تخفيض الضرائب للأثرياء) وصفة للمادية الأميركية والجشع والمجتمع الاستهلاكي وقصر النظر الجماعي. في هذا الصدد، تلخّص إجابة ريغان عن سؤال مراسل تلفزيون سي بي أس حالة جديدة من اللامبالاة الآتية من جانب السلطة. فأشار المراسل إلى أن الرئيس يهدف، وفقًا لبرنامج تخفيض الضرائب الجديد، إلى توفير ثمانية وعشرين ألف دولار من عائدات الضرائب المشتركة إن أقرّ اقتراحه تخفيض الضرائب للأثرياء. فأجاب ريغان «أظنّ أنّ هذا يوضح للجميع مدى إيجابية نظام الضرائب الجديد» متناسيًا معنى كلمة «الجميع».(١)

صحيح أنّ المنتقدين انتقدوا ريغان على حس الجشع الذي سببه، مقارنةً برؤية

(١) المصدر السابق، ص. ٢٥٨.

أف.دي.آر. للأمن الجماعي أو مناشدات كارتر للإحسان المسيحي. إلا أنّ العوامل الديمغرافية كانت لمصلحته في الثمانينيات بحيث كان نصف الناخبين ما دون الخامسة والعشرين يدعمونه، ويصوّتون لمصلحة الرئيس ذي الثالثة والسبعين في خلال إعادة ترشحه.

في هذه الأثناء، كانت حرب ريغان على الشيوعية قد أصبحت هوسًا، تستغرق كل وقته وحيّزًا كبيرًا من مذكراته. لم يستطع، ولم يرِد التوقف. حتى أنه لام الكونغرس لأنه لم يدعمه في مسلسل الديكتاتورية اليمينية في أميركا الوُسطى، لذلك أخذ يلجأ إلى أي إجراء غير شرعي يراه «مناسبًا». وفي السابع والعشرين من نيسان/أبريل ١٩٨٣، اجترأ في خطاب ألقاه أمام الكونغرس أن يقتبس عقيدة ترومان، هو الرئيس الجمهوري، في سبيل تصوير كل من السلفادور وهندوراس وكوستاريكا ونيكارغوا كمجموعة تشبه وضع كوريا ولكنها أقرب إلى أميركا من شبه الجزيرة الآسيوية. فلفت إلى أنّ السلفادور «أقرب إلى تكساس من ماساشوستس. إن الأمن القومي لكل القارة الأميركية على المحكّ في أميركا الوسطى... لئن لم نستطع الدفاع عن أنفسنا، فلا يمكننا أن نتوقّع أن نكون قادرين على البروز في أي مكان آخر». وأدلى الرئيس بهذا على الرغم من عدم وجود أي مواطن أميركي للدفاع عنه في هذه الدول. «ستنهار مصداقيتنا وتحالفاتنا وسيصبح أمننا في خطر».

وعلى الرغم من مهارات الرئيس العالية في التواصل، لم ينجح هذه المرة وساد الصمت، إلا أنه أُنقذ عندما وعد بإرسال الجنود الأميركيين إلى «كوريا جديدة». ولهذا قبل بتردد أنّ التدخل الأميركي سيكون غير شرعيّ، وأبقى انتباه الناخبين مركزًا على الاتحاد السوفياتي. وبقي مصير الخمسة والعشرين مليون مواطن في أميركا الوُسطى الذين يتقاضون أجرًا بمعدّل خمسمئة دولار سنويًا مجهولاً بالنسبة إلى معظم الأميركيين في الولايات المتحدة. في الواقع رأى هؤلاء أنّ رئيسهم المسنّ مضلّل في هذا السياق وحتى شديد الغرابة، وأشاحوا بنظرهم عن المسألة. من جهة أخرى أسكت وزير الخارجية جورج شولتز مسؤولاً رفيع المستوى في وزارة الخارجية كان ينتقد بشدة مواصلة الرئيس دعم فرديناند ماركوس رئيس الفيليبين السابق والفاسد،

مع بروز أدلة دامغة على أنّ ماركوس قد حاول التلاعب بالانتخابات، وقال له: «يبقى الرئيس القائد الأعلى، وله وجهات نظر قاسية، وهذا ما خوّله أن يكون رئيسًا».[1]

وبرؤية تاريخية، يتبيّن أنّ هوس ريغان بالشيوعية في الشرق الأوسط رهن مستقبل الأميركيين. فمن خلال رفض رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن التفاوض مع أي مجموعة فلسطينية لا تعترف بحق إسرائيل بالوجود ، لم يكن هناك أي عقبات أمام سياساته الاستيطانية وأمر بتسريع التوسّع غير الشرعي للمستعمرات اليهودية في الضفة الغربية، غير آبه للمعارضة الفلسطينية أو معارضة الأمم المتحدة والعالم أجمع. ولم يتوقّف عند هذا الحد، بل عيّن الجنرال آرييل شارون وزيرًا للدفاع، وفي حزيرن/ يونيو ١٩٨١، أمر بيغن بشنّ هجوم جوي على محطة صدام حسين النووية التي بناها الفرنسيون خارج بغداد. واستخدم في الهجوم الطائرات الحربية الأميركية من طراز أف ٤ وأف١٦، منتهكًا بذلك الاتفاقيات الأميركية التي تمنع استعمال هذه الطائرات لغايات هجومية، وذلك، بدلاً من العمل مع حلفائه لإيقاف نقل اليورانيوم المخصّب من فرنسا. فكتب ريغان بقلق في مذكراته في السابع من حزيران/يونيو ١٩٨١، «أقسم إنني أشعر بأن المعركة الحاسمة أصبحت قريبة». ولكن، لم يحرّك ريغان ساكنًا لإيقاف اقتراب الحرب، وجلّ ما فعله هو إيقاف تسليم المزيد من طائرات الأف ١٦ إلى إسرائيل بعد الهجوم.[2] فقال الرئيس سرًا لأعضاء فريقه: «يجعل بيغن من الصعب علينا دعم إسرائيل». [3] بيد أنه أشار في مذكراته إلى أنه حتى ولو قرر الكونغرس معاقبة إسرائيل لانتهاكها الاتفاقية، فسيمنحها هو «وثيقة إعفاء رئاسية» نظرًا إلى إيمانه أن صدام حسين بالإضافة إلى إسرائيل كان يطوّر القنبلة النووية.[4]

إلا أنّ السماح لإسرائيل أن تكون نائبة أميركا في الشرق الأوسط، شكّل سياسةً مثقلة بالعواقب الوخيمة. ونظرًا إلى التناقض الأميركي، سمح بيغن بالتقدم في

(١) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(٢) ريغان في The Reagan Diaries.
(٣) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٦٩.
(٤) المصدر السابق و ريغان في The Reagan Diaries، ص. ٢٥.

سياسة الاستيطان في الضفة الغربية ومخططاته لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية. وبحلول الصيف التالي، كان ريغان «على علم منذ ما لا يقل عن السنة» أن بيغن «رئيس الوزراء ذاك الحاد الطباع العدائي» على ما وصفه كاتب قصة حياة ريغان الرسمي، «كان يهيىء لحرب على الشرق الأوسط». وأصبحت هذه الحرب وشيكة عندما ضمّت حكومة بيغن رسميًا هضاب الجولان.[1] فتم استدعاء السفير الإسرائيلي في أميركا إلى وزارة الخارجية في واشنطن احتجاجًا على هذا العمل، بعد أن دانته الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. أما في تل أبيب، فتسلّم سفير الولايات المتحدة ردَ رئيس الوزراء بيغن الذي جاء على النحو الآتي: «ما هذا الكلام عن «معاقبة إسرائيل»؟ أتظنون أنّنا دولة تابعة لكم؟ أتعدوننا جمهورية صغيرة؟ لن تخيفونا بالعقاب».[2] وفي السادس من حزيران/يونيو ١٩٨٢، أمر بيغن بشنّ هجوم مشؤوم وإعادة اجتياح لبنان، بدعم من وزير دفاعه آرييل شارون، متحديًا أكثرية الإسرائيليين.

كان الهدف من وراء هذا الاجتياح هو تطهير جنوب لبنان من متمردي منظمة التحرير الفلسطينية، ومن اللاجئين الفلسطينيين ومعاقبة مدينة بيروت. أسفر الاعتداء الإسرائيلي عن مقتل عدد هائل من الضحايا المدنيين. أثار سفك الدماء المتعمّد الشجب من كل أنحاء العالم، خصوصًا لاستعمال القنابل العنقودية التي تزوّدها الولايات المتحدة إسرائيل التي كانت ممنوعة من استعمالها إلا للدفاع عن نفسها. واعترف ريغان في مذكراته في السادس عشر من حزيران/يونيو ١٩٨٢ «إنّ العالم في انتظارنا لاستخدام قوتنا وأمر إسرائيل بالخروج». إلا أنه رفض القيام بأمر مماثل، لأنه كان يؤمن أنه حتى ولو كانت إسرائيل مذنبة لإسرافها في التدمير والقتل، إلا أن تدخّل إسرائيل قد يوفّر «أفضل فرصة أمامنا لإصلاح عوامل الدخول في الحرب في لبنان وإحلال السلام فيه بعد سبعة عشر عامًا من الحرب».[3]

إلا أنّ هذا الحلم لم يتحقق. فقد هبطت مجموعة جديدة في لبنان من قوات

(١) كتاب Dutch للكاتب موريس Morris، ص. ٤٦٢.

(٢) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١١٤.

(٣) الاثنين في ٢١ حزيران/يونيو في The Reagan Diaries، ص. ٩٠.

الجو الإسرائيلية، التي تعد ثالث أكبر قوة في العالم وتعتمد إلى أقصى الحدود على الطائرات الحربية وقطع الغيار الأميركية. وكتبت صحيفة نيوزويك بعد مرور ثمانية أسابيع على القصف الإسرائيلي وبداية الأسبوع التاسع[1] «إنّ مشاهدة قوات الجو الإسرائيلية تسحق بيروت وتمزقها إربًا إربًا تشبه رؤية رجل يضرب كلباً مريضاً حتى الموت».

في المقابل، توسّل وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز إلى الرئيس أن يقوم بأمر ما تجاه القصف لإيقاف القتل خشية أن يتشوّه نفوذ أميركا ومكانتها في العالم العربي إلى الأبد. كذلك، قدم نائب رئيس قطاع الرئيس مايك ديفر استقالته قائلاً لريغان: «لا يمكنني أن أكون جزءًا من القصف وقتل الأطفال بعد الآن. ما يجري خاطئ جدًا، وأنت الشخص الوحيد القادر على إيقافه».[2]

لكن المستغرب بالنسبة إلى رجل واثق بشدة بآرائه وسلوكه أكان إزاء الشيوعية أم الضرائب، أن ريغان لم يكن يريد مواجهة الشعور بالبغض في صفوف فريق عمله. فقد كان ديفر قد توسّل إليه قائلاً: «جل ما عليك فعله هو القول لبيغن إنك تريد منه إيقاف الاعتداءات». وهذه المرّة قبل الرئيس واتصل ببيغن، وأشعره بالعار عندما أطلق على الاعتداءات الإسرائيلية اسمها الحقيقي، فريغان قد كتب في تلك الليلة في يومياته «لقد استعملت كلمة محرقة عمدًا»، وهدد بيغن بغضب قائلاً: «أنت تعرّض مستقبل العلاقات بيننا إلى الخطر».[3] وبعد مرور عشرين دقيقة، عاود بيغن الاتصال ليقول إنّ المجزرة الجوية قد توقفت وناشده «مواصلة علاقة الصداقة بين البلدين» وألقى اللوم على شارون لإصداره الأوامر بشن هذا الهجوم.[4] فكانت نتيجة هذا الاتصال أن اعترف ريغان مندهشًا «لم أكن أعلم أنّ تأثيري قوي إلى هذه الدرجة».[5]

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١٢٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ريغان في The Reagan Diaries، ص. ٩٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١٢٤.

ولكن، قد تساءل مساعد ريغان لم تطلّب الأمر شهرين من الهجومات الإسرائيلية السريعة على لبنان والقصف المستمرّ على مدينة بيروت، بما يضاهي القصف الذي تعرّضت له غويرنيكا في العام ١٩٣٧، لقيام ريغان بهذا الاتصال. وكذلك، لماذا لم يعترف ريغان بأن القمع الذي كان يمارسه كلّ من بيغن وشارون ضد الفلسطينيين العرب، سيؤدّي بالولايات المتحدة إلى تحمّل العواقب الوخيمة في العالم العربي الناتجة من أفعال إسرائيل؟ وبعد هذه الأحداث، سعى ريغان إلى التخفيف من حدة الوضع في لبنان الذي بات يُشبه القنبلة الموقوتة، فأرسل مجموعات أميركية لحفظ السلام. بيد أنّ الأشهر التالية شكلت دليلاً دامغًا على شعور العرب بمعاداة أميركا التي تسبب بها دعم الولايات المتحدة للاعتداءات الإسرائيلية وأعمالها التوسعية.

وفي الثامن من آب/أغسطس ١٩٨٢، أمر ريغان من مزرعته في كاليفورنيا بإنزال ثمانمئة جندي من البحرية الأميركية في بيروت للمشاركة في بعثة حفظ السلام الموقتة مع الفرنسيين والإيطاليين، وكانت تُعرف هذه البعثة بالقوات المتعدّدة الجنسيات. من ثمّ، أعلن ريغان من أستوديو الأن بي سي في هوليوود في خطاب وجهه إلى الأمة والعالم في وقت الذروة أنه لا بدّ من مواجهة المشكلة الفلسطينية وليس العمل على سحقها كما سحق هتلر انتفاضة وارسو.

وجاء أيضًا في الخطاب، أنّه يتفهم غضب إسرائيل إزاء تعرّضها للقصف المدفعي الآتي من خلف الحدود الذي ينفّذه «عرب عدائيون» وشرح أنه «لن يقبل أن تعيش إسرائيل على هذه الحال»، إلا أنّه أعلن أنه لم يحبّذ الطريقة التي ردت بها إسرائيل على هذا القصف. كذلك أعلن الرئيس «إنّ الحرب على لبنان بيّنت لنا بعض الحقائق المتعلّقة بالمنطقة، فإنّ رحيل الفلسطينيين من بيروت يزيد من حدّة حالة التشرّد التي يعانيها الشعب الفلسطيني. وبالتالي، فإنّ الفلسطينيين يؤمنون بأن قضيتهم ليست مجرّد مسألة لاجئين، وأنا أوافقهم في الرأي».[١] فاقترح في الأوّل من أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ خطة ريغان التي تمنح استقلاليةً تامةً للفلسطينيين في غزة والضفة الغربية في

(١) المصدر السابق، ص.١٢٧.

ظل فدرالية يشرف عليها الأردن. كما تقضي الخطة بتجميد أعمال بناء المستوطنات الإسرائيلية التي كانت تحميها القوات الإسرائيلية منذ انتصارها في العام ١٩٦٧.

غير أن خطاب ريغان لم يلقَ آذانًا صاغية. وفي الثالث من أيلول/سبتمبر كان العنوان الرئيسي في صحيفة نيويورك تايمز «إسرائيل ترفض خطة ريغان بمنح الفلسطينيين حكمًا ذاتيًا». وبعد يومين، أعلن بيغن أنه سيمنح ١٨،٥ مليون دولار لبناء عشر مستوطنات أخرى في الضفة الغربية وبذلك أمل رفع عدد المستوطنين اليهود أكثر من ثلاثمئة في المئة.

وبذلك، رفع ريغان بحزن عن نفسه مسؤولية هذه المشكلة وسحب القوات البحرية التي بلغ عددها ثمانمئة جندي في العاشر من أيلول/سبتمبر. غير أنه من الناحية الإنسانية، شعر أن عليه إعادة هذه القوات إلى المنطقة في التاسع والعشرين من الشهر ذاته، إذ إن الوضع قد تحول في تلك الأثناء إلى سفك دماء جنوني. وبعيدًا عن المصالحة من جديد بين «العوامل المتقاتلة» وتعزيز السلام بعد سبع سنوات من العنف شبه القبلي، أدى الاجتياح الإسرائيلي إلى انتشار إضرابات في المنطقة، فيما اشمأز العالم بأسره من رؤية ما عرف بجرائم إسرائيل ضدّ الإنسانية وتداعياتها بحيث تم تحريض الميليشيات اللبنانية المسيحية على التوصل إلى اتفاق سري مع القوات الإسرائيلية.

لم يكن تدخل الرئيس الإنساني الثاني أفضل من الأول، وأظهر بكل بساطة ضعف المساعدة الأميركية المتأخرة. وبدلاً من القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، حول الاجتياح الإسرائيلي أعضاءها إلى شهداء وساعد على ولادة حزب الله وأغرقت سوريا في ورطات أكبر وعززت الحرب الأهلية الناشبة في البلد. وعندما تخلت إسرائيل أخيرًا عن الحرب الخاطفة الفاشلة وغادرت بيروت، أجبرت قوات حفظ السلام الأميركية على المطالبة بسفينة حربية ذات قوة نارية لتدافع عن نفسها. غير أن هذه الخطوة جعلت من قوات حفظ السلام محاربين وعملاء للإسرائيليين الراحلين. وكانت النتيجة حتمية.

في الثاني والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، قاد انتحاري إسلامي شاحنةً فيها ستة أطنان من المتفجرات القوية إلى داخل ثكنات قوات حفظ السلام البحرية الأميركية في مطار بيروت، وفجر المبنى الذي هوى بكامله وقتل بضربة واحدة مئتين وواحداً وأربعين أميركيًا. فكان هذا الحدث دليلاً على نوع جديد من حرب العصابات الانتحارية الشبيهة بالكاميكاز، وعجزت الحواجز والتفتيش الأمني عن إيقافه.

في المقابل، سئم الشعب الأميركي من مقتل مئات الشباب الأميركي، فحث الرئيس على سحب القوات البحرية الكاملة دفعةً واحدةً. فرفض ريغان، الذي أبى إيقاف بيغن إلى أن فات الأوان، سحب قوات حفظ السلام الأميركية خشية أن يعطي ذلك طابعًا مماثلاً لإدارة كارتر، أي إنّ الولايات المتحدة كانت ضعيفة وإنها ستنسحب إذا تعرضت للمنافسة.[1] غير أن ريغان لم يقدم على شيء لإقناع إسرائيل بدعم خطته التي اقترحها. وبدلاً من ذلك، أعطى الإشارة الخضراء لاجتياح أميركي لجزيرة تبعد تسعين ميلاً عن فنزويلا.

وعلى صعيد آخر، كانت غرينادا أصغر دولة مستقلة في النصف الغربي من الكرة وتضمّ أحد عشر ألف نسمة. وكانت مستعمرةً سابقةً لبريطانيا يحكمها ديكتاتور ماركسي يدعى موريس بيشوب. وعندما وقع انقلاب ماركسي آخر في الجزيرة في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣، بدعم من القوات الكوبية وأجهزة محاكاة طيران روسية، قيل إنه تم تعريض مئتين وخمسين طالب طب أميركي لخطر محتمل. وعند مساءلة رئيس هيئة الأركان المشتركة، جون فيساي عن عدد الجنود الذين يريدهم في الاجتياح الأميركي المحتمل إذا كان مدعومًا من دول الكاريبي المجاورة وغيرها، أصغى الرئيس إلى إجابة الجنرال ومن ثمّ صدمه عندما طلب إليه مضاعفة العدد. وعندما سُئل عن السبب أجاب الرئيس «لأن جيمي كارتر استخدم ثماني

(١) تمّ إجلاء القوات البحرية في شباط/فبراير ١٩٨٤، أي بعد خمسة أشهر من تفجير شاحنة بيروت.

عشرة مروحية في عملية مخالب الصقر بدلاً من تسع مروحيات. لكن الآن من يُعلمه بدلاً مني».[1]

وبعد أن انتقده الكاريكاتوريون والمحررون الصحافيون في أوروبا حيث كان يحتج ملايين الأشخاص ضدّ وضع صواريخ نووية أميركية جديدة متوسطة المدى، أبدى ريغان ثقةً عاليةً بنفسه بالنسبة إلى رجل، سعى طوال حياته إلى كسب تأييد الآخرين وليس سخريتهم. فقال رئيس مجلس النواب تيب أوناي بدهشة عندما استدعى ريغان أعضاء الكونغرس إلى البيت الأبيض: «إنك تعلمنا ولا تسألنا؟» فأجاب الرئيس ببرودة «نعم».

وعلى الرغم من غضبه من تعالي ريغان، حذّر تيب أوناي زملاءه والإعلام من انتقاد الرئيس فيما كانت أرواح الأميركيين في خطر في غرينادا، حيث قام المرتزقة الكوبيون بمقاومة قوية. وأخيرًا، وبعد تصفية القوات الأميركية، ظهر ريغان على شاشات التلفاز في السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ليشرح الخسارة المأسوية لأرواح الأميركيين في بيروت فيما كانوا يؤدون دورهم بحفظ السلام وأسباب اجتياح غرينادا. «قيل لنا إن غرينادا كانت جزيرة جميلة سياحية صديقة. في الواقع، لم يكن ذلك صحيحًا. لقد كانت مستعمرة سوفياتية-كوبيةً تم تجهيزها لتكون منطقةً محصنةً لنشر الشيوعية وتقويض الديمقراطية. لقد وصلنا إليها في الوقت المناسب».[2] وفيما استعرضت وزارة الدفاع أدلةً في قاعدة أندروز للقوات الجوية خارج واشنطن، من ناقلات الأشخاص المصفحة إلى الأسلحة لمحاربة الطائرات، وحوالى ستة ملايين رصاصة للبنادق والرشاشات، فضلاً عن سجلات أكثر من سبعمئة جندي كوبي (تقريبًا ما يقرب من عدد الجنود في غرينادا)، ارتفعت استطلاعات الرأي المؤيدة لريغان حوالى عشرين نقطة لتصل إلى أربع وثمانين في المئة. وبعد بضعة أيام، وصلت أول شحنة إلى القواعد الجوية العسكرية في أوروبا تتضمن رؤوساً نووية من

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ١٨٣.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٩١.

نوع توماهوك وصواريخ من نوع بيرسينغ ٢ إلى محطة غرينهام كومون البريطانية، ما زاد من حدة الاحتجاجات. فكانت الرسالة إلى الذين واجهوا الإمبراطورية الأميركية: كونوا حذرين.

كان سرّ سحر ريغان، كما سحر روزفلت، يكمن في التفاؤل، وهي ميزة تعد أميركية بحتاً ولكن إذ كانت هي وروح الدعابة صفتين شبه معدومتين منذ عهد رئاسة جاي. أف. كاي. وفي إلقاء الخطابات، كان ريغان ينتبه بدقة على التعبير، أكان حسياً أو ملهماً، وكان يتمتع بروح دعابة ينسي الهم. وكان من بين أقواله المأثورة التي أحبها معجبوه «لقد توصلت إلى النتيجة بأن هناك مؤامرة عالمية تهدف إلى جعل مهمتي صعبة في كل يوم تقريبًا أكون في المكتب»، وبدوره جعل جهد كل مرشح للرئاسة أكثر تنافسية. كان ريغان طويل القامة وأنيقًا دائمًا وممتعاً بنوع من الثقة المدروسة المميزة (عندما كان يقف أمام المرآة وهو يحلق ذقنه في الصباح كان يردد شعاره «أنا الرئيس»)، كان يصعب هزمه، كما هزم الرئيس كارتر باستمرار، على يد الإعلام أو الخصوم أو حتى الناخبين الغاضبين. ومزح ريغان في المداولات الرئاسية الثانية ضدّ خصمه نائب الرئيس السابق والتر مونديل، المرشح الديمقراطي، في تشرين الأول أكتوبر ١٩٨٤ قائلاً: «أريدكم أن تعلموا جميعًا أنني لن أجعل من العمر مشكلة في هذه الحملة». وأضاف مبتسمًا «لن أستغل شباب خصمي وعدم خبرته لدواعٍ سياسية».[١]

رغم انتقاد مونديل لإدارة ريغان وقيادته للجيش، بقي ريغان مهذبًا وعاقلاً ومبدئياً وفوق كل ذلك بقي حازماً. وقد رد في المداولة «أعلم أن هذا سيفاجئ السيد مونديل ولكنني أنا المسؤول»، واثقًا برؤيته إلى مستقبل أميركا المزدهر والآمن، ومندهشًا وسعيدًا عند إدراكه أنه وفقًا لاستطلاعات رأي جديدة تفوق على مونديل الذي كان أصغر منه بكثير (في السادسة والخمسين)، بصوتين مقابل صوت من بين الناخبين الذين راوحت أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، أي الناخبين الذين كانوا مستقبل أميركا.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٣٤.

وفي السادس من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤، أعيد انتخاب ريغان لولاية جديدة لأربع سنوات، بفوزه بثمانٍ وأربعين ولاية مقابل ولايتين لخصمه، ما كان إثباتًا ساحقًا على رئاسة شهدت ولاية أكثر مأسوية.

وفي العام ١٩٨٥، أظهر فحص روتيني أن ريغان مصاب بالسرطان في الجلد والقولون، مما تطلب عملية جراحية لثلاث ساعات لاستئصال الورم الخبيث من أمعائه.

وفي إطار آخر، تم تعيين دونالد ريغان رئيسًا جديدًا ومتباهيًا للقطاع، ليدير شؤون البيت الأبيض، فتساءل بعض المنتقدين من كان يدير البلاد. غير أنّ ريغان بدا أكثر رئاسيًا من أي وقت مضى، وقد صب مهاراته القيادية أكثر للتركيز على القضايا الأساسية وفق نظرته الاستبدادية إلى أميركا، التي قامت على الحد من «تفشي» الشيوعية وتحقيق سيطرة عسكرية على الاتحاد السوفياتي وخفض الضرائب للأغنياء وإعادة إحياء الثقة والاعتزاز الأميركيين.

وعلى الصعيد الخارجي، أدى ذلك إلى ارتفاع وتيرة الاحتجاجات وتراجع شعبيته، وخصوصاً بسبب استمراره في تمويل المتمردين اليمينيين في نيكاراغوا وبسبب برنامج حرب النجوم الذي وضعه. ولكن في الداخل، ازدادت قدرته على المقاومة وصد الانتقادات فيما استمر الاقتصاد بالازدهار على الرغم من ديون البلاد التي وصلت إلى تريليوني دولار، وعجز التجارة إلى مئة وخمسة وعشرين مليار دولار أميركي سنويًا. فضلاً عن ذلك، بقي الرئيس المسن صبورًا ومتماسكًا ومرحًا إلى حدّ بعيد. فبعد أن تم إعلامه بأن عليه إجراء الجراحة المعوية التي تطلبت ثلاث ساعات لاستئصال ورمه قال ريغان مازحاً: «هل تعني أن الخبر السيىء هو أنني لا أستطيع تناول العشاء اليوم؟»[1] وتمامًا مثل مارغريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية التي كانت حليفته الدائمة ومشجعته، تمسك بنصه البسيط، متجاهلاً وصادًا آراء الآخرين، وبما أنه كان محبوبًا أكثر ومستنكرًا لنفسه بالنسبة إلى السيدة تاتشر، فاز ريغان بمعظم معاركه في الداخل من دون تشويه سمعته (أو سمعتها) في الخارج.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٦٦.

أما بالنسبة إلى رئيس حاول أن يهاجم الضمان الاجتماعي بغية زيادة الأمن القومي، فشل في الأولى ونجح في الثانية، فلم تكن المحافظة على الشعبية بالإنجاز العظيم. وبالتأكيد لم ينس أحد خطابه التلفزيوني يوم انفجار المركبة الفضائية شالنجر، التي أدت إلى موت كل من كان على متنها، بمن فيهم كريستا ماكوليف، وهي مدرسة علوم اجتماعية في السادسة والثلاثين من العمر من مدينة كونكورد في ولاية نيو هامشير. كان الكثير من الأطفال يشاهدون على شاشات التلفاز في المدارس كيف انطلقت مركبة شالنجر من رأس كانافيرال في الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، وشاهدوها تنفجر على مسافة لا تزيد على عشرة أميال فوق منصة الانطلاق. بعد أن خضته الحادثة، ألغى الرئيس خطاب حال الاتحاد أمام الكونغرس، ووجه بدلاً منه خطاباً للأمة المصدومة. أعلن قائلاً: «إن طاقم مركبة شالنجر كان يقودنا إلى المستقبل وسوف نستمر في متابعتهم. لن ننساهم أبدًا ولن ننسى المرة الأخيرة التي رأيناهم بها هذا الصباح يهيئون أنفسهم للرحلة ويلوحون لنا مودعين و«فقدوا كل ارتباط كئيب بالأرض ليتقربوا إلى الله».(١)

بنظر غالبية الناخبين الأميركيين أعاد الرئيس تعزيز القوة الاقتصادية والعسكرية الأميركية. وفي ما تعلق بالسياسة الاستبدادية، أدى ريغان دورًا بارزًا، دورًا قاسيًا إلى درجة لم يشهدها أحد من قبل. فلم يقنع السعوديين بزيادة إنتاج النفط من مليونين إلى تسعة ملايين برميل في السنة ، لملء السوق العالمية مقابل لوازم عسكرية فحسب، بل سرّع أيضًا من خلال وكالة الاستخبارات المركزية برنامج بريجنسكي السري لدعم حركة طالبان والمجاهدين في أفغانستان. وبتوجيه رئاسي سري، مستوحًى من توجيهات مجلس الأمن القومي رقمه مئة وستة وستون، أمر ريغان وكالة الاستخبارات بمساعدة المتمردين المسلمين على «مضايقة» القوات الروسية في أفغانستان كما فعل الرئيس كارتر، «وبطردهم خارج البلاد». وفي العام ١٩٨٥

(١) من قصيدة 'High Flight'، كتبها الضابط الطيار جون غيليبسي ماغي الابن John Gillepsie Magee Jr الذي توفي في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١ في سماء لينكونشاير في إنكلترا. وبعد أسبوع ألقى ريغان خطاب حال الاتحاد الذي خطط له أمام الكونغرس.

باشرت وكالة الاستخبارات بإيصال عشرة آلاف قاذفة صواريخ ومئتي ألف صاروخ، أي أكثر بخمس مرات مما استعمل في السنوات الخمس السابقة (وأكثر بخمس عشرة مرة من حيث السعر). فأصبحت هذه العملية «أكبر برنامج سري أميركي في تاريخ الاستخبارات»، بحسب المدافع عن قضية ريغان بول كينغور.[1] زُعم أن مدير وكالة الاستخبارات في إدارة ريغان أمر أحد أتباعه «اذهب واقتل عشرة آلاف سوفياتي إلى أن يستسلموا».[2] فقتل في الواقع ستين ألفاً من القوات السوفياتية في أفغانستان وتم إسقاط مئتين وتسع وستين مروحيةً سوفياتية بواسطة ثلاثمئة وأربعين صاروخًا أميركيًا من مضاد للطائرات من نوع ستينغر.

وفي العاشر من آذار/مارس ١٩٨٥، وقع حدث ذو عواقب عالمية أكبر من مأزق الروس في أفغانستان، فقد توفي رئيس الوزراء الروسي كنستانتين تشيرنينكو في موسكو. كان ريغان قد توقع أن يتطلب إسقاط عملاق الشيوعية السوفياتية عقدًا ثانيًا، غير أن ولادة قائد سوفياتي جديد، هو ميخائيل غورباتشوف غيّر توقيت ريغان وإستراتيجيته.

وفي سياق آخر، لم يكن مقرراً تنفيذ برنامج حرب النجوم في وقت قريب، ولكن لم يتوقع الروس أيضًا قيادة أميركا في مجال التكنولوجيا، وبذلك أصبحوا محاصرين، يأملون بيأس أن تقرر أميركا عدم تنفيذ البرنامج مقابل أن يخفضوا الأسلحة النووية. فرد غورباتشوف سريعًا على دعوة ريغان له للقاء في واشنطن، أو في مكان آخر. فاجتمع الرجلان في الوقت المناسب، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ في جنيف، حيث أطلق كالفن برنامج إصلاحه قبل أربعة عصور.

عبر الرئيس شهرًا بعد شهر، في خلال استعداداته لاجتماع القمة، عن عزمه في ما يتعلق ببرنامج حرب النجوم. فكان قد أشار في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤ «إنني أصرّ على عدم التراجع عن هذا البرنامج مهما اقترحوا».[3] وبعد تسعة أشهر، أي في

---

(١) كتاب The Crusader للبروفيسور بول كينغور Paul Kengor، ص. ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٣٤.

(٣) ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٤ في The Reagan Diaries، ص. ٢٨٧.

العاشر من أيلول/سبتمبر ١٩٨٥، بقي متمسكًا برأيه. «إن غورباتشوف رجل عنيد، لذلك علينا تغيير مبادرة الدفاع الإستراتيجي، سيكون ذلك كقوة قاهرة تواجه جسمًا لا يمكن هزه».[١] وفي التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر التقى الإمبراطوريان، «القائد الشيوعي الأول والقائد الإمبريالي الأول»، وفق ما كتب غورباتشوف في وقت لاحق.[٢]

أشار ريغان في تلك الليلة في البيت الذي استأجره في جنيف «لقد ناقشنا مبادرة الدفاع الإستراتيجي مدة ساعتين. إنه عنيد لكنني عنيد أيضًا».[٣] وفي اليوم التالي وصف ابن بائع الأحذية السكير الأميركي من أصل إيرلندي قائلاً: «لقد ساءت الأمور إلى حد كبير فيما رأى غورباتشوف أن مبادرة الدفاع الإستراتيجي تؤدي إلى نوع من سباق التسلح... لقد كان عدوانيًا بحق، وبقيت أنا مصممًا».[٤]

وتجدر الإشارة إلى أنّ غورباتشوف كان رجلاً حادّ الذكاء ويمثل جيلاً لم يشارك لا في الثورة الروسية ولا في الحرب العالمية الثانية. غير أنّ ريغان كان متيقناً أنّ غورباتشوف يتبجج وأنه سيستسلم إذا بقي هو هادئًا وعنيدًا. وتمامًا كالحكومة البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية، كان على المكتب السياسي أن يدرك أن الاتحاد السوفياتي لم يعد قادرًا على تحمل تكاليف الإمبراطورية الكبيرة، فيما تخبطت المستعمرات والدول التابعة لها وراء الستار الحديدي وفيما تنافست مع عالم غربي أقوى بكثير في مجال الاقتصاد. كما أصبح باهظًا جدًا بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي أن يتابع تنافسًا عسكريًا مباشرًا مع الولايات المتحدة من جهة ومع الصين الشيوعية من جهة أخرى، ما يتطلب أعدادًا غير محدودة من القوات المسلحة والجنود وغيرهم.

تساءل المؤرّخون لاحقًا، مدركين جهود غورباتشوف الدؤوبة، هل كان رئيس أميركي آخر أقل تعصبًا سيساعد غورباتشوف والاتحاد السوفياتي على الانسحاب من

(١) ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ في المصدر السابق.
(٢) كتاب Memoirs لميخائيل غورباتشوف Mikhail Gorbachev، ص. ٤٠٥-٤٠٦.
(٣) ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ في The Reagan Diaries.
(٤) ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ في المصدر السابق.

إمبراطوريته الخاصة وأن يصبح عصريًا، كما تم تشجيع إمبراطورية الصين، من دون السعي إلى تعريضه للإفلاس؟ أما السؤال الآخر، «فهل كان رئيس بديل كموندايل لو ربح انتخابات العام ١٩٨٤، سيفكر في عواقب القضاء على الاتحاد السوفياتي؟ وفيما كان العالم سيصبح وأصبح في نهاية المطاف، من دون شك مكانًا أكثر أمانًا من دون سباق تسلّح نووي، هل كان سيصبح بالضرورة مكانًا أكثر أمانًا إذا أصبحت الولايات المتحدة القوة المهيمنة الوحيدة؟ ألن تسمح هذه القوة الأحادية بممارسة قوتها العظمى من جانب واحد وبشكل غير مسؤول أو تشجعها على ذلك بقيادة قيصر جديد؟

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ في جنيف قرر غورباتشوف أن يوضح موقفه. وقد أدهش ريغان فيما وصف بكل صراحة كيف أن السياسة الأميركية تؤثّر في الاتحاد السوفياتي، بسباق أسلحة لا يمكنها تحمل نفقاته.(١) غير أنّ صراحة غورباتشوف لم تبدل جدول أعمال ريغان. فكان ديبلوماسيو ريغان والمصادر الاستخبارية قد أعلموا الرئيس بأنّ الاتحاد السوفياتي كان على وشك السقوط، والآن علم بالأمر من قبل إمبراطور الاتحاد بنفسه، الذي توسل إليه للتخلي عن مبادرة الدفاع الإستراتيجي وتحسين العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من خلال الموافقة على الحد من الأسلحة.(٢) كما أنه توسل إليه للتخلي عن الهوس الأميركي «بالتوسع» السوفياتي، الذي عده «ووهماً أو تشويهاً متعمداً»، وطمأن الرئيس قائلاً: «إنّ هذه المرحلة اللاحقة بالماكارثية بالغت في وصف قوة الاتحاد السوفياتي. ليس لدينا أي خطة سرية للسيطرة على العالم... نحن نشجع على التوصل إلى تسوية في أفغانستان، تسوية سياسية تحت رقابة الأمم المتحدة إذا قبلتم مساعدتنا. إنكم تتهموننا بنشر القوات ولكنكم تعملون ضدنا. فأنتم تستفيدون من وجودها هناك، فكلما طال وجودها، زادت فائدتكم».(٣)

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٢٨٥.
(٢) دراسة مكتب الاستخبارات الأميركي وتقرير مكتب الاستخبارات والأبحاث في وزارة الخارجية وتقييم الاستخبارات الوطنية في كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٢٨٣.
(٣) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٢٨٦.

بعد عشرين سنة تذكر القادة الأميركيون الذين يكافحون في أفغانستان هذا الاعتراف البائس. غير أنَ ريغان اكتفى بالابتسام لخصمه في الواحد والعشرين من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥ ورافضاً التراجع. فقال القائد الروسي الشاب بأسى لزملائه عند عودته إلى موسكو: «لقد بدا لي ريغان ليس متحفظًا فحسب بل «ديناصورًا» سياسيًا أيضًا»، مدركاً أنه كان عليه إطلاق برنامج السلطة الثلاثية من دون مساعدة أو دعم أميركي. وبحسب ما ذكر في مذكراته كان هذا البرنامج خطوةً موجعةً وجاحدةً شُنت ضدّ البيروقراطية والشخصيات المتشددة. وفي نيسان/أبريل ١٩٨٦ وقعت أسوأ كارثة نووية في التاريخ في تشيرنوبيل، وشكلت دلالةً على كل ما كان خاطئًا في العالم الماركسي- اللينيني المثالي. وفي اجتماع للمكتب السياسي بعد شهرين من الكارثة، دعا غورباتشوف تشيرنوبيل بكل صراحة «الفشل» الذي عكس بؤس الإدارة الشيوعية. «طوال مدة هذا النظام، ساد روح الخضوع والتملق واضطهاد المفكرين المستقلين والأقنعة الزائفة والعلاقات الشخصية والعشائرية بين القادة».[١]

لو اطلع ريغان على النص الكامل لخطبة غورباتشوف المنمقة لضحك. غير أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. فمن بعد خبرته في السمّ بين الدول في هوليوود، تغير ريغان نحو الأفضل. فلم يفتر ولم يخف الشيوعيين في ما بعد أو المواقف الروسية وعلى الرغم من شعوره بأنه قادر على العمل مع غورباتشوف (فقال لأحد مفاوضيه: «أنت على حق لقد أحببته بالفعل»)، لم يكن ليوافق على المشاركة في لعبة حرب باردة دامت أربعة عقود.[٢] غير أنه وافق على عقد قمة ثانية في ريكيافيك في العام التالي.

وفي العاشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦، حاول غورباتشوف من جديد إقناع ريغان بالتخلي عن استراتيجية الدفاع. وعندما رفض ريغان هذا الطلب، ووعد بالمشاركة في ثمار استراتيجية الدفاع كدرع بدلاً من حماية العدوان، ضحك

(١) كتاب Memoirs لغورباتشوف Gorbachev، ص. ١٩١.

(٢) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٢٨٥.

غورباتشوف وطلب إلى الرئيس الكف عن هذه «التفاهات». «اعذرني سيدي الرئيس فأنا لا أستطيع أخذ فكرتك بالمشاركة في استراتيجية الدفاع على محمل الجد. فأنت غير مستعد لمشاركتنا في المعدات الجيدة أو في أدوات الآلات الرقمية أو حتى في ماكينات الحلب. والمشاركة في استراتيجية الدفاع ستحدث ثورة أميركية ثانية. لنكن واقعيين».[1]

غير أن ريغان بقي على عزمه، وعلى الرغم من أن القائدين اتفقا على تخفيض كبير متبادل في نشر الترسانات النووية بموجب معاهدة جديدة، وبالتالي تجميد سباق الأسلحة النووية بشكل فعال، فلن الإمبراطورية السوفياتية لن ترتاح من حيث النفقات على الأبحاث العسكرية. ولن تعرض أميركا المساعدة على حل ورطة الروس في أفغانستان.

وبعد مروم عام، في السابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، سافر غورباتشوف إلى واشنطن لقمة ثالثة، حيث سأل ريغان بنبرة أشد أسى، «لماذا لا نستطيع أن نكون حلفاء. لقد كنا حلفاء في وقت محدد، فلماذا لا يمكننا التحالف الآن؟»[2] لكن ريغان بقي كعادته، خلف ابتسامته، متشبثاً برأيه. وبالفعل بعد بضعة أشهر قصد موقع الهجوم، ولو قولاً.

وفي الثاني عشر من حزيران/يونيو، وأمام حشد ضخم في برلين الغربية التي كانت تحتفل بعيد المدينة السبعمئة والخمسين في بوابة براندنبورغ قام ريغان بالضربة القاضية. فقد تجاهل نصائح فريق عمله وقرر أن يقوم بإعلان صنع التاريخ على طريقة كينيدي. كان قد أجبر السوفيات، الذين وضعوا أخيرًا خططًا لسحب جيشهم المهزوم من أفغانستان في كانون الثاني/يناير، على الاستراتيجية الدفاعية. «إننا نسمع الكثير من الأخبار في موسكو عن سياسة إصلاح وانفتاح جديدة. هل هي بداية لتغييرات ملحوظة في الدولة السوفياتية؟ أم أنها مجرد إشارات رمزية»؟

(١) المصدر السابق، ص. ٣٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٣٣.

توقف مذيع الراديو السابق من ديكسون، إيلينوي برهة حينما وصل إلى أوج نقطة في خطابه. فأعلن أن «هناك علامة واحدة واضحة، بإمكان السوفيات القيام بها، ومن شأنها دفع قضية الحرية والسلام بشكل كبير». ومن ثم رفع صوته إلى حد الصراخ تقريبًا متوجهًا بكلامه إلى إمبراطور الاتحاد السوفياتي «يا رئيس الوزراء غورباتشوف، إذا كنت تسعى لتحقيق السلام والازدهار للاتحاد السوفياتي وأوروبا الغربية، إذا كنت تسعى للتحرر فتعال إلى هذه البوابة! سيد غورباتشوف، شرّع هذه البوابة! سيد غورباتشوف أسقط هذا الجدار!»[١]

أما غورباتشوف المسكين، الذي كان يخاطر في تحدي هيكلية السلطة العسكرية والسياسية الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، فشعر بأنه تعرّض للخيانة والذلّ. ولم يستطع إلا أن يأمل عقد قمة رابعة يتمكن فيها من إقناع ريغان بالتراجع ومساعدة روسيا حقيقةً.

قبل ريغان بفرح الدعوة إلى موسكو في التاسع والعشرين من أيار/مايو ١٩٨٨، حيث خاطب الشباب بصراحة وطرح قضية حرية التعبير والمعتقد في روسيا.

في الحقيقة، أصبح «عبء ريغان الأيديولوجي» (بحسب غورباتشوف عندما تكلم مع جورج شولتز)[٢] أثقل في ولايته الثانية والأخيرة التي شارفت الانتهاء. كما بقي جدول أعماله نفسه من دون أي تغيير وقام بمتابعة أبحاث مبادرة الدفاع الإستراتيجي والحد من الأسلحة بموجب جدول أعمال أميركي فقط وعدم القيام بأية تحسينات تجارية أو مساعدات اقتصادية. وحتى الورقة التي عرضها غورباتشوف والتي تضمّنت مسودة بيان مشترك تنص على عدم مس أي من الدولتين استقلال الأخرى أو سيادتها، رُفضت، وقد تم رفضها بعد أن وعد ريغان بالتفكير فيها. فأعلن الرئيس قراره قائلاً: «لا أريد القيام بذلك»، وسط احتجاج الدول الأوروبية الغربية.[٣]

(١) المصدر السابق، ص. ٤٠١.
(٢) كتاب Memoirs لغورباتشوف Gorbachev، ص. ٤٥٢.
(٣) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٤٦٧.

كان لقاؤهما الأخير في الثاني من حزيران/يونيو ١٩٨٨. وقد بدا غورباتشوف تائهًا للحظة بعد أن خاب ظنه لعدم موافقة ريغان على توقيع بروتوكول «الوجود السلمي» الذي عرضه. ومن ثم، وقف وأخذ يد الرئيس الذي كان في السابعة والسبعين من العمر، وابتسم فيما وضع يده على كتف ريغان وقال: «سيدي الرئيس، لقد أمضينا وقتًا رائعًا».[١] في المقابل لم يبدُ ريغان متأثرًا بالاجتماع. وقال لرؤساء الكونغرس لدى عودته: «أعتقد أنه من الواضح أن غورباتشوف يريد إصلاح الاقتصاد في الاتحاد السوفياتي. إنه لعمل رائع وسيتطلب ذلك وقتًا طويلاً إذا نجح في تحقيقه لأن هناك من يعارضه بوضوح». وأنهى قائلاً: «علينا أن نعدهم خصمًا لنا بسبب سياستهم الخارجية وإدارتهم الداخلية».[٢]

كان دور ريغان في تعطيل الاتحاد السوفياتي وانهياره الوشيك أهم إنجاز رئاسته الكبير في نظر غالبية الأميركيين. وبالطبع، كان ريغان لاحقًا فخورًا بدوره في إنهاء «الإمبراطورية الشرّيرة» (على الرغم من أنه كان قد أعلن في موسكو أنه لم يعد يعتقد أنها شرّيرة). غير أن ولايته الثانية، من النواحي الأخرى، كانت أقل حظًا من ولايته الأولى.

عارضت زوجة ريغان قراره عودة الترشح للانتخابات في العام ١٩٨٤، خوفًا ألا يتحمل وضعه الصحي الضغط، خصوصاً عقب اغتياله الوشيك. وقد كانت السيدة الأولى على حق إذ إن سمعه وبصره قد تراجعا عند بلوغه السبعينيات. كما أنه أجرى جراحة لغدة البروستات بعد جراحة السرطان في القولون. ضعف سمعه تدريجاً، كما بدأت ذاكرته، التي كانت في الماضي قوية جدًا، بالتراجع وغالبًا ما بدت مشوشة، عند سقوط أوراق ملاحظاته في أثناء تفاوضه مع غورباتشوف مثلاً، وأحيانًا كان يفقدها عندما ساعده القائد الروسي الشاب على جمعها.

وفي نهاية المطاف، كان لا بد من زملاء ريغان وموظفيه في الحكومة أن يعملوا

(١) المصدر السابق، ص. ٤٧٥.
(٢) المصدر السابق.

وفق ما اعتقدوا أنه كان في باله أو ما أراده بدلاً من العمل وفق تعليماته. غير أنه حافظ على حسن حظه الأسطوري في غالب الأوقات، واستطاع الحفاظ على كرامته على عكس أسلافه. كما نجح الرئيس في إخفاء ارتفاع العجز القومي الكبير عن الشعب، نظرًا إلى الازدهار الاقتصادي الكبير الذي كانت تشهده البلاد، مع تضاعف الناتج القومي الإجمالي منذ الكساد في العام ١٩٨١-١٩٨٢. غير أنه صعب على الرئيس إخفاء أمور كثيرة بالمظاهر الإيجابية.

وفي هذا السياق، ولأن ريغان جمهوري متحفظ، أحاط نفسه بلا شك بأكبر المتشددين المعارضين للشيوعية في أميركا، بمن فيهم وزير الدفاع كاسبر وينبرغر وسفيرته في الأمم المتحدة جين كيركباتريك ورئيس وكالة الاستخبارات المركزية وليم كيسي. فشوّه سوء تفسيرهم «للتهديد» السوفياتي في الشرق الأوسط، وبالتحديد قلقهم حيال التأثير السوفياتي في إيران، تاريخ العالم الغربي، فيما جهدوا في إقناع «زعيمهم» بالموافقة على البيع غير الشرعي للأسلحة واستخدام الأموال الناتجة من ذلك بطريقة أكثر مخالفة للقانون. ومقابل «التأثير» الإيراني المفترض في إطلاق الرهائن الأميركيين في لبنان، لم يكتفِ المتآمرون ببيع الأسلحة السرّية لطهران، بل استخدموا الأموال الناجمة عن البيع في تمويل الأسلحة غير الشرعية ودعم المتمرّدين اليمينيين في نيكارغوا الذين كانوا يحاربون ضد حكومة دانييل أورتيغا في البلاد المنتخبة ديمقراطيًا.

كان وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز قد أنذر الرئيس منذ البداية قائلاً: «إذا خرجنا وحاولنا كسب الأموال لثوار الكونترا من دول العالم الثالث، فسيكون ذلك اتهامًا جرميًا».[١] لكن وكما شرح مستشار ريغان للأمن القومي «باد» ماكفرلين لاحقًا، عند مثوله أمام الكونغرس، لقد فشل في إيقاف زملائه. «لأكون صريحًا،

(١) بيان مجلس الأمن القومي، "موضوعه أميركا الوسطى"، ملف سرّي، بتاريخ ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٨٤، من أرشيف الأمن القومي في جامعة جورج واشنطن.

لم أوقفهم لأنني لو فعلت لعدّني بيل كيسي وجين كيركباتريك وكاب فاينبيرغر اشتراكيًا».[1] وكان ذلك موافقة شفهية.

كان يمكن لموقف ريغان المعارض للشيوعية أن يُفهم على الأقل وأن يبرّأ من حيث القمع التوتاليتاري الذى ساد البلاد أربعين سنة. ولكن ماذا عن إيران ونيكارغوا؟ كانت هذه الخطوة تدبيراً من اهتمام ريغان المحدود بكسح الإمبراطورية السوفياتية، وفشله في الأخذ في الاعتبار يومًا العواقب التي قد تنجم عن سياساته، فهو لم يسمح بالتورط في بيع الأسلحة مقابل إطلاق الأسرى من خلال تنظيم غير شرعي من مستشاره في الأمن القومي فحسب، بل عمل أيضًا كعراب واثق بنفسه للمشروع الذي سقط في حزيران/يونيو ١٩٨٤ عندما عارض رئيس مجلس النواب مشروع قانون خاصاً إضافياً لتمويل الموالين للكونترا. فكتب ريغان في مذكراته يوم الثلثاء الواقع في الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥ عن بيان مجلس الأمن القومي مشيرًا إلى «الالتزام المعقد الذي تضمن القليل من بيننا. لن أكتب حتى في مذكراتي عن مخططاتنا».[2]

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم إنشاء ملجأ سري في البيت الأبيض لعمليات ريغان أطلق عليه لقب «المبنى»، تقريبًا على غرار سمكريي إدارة ريتشارد نيكسون، وهم رجال أضمروا الاحتقار نفسه لعمليات الكونغرس وحب الأعمال غير الشرعية. وضمت جماعة ريغان السرّية المحارب في الفيتنام المقدم أوليفر نورث الذي أعلن «أن الرجل المسن يحبني».[3] كان نورث يبالغ، ولكن ليس كثيرًا، إذ إن الرئيس عد المقدم المغامر ضرباً من انعكاسه أو حتى شبه ابن له، إذ إن حسه الوطني وتكريسه للجيش لاءما طبيعة ريغان الحساسة. وعلى الرغم من أن ريغان وقّع تعديل بولاند

(١) شهادة روبرت ماكفرلين في ١٤ أيار/مايو ١٩٨٧ مقتبسة من كتاب Washington's War on Nicaragua للكاتبة هولي سكلار Holly Sklar (كامبردج، ماساشوستس : مطبعة South End، ١٩٨٨)، ص. ٢٥١.

(٢) ريغان في The Reagan Diaries، ص. ٣٧٤.

(٣) كتاب Exit with Honor: The Life and Presidency of Ronald Reagan، للبروفيسور ويليم إي. بيمبرتون William E. Pemberton، ص. ١٧٥.

الثاني في العام ١٩٨٤ ، وهو مشروع قانون يمنع صراحةً وكالة الاستخبارات المركزية من تقديم دعم غير عسكري للكونترا، بالاقتران بتعديل بولاند الأول الذي وقع في العام ١٩٨٢، الذي كان قد منع إدارة ريغان من وهب أية أموال لإسقاط حكومة ساندينيستا، سمح الرئيس لمستشار الأمن القومي روبرت ماكفرلين بالقيام بذلك.

كان الاتفاق جنونيًا من بدايته حتى نهايته، وخصوصاً لأنه شجع حزب الله على حجز رهائن آخرين. في البداية، اعترف طيار أميركي تم إسقاطه في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٦، بأن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تدير سراً ثورة الكونترا بسفنهم وطائراتهم وطياريهم وأسلحتهم ومطاراتهم وأجهزة الراديو الخاصة بهم. وبعد بضعة أسابيع، في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦، ورد اتفاق الأسلحة مقابل الرهائن في إيران في العناوين الرئيسية، عندما نقلت صحيفة واشنطن بوست أخبارًا من بيروت، بأنه في ما يتعلق بإطلاق الرهائن الأميركيين هناك، «أرسلت الولايات المتحدة قطعاً بديلة وذخائر للطائرات والدبابات الحربية الأميركية الصنع» إلى إيران. فقال الرئيس ريغان في هذا السياق: «لن ندفع للإرهابيين يومًا لأن هذا سيشجع تكاثرهم». وقد أصبح واضحًا أن هذا ما فعله تحديدًا، من خلال مؤامرات سرية أخرى كشفت لاحقًا، وتحديدًا، استعمال الأموال الناجمة عن بيع الأسلحة لإيران لتمويل الكونترا في نيكارغوا بطريقة غير شرعية، بالتعارض مع الكونغرس.

وبحلول الرابع من آذار/مارس ١٩٨٧، كان على ريغان الاعتذار أمام الأمة أجمع. فأعلن عبر شاشة التلفزيون في وقت الذروة «إنني أتحمّل المسؤولية الكاملة عن أعمالي وأعمال إدارتي»، وعبر عن خيبة أمله «ببعض الأشخاص الذين عملوا لحسابي».[١] ثم اعترف بأن «منذ بضعة أشهر فقط [في الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦] قلت للشعب الأميركي إنني لم أبع الأسلحة مقابل الرهائن. إن قلبي ونياتي لا يزالان يقولان لي ذلك، غير أن الواقع والأدلة يقولان العكس»، لم يكن لهذه الكلمات أي معنى ولكنها أثبتت أن الرئيس المسن كان يفقد عقله.

(١) كتاب Ronald Reagan للمؤرخ ديغنز Diggins، ص. ٢٩٥.

غير أن الاستنتاج كان واضحًا. لقد كان أميركياً وطنياً أراد إلى حد اليأس إنقاذ الرهائن الأميركيين الخمسة الذين احتجزهم حزب الله في لبنان. وكان ذلك بدعة حربية بارعة وأمام ذعر معظم المنتقدين، تمت مسامحته بسبب تقدمه في السن عن أكثر المخالفات رداءة لأوامر الكونغرس وأحكام الدستور.

بيد أنّ اعتراف ريغان المقتضب أخفى حقيقةً مرة. فقد شجعت أعماله حزب الله، بدعم من إيران، على حجز رهائن أميركيين آخرين. وإلى أن توصل الكونغرس إلى وضع حد لذلك، كان قد تم حجز رهائن غير الرهائن الخمسة الذين أطلق سراحهم، فيما أعطيت إيران ألفاً وخمسمئة وثمانية صواريخ من نوع تاو وثمانية صواريخ من نوع هوك ومعلومات استخبارية سرية. فاستقال مستشار ريغان للأمن القومي وحاول الانتحار، فيما أصيب رئيس وكالة الاستخبارات المركزية بورم في الدماغ واستقال بدوره، وتراجع تأييد ريغان من سبعة وستين في المئة إلى ستة وثلاثين في المئة. وفي هذا الوقت، ولمدة ستة أشهر، وبانتظار تقرير هيئة تاور للتحقيق التي عيّنها ريغان لتحلّ هذه المسألة، وصل البيت الأبيض إلى طريق شبه مسدود. فقد مزق أوليفر نورث أدلة عن العملية قدر الإمكان، وعمل موظفو الرئيس وأعضاء إدارته البارزون، من البيت الأبيض إلى وزارة الدفاع، بحماية الرئيس فيما حاولوا تجنب دخول السجن لإساءة التصرف وشهادة الزور.

كان الكشف عن الخداع المتعمد والكذب وطلبات التمويل السرّية في الولايات المتحدة والخارج، واستخدام الدول الأجنبية لتسهيل التبادلات غير الشرعية والأعمال الجرمية وفوق كل ذلك المزج بين النزوة الرئاسية والغباوة، مدمرًا، بعد أقلّ من عقد من فضيحة ووترغيت، ولأجل ماذا؟ مشمئزًا من القصة المحزنة التي تذكّر كثيرًا برئاسة ريتشارد نيكسون الإمبريالية واحتقاره للكونغرس، رفض مجلس النواب وهب الرئيس مبلغ ٣٦،٢٥ مليون دولار طالب به لمساعدة الكونترا في شباط/فبراير ١٩٨٨، وبموجب اتفاق سابوا لوقف إطلاق النار تم حل الكونترا برمتها. وبحلول ذلك الوقت كان قد أصيب أربعون ألف شخص من نيكارغوا مع تقدير وصول عدد القتلى من الطرفين إلى تسعة وعشرين ألفاً، وكان أكثر من ثلاثة آلاف من بينهم من

المدنيين.[1] كانت جهود ريغان من دون جدوى، وتشوهت سمعته الحسنة إلى الأبد بحسب كثيرين.

في الواقع، ورد في العنوان الرئيسي لإحدى الصحف بعد حادثة إيران والكونترا «ريغان يعد الآن رئيسًا غير مناسب».[2] فقد وجه المدعي العام الفدرالي الاتهام إلى غالبية موظفي الرئيس اليمينيين. كما رفض مجلس الشيوخ تعيينه للأيديولوجي القاضي روبرت بورك في المحكمة العليا. وأمام انتشار وباء الإيدز أجبر الرئيس على الإقرار بضرورة استخدام الواقي الذكري، الذي كان المتحفظون يكرهونه جدًا. وأمام الثغرات في ذاكرته ولحظات التشوش بدا أن الرئيس الذي شارف الثمانين أصيب بالخرف. وعلى الرغم من أنه اختار نائبه جورج بوش خلفه المفضل، الذي قال له: «حقق النصر من أجلي» فيما رافقه إلى المؤتمر الجمهوري الوطني الأخير في نيوأرليانز في الخامس عشر من آب/أغسطس ١٩٨٨، بدا إما متعبًا جدًا وإما غير مبالٍ بالقيام بحملة تأييد لبوش بصفته المرشح الجمهوري. كانت السنة الأخيرة من ولايته شبيهة بالسنة الأخيرة من ولاية أيزنهاور فيما تخوف الجمهوريون من النتائج نفسها، أي قيام إدارة ديمقراطية.

فيما تأمل المنتقدون في السنوات الثماني التي كان فيها إمبراطور البلاد، بدا حكم ريغان متعارضاً جدًا. فقد تضاعف الدين العام في خلال ست سنوات. ووراء ستار «لا ضرائب جديدة»، ارتفعت هذه الأخيرة بأكثر من ثمانين مليار دولار في السنة. أما البطالة، فعلى الرغم من انخفاضها في سنة ولايته الأخيرة، فكانت بمعدل ٧،٧في المئة مقابل ٦،٤ في المئة في عهد كارتر. كما شهد معدل الإنتاج الأميركي نموًا بنسبة ٢،٦ في المئة في عهد ريغان مقارنةً بنسبة ثلاثة في المئة في عهد كارتر (على الرغم من أن هذا الرقم بلغ ٤،٢ في المئة عند تقويمه بعد انتهاء الكساد في عهد ريغان). في هذا الوقت، كان إنفاق الحكومة الفدرالية قد ارتفع

(١) كتاب Washington's War on Nicaragua للكاتبة سكلار Sklar، ص. ٣٩٣؛ وكتاب President Reagan: Role of a Lifetime للكاتب والصحفي لو كانن Lou Cannon، ص. ٣٠٩.

(٢) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٤٣١.

إلى أعلى المستويات في ما يتعلق بالإنتاج في تاريخ البلاد، بدلاً من وضع حد له كما كان ريغان قد وعد. فظهرت نتائج تحرير ريغان للاقتصاد من القيود في فضيحة المدخرات والديون التي انفجرت في ولايته الثانية، ما أدى إلى الطلب إلى دافعي الضرائب تغطية خسائر محتملة قيمتها أربعة وستون مليار دولار في ميزانيته الأخيرة، وهو مبلغ سيتطلب مئتي مليار دولار من تمويل إنقاذ دافعي الضرائب للتعويض لزبائن الشركات الأميركية الفاشلة والمحتالة غالبًا وغير الخاضعة للقيود. كما تراجع مدخول العشرين بالمئة من الشعب الأميركي الأكثر فقرًا أكثر من عشر مرات في عهده، فيما زاد مدخول العشرين بالمئة الأكثر ثراءً خمس مرات، ما أدى إلى توسيع الفجوة بينهما. فضلاً عن ذلك، أسقط ريغان كل جهود كارتر في المحافظة على البيئة وعلى الطاقة ورفض أخذ تحذيرات غورباتشوف على محمل الجد بشأن التخوف من تهديدات المسلمين الأصوليين في أفغانستان والشرق الأوسط. استمر الكشف عن إساءة تصرف إدارة ريغان في فضيحة إيران والكونترا بتذكير المواطنين بتجاوزات إدارة ريتشارد نيكسون. فأعلنت مساعدة أوليفر نورث (التي كانت تواعد ابن قائد في الكونترا في نيكارغوا[1]) «أحيانًا عليك تجاوز القانون المكتوب»[2]، ودافع نورث بنفسه عن قراره بتمزيق وثائق التجريم قائلاً: «إن الحكومة الأميركية أعطتني آلة تمزيق لهذه الغاية».[3] كان كل ذلك لائحة نتائج يصعب التباهي بها.

هل كان الاحتيال والخيبة إذاً سبب استمرار حب الشعب الأميركي لريغان فيما شارفت ولايته الثانية الانتهاء؟ وبعلمهم بتدهور الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، إذا انسحبت قواتها من أفغانستان واندلعت الثورة في دول أوروبا الشرقية التي احتلها الاتحاد، شعر الناخبون الأميركيون باقتراب عصر جديد غامض، متفائلين بإشارات

(١) كان الابن أرتورو كروز الابن: راجع مقالة 'Fawn Hall Steps into the Limelight' لكيث شنايدر Keith Schneider في صحيفة New York Times عدد ٢٦ شباط/فبراير ١٩٨٧.

(٢) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٤٠٠.

(٣) المصدر السابق، ص. ٤٠٨.

التغيير في روسيا ولكن مدركين أن الوظائف التقليدية في المصانع الأميركية كانت تتضاءل بسبب ما سمي «بالعولمة» و«الاستعانة بمصادر خارجية».

لهذا السبب ربما، رفض الناخبون رؤية «الجيبر»(*) المسن الذي لا يتزعزع، يغادر ويغرق في «شوق مبكر» كما قال ريتشارد ريفز.[1] فكان من الممكن مسامحة الرئيس على إغفاله وفقدان ذاكرته وتلاعبه بالحقائق، هذا ما كان يُرى في رجل أعاد نفوذ أميركا في العالم بعد هيمنة جيمي كارتر القصيرة ولكن المرعبة على المكتب البيضوي سواء أغير ريغان الحقيقة، أم انغمس في إحصاءات خاطئة أم اقتبس مؤشرات اقتصادية مزيفة أم أساء فهم التهديدات الاستراتيجية أم تورط في بعض الاحتيالات أم لا، وقف الاتحاد السوفياتي في موقع الدفاع فيما «وقف ريغان بفخر». وأعلن الرئيس في خطاب الوداع الذي ألقاه في مكتبه البيضوي في الحادي عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ بكلمات كتبتها كاتبة خطاباته بيغي نونان «لقد كان هدفنا أن نغير دولة وبدلاً من ذلك بدلنا العالم».[2]

وبمغادرة البيت الأبيض وواشنطن في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨٩، تقاعد الرئيس الأربعون ليعيش في بيلير في ولاية كاليفورنيا، محافظًا على ممتلكاته التي امتدت على ٦٨٨ فداناً في الجبال في شمال غربي سانتا باربرا كبيت العطل، حيث استطاع الرئيس الذي بلغ السابعة والسبعين من العمر والذي لطالما أراد أن يؤدي دور راعي البقر، أن يحقق حلمه.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

اعترف الصحافي لو كانن من كاليفورنيا الذي نقل أخبار الرئيس ريغان مدة ربع

(*) أعطى ريغان لقب "جيبر" نسبةً إلى دور جورج جيب الذي لعبه في فيلم، Knute Rockne, All American (١٩٤٠)، وقد لزمه هذا اللقب طوال حياته.

(١) المصدر السابق، ص. ٤٦١.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٨٦.

قرن أنّ حياة ريغان الشخصية بقيت «بمنزلة لغز حتى بالنسبة إلى أصدقائه»[1]

وكذلك بقيت حياته لغزًا بالنسبة إلى زوجاته وأولاده، فالحائط الذي توسّل ريغان إلى غورباتشوف لتدميره، لم يسقط عن حياة ريغان الخاصة. في المقابل، ولتفسير هذا الأمر، أرجع معظم كتاب السير الأسباب النفسية لهذا الواقع إلى طفولة ريغان. فقد لوحظ أنّ عائلة ريغان انتقلت عشر مرات لدى نشأته. وحتى في حين استقرت في مكان واحد لفترة وجيزة، كان جاك والد ريغان يعاني الإسراف في الشرب حتى أنه في بعض الأحيان كان يشرب بلا انقطاع طوال أسبوع من دون أن يتمكن من السيطرة على «المرض الإيرلندي» كما كان يسميه ابنه. وفي إحدى المراحل، ترك جاك عائلته وعاش مع امرأة أخرى مما هدد زواجه، إلا أنه عاد إلى نيلي في نهاية المطاف. أما هي، فقامت بالمستحيل لتُخبئ العار وإنما كان ذلك مستحيلاً في البيت. وحين بلغ سنته الحادية عشرة على سبيل المثال، وجد ريغان والده مُلقًى على أرض الشرفة الأمامية فاضطر إلى جرّه من معطفة إلى داخل المنزل.

وعلى الرغم من محاولة نيلي، جعل أبنائها ينظرون إلى انهيار والدهم على أنه مرض وليس خياراً، فقد أوجد رونالد وهو الابن الأصغر غطاءً خارجيًا له جعل منه شخصًا لا يتأثر بالإهانة أو التعالي، في حين صدّ شقيقه الأكبر مثل هذه الاعتداءات بالضرب لدرجة أنه أصبح لديه سجل لدى الشرطة.

وافترق أفراد عائلة ريغان كل في سبيله عندما كبروا، فراح رونالد يبحث عن نجمه الذي كان نصفه في العالم الحقيقي ونصفه الآخر في ذاته. وتمامًا كما ريتشارد نيكسون كان يحب والدته المسيحية المتدينة حتى العبادة وظل كذلك حتى يوم وفاتها، وكان يقوم بأعمال وضيعة في فترة شبابه من دون أن يتذمر، فضلاً عن أنه كان يدفع حتى لوالديه ليتقاعدا باكرًا في بيت اشتراه لهما في كاليفورنيا. وإنما وعلى عكس نيكسون، برهن ريغان عن حسن النية والامتنان على الأمور الجيدة في حياته وخصوصًا البسيطة منها. وكذلك، عاش حياةً نظيفة وكان متزناً في كلامه إلى حد

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي كانن Cannon، ص. ١٧.

عُرف بالرجل الطاهر الخجول فقد كان محبوب والدته التي تبعت المسيح فيما كان مخالفاً تمامًا لوالده الخامل الذي توفي بسبب الكحول ومرض في القلب في سن السابعة والخمسين.

وكما كانت الحال مع ريتشارد نيكسون، سمح المسرح لريغان بأن يعبّر عن نفسه في أبعاد جديدة. بالإضافة إلى ذلك وقع ريغان كنيكسون أيضًا في حب مارغريت كليفر وهي زميلة له في مجال التمثيل، وابنة راعي جماعة الكنيسة المسيحية المحلية. كانت مارغريت حادة الذكاء، رفضته في بادئ الأمر بسبب والده لإدمانه الكحول وإنما وافقت في نهاية المطاف على التودد إليه. مثلت معه أولاً في أيام الثانوية ومن ثم في الكلية. بالإضافة إلى ذلك، كانت هي من شجعه على الدراسة في كلية يوريكا الصغيرة، التي توازي نصف كلية ويتيي حجمًا أي كلية نيكسون. واستذكر ريغان في حديثه عن الأيام التي أمضاها في يوريكا «أحببت ثلاثة أمور التمثيل والسياسة والرياضة» متناسيًا قصة حبه لشريكته الدائمة مارغريت التي تركت جامعة ميسوري ولجأت إلى يوريكا لإكمال سنتها الأخيرة معه.[1] (لقد تنهد قائلاً: «لقد عرفت بأمرها؟» حين تتبعها كاتب سيرته الرسمي إدمون موريس واعترف لريغان بذلك[2]).

كانت الآنسة كليفر الطالبة الأذكى وصاحبة الكلام الأكثر لذعًا في الصف إلى درجة أن شقيق ريغان نايل وصف كلامه بأنه شبيه «بحدة المسامير».[3] خطب ريغان مارغريت لدى تخرجهما، وألزم نفسه ليكون على مستوى توقعات مارغريت الأخلاقية العالية. وعلى الرغم من قضاء سبع سنوات معًا، وقعت مارغريت عندما ذهبت للعيش مع أختها في باريس في حب دبلوماسي أميركي شاب. فأعادت خاتم الخطبة إلى ريغان وتزوجت الدبلوماسي محطِّمةً بذلك أحلام ريغان. فقد كان واضحًا أنه لم يكن يناسبها.

(١) كتاب Ronald Reagan للمؤرخ ديغنز Diggins، ص. ٦٣.
(٢) كتاب Dutch للكاتب موريس Morris، ص. xi.
(٣) المصدر السابق، ص. ٦٩٦.

كان أداء ريغان المهني في مجال الترفيه الأقل جدية أفضل فدفعه من الإذاعة ليصنع بنفسه حلمه الذي يكمن في هوليوود. وكذلك، فإنّ صعوده السريع في هذا المجال وبداية تحقيقه شهرةً بعد أن كان صور فيلمًا واحدًا تقريباً جعلا الشاب الجذاب ذا ٦/١ أقدام يخرج مع الفتيات بسهولة وكان يستطيع إقامة علاقات معهنّ في زمن الاحتشام، بيد أنّ كل اللواتي خرجن معه قلن إنه من المستحيل التفاهم معه وراء هذه التصرفات اللطيفة والمهذبة. إلا أنه كان يبدو وكأنه يشعر بسعادة أكبر على الشاطئ أو لدى تجواله في المزرعة التي اشتراها أخيراً، وفي الأوقات التي لا يكون وجوده على منصة التمثيل إلزاميًا. كما أنه بقي وفيًا لوالديه بحيث كان يحرص على رؤيتهما كل أسبوع. في المقابل لم يسمح لأحد بالاقتراب كثيرًا منه باستثناء «صاحبة الأنف الصغير» وهو اللقب الذي أطلقه بحنان على جاين وايمن ابنة العشرين عامًا التي مثّل معها في فيلم «براذر رات» في العام ١٩٣٨.

كان اسمها سارة جاين مايفيلد ، التقت جاين وايمن ريغان للمرة الأولى في أستوديو وارنر براذرز في العام ١٩٣٧ الذي كان متعاقدًا مع كليهما. وتمامًا مثله عرفت الفتاة حياةً صعبةً في فترة نشأتها، فهي قد عُرضت للتبني حين توفي والدها «وكبرت وسط تربية صارمة». وقد ذكرت في ما بعد «لقد احتجت إلى عدد من السنوات قبل أن أتمكن من إخراج نفسي من حالة المرارة التي نتجت من طفولتي».(١) لقد أنعم الله عليها بصوت جميل فعملت في الراديو بدوام جزئي، من ثمّ زوّرت وثيقة ولادتها تاركةً مدرسة ميسوري وهي في الخامسة عشرة لتدخل عالم التمثيل في هوليوود. فاستطاعت هذه الشقراء صاحبة الوجه الصغير والأنف الأفطس والابتسامة المشعة والعينين البنيتين الدكناوين الكبيرتين والمتزوجة مرتين (لا تزال متزوجة في الحقيقة) أن تسحر ريغان.

وبعد طلاقها الثاني، أصبحت جاين ورونالد بحسب كاتبة عمود أخبار المجتمع

(١) خبر وفاة «Jane Wyman» بقلم توم فالانس Tom Vallance في صحيفة The Independent (لندن) عدد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧.

لويللا بارسن نموذجاً لأفضل زوجين في عالم السينما حين تزوجا في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٠. وكان ريغان حينئذ في التاسعة والعشرين من عمره وجاين في الثالثة والعشرين. وكذلك، رزقا بعد وقت قصير ابنة وتبنيا ولدًا ومن ثم أنجبا طفلة أخرى (توفيت)، ولكنهما تطلقا بعد مرور ثمانية أعوام على عقد قرانهما أي في العام ١٩٤٨، وهي تجربة لم يتمكّن ريغان من تخطيها.

بالإضافة إلى ذلك، جمعت السيدة وايمن البالغة الصغر بين الفتاة الصغيرة والمرأة الناضجة. وقد وصفها صديق لها أنها «صلبة وحادة وعاطفية في آن». فقد كانت محبة للمرح والغناء والملاهي الليلية. وعلى نقيض ذلك، كان ريغان طويل القامة ووسيماً أي إنه كان «رجلاً مثيرًا جدًا خصوصًا وهو يرتدي سروال السباحة، بيد أنه «كان صارمًا».[1]وكان ريغان، في عالم الترفيه الحاشد بالفنانين غير الواثقين بأنفسهم، يعتدّ بكونه يتمتع بثبات غير اعتيادي، فقد كان مفيدًا ومثابرًا يتحلى بتفاؤل لا يمكن زعزعته كما لو أنه لن يسمح بأن يصيبه أي مكروه، وكان دائمًا يفكر بنية حسنة في جميع الأشخاص. فضلاً عن كل هذا، كان ريغان وفيًا لوايمن لدرجة أنه كان يرافقها لحضور جلسات مع طبيبها النفسي ويشجّعها على القيام بـ»علاقة غرامية» مع شريكها النجم لو أيرس في خلال تصوير فيلم «جوني بليندا».[2] أما في ما يتعلق بالإشاعة التي تقول إنّ هناك طلاقاً وشيكاً بينهما، فشدّد ريغان في خلال حديث له مع هيدا هوبر «أنا أعرف جاين وأعرف أنها تحبني كما أنني أجهل سبب كل هذا ولا أعرف لم قامت بذلك. فمن جهتي أنا أحب زوجتي وأتمنى أن أمضي معها بقية حياتي.»[3]

وكذلك، أدى هجران وايمن إلى تدميره مؤكدًا أنها كانت سبب الطلاق. فقد طردته من منزلهما ومن ثمّ أهدت إليه سيارة كاديلاك ذات سقف متحرك فيروزية اللون في عيد ميلاده في السادس من شباط/ فبراير ١٩٤٨. في ما بعد أعادته إلى المنزل لترميه خارجًا من جديد طالبةً الطلاق بسبب كلامه الفظ والمتواصل عن

(١) كتاب Ronnie and Nancy للكاتب كولاتشيلو Colacello، ص. ١٠٦.

(٢) كتاب Jane Wyman للكاتب لورانس جاي كويرك (شركة Norton للنشر في نيويورك، ١٩٨٧)، ص.١١٣.

(٣) كتاب Ronnie and Nancy للكاتب كولاتشيلو Colacello، ص. ٢٢٢.

السياسة. بالإضافة إلى ذلك، اعترف ريغان في ما بعد «في الحقيقة، من المستحيل أن أتصوّر وقوع مثل هذا الأمر فليس لي بد من ألجأ إليه». فقد كان «أمير» هوليوود والرجل المثالي لقطاع سانست.

عاش ريغان حال نكران لعدد من الأشهر متيقناً أنّ زوجته ستعيده إلى البيت. إلا أنّ آماله تلاشت حين بدأ المحامون عملهم وأصدروا دعوى طلاق في حزيران/ يونيو ١٩٤٨ وتم الطلاق فعليًا في العام ١٩٤٩. وأدى ذلك إلى تحطيم ريغان فقد استذكرت باتريسيا نيل التي حلت مكان وايمن في فيلم ريغان التالي جون لافز ماري (الذي فشل) «كان ريغان محطّم الفؤاد حقًا». وفي منتصف ليلة رأس السنة للعام ١٩٤٨، بكى ريغان منتحباً في حضن امرأة مسنة.[1]

وعلى الرغم من لقائه نانسي روبنز دافيسن وهي ممثلة شابة طموح في خريف ١٩٤٩، قال أحد كتاب سيرة هذه الأخيرة إنّ ريغان، بكل بساطة، لم يتمكن من تخطي طلاقه في حين كان يواعد، على ما يبدو، مجموعة لا نهاية لها من نجمات «هوليوود ومغنياتها وعارضاتها وأخصائيات التجميل». فقد كان يتنقل من دوريس داي إلى روندا فلامينغ إلى أدال جرجنس وكاي ستيوارت ورث رومان فضلاً عن مونيكا لويس وبيني إدوارد وآن سوثرن... واستذكرت دوريس ليلي إحدى «ضحاياه» «أكره أن أقول إنه كان ضعيفًا، لكنّه كان مذعنًا». كان ذلك مفهومًا فقد لازمته جاين وايمن لدرجة أنه أصبح عاجزًا جنسيًا، وقد قال أحد مرافقيه في هذا الصدد: «كان مغرمًا بهذه المرأة لدرجة أنه أصبح مهووسًا بها». وهنا استذكرت جاكلين بارك «حين تركته توقف عن العمل، كان يصعب عليه مغادرة المنزل أو العمل أو الطهو أو ممارسة الجنس»، وتذكرت مرةً عندما أوقع كأسه وأشار إلى الشظايا قائلاً لها: «هذا ما سيجري لقلبك إن بقيت في هذه البلدة. فبطريقة أو بأخرى، وإن حققت النجاح أم لا فستحطم هذه البلدة قلبك، فهذا

(١) المصدر السابق، ص. ٢٢٣.

ما سيبدو عليه قلبك في حال قررت البقاء هنا.»[١]وبالإضافة إلى ذلك، حملت جاكلين منه ولكنه رفض أن يكون له علاقة بها أو بالإجهاض الذي لجأت إليه في النهاية.[٢] وقد اعترف لاحقًا «استيقظت في أحد الأيام غير قادر على تذكر اسم الفتاة التي أمضيت الليلة معها فقلت في نفسي عليّ أن أتمالك نفسي».[٣] وحين حملت منه نانسي دافيس في نهاية العام ١٩٤٩ وافق أخيرًا على الزواج بها وعلى إصلاح حياته المحطمة.

لم يكن سهلاً على ريغان أن يعيد بناء حياته الخاصة، فقد قيل إنه كان يواعد ست فتيات على الأقل في الوقت الذي وافق على الزواج بنانسي؛ فقبل حفلة زواج صغيرة بسبب إحراجه وخجله، حيث تمت دعوة شاهدين فقط ومن ثم اجترأ ريغان على إخبار والدته بأفعاله. وبعد ذلك بأشهر استعاد علاقته بعشيقته صاحبة الشعر الأحمر الممثلة كريستين لارسن التي زعمت أنه كان معها في السرير حين ولدت نانسي طفلتهما الأولى باتي. وكذلك، اعترف ريغان لكريستين بأن حياته دُمرت وأنه «خُدع» ليتزوج.[٤] و لكن الأوان كان قد فات. فقد صنع منزله الزوجي وعليه ملازمته، في حين اعترف أنه أحاط قلبه بسور عالٍ لا يستطيع أحد تخطيه. وفي وقت لاحق اعترفت نانسي قائلة[٥]: «يمكنك أن تذهب مع روني بعيدًا وفجأة يقع شيء يُرجعك إلى الوراء، فعلى الرغم من أنه يحب الناس يبدو في كثير من الأحيان بعيدًا ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه. فهناك حائط يحيط به، يسمح لي بالاقتراب منه أكثر من أي شخص آخر ولكن حتى أنا أشعر أحيانًا بهذا الحاجز.»[٦] دعم ابن ريغان رون وجهة نظر والدته وحار في حقيقة أن هناك «شيئاً يخفيه، وعندما تقترب منه

(١) كتاب Nancy Reagan: The Unauthosized Biography للكاتبة والصحفية كيتي كيلي Kitty Kelley، ص. ٨٧

(٢) المصدر السابق، ص. ٨٨.

(٣) المصدر السابق؛ وكتاب Dutch للكاتب موريس Morris، ص. ٢٨٢ وص. ٧٥٠؛ وكتاب Early Reagan للكاتبة آن إدواردز Anne Edwards.

(٤) كتاب Nancy Reagan للكاتبة والصحفية كيلي Kelley، ص. ٩١.

(٥) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي كانن Cannon، ص. ١٩٢.

(٦) كتاب My Turn: The Memoirs of Nancy Reagan لنانسي ريغان Nancy Reagan، ص. ١٠٦.

يسدل الستارة على قلبه».[1] وكذلك، وصف رون علاقته بوالده على أنها «ودية»، ولكنه «يتوتر في حال حاولت التقرّب منه ومن حياته الشخصية أو حاولت المبالغة في علاقة الأب والابن».[2] إلا أنّ ابنته باتي كانت أكثر صراحةً فوصفت خيبة أملها قائلةً: «لم أعرفه يومًا، ولم أتمكن من فهمه قط.»[3]

وتجدر الإشارة إلى أنه لولا نانسي دافيس، ربيبة الطبيب الجمهوري، لما تمكن ريغان، على الأرجح، من تخطي وجعه البتة. فقد قلبت نانسي المتشددة التي كانت ترى الزواج والعالم بمنزلة إدارة الأعمال، حياة ريغان في هوليوود. من هنا، أصبحت نانسي الصغيرة الحجم والأنيقة وذات الأنف الطويل والذقن الواضح في سن الثلاثين مديرة أعمال زوجها. وقد ضغطت عليه كي تحصل على كرسي لها في نقابة الممثلين الأميركيين، وقد شجعت آراءه السياسية بدلاً من أن تستنكرها دافعة إياه إلى سلك اتجاهات جديدة. بالإضافة إلى ذلك، نصبت نانسي سياجًا حول حياة ريغان اليومية وعملت على أن تكون مساعدته في ما يختص بالأمور الأخلاقية، ماحيةً كل أثر زوجته السابقة. وفي ظل منطقة الأمان التي أحيطت به والتي خلقتها «السيدة نانسي ريغان» كما سمت نفسها في تنسلتاون بعد أن تخلت عن التمثيل، تطورت حياة ريغان تدريجًا، فقد تم إنقاذ سيرته المهنية المتقلبة من خلال العمل في التلفزيون وازدادت التزاماته السياسية التي قادته أخيرًا باتجاه منصب منتخب. كذلك، ومن خلال تدربه على تشغيل ذاكرته بانتقائية، استطاع أن يمحو جاين وايمن من عقله (فقد خصص لجاين ولحياتهما الزوجية ٢٩ كلمة من أصل سبعمئة وثماني وأربعين صفحة من كتاب سيرة حياته، حياة أميركي An American Life)، وكل ما لم يكن يود رؤيته أو تذكره في عالم السياسة. وبدلاً من ذلك، ركّز بجهد على برنامج تلفزيون الواقع الذي كان يكتب السيناريو الخاص به من أجل كاليفورنيا ومن ثم أميركا والذي كان سيأخذ فيهما الدور الأساسي ليقوم بإخراجه في ما بعد.

---

(١) كتاب President Reagan للكاتب والصحفي كانن Cannon، ص. ١٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص. ٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص. ١٩٣.

وفي المقابل، رأت نانسي دافيس في الأمور التي وجدتها جاين وايمن مضجرةً، عبقريةً أميركيةً. فبدأت بخلق جو في البيت من شأنه أن يداوي قلب ريغان المحطم ويجعله أفضل حالاً ليحقق موهبته الفريدة كمتكلم سياسي، بما أنه شعبي وطموح وصادق وجذّاب وظريف في الوقت نفسه. ولكونه رجلاً لطيفًا ولكن ومتلقياً في معظم الأحيان، فكانت تؤدي دور المحقق مع من يحيط به، وبمجرد قيامها بذلك، أزعجت الأشخاص الذين لم يشاركوها في إجلالها لقيادته، أو الذين كرهوا طريقتها السرية المشابهة لطريقة الاستخبارات الروسية. (فقد أشار زميل قديم «لم يكن هناك أي غموض في ما يخص سلطتها، ففي حال ظنت أن هناك من ليس وفيًا لروني يمكن أن يؤدي ذلك إلى محرقة نووية! فأقل ما يقال عن التعامل معها إنه صعب»).[1] فيما سخر بعضهم من اعتمادها الوضيع على العرافين والمنجّمين، مثلما كانت الحال في روما القديمة، وعدّها ساحرة. ومع تضحيتها الشديدة من أجل رفاهيته ورضاه ونجاحه، نالت حبه وإخلاصه، عندما اعترف أقله بأن ذاكرته التصويرية تلاشت بسبب الخرف وأصيب أخيرًا بالزهايمر الذي تم تشخيصه في العام ١٩٩٤.

توفي رونالد ريغان في منزله في بل إير في الخامس من حزيران/ يونيو ٢٠٠٤ بعد أن أمضى أربع سنوات من دون أن يفتح عينيه.[2] وقد دفن على تلة تحت المكتبة الرئاسية في سيمي فالي في كاليفورنيا بعد مرور ستة أيام على وفاته.

(١) كتاب Ronnie and Nancy للكاتب كولاتشيلو Colacello، ص. ٤٧١.

(٢) نانسي ريغان لريتشارد ريفز في كتاب President Reagan للكاتب والصحفي ريفز Reeves، ص. ٤٩٢.

الفصل العاشر

جورج بوش الأب

جمهوري

الرئيس الحادي والأربعون

(من عشرين كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ إلى العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٣)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد جورج جورج هربرت واكر بوش في أحياء بوسطن الراقية، في ولاية ماساشوستس في الثاني عشر من حزيران/يونيو ١٩٢٤، وكان يعدّ أميركيًا مثاليًا بروتستانتيًا أنغلو-ساكسونياً أبيض ينتمي إلى سلالة طويلة من الوجهاء الأميركيين: كان جدّ جدّه راعيًا أسقفيًا في جزيرة ستايتن، نيويورك، أمّا جدّه فكان صناعيًا ثريًا أسطوريًا في أوهايو. ووالده بريسكوت بوش أصبح عضوًا في مجلس الشيوخ، وقد خدم في معركة فرنسا في خلال الحرب العالمية الأولى برتبة نقيب في المدفعية الميدانية، مثل هاري ترومان.

وتزوّج بريسكوت بوش امرأة ثرية، هي دوروثي والكر وعمل في نيويورك في مؤسسة استثمارية كبرى يملكها والدها. وهكذا، أصبح ثريًا ومن أعمدة المؤسسة. كان يأتي يوميًا إلى مانهاتن ولكنه كان يعيش في غرينويتش في ولاية كونيكتيكت وقد وظّف طاهيًا ومدبرة منزل وسائقًا، وشغل منصب منسق مجلس ممثلي بلدة غرينويتش المؤلف من مئة وثمانية وأربعين عضوًا لكونه «جمهوريًا ناشطًا ممارسًا»، كما أنه أسّس جمعية مكلّفي غرينويتش.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بريسكوت بوش العملاق (٦,٤ أقدام) المتجهّم والمتحفّظ، ترك تربية أولاده الخمسة لزوجته دوروثي الحازمة والصارمة التي كانت تشاركه في آرائه المحافظة. وعندما ألقى أستاذ كلية سايبروك نكتة فظة، استدار بريسكوت نحو زوجته وقال: «دوروثي سنغادر»، وغادرا.[1] وعندما ترك شقيقه زوجته ليتزوج سيدة

(١) كتاب Georges Bush: The Life of a Lone Star Yankee لـHerbert Parmet ص. ٣٠، كتاب My Father, My President: A Personal Account of the Life of George H.W. Bush لدورو بوش كوش Doro Bush Koch ص. ٥ و٦.

من فيلادلفيا بارزة في المجتمع، قطع بريسكوت كلّ علاقة به.[1] فبالنسبة إليه هناك ما هو خطأ وما هو صواب ودوروثي التي ارتادت مدرسة السيدة بورتر كانت أيضًا صارمةً في حكمها.

في عيد ميلاده الثامن عشر في حزيران/يونيو ١٩٤٢، وما إن غادر مدرسة فيليبس أندوفر، حتى تسجّل جورج، الذي كان من المتوقّع أن يرتاد جامعة ييل مثل شقيقه الأكبر، في مركز تجنيد البحرية في نيويورك. وفي الصيف التالي كان أصغر طيار متدرّب في البحرية الأميركية، وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٤، في سنّ التاسعة عشرة كان يُقلع من متن حاملة الطائرات يو أس أس سان جاسينتو في المحيط الهادئ، أولاً في قيادة جولات تفجيرات ضدّ جزيرة ويك، ثمّ شيشي جيما حيث أصيبت في الثاني من أيلول/سبتمبر طائرته من نوع تي بي أف افنجر، ولكنّه لم يصب بسوء وتمكن من إطلاق خمسمئة باوند من القنابل على هدفه. وكذلك، قفز في المظلة من ارتفاع ألفي قدم مع ثلاثة أعضاء آخرين من طاقمه لم تفتح مظلاتهم، فكان الناجي الوحيد وأنقذته الغواصة الأميركية فينباك، بينما أطلق زملاؤه الطيارون النار وهم يقتربون من السفن اليابانية.[2] وعلى غرار الملازم جون أف. كينيدي، رفض العودة إلى الولايات المتحدة، وحلّق في ثماني مهمّات قتالية فوق الفيليبين التي تحتلها اليابان قبل أن يعود إلى الوطن في سن الواحدة والعشرين، حاملاً صليب الطيار الفخري، وفي رصيده ثمان وخمسون مهمّة ومئة وستة وعشرون هبوطاً على متن حاملات الطائرات.

وبعد زواجه بابنة مدير مجلة نسائية مهمة، التحق بوش بجامعة ييل حيث قُبِل في جمعية سكال أند بونز الحصرية (Skulls and Bones Society)، وعيّن قائدًا لفريق البيسبول في الجامعة، كما ركزّ على الأعمال المالية. وتخرج في العام ١٩٤٨ أي بعد سنتين ونصف سنة فقط. من جهة أخرى، كان يتوق إلى التخلّص من نظرات والدته

(١) كتاب George Bush لـ Parmet، ص. ٣٢.

(٢) كتاب My Father, My President لـ Koch ص. ١٩.

وحماته الناقدة، وانطلاقًا من هنا، رفض الانضمام إلى شركة والده الاستثمارية في نيويورك، وتبع النصيحة الأميركية «اذهب إلى الغرب أيها الشاب وتقدّم مع تقدّم البلد». فعمل لدى زميل له في الجامعة، نيل مالون في شركته التي تحمل اسم الشركة الدولية لأجهزة ومعدّات آبار البترول منتقلاً إلى تكساس بصفته عامل نفط. فاستقر مع عائلته التي تكبر بين أصحاب مزارع الماشية والحفارين والمنقبين عن «الذهب الأسود»، وقد تعلّم البائع «من الطراز الأول» أن يخفي أصوله الثرية ويشارك في حفلات شواء مع أشخاص من جميع الفئات.

انتقل جورج بوش من توفير المعدات لشركات النفط في تكساس إلى رهن حقوق التنقيب عن المعادن، فأنشأ شركته الخاصة باسم بوش أوفربي، بثلاثمئة وخمسين ألف دولار أميركي اقترضها من والده وعمّه وأصدقاء العائلة بمن فيهم أحد زبائن والده مالك صحيفة واشنطن بوست، يوجين ماير. ومن ثمّ انتقل من العمل في الرهن إلى التنقيب عن النفط، وأنشأ شركة جديدة، هي زاباتا أويل في العام ١٩٥٣. وهكذا، بعد أن أصبح ثريًا في مقاطعة كوك، تحوّل إلى مليونير محتمل في ميدلاند، تكساس منتقلاً إلى منزل يضمّ حوض سباحة، في الوقت الذي ذهب والده إلى واشنطن بصفته عضوًا في مجلس الشيوخ عن ولاية كونيكتيكت.

على الرغم من أنّه أقصر من والده بإنشين، لا يزال جورج بوش طويلاً تبلغ قامته ٦/٢ أقدام، وهو بطل مكرّم من الحرب العالمية الثانية، وسيم وساحر، مغامر ومسالم بالفطرة ليس لديه وجهات نظر ثابتة في أي مجال. وكان يتأقلم في أي مكان يوجد فيه: إنّه شعبي وله علاقات مهمة، كما أنّه متواضع ومنفتح على الاقتراحات. وسرعان ما بدأ يبني منصات حفر وينقّب عن البترول في الخارج بناءً على عقود مع كبار الموزّعين في خليج المكسيك وفي الخليج الفارسي وفي بحر الصين الجنوبي قبالة بروناي وفي البحر الكاريبي قبالة ترينيداد. وكان زملاؤه يحسدونه لكونه المليونير العصامي الأوّل بين أترابه في جامعة ييل. وما لم يستطيعوا فهمه هو لماذا بوش، الذي بدا غير مهتم بالسياسة عندما بدأ الكلام على قوانين الحفر الخارجي، قرّر الدخول في مضمار السياسة.

في الواقع، كان بوش مغتبطًا بفضل عمله في مجال النفط، ما جعل من هيوستن الواقعة في ولاية تكساس، حيث انتقل في العام ١٩٦٠، «عاصمة النفط والمواد الكيميائية» في أميركا. وعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى الموجة السياسية نفسها مثل والده بصفته جمهوريًا يساند أيزنهاور إلاّ أنّه برز في السياسة. في المقابل، تدهورت صحة بريسكوت بوش وقرّر عدم الترشح إلى مجلس الشيوخ في العام ١٩٦٠، بعد ولايتين. وعلى الرّغم من أنّ جورج لم يفكّر في الحلول خلفًا له في كونيكتيكت لأنّ ذلك سيبدو كاستغلال للوضع، قرّر الترشح لمنصب سياسي في ولايته الأم الجديدة تكساس، التي كانت تتحوّل أكثر فأكثر في خلال موجة الحقوق المدنية إلى ولاية تابعة للحزب الجمهوري.

وعلى المدى الطويل، كانت مسيرة بوش السياسية مميزة تمامًا مثل مسيرته في التنقيب عن النفط، ولكنها تطلّبت تنازلات أخلاقية أقلقت «والده الضخم» كثيرًا.[1] في شباط/فبراير ١٩٦٣، انتُخب بوش رئيساً للحزب الجمهوري في مقاطعة هاريس، التي تضمّ دائرتين انتخابيتين في الكونغرس. في الواقع، كان قد اكتسب لهجة تكساس، إلا أنّه كان من الصعب أن يتخلّص من شخصية «الطالب الثري في جامعة ييل» بسبب عدد القبعات الهائل التي كان يملكها، وتطرّفه المسيحي والقومية المتشددة المعادية للشيوعية وانتمائه إلى جمعية جون بيرش. وأشار زميل له في الحملة «أنّه من طبيعته أن يحاول التماشي مع الجميع»، ولكنه كان يخشى أن يحاول بوش إحضار أعضاء جمعية بيرش إلى التراتبية في الحزب الجمهوري.[2] ولاحظ العضو في حملته أنه «لم يكن يفهم» لماذا يحتاج بغية تبديل صورته كانتهازي الساحل الشرقي، إلى دعم من غولدواتر ومن المتطرفين المهووسين بالقيم في تكساس، متناسيًا تقدير بوش الفطري. وفي العام ١٩٦٤، مع اقتراب بوش من سنّ الأربعين قدّم ترشيحه الأول إلى مجلس الشيوخ، وفاز بسهولة في الانتخابات الأولية للحزب الجمهوري «مناصراً لغولدواتر الجمهوري».

(١) كتاب George Bush لـParmet ص. ٣٠ و ٣١.
(٢) المصدر السابق، ص. ٩٦.

وعلى غرار غولدواتر، عارض بوش قانون جونسون للحقوق المدنية، معلنًا أنَه «قانون حقوق مدنية جديد يهدف إلى حماية أربعة عشر في المئة من الشعب»، وانتقد تدابيره المعادية للفقر. كما عارض انضمام الصين الحمراء إلى الأمم المتحدة ومعاهدة حظر التجارب النووية التي أسماها «سخافة». «سوف تشرق الشمس في مجلس الشيوخ يومًا، وسوف يطرد جورج بوش الليبراليين» هذا ما كانت تهتف به مشجعات بوش الحسناوات في ساحات قرى تكساس المئتين، بينما كان هو يشهّر بتهوّر بخصمه وغيره من الديمقراطيين، مستخدمًا إشعارهم بالذنب الجماعي.[١] من هنا، رأى أنّ كل من يموّل حركة مارتن لوثر كينغ هو شبه إرهابي، في حين أشاد باليمينيين المتعصّبين من جمعية بيرش الذين يساندونه وعدّهم وطنيين مكرّسين. ولكنه في يوم الانتخابات فشل في إبعاد عضو مجلس الشيوخ رالف ياربورو، وهو الديمقراطي الذي يتمتّع بالشعبية والذي دعمه الرئيس جونسون في حملته الانتخابية، فخسر بوش بفرق أصوات كبير بلغ ثلاثمئة ألف صوت وصرّح بوش مصدومًا للصحافيين «لا أدري كيف جرى ذلك، أظنّ أنّه عليّ أن أتعلّم الكثير بعد».[٢]

وشعر خصمه أن لديه الكثير ليخجل منه أيضًا.

وبعد ذلك ندم بوش. حتى أنّ والديه قلقا بسبب المواقف المتطرّفة التي اتخذها لدرجة أن لا أحد منهما جاء إلى تكساس لمساعدته على تنظيم حملته. واعترف بوش لراعيه الأسقفي قائلاً: «أتعلم جون، لقد اتخذت بعض المواقف اليمينية المتطرفة لأفوز بالانتخابات، أتمنّى ألاّ أعيد الكرة أبدًا، فأنا نادم على ذلك».[٣] حتّى أنّه اعترف في خطاب ألقاه في السنة التالية أنّه يشعر «بالخجل» لعدم إدانة «فوضى» الجماعات اليمينية الحاقدة والعنصرية.[٤] إلا أنه لا يمكن للعار أن يحجب الحقيقة، فقد أثّرت المبالغ الضخمة الناتجة من النفط في نتائج الانتخابات، فأكثر من مليون

(١) المصدر السابق، ص. ١٠٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ١١٣.
(٣) المصدر السابق، ص. ١١٤.
(٤) المصدر السابق، ص. ١١٥.

ناخب ديمقراطي في تكساس صوتوا لمصلحة الجمهوريين، ما شكل أكبر إقبال للجمهوريين في تاريخ تكساس.

وإن كان عضو مجلس الشيوخ ياربوبرو قد توقّع أنّه حين يتمّ انتخابه فسيعود بطل الحرب الشاب إلى آباره النفطية، فقد أخطأ التقدير كثيرًا. فقد تحوّل الطموح السياسي لدى بوش إلى إدمان، ومع بدء الرئيس جونسون حرب فيتنام ومن ثمّ تصعيدها، شعر بوش (الذي كان يدعمها) بالثقة التي خولته الترشح في العام ١٩٦٦ للانتخابات كعضو في الكونغرس عن المقاطعة السابعة في تكساس ذات الأغلبية البيضاء (تسعون في المئة)، التي تضم مدينة هيوستن الشمالية الغربية والمناطق المحيطة بها.

وإضافة إلى ذلك، وفي سبيل إظهار تصميمه المطلق استقال بوش من منصبه كمدير تنفيذي ورئيس شركة زاباتا، وباع أسهمه وترشّح للانتخابات ولكن هذه المرة إلى جانب خصمه اليساري في الحزب الديمقراطي، المدعي العام فرانك بريسكو القديم الطراز والعنصري. وبالتالي، عكس كلياً بيان برنامجه المناهض للحقوق المدنية قبل سنتين فقط، وقام برعاية فريق بيسبول مؤلف من فتيات سوداوات، نجوم جورج بوش، فاز على الفرق البيضاء الخمس في دوري هيوستن. وتعمّد التقاط صور وهو يقدّم الجوائز للخاسرين والفائزين، وإنّما تغيير موقفه لم يسبّب أي أذى خصوصًا في سياق جيل جديد يمثّله طلاب شباب. ومع أغلبية ستة مقابل واحد للمرشّح الديمقراطي في الانتخابات السابقة، لم يصوت الناخبون بأعداد قياسية فحسب، بل منحوا بوش بصفته جمهوريًا أغلبية بنسبة ٥٧/٦ في المئة.

وهكذا أصبح جورج بوش في كانون الثاني/يناير ١٩٦٧، واحدًا من أصل سبعة وأربعين نائبًا جمهوريًا، وقال عنه أحد الزملاء: «كان بريئًا من الأفكار السياسية بشكل عام»: إنه سياسي في طور التكون ويخلو من أي رؤية سياسية أخرى غير خدمة حكومة الأمة. وبطريقة ما، ساعده ذلك على البروز بين أكثر أعضاء الحزب في مجلس النواب. فمع أنه كان يتلعثم بشكل غريب عندما يلقي الخطابات جوالاً

أو أمام تجمّعات كبيرة، كانت له وسامة نجوم الأفلام كما كان متيقّظًا وطموحًا ولكن متواضعًا. وحصل بمساعدة والده على مقعد في لجنة الأساليب والوسائل وسرعان ما بدأ يطمح إلى مناصب عليا، خصوصًا منصب نائب الرئيس في حال سقطت الإدارة الديمقراطية بسبب حرب الفيتنام التي لسخرية القدر ضغط الجمهوريون على جونسون لإعلانها.

وانطلاقًا من إدراكه قوّة تأثير جونسون في تكساس ذهب بوش إلى فيتنام، حيث تشجّع لرؤيته الجنود الأميركيين الذين يقاتلون في الميدان إضافة إلى طياري البحرية الذين كانوا يستعدون لقصف هانوي. ولكن حينما طلب الجنرال ويستر مورلاند مئتي ألف جندي، وحينما بيّن هجوم تيت نقاط ضعف المجلس العسكري في جنوب الفيتنام، كان عليه الاعتراف أنّه «كان من الخطأ البدء بهذه الحرب». فغادر الفيتنام متيقناً أنّ الصراع التالي سيكون في الشرق الأوسط وليس في جنوب شرقي آسيا. ولكن كيف سينسحب بدون إهانة العلم؟ فهو لم يكن يعارض جونسون أو الحرب، ولكنه عارض وجهًا منها، ما فاجأ ناخبيه في تكساس.

وعلى صعيد آخر، عندما رأى بوش بنفسه عدد الأميركيين من أصل إفريقي الذين يقاتلون في فيتنام شعر بالخجل من التمييز العنصري في الإسكان داخل البلد. وبالتالي صوّت بوش في مجلس النواب لقانون الرئيس جونسون لإبطال قانون التمييز العنصري في الإسكان، مدركاً أنّ ذلك قد ينهي مسيرته السياسية في تكساس. وكتب لصديق له من جامعة ييل: «صوّت للقانون، وبدأت الأمور تخرج على السيطرة، والحقد يبرز. لقد تسلمت رسائل حول هذا الموضوع أكثر ممّا تسلمت حول فيتنام والضرائب والجنس مجتمعةً».[1] حتّى أنّه تلقّى رسائل تهديد، ولكنّه بقي مثابرًا معلنًا لناخبي الدائرة السابعة أنّه بصفته ممثّلها المنتخب سيكون قد خان واجبه المقدس في اتّباع حكمه الأخلاقي في حال لم يدافع عن الأخلاقيات الأميركية الأساسية. ولأنه

(١) المصدر السابق، ص. ١٣٢.

هو نفسه خدم بلده مقاتلاً، أعلن أنه لا يجوز «إغلاق الباب في وجه أي شخص لأنّه أسود أو لأنّه يتكلّم بلهجة أميركية لاتينية. كما أنّ إلغاء التمييز العنصري في مسألة الإسكان يقدّم بصيص أمل للسود وللأقليات المقيّدة بسبب العادات والتمييز».[1] وبهذه الكلمات أظهر جورج بوش أخيراً دعامةً أخلاقية كان يفتقدها منذ أن دخل معترك السياسة. وكم كان مندهشاً إذ لم يجرؤ أي شخص من الحزبين على معارضة ترشيحه مرةً ثانية في العام ١٩٦٨.

ولكن واقع الحال هو أنّ شجاعة بوش الأخلاقية نابعة من عدم شعوره بالقلق المفرط بشأن إعادة انتخابه. والحقيقة أنه كان يأمل أن يختاره نيكسون مرشّح الرئاسة الجمهوري نائباً له في تلك السنة، بما أنّ الرئيس أيزنهاور، الذي كان معجبًا بعضو مجلس الشيوخ بريسكوت بوش، هو أكثر من أوصى بالشاب بوش لهذا المنصب، كما كان قد أوصى أيزنهاور بالشاب نيكسون في العام ١٩٥٢.

ولكن نيكسون اختار ديمقراطيًا سابقًا غير معروف وحاكم ماريلاند السابق سبيرو أغنيو.

وبسبب ازدراء الرئيس لبوش، وضع هذا الأخير نصب عينيه للمرّة الثانية الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ، ولم يتملّق جونسون على أمل الحصول على موافقته (فقد حضر وداع جونسون واشنطن في قاعدة أندروز الجوية بدل أن يحضر مراسم تنصيب نيكسون) بل زار الرئيس السابق لاحقًا في مزرعته في تكساس، وسأله إن كان عليه الترشح. وقد نصحه جونسون قائلاً: «يا بني، إنّ الفرق بين منصب عضو في مجلس الشيوخ ومنصب عضو في مجلس النواب يشبه الفرق بين السماء والأرض، هل فهمتني»؟[2]

أخذ بوش بالنصيحة حتّى وإن كان ذلك يعني انتهاك أخلاقيات الحملة. فتقرّب إلى الرئيس نيكسون للحصول على دعم مالي في العام ١٩٧٠، ففرح بحصوله على

(١) المصدر السابق

(٢) كتاب George H. W. Bush لـTimothy Naftali، ص. ٢١.

مبلغ مئة وستة آلاف دولار من «صندوق» نيكسون غير الشرعي، منتهكًا بذلك قانون تمويل الحملات الانتخابية.(١)

من هنا، عكس تصرّف بوش وجهي شخصيته السياسية: الرجل الشاب المتملق المستعد لتقديم تنازلات في ما يتعلق بنزاهته واحترامه لذاته من أجل المضي قدمًا، والشخص الشجاع المتسم بالنبالة التي تتطلب الالتزام بالمسؤوليات والمحترم وهذا ما كان يقدّره ويحترمه من أجله مساعدوه النبلاء، وخصوصًا جايمس بيكر الثالث صديقه المحامي منفي تكساس ومدير حملته.

بيد أن تملّق بوش وبذاءته لم ينجحا، بل ربح عضو الكونغس الديمقراطي لويد بينتسن، المليونير العصامي من تكساس الذي جمع ثروته من خلال التأمين وأيضًا بطل حرب أعظم من بوش (فقد حصل على صليب الطيران الموقر ووسام الجويّة إضافةً إلى ثلاث قطع أوك ليف كليسترز بصفته طيارًا حارب في أوروبا في خلال الحرب العالمية الثانية).

فحاول بوش استقاء الدرس من هزيمته الثانية في ترشحه لمجلس الشيوخ، فصرّح «كما قال كاستر إنّ هناك الكثير من الهنود، أظنّ أن هناك الكثير من الديمقراطيين». وبموازاة ذلك، أعلن صديق مقرّب «لقد حطّمته الخسارة، وقال إنّها كانت نهاية لكلّ شيء». (٢)

ولكن، لا بد من الإشارة إلى أنّ بوش رفض في حملته الانتخابية، اللجوء إلى «الإعلانات البغيضة» التي اقترحها عليه شارلز كولسون «عبقري نيكسون الشرير» بصفته مستشار البيت الأبيض الخاص؛ وفي الواقع اتصل بوش بالبيت الأبيض وهو يستشيط غضبًا ليقول: «لا ترسل مرّةً أخرى أي شيء من هذا النوع إلى هنا. قل للسيد كولسون إنّي اتّصلت وتيقن أنّه فهم ما قلته».(٣) وبالتالي عبّر هذا الاشمئزاز الأخلاقي

(١) المصدر السابق، ص. ٢١ و٢٢، وكتاب George Bush لـParmet ص. ١٧٠ و١٧١.
(٢) اقتباس Jack Steel من كتاب George Bush لـParmet ص. ١٤٥.
(٣) كتاب George Bush لـParmet ص. ١٤٤.

عن طبيعة أفضل في شخصيته: في الواقع حُكم في وقت لاحق على كولسون لأنه أحد المتورطين السبعة في فضيحة ووترغيت فأرسل إلى السجن لتنظيمه سرقة مكتب الطبيب النفسي دانيال إلزبورغ الذي بلّغ عن خروق في العمل. إلا أنّ الدرس الذي تعلّمه بوش من خسارته هو أنّه بدون هذه الإعلانات الهجومية «الازدرائية»، لن يتمّ انتخابه بكلّ بساطة، لكونه سياسيًا جمهوريًا مع قدرة كلامية ضعيفة. وكما أشار صديق آخر كان بوش فاشلاً كثيرًا في إلقاء الكلمات «كانت جمله معقدة ومتداخلة وكان يميل إلى ترك أفكار غير مكتملة»، وهو يشبه بذلك «الجنرال أيزنهاور الذي راقبته في العام ١٩٥٢».(١)

وكانت هذه المقارنة ملائمة، إلاّ أنّ بوش لم يكن قائد جيش أميركي ذا شهرة عالمية. توجّه بوش مباشرة إلى نيكسون من أجل منصب وزير الخزينة الذي كان قد أصبح شاغرًا، خوفًا من استبعاده في خلال سنتين قاسيتين عن الإدارة الجمهورية، ولكن نيكسون رفض. فخاب ظنّ بوش وتوسّل إلى نيكسون لتعيينه بدل ذلك في منصب سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة ما فاجأ نيكسون. حتّى أن شركاء بوش ارتبكوا. وتعجّب صديق جورج بوش القديم، في جمعية سكالز أند بونز عندما سمع الخطّة، وقال: «بحق الجحيم ماذا تعرف أنت عن الأعمال الخارجية؟»(٢)

فأتى الجواب مقتضبًا جدًا، وكمن في إرادته التعلم والحصول على مكان في حكومة نيكسون. وبعد أن عُيّن عن جدارة في هذا المنصب وهو في السابعة والأربعين من عمره، بدأ السفير بوش يتابع دورة مكثفة في السياسة العالمية في نيويورك. وبقدر ما كان المنصب مهمًا كمقدمة للشؤون الدولية، فقد قدّم له أيضًا مركزًا بارزًا في عالم نيكسون السري والمتلاعب في البيت الأبيض الإمبراطوري بما أنّه سرعان ما اكتشف أنّ نيكسون وكيسنجر كانا يتخطيانه خصوصًا في ما يتعلّق بتايوان والصين الشيوعية. ففضل بوش متأخرًا اعتراف أميركا بالصين الحمراء، ما عده «خطوةً ذكيةً»، ولكنه

(١) كتاب George Bush: An Intimate Potrait لـFitzhugh Green، ص. ١١٣.
(٢) كتاب George Bush لـParmet، ص. ١٥٠.

استاء من عدّه كبش محرقة في الأمم المتحدة. وفي الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧١، طُردت تايوان في خلال الجمعية العمومية عبر التصويت، ونيلها تسعة وخمسين صوتاً مقابل خمسة وخمسين.

وفي كامب ديفيد عندما طُرح اسم بوش لمنصب نائب وزير الخزانة، بعد إعادة انتخاب نيكسون في العام ١٩٧٢،[١] علّق بتعجرف قائلاً: «إنّه تابع نيكسون بالكامل، كن متأكدًا أنك لا تستطيع أن تقوم بالعمل أفضل من بوش». إلا أن هذا التعليق لم يُدهش بوش. فهو كان قد جلب هدايا قيّمة لحملة انتخاب الرئيس السرية بما في ذلك مبلغ مئة ألف دولار من شريك بوش السابق في تكساس ويليام لييدكي؛ فشعر نيكسون بالتالي أنّه «مدين»، فرفض تعيينه مجرّد وسيط يحل مشاكل «وزير الخزانة العظيم». فبوش كان على علم أنّ هناك منصبًا شاغراً يستطيع أن يمنحه إياه نيكسون. ولكن ذلك قد يعني طرد رئيس اللجنة القومية الحالي للحزب الجمهوري، السيناتور بوب دول الذي لم يعتبره نيكسون في جميع الأحوال متملقًا بما يكفي. إلا أنّ نيكسون تحمّس للنتائج المالية والانتخابية، وأعجبته الفكرة. فتنحى دول على نحو ملائم مكتشفًا لاحقًا أنّ «بوش أطاحه».

لكن، وبموازاة ذلك، كرهت باربرا زوجة بوش التي كانت تستمتع بالعيش في نيويورك فكرة المنصب في اللجنة القومية للحزب الجمهوري في واشنطن، معتبرةً هذا «آخر شيء في العالم» على زوجها أن يقوم به. [٢] وكان حدسها في مكانه. ولكن عرف بوش بالضبط ما ينتظره عندما قرر دخول عرين الأسد بسبب معاملاته المالية غير القانونية، إلا أنّ نظرته إلى الحصول على الفرصة الرئيسية في الحكومة والسياسة لم تخطئ. فأخفى عن زوجته الحقيقة قائلاً «إنّه لا يستطيع أن يرفض طلب الرئيس، بينما في الحقيقة كانت الفكرة فكرته».[٣] في الواقع، ستسمح له رئاسة الحزب الجمهوري بالانخراط في إدارة نيكسون على جميع المستويات ولقاء كبار

(١) المصدر السابق، ص. ١٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٥٩.
(٣) المصدر السابق.

المسؤولين في سياسة الحزب الجمهوري ولقاء الحكومة والتواصل مع أغنى المموّلين في البلد. فأقله سيضمن له ذلك هبوطًا سليمًا في حال انتهت مسيرته السياسية في وقت مبكر.

ولكن ما من هبوط هادئ، فلم يكد ينتقل بوش إلى واشنطن ويتولى شؤون الحزب الجمهوري حتى بدأ وضع نيكسون الخطير يهتزّ بسبب ووترغيت. وصرّح بوش سرًا أنه «سئم» من الإفشاءات المتزايدة، مع أنّه واصل جولاته في البلد بصفته رئيس اللجنة القومية للحزب الجمهوري، مدافعًا عن الرئيس ومستنكرًا أي عمل غير قانوني قد وقع: جولة اعتذارات، ألقى في خلالها حوالى مئة خطاب وخطاب، وعقد سبعة وثمانين مؤتمرًا سياسيًا، وقام بأحد عشر ظهورًا تلفزيونيًا وقطع حوالى مئة ألف ميل وزار ثلاثًا وستين ولايةً.[1]

إلا أنّ محاولات بوش لتغطية الأعمال غير القانونية لم تُجدِ نفعًا. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ أُجبر نائب الرئيس أغنيو على الاستقالة بتهمة الفساد. ومرّة جديدة طُرح اسم بوش مرشحاً محتملاً للمنصب، ما يضعه في البيت الأبيض في حال عُزل نيكسون من منصبه بنجاح. وعلى الرغم من دفاعه القوي عن الرئيس الذي تخطى حدود الأمة، رفض نيكسون مرةً أخرى، واختار بدلاً منه قائد الأقلية في مجلس النواب العضو جيرالد ر. فورد.

وتابع بوش خائب الأمل دعم الرئيس، على الرغم من أن زوجته لحظت في مذكّراتها أنّها «كانت قلقة بشأن جورج لأنّه لم يكن يحبّ عمله. كيف يستطيع ذلك مع كلّ هذه الفضيحة؟»[2] ولم يكن نيكسون أيضًا ممتنًا، واصفًا بوش «بالكثير القلق» نتيجة توتّره بسبب ووترغيت. أمّا جولي ابنة نيكسون فكانت صريحة أكثر: فاتّصلت ببوش «وسألته لماذا لا يدافع عن والدها أكثر من ذلك»[3] كما قالت لاحقًا بربرا.

---

(١) كتاب A Memoir لـBarbara Bush، ص. ١٠٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ١١١.
(٣) المصدر السابق.

لكن، وعلى الرغم من كل هذه المحاولات، بالكاد ساعد اعتراض بوش الوفي نيكسون على كسب الوقت ليهرب من العدالة. فصحيح أنَ الرئيس تمكن من محو أكثر من ثماني دقائق إجرامًا من أشرطة البيت الأبيض، ولكن بقيت مئات الساعات الأخرى التي لم يتم محوها واستدعت المثول أمام المحكمة. ومع ذلك، تابع جورج بوش الدفاع عن رئيسه متعاطفًا معه بصدق. فكتب بوش في مذكراته لاحقًا في الخامس من آب/أغسطس ١٩٧٤، حين تعهّد نيكسون مواجهة التهم في الكونغرس حتّى النهاية «كان منطقه يختلف عن بقية الناس. ولقد سلك الطريق الصعب، وكان متحجّرًا في موقفه كما كان حاول الاختباء والعرقلة من خلال الأجوبة الغامضة وأصبح رئيس الولايات المتحدة رئيسًا جيدًا من نواح عديدة، ولكنه الآن أصبح في مأزق كبير. فانتهى به الأمر هدفاً للهجوم من كل الأشخاص الذين كرههم، طلاب الجامعات الأميركية الراقية والصحافة والمؤسسات والديمقراطيين وأصحاب الامتيازات، وكلهم سعوا إلى إطاحته».[١]

ولكن حساسية بوش تجاه عقدة نقص الرئيس صبت في مصلحة شبكة طلاب الجامعات الأميركية الراقية ولكن في بوصلته الأخلاقية. وكتب في مذكّراته «كنت أرغب في إطاحة الرئيس وإطاحة الكذب ولكن فكّرت في ما بعد لماذا الإضافة على المأساة الشخصية والأسى الشخصي؟ كانت الأحداث تجري بسرعة لدرجة أنّه لم يكن من المناسب «أن أزيد من حدتها.»[٢]

وفي اجتماع لمجلس الوزراء في السادس من آب/أغسطس ١٩٧٤، لم يملك بوش، على غرار نائب الرئيس فورد، الشجاعة الكافية لرفضه رفع قضية الاستقالة مكتفيًا بإعطاء الملاحظات حول تأثير وترغيت في فرص الجمهوريين في الانتخابات النصفية المقبلة. فتساءل بوش في مذكراته «هل أفشل في القيادة»؟ وفي السابع من آب/أغسطس، استجمع بوش قواه ليرسل أقله كتابًا للرئيس ينصحه فيه بالاستقالة.

(١) كتاب George Bush لـParmet، ص. ١٦٥.

(٢) المصدر السابق.

وبما أنّ السيناتور غولدواتر إضافة إلى آخرين ما انفكوا يقولون لنيكسون إنّه لن ينجو من التهمة، انهار ووافق على التنحي. وبعدما خلف فورد الرئيس برزت مسألة من سيشغل منصب نائب الرئيس الشاغر.

ومرّة جديدة كان اسم بوش على لائحة المرشحين للمنصب. فأحاط مناصروه البيت الأبيض بقيادة جايمس بيكر الثالث ونظّموا دعوات نيابة عنه من جميع أنحاء البلاد. ولكن لم ينجح ذلك. وكشف بوش لصديق بعد أن استاء لعلمه أنه خسر أمام حاكم نيويورك أربع مرّات الجمهوري المعتدل نيلسون روكفلر،[1] «سمحت لآمالي أن تعلو إلى حد غير واقعي». وأصيب بوش بخيبة أمل عميقة، فتوجّه إلى الصين بصفته رئيس بعثة أميركية في بكين، متسائلاً وهو في طريقه إلى هناك مع زوجته «هل أهرب من أمر ما»؟[2]

إلا أنّ بوش كان يجهل أنّه كان سيشكل كارثةً للبيت الأبيض. ولكن، في هذه الأثناء، سمح له العام ونصف العام اللذان قضاهما في الصين أن ينضج سياسيًا، وأقنعاه أن ليس للولايات المتّحدة شيء «لتخشاه» من الصين. فكتب بوش بكل صراحة في مذكراته «إنّ الحديث عن كيفية خسارتنا الصين أغضب الصينيين والآن إنّه يغضبني، فأنا أستطيع أن أرى بوضوح أين يكمن الخطأ. في الواقع لم تكن الصين لنا كي نخسرها، وكان هذا جزءًا من المشكلة».[3] وعزم في حال استطاع العودة إلى السلم السياسي على بذل قصارى جهده ليجعل سياسة الجمهوريين الخارجية أكثر واقعيةً وأقل تعصبًا.

وفي المقابل، شعر الرئيس فورد بالأمر نفسه، ولكنه كان مخطئًا في اختيار الرجال الذين سيخدمونه. فبدل أن يبتعد عن الرئيس المخلوع، غفر فورد لنيكسون وأبقى هنري كيسنجر مستشارًا للأمن القومي ووزيرًا للخارجية في الوقت عينه، وذلك على الرغم من تورطه في ووترغيت. («هذا هراء» قال نيكسون لمحاميه.» علم

(١) المصدر السابق، ص. ١٧٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب Peaking Diary لـBush صفحة ٢٩٤؛ كتاب George Bush لـ Parmet، ص. ١٧٦.

[كيسنجر] بنشاطات السمكريين. لا تسمح له أن يقول لك كلامًا فارغًا، فلقد كان متورطًا من رأسه إلى أخمص قدميه»)[1]. ومن ثمّ وجد فورد نفسه عاجزًا فاضطرّ لاستدعاء دونالد رامسفيلد الذي كان من أفضل رجالات نيكسون لاستعادة النظام بصفته رئيس الأركان. ولسوء حظّ جورج بوش فإنّ رامسفيلد كان يكرهه.

ومن ناحية أخرى، وبعد أن تجاوز الفيتناميون الشماليون سايغون، رقّى رامسفيلد نفسه لمنصب وزير الدفاع. وأصبح ديك تشيني يد رامسفيلد اليمنى رئيس الأركان وحثّ الاثنان فورد على طرد سياسي الوسط الجمهوري التقدمي نائب الرئيس روكفلر من انتخابات الرئاسية المقبلة في العام ١٩٧٦. وخشية أن يصبح جورج بوش مجددًا منافسًا لمنصب نائب الرئيس الذي كان يسعى رامسفيلد للحصول عليه، تدبّروا الأمر كي يستدعيه فورد من بكين ويعيّنه في وكالة الاستخبارات المركزية، بعد أن حصلوا على وعد قطعه للكونغرس بعدم الترشح للانتخابات في ١٩٧٦.

وقد حذّره هيوغ ليدكي شريك بوش السابق من أنّ هذا التعيين هو انتحار سياسي. وحتّى بوش نفسه عده حركة «لدفنه في وكالة الاستخبارات المركزية»، التي أسماها «مقبرة الطموحات السياسية»، الأمر الذي دفع زوجته إلى دعوة المزيد من الضيوف إلى بكين لدفع أحزان زوجها بعيدًا.[2] أمّا رامسفيلد فقد سُمِع يقول: «إنّ التعيين سوف يغرق الوغد نهائيًا».[3] وبدا أنّ ألاعيبه وألاعيب تشيني المكيافيلية نجحت في إنهاء مسيرة بوش السياسية.

من هنا، وبعد أن قاد بوش خمسة عشر ألف جاسوس ومدرّبيهم وفقًا «لميزانية سوداء» لطالما أُخفيت عن العامة وعن الكونغرس، تلقّى الآن دورةً مكثّفةً جديدةً في الإستراتيجيات ووضع الخطط الاستبدادية، وهذه المرّة ليس في مجال الدبلوماسية بل في المسائل السرية. ونظرًا إلى الطريقة الفاسدة التي سعى نيكسون لاستغلال

(١) كتاب Abuse of Power لـ Stanley I. Kutler، ص. ٥٥٣.

(٢) كتاب George Bush لـ Parmet، ص. ١٩١.

(٣) كتاب Invasion of the Party Snatchers: How the Holy-Rollers and the Neo-Cons Destroyed the GOP لـ Parmet طبعة Chicago Sourcebooks Trade، سنة ٢٠٠٧، ص. ٩٢.

وكالة الاستخبارات المركزية بها، أصبحت وكالة التجسس الآن على شفير الهاوية. فبالإضافة إلى كون بوش قد استدعي إحدى وخمسين مرّة ليمثل أمام الكونغرس، حيث عقدت اللجنة السياسية جلسات استماعها الشهيرة في ما يتعلّق بالاغتيالات والتنصت غير الشرعي إلى المكالمات الهاتفية وهما أمران تعاقبهما الحكومة، ورث المشكلة التي أجّلها سلفه وليم كولبي، والتي بدأت تبرز من جديد، ألا وهي الضغط من قبل المتطرّفين اليمينيين لإطاحة الانفراج.

وعُرف هذا الأمر في ما بعد بنشوء مجموعة رجالات بوش، وبذلك بمنزلة غولدووتر ٢ وهي مجموعة من الأميركيين المتشدّدين، غير العابئين بالصين الشيوعية ولكنهم معادون للسوفياتية وحاقدون عليها، ويائسون من الهزيمة العسكرية في الفيتنام، التي ترمز إليها الطائرات الأميركية الأخيرة وهي تنتشل الناس بعيدًا عن السفارة الأميركية المهجورة في سايغون.[1] وبعد الهزيمة، وجهوا حقدهم نحو الإمبراطورية التي أفلتت من مأزقها في جنوب شرقي آسيا. وحاول الروس الذين اتُّهموا بتعزيز عسكري متسارع وبالتخطيط لضربة نووية وقائية ضدّ الولايات المتحدة الاختباء الآن وراء الانفراج.

هل سمح بوش، بصفته مدير وكالة الاستخبارات المركزية بما عُرف باسم تقرير هيئة الفريق ب حول الأهداف الإستراتيجية، وهو تقرير أقلية سيئة السمعة تدرك جيدًا توقعات وكالة الاستخبارات المركزية في ما يتعلق بالقدرات الروسية الحالية وجادلت بقوة لإنهاء الانفراج؟ وشمل الفريق تلاميذ الأستاذ اليميني ليو شتراوس (الذي توفي في العام ١٩٧٣) وألبرت ووهلستتر من جامعة شيكاغو اللذين كانا وراء إطلاق لقب «المحافظين الجدد» على نفسيهما وعلى أعضاء الفريق وهم نورمان بودهوريتز وإيرفنغ كريستول وريتشارد بايبس وهاري جافا وبول ولفويتز وأبرام شولسكي. وفي خلال ترؤس البروفسور بايبس للفريق ب، الذي تفاخر ببول نيتشي وبول ولفويتز،

(١) كتاب Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet لـJames Mann طبعة New York: Viking سنة ٢٠٠٤.

اعترض الفريق على وجهة نظر وكالة الاستخبارات المركزية أنّ روسيا بمنزلة مبنى اقتصادي متردّ وأفضل طريقة لمعالجته هي سياسة الاحتواء. وبدلاً من ذلك لم يختلق فريق بايبس اليميني المتطرف برامج عسكرية روسية خيالية من الأسلحة التي تعمل بالحزمة الشعاعية النووية وصولاً إلى الغواصات غير الصوتية فحسب، بل رفض الاعتراف بدور وكالة الاستخبارات المركزية كهيئة تجسس موضوعية لجمع المعلومات. ودان بايبس توقعات وكالة الاستخبارات المركزية الحالية التي أصبح مطّلعًا عليها، ورأى أنها أساءت تقدير «شدّة تهديد الاتحاد السوفياتي الباطني ومداه»، زاعمًا أنها حتى لو كانت صحيحة، فإنّ وكالة الاستخبارات المركزية لم تقدّر حتّى الآن سوى «قدرات العدو»، وليس «أفكاره ودوافعه وتطلّعاته».[١]

في الواقع، كانت جميع مزاعم تقرير الفريق ب تقريبًا مجرّد هراء يميني، خصوصًا التأكيد أنّ الاتحاد السوفياتي يتمتع «بناتج قومي إجمالي كبير وموسع» ويعمل ليصبح قادرًا على توجيه «الضربة الأولى». وصرّحت لاحقًا الدكتورة آن كاهن من الوكالة الدولية للسيطرة على التسلح ونزع السلاح «قد أقول إنّ كلّ ذلك مجرد خيال، إن اطلعتم على أغلبية مزاعم الفريق ب الخاصة بأنظمة الأسلحة وقمتم بتفحّصها واحداً واحداً فستجدون أنّها كلّها خاطئة. كلّها».[٢] وحتّى اللواء دانيال مورفي مساعد بوش مدير وكالة الاستخبارات المركزية، سخر من «وصف الفريق ب للواقع» باعتباره تحديًا «لا أهمية له».[٣] وخاطر بوش مخاطرةً كبيرةً بسماحه للفريق

---

(١) تقرير: "Intelligence Community Experiment in Competitive Analysis: Soviet Strategic Objectives: An Alternative View, Report of Team 'B', December 1976" الأول والتاسع اللذان صدرا في كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٧٦، وقد نشرته وكالة المخابرات المركزية للأرشيف الوطني. راجع كتاب Killing Detente: The Right Attacks the CIA لـ Anne H. Cahn طبعة University Park: Pennsylvania State University Press سنة ١٩٩٨، ص. ١٦٣.

(٢) اقتبس توم هارتمان Thom Hartmann في كتابه Hyping Terror for Fun, Profit - and Power الذي صدر في السابع من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧ من وثائقي The Power of Nightmares لآدم كورتيس Adam Curtis كان عُرض على شاشة بي بي سي BBC بُثّ من العشرين من تشرين الأول/أكتوبر إلى الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤.

(٣) كتاب George Bush لـ Parmet، ص. ٢٠٠.

بالاطلاع على «بيانات»، لم يُسمح لأي فريق آخر خارج وكالة الاستخبارات المركزية بالاطلاع عليها، وقد زاد هذا الخطر حين سرّب الفريق ب «توقّعًا راسخًا عن تعزيز الاتحاد السوفياتي العسكري بغية منع [الرئيس المنتخب] كارتر من تخفيض ميزانية الدفاع»، فاعترض بوش عبر شاشات التلفزيون(١) معلنًا أنّ هذا الأمر «تهمة بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة».

ولكن، هل هذا صحيح؟ لا شك في أنّ اليمينية المتطرفة كانت تتصاعد في أميركا. وصحيح أنّ كارتر فاز بالانتخابات الرئاسية عام ١٩٧٦ ولكن على الرغم من أنّه حقق فوزًا لا بأس به في الانتخابات الطالبية، فقد جمع نسبة مئويةً بسيطةً في التصويت الشعبي، فالنصف الغربي من أميركا، انطلاقًا من غرب المحيط الهادىء وصولًا إلى مينيسوتا وتكساس، كان قد مال إلى الجمهوريين. وعلى الرغم من فشل ريغان في هزم الرئيس فورد المرشح عن الحزب الجمهوري، فقد تعهّد إكمال حملته لرئاسة الجمهورية. فوقع بوش في موقف حرج، ما بين يمين جمهوري برز مجددًا ورئيس ديمقراطي ذي جدول ليبرالي، فتصرّف بحذر فلم يصطفّ لا إلى جانب اليمينيين ولا ضدهم. وبالإضافة إلى ذلك، وفي إيضاح قوي لشخصيته غير السياسية، عرض بوش نفسه لترؤس وكالة الاستخبارات المركزية لسنة أخرى في إدارة كارتر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرئيس كان متديّنًا جدًا وجنوبيًا حقيقيًا وكان يكره نظام الساحل الشرقي. ولحسن حظ بوش من الناحية السياسية، لم يُعجب الرئيس بهذا الأخير للوهلة الأولى وعده منافقًا بدون مبادئ وطرده. في العشرين من كانون الثاني/يناير عام ١٩٧٧ وجد بوش نفسه بدون عمل أو شركة نفط أو منزل حين غادر واشنطن.

أما في تكساس، فلم يجد بوش أي مكتب انتخابي جمهوري يمكن كسبه وتبيّن له أنه على حق حين خسر مساعده ومحاميه جايمس بيكر الثالث منصب الحاكم في تكساس عام ١٩٧٨ وكذلك حين خسر جورج الابن، ابن بوش البكر، الذي

(١) كتاب George Bush: The Unauthorized Biography لـWebster G. Tarpley، الفصل ١٥.

ترشّح لانتخابات الكونغرس في المقاطعة التاسعة عشرة لبعض الوقت وكما ادّعى رامسفيلد، انتهى أمر جورح بوش الأب، المتقلّب في الحزب الجمهوري الذي بنى علاقات مع الجميع ولكن لا يتمتع بأي قناعات ثابتة.

في الواقع، كان الكثيرون قد فقدوا الأمل في تحقيق طموحاتهم السياسية المستقبلية عند هذه المرحلة. ومن جهة ثانية، كان الحزب الجمهوري يحتضر، وتجدر الإشارة إلى أنّ والده خدم هذا الحزب كسيناتور بشكل محافظ من الناحية المالية ووفقًا لعقيدة الحرية الشخصية وبحس أبوي من المسؤولية الاجتماعية. وقد حلّ مكانه تجمع من المسيحيين الإنجيليين والأثرياء وأشخاص خبثاء متمسكون بعقائدهم ضد الشيوعية وكانت هذه المجموعة تطمح إلى الاستيلاء على كل شيء. والغريب بهذه المجموعة أنها تناسب أمة المهاجرين الذين يتمنون تحقيق الحلم الأميركي أي أن يصبحوا فاحشي الثراء أو أقله أكثر غنًى. من هنا، تحرّر الازدهار المبسّط من قيم التعاطف الأوروبية القديمة والمسؤولية الاجتماعية، بقيادة رونالد ريغان الذي يعدّ «أب» الانتفاضة الأميركية ضد الضرائب (في العام ١٩٧٣ وبصفته حاكم كاليفورنيا، دعم استفتاءً تم بالاقتراع السري يضع سقفًا للضريبة على الملكية، باسم الاقتراح الأول). وبدلًا منها، أيّدت هذه المجموعة الولادة الجديدة بالمسيح مبنيةً على الإيمان ومجتمع من الذين ولدوا من جديد بالمسيح والقدح بالحكومة أكان ذلك جيدًا أو سيئًا لاجترائها على إعادة توزيع الثروة الشخصية. وبما أن جورج بوش لم يولد من جديد بالمسيح بل بقي على حاله، شكّل ذلك تحدّيًا بالنسبة إليه.

انطلاقًا من هنا، رفض بوش تأييد تعليم نظرية الخلق في صفوف العلوم. كما أنه عارض الإجهاض حتى في حالات الاغتصاب أو سفاح القربى أو طلب إسقاط قانون تعديل الحق بالمساواة الذي كان يدعو إليه رونالد ريغان في حملته. وبموازاة ذلك، كانت نتائج الاستفتاء تظهر أنّ جيرالد فورد، وهو وسطي، لا يزال أكثر مرشح جمهوري شعبيةً في الأمة، إلا أنّ جورج بوش الذي تجاهل هذا الواقع، وافترض أنّ فورد لن يترشح للمرة الثانية، أعلن ترشيحه عن حزبه لرئاسة الولايات المتحدة في الأول من أيار/مايو عام ١٩٧٩.

عندئذ، سأل صديق بوش لم فعل ذلك وهو لا يملك فرصةً حقيقيةً للفوز ضد ريغان، لم يتراجع. وردّ أنّه إن وقع شيء لريغان البالغ من العمر ثمانية وستين عامًا فسيصبح هو في موقع الريادة. كذلك، شعر بوش أنه أقوى منافس بعد ريغان مقابل منافسين ضعفاء (على غرار نائب الرئيس السابق، السيناتور دول والسيناتور هاورد بيكر وعضو الكونغرس جون أندرسن). بالإضافة إلى ذلك، قد تؤدي مبالغة ريغان في التقليل من شأن الروس إلى اختيار أغلبية الجمهوريين المسجلين لبوش كوسطي. وأخيرًا، ظهرت مجددًا المشكلة الثانية وهي منصب نائب الرئيس. وعلى الرغم من أنها لم تحدث قط على أرض الواقع، يمكن للمرشح الفائز أن يختار نائبه في المؤتمر القومي للحزب الجمهوري في محاولة لتوحيد الحزب بعد حملة التسميات الشاقة.

وبالنظر إلى أنّ جورج بوش كان لا يزال تقريبًا غير معروف بالنسبة إلى الشعب، لكنه أبلى بلاءً حسنًا بهزمه ريغان في أول اجتماع للمرشحين في أوهايو في شباط/ فبراير عام ١٩٨٠. وبفضل مدير حملته جايمس بيكر الثالث، تابع بوش مسيرته وفاز بعدّة ولايات مهمة. ولكنه أخطأ عندما نعت اقتصاد ريغان بـ«الشعوذة». وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ خبيره الإستراتيجي قال له إن هاجمت أو سخرت من ريغان «فسيكرهونك، لا يمكنك أن تفعل ذلك.» لأنّ ريغان محبوب جدًا بين مؤيدي الحزب الجمهوري. أما النصيحة التي أعطيت إلى بوش فكانت أن يهاجم المرشحين الآخرين، «حينئذ ستفوز وإن خسر ريغان وستحقق مبتغاك.»(١)

وعلى الرغم من أن بوش تخلّى عن خبيره الإستراتيجي، نفّذ ما نصحه به وهو الانسحاب بحذر من المنافسة قبل أن ينعقد المؤتمر القومي خشية أن يفسد سعي ريغان إلى إطاحة الرئيس كارتر. وعن جدارة، فاز ريغان بترشيحات الحزب الجمهوري واتصل ببوش شخصيًا ليعرض عليه منصب نائب الرئيس، إن كان يرغب في اعتماد بيان ريغان اليميني. وهو كذلك.

رفع الثنائي موجة الحس الوطني والإنجيلي إلى أعلى مستوى من الجشع

(١) هذا ما قاله دايفد كين لجورج بوش في كتاب George Bush، ص.٢٢٠.

واللامبالاة بالفقراء، وحققا معاً الفوز في انتخابات العام ١٩٨٠ و١٩٨٤. والجدير ذكره أنهما في الانتخابات الأخيرة حققا انتصارًا ساحقًا في تاريخ الانتخابات حيث حصل ريغان على تسع وأربعين ولايةً مقابل ولاية واحدة لمونديل. قبل أن تنطفئ جمرة نجاحهما، بدأ بوش العمل ليخلف ريغان. وكما قالت بربرا بوش في هذا الإطار، في الواحد والعشرين من شباط/فبراير عام ١٩٨٥ «ها قد بدأت حملة العام ١٩٨٨».[١]

وبحلول ربيع ذلك العام كان نائب الرئيس قد دعا إلى أول اجتماع لمناقشة إستراتيجية حملته الرسمية لانتخابات عام ١٩٨٨ وعيّن لي أتواتر وهو عبقري قاس في مجال الإعلان ليكون مديره السياسي، كما عيّن ابن بوش البكر جورج ليكون المنفّذ. وحاول بوش جاهدًا إثارة إعجاب أهم شخصيات الإعلام المسيحي البروتستانتي ومنهم جيري فالويل وجيم وتامي فاي بيكر وجيمي سواغارت وبات روبرتسن، عبر إعداد نفسه لمواجهة أو حتى قبول أي تحدٍ من قبل يمينيي حزبه. وفسّره معاون بوش الجديد، رون كوفمان أنّ بوش تخلّص من كل فريقه القديم «لأنه عرف أن المهمة التي هو بصددها مختلفة عن غيرها، وفي الواقع إنّ جورج بوش أكثر ذكاءً وقساوةً مما يظنّه الناس، فهو يميل أكثر إلى المكيافيلية»[٢]

فأخذ الطموح الكبير المقترن بالانتهازية يقرّب بوش أكثر فأكثر من التشدد. حتى أنه كتب في يومياته حين اقترب موعد الانتخابات «عليّ أن أنفّذ هذه المهمة» عالمًا أنه خرق القانون في ما يتعلّق بقضية إيران كونترا ليُبعد نفسه وريغان عن أي اتهام محتمل.[٣] وفي موازاة ذلك، ظل يخدم الرئيس المتعثّر، بإخلاص وبدون انتقاد، في الأشهر المتبقية من رئاسته. وفي الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر أعلن رسميًا ترشّحه لمنصب الرئاسة عن الحزب الجمهوري.

(١) كتاب A Memoir لـBarbara Bush، ص. ١٩٧.
(٢) كتاب George Bush لـParmet، ص. ٣٠١.
(٣) بداية المذكرات بين الثامن والعشرين والثلاثين من أيار/مايو ١٩٨٨ في كتاب George Bush لـParmet، ص. ٣٣٣.

وبعد موافقة الرئيس ريغان المترددة والدعم الذي كان يلقاه من منظمة الأغلبية الأخلاقية بقيادة فالويل تمكن بوش من الفوز في الانتخابات الأولية للحزب الجمهوري في ربيع عام ١٩٨٨. وعلى الرغم من ذلك، جعلت جلسات الاستماع في قضية إيران كونترا في الكونغرس والركود الاقتصادي هدفه بالفوز مشكوكاً فيه. في الواقع، كان الديمقراطيون قد تقدّموا بفرق سبع عشرة نقطة، وبقي الأمر على حاله حتى صيف ١٩٨٨ حين عُقدت مؤتمرات الحزب.

من ناحية أخرى، لم يكن الحاكم مايك دوككيس وهو مرشّح ديمقراطي وابن مهاجر يوناني، حكم ولاية ماساشوستس المعاصرة مدة عهدين يملك أدنى فكرة عن المصاعب التي كان سيواجهها. فأعلن نائب الرئيس المتقلّب مؤهلاته الجديدة الخاصة بالجناح اليميني ومنها أنه ضد الإجهاض والوكالات التنظيمية كما أنه يرفض العجز المرتفع و الضرائب («سيدفعني الكونغرس لرفع الضرائب ولكنني سأرفض ذلك... وسأقول لهم بوضوح: لا ضرائب جديدة») بالإضافة إلى جعل تعهد الولاء إلزاميًا في المدارس. في هذه الأثناء، راح فريق بوش المؤلف من السفّاحين تحت قيادة لي أتواتر يهاجم دوككيس بصفته «ليبرالياً» خارجاً على السيطرة، ويسخر من سجلّه البيئي لفشله في تنظيف مرفأ بوسطن. ونشر الفريق إعلانات عنصرية خاصة بويلي هورتن، فاستعملوا صورة قاتل أسود من ماساشوستس قام بعملية سطو مسلّح واغتصاب حين كان في إجازة بعد أربعة عشر عامًا من سجنه.(١)

(١) بدأت الإعلانات لحملة جورج بوش في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ وبقي مناصرو بوش Americans for Bush يبثونها لمدة شهر. وكانت هذه الإعلانات تروي قصة قاتل من العرق الأسود ويلي هورتن Willie Horton كان قد مُنح إذنًا بالخروج من السجن كجزء من برنامج حكومي، وفي خلال هذه المأذونية ارتكب في ميريلاند جريمة الضرب والاغتصاب. وكان يتبع هذه القصة إعلان لحملة بوش عُرف بـ The Revolving Door. يُظهر هذا الإعلان سجناء بالزي الموحّد يدخلون ويخرجون من باب متحرّك مع سماع صوت معلن يقول إنّ الحاكم دوككيس رفض عقوبة الإعدام ووافق على منح السجناء إذنًا بالخروج من السجن حتى هؤلاء الذين ارتكبوا جرائم قتل من الدرجة الأولى على غرار Willie Horton. إن أخذ الإعلان على حدة، لم يكن بالإمكان اتهام بوش بالتحريض على العنصرية إلا أنّ نتيجة هذه الإعلانات كانت إطاحة حملة دوككيس.

والجدير ذكره أنّ هذا التصرف نبع من شخصية بوش الجديدة بحيث سمح لأتواتر وشركائه باستهداف نقاط قوة دوككيس بشكل مباشر وهي سجلّه كحاكم عصري وفعّال لماساشوستس. وبعد القيام بتسويق تجريبي لإعلانات ويلي هورتن، قال أتواتر للصحافيين متفاخرًا: «أدركت حينئذ أن لا حدود لسلبيات دوككيس».[1] كانت تلك طريقة «لإبعاد ذلك السافل» والفسح في المجال لمرشحه ويلي هورتن لمنصب نائب الرئيس.[2]

لطالما كان للسياسة الأميركية منحًى جامح ظهر في الانتخابات التي كانت ملأى بغش حقيقي. لكن أتواتر العبقري الشرير تمكن من رؤية كيف يمكن التلاعب بسخرية بوسائل الإعلام المعاصرة لتشويه سمعة الخصوم تمامًا على غرار النازيين في العشرينيات والثلاثينيات. وفي هذا الإطار، اعترف مستشار بوش الإعلامي، روجر أيلز، لأحد الصحافيين قائلًا: «يكره بوش ذلك ولكننا سنتعرّض للقتل ما لم نسلك هذا الطريق».[3] ويُقدّر عدد الأميركيين الذين شاهدوا إعلان ويلي هورتن بثمانين مليون أميركي لأنه عُرض أكثر من ستمئة مرة.

وقد شكل هذا الإعلان اتفاق بوش مع الشيطان، الذي كرهه جايمس بيكر الثالث صديقه المحترم والوفي ومدير حملته.[4] وفي لحظة سوء تقدير غير اعتيادية، تخطى بوش بيكر واختار دان كوايل نائب رئيس له وهو سيناتور إنديانا وشاب قليل الثقافة لكنه جذّاب في الصور ومحافظ، وسيروق الإنجيليين ومُعارضي الإجهاض من حيث توفير قاعدة شعبية لكنه لم يكن مؤهّلا ليشارك في الرئاسة»، كما يفعل نائب الرئيس.

ولكن حين كشفت الصحافة تهرّب كوايل من الخدمة العسكرية وقلّة مؤهلاته، اعترف بوش في دفتر يومياته «كان ذلك قراري وقد أفسدت الأمر لكنني لن أعترف

(١) كتاب George Bush لـParmet، ص.٣٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٤١.
(٤) المصدر السابق، ص. ٣٥٢.

بذلك».[1] وبدلًا من ذلك أباح لأتواتر والعاملين في الحملة القومية الجمهورية وممّوليها العمل بجهد أكبر لتدمير دوككيس. ولفتت صحيفة نيويورك تايمز أنّ رونالد ريغان كان أقله يطلق حملاته بغية كسب ثقة الشعب الأميركي، في حين كان بوش يهدف إلى تدميره خصمه.[2]

صُدم دوككيس ووجد نفسه عاجزًا عن التغلّب على هجوم أتواتر الشخصي الذي طال شخصيته وليبراليته وسجلَه البيئي ووطنيّته وفوق كل شيء «شعوره بالذنب» تجاه ويلي هورتن على الرغم من أن دوككيس لم يكن مسؤولًا عن برنامج إعادة التأهيل بعد الإجازة في ماساشوستس الذي عرضه سلفه والذي أنهاه دوككيس في ربيع العام ١٩٨٨ بسبب فشله. واعترف أتواتر أن «السؤال الوحيد هو هل نصف ويلي هورتن مع سكين في يده أم لا؟»[3] وبما أن دوككيس لم يتأخر عن ردّ الهجوم، قلق أتواتر من أن يكون قد بالغ في تكتيكه «إذا صمد هذا المغفل أكثر من ثماني وأربعين ساعة، فلست متيقناً أننا سننجح.»[4] ولكن «المغفَل» فشل في صد هجوم أتواتر. وهكذا فاز نائب الرئيس جورج بوش الأب برئاسة الجمهورية في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٨ بنسبة جيدة أي أربعمئة وستة وعشرين صوتًا انتخابيًا مقابل مئة واثني عشر صوتًا وأصبح الرئيس الواحد والأربعين في الرابعة والستين من العمر.

الجزء الثاني: الرئاسة

كان بوش على يقين أنّ والد السيناتور برسكوت بوش سيتقلّب بقبره إن علم

(١) المصدر السابق، ص. ٣٤٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٥١.
(٣) مقال The Republicans لـRichard Stengel نُشر في صحيفة Times في ٢٢آب/أغسطس سنة ١٩٨٨
(٤) كتاب George Bush لـ Parmet ص. ٣٥٥.

كيف يستغلّ ابنه (وحفيده من بعده) لي أتواتر. لذلك بدأ الرئيس الجديد خطاب القسم في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ دعاء إلى الله. فبدأ بصلاة التوبة «لقد أعطيتنا السلطة، لا لنحقق أهدافنا الشخصية بل لنخدم الشعب، اجعلنا يا ربّ لا ننسى هذا، آمين». من ثمّ أعلن بوش أنه سيبذل قصارى جهده للاحتفال «بالنجاحات الصامتة التي حقّقها أصحاب القلوب الطيبة والأرواح النقية، وليس بالنجاحات الضخمة التي يحققها الأثرياء والبارزون فقط». فقد كان هدفه «أن يعطي طابعًا أكثر طيبة للأمة وأكثر لطافةً للعالم. أصدقائي الأعزاء، أمامنا الكثير من العمل» بدءًا بمساعدة المشرّدين وصولاً إلى مساعدة الأمهات المراهقات ومدمني المخدّرات «عبر توحيد جهودنا للخير العام». وختم قائلاً: «يبدأ اليوم فصل جديد عن قصة حكومية قصيرة، قصة وحدة وتنوّع وعطاء. قصة نكتبها معًا».

لا شكّ في أنّ أتواتر لم يصغ الخطاب، وقد تم تعيينه رئيس اللجنة القومية الجمهورية. وفي هذه اللجنة، بدأ أتواتر حملةً جديدةً من تشويه سمعة الأشخاص، بمساعدة نيوت غرينغريتش عضو الكونغرس الشاب اليميني المثير للمشاكل. فاستهدف رئيس الكونغرس الديمقراطي الجديد توم فولي، فلمحوا إلى أنه مثلي جنسيًا. في المقابل، وجد بوش أنّ هجوم أتواتر هذا «مثير للاشمئزاز»، مع ذلك، سمح له بالبقاء في منصبه عرفانًا منه بدوره في الفوز بالانتخابات، إلا أنه أجبره على طرد مدير اتصالات اللجنة القومية الجمهورية مارك غودين. ولكن، عندما أصبح غينغريتش قائد الأقلية الجمهورية في مجلس النواب، ما عاد بيد الرئيس بوش حيلة، فقد أصبح باب الساحة السياسية مفتوحًا على مصراعيه للخلافات على نطاق يؤدّي إلى الانقسام داخل الحزب. وبدا أن تشخيص إصابة أتواتر بسرطان المخ جعل سياسة الحكومة تتنامى، ما أدى إلى فشل رؤية بوش التي أعلنها في خطاب القسم أي أميركا

«أمة حرة وفخورة، تتغنى بالعيش الكريم والمدنية».[1]

فرجا بوش التعامل بطريقة أكثر حضاريةً على صعيد السياسة. إلا أنه، ومن أجل ضمان انتخابه كان قد اعتمد بيانات سياسية لم يكن يؤمن بها وقطع وعودًا ما كان بإمكانه الإيفاء بها. فقد استشاط معارضو الإجهاض غضبًا عندما لم يعيّن محافظاً متشدداً في المحكمة العليا لإطاحة قرار قضية رو مقابل وايد فيما جنّ جنون المحافظين المتزمتين عندما وافق الرئيس على مطلب الكونغرس التخلي عن وعده «بعدم إقرار المزيد من الضرائب» بغية تخفيض العجز القومي المتصاعد. ولسوء حظ المحافظين من اليمين الجديد، تبيّن أن بوش لا يختلف عن الحاكم دوككيس خصمه الذي دمّره، أي تبيّن أنه وسطي. ولكن الفرق أنّ بوش، على خلاف دوككيس، لم يكن يملك أي نظرة عما يريد تحقيقه في البيت الأبيض.

ولأن بوش لم يفز بمنصب انتخابي منذ عشرين عامًا، وجد نفسه واقعاً في حيرة من أمره، ووصف أحد علماء السياسة الموقف قائلاً: «شكل حر من الرئاسة» لم يكن يؤثر في الكونغرس ذي الأغلبية الديمقراطية أو حتى في اليمين الجمهوري. فلم يبقَ أمام الرئيس سوى الشؤون الخارجية ليثبت نفسه. فقام الإمبراطور الأميركي في العام ١٩٨٩، ومطلع العام ١٩٩٠ بالعمل مع ميخائيل غورباتشوف زعيم الاتحاد السوفياتي الشاب المحبوب.

في الواقع، كان غورباتشوف قد سحر جيل الشباب في أوروبا والشرق الأدنى، فمع انتهاء الثورة الثقافية التي أطلقها ماو والتي شكلت كابوسًا للصين، سافر غورباتشوف

(١) كانت سياسة أنواتر السلبية Negative Politics مُعدية وترسخت في تلك الحقبة. واستذكر كارل روف Karl Rove "لقد انطلقنا معًا في االوقت عينه" في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين وذلك عندما تبوّأ منصب المحلل الإستراتيجي الأساسي لابن بوش البكر في العام ١٩٩٩ وقد شعر حينئذ بالفخر لكونه ملك النميمة بلا منازع في أميركا. وقال Rove عن Atwater : "لقد برز أسرع مني"، في حين قال رئيس الحزب الجمهوري في تكساس توم بوكين Tom Pauken عن Rove: "إنّ كارل يتمتع بالقدرة ويرغب في أن يكون شبيهًا بـ Lee Atwater". في الواقع كان Rove قد خضع للتحقيق في العام ١٩٧٣ من قبل اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري لقيامه بخدع قذرة ولكنّ ذلك لم يردعه. كل هذا جاء في مقال لـ Dan Balz نُشر في صحيفة Washington Post في الثالث والعشرين من تموز/يوليو ١٩٩١ تحت عنوان: Team Bush: The Iron Triangle.

إلى بيجينغ في أيار/مايو ١٩٨٩ للاحتفال «بتطبيع» العلاقات بين الإمبراطوريتين المترنّحتين، وذلك بعد مرور بضعة أيام على احتلال الطلاب ساحة تيانانمن. وفي طريق غورباتشوف للقاء دينغ شياو بينغ الزعيم الصيني البالغ من العمر الثمانية والأربعين، مرّ بحشد من الطلاب ينادون باسمه وبكلمة «السلطة السياسية»، فتساءل غورباتشوف «من المسؤول هنا؟»[1] ولدى عودته إلى موسكو وجد الإجابة عن هذا السؤال. ففي مجزرة لا ترحم نُفذت من أجل إعادة إحلال «النظام» الشيوعي في العاصمة ذبُح ثلاثة آلاف طالب وجُرح عشرة آلاف.

من جهة أخرى، كان الرئيس بوش يشاهد المجزرة من بعيد من دون أن ينبس ببنت شفة، متسائلاً ما إذا كانت أحداث ساحة تيانانمن تشكل تمهيدًا لسقوط دول شيوعية أخرى في أوروبا الشرقية، حيث أثارت خطابات غورباتشوف حماسة الطلاب والاضطرابات كما جرى في الصين. فقد كان قد بدأ يتضح أنّ سقوط الآلهة سيُقابل بمعارضة من اليمينيين المتطرّفين، وقد تكون المعارضة دموية، وذلك على الرغم من أنّ الحرب الباردة قد بدأت تتراجع في ظل سياسة الانفتاح.

في المقابل، لم يكن الرئيس بوش بصفته قائد أقوى إمبراطورية في العالم يتمتع بالقدرة الخطابية التي يتمتع بها غورباتشوف، بيد أنّه بدا وكأنه قد وُلد ليؤدي دور السياسي المخضرم. فقد تبيّن أن ماضيه السياسي يشكل نقطةً إيجابيةً لمصلحته، عازلاً إياه عن طاعة الحزب الجمهوري، ما سمح له برؤية مصلحة أميركا على الصعيد العالمي وليس الداخلي، لكونه كان ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة والصين الشيوعية. وبالنظر إلى أنه كان مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وأنه قد تمّ تعيينه في عدة مناصب سياسية ولم يتم انتخابه في الكثير من المناصب، شكل نموذجًا للزعيم الروسي أكثر من ميخائيل غورباتشوف نفسه. من هنا، تقارب الرجلان بحذر، خصوصًا وأنهما قد التقيا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨ في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك، بعد تداعيات أحداث ساحة تيانانمن، فأصبح مصير العالم بين يديهما.

(١) كتاب The Presidency of George Bush لـJohn Robert Greene، ص. ٩٣.

في هذا الصدد، كان الرئيس قلقًا بشأن إشعال انقلاب عسكري قد يؤدّي إلى تجميد العلاقات أو حتى استعادة الحرب الباردة، من هنا تغاضى عن نصيحة وزير دفاعه الجديد ديك تشيني التي تقضي باستغلال ضعف الموقف الروسي لتأكيد سيطرة الولايات المتحدة العالمية وإفشال غورباتشوف.[1] وبموازاة ذلك، تجاهل ناشطو حقوق الانسان «المتزمتون» الذين كانوا يطالبون بدعم أميركي أكبر للحركات الديمقراطية التي نشأت ليس في الصين فقط بل في أوروبا الشرقية أيضاً، لأنّ هذا من شأنه أن يعطي حجةً للمتشدّدين في روسيا. وفوق كل ذلك، تحدى مناشدة مارغريت ثاتشر، وتكلّم علنًا على تخفيض عدد الأسلحة في أوروبا الغربية وعلى قبوله إعادة توحيد ألمانيا في نهاية المطاف. ولهذا الهدف، سافر إلى أمستردام وبون وباريس ولندن ومن ثم في العام ١٩٨٩ إلى وارسو وبودابست إلى حيث كان يبدو ستارًا حديديًا لا يمكن اختراقه. وهناك، رأى الرئيس بأم عينيه طموحات الشعب المكبوت الطامح إلى الحرية والتحرر من القيود التي تفرضها الشيوعية على حياته اليومية. وكان الدليل على ذلك تجمّع ما يزيد على نصف مليون شخص في ساحة كوسوت لتحيته، على غرار الاحتفال بالأميركيين في إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. هكذا، ألقى بوش بكل سرور خطابه وتنعّم بوهج أن يكون أميركيًا يدافع عن الخير لا عن الصواريخ الموجّهة.

وبالتالي، اعترف بوش بأن الأوضاع تتغيّر أسرع مما توقّع الأميركيون ذوو الروح المحبّذ للحرب الذين يدعمونهم. ففي حين قال علماء السياسة الروسية في وكالة الاستخبارات المركزية لكولن باول رئيس الأركان المشتركة الجديد في العام ١٩٨٨ إنّ غورباتشوف لن يصمد وستتم إزالته، «طرد غورباتشوف حوالى اثني عشر جنرالاً وشخصًا متشددًا» وتحدى كل التوقعات. وفي السياق عينه، أشار باول «على الرغم من الخبرة الواسعة» التي يتحلى بها علماء سياسة الروس «ما عاد بإمكانهم توقع الأحداث كما لو كانوا مجرّد أشخاص عاديين».[2]

(١) كتاب George H. W. Bush لـNaftali، ص.٧٧.

(٢) كتاب An American Journey لـColin Powell، ص.٣٧٦.

وبغض النظر عما يطالب به الصقور، قرر الرئيس بوش بذل قصارى جهده ليبقى غورباتشوف في السلطة، لذلك عرض تخفيض الكثير من قوة أميركا العسكرية من حيث العتاد والعديد وتقديم التنازلات في هذا المجال. وثانيًا، لن يتحدى القدر عبر التهديد بتدخل أميركا في دول أوروبا الشرقية، في حين بدأ العدّ العكسي لتلاشي سيطرة الاتحاد السوفياتي على دول الاتحاد. وثالثًا، سيحاول إقناع غورباتشوف، من خلال لقاءات أحادية بينهما، بإيقاف المنطاد النووي السوفياتي ذي المحرك. ولتحقيق كل هذه الغايات، تناول الرئيس ورقة فيما كان على متن الطائرة الرئاسية في طريق العودة إلى الولايات المتحدة واقترح لقاءً سريًا مع غورباتشوف على متن سفينة حربية راسية قرب جزيرة مالطا، على غرار لقاء روزفلت وتشرشل عندما صاغا ميثاق الأطلسي في آب/أغسطس ١٩٤١ في نيوفاوندلاند، «من دون أن يكون هناك آلاف المساعدين يحومون حولنا».

ووافق غورباتشوف من ناحيته على عقد هذه القمة، التي كان من المقرر أن تجري في بداية شهر كانون الأول/ديسبمر ١٩٨٩. ولكن حتى مع قرب هذا التاريخ، سارت الأحداث بسرعة فائقة. ففي السادس عشر من تشرين الأوّل/أكتوبر، سار ستة عشر ألف معارض للحكومة في لبسيا، إلا أنّ غورباتشوف أصدر أمرًا بعدم إعطاء الجنود الروس الثلاثمئة وثمانين ألفاً الذين يحتلّون ألمانيا الشرقية الإذن للخروج من ثكناتهم العسكرية لدعم أعمال الحكومة القمعية. وبعد يومين، تمّ عزل إيريك هونيكر حاكم ألمانيا الشرقية المستبد، بإشارة من غورباتشوف. وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، أعلنت هنغاريا كذلك أنها جمهورية مستقلّة وستُجري انتخابات في ربيع العام ١٩٩٠. وجاء هذا الإعلان بعد أن حصلت هنغاريا على وعد من غورباتشوف بأن الجنود السوفيات لن يجتاحوا البلد أو يتدخلوا في عملية بناء الديمقراطية، وبعد أن بدأت تسمح للسائحين من ألمانيا الشرقية بالعبور إلى النمسا. وبعد يومين على هذه الأحداث، أي في السادس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، نقلت صحيفة نيويورك تايمز عن الرئيس ميخائيل غورباتشوف في ذلك اليوم

«إعلانه أن الاتحاد السوفياتي لا يملك أي حق معنوي أو سياسي يخوّله التدخل في شؤون جيرانه في أوروبا الشرقية».[1]

في الحقيقة، شكّل هذا البيان إعلانًا استثنائيًا لكونه صادراً عن إمبراطور سوفياتي. وبذلك أعطى الضوء الأخضر للمحتجين في الأمم التي يحتلّها الاتحاد في أوروبا الشرقية مع أنه لم يذكر هذه الملاحظة في مذكراته. في هذا السياق، عد شهر تشرين الثاني/نوفمبر أعظم شهر في تاريخ أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية لأنه شهد على تحقيق المستحيل. ففي التاسع من هذا الشهر عام ١٩٨٩، توجه حشد من الألمان نحو جدار برلين الذي شُيّد في العام ١٩٦٢ لمنع تدفق اللاجئين إلى برلين الغربية وبالتالي إلى ألمانيا الغربية، بعد أن سمعوا أخباراً بعد سقوط حكومة هونيكر تقول بأن الألمان في ألمانيا الشرقية أحرار في زيارة الغرب. من هنا استجمعوا قواهم وتحدوا الحرس على أن يطلقوا النار عليهم فيما هم يحملون المطارق محاولين تكسير الحائط الإسمنتي الرمزي.[2]

أما في البيت الأبيض، فقد كان الرئيس بوش يشاهد الحدث على التلفاز مبهوراً بنتيجة سياسة «عدم التدخل» التي اعتمدها، واثقًا بأن غورباتشوف سيحقق النجاح. وهكذا أصبحت عقيدة بريجينيف (أي حق السوفيات في التدخل) من الماضي الذي لا عودة إليه بالتأكيد. وفي اليوم التالي، طرد المكتب السياسي في بلغاريا الزعيم تودور جيفكوف. وفي الرابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر استقال كل المكتب السياسي في تشيكوسلوفاكيا. وهكذا أصبح واضحًا أنّ أحدًا ما عاد يؤمن بالنظام الشيوعي أقله في أوروبا الوسطى والشرقية باستثناء الشيوخ وذوي الامتيازات والموظفين الحكوميين الذين لا يهمهم سوى مصلحتهم.

وهكذا تم نقل كلمات غورباتشوف وخصوصًا رفضه لاتخاذ السلطات الشيوعية

(١) مقال Gorbachev, in Finland, Disavows Any Right of Regional Intervention لـBill Keller نُشر في New York Times في السادس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩.

(٢) كتاب At the Highest Levels: The Inside Story of the End of the Cold War لـMichael Beschloss و Strobe Talbott، ص.١٣٤.

أو دعم إجراءات عقابية بشكل سريع في كل أنحاء أوروبا. على صعيد آخر، أخطأ كل من سخر من بوش لأنه لم يظهر عاطفةً تجاه سقوط حائط برلين. لأن الحقيقة هي أنه بالكاد صدّق عينيه وأراد أن يرقص فرحًا. بيد أنه كان عازمًا على عدم القيام بأي خطوة أو بأي تصريح من شأنهما أن يعرضا موقع غورباتشوف في الكرملين إلى الخطر، فتمسّك بالمقولة المأثورة «لن أرقص فرحًا أمام أعين الناس».[1] فكتب لغورباتشوف ليطمئنه إلى الموقف الأميركي، فقال له إنّه بقيادته تريد الولايات المتحدة مرحلةً انتقالية تكون «هادئة ومسالمة» نحو الديمقراطية التامة في أوروبا.[2]

وفي إطار آخر، التقى أعظم إمبراطوريين في العالم على متن السفن الحربية الراسية في مرفأ فاليتا في الثاني من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩، وسط أمواج عاتية وصل ارتفاعها إلى ست عشرة قدماً في خضمّ عاصفة متوسطية هوجاء. ومع ذلك، خرج الرجلان من قمة مالطا راضيين. فهما قد أرسيا أسس معاهدة تخفيض الأسلحة الهجومية الإستراتيجية. وحصل الرئيس بوش على وعد من روسيا بعدم التدخل في شؤون دول البلطيق الصغيرة فيما تعلن استقلالها. في المقابل، حصل غورباتشوف على وعد شفهي بأن روسيا ستحظى باتفاق للتجارة الحرّة مع أميركا وستحظى بموقع مراقب في خلال محادثات الاتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة (الغات). كما أنه تلقى وعودًا بأن تساعد الولايات المتحدة روسيا على إنشاء بورصتها الخاصة وصوغ القوانين بشأن الاستثمارات الخاصة وقوانين الملكية.

ولكن الأهمّ من كل ذلك، هو أن قمة مالطا أنهت إلى الأبد الخوف الروسي من تعرض روسيا إلى الاعتداء من الدول الغربية، أكان على يد القوات الأميركية أم أي دولة أوروبية أخرى بما في ذلك ألمانيا، وذلك بالنظر إلى تاريخ روسيا بحيث تعرّضت إلى الاجتياح أولاً على يد جيوش نابليون الاستبدادية ومن ثمّ رايخ قيصر الثاني ثم رايخ هتلر الثالث. وهكذا، وبعد أربعين عامًا من الحرب الباردة، اعترف غورباتشوف

(١) المصدر السابق، ص. ١٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص. ١٣٧.

أنه، وفيما يسعى الاتحاد السوفياتي إلى التأقلم مع نظام اقتصادي وسياسي جديد، لا بدّ من وجود قوات حفظ سلام أميركية من أجل المحافظة على استقرار أوروبا، خصوصًا وإن كان سيتم سحب القوات الروسية من دول الاتحاد. أي بتعبير آخر، ستصبح الإمبراطورية الأميركية، وليس الروسية، حامية السلام في أوروبا المُحرّرة، مع ضمان ألا تهدد ألمانيا الموحّدة أبدًا روسيا من جديد.

وفي هذا الإطار، كتب مراقبو الكرملين «يبدو أنّ القمة أوحت لغورباتشوف أنّ بوش تخلّص من عقدة اليمين الأميركي».[1] ولكن، تبقى مسألة ما إذا كان غورباتشوف محقًا بهذا أم لا قابلة للنقاش. فحتى في خلال لقائهما في مرفأ فاليتا أمر بوش الطائرات بالتحليق فوق الفيليبين لإبراز إرادة أميركا التدخل في حال نجحت محاولة الانقلاب على حكومة الرئيسة كوري أكينو المنتخبة. أدى هذا الحدث إلى إشارة سخرية فريق عمل غورباتشوف من الأميركيين لاعتناقهم عقيدة بريجينيف، بعد أن تخلى عنها السوفيات. والأسوأ من ذلك، هو أنّ القوات الأميركية اجتاحت باناما ردًا على إعلان الحرب الصادر عن المجلس التشريعي البانامي.

في هذا السياق، عدت عملية جست كوز أكبر هجوم أميركي عسكري منذ الحرب العالمية الثانية، كما أنه دخل التاريخ، لأنّ هذه المرة لم يكن هناك سبب كالشيوعية أو الاشتراكية، بل كان الاجتياح مجرد خطوة استبدادية تهدف إلى إزاحة زعيم في بلد أجنبي عد معادياً للمصالح الأميركية. ولكن نورييغا الذي عيّن نفسه «رئيس السلطة التنفيذية» لجمهورية باناما، راهن على السنوات الطويلة من الخدمات التي كان يؤديها لوكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الدفاع الأميركية ليظن أنه بمنأى عن التدخل الأميركي. في الواقع، هو كان قد أمر بقتل كل من يواجهه أو ينافسه، واغتال أحد أبرز قادة المعارضة وألغى انتخابات ربيع ١٩٨٩ وأحبط محاولتي انقلاب وسيطر على تجارة المخدّرات بصفته عميلاً لعصابة ميديلين. ورضخ المجلس التشريعي البانامي للضغط الذي مارسه نورييغا، فاعترض على التمرينات العسكرية الأميركية

(١) المصدر السابق، ص. ١٦٥.

التي كانت تجري في منطقة القناة في الخامس عشر من كانون الأول/أكتوبر ١٩٨٩. فأعلن المجلس «حالة الحرب» مع أميركا. وهذا ما حصلوا عليه.

هكذا، وفي العشرين من كانون الأول/أكتوبر ١٩٨٩ تم إرسال سبعة وخمسين ألف جندي أميركي إلى المعركة في منتصف الليل، تدعمهم ثلاثمئة طائرة حربية. صحيح أنّ قوات الدفاع البانامية كانت قادرة على احتواء ستة وأربعين ألف جندي، إلا أنّ النتيجة كانت محتّمة (إن فكرنا في الأمر الآن). في حين خسرت أميركا أربعة وعشرين ضحية فقط. استطاعت أن تضع غييرمو إندارا، الذي من المفترض أنه فاز في انتخابات الربيع التي أُلغيت، في سدة الرئاسة. أما نورييغا، فقد التجأ إلى سفارة الفاتيكان في مدينة باناما، لكن في نهاية المطاف تم إلقاء القبض عليه في الثالث من كانون الثاني/يناير ١٩٩٠ بعد أن انزعج من الموسيقى الأميركية الصاخبة، وقيد ليُحاكم في أميركا بتهمة الاتجار بالمخدّرات.

أما الأمم المتحدة فقد دانت الاجتياح من خلال التصويت الحر، وعدته نابعًا من الاستبداد، وكان هذا أيضًا رأي معظم دول العالم الحر خصوصًا بالنظر إلى أنه أسفر عن مقتل آلاف الضحايا من المدنيين. لكن، وفي المقابل، كان يصعب الإشفاق على الجنرال نورييغا، كما لم يكن بالإمكان القول إنّ البلد لم يكن في حال أفضل من دونه (وكانت هذه هي الحال على أرض الواقع). لكن، وفي غضون أسابيع، تم سحب الجنود الأميركيين نحو منطقة القناة أو الساحل الأميركي. وهكذا، اعتبر الاجتياح في التاريخ نموذجًا حديثًا عن التدخل الأميركي الحديث، ما خلق سابقةً مقلقةً. فواقع الحال أنّ أحدًا لم يحزن على نورييغا. ولكن ماذا لو استلهم من هذا الاجتياح رجال أميركيون متزمّتون منقادون وراء عقائد متشددة ومحبون للحرب على غرار باري غولدواتر؟ وماذا لو لم تكن عملية الاجتياح سريعة أو فعالة وأسفرت عن عدد أكبر من الضحايا المدنيين؟ وماذا لو تورّطت الولايات المتحدة في حرب طويلة وتقليدية؟ أو ماذا لو على الرغم من النجاح، واجهت ثورةً ناجمة عن الاجتياح، قد تُثقل كاهل الولايات المتحدة وتجرّها إلى غزو يتطلّب إنفاقًا هائلاً من حيث العتاد والعديد للصمود؟ وعندئذ متى ستتمكن من سحب جنودها؟

وبعد ستة أسابيع، أثيرت هذه الأسئلة كلّها بشكل جدي، عندما سيّر الديكتاتور صدام حسين قواته بين الحدود العراقية والكويتية.[1]

وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن صدّام حسين اجتاح إيران في العام ١٩٨٠، مُلزمًا الجيش العراقي الخوض في حرب لا طائل فيها دامت ثماني سنوات، وانتهت بمصرع حوالى مليون إيراني وعراقي. وفي هذه الأثناء، بدا أنّ حسين يريد أن يخوض حربًا من جديد. أم أنه كان يحاول لفت الانتباه فقط ليُجبر الكويت الخائرة القوى على القيام بتنازلات من حيث الأرض والنفط؟ لا يمكن لأحد سوى حسين نفسه أن يعلم ما الذي كان يفكّر فيه.

في الواقع، كان صدّام حسين يتذمر بشكل علني وواضح من الاحتلال العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية (الذي كان قد مضى عليه سبعة عشر عامًا منذ حرب أكتوبر وقرار الأمم المتحدة الذي يقضي بانسحاب إسرائيل). من هنا، تمكن حسين من حشد دعم عربي ملحوظ لقواته العسكرية، علماً أن لا علاقة للكويت بإسرائيل. بالإضافة إلى ذلك، خاب أمل المخابرات الأميركية والروسية أيضًا لوجود ما يزيد على ثمانية آلاف شخص يعملون في مجال الأسلحة أو النفط أو غيره في الكويت. وفي الثاني من آب/أغسطس ١٩٩٠، عندما عبر جيش حسين الحدود الكويتية، على غرار اجتياح باناما، دب الذعر في واشنطن وموسكو. كان نورمان شوارزكوف مدير القيادة الأميركية المركزية قد توقّع أن يتمكن حسين من احتلال جزيرة كويتية لكنه لن يستطيع التقدم أكثر. ولكن عندما اكتسحت قوات حسين مدينة الكويت، واجه الغرب أمرًا واقعًا. أو هذا ما كان يبدو.

في الواقع، قد يكون اجتياح باناما هو ما شجّع صدام حسين، لكونه مثالاً على الاعتداء الحربي السريع. ولكن، في المقابل، عزز نجاح القوات الأميركية السريع في باناما ثقة وزارة الدفاع وحتى الناخبين. فقد صرّح جايمس بيكر وزير خارجية بوش «شكلت باناما تأكيدًا عاطفيًا سمح لنا بحشد دعم الشعب الذي كان لا غنى عنه

(١) كان عدد سكان الكويت يوازي مليوني نسمة في العام ١٩٩٠.

لضمان نجاح عملية عاصفة الصحراء لأنّ باناما غيّرت طريقة تفكير الشعب الأميركي حيال استخدام القوة في مرحلة ما بعد حرب الفيتنام».[1]

بعد مرور ستة أشهر على تنفيذ صدام حسين للهجوم، تم تنفيذ عملية عاصفة الصحراء بنجاح، مما برهن على قدرة الإمبراطورية الأميركية على التصرّف بفاعلية ليس عندما يكون الخطر قريبًا منها فحسب، بل حتى ولو كان في الشرق الأوسط. وبصفتها قائداً لأكبر تحالف قوات اجتمع تحت رعاية الأمم المتحدة. وتجدر الإشارة إلى أنّ فاعلية ضربات أميركا المضادة لا تعود إلى تحديث القيادة العسكرية والأداء العسكري والأسلحة فقط، بل أيضًا إلى تراجع قدرة الاتحاد السوفياتي وإرادته على معارضة قرارات أميركا الدبلوماسية والعسكرية. فمع تدهور الأوضاع الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي، بحيث لم تكن اللجنة المركزية قادرة على رفع سعر الخبز المنخفض اصطناعيًا خوفًا من ثورة شعبية، ما انفك هامش المناورات يضيق أمام غورباتشوف، في حين كان يسعى إلى أن يراه العالم شريكًا على قدم المساواة مع الولايات المتحدة، لا خصم أميركا في السيطرة على عالم ما بعد الحرب الباردة. إلا أن النتيجة في الشرق الأوسط كانت بمنزلة مسرحية هزلية. فقد حاول إدوارد شيفردنازه وزير خارجية غورباتشوف أن يؤدي دور المفاوض الرئيسي باسم الدول الغربية مع صدام حسين والعمل لتفادي حرب عالمية. لكن، بدا الروس هواةً على الساحة الديمقراطية العالمية بما أنّ حسين كان رجلاً مجنونًا، وبما أنّ روسيا كانت على شفير الإفلاس وعاجزة حتى عن حماية رعاياها في العراق من مستشارين ومهندسين، وبما أن صدام حسين كان يستطيع أن يبقي شيفردنازه رهينةً لديه.

في المقابل، كان المشاركون والمراقبون ذوو الرأي الثاقب على يقين أنّ مصير ملكية النفط وإنتاجه في الشرق الأوسط ليسا وحدهما على المحك فحسب، بل النظام العالمي برمته. ومن بين المشاركين الأساسيين الجنرال كولن باول الذي خدم

(١) كتاب The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace, ١٩٨٩-١٩٩٢ لـJames Baker، ص. ١٩٤

في عهد ريغان مستشاراً للأمن القومي وفي عهد بوش رئيس الأركان المشتركة.

تجدر الإشارة إلى أنّ الجنرال باول محارب قديم شارك في حرب الفيتنام وأصبح معروفًا بفضل عقيدته، عقيدة باول، المرتكزة على حملة المارشال الميداني مونتغومري في خلال الحرب العالمية الثانية. وتقضي هذه العقيدة بعدم زج الجنود في ساحة المعركة ما لم تكن الأهداف واضحةً وضوح الشمس، وما لم يكن الجنود مستعدين وجاهزين لبدء مهمتهم وإنهائها. وبالإضافة إلى ذلك، ثمة وجه آخر غير واضح للعلن لعقيدة باول وهو أنها دائمًا تطرح الآتي: هل التدخل العسكري هو السياسة الفضلى لتحقيق الغايات السياسية والاقتصادية؟ وعندما سأل باول الرئيس بوش والحكومة أيهما أجدى خوض حرب لتحرير الكويت أم نقل الجنود لحماية المملكة العربية السعودية وإنزال العقوبات على حسين وتهديده بشن حرب؟ قال متذكرًا: «شعرت حينئذ بتوتر الأجواء في الغرفة».[١]

من جهة أخرى، أصبح واضحًا بعد أن حافظ بوش على رباطة جأشه عندما سأله الصحافيون عم إذا كانت الولايات المتحدة سترد عسكريًا («لست أناقش التدخل، ولست أفكر في اتخاذ خطوة مماثلة»)، أنّه كان يضع نصب عينيه حربًا أُخرى. وبعد اللقاء، أخذ ديك تشيني وزير الدفاع باول على حدة وقال له: «اسمع كولن أنت رئيس الأركان المشتركة، ولست وزير الخارجية، كما لست مستشار الأمن القومي، ولست وزير الدفاع. إذًا فلتركز عملك على المسائل العسكرية».[٢]

ففوجىء باول المتواضع، واندهش أكثر عندما علم أنّ تشيني قدم مباشرةً للرئيس خطةً غير عقلانية للاستيلاء على بغداد من جانب الصحراء، وذلك من دون أن يستشير باول لكونه هو المسؤول عن كل قوات الجيش الأميركي. من الواضح أنّ تشيني الذي تهّرب من الخدمة العسكرية في خلال حرب الفيتنام لا يملك أدنى فكرة عن القيادة العسكرية أو المسائل اللوجستية، كما أنه لا يملك أي بصيرة في هذا المجال.

(١) كتاب An American Journey لـ Powell ص. ٤٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٦٥ و٤٦٦.

ومع أنّ باول تفادى الكلام عن ملاءمة خطة تشيني العسكرية، تذكر لاحقًا أنه تساءل في حال أمر بوش بالتدخل العسكري، إلى أي مدى كان مستعدًا لتوجيه الضربة العسكرية المضادة بالنظر إلى مكيدة تشيني؟ هل نريد أن نتخطى الكويت للوصول إلى بغداد؟ هل سنحاول إسقاط صدام حسين بالقوة؟ إلى أي مدى نريد إضعاف العراق؟ وإن أسقطنا حسين «هل سنستفيد من سيطرة سوريا غير الحليفة وإيران العدائية على منطقة الخليج النفطية؟»[1]

في الحقيقة، كل هذه الأسئلة تعدّ أساسيةً في ما يتعلّق بالنظام العالمي في حقبة ما بعد الحرب الباردة. وأثار استخدام أميركا للقوات العسكرية في المعركة في الشرق الأوسط للمرة الأولى، بدل التهديد باستخدام القوة، الكثير من الأسئلة بشأن مستقبل الاستقرار في المنطقة الأكثر تقلبًا في العالم. فهل ستعتبر الدول الإسلامية أن الولايات المتحدة تؤدّي دور حامية المملكة العربية السعودية، الدولة النفطية التابعة لها، وإسرائيل التي لم تطبق حتى الآن قرارات الأمم المتحدة التي تقضي بانسحابها من الأراضي التي كانت قد احتلّتها في خلال حرب أكتوبر؟ هل تصب هذه النتيجة في مصلحة الولايات المتحدة على المدى البعيد؟ أم أن هذه الحرب ستؤدّي إلى نشوء حروب أخرى؟

حاول ميخائيل غورباتشوف من دون جدوى أن يعمل بتناسق مع جورج بوش، محذرًا صدام حسين من التفاوض بشأن انسحاب القوات العراقية والدعوة إلى مؤتمر سلام إسرائيلي فلسطيني لحل المشكلة الأساس في الشرق الأوسط. غير أنّ الديكتاتور العراقي المجنون تجاهل القائد السوفياتي فيما وقعت محاولات هذا الأخير تحويل الإساءة العراقية إلى انتصار سوفياتي أميركي منسق ديبلوماسيًا، ضحية جماعات الضغط الإسرائيلية في واشنطن. فقال بوش لاحقًا: « وليس هناك أي ارتباط بمسألة الضفة الغربية، ولن يكون هناك شيء من هذا القبيل»[2]، ورفض نداء

(١) المصدر السابق، ص. ٤٧٠.

(٢) كتاب At the Highest Levels لـBeschloss وTalbott، ص. ٢٦٢.

غورباتشوف في مفاوضات هيلسينكي في أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، لعقد «مؤتمر دولي» للوصول إلى حل للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية.(١)

ومع إرسال مئتي ألف جندي أميركي إلى السعودية فضلاً عن السفن الحربية وقوات جوية كثيرة، إلى جانب ضغط الأمم المتحدة بالانسحاب من الكويت، لم يكن بيد صدام حيلة ليقلب سير الأحداث. لو كان صدام حسين عقلانيًا والإسرائيليون أقل عنادًا، ولو لم يكن الاتحاد السوفياتي في تراجع مستمر، لكانت قد أدت كارثة الكويت إلى تحسن وضع الشرق الأوسط بدلاً من اندلاع الحرب. غير أنّ صدام حسين لم يكن عقلانيًا، لم يكن هناك أية نتائج مثالية بالنظر إلى تزايد القلق في دول البلطيق وتوحيد قسمي ألمانيا في جمهورية ألمانيا الفدرالية في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، فضلاً عن ارتفاع البطالة والكساد في الاتحاد السوفياتي وإعلان خمسين مليون سوفياتي مسلم «الانتفاض بغضب على الكرملين» إذا ورط غورباتشوف قوات روسيةً في رد هجوم تحالف عاصفة الصحراء.

وبمعارضة مستشاره للأمن القومي برنت سكوكروفت، فكّر بوش في الطريقة التي شجعته في حرب الخليج على مقاربة الأمم المتحدة والاتحاد السوفياتي، فهو أصبح يرى فيها فرصة «لتعاون حقيقي» بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لتعزيز السلام والاستقرار في العالم، بدعم من الأمم المتحدة. ولكن عندما رفض صدام حسين أولاً جهود غورباتشوف في شباط/فبراير ١٩٩١ للتفاوض في انسحاب العراق في خلال فترة ستة أسابيع، والتحذيرات والارتباطات بمؤتمر دولي لحل المشكلة الإسرائيلية ـ الفلسطينية، وفقدان السيطرة إلى درجة لم يعد فيها أحد يصدق أقوال صدام حسين، شعر بوش أنه أكان جيدًا أم سيئًا، وبضغط من تشيني، لم يكن أمامه خيار إلا أن يأمر ببدء العمليات العسكرية.

أما غورباتشوف فهزّ رأسه تجاه تكتيكات حسين. وفي موسكو، أعلن وزير خارجية حسين، طارق عزيز، «لا أخشى مواجهة الأميركيين»، على الرغم من أنه يعلم علم اليقين أنّ «المواجهة قد تؤدّي إلى صراع واسع، قد تؤثر نتائجه ليس في

(١) المصدر السابق.

المنطقة العربية فحسب بل في العالم أجمع. غير أن هذا الاحتمال لا يخيفنا». فشعر غورباتشوف بالهلع وعلق بحزن «لا يخشى القادة العرب احتمال وقوع كارثة عالمية! هذا هو النوع من الأشخاص الذين يجب على العالم مواجهتهم».[1]

وفي إثر مغامرة حسين وعزيز، وإصدار القرار الأميركي بإطلاق عملية عاصفة الصحراء في الرابع والعشرين من شباط/فبراير ١٩٩١، رأى غورباتشوف أن سمعته كرجل دولة عالمي تتدهور. وكان صموده السياسي مهدداً على غرار صمود حسين. فاستسلم حسين بعد مروم أربعة أيام فقط، إذ وصل عدد قوات الاتحاد إلى خمسمئة وأربعين ألف جندي قضوا على رجاله في الكويت. ووافق حسين على انسحاب فوري غير مشروط لكل قواته ولكن وفقًا لشروط الأمم المتحدة، ما دفع الرئيس بوش إلى وقف الهجوم الحليف المضاد والموافقة على وقف إطلاق النار.

وبالتالي، فازت الولايات المتحدة بأسرع وأعظم حرب في التاريخ الحديث مع شركائها في الحلف، (مئة ساعة من المعركة الميدانية). فأظهرت أميركا بطولةً عسكريةً متجددةً فضلاً عن حكمة إمبراطورها، الذي رفض بمنطق تأييد توصيات أعضاء إدارته الذين أرادوا فيه تجاهل قرارات الأمم المتحدة وإرسال قواته إلى بغداد. غير أن بوش كان يفكر، إذا سقط صدّام حسين، مع أن الديكتاتور سيسقط من جراء استياء العراقيين وليس بسبب تدخل أميركا، في اندلاع المعارضة الأميركية في العالم العربي.

بدلاً من ذلك بالطبع، سقط غورباتشوف في وقت لاحق من تلك السنة.

هل كان للمرض الذي أصاب الرئيس بوش في أوج رئاسته في ذلك الوقت تأثير في عقله؟ في الواقع، لم يعان أي قيصر آخر باستثناء الرئيس جونسون أزمةً عصبيةً في لحظة الابتهاج، كما فعل عند ترشحه في انتخابات الحزب في صيف العام ١٩٦٤، عندما وافق الكونغرس على مشروع قانون الحقوق المدنية الذي اقترحه. والآن، في ربيع العام ١٩٩١، وفيما سجلت استطلاعات غالوب تأييدًا له بنسبة

(١) كتاب Memoirs لـGorbachev، ص. ٥٥٣.

سبعة وثمانين في المئة وتقرر القيام بموكب أشرطة من الورق في حزيران/يونيو في نيويورك، شبيه بموكب الجنرال أيزنهاور بعد الحرب العالمية الثانية، لم يعد بوش يشعر بالأرض تحت قدميه.

كان والد بوش قد عانى البلاء نفسه في العام ١٩٦٢، عندما كان مرهقًا ومحبطًا في السابعة والستين من عمره فقرر عدم الترشح من جديد لمنصب سيناتور كونيكتيكات، وهو قرار ندم عليه لاحقًا.[١] والآن، كان جورج بوش في العمر نفسه، وأقر في مذكراته أنه كان محبطًا جدًا منذ انتصاره في الكويت، وشعر باهتمام قليل أو حتى معدوم بإعادة الترشح للرئاسة في العام التالي.

حاول بوش من دون جدوى تهدئة قلقه من خلال إظهار حسّ وطني فائق والابتهاج والاحتفال في تكريم انتصاره، «بالأعلام الوطنية... والموسيقى الأميركية» و«الصلاة»، غير أن شيئًا آخر كان يلاحقه، وهو موت شيطانه لي أتواتر الوشيك، والثمن الذي كان عليه أن يدفعه لصفقته الخاسرة في العام ١٩٨٨، أي انتقام الديمقراطيين للتخلص بشكل فظيع من الحاكم دوككيس. فأشار الرئيس في مذكراته «إنني أشعر بالاحتقان في الداخل. متى سيترنح بوش، وماذا عن جدول الأعمال الداخلي، هل يستطيع بوش تولي أمره؟... لا أدري ما إذا كان الأمر خيبة أمل أم أنني تعب جدًا لأبتهج بأي شيء، لكن يبدو وكأنني أخسر وجهة نظري».[٢] ففكر أنه ربما كان عليه التنحي عن الرئاسة. فقال في مذكراته «لا يبدو وكأنني أتولى القيادة»، مشمئزًا من فكرة «الأمور السياسية» التي عليه أن يواجهها إذا ترشح ثانيةً، ليس جمع الأموال فحسب، بل القيام بحملات باسم الحزب الجمهوري الذي لم يكن أي احترام للحنكة السياسية وبدا متمسكًا بالمحافظين الجدد الذين يحذون حذو غولدواتر.[٣]

كان نائب رئيس بوش دان كايلي، مشغولاً بنشر الأذى، متذمرًا من أنه كان على

(١) كتاب George Bush لـParmet، ص.٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق.

القوات الأميركية اجتياح العراق، «موضوع جديد لليمينيين» بحسب بوش، فيما استنكر تأثير جمعية البنادق الوطنية ضد مشروع قانون مجلس الشيوخ في الكونغرس للحد من الأسلحة الآلية في أميركا. حتى في القضايا الدولية استنفر اليمين، معتبرًا أن الرئيس ووزير خارجية إدارته جايمس بيكر، كانا متساهلين جدًا مع غورباتشوف وأن عليهما الاعتراف بالإجماع باستقلال ليتوانيا. (فصرخ بيكر «تبًا لك» بوجه وزير الإسكان جاك كيمب الذي كان يحاول التدخل بدبلوماسية بيكر الهادئة[1]). وفي هذا الوقت، أثبتت حكومة إسحاق شامير الإسرائيلية قصر نظر وعناداً أكثر من أي وقت مضى.

فكتب بوش في مذكراته في آذار/مارس ١٩٩١ «إن إسرائيل تسيّرنا. فالتعامل معها صعب جدًا»، بعد أن خاب أمله مثل الرئيسين كارتر وريغان. وعلى الرغم من أنّ الولايات المتحدة «قد ضربت صدام حسين وحلت المشكلة في المنطقة»، ما انفكت إسرائيل تطالب بأسلحة إضافية وترفض عرض «الأرض مقابل السلام» وتؤجل مؤتمر السلام الدولي الذي طالب به غورباتشوف بلا جدوى عملية عاصفة الصحراء. كذلك، أصرّت إسرائيل على توسيع مستوطناتها غير الشرعية في الضفة الغربية ما قد يجعل التسوية مع الفلسطينيين مستحيلةً.[2] من هنا، كتب بوش «لن يتحقق السلام في الشرق الأوسط إذا لم تحل القضية الفلسطينية. أنا أعرف ذلك، وهم يعرفون ذلك والعرب يعرفون ذلك والفرنسيون والأوروبيون يعرفون ذلك، ونحن نقف وحدنا متحدين المنطق في العديد من الأحيان» ونقدم الدعم إلى إسرائيل. كما أنه أقسم بالقيام بما «لم يفعله أي رئيس منذ أيك» أي التخلي عن الدعم اليهودي لحملته الانتخابية، مفضلاً «الدفاع عما هو عادل وصحيح».[3] ولكن هل سيفعل ذلك؟

بموازاة ذلك، أقر بوش «أحيانًا أحب الأضواء. ولكنني تعبت منها. لقد كنت

(١) المصدر السابق، ص. ٤٨٧.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٩٩.
(٣) المصدر السابق، ص. ٥٠٠.

في القمة عدة سنوات وأتساءل الآن ماذا هناك في العالم غير ذلك». لقد شعر بوش بالتعب حتى الموت وأقر بأنه «لم يعد يهتم فعلاً» بالسياسة. ففقد خمسة عشر باونداً حتى أن خطه قد تغير بحسب طبيبه. فتساءل أليس باستطاعة الجمهوريين أن يجدوا شخصًا آخر لقيادتهم، شخصًا «قاسيًا ومضطربًا»، شخصًا «يحب ذلك أكثر».[1]

من هنا، أُعطيت تعليمات لرئيس القطاع السياسي جون سونونو، بإبقاء معظم المشاكل بعيدًا عن مكتب الرئيس، فيما اتخذ الرئيس قراره المصيري بعدم البدء بحملته لإعادة ترشحه قبل العام التالي، معتمدًا على شهادته كرئيس منتصر في الحرب. ومن جهة أخرى، تجاوزت نسبة البطالة ٨،٥ في المئة وارتفعت الفوائد كثيرًا بحيث تعذر على الناس، باستثناء الأثرياء، الحصول على رهون عقارية على البيوت، كان ذلك سيقضي على فرصه بإعادة انتخابه إذا قرر الترشح بالطبع. فقد قال لابنه البكر جورج جونيور: «لم أقرر بعد»، فيما قال ابنه لنائب رئيس القطاع: «هناك احتمال كبير بألا يترشح من جديد»، وهو أمر كان عليهم إغفاله «ففي حال قلنا ذلك لأي أحد سيُقضى علينا».[2]

وبعد إصابته بصدمة عدم انتظام دقات القلب، تم تشخيص مرض جريفز لدى الرئيس، الذي بدا أنه لم يستعد نشاطه السابق. وفيما انتهى موكب أشرطة الورق في صيف العام ١٩٩١، بدا بوش على غير عادته بعيدًا وهزيلاً وغير مستعد لاتخاذ أي قرارات. وعندما كان يخلد إلى النوم في آب/أغسطس في بيت العائلة الصيفي في كينيبونكبورت في ولاية ماين، مستعداً لإعصار بوب الذي كان سيضرب ساحل نيوإنكلند، تم إعلامه بأن عاصفةً أخرى كانت مقبلة. فقد نقلت إذاعة السي أن أن محاولة انقلاب في منزل غورباتشوف الصيفي في البحر الأسود، معلنةً إطاحته ليحل مكانه نائبه غينادي يانايف، ما عرف «بمحاولة انقلاب الحمقى». وبعد أن كان

(١) المصدر السابق، ص. ٤٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٤٩٠.

قد أخطر بوش في حزيران/يونيو بإمكانية حدوث ذلك، حذره بوش بدوره من الخطر الذي تعرض له في خلال رحلته إلى لندن وموسكو وأوكرانيا.

حزن الرئيس وقلق وعاد بسرعة إلى واشنطن. كان قد ترك بحكمة أو من دون حماسة، صدام حسين في السلطة في العراق، خشية أن تتحمل الولايات المتحدة عبء المسؤولية في البلد، وسط المشاكل العرقية والدينية الداخلية التي لا تحصى والتي قسمت الشيعة والسنّة والأكراد. غير أنّ انهيار الاتحاد السوفياتي طرح مشكلة أكبر بكثير، نظرًا إلى كثرة الأسلحة النووية إلى جانب التطلعات المكبوتة في الجمهوريات السوفياتية.

وفي آذار/مارس ١٩٩٠، أعاد نواب مجلس الشعب تسمية ميخائيل غورباتشوف «رئيسًا» لولاية تمتد خمس سنوات، ولكن رئيس ماذا؟ من ناحية أخرى، أمل بوش أن يتحرر الاتحاد السوفياتي من تاريخه الشيوعي وأن يحافظ عليه كهيكلية سياسية حاكمة، لمصلحة استقرار أوروبا، غير أنّ هذا النوع من التجريد لم يكن سهلاً قط. فلم يكن هذا الوضع يشبه حالة أوروبا بعد سقوط إمبراطورية نابوليون، أو بعد الحرب العالمية الأولى أو حتى بعد أن أنهى الحلفاء الحرب العالمية الثانية وأنشأوا منظمة الأمم المتحدة على أمل تحقيق السلام في العالم، بإخفاء سباق الأسلحة البائس بين قوتين إيديولوجيتين نشأ جراء آثار صراع عالمي ضدّ الفاشية. أما الآن فكان الوضع مختلفًا. فقد كانت الإمبراطورية العظمى المنافسة الوحيدة لإمبراطورية الولايات المتحدة، تخرج على السيطرة باتجاه دمارها المحتمل، تاركةً الإمبراطورية الأميركية القوة العالمية الوحيدة ولكن من دون عقيدة واضحة يتبناها رئيسها، غير البراغماتية.

وضع خبر محاولة الانقلاب الروسية، إذا كان صحيحًا، أمام القائد الأميركي تحديًا مزعجًا جديدًا. فقد كانت السياسة الأميركية حيال الاتحاد السوفياتي التي وضعها فور توليه الرئاسة مخيبةً للأمل وأشبه «بهريسة» بحسب ما سماها وزير الخارجية بيكر. بيد أنّ بوش وثق بحدسه وقرر دعم غورباتشوف في خطاباته والقمم

والوسائل الدبلوماسية، ولكن من دون أي مساعدة مالية أو تعاون حقيقي في قضية العراق ومستقبل الشرق الأوسط. والآن وبسقوط غورباتشوف، ماذا كان سيحدث في روسيا وأي جدول أعمال على الولايات المتحدة أن تتبع؟ كان وزير الخارجية اليميني ديك تشيني قد اقترح مطولاً إعادة تسلح أميركي استباقًا لتسلم اليمين السوفياتي السلطة مكان غورباتشوف. غير أن بوش كان قد ناقض تشيني، على أمل أن ينجح غورباتشوف في إصلاح الاقتصاد السوفياتي وتقليص حجم جيشه. ولكن إذا كان حجم الجيش السوفياتي يرتفع، فهل كان على بوش الاعتراف بمحاولة الانقلاب السوفياتي ومواجهة نظرة تشيني تجاه بروز عقيدة «الأسلحة أولاً» السوفياتية من جديد، مع كل التداعيات النووية على أميركا والعالم؟

وتجدر الإشارة إلى أنّ حالة بوش العقلية كانت بطيئةً جدًا، ما أدى دورًا في إنقاذه، أكانت هذه الحالة تعود إلى مرضه أم خوفه من القيام بحملة انتخابية أخرى، لا فرق. فرفض غورباتشوف توقيع انتقال السلطة إلى نائبه الذي قدمته إليه عصابة المتآمرين في بيته الصيفي. فبذلك عادوا يخفي حنين، ليصبحوا منسيين في التاريخ. أما في موسكو، فكان الرئيس الشعبي الروسي، بوريس يلتسين أكثر ملاءمة بالنسبة إليهم، بيد أنّ انتصاره الذي رحب به الرئيس بوش بعد بضعة أيام، طرح قلقًا جديدًا على الاستقرار العالمي. فقد كان يلتسين مهتمًا بروسيا فقط وليس بالاتحاد السوفياتي.

في خلال استفتاء عام في ربيع ذلك العام، صوت سبعون في المئة من المواطنين السوفيات لإبقاء الاتحاد السوفياتي نظام حكم فدرالياً شاملاً، شبيهًا بنظام الولايات المتحدة الفدرالي. وبالفعل، وقع بوريس يلتسين على بقاء الاتحاد السوفياتي هيئة تتجاوز الحدود الوطنية. غير أن محاولة الانقلاب جردت غورباتشوف من المساعدة والدعم الانتخابي. وإلى حين تحرير غورباتشوف من بيته الصيفي وعودته إلى موسكو، كانت نجوميته قد سقطت. فكان قد استقال من الحزب الشيوعي (الذي سمي لاحقًا بحزب المنقلبين الخونة). فجعل ذلك من غورباتشوف إمبراطورًا أعزل، ورئيسًا معيناً للاتحاد السوفياتي غير منتخب، فتراجعت مكانته على نحو مهلك جراء الانقلاب وبروز بطولة يلتسين. وعلى الرغم من محاولة غورباتشوف التصرف كندّ

للرئيس بوش في مدريد في مؤتمر السلام للشرق الأوسط المتأخر في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، كان هذا التصرف مهزلة. فكان الاتحاد السوفياتي الذي نشأ كالولايات المتحدة من الثورة والحرب الأهلية، ينحلّ على عكس الولايات المتحدة.

في إطار آخر، بقي الجيش السوفياتي خارج الصراع بين يلتسين والمتآمرين في آب/أغسطس. وببروز يلتسين كرجل عظيم داخل روسيا، أيده الجيش عند اقتراحه قيام رابطة دول مستقلة بدلاً من الاتحاد السوفياتي. ما عنى نهاية التاريخ الذي صنعه ميخائيل غورباتشوف. وفي عيد ميلاد العام ١٩٩١، وفيما كانت عائلة بوش تفتح الهدايا في كامب ديفيد، بحماية المخابرات السرية، تلقى الرئيس بوش اتصالاً هاتفيًا من الكرملين. كان غورباتشوف قد أعلن زوال الاتحاد السوفياتي في اليوم التالي. وفي هذا الوقت قال غورباتشوف لبوش إنه سيستقيل من رئاسته الخاوية ليصبح مواطنًا خاصًا.

أما بالنسبة إلى جورج بوش، فكانت هذه لحظةً استثنائيةً في نهاية حرب باردة دامت أكثر من أربعة عقود. وبعد ساعتين، ظهر غورباتشوف عبر شاشة التلفاز في موسكو ليقول الحقيقة لشعب إمبراطورية كانت تحتضر. وقد رفض أن يُلام على سقوط الاتحاد السوفياتي أو على المشاكل الاقتصادية والسياسية في السنوات الأخيرة. «إن كل الإصلاحات المترددة، التي كانت كثيرة، سقطت واحداً تلو الآخر. لم يكن هذا البلد ليصل إلى أي مكان وكان من المستحيل أن نعيش كما كنا نعيش من قبل. كان علينا أن نغير كل شيء. ولكن تقسيم هذا البلد وإسقاط الدولة لم يكونا من بين أهدافي».(١) كان غورباتشوف شديد الاضطراب.

وفي الجهة الأخرى من العالم، في كامب ديفيد، كان الرئيس بوش متعاطفًا وشريفًا. وبظهوره عبر التلفاز تلك الليلة من المكتب الرسمي في البيت الأبيض، قرر من جديد عدم تعميق جرح غورباتشوف معلنًا ببساطة «انتهاء» «المواجهة» التاريخية مع الشيوعية. ولكن بعد مرور بضعة أسابيع، وفي بداية السنة الجديدة، تخلى بوش عن

(١) كتاب At the Highest Levels لـBeschloss وTalbott، ص. ٤٦٣.

الجماليات الدبلوماسية. وقرر إعادة الترشح للانتخابات في تشرين الثاني/نوفمبر، إذا فاز في انتخابات الحزب الجمهوري. لذلك أعلن أمام الكونغرس وملايين الناخبين الذين شاهدوه على التلفاز «لقد انتصرت أميركا في الحرب الباردة». هزّت هذه الكلمات غورباتشوف الذي عجز عن قول أي شيء، لأن هذا الأمر كان صحيحًا.

وبذلك كان بوش قد ربح ثلاث حروب في خلال ثلاث سنوات: حربان من خلال القوات العسكرية والثالثة من خلال الصبر والدبلوماسية الحذرة التي تجاوزت الصقور في إدارته. فكان أمامه كل الأسباب التي احتاج إليها ليفتخر بنفسه على الرغم من شعوره بالإرهاق النفسي.

ولو أعلن الرئيس الآن استقالته في نهاية ولايته الناجحة الأولى لينضم إلى غورباتشوف ويتقاعد، لذكر في التاريخ كواحد من أكثر الرؤساء الانتقاليين فاعلية في التاريخ الحديث، مفتتحًا عهداً جديداً.

غير أن الغريزة التي تحث الناس على الفوز بالرئاسة تصعّب عليهم التخلي عن المنصب فور الحصول عليه. وفيما لاحقته ذكريات تكتيكات أتواتر الشرّيرة ولكن الفعالة في حملته الأخيرة ونتائجها، أجّل بوش اتخاذ قراره الأخير ولكن في النهاية شعر بأنه كان عليه الإقدام على ذلك، وفي الثاني عشر من شباط/فبراير ١٩٩٢ أعلن رسميًا ترشحه من جديد للرئاسة.

قبل اثني عشر شهرًا، كان تأييد بوش قد وصل إلى أربعة وثمانين في المئة في استطلاعات الرأي، ما دفع جورج جونيور إلى توقع الانتصار في الانتخابات التالية بتباهٍ: «هل تعتقد أن الشعب الأميركي سيميل إلى رئيس ديمقراطي الآن؟»[1] غير أنّ اليونانيين القدماء لم يثقوا يومًا بالمتغطرسين، وكان انعدام الثقة هذا مبررًا. فتراجعت أرقام بوش المحلقة بشكل تدريجي مثير للقلق، وبحلول الثاني والعشرين من شباط/فبراير ١٩٩٢، وصلت النسبة إلى اثنين وأربعين في المئة في استطلاعات الرأي، وهو رقم لم يضمن له الفوز في إعادة انتخابه. فقد أصبح الرجل العظيم الذي أوقف

(١) المصدر السابق، ص. ٤٣٤.

أميركا بمساعدة أتواتر من انتخاب حاكم فعال وحديث وإداري بشكل ساخر في العام ١٩٨٨، إلى مدير مخيب للأمل وغير فعال للاقتصاد، ما دفع ملايين المواطنين وخصوصاً العاطلين عن العمل إلى البحث عن منفذ وطني محتمل، أكان الديمقراطي بيل كلينتون الذي انتخب لخمس مرات متتالية حاكمًا لولاية أركانساس، أم رجل الأعمال الملياردير روس بيرو المستقل و الناجح ولكن المصاب بجنون العظمة.(١) فحذر أحد مساعدي بوش بعد شهر فقط من إعلان الرئيس ترشحه «إن كل مشكلتنا السياسية هي الركود. فنحن نواجه ركودًا دام اثني عشر شهرًا، بحيث توجه سبعة وثمانون في المئة من الأصوات «في الاتجاه الخطأ»، كما أننا نواجه وعلى الأرجح ديمقراطيًا متحفظًا جنوبياً [كلينتون]. إن الوضع سيىء جدًا».(٢)

وبالتالي، وعلى غرار ميخائيل غورباتشوف، واجه الرئيس بوش فشلاً محدقًا ليس كرجل دولة، نظرًا لأنه أثبت أنه حامل مصالح أميركا في العالم، ولكن من خلال عجزه عن رفع التحديات الداخلية التي واجهها. وبافتقاره إلى نظرة واضحة إلى ما أراد تحقيقه في الداخل، إلى جانب الخطاب الداعم لهذه النظرة، بدا الرئيس «متقلبًا سياسيًا» أكثر فأكثر، شبيهًا كثيرًا بالديمقراطيين بنظر الجمهوريين المحافظين اليمينيين، ومتحفظاً جدًا بنظر الديمقراطيين، وكان بنظر الجميع ساعيًا جدًا إلى تحقيق مطالب جماعات الضغط، بدلاً من السير وفقًا لمعتقداته الخاصة، مهما كانت.

وفي الواقع، كانت حملة بوش الانتخابية مشابهة لحملة العام ١٩٨٨ فقد ارتكزت على الهجوم على الشخصيات، بيد أنها قد أنقذت الرئيس. غير أن لي أتواتر توفي من جراء ورم في الدماغ وكان روجر أليز، شريك أتواتر الرئيسي قد استقال منذ زمن طويل. وبعد جمع أموال قليلة، وجد الرئيس نفسه محرومًا ومجردًا من الأسلحة السياسية والإستراتيجيات أو حتى الرغبة في القيادة. فكانت النتيجة واضحةً عندما كاد يهزمه بات بوشانان وهو صحافي يميني وكاتب سابق لخطابات ريتشارد نيكسون، في الانتخابات الأولية في نيوهامشر.

(١) كتاب Bill Clinton: An American Journey لـNigel Hamilton، ص.٦٨١.

(٢) كتاب The Presidency of George Bush لـGreene، ص. ١٦٤.

وبعد أن فاز في انتخابات الحزب الجمهوري على الرغم من تراجع استطلاعات الرأي المؤيدة له في ذلك الصيف، بدا حظ بوش أفضل قليلاً، عندما دخل روس بيرو المنافسة بعد أن تركها، ما أدى إلى انقسام أصوات الديمقراطيين بينه وبين الحاكم بيل كلينتون. ولكن في كل المداولات الرئاسية المهمة كان يصرف بيرو بسبب غرابته، فيما بدا بوش بعيدًا عن واقع حياة الأميركيين. أما حاكم أركانساس، كلينتون فقد بدا سياسيًا وسطيًا جنوبيًا ذا مستوى ذكاء مرتفع جدًا، ومتفائلاً ومتعاطفاً ونشيطاً وحسن النية وله أفكار داخلية جيدة، وخصوصاً لمعالجة الركود.

وفي محاولة في اللحظة الأخيرة استخدم بوش تكتيكات أتواتر واقتحم سجلات كلينتون في وزارة الخارجية، وأطلق عليه وعلى زميله في الحملة السيناتور آل غور، لقب الماركسيين و«الغبيين»، غير أنّ بوش فشل في إسقاط منافسه الديمقراطي. وبذلك خسر الانتخابات في تشرين الثاني، بثمانية وثلاثين في المئة من الأصوات مقابل ثلاثة وأربعين في المئة لكلينتون وتسعة عشر في المئة لبيرو كمستقل.[1] وبذلك أصبح بيل كلينتون، وليس جورج بوش الرئيس الأميركي الثاني والأربعين.

دمرت هذه الهزيمة بوش كما فعلت بالرئيس كارتر عند خسارته الرئاسة بعد ولاية واحدة. وعلى الرغم من ذهابه لتوقيع اتفاق تحرير التبادل التجاري في أميركا الشمالية، الذي تفاوض بشأنه وجايمس بيكر في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٢ مع كندا والمكسيك، كمثل أخير على حنكته السياسية، وعلى الرغم من إرساله قوات إلى الصومال لتقديم مساعدات إنسانية للشعب الجائع، بدا بوش رجلاً محطماً. خصوصًا وأنّ والدته توفيت بعد فترة وجيزة من الهزيمة.

وفي كمب ديفيد، أقر لكولين باول الذي زاره مع زوجته لتقديم تعازيه «كولين، إن الأمر موجع فعلاً».[2] وبالإشارة إلى الرئيس المنتخب قال: «لم أظن يومًا أنهم سينتخبونه».[3]

(١) في الانتخابات الطالبية، حاز كلينتون ٣٧٠ صوتًا مقابل ١٦٨ صوتًا لبوش.

(٢) كتاب My Father, My President لـDoro Bush Koch، ص. ٤١٧.

(٣) كتاب An American Journey لـColin Powell ص. ٥٦١.

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

قال جون كينيدي يومًا إنَ والدته روز فيتزجيرالد كينيدي «كانت الحلقة التي جمعت أفراد العائلة». في موازاة ذلك، أدت دوروثي واكر بوش الدور نفسه في عائلة بوش، فقد كانت أماً أميركية حكيمة صغيرة أخرى. تأثر ولدها بنوعية حياتها وبتوقعاتها الأخلاقية تأثرًا عميقًا كما هي حال العديد من الأباطرة الأميركيين. بيد أنّ ذلك لم يكن من الضروري أن يتبنى أولادهنّ معايير الصدق والشجاعة وحسن السلوك نفسها. فلحسن الحظ أو لا، انطبعت تلك المبادئ في أولادهن، فاستجابوا لتوقعات أمهاتهنّ لهم.

وفي السادسة عشرة التقت بربارا بيرس، الفتاة الجميلة السمراء صاحبة الشعر البني المُحمرّ ابن السابعة عشرة جورج هربرت واكر بوش في خلال حفلة راقصة بمناسبة عيد الميلاد حين كان لا يزال تلميذًا في أكاديمية أندوفر. لقد قررا الخطبة سراً وأعلنا ارتباطهما في العام ١٩٤٣، حين تم تفويض حاملة طائرات سان جاسينتو في فيلادلفيا التي كان يعمل على متنها وقدم لها خاتماً من الماس الثمين أمام العائلة. كانت باربرا تمارس رياضة التنس، وأعلنت دوروثي واكر بوش «بإمكانها التكلم مع أي أحد» وأعطتها بركتها. وقد كتبت في ما بعد ابنتهما دورو في مذكرات عائلتها «أحبت عائلة بوش والدتي منذ البدء».[1] فقد تماشت بالشكل الصحيح مع عائلة فاعلين خصوصًا وأنها لم تكن تحب الكتب والتاريخ والموسيقى كثيرًا. وكما أنّ دورو بوش روت أنه لم يكن بوسع والدها أن «يعزف على البيانو أو أن يغني على اللحن» فقد كان يعاني مما سماه «الانقطاع الجيني» بما يختص بالموسيقى، وهو انقطاع يشمل أيضًا انقطاع جينات القدرة على الخطابة، الأمر الذي جعل السياسة الانتخابية أكثر صعوبةً وخصوصًا في عصر أخبار وسائل الإعلام التي تدوم أربعاً وعشرين ساعة.[2]

(١) كتاب My Father, My President لـDoro Bush Koch، ص. ١٧.

(٢) المصدر السابق، ص. ٥.

فشل بوش مرتين في انتخابات مجلس الشيوخ وتم تحذيره من أنه لا يملك أدنى فرصة للفوز بمنصب حاكم ولاية تكساس. في الواقع، أخذ مسار بوش إلى البيت الأبيض اتجاهًا مختلفًا عن اتجاهات أسلافه التسعة في الفترة غير الانتخابية. فقد قام مساره على استخدام شبكة الاتصالات وجمع الأموال وإجراء سلسلة من المقابلات السياسية وتوفير فرص العمل. ومع ذلك، لم يخل بروزه من المطالب الشخصية الشاقة كالصبر والولاء والصبر والثبات. وعلى صعيد آخر، دمر وفاة ابنته في إثر إصابتها بسرطان الدم زواجه؛ ففي سن الثامنة والعشرين وبين ليلة وضحاها تحول لون شعر باربرا الجميلة من بني محمرّ إلى الأبيض رافضةً صبغه خوفًا أن يعني ذلك أنها نسيت مصير طفلتها روبن المأسوي. ولتعويض هذه الخسارة «بالغت في تدليل» ابنها البكر جورج الابن.[1]

وكذلك، ساعد إنجاب المزيد من الأطفال (نايل ومارفين ودورو) على زيادة الحس بمصير العائلة: فمن بين أبناء السيناتور بريسكوت بوش الأربعة، وقع الخيار على جورج بوش الابن الثاني ليحمل راية العائلة، بدلاً من أخيه الأكبر سنًا باكي أو أخويه الأصغر منه جوني أو بريس. فهو بطل الحرب ومليونير عصامي جمع ثروته من النفط، وبالتالي سيحمل شهرة العائلة، على أمل أن يرفعها عاليًا.

ومع ذلك، عرف هذا التوقع العالي سلبياته فقد قلق الأصدقاء حين استعان جورج بأمينة جديدة في اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري وطلب إليها المجيء إلى الصين لتكون مساعدته الشخصية في العام ١٩٧٤.

هكذا، وحتى بعدما أجبره جايمس بيكر على إزاحتها، بقي بوش سنوات طويلة، ضحية الإشاعات التي تقضي بوجود علاقة رومنسية تربطه بجنيفر فيتزجيرالد، الفتاة الإنكليزية المطلقة والصارمة التي أدارت مواعيد مكتبه بصرامة بصفتها مساعدته التنفيذية. وشابهت هذه الإشاعات تلك التي أحاطت علاقة أيزنهاور بسائقته

(١) كتاب George H. W. Bush لـNaftali، ص. ١١.

الإنكليزية ومساعدته كاي سامرسبي. فسافر بوش إلى كل العالم برفقة جنيفر ولكن لم يكن وضعه خطرًا تمامًا مثل أيزنهاور أن ينهي زواجه للارتباط بها، وذلك ليس لأنّ قراراً كهذا يُتخذ في لحظة جنون أو شغف، يقضي على طموحه أن يصبح رئيسًا ويحطم آمال عائلته المعقودة عليه فحسب، بل لأنه لم يكن ينوي أن يطلّق باربرا.

وكذلك، كما عشق بوش باربرا في شبابه، إلى حد أنه كتب اسمها على طائرته الحربية، استمرّ في حب «بار» بولاء باعتبارها والدة أطفاله الخمسة الباقين على قيد الحياة. ومع ذلك، غادرت باربرا بكين لقضاء عيد الشكر ومن ثم عيد الميلاد مع أطفالها في المنزل. وبالتالي، تاركةً جورج وحده على هواه ومع جنيفر فيتزجيرالد. من ناحية أخرى، فقد توجهت والدة جورج دوروثي إلى الصين من أجل مهمة خاصة تكمن في مراقبة ولدها. فكتب جورج في مفكرته «تصل أمي يوم غد، أشعر بحماسة مثل أيام الثانوية أي شعور العطلة الأولى.»[1] لكن دوروثي، من جهتها، خافت مما وجدته فحذرت باربرا طالبة إليها أن تصبغ شعرها من أجل التنافس مع جنيفر.

بيد أنّ نتيجة هذا العمل لم تكن أكيدة، فكما قالت زوجة عضو في الكونغرس «تزوج جورج وباربرا في سن مبكرة ورزقا أولئك الأولاد عندما كانا على أحسن ما يرام.» وفي ما بعد، تحولت صورة باربرا تدريجًا إلى صورة الأم المضحية، حتى أنّ بعض الأشخاص يظنون أنها كانت أيضًا بمنزلة والدة جورج، ففي الوقت الذي بدا هذا الأخير مبتهجًا، كانت هي تبدو بائسة. وقد أشار أحد موظفي تلفزيون سي بي أس «دخل غرفة الانتظار برفقة امرأة ذات شعر رمادي ظننتها والدته. فقال لي أحدهم إنها زوجته فاندهشت لهذه الدينامية لأنهما لا يشكلان زوجًا متناغمًا... فهو كان يُعجب النساء فورًا. صحيح أنه غير شهواني لكنه ينظر إلى النساء مفعمًا بطاقة جنسية. فهو مهذّب ولم يتصرف قط خلاف ذلك، فهو ليس بيل كلينتون، وإنما

(١) اقتباس من كتاب The Family: The Real Story of the Bush Dynasty لـKitty Kelley، ص. ٣٣٠.

يبعث دائمًا رسائل جنسية من خلال نظراته. أما باربرا فكانت غافلةً عن كل ذلك، فهي تثق بزوجها ثقةً عمياء، فقد كانت تهتمّ به كأمه وكانت المسؤولة عن العائلة بأسرها... وكان من البديهي أنه يعتمد عليها.»[1] وكذلك، ذكرت زوجة عضو آخر في الكونغرس في أثناء زيارتها بوش في الصين «تعشق باربرا جورج وحبها له طاهر... أظنها اعتبرت أنّ قوتها الكبرى تكمن في أن تكون كأمه فقد كادت تصبح كأمه.» أما في ما يتعلق بشعرها وثيابها فقالت هذه المرأة: «تعمدت باربرا الظهور بمثل هذه الهيئة، وفي حال أراد جورج أن تبدو بمظهر آخر لما ترددت»، ومهما كانت خيبة أمل باربرا العاطفية «كان يعوّضها أولادها من كل شيء».[2]

بالإضافة إلى ذلك، كانت جنيفر فيتزجيرالد ابنة الاثنين والأربعين عامًا القصيرة الشقراء والمخلصة حاضرةً متى احتاج جورج إليها بما أنها كانت مغرمة به. وعلى نقيض باربرا، كانت تناسب شخصية بوش المتقلّبة. فقد اصطحبها معه في رحلاته وذهبت معه إلى وكالة الاستخبارات المركزية حين أصبح رئيس دائرة التجسس. ولدى مغادرته الوكالة وفر لها وظيفةً مساعدة السفير الأميركي الخاصة في بريطانيا كينغمان بروستر واستمر في رؤيتها. وعلى الرغم من غضب بروستر من «غيابها المتكرر» بسبب سفرها إلى الولايات المتحدة لرؤية جورج، ما كان بيده حيلة. فقد ذكر كاتب سيرة السفير بروستر الخاص «لم تكن علاقتهما سرية، فكل من في السفارة يعرف أنها كانت عشيقة جورج.»[3]

(١) هذا ما جاء عن لسان Nadine Eckerts في كتاب The Family لـKelley، ص. ٣٣١.

(٢) Mariam Javtis، المصدر السابق

(٣) هذا ما جاء في كتاب لـ Geoffrey Kabaservice بعنوان The Guardian: Kingman Brewster, His Circle and the Rise of the Liberal Establishment طبعة New York: Henry Holt سنة ٢٠٠٤. في خلال مقابلة The Family لـKelley ص. ٣٥٣ و٦٥٣. فيما زعم آخرون وجود علاقة أيضًا بين روي إلسون Roy Elson وآن وولستون Anne Woolston المصدر السابق ص. ٣٢٩ و٣٤٥. من جهة أخرى عنونت صحيفة The New York Post في الحادي عشر من آب/أغسطس ١٩٩٢ في الصفحة الأولى تقريرها "خيانة بوش" «The Busk Affair»وذلك اقتباسًا من كتاب The Power House الجديد لـSusan Trento. ولكن، مرةً أخرى، لم يكن هناك من دليل باستثناء رواية السفير الأميركي الراحل لويس فيلدز Louis Fields الذي ساعد نائب الرئيس بوش على لقاء السيدة فيتزجيرالد في منزل ضيافة في سويسرا.

أكان ذلك حقيقيًا أم لا، كانت باربرا الملومة الوحيدة على حدوث ذلك. ففي النهاية، هي من أسست حياتها الزوجية وهي من قررت أن واجبات زوجات رجال عائلة بوش حين يقبلن في العائلة أن يؤدين دور ربات منزل يهتممن بأطفالهن من دون أن يتنافسن مع أزواجهن. وكذلك، اعترفت باربرا لاحقًا حين كبر أولادها وعانت اكتئاب منتصف العمر «لقد عرفت وقتًا عصيبًا. وقد جعلني تحرر المرأة أشعر بأن حياتي قد ضاعت سدًى... ولكنني تخطيت ذلك والحمد لله.»(١) فاعتنت بحياة أولادها واختياراتهم الزوجية محاولة منع ابنها جاب من الزواج بمراهقة مكسيكية ولكن من دون جدوى، كما راقبت بصلابة علاقة زوجها بجنيفر فيتزجيرالد الواعية صاحبة الأنوثة وهي تنمو في مكتبه.(٢) وخشية أن تتسبب العلاقة بفضيحة، أصرّ جايمس بيكر على أن يتم فصل فيتزجيرالد من الحملة الرئاسية الفاشلة في العام ١٩٨٠. فوافق بوش على ذلك وإنما دفع لها من ماله الخاص مقابل أن تعمل لمصلحته سرًا في نيويورك.

بالإضافة إلى ذلك، حين أصبح جورج بوش نائب الرئيس رونالد ريغان، اشترت باربرا بوش قصرًا أبيض يكون المنزل الرسمي لنائب الرئيس. كان البيت كبيراً شديد الفخامة ويقع في شارع ماساشوستس، واستعانت بمهندس الديكور الداخلي المميز (مارك هامبتون) لتحسين تصميمه. في هذه الأوقات عادت جنيفر إلى مكتب بوش مرتديةً معطفًا من فرو المنك، وحين اعترض كبير معاونيه ريتش بوند على ذلك قام بوش بطرده هو وليس فيتزجيرالد. فقال لبوند: « جعلني جيم بيكر أتخذ هذا القرار مرةً من قبل، وأخطأت الخيار.»(٣)

من جهة أخرى، أنكرت الصحافة وجود هذه العلاقة تمامًا كما فعلت عائلة بوش. فقالت نانسي شقيقة بوش: «تبًا لجنيفر البدينة والقصيرة! تبدو وكأنها أكثر

(١) اقتبست Kelly في كتاب The Family ص. ٣٢٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٥٤ و٣٥٥.
(٣) المصدر السابق، ص. ٣٧٥.

الأشخاص طيبةً وموثوقية. فقد عرفناها جميعًا مدة طويلة، هي تعشق جورج.»[1] بالإضافة إلى ذلك، قال مقرّب آخر: «أصبحت من دون شك بمنزلة زوجته الثانية، زوجته في المكتب»[2]، في حين أضاف أحد الموظفين «لا يمكن نكران وجود علاقة بينهما». وكذلك قال المساعد ساخرًا من فيتزجيرالد الناضجة التي تفتقد حسّ الذوق في ارتداء الملابس «كانت جنيفر مولعة بحب جورج، فجعلته يشعر وكأنه هبة من الرب للبشرية. فطرفت بعينيها ورمت بنفسها عليه. لقد كانت تسرّح شعرها وتضع أحمر الشفاه وتتعطّر في كل مرة تدخل فيها إلى مكتبه بحذائها ذي الكعب الكبير العالي. وكانت بمنزلة محظية ولكنها غير موهوبة. لقد كانت بمنزلة استراحة من باربرا التي لم تكن عاطفيةً البتة فهي تقول له ما يشابه: «أوقف الحماقات يا جورج» أو «افتح الباب». وبالتالي، فإن جنيفر شكلت وسيلة له لإرضاء غروره.»[3]

وكذلك أشارت صديقة فهيمة أيضًا أنّ شبه مغازلة فيتزجيرالد قد أيقظت «المرأة» في بوش. وقد كانت السيدة الأولى، نانسي دافيس ريغان أكثر الأشخاص الذين عارضوا بتهكم، فهي كانت تشبه عائلة بوش بسبب سلوكها المشابه لسلوك سكان الولايات الشمالية بدلاً من السلوك الكاليفورني، وسخرت من مقياس باربرا الذي أصبح ستة عشر بسبب وزنها الزائد ومن افتقادها الذوق في اختيار الملابس. وعلى عكسها، كانت نانسي محبةً للموضة مذكرةً بالسيدة سيمبسون، دوقة وينزر فقد كان مقياس فستانها أربعة وكانت تنفق ثروةً لارتداء ملابس مصمّمي الأزياء فضلاً عن أنها كانت مرتابة لدرجة جنون العظمة بالنساء الأخريات، تمامًا كالرجال الذين يمكن أن ينافسوا «روني» في الأضواء. وكذلك، كان جورج بالنسبة إلى نانسي «ضعيف الشخصية « و«كثير التذمر». فقد استمتعت بحادثة «جورج وصديقته»، أرملة أحد أعضاء الكونغرس السابقين، بحيث تعرضت سيارة بوش إلى حادث واضطر جهاز

(١) كتاب George Bush لـParmet ص. ٢٤١.
(٢) كتاب The Family لـKelley ص. ٣٢٦.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٣٥.

المخابرات إلى إخفاء أثر الحادث.[1] وقد ذكر بوش في ما بعد في مذكراته حين أصبح رئيسًا « أعرف أنّ نانسي لا تكن لي المودة ولكن ليس بوسعي القيام بأي شيء حيال ذلك.»[2]

ومع ذلك، لم تجرؤ نانسي ريغان حتى على تسريب أسرار حياة جورج بوش التي يمكن أن تلحق الضرر بصورة البيت الأبيض في عيون الشعب. بالإضافة إلى ذلك، كانت لا تزال الصحافة تتبع قرارًا غير مكتوب بشأن ترويج الفضائح في العام ١٩٨٧، إلى حين اجترأ السيناتور الوسيم المرشح الديمقراطي غاري هارت على تقديم تقرير حول مغازلته لدونا رايس، وقد دفع ثمن ذلك.

وبالتالي، كانت عواقب نائب الرئيس جورج بوش وكل من تمنى أن يترشح لمنصب الرئاسة بعد هارت وخيمة. فأصبح متوقعاً من المرشحين الجمهوريين بالإضافة إلى المسائل السياسية، كالموقف المعارض للإجهاض والمضاد للضرائب والمناهض للحكومة، تحسين مسار سلوك العائلة، وهو المطلب الذي لاقى دعمًا حماسيًا من النساء اللواتي سئمن من السلوك الذكوري. وبالتالي، تحدث كبيرة معاوني الحاكم دوككيس دونا برازيل بوش في حملة العام ١٩٨٨ تحت شعار «للشعب الأميركي كل الحق بمعرفة ما إذا كانت باربرا ستتقاسم السرير مع بوش في البيت الأبيض» في ما يتعلق بالإشاعات الخاصة بجنيفر فيتزجيرالد.

ولكن في المقابل، طرد الحاكم دوككيس بسرعة السيدة برازيل، من دون تردد لصحة قراره في السنوات المقبلة. وفي هذا الصدد قال لابنة بوش دورو: «فليذهب كل هذا إلى الجحيم، فحين تقرر أن تدخل هذا العالم، عليك أن تقرر هويتك إضافة إلى المعايير التي ستضعها لنفسك وللأشخاص الذين يحيطون بك. وفي حال تصرف أحد أعضاء فريقك خلاف ذلك يصعب عليك القبول.»[3]

(١) كتاب George Bush لـParmet، ص.٢٧٣.
(٢) المصدر السابق
(٣) كتاب My Father, My President لـKoch، ص. ٢٢٤.

وفضلاً عن ذلك، لم يرد بوش الخدمة، فمن خلال قيادته لاستخدام إستراتيجية لي أتواتر العنصرية والساحقة من أجل تحطيم دوككيس وويلي هورتن، قلب بوش حملته الخاسرة وفاز بالمنصب الذي تاق إليه في خلال الثماني سنوات السابقة، وإنما فشل في تحقيق المبدأ الأخلاقي الذي عاش والده وتوفي عليه. في ما بعد لامت ابنته الصحافة منتقدةً القصص التي نشرتها حول فيتزجيرالد بشدة «ها هو مثال جديد يدل على كيفية تحول الأشخاص الذين يترشحون لمنصب ما إلى أملاك عامة، وكيف أنه لا يمكن لأي شيء أن يوقف بعض الصحافيين عن إسقاطهم». ولكن والدها الحبيب كان في الحقيقة تمامًا كوالد جولي نيكسون الذي اتفق مع الشيطان الذي تجسّد بلي أتواتر وجعل من فريقه قتلة.

وبعد مضي أربعة أعوام، خسر جورج هربرت واكر بوش المنصب الذي عاش وهو يعمل من أجل الحصول عليه، فغرقت عائلة بوش في الحزن أيضًا لوفاة دوروثي واكر بوش (الجدة) وعاشت فترة حداد مزدوجة. عاد الرئيس الواحد والأربعون ليمضي فترة تقاعده في تكساس في العشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣، وعلى الرغم من أنه وحده الملوم على فشله في إعادة انتخابه، وجّه اللوم إلى وسائل الإعلام. وبالإضافة إلى ذلك، قرر جورج بوش عدم كتابة مذكراته وعدم نشر أي شيء يخصه علناً خشية أن ينفّس عن وجعه. فقد كان عازمًا بحسب تعبيره على «البقاء بعيدًا عن المراوغة». وبالتالي، ذكر الصحافي بوب وودوارد في خلال فترة تقاعد بوش «لقد ابتعد عن المراوغة، ولم يتمكن قط من إيجاد السلام أو الراحة أو السعادة» كما فعل ريغان.[1]

والأهم من كلّ ذلك كان تأثير تقاعد بوش غير السعيد في أولاده. فقد أثار الموضوع ليطلعهم على الحقيقة علمًا أنه سمح لغيظه أن يطغى على جوانب إرثه الإيجابية، أي انهيار الاتحاد السوفياتي السلمي وتحرير الكويت، ناهيك بفشله في

(١) كتاب Shadow: Five Presidents and the Legacy of Watergate لـ Bob Woodward، ص. ٢٢٣.

التعبير عن تأنيب ضميره بما يخص تكتيك الحملة التي استعملها لتدمير الحاكم دوككيس في العام ١٩٨٨. عندئذ لم يعد الفخر والصدق إرثه لأولاده ، وإنما شعور مؤثر بفشل غير عادل. هذا الفشل الذي في حال كانوا أولياء حقًا له فعليهم تقديم تعديلات تمامًا كما فعل أبناء كينيدي حين عوضوا من فشل جو كينيدي كسفير لبريطانيا. وبالتالي، ستنشأ واحدة من أكبر المفارقات في تاريخ القياصرة الأميركيين،التي تكمن في رؤية الرجل الذي حكم ثروة الإمبراطورية بمسؤولية كبيرة وبمرونة في ظل عالم انتقالي، وزوجته باربرا وابنهما وهو يقوم بعكس ذلك.

الفصل الحادي عشر

بيل كلينتون

ديمقراطي

الرئيس الثاني والأربعون

(من العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ إلى العشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠١)

الجزء الأول: الطريق إلى البيت الأبيض

ولد بيل كلينتون في عائلة معمدانية في مدينة هوب في أركانساس في التاسع عشر من آب/ أغسطس ١٩٤٦ باسم وليم جيفرسون بليت الثالث وليس كلينتون. وكان قد توفي والده المزعوم بيل بليت جي آر المتزوج للمرة الثانية بطريقة غير شرعية والذي يعمل كتاجر في إثر حادث سيارة قبل ولادة ولده.

كانت والدته فيرجينيا الابنة الوحيدة لبائع الثلج وأمين المخزن غير المتعلم الذي يعيش في مدينة هوب، والمتزوج بممرضة مساعدة. وفي الوقت الذي غادرت والدته الأرملة إلى نيو أورليانز لتتدرّب كممرضة لطبيب التخدير، كان بيلي بليت الصغير يعتني بجديه في مدينة هوب.

لم يعرفه والد بيلي بليت الثالث الحقيقي يومًا، وإنما كشف ذكاء الصبي الحاد نفسه حين تزوجت والدته الأرملة مرةً جديدةً وانتقلت مع زوجها المتفاخر الطائش الثاني روجر كلينتون الذي كان تاجر سيارات مطلقاً، برفقة ابنها الصغير إلى هوت سبرينغز «مزبلة» أركانساس كما سماها أحد المتكلمين المحليين.

وفي العام ١٩٥٩ أي حين كان كلينتون في الثانية عشرة من عمره، قدّمت فيرجينيا طلب طلاق لتعيد سحبه في ما بعد. وقد شهد بيلي وهو ينمو على العنف الذكوري المنزلي المتواصل وأصبح قادرًا على تحدي زوج والدته السكير ليتوقف عن ضرب والدته، وقد نجح في ذلك مدة موقتة حين سيق روجر كلينتون إلى زنزانة الشرطة حيث أمضى ليلته. وكذلك لم يتوقف الزوج عن تناول الخمر وعن التهديد والضرب مما حث فيرجينيا على رفع طلب الطلاق مجددًا في العام ١٩٦٢ وكان ذلك نهائيًا هذه المرة.

بالإضافة إلى ذلك، غيّر بيلي بسرور اسم عائلته من بليت إلى بيل كلينتون في

الخامسة عشرة من عمره. لقد انكب الشاب على الدراسة وعُرف بطوله الاستثنائي ٦,٣ أقدام. برع بيل في العزف على الساكسفون كما برز في مواد الرياضيات واللغة الإنكليزية والدراسة العامة ولكنه شعر بالذل لدى زواج والدته بداعي الشفقة ثانية روجر كلينتون.

لكن قد تبيّن لاحقًا أن زواج فيرجينيا الجديد خطأ، إذ فقد روجر كلينتون السكير المؤذي نفسه وأصبح ابنهما روجر كلينتون الابن خاملاً كأبيه، فانتهى به الأمر في السجن بسبب الاتجار بالمخدرات وإدمانها.

ومع ذلك، تميز بيل كلينتون بأخلاقياته فقد أنعم الله عليه بذكاء استثنائي وبذاكرة تصويرية وبعمق التعاطف إضافة إلى عزمه على رؤية العالم وإحداث فرق وذلك بعد مقابلته الرئيس كينيدي عندما كان طالباً في السنة الأخيرة في الثانوية في خلال زيارة له في واشنطن في صيف ١٩٦٣. وكذلك، تقدم بيل بطلب إلى كلية الخدمة الأجنبية في جامعة جورجتاون التي يغلب عليها الطابع الكاثوليكي في العاصمة وقد نشأت في الثلاثينيات من أجل تعليم الراغبين في أن يصبحوا دبلوماسيين وعلماء في السياسة، وقد قُبِل فيها.

لقد عمل بيل طالباً جامعياً متدرجاً في مكتب العاصمة واشنطن لدى السيناتور الديمقراطي ويليم فولبرايت، رئيس لجنة علاقات مجلس الشيوخ الخارجية وذلك في خلال سنوات الحرب الأولى في الفيتنام ليصبح مستشاره ومعارضًا عنيفًا للنزاع، فضلاً عن أنه كان مترددًا شخصيًا إزاء القتال هناك في حال تقرر ذلك. من جهة أخرى، حصل على منحة رودوس في جامعة أوكسفورد وتابع دراساته العليا وشارك في احتجاجات السلام في لندن. وأخيرًا غيّر رأيه ما أدى إلى انهيار عقلي. فكان كل الرؤساء الذين توالوا على الحكم منذ هاري ترومان قد أدوا الخدمة العسكرية. فرفض فكرة تأجيل الخدمة العسكرية كما رفض عرض الخدمة في الحرس القومي، فتسجل كلينتون للتجنيد الإلزامي رسميًا.

بالإضافة إلى ذلك، لقد ثبت أنّ كلينتون محظوظ لأمركان يأمله سرّا، ففي العام

١٩٦٩، كان رقمه بعيدًا ولم يتم استدعاؤه (كان رقمه ثلاثمئة وأحد عشر من أصل ثلاثمئة وخمسة وستين). وبتحرره من هذا الالتزام، أصبح مؤهلاً للتقدم بطلب إلى جامعة في خريف ١٩٧٠.

وهكذا عاد كلينتون في العام ١٩٧٣ إلى أركانساس بصفة أستاذ قانون بعد أن حصل على أفضل علامة في القانون في جامعة ييل. في هذه المرحلة أظهر كلينتون ذكاء ثاقباً كأستاذ وطموحاً مبكراً إلى تمثيل المقاطعة عن الحزب الديمقراطي في الكونغرس.

وبعد القيام بحملته الشخصية التي لم تكلَ والتي حاول ابن الثامنة والعشرين عامًا مصافحة كل الناخبين فيها، فشل كلينتون في خلع عضو الكونغرس الجمهوري الحالي، وخجل لكونه حصل على ثلاثة آلاف صوت، وكان متيقناً أنه قد تم تزوير الانتخابات. وعلى الرغم من خيبة أمله وهزيمته لم تضعف عزيمته، فتزوج بحبيبته المخلصة منذ أيام كلية القانون في جامعة يال، هيلاري رودهام. وفي العام ١٩٧٦ أصبح مدعيًا عامًا في الولاية وهو المنصب الذي فاز به بسهولة في عمر الثلاثين. وبعد مرور عامين، أي بعد أن ترشح الحاكم الشعبي ليصبح عضوًا في مجلس الشيوخ، وضع كلينتون نصب عينيه المركز الشاغر وفاز به ليصبح أصغر حاكم في أميركا.

وبعد مضي عامين أصبح كلينتون الحاكم الأصغر سنًا سابقًا بعد أن شهد فترةً صعبة في خلال ولايته الأولى التي تميزت بعدم الانضباط والأهداف المتضاربة وغياب رئيس القطاع. فقد كان بحسب تعبير صديقه الحميم « يبكي من كثرة الانزعاج حقًا» غير قادر على الاعتراف بالخطأ الذي ارتكبه.[١]

وكذلك، أثبت فشل بيل في الاعتراف بالأخطاء التي يرتكبها وجود خلل خطير لدى السياسي الشاب الموهوب والمميز. ومن جهة أخرى، توسّل صديقه إليه لتوسيع تفاصيل سيرته الذاتية من خلال كسبه لعيشه في مجال آخر لبعض الوقت فنصحه قائلاً:

(١) كتاب Bill Clinton: An American Journey لـ Nigel Hamilton، ص. ٣٦٢.

« تحتاج إلى الخروج وكسب المال! قم بعمل في عالم الاقتصاد الحقيقي؟»[١] بيد أن كلينتون كان مهووسًا بالسياسة ولم يكن له أي اهتمامات بتعلم تجارة جديدة أو كسب المال تاركاً ذلك لزوجته التي انضمّت إلى مكتب المحاماة المرموق روز في مدينة ليتل روك. وهنا يستذكر صديقه «كان ينظر إلى عيني مباشرة ويقول لا أريد القيام بأي شيء آخر»، ففكرت في نفسي «أظنك مريضاً يا رجل!»[٢]

أمريضاً كان كلينتون أم لا لكنه في منتهى الجدية. فقد دعا الإستراتيجي الجمهوري ديك موريس بلا خجل من نيويورك لتنظيم حملته، كما عيّن بيتسي رايت رئيسة جديدةً للقطاع لتدير فريق عمله ليفوز مجددًا بمنصب الحاكم في العام ١٩٨٢ ومرة أخرى في العام ١٩٨٤.

وفي العام ١٩٨٧، فكر حاكم ولاية أركانساس لأربع ولايات البالغ من العمر واحداً وأربعين عامًا فقط، في خوض انتخابات الرئاسة جدياً. وفي تلك الأثناء، كان لا يزال الرئيس ريغان محبوبًا بشدة، ولكن الحزب الجمهوري كان قد مال أكثر فأكثر إلى اليمين تاركاً الوسط من دون قائد. وكذلك، شجعت هيلاري زوجها على المحاولة ولو كان من باب اكتساب اسم وطني فقط، وإنما واجهته بيتسي رايت بأسماء الفتيات اللواتي كنّ على لائحة الحاكم. وقد استذكرت لاحقًا عن زير النساء «قد لاحق بيل الأمر الذي ظن أنه تهرّب من عقوبته لعدد من السنوات.»[٣] بالإضافة إلى ذلك، أُجبر السيناتور غاري هارت بالفعل على التخلي عن حملته الرئاسية المصمّمة حين تم الكشف عن أنه زير نساء على غرار كينيدي في عصر ما بعد كينيدي السياسي. كما أوضحت رايت أن الحاكم من المستحيل أن يتمكن من تجنب فضح حياته الشخصية التي ستحقق فيها الصحافة الوطنية وبالتالي، سيتم تجريده في حال ترشح تمامًا كما جرى مع هارت. وعلى مضض، أعلن كلينتون وزوجته وهي تبكي قراره عدم ترشحه.

(١) المصدر السابق، ص. ٣٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٣٧٠.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤٧٥.

وقد ازداد كلينتون اقتناعاً عندما رأى ما جرى للحاكم مايك دوككيس بسبب لي أتواتر في العام ١٩٨٨. وفي العام ١٩٩٠، اكتفى كلينتون بأن يكون حاكم أركانساس لخمس ولايات تضم ٢,٣ (مليون) نسمة مقابل مئتين وثمانية وأربعين مليوناً في الولايات المتحدة.

ومع ذلك، وبتركه يتولى أموره بنفسه وقع كلينتون في خطر أن يصاب بما يعرف بالتدمير الذاتي. ففي إثر اقتناعه بأنه كان أذكى سياسيي الحزب الديمقراطي من بين جيله وأكثرهم شعبيةً وحيويةً، قرر كلينتون أخيرًا طرد بيتسي رايت. وفي هذه الفترة من الزمن أي في العام ١٩٩١، تلقى اتصالاً هاتفيًا من روجر بورتر أحد مستشاري الرئيس جورج هربرت واكر بوش في البيت الأبيض ليسأله ما إذا كان ينوي الترشح.

وحين ردّ كلينتون على بورتر وهو أستاذ في كلية الأعمال في جامعة هارفارد، بأنه غير واثق ووعظه بشأن القضايا الحاسمة التي تواجه الأمة، قام المستشار بإيقافه. فراح بورتر يزمجر قائلاً: «توقف عن هذه الحماقات أيها الحاكم» ومهددًا أنه في حال ترشح فسيقومون بتدميره شخصيًا. فشرح له بورتر «هكذا تعمل واشنطن»، مقارنًا نظام أميركا بمدرج روما القديم في تسلية العصابة وتابع كلامه «لا بد أن يكون هناك شخص تهتم به الصحافة في كل انتخابات وسوف تكون أنت هذا الشخص؛ فسوف تصدق وسائل الإعلام أي قصة حول ولاية أركانساس المعزولة. واستكمل كلامه قائلاً»: «سننفق كل ما علينا إنفاقه للحصول على من نريده، وسنجعل من نريد يقولون كل ما يريدون لإطاحتك، وسنقوم بذلك قريبًا». فقال كلينتون متذكرًا: «حاولت أن أبقى هادئًا ولكنني كنت غاضبًا جدًا.»[١]

وبالتالي، أدى كلام بورتر في ذلك الحين إلى نسيان تحذيرات بيتسي رايت المبكرة حول الأضرار الشاملة. من هنا، آمن كلينتون أنه ومن خلال مقاتلته على الساحة الوطنية من أجل ما يؤمن به، سيُبعد الشياطين التي تطارده ويرضي هيلاري وينخرط في قتال حياته ضد عدو تدرب على يد أتواتر لتدميره.

(١) كتاب My Life لـBill Clinton، ص. ٣٦٨.

وكذلك، اعترض فريق عمل كلينتون الخاص على التراجع في خلال الحملة التي تلت ترشيح الحزب الديمقراطي، فيما انكشفت الفضيحة تلو الأخرى، كما توقع بورتر وأشبعت الصحافة المتعطشة إلى الفضائح. من هنا كانت مقارنة بورتر بروما أمرًا مدهشًا حقًا.

وفضلاً عن ذلك، بدأت صحيفة سوبرماركت صغيرة بالمهاجمة في الانتخابات التمهيدية الأولى البالغة الأهمية في نيو هامشاير، من خلال زعمها أنّ كلينتون قد استمتع بمداعبة الجميلة جينيفر فلاورز، مغنية في أحد الملاهي الليلية مدة اثني عشر عامًا. وقد تم تسريب الخبر فورًا إلى الصحافة الجدية. وكذلك، كما لو لم يكن كل ذلك كافيًا، تم نقل إشاعات متواترة حول مخالفات مالية تتعلق بصفقات عقارية خاسرة قديمة، في حين انكشفت أيضًا خلفية قصة كلينتون المتعلقة بتهربه المراوغ من الخدمة العسكرية في خلال حرب فيتنام. ونتيجةً لكل ذلك، حين قرأ مدير اتصالات كلينتون جورج ستيفانوبولوس الذي كان يخدم سابقًا في الكنيسة، الرسالة التي أرسلها كلينتون إلى رئيس هيئة تدريب ضباط الاحتياط الوطني في أركانساس ليشكره على «إعفائه من الخدمة» قال في نفسه: «هذه هي، لقد انتهى أمرنا.»[1]

ومع ذلك، لم يكن ستيفانوبولوس يملك أدنى فكرة عن مدى صلابة الحاكم في صغره أو مدى استعداد كلينتون للتصنّع بغية التغلّب على الماكينة الجمهورية المدمّرة. بالإضافة إلى ذلك، غضب كلينتون من مقدم برنامج نايت لاين الذي وافق على الظهور فيه قائلاً: «تيد لم تدعُني إلى البرنامج سوى لمناقشة قضية المرأة التي لم أقم معها يومًا أي علاقة والخدمة العسكرية التي لم أتهرّب منها قط.»[2]

إلا أنه، وبالنظر إلى وجود أشرطة صوتية حقيقية لمكالمات هاتفية مع السيدة فلاورز تم عرضها في مؤتمر صحافي عقد خصوصاً في نيويورك، إضافة إلى تلاوة رسالة كلينتون حول تهربه من الخدمة العسكرية علنًا، صعب على أغلبية المشاهدين

(١) كتاب All Too Human لـGeorge Stephanopoulos، ص. ٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص. ٧٧. أخيرًا اعترف Clinton في خلال أداء شهادته سنة ١٩٩٨ بأنه أقام علاقة مع Gennifer Flowers.

تصديق إنكار الحاكم لهذه الوقائع. ومع ذلك، ولبهجة ستيفانوبولوس، بدا وكأنّ الناخبين على استعداد لتبرير أفعال كلينتون لأنها في نهاية الأمر لا ترتبط بقدرته على قيادة البيت الأبيض في وقت المحن الاقتصادية. فالحقيقة أنّ الحاكم جيمي كارتر كان قد وعد أنه «لن يكذب أبدًا» على الشعب الأميركي، ولكن هذا الوعد لم يجعله رئيسًا أفضل، بل على العكس، لقد أظهره خطابه «الفاتر» رئيسًا سيئًا. وفي وسط عدد بسيط من المرشحين، برز كلينتون وكأنه البطل صاحب الشخصية الفذّة متمتعًا بمهارات خطابية تساعده على حث البلاد على تقبّل عصر التجارة العالمية الجديد فضلاً عن التمويل والابتكار التكنولوجي وفي الوقت عينه السعي إلى تحقيق السلام في الخارج. وبالتالي، اعترف ستيفانوبولوس في وقت لاحق أنه أصبح «مساعدًا» تمامًا كهيلاري وزملائه في الحملة.(١)

في ما بعد شعر ستيفانوبولوس بالخجل، ولكن هل كان سيفوز الشاب الذي ينتمي إلى ولاية أركانساس في انتخابات الحزب الديمقراطي للرئاسة ناهيك بالانتخابات اللاحقة لو اعترف بالحقيقة؟ في الحقيقة كان هناك على الأرجح مرشح واحد فقط عن الحزب الديمقراطي في أميركا يتمتع بالثقافة اللازمة والشعبية والذكاء والوقاحة وقوة الإرادة الصلبة للتغلب على المد الأحمر من انتقادات صقور الحزب الجمهوري في الانتخابات، ألا وهو « ويلي البارع» كما كان يسمى بمحبة في أركانساس.

وتجدر الإشارة إلى أنّ طفولة كلينتون القاسية وهزيمته الانتخابية المزدوجة في أركانساس على وجه الخصوص شكلتا عناصر حاسمة في نضج سياسته. فلم يضاهِ أي مرشح بيل كلينتون في خلال الحملة. فكان يتحدث ببلاغة ويتحلى بذاكرة حادة، فهو أستاذ بالفطرة ويتمتّع بالطاقة والمثالية فضلاً عن أنه عميق ورقيق يشعر بآلام الناس من دون ملل. كذلك جمع مبالغ هائلةً من الحملات المالية من دون كبت أي رغبة في طلب الدعم المالي. وبالتالي وعقب أضرار الادعاءات المدمرة في الانتخابات الأولية في نيو هامشاير، عاش كلينتون الحاكم سعادة عارمة لفوزه في شباط/ فبراير

(١) كتاب All Too Human لـStephanopoulos، ص. ٦١.

١٩٩٢. فقد نجا من إعصار حقيقي من الأسرار التي كان من شأنها أن تقضي على ترشيحه وتجاوز الأمر. بالإضافة إلى ذلك جعلت رسالته الإيجابية الواضحة والوسطية التي تتطلع إلى مستقبل مشرق للإمبراطورية الأميركية، حملة الرئيس بوش القائمة على السلبية تبدو وكأنها تفتقر إلى الأفكار وخصوصًا بعد سنوات ريغان الطويلة التي سبقته. وفي الأسابيع التالية راح يفوز كلينتون في الانتخابات الأولية الواحد تلو الآخر، ليصبح في أواخر الربيع مرشح الحزب الديمقراطي الرسمي. بالإضافة إلى ذلك، لاقى اختياره للمرشح السيناتور آل غور لمنصب نائب الرئيس الذي يصغره بسنتين إعجاب الكثيرين. وكذلك، اقتحم ابنا الخمسينيات البلاد طابعين رسالةً متفائلةً من المسؤولية والتجديد، مما أدى إلى ظهور المرشح المستقل الملياردير روس بيرو غريبًا والرئيس كأنه من الماضي. وحين اعترف بوش بالخطر وعمل على كشف ادعاءات جديدة عن طريق غزو جواز سفر كلينتون في وزارة الخارجية كان الأوان قد فات، فقد كان من المستحيل إيقاف الفريق كلينتون وغور.

وفي انتخابات تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٩٢، هزم الحاكم كلينتون بوش هزيمةً شنيعةً في التصويت الشعبي ونال ثلاثمئة وسبعين صوتًا مقابل مئة وثمانية وستين للرئيس جورج الذي أحرز في التصويت الشعبي ٦ ملايين صوت تقريبًا في حين نال روس بيرو ما يزيد على خمسة وعشرين مليون صوتٍ. وكانت سعادة الديمقراطيين عارمة فقد فاز بيل كلينتون من دون منازع.

الجزء الثاني: الرئاسة

بعد حفلة التنصيب في العشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٣، انتقل أفراد عائلة كلينتون إلى منزلهم الجديد في جادة بنسلفانيا ١٦٠٠. وبعدها تبيّن أنّ بيل كلينتون كان أذكى رجل فاز بالانتخابات الرئاسية، إلا أنه ويا للأسف لم يكن قد فكّر في كيفية إدارة المكتب الرئاسي الرسمي.

في الواقع، أحبّ بيل كلينتون الأفكار والنقاشات، وكان فخورًا بالمؤتمر الاقتصادي الذي دام ثلاثة أيام والذي عقده في ليتل روك، في خلال المرحلة الانتقالية. كذلك، كان الرئيس الجديد نابضًا بحس المبادرة، إلا أنه ارتكب كل الأخطاء التي يمكن للرئيس ارتكابها من حيث القيادة الرئاسية. فقد ترك تعيينات البيت الأبيض إلى اللحظة الأخيرة بسبب هوسه في تأليف حكومة تضمّ كل أطراف وفئات الشعب الأميركي. فعيّن صديق طفولته رئيسًا للقطاع السياسي ما أدى إلى إثارة بعض المخاوف في واشنطن. بالإضافة إلى ذلك، عيّن زوجته هيلاري كلينتون، بدلاً من نائبه آل غور، مسؤولةً عن فرقة إصلاح الرعاية الصحية المعنية بالتوصل إلى حلول لمسألة الرعاية الصحية في أميركا في غضون مئة يوم.

لكن وبما أن هيلاري كلينتون أعلنت شخصيًا أنها لا تملك أدنى فكرة عن الرعاية الصحية، فيعد هذا التعيين هو الأصعب، لأن هذا الملفّ يُعد الأكثر صعوبةً في السياسة الأميركية، ولم يتطرّق أي رئيس إليه منذ أف.دي.آر. فبالإضافة إلى أنّ فرقة عمل كلينتون احتاجت إلى حوالى ألف يوم لتتوصّل إلى اقتراح، فإن الكونغرس رفضه، وأخر التوصل إلى إصلاح حقيقي لنظام الرعاية الصحية في أميركا عقداً كاملاً.

وبالنظر إلى غياب رئيس قطاع مخضرم إلى جانب بيل كلينتون يوفّر له النصح حول القيادة والعمليات والثقافة العسكرية، قلب الرئيس الشاب نصف الأمة ضدّه عندما أعلن في أول يوم له في الرئاسة أنه سيجعل من أولوياته كرئيس «قبول المثليين جنسيًا في الجيش».

فقد، أثار هذا الإعلان (بما أن المسألة كانت من آخر الأولويات على جدول أعمال المثليين) الذي لم يكن قد تم الإعداد له أو مناقشته مباشرةً معارضةً من لجنة رؤساء الأركان المشتركة المشكّكة وكادت تؤدّي إلى ردة فعل عنيفة في الكونغرس، وخصوصاً أنه صادر عن شخص تهرّب من الخدمة العسكرية «وقد نجا من الخدمة في فيتنام». فوجد كلينتون نفسه يواجه موجة غضب من سائر الأمة، في حين كان يسعى إلى التعامل مع العجز القومي المتنامي والاقتصاد المتعثّر، وارتفاع أعداد

العاطلين عن العمل إلى أعلى نسبة منذ عشر سنوات. وكان أيضًا يواجه المرحلة الانتقالية للخروج من الشيوعية التي يشهدها العالم.

وهكذا، كل ما لمسه الرئيس أو حاول معالجته تحوّل، أو كاد يتحوّل إلى كارثة في السنة الأولى من رئاسته. ومن جهة أخرى، في شباط/فبراير ١٩٩٣، فجّر إرهابيون مسلمون غاضبون مركز التجارة العالمي في نيويورك، وشكل هذا الحدث دليلاً على أنه خطر جديد يهدّد الحضارة الغربية. فتعمّد كلينتون أن يكون ردّه على الاعتداء حذرًا، مما زاد غضب الشعب خصوصًا بالنظر إلى عدد الضحايا (خمسة أشخاص)، إلا أن نقص الخبرة والخطوط الواضحة في البيت الأبيض أقلق المؤتمنين على الأمن القومي وبالتالي الأمن الدولي.

وفي هذا الإطار، وبعد أن كان الرئيس جورج دبليو بوش يحكم السيطرة على زمام الأمور، أخافت هفوات البيت الأبيض حتى أكبر مؤيدي كلينتون. وما زاد الطين بلّة هو طريقة تعامل الرئيس مع حادثة المواجهة في واكو في تكساس. فقد كان ديفد كوريش رجلاً مجنوناً يعيش في مجمّع سكني كلّ أفراده مدججون بالأسلحة الثقيلة، وقد أعلن نفسه المسيح المنتظر فأقفل المجمّع السكني على نفسه مع ما يزيد على مئة تابع في انتظار المعركة الحاسمة. فذبح كوريش، الذي يرحّب بالموت، المسؤولين الحكوميين الذين حاولوا الدخول إلى المجمّع. لذلك، وفي التاسع عشر من نيسان/أبريل ١٩٩٣، قام عملاء مكتب التحقيق الفدرالي بإشعال النار بكوريش بالإضافة إلى مئة رجل وامرأة وطفل أبرياء. في الواقع، كان الرئيس هو الذي سمح بهذا الاعتداء الحكومي، إلا أنه لم يتحمّل مسؤوليته، بل حمّل جانيت رينو النائب العام المسؤولية. فبدا جليًا للجميع أنّ كلينتون لا يشبه جون أف. كينيدي بشيء.

وفي الثالث عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، استضاف الرئيس كلينتون في حديقة روز غاردن في البيت الأبيض توقيع اتفاقية أوسلو التاريخية بين إسرائيل وفلسطين بواسطة نروجيّة، ووقّع الاتفاقية كل من ياسر عرفات وإسحق رابين. إلا أنّ كل الآمال في أن يكون الرئيس الطويل والوسيم قد نضج، اندثرت بعدها بثلاثة أسابيع

بسبب أحداث الصومال. في الواقع، وفي الثالث من تشرين الأول/أكتوبر، تمت محاولة القضاء على ملازمين تابعين للواء محمّد عيديد الذي كان يعرقل عمليات الأمم المتحدة لتوفير المساعدة الإنسانية. وكما فشلت محاولة الرئيس كارتر في العام ١٩٧٥ إنقاذ الرهائن في إيران، فشلت عملية الحية السوداء فشلاً ذريعًا، بحيث فشل تنفيذ الغارات وأسفر عن موت تسعة عشر جندياً أميركياً مغواراً. كذلك، انتشر الذعر في كل أنحاء العالم، عندما تمّ سحل جثث الجنود عراة عبر شوارع مقديشو، استهزاءً بجهود القوة العظمى الوحيدة الباقية في العالم.

أما بالنسبة إلى كلينتون، وبصفته الرئيس والقائد الأعلى، فتعد مسألة مقديشو كارثةً حقيقية في السنة الأولى من توليه الرئاسة. ولكن كانت في انتظاره مصيبة أسوأ تضرّ بسمعة الولايات المتحدة. ففي الثامن من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣، أجبرت السفينة الحربية يو أس أس كاونتي على الانسحاب فيما كانت تنقل الرئيس الهاييتي المُنتخب جان برتران أريستي الذي كان عائدًا إلى جزيرته في الكاريبي في إثر اتفاق ترعاه الأمم المتحدة مع المجلس العسكري. وقد أجبرت السفينة على التراجع عندما واجهت سفّاحين في بورت أوبرنس يصرخون «الصومال! الصومال!».

وفي هذا الإطار، خشي مستشار الأمن القومي توني لايك المفزوع «أن يؤثر ذلك في عزيمة الجنود الأميركيين في أنحاء العالم».(١) ولم يكن لايك هو الوحيد الذي شعر بهذا الخوف، فقد قال الجنرال ساليفان رئيس أركان الجيش الأميركي للأدميرال ميلر رئيس أركان القوات البحرية التابعة لحلف شمال الأطلسي: «لا يمكننا أن نعيش مع هذا العار».(٢) وهكذا، وبعد سنوات من تحمّل أميركا المسؤولية بقوة للمحافظة على السلام والأمن في العالم، وفي حين كان قد انهار الاتحاد السوفياتي، تمّ اعتبار هذا الفراغ في البيت الأبيض منبّهًا بالنسبة إلى الدبلوماسيين والجنود الذين كانوا يخشون أن يؤدّي هذا الفراغ إلى التشجيع على قيام المزيد من الفصائل

(١) كتاب Bill Clinton: An American Journey لـHamilton، ص. ١٩٢.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٩٥.

في الخارج، فيما أثبتت نظرية ريغان بخصوص انتصار الرأسمالية الديمقراطية على الرغم من بساطتها أنها ناجحة بشكل كبير.

وفوق كل ذلك، تعرّضت جهود كلينتون إلى ضربة قاسية أخرى، بسبب سلسلة من فضائح الماضي، التي عادت لتقضّ مضجعه، كما كانت بيتسي رايت قد تكهّنت، وهي فضيحة وايت واتر وفضيحة تروبرغيت وفضيحة بولا جونز. وكلّ إفشاء، أكان صحيحًا أم لا، أدى إلى تراجع موقف الرئيس الضعيف أصلاً. أما بالنسبة إلى السيدة الأولى، فقد تعرّض مشروع الإصلاح الذي قدمته إلى انتقادات واسعة، وفي السادس والعشرين من آب/أغسطس ١٩٩٤، أسقطه الكونغرس، في حين أعلن رجال الأعمال الفاحشو الثراء اليمينيون على غرار ريتشارد ميلان سكايف استعدادهم التام لتقديم المساعدة على إجبار الرئيس على الاستقالة وتمويلها لأنه إمبراطور فاشل.[1] أما على الصعيد الإعلامي، فقد بثت الإذاعات التلفزيونية إعلانًا يُظهر وجه الرئيس يتحوّل إلى وجه المرشحين الديمقراطيين الآخرين للانتخابات النصفية. ونتيجة لما سمّاه مدير إعلام كلينتون (الذي استقال) «استفتاءً سلبيًا لرئاسة كلينتون»، مُني الحزب الديمقراطي بأكبر خسارة انتخابية له في تاريخه، فهو لم يخسر ثمانية مقاعد في مجلس الشيوخ وأربعة وأربعين في مجلس النواب فحسب، بل أيضًا خسر الأكثرية في المجلسين.[2] وقع البلد كلّه تحت تأثير الصدمة، فقد بدا أن ابن أركانساس على شفير الانتهاء.

ونتيجةً للهزيمة في الانتخابات، غرق الرئيس المجروح في «الكآبة» على ما وصفه لاحقًا ملحقه الصحافي. حتى أن السيدة الأولى اعترفت وهي تجهش بالبكاء أمام فريق عملها المؤلف من نساء فقط والذي كان يُسمى «مجموعة النساء»أن نتائج الانتخابات تعد «كارثة مميتة». أما محاولاتها في مجال إصلاح نظام الرعاية الصحية التي كانت تتباهى بها فقد تعثّرت، وقد تساءلت علنًا «ما إذا كنت قد

(١) كتاب The Hunting of the President لـJoe Conason وGene Lyons، ص. ١٧٣ وما إلى ذلك.
(٢) كتاب Eyewitness to Power لـDavid Gergen، ص. ٣١٤.

راهنت على قبول البلد لدوري النشيط وخسرت الرهان».[1] أما في خلال حملتها لخطة الرعاية الصحية، ففوجئت بالشعور بالعداء الشخصي لها، بحيث أصبحت وفقًا لما قالته «شخصًا يحوّل كل أنواع ردود الفعل إلى غضب».[2] وفي هذا السياق أيضًا، صرخت عبر الهاتف في ديك موريس الذي كان منظِّم الاستفتاءات الجمهوري للرئيس كلينتون والمخطط الاستراتيجي قائلةً: «لا شيء مما أفعله ينجح، لا شيء يسير كما يجب، لم أعد أعلم ماذا أفعل».[3]

من ناحية أخرى، نصح موريس الرئيس أولاً بالتخلّص من هيلاري، التي كانت تؤدّي دور مساعد الرئيس. من ثمّ أعلن موريس للرئيس أنه عليه أن يقبل البيان الرأسمالي الذي أدلى به رئيس مجلس النواب الجمهوري في الكونغرس وأطلق عليه اسم «وثيقة العقد مع أميركا»، والذي ساهم فيه النائب نيوت غينغريتش. ويشكل هذا البيان دعوةً إلى الجمهوريين بحيث لا يخسر الأثرياء شيئًا سوى سلاسلهم الخاضعة للضريبة. باختصار، كان على كلينتون أن يتحوّل إلى نسخة عن موريس، أي أن يصبح جمهوريًا.

فوافقت هيلاري على إخلاء مكتبها في الجناح الغربي من البيت الأبيض بعد أن هُزمت والتخلي أيضًا عن أداء دور مساعد الرئيس. بيد أنّ كلينتون رفض رفضًا قاطعًا كعادته، تحمّل مسؤولية المصيبة التي حلّت في الانتخابات، إلا أنه اعترف بالشعور الجماعي بالذنب، وقال في هذا السياق: «لقد تعرّضنا لهزيمة ساحقة».[4] ولكنه رأى فجأةً ما لم يكن أحد سواه يراه، حتى موريس، فهو قد فهم أنّ الجمهوريين أطاحوا كل منافس له داخل الحزب الجمهوري، بدءًا بحاكم نيويورك ماريو كومو وصولاً إلى رئيس مجلس النواب جيم رايت. وبذلك، أصبح الرئيس حرفيًا آخر ديمقراطي صامد، ما أعطاه فرصة، ليس التحوّل إلى جمهوري على غرار ما نصحه

(١) كتاب Living History لـHillary Rodham Clinton، ص. ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) كتاب Hillary's Choice لـGail Sheehy طبعة New York: Random House سنة ١٩٩٩، ص. ٢٥٣.

(٤) كتاب My Life لـClinton، ص. ٦٢٩.

موريس، بل أن يصبح، بفضل ذكائه الثاقب وفصاحته في الكلام، مخلّص عصره مثل موسى. وبالتالي، يقود هو الديمقراطيين المهزومين الذين تعرّضوا لانتقادات لاذعة من نيوت غينغريتش وأتباعه من اليمين الجمهوري إلى أرض الميعاد.

وأخيرًا، وفي سبيل تحقيق الهدف، اقتنع الرئيس بإقالة صديق طفولته مارك ماك لارتي من منصب رئيس القطاع السياسي، وأن يعيّن مكانه، بناءً على نصيحة آل غور، ليون بينيتا، وهو عضو سابق انُتخب تسع مرات في الكونغرس. وكان حينئذ يدير مكتب البيت الأبيض للإدارة والميزانية. وُلد بينيتا من مهاجرين إيطاليين وكان والده سياسيًا خدم في الجيش الأميركي، وبفضل معرفته لغينغريتش ومرتزقته، كان واثقًا بأن الجمهوريين سيردون على هذه الإجراءات. ومن دون أن تتخلى السيدة الأولى، أعطى كلينتون الصلاحية لبينيتا ليدير الحكومة، في الوقت الذي يكون مسافراً، بصفته أمل الديمقراطيين الأخير، ليعلن نظرة جديدة إلى الرئاسة. فهو لم يعد الشخص الذي يشهّر به الناس قائلين إنه مجنون أو سيئ والليبرالي الخطر الذي يسعى إلى جداول أعمال تقدمية من حق المثليين في دخول الجيش إلى برنامج رعاية صحية طموح مرورًا بالإصلاح البيئي. على العكس، سيكون مثل ونستون تشرشل في حزيران/يونيو ١٩٤٠ بعد إخلاء دونكيرك، أي حامي القيم المتحضّرة والوسطية الوحيد مدججاً بأقوى سلاح في الدستور الأميركي ألا وهو حق النقض الرئاسي.

أما بالنسبة إلى رئيس مجلس النواب السمين والقصير والكثيف الشعر والمتعجرف، فلقد كان يتبختر في أرجاء الكابيتول متخيّلاً نفسه نابوليون. لكنه تلقى صدمةً كبيرة. وتجدر الإشارة إلى أنّ ليود بنتين وزير الخزانة المتقاعد كان قد نبّه إلى أن لقب بيل كلينتون «الفتى الذي يقف على قدميه من جديد» لم يأتِ من العدم، لأنه بالفعل «رجل ينفض عنه الغبار ويقوم من جديد».[1] وقد ترشحت هذه النظرية. في الواقع، شكل ديك موريس بالنسبة إلى الرئيس عميلاً مزدوجًا، فصحيح أنّه كان ينقل سرًا خطط البيت الأبيض إلى مساعد قائد الأكثرية الجمهورية في

(١) كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency لـNigel Hamilton، ص. ٤٢١.

مجلس الشيوخ، إلا أنه كان أيضًا ينقل خطط الجمهوريين إلى الرئيس.[١] وبالتالي، صمّم كلينتون إستراتيجية دفاع «مثلثة»، سمحت لغينغريتش أن يحصد الانتصارات ويهدئ من روع اليمين الذي طرد الجرّاحة السوداء جوسلين ألدرز.[٢] وفي هذه الأثناء، قام الرئيس بتحصين المسائل التي يستحيل على الديمقراطيين التخلّي عنها على غرار برنامج ميديكار للضمان الاجتماعي وميديكايد للرعاية الصحية والتعليم والأمن.[٣]

من هنا، شهد عهد كلينتون عكسًا استثنائيًا للحظ الرئاسي لم يشهد له مثيلاً كل تاريخ رؤساء الولايات المتحدة، وهكذا حوّل كلينتون العام ١٩٩٤ من سنة الشؤم إلى سنة الروعة. ففي هذه السنة، واجه الرئيس باسم كل الأمة القتل الجماعي للأبرياء على يد إرهابي أميركي، كما أنه أنهى كابوس الحرب الأهلية التي أدت إلى الإبادات الجماعية في البوسنة.

وعلى صعيد آخر، وقع انفجار ضخم في مبنى حكومي في مدينة أوكلاهوما أدى إلى انهياره كله. في البدء ظن الجميع أن الاعتداء ناجم عن غضب الإرهابيين المسلمين، على غرار الاعتداء الذي استهدف مركز التجارة العالمي. بيد أن المحللين العميقي التفكير أشاروا إلى أنّ التاريخ أي التاسع عشر من نيسان/أبريل ١٩٩٥، يصادف الذكرى الثانية لأحداث مجمّع واكو السكني التي نفذها ديفي كوريش التابع للطائفة البروتستانتية. فهل يمكن أن يكون هذا العمل من صنع الأميركيين اليمينيين، ردًا على دفاع نيوت غينغريتش المستمر عن رأيه المعارض للحكومة وتصرفاته السيئة في واشنطن؟

من ناحية أخرى، خرج غوردن ليدي «السباك» الذي كان من رجال نيكسون من السجن، وأصبح يقدّم خبراته حول كيفية «مقاومة» رجال مكتب الكحول والتدخين والأسلحة النارية إن أتوا ليصادروا أسلحة السامعين كما جرى في واكو، فقال: «صوبوا

(١) المصدر السابق، ص. ٤١٣.
(٢) المصدر السابق، ص.٣٨٦.
(٣) المصدر السابق، ص. ٤١٥.

نحو الرأس، لأنهم يرتدون سترات واقية من الرصاص». وحثَ ليدي، أولاً وأخيرًا، السامعين أن عليهم أن يطلقوا ليقتلوا فصرخ، «ركزوا على ضربات الرأس، أطلقوا النار على الرأس».[١] من جهة أخرى، تصرّف راش ليمبوغ عضو النقابة اليميني بلا مسؤولية تامة عبر برنامج حواري إذاعي. وأدى كل ذلك، إلى زيادة الميليشيات المعادية للحكومة في كل أنحاء البلاد. ومن بين أفراد ميليشيا ميشيغن تيموثي ماك فاي المحب للمسدسات والذي أوقفه شرطي السير بعد أقل من تسع عشرة دقيقة من انفجار أوكلاهوما بتهمة قيادة سيارة من دون لوح التسجيل. وكذلك، هناك تيري نيكولز، رجل الميليشيا العنصري. ولكن سرعان ما حكم على ماك فاي لارتكابه أشنع جريمة كره في تاريخ الولايات المتحدة، أسفرت عن جرح ألف شخص ومقتل مئة وثمانٍ وستين ضحيةً بمن فيهم تسعة عشر طفلاً كانوا في الحضانة الموجودة في المبنى.

وأخيرًا، تصرّف الرئيس بالطريقة التي تلائم موقعه في وجه الغضب والحزن اللذين اجتاحا الأمة. فأعلن مباشرةً عبر التلفزيون الوطني وبقربه جانيت رينو النائب العام «استهدف الاعتداء في مدينة أوكلاهوما أطفالاً أبرياء ومواطنين عزلاً» ووعد أنه «لن يسمح أن يُرهب جبناء أشرار شعب هذا البلد». بالإضافة إلى ذلك، رُفعت أعلام الحداد، واجتمع الرئيس في البيت الأبيض مع أولاد فريق عمله وتحدّث معهم.

وهكذا، ما عاد كلينتون الرجل المُستضعف الذي يعاني مشاكل مع النساء، بل أصبح أبًا. فقد ارتاب إزاء هذا القتل الجماعي الذي نُفِّذ بدم بارد، إلا أنه سعى لتهدئة روع الملايين من الأهالي. فبدأ الرئيس كلامه معلنًا «أعلم أنه، دائمًا، أو أقله غالبًا ما يكون من الصعب التحدث مع الأولاد عن أمور مؤلمة كهذه (كانت صورة رجل الإطفاء ينقل جثة طفل صغير قد انتشرت على صفحات الصحف وشاشات التلفاز)، ولكن في أوقات مماثلة، لا شيء أهم بالنسبة إلى الوالدين من شرح ما جرى

(١) كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency لـHamilton، ص.٤٥١ و٤٥٥.

لأطفالهما ومن ثمّ طمأنتهما إلى مستقبلهم... إنها أوقات مخيفة ومثيرة للتوتر. إلا أنه لا يمكننا أن نسمح لأعمال بعض الأشخاص البغيضين أن تخيفنا أكثر مما فعلت من جراء هذه الحادثة. إذًا مدّوا يد العون بعضكم لبعض وتوحدوا. سوف ننتصر على الذين يحاولون تقسيمنا. وسنتخطاهم بالعمل معًا، واضعين مصلحة أولادنا على سلّم الأولويات».[١]

وتوجه الرئيس في اليوم التالي إلى مدينة أوكلاهوما لتحويل حزن الأمة إلى وسيلة لإحقاق العدل ومعاقبة «الذين نفذوا هذا العمل الشرير. فإن هذه الخطيئة المميتة أودت بحياة عائلاتنا الأميركية، أي أطفال أبرياء كانوا موجودين في ذلك المبنى لأن أهلهم كانوا يحاولون أن يكونوا أهلاً صالحين وعمالاً صالحين، ولأن مواطنين كانوا في المبنى يقومون بعملهم، ولأن كثيرين غيرهم كانوا يعملون لمساعدة المسنين والعاجزين، ولمساعدة المزارعين والمحاربين القدامى، وآخرين كانوا يعملون لإنفاذ قوانيننا وحمايتنا. أقول لكل مواطنيّ الأميركيين: إنه لواجب علينا تجاه الذين ضحوا بحياتهم أن نطهّر أنفسنا من قوى الشر التي أدت إلى هذا العمل الشرّير. إنها القوى التي تهدد أمننا وحريتنا وأسلوب حياتنا. دعونا نعلّم أولادنا أنّ إله الراحة هو أيضًا إله الحقّ. من يرتكب الخطيئة فسيُعاقب. ستحلّ العدالة. فليعرف أبناؤنا أننا سنقف في وجه قوى الخوف. عندما تتصاعد الكراهية، دعونا نواجهها، وعندما يبرز العنف دعونا نقف في وجهه. وفيما نحن أمام الموت، دعونا نكرّم الحياة. وكما علّمنا القديس بولس لا تدعوا الشرير يتغلّب علينا، بل فلنتغلّب عليه بالخير».[٢]

وفي خضم كل هذه الأحداث، بدا الرئيس بالطريقة الشافية والملهمة التي تعامل بها مع مجزرة أوكلاهوما وكأنها «اللحظة التي وُلد من أجلها ليكون الرئيس في

(١) المصدر السابق، ص. ٤٤٣ و٤٤٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ٤٤٥.

خلالها» على ما قال ستيفانوبولوس في وقت لاحق.[1] أما ليون بينيتا، فعدّ هذا الحدث «نقطةً حاسمةً» في رئاسة كلينتون، ليس لأنها أحبطت خطاب غينغريتش اليميني القائم على النقد اللاذع فحسب، بل أيضًا لأنه أرسى أسس التقرب من الشعب الأميركي ليُظهر لهم حقيقته».[2]

على صعيد آخر، لطالما ردد رونالد ريغان أن الحكومة شكلت هي المشكلة لا الحل، وهو شعار ما انفك غينغريتش يردده من دون رحمة. بيد أن تفجيرات أوكلاهوما برهنت أنَ رئيس مجلس النواب غينغريتش وأمثاله هم المشكلة في ذاتها، وليس الحكومة، فهم ضد الحكومة، وضد السيطرة على الأسلحة، وضد تحديد النسل وضد الضرائب وضد كل شيء من شأنه أن ينظّم المجتمع بدل الترويج للشركات الحرة والأرباح الشخصية.

من هنا، وعلى الرغم من أخطاء الرئيس الشخصية، بدا كلينتون صوت أميركا الوسطي الحقيقي. وأصبحت الصفات التي كانت تبدو في السنة السابقة متعثّرة وغير فعالة، تبدو الآن حكيمة ومراعية للمشاعر، خصوصًا بعد أن خرج من كل مشاكله. وهكذا تراجعت نسبة تأييد غينغريتش في حين ارتفعت نسبة كلينتون، ما أعطاه امتيازات إضافية فضلاً عن حق النقض الرئاسي. ومهما حاول رئيس مجلس النواب أن يُقنع المجلس برأيه، حتى ولو كان الرئيس محاطًا بالجمهوريين في مجلس الشيوخ، يمكن للرئيس بكل بساطة أن يعارض. وهذا ما فعله. لم تعد أسلحة الهجوم مسموحة على الطرقات، مهما تنامى ضغط مؤسسة البندقية الوطنية على الكونغرس. ومن ثمّ، سقطت بنود «وثيقة العقد مع أميركا» التي اقترحها غينغريتش واحدًا تلو الآخر.

ومع ازدياد سلطة كلينتون في المسائل الداخلية، ازداد عزمًا على الساحة الخارجية أيضًا. فلقد نجح بطرد المجلس العسكري من هايتي في نهاية صيف ١٩٩٤ بتهديده

(١) مقابلة أجراها ستيفانوبولوس Stephanopoulos على شاشة PBS مع كريس بوري Chris Bury وحملت المقابلة عنوان "سنوات عهد كلينتون" The Clinton Years.

(٢) مقابلة مع Leon Panetta نشرت في كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency لـHamilton، ص. ٥١٥.

باجتياح الجزيرة برًا وبحرًا ما أجبر المجلس العسكري على الاستسلام من دون طلقة نار واحدة. واحتفل أيضاً بذكرى نهاية الحرب العالمية الثانية في الساحة الحمراء في موسكو، بعد أن كان قد أشرك يوري يلتسين الرئيس الروسي في برنامج الشراكة من أجل السلام، ضامنًا تعاون البرنامج مع حلف شمال الأطلسي. بالإضافة إلى ذلك، تمكن من جعل الصرب يوقفون اعتداءهم على سارايفو في البوسنة عبر التهديد بدخول حلف شمال الأطلسي البلد. ولكن حين استعاد الصرب عملية التطهير العرقي في صيف العام ١٩٩٥، قرر كلينتون التحرّك، ليس بصفته القائد الأعلى في الولايات المتحدة فحسب، بل أيضًا بصفته قائد قوات حلف شمال الأطلسي.

وفي خلال الأسبوع الثاني من شهر تموز/يوليو، قتل الصرب في سريبرينيستا ما يزيد على سبعة آلاف رجل بوسني وقاموا باغتصاب جماعي للنساء المسلمات. وشكلت هذه الأحداث، على غرار أحداث تفجير مدينة أوكلاهوما، نقطة انطلاق للإمبراطور المتغيّر. فوقف إلى جانب الرئيس نائبه غور، ومستشار الأمن القومي توني لايك لاستكمال المرحلة النهائية من الإستراتيجية التي ستُجبر الصرب على الجلوس إلى طاولة المفاوضات بغية التوصل إلى اتفاقية سلام. فتجاهل الرئيس دعوات غينغريتش للبقاء خارج أوروبا، فجمع قوات حلف شمال الأطلسي في أكبر تجمّع عسكري كقوة ردع في تاريخ ما بعد الحرب. في الواقع، اجتمع عشرات آلاف الجنود في جنوب شرقي أوروبا، وفي الثلاثين من آب/ أغسطس ١٩٩٥، قصفت طائرات الحلف مواقع المدافع الصربية. فكتبت واشنطن بوست في هذا السياق «كان بالإمكان سماع هتافات الفرح من كل شرفات ساراييفو»، وجاء ذلك، تبعًا لاعتداء صربي بقذائف الهاون على إحدى الأسواق أدى إلى مقتل ثلاثة وسبعين مدنياً بريئاً. ولدى بدء عمليات حلف شمال الأطلسي قالت إحدى المواطنات بتعجّب عندما سمعت صوت الطائرات»: يا إلهي، سوف يقصفنا الصرب، ولكن عندما علمتُ أنّ الطائرات تابعة للحلف بدأت أقفز من شدة فرحي».[1]

(١) كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency لـHamilton، ص. ٥١٥.

وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥، تم التحليق بقادة كل من البوسنة وكرواتيا وصربيا إلى قاعدة دايتون العسكرية الجوية في أوهايو، ومن ثمّ هددهم الرئيس باستخدام قوة الحلف ليجعل الأفرقاء يتفقون على معاهدة سلام في غضون أسابيع. إلا أنّ المعاهدة تطلّبت أكثر من عقد.

من جهة أخرى، كان غينغريتش المسكين قد تنعّم بلقب «رئيس وزراء أميركا». إلا أنه في هذه الأثناء أصبح مضطربًا، وقادته عصبيته إلى ارتكاب أكبر خطأ في حياته. فهو أراد عودة الأسلحة إلى الشارع ليستميل مؤسسة البندقية الوطنية. بالإضافة إلى ذلك، بدأ يشعر بالاعتزاز المفرط، في وقت سابق من ذاك الصيف، إلى حدّ أنه هدد كلينتون عبر الهاتف بما سمّاه «بالدمار الشامل» إن رفض الرئيس اقتراحاته التشريعية بإبطال أقسام التعليم والتجارة والإسكان، وبتقييد ميديكير وميديكايد. بيد أنّ كلينتون رفض، محذّرًا باستعمال حق النقض. وهكذا، صنع غينغريتش التاريخ عبر التهديد.

نتيجة لرفض كلينتون، عطل غينغريتش الحكومة الأميركية في منتصف مفاوضات دايتون في الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر١٩٩٥، ما أدى إلى تسريح حوالى مليون موظف حكومي، مُجبرًا الحكومة على عدم تسديد القروض، والسفارات والقنصليات في أنحاء العالم على الإقفال وعدم دفع الأجور لعشرات ملايين الأشخاص. وفضلاً عن ذلك، أقفلت كل المتاحف والحدائق العامة والمؤسسات. وبالإضافة إلى ذلك، وفي خلال لقاء في منتصف الليل، حذّر عضو الكونغرس ديك آرمي من تكساس تابع نيكسون اليميني وقائد الأغلبية الجمهورية الرئيس بأنّ هذه الأعمال ترسم نهاية رئاسته.

ولكن الحقيقة هي أنّ كل هذه الأعمال شكلت نهاية غينغريتش. فقد كان تذمر رئيس مجلس النواب لأنه لم يُسمح له بالخروج من الطائرة الرئاسية عبر الباب الرئيسي إلى جانب الرئيس في طريق عودتهما من جنازة إسحق رابين الذي اغتيل على يد الإرهابيين في تل أبيب («تتساءلون أين حسن التصرف. أين حس اللياقة؟») واستعمل هذه الحادثة كحجة لاستكمال تعطيل الحكومة، وبدا سخيفًا

كالأطفال بقدر تذمره. حتى أنَّ صحيفة نيويورك دايلي نيوز نشرت رسوماً لغينغريتش وهو يضع الحفاضات وكُتب تحت الصورة «الطفل المزعج».

فهبطت أسهم غينغريتش في حين ارتفعت أسهم كلينتون بشكل هائل عقب اتفاقات دايتون التاريخية للسلام. وبالتالي، شعر قائد الأغلبية في مجلس الشيوخ بوب دول بالخجل. عندما أعاد غينغريتش تعطيل الحكومة في خلال عطلة عيد الميلاد بعد أن كان أوقفه لبضعة أسابيع، أجبره الجمهوريون الجاحدون على التراجع أخيرًا في الخامس من كانون الثاني/يناير ١٩٩٦. وهكذا، شكل «الدمار الشامل» كارثةً ضخمةً ليس بالنسبة إلى البلد فحسب بل أيضًا بالنسبة إلى «رئيس الوزراء» غينغريتش والسيناتور دول أن يصبحا رئيسين للجمهورية.

إذًا، بدأ الرئيس يبرز كسيّد السياسة في عصره، بعد أن حطّ الكثيرون من شأنه في السنة الأولى من عهده واستعاد نشاطه التام في السنة التالية. وحتى أنّ الصحافيين غيروا نظرتهم إلى الرئيس، ففي لندن، كان الصحافي هميش ماك راي قد حذر زملاءه الذين أساءوا في الكلام على كلينتون بعد كارثة الانتخابات النصفية، ونبههم ألا يقللوا من شأن الرئيس الأميركي. فبعد مرور سنتين على انتخاب توني بلير رئيساً لوزراء بريطانيا، أشار ماك راي إلى أنّ سياسات التضامن والوحدة والحق الوطني القديمة لم تعد فعالةً في الاقتصاد العالمي، وأنّ الليبرالية العملية ستبرز إن سعى الرؤساء إلى عقد عهد جديد بين السياسيين والشعب. من هنا، لا بد من أن يدرس كل السياسيين في أوروبا «التغيير الشامل» الذي أجراه كلينتون، لأنه سيكون بوصلةً تدلهم على الطريق الذي قد يشاؤون السير فيه و«خريطة طريق فعالة لنا جميعًا».[1]

وكان بيل كلينتون في ربيع عمره، لا يكلّ، يتمتع بذكاء ثاقب وثقافة غنية، ويتحلّى بالإرادة والقدرة على الاستماع إلى الآخرين، وعازماً على تحسين العالم، من هنا حصد الرئيس تقرير الشعب، ومثل أفضل سفير لبلده من حيث سعيه إلى السلام، واستخدام القوة حيث يجب لإحلال السلام. من تركيا إلى اليابان، اندهش

(١) المصدر السابق، ص. ٤٢٤.

القادة السياسيون بطاقته الهائلة ونظرته الإيجابية، حتى أنه أينما سافر حقق شعبيةً توازي شعبية نجوم الغناء. فقد كان يدعو إلى تحسين التجارة وحماية البيئة بشكل أكبر وتخفيض العنف الناجم عن اختلاف الإثنيات وعن الوطنية. كذلك، كان يتمتع بقدرة هائلة على تسليط الضوء على جوانب مختلفة لأي مشكلة، ومراجعة الحلول، وكان يتميز من سائر القادة في هذا المجال. وبالإضافة إلى ذلك، وفيما كان الاقتصاد الأميركي يشهد ثورةً في تكنولوجيا المعلومات توازي الثورة الصناعية التي شهدها منذ قرن، نظر العالم إلى الرئيس بطريقة تشبه نظرته إلى أف.دي.آر. أي فرعون محبّ للخير يتحلى بمشاعر التعاطف، ويملك حب التعرف إلى ثقافات مختلفة. لذلك، لا عجب أن شعبيته في الخارج تخطت شعبية جون أف. كينيدي.

وعلى الصعيد الداخلي، ازدادت ثقة الرئيس بنفسه خصوصًا بعد خطاب حال الاتحاد الذي ألقاه في الثالث والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٦. وفي خلال الخطاب، قام الرئيس في غضون ثماني عشرة دقيقة بجولة على كل المواضيع بشكل لافت. فأشار إلى محارب سابق في حرب فيتنام، كان حاضرًا، دخل مبنى موراه الحكومي في مدينة أوكلاهوما لإنقاذ حياة ثلاث نساء. وفيما وقف الحضور للتصفيق لشجاعة ريتشارد دين، صرخ كلينتون بحماسة «أتحدى كل من في هذه الغرفة أن يحاول تعطيل الحكومة من جديد».(١)

في المقابل، عبّر المشاهدون والمعلقون عن اندهاشهم لمسيرة بيل كلينتون الاستثنائية، وانتقاله من السذاجة المتعثّرة إلى إحكام السيطرة على المنصب الرئاسي، وتساءل الناس ما الذي أخّره؟ ومن دون شك، لم يكن هناك أحد في صفوف الجمهوريين قادراً على الوقوف في وجهه في انتخابات ١٩٩٦ إن أعاد ترشيح نفسه، فقد بينت استطلاعات الرأي هذا بشكل واضح للجمهوريين الحقيرين الذين يطمحون إلى الوقوف مكانه بدءًا بلامار ألكسندر وستيف فوربز وصولاً إلى نيوت غينغريتش وبوب دايل.

من هنا، وحده الجنرال كولن باول الرئيس السابق للأركان المشتركة قادر على

(١) المصدر السابق، ص. ٥٧٥.

الوقوف لمنافسة بيل كلينتون، إلا أنه استثنى اسمه من المنافسة متذرّعًا بأسباب داخلية. وبالتالي، أصبح الطريق أمام كلينتون خالياً.

من جهة أخرى، وعلى غرار ليندون جونسون في العام ١٩٦٤ بعد إقرار قانون الحقوق المدنية، لو قرر بيل كلينتون أن يتنازل عن الرئاسة في أوجها لمصلحة نائبه آل غور المخلص والشجاع، لكان من دون أدنى شك دخل التاريخ لكونه الرجل الأكثر فاعلية من بين القياصرة الأميركيين، من بعد بداية متعثّرة. في إطار آخر، وعلى الصعيد الداخلي، كان العجز القومي قد انخفض إلى النصف منذ أن تولى الرئاسة بفضل القانون الاقتصادي الذي أقرّه في العام ١٩٩٣، وازداد عدد فرص العمل عشرة ملايين فرصة. وكذلك بدأت مشاريع جديدة بأرقام قياسية، وانخفضت البطالة إلى أدنى مستوياتها منذ ثمانٍ وعشرين سنة. وبالإضافة إلى ذلك، ازداد الحد الأدنى للأجور ٤,٧٥ دولارات للساعة، وأصبح بالإمكان نقل الضمان الصحي من وظيفة إلى أخرى. وتجدر الإشارة إلى أنّ كل هذه الإنجازات قد تحققت من خلال الرفض المباشر لشعار ريغان والجمهوريين المعادي لزيادة الضرائب. ففي الحقيقة، تجاهل الرئيس مقولة ريغان، ورفع شرائح الضريبة على الدخل إلى ستة وثلاثين في المئة بإضافة عشرة في المئة إلى أصحاب أعلى المداخيل بحيث فرض عليهم شرائح الضريبة على الدخل بنسبة ٣٩,٦ في المئة. وكذلك رفع ضريبة دخل الشركات إلى ستة وثلاثين في المئة والضريبة على الغاز. وهكذا، ازدهر الاقتصاد الأميركي على عكس ما توقّع الجمهوريون. وعلى الصعيد الخارجي، أوقف الرئيس الإبادات الجماعية الصربية في البوسنة. كما ساعد على التقدم نحو إحلال السلام في شمال إيرلندا والتوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل والأردن، باللجوء إلى الولايات المتحدة كحكم مستقل. وعلى غرار ليندون بينيس جونسون في العام ١٩٦٤، لم يستطع بيل كلينتون مقاومة الإغراء للبقاء في ولاية ثانية مهما هاجمه أعداؤه.

في الواقع، نادرًا ما كانت الولاية الثانية ناجحة في تاريخ القياصرة الأميركيين بعد أف.دي.آر. لأن الولايات الثانية تتناقض مع الوجه الذي يميّز أميركا وهو التجدد الدائم. إلا أنّ بيل كلينتون الذي وجد نفسه أخيرًا رئيساً للولايات المتحدة، لم يكن

يرغب البتة في تسليم الغنائم التي حصدها بصعوبة تامة إلى نائبه المارشال آل غور. فهو بالإضافة إلى كونه يرى نفسه الأذكى على الإطلاق كما كان يراها عندما هُزم كحاكم أركانساس للولاية الثانية، لم يكن يملك أدنى فكرة عما سيفعله بحياته بعيدًا عن السياسة. فمثلاً، عمل جيمي كارتر في النجارة ومع منظمة هابيتات فور هيومانيتي، كما خدم في قوات حفظ السلام من كوريا الشمالية إلى هايتي. إلا أنّ كارتر كان أكثر تواضعًا من بين كل سائر القياصرة، فيما لم تسمح الكبرياء لبيل كلينتون، منذ أيام الدراسة، أن يقبل احتلال المركز الثاني أو يكون تحت إمرة شخص ناهيك بعدة أشخاص. فقد كان يحتاج إلى أن يشعّ ويبهر الناس ويكسب محبّتهم خشية أن يسيطر عليه الجانب الشرّير في شخصيته ويُسقطه كما جرى مع أخيه روجر الذي أصبح مدمنًا المخدرات وقابعاً في السجن. وشكّل هذا حجةً مقنعة للرئيس للبقاء في البيت الأبيض.

وظاهريًا، بدا قراره في الترشح غير منطقي، فقد قال لمساعديه إنه إن نفّذ حملةً ناجحةً يمكنه أن يعكس الفوز الساحق الذي حققه الجمهوريون في مجلس النواب، ويُسقط نيوت غينغريتش رئيس مجلس النواب الفظيع. ولكن في موازاة ذلك، ومع سير الأحداث، برز أمام الرئيس سبب شخصي وسري يمنعه من الترشّح.

وعلى الرغم من جهود السيناتور دول المرشح الجمهوري في إيذاء الرئيس بالتركيز على «طباعه» واستقامته المادية، حقق الرئيس الصبور والإيجابي والفصيح ثلاثة نجاحات ساحقة في المناظرات الرئاسية. أما روس بيرو المرشح المستقلّ الذي لم يُسمح له بالمشاركة في المناظرات فحصد أصواتًا أقل مما حصد في العام ١٩٩٢ بعشرة ملايين صوت. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، لم يحصل دول الذي استقال من منصبه كسيناتور ليعطي وقته كله للحملة سوى على مئة وتسعة وخمسين صوتًا انتخابيًا مقابل ثلاثمئة وتسعة وسبعين لكلينتون. وهكذا بقي ويليم جيفرسون كلينتون في البيت الأبيض وأصبح أوّل ديمقراطيّ يفوز بولاية ثانية منذ عهد فرانكلين روزفلت.

وفي المقابل، بدل أن يرحّب الجمهوريون بالرئيس الذي غيّر سلوكه متأخرًا في المكتب الرسمي، لم ينفكّ خصومه من الجمهوريين يعدونه هدف حقدهم الأساسي. وهكذا كلما حقق نجاحًا في حشد دعم الناس بعد حادثة مدينة أوكلاهوما واتفاقات دايتون للسلام، ازداد عزم المتشدّدين الجمهوريين لإيجاد طريقة لإسقاط المثقف الديمقراطي. وكذلك فإن فكرة نجاح مشروع القانون الاقتصادي المتعدد الإجراءات في تحفيز الاقتصاد الأميركي واستعادة النمو الدائم وتخفيض العجز القومي زادت الطين بلة بالنسبة إلى خصومه، خصوصًا بعد أن كادوا يجعلونه يخسر في ربيع وصيف ١٩٩٣. ففي العام ١٩٩٤، عرقلوا قانون إصلاح الرعاية الصحية، وأجبروا الرئيس في صيف العام ١٩٩٦، على توقيع مشروع قانون لإصلاح الرعاية الصحية (مؤثرين انخفاض الكلفة على الجودة). ولكن لم يستطيعوا أن يشيروا إلى أي عمل بناء اقترحوا القيام به، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنه بدا وكأنه كان يسبقهم إلى المواضيع التي أرادوا التطرق إليها بدءًا بالجريمة في المدن (حيث جعل الرئيس التمويل الحكومي يوفّر عشرة آلاف شرطي إضافي في شوارع المدن الأميركية) وصولاً إلى وضع شريحة على شاكلة حرف v على شاشة التلفزيون لضمان عدم تعرّض الأطفال لمشاهد العنف والمشاهد الإباحية. إذًا، ومن وجهة نظر المتشدّدين المعارضين لكلينتون، كان لا بدّ من إسقاط الرئيس، ولكن ليس لأن ذلك يصب في مصلحة أميركا، بل لأنّه يصب في مصلحة الحزب الجمهوري. وقد يحتاجون لتحقيق هدفهم إلى تدبير خيانة، في الوقت الذي تحتاج الأمة من المشرّعين والمسؤولين عن الأمن إلى التوحد والتركيز على خطر الإرهاب الإسلامي المتنامي. إلا أنّ هذا الأمر لم يقلقهم ويا للأسف، والدليل على ذلك سلوك لويس فري مدير مكتب التحقيقات الفدرالي.

فقد تبجّح فري بالقول في وقت لاحق، أنّه منذ ربيع العام ١٩٩٣، أي منذ تعيينه مديرًا لمكتب التحقيقات الفدرالية، التقى الرئيس «مرةً واحدةً، وربما مرتين أو ثلاثاً في خلال فترة السبع سنوات التي عملت فيها تحت إدارة بيل كلينتون».[١]

---

(١) كتاب- My FBI: Bringing down the Mafia, Investigating Bill Clinton, and Fighting the War on Terror لـ Louis B. Freeh، ص. ٢٤٦.

لم يصدّق المؤرخون آذانهم. فكيف يُعقل أن يرفض مدير مكتب التحقيقات الفدرالية الجمهوري لقاء رئيسه ويتفاخر بذلك؟ مع العلم أنّ المكيدة تلو الأخرى كانت تُحاك ضد أميركا على الصعيدين الداخلي والخارجي، بسبب إرهابيي القاعدة وهي منظمة يموّلها المليونير أسامة بن لادن الذي يحمل الجنسيتين اليمنية والسعودية.

في الواقع، عكس كره فري للرئيس السم الذي كان يدسه كلينتون في نفوس أقلية من الأميركيين، حتى وإن كانت شعبيته قد وصلت إلى مستويات قياسية. لا شك، أنه وبفضل نشأة الرئيس ومسيرته السياسية في إحدى أكثر الولايات تعصّبًا في الأمة، لم يكن غريبًا عن حالة الكره التي كان يُشعلها في قلوب المتعصبين واليمينيين المتشدّدين لكونه «ليبراليًا». ومع ذلك، حاول الرئيس مرارًا وتكرارًا أن يمد يده إلى خصومه، بحيث كان آخر عمل له قبل حفلة التنصيب للولاية الثانية أن منح ميدالية الحرية الرئاسية لبوب دول خصمه المنهزم وهو بطل من الحرب العالمية الثانية حيث خدم ضابطاً في المشاة. فكتب كلينتون في هذا السياق لاحقًا «أنا أقدّر دول، فهو صلب وقاس في ساحة المعركة إلا أنه كان يفتقد التعصّب والعطش إلى الدمار الذي ميّز الكثير من المتشددين الجمهوريين الذين يديرون حزبه في واشنطن.»(١)

وبالإضافة إلى ذلك، قرر الرئيس ألا يوجه التهم إلى نيوت غينغريتش رئيس مجلس النواب، الذي وجدته لجنة مجلس النواب للأخلاقيات مذنبًا لانتهاكه قوانين الضرائب والأخلاقيات، وحكم عليه الكونغرس بدفع غرامة مالية قيمتها ثلاثمئة ألف دولار. وبدلاً من ذلك، دعا كلينتون في خطاب القسم الذي ألقاه في العشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧، «إلى روح مجتمعي جديد للقرن الجديد». وأشار إلى «الهوة بين الأعراق» التي لطالما كانت «لعنة أميركا» بالإضافة إلى غيرها من الشرور . وأعلن أنّ «كل موجة مهاجرين جدد تشكل لنا هدفًا لتجديد إطلاق أحكامنا المسبقة، فهذه الأحكام بالإضافة إلى الازدراء مغطاة بالمعتقدات الدينية والسياسية، كادت هذه القوى تدمّر أمتنا في الماضي ولا تزال تشكل آفةً حقيقيةً فهي

(١) كتاب My Life لـClinton ص. ٧٤١.

تغذي التعصب الإرهابي، وتعذّب ملايين الأشخاص في الأمم الممزقة في كل أنحاء العالم. فإنّ هذه الهواجس تعيق الكاره كما تعيق المكروه لأنها تحرم الطرفين مما قد يصلان إليه. لا يمكننا الخضوع للقوى الشرّيرة الكامنة في كل شخص منا، لن نسمح بذلك، بل علينا أن نتخطاها». ووعد بقيادة العالم إلى فرص جديدة بفضل «نسيجنا الاجتماعي المتنوّع من حيث الأعراق والأديان والمواقف السياسية». وأشار قائلاً: «منذ عشر سنوات كان الأنترنت مجرّد حلم بالنسبة إلى علماء الفيزياء، أما اليوم فقد أصبح موسوعة اعتيادية يستخدمها الأولاد في المدرسة.» فتوقع بسبب ارتفاع معدل الاتصال والتواصل خلق وضع «يكون فيه صوت الشعب أعلى من ضجيج أصوات المصالح الضيقة» ما سيحقق وعد أميركا لمواطنيها. ولفت إلى أنه قد حان وقت إنهاء «القسوة والانقسام» على الصعيد الداخلي «لنستطيع إمرار شعلة الحرية الأميركية» إلى كل أنحاء العالم.

كانت هذه آخر كلماته الشهيرة، لكن مهما فعل كلينتون ليريح خصومه، ومهما سيفعل الآن ليثبت أنّه رئيس للحزبين، ما كان باستطاعته لا تغيير رغباته الشرّيرة ولا عقول الذين كرهوه في البداية لعدم جدارته، ومن ثمّ كرهوه أكثر بسبب نجاحه. وتجدر الإشارة، إلى أنه قبل الانتخابات بوقت قصير وقّع مع كل من روسيا والصين وفرنسا وبريطانيا معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية. وفي غضون اثني عشر شهرًا من تنصيبه وقّع ميزانية أقرها الكونغرس، وهو هدف أساسي بالنسبة إلى الجمهوريين وخطوة مهمة في مجال المسؤولية الضريبية الحكومية. أما على الصعيد الخارجي، فعقد لقاء شخصياً مع بوريس يلتسين، حصل في إثره على موافقة منه لتوسيع نطاق حلف شمال الأطلسي ليشمل الجمهورية التشيكية وهنغاريا وبولندا. شكل هذا التوقيع جزءًا من جملة إنجازات ومئات المبادرات التي قام بها الرئيس من تمويل الأنترنت وأبحاث السرطان إلى مبادرات المياه النظيفة. كان كلينتون على غرار ليندون جونسون يتمتع بقوة هائلة، فهو التقى قادة أجانب بدءًا بتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا الجديد وصولاً إلى الزعيم الصيني جيانغ زيمين. كما أنه زار الجنود الأميركيين الموجودين في البوسنة، وسافر إلى جنوب أميركا وتوصّل إلى جعل الكونغرس يُصادق على

اتفاقية بشأن الأسلحة الكيميائية على الرغم من معارضة كاسبر وينبرغر ودونالد رمسفيلد. وعلى الرغم من كل هذه المشاغل على الصعيد الداخلي، بقي متمكناً جدًا ومنخرطًا في المبادرات الداخلية كالرعاية الصحية للأطفال وتخفيض الضرائب للطبقة الوسطى. وقد نجح في إقناع مجلس النواب ذي الأغلبية الجمهورية بإقرار هاتين المبادرتين مقابل تخفيض الضريبة على الأرباح. وفي سياق آخر، وبالنظر إلى عمق العداوة بينه وبين منتقديه، سأله أحد صحافيي صحيفة وول ستريت جورنال «في أي مرحلة تشعر أن الأمر لا يستحق العناء وتفكر في الاستقالة؟» فأجاب بكل وضوح «أبدًا، من المستحيل أن أتخلى عن شعب هذا البلد الذي وضع ثقته بي».[1]

بموازاة ذلك، عيّن مجلس النواب الجمهوري المحقق المستقلّ كينيث ستار للتحقيق في قضية وايت واتر وضلوع عائلة كلينتون بها، فتوسّل إليه اليمينيون المتشدّدون عدم التوقف عن التحقيق لمراجعة ادعاءات بشأن قيام العائلة بأعمال غير مشروعة. فقرر أخيرًا عدم إلغاء التحقيق مثلما كان قد وعد. وبدلاً من ذلك، جدد ستار في الواحد والعشرين من شباط/فبراير ١٩٩٧، التحقيق بمساعدة لويس فري مركزًا هذه المرة على المفتاح الذي يوصل إلى غرفة نوم الرئيس.

وتجدر الإشارة إلى أنه في تاريخ أميركا، لم يجرِ تحقيق مماثل فيما كان الرئيس لا يزال في منصبه، وهكذا ضرب اليمين الجمهوري، الذي كان قد رفض التحقيق مع نيكسون ما دام رئيساً، بالامتياز الرئاسي عرض الحائط، وكذلك فعلت المحكمة العليا عندما أعطت بولا جونز التي كانت تحاول مقاضاة الرئيس بتهمة التحرش الجنسي في أركانساس في العام ١٩٩١ الحق في رفع دعوى على الرئيس عندما كان لا يزال في منصبه.

بقلق، عرض كلينتون في النهاية ما كان عليه عرضه منذ أربع سنوات، أي تسوية مالية بأكثر من سبعمئة ألف دولار أميركي. وحتى محامو جون أقروا أنها، وبموجب قانون أركانساس الذي عرضت قضيتها بموجبه، لم تستطع إثبات أية معاناة مالية أو

(١) المصدر السابق، ص. ٧٧٨.

مهنية كابدتها من جراء التحرش المزعوم. ولذلك حثها محاموها على قبول المال والهروب. وعندما رفضت ذلك، استقال محاموها، ما حمل «معهد روثرفورد» اليميني على تكليف محامين جدد الدفاع عنها.

طلبت السيدة جونز إلى كلينتون الاعتراف بذنبه والاعتذار. غير أن الرئيس برر لاحقًا «لم أستطع فعل ذلك لأن الاتهام لم يكن صحيحًا». غير أن قليلين هم الذين صدقوه حينئذ أو حتى بعد ذلك. وبالافتراض أن ادعاءات السيدة جونز بالتحرش الجنسي كانت صحيحة، رأى المؤرّخون عند استعادة الأحداث سببين يبنيان لماذا لم يستطع الرئيس الاعتذار. كان السبب الأول منطقياً جدًا فيما كان السبب الثاني مرضيًا.

لم يكن أي رئيس في التاريخ الحديث يتمتّع بقدرة كلينتون على تقويم المنفعة السياسية بشكل مسبق. ومنذ طفولته استعمل عقله ليسبق الآخرين، مهما كان عنيفًا. كان في الواقع «هوديني» حديثاً، قادراً على تغيير نفسه ليتلاءم مع أية عقيدة سياسية، من عقوبة الإعدام إلى الإلقاء الإلزامي لقسم الولاء، كما كان قادراً على الخروج من أي فخ ينصبه له أعداؤه السياسيون. ومعتقدًا أن الاعتذار إلى السيدة جونز سيشجّع نساء أخريات في تاريخه الحافل على تقديم أمثلة شبيهة أو أسوأ منها على إشباع رغباته الجنسية الخاصة، وأدرك أن الموافقة على طلباتها ستكون بمنزلة انتحار سياسي، في الإعلام وربما في المحاكم.

إلى جانب ذلك كان هناك السبب المرضي.

فرغم قدرته على التعاطف، وقدرته الأسطورية على «الشعور بألمكم»، لطالما عانى بيل كلينتون الشخصية المعاكسة أيضًا، وبالتحديد اعتلالاً اجتماعياً جنسياً أو السلوك المزدوج. وفي حالة كلينتون، كان ذلك يتجسّد بعدم القدرة على التوقف عن سوء السلوك الجنسي عالي المخاطر، مهما هدد ذلك بتحطيمه، يتبعه عجز عن الاعتراف بالذنب. لم يستطع أحد غير زوجته هيلاري، حمله على الاعتراف بإدمانه، ولكن حتى هي، التي كانت شخصًا كتومًا جدًا، لم تستطع حمله على تقديم اعتذار

علني، نظرًا لأنها احتقرت الإعلام والمتعصبين اليمينيين أكثر منه، وهو احتقار قوي إلى درجة أنه مهما كانت مشاعرها الداخلية (الغضب، خيبة الأمل وحزن على مثال آخر على سوء تصرف زوجها)، لم تستطع تأييد الاعتذار العلني.

وبذلك، كان لا بد أن تكشف المأساة، فيما بدأ فريق بولا جونز القانوني، وبغياب اعتذار الرئيس، وعلى أمل وضع نموذج عن سوء السلوك الجنسي، بالسعي إلى كشف أمثلة أخرى من الماضي، من دون أن يحلم بإيجاد أمثلة من الحاضر. فقرر كينيث ستار ومدير مكتب التحقيق الفدرالي، لويس فريه، الانضمام إلى «رحلة الصيد» هذه.

وبالإشارة إلى استطلاعات الرأي المؤيدة لكلينتون الممتازة لولاية ثانية، لم يأخذ موظفو البيت الأبيض خبر ستار عن شباك الصيد الجنسي على محمل الجد. غير أنهم لم يدركوا ماذا كان يخفي الرئيس عنهم، وفي الواقع عن زوجته. وحده كلينتون أدرك أن أعداءه كانوا يسعون في تلك اللحظة إلى جمع أدلة عن سوء سلوكه الجنسي تعود إلى ربيع العام ١٩٩٧ حيث تورط من جديد في علاقة «غير ملائمة» خارج نطاق الزواج، عاجزاً عن إيقاف «الرفقة مع المصالح الجنسية» داخل حدود المكتب البيضوي مع متدربة شابة.[١]

كان تصرفه، أو سوء تصرفه، نظرًا إلى توريطه موظفة في الدولة في عمل الرئيس الرسمي ومدفوعة من الحكومة، يتحدى الاعتقادات اللاحقة. صحيح أن الرؤساء السابقين كانوا متورّطين في علاقات حميمة خارج نطاق الزواج أكثر فظاعة في عهد رئاستهم، وخصوصاً جون أف. كينيدي وليندون جونسون، غير أن الرأي العام لم يكن يعرف هذه الأعمال يومئذ، بفضل المواقف الذكورية والرقابة الذاتية لمحرري الصحف الأميركية الخطيرة (من الذكور). غير أن كلينتون علم جيدًا أن الزمن قد تغير منذ ذلك الحين. فقد أصبحت التوقعات العامة لآداب الرئيس أشبه بالمثالية، فيما تراجعت الأعراف العامة، أكان في الصناعة الترفيهية أو في حياة الأشخاص

(١) كتاب The Hunting of the President لـConason وLyons، ص. ٢٧٥.

العاديين، نسبةً إلى المعايير السابقة. غير أن الرئيس، كان موضع ثقة تامة ولو لفترة وجيزة من دوره الإمبريالي. لمَ قد يعرّض أحد في هذا الدور في أواخر القرن العشرين مسيرته المهنية ومنصب الرئاسة للخطر، لإرضاء دافع جنسي عابر؟

لم تكن كلمة غطرسة قادرة على أن تبدأ بوصف ابتعاد كلينتون عن إدراكه كرجل يواجه أصلاً قضية قانونية كبيرة بشأن سوء سلوك جنسي سابق، عندما كان حاكم ولاية أركانساس. فقد بينت السلطة إساءة التصرف كإمبراطور، وبالفعل بدت مدمّرة للذات بحيث شبهها عدة مؤرخين بالرغبة في الموت المجازية، عند بروز تفاصيل تنك بروزوز عن العلاقة المزعومة أخيرًا.

كانت «الضحية» التي اختارها ستار وفريه لتمثيل إساءة كلينتون غير محظوظة. فقد كانت فتاة يهودية في الثانية والعشرين من العمر، ممتلئة الجسم، كما كانت عشيقة أستاذها الجامعي المتزوّج في كاليفورنيا، قبل القدوم إلى واشنطن للتدرب في البيت الأبيض بترتيب من والدتها المطلقة. كما تباهت أمام رفاقها بأنها كانت ستوقع الرئيس في شباكها. وما أن نجحت في مهمتها، بإغراء الرئيس كلينتون ببراءة، خلال فعاليات إسقاط حكومة غينغريتش، ووسط نحول العاملات في البيت الأبيض آنذاك. ومنذ ذلك الحين، لم تكفّ مونيكا ليوينسكي. كما لم يكفّ فريق السيدة جونز وفريق كين ستار، حالما سمعوا إشاعات عن العلاقة بين كلينتون وليوينسكي. وكلما تعمق التحقيق، أصبح يشبه منافسة بين الهر والفأرة. فقد أصر جونز وستار وفريه على الإيقاع بالرئيس، فيما صمم كلينتون، مثل ريتشارد ونيكسون قبله على إثبات أنه أذكى من متهميه.

فيما كان الرئيس ينعم بموهبة القيام بمهام متعدّدة في الوقت عينه، لم يتمتع بها أي رئيس في تاريخ أميركا، أحرز كلينتون نجاحًا بارزًا. فقد كان يملأ الكلمات المتقاطعة في نيويورك تايمز بدقائق ويوقع الرسائل ويقرأ الوثائق ويتلقى المخابرات دفعة واحدة. وبصفته مغروراً عبقرياً وأستاذاً سابقاً في القانون مدرباً في جامعة يال، عرف أنه لم يكن قادراً على الاعتراف بما فعله لأقرب أصدقائه أو عائلته، خشية أن يتم استدعاؤهم إلى

المحكمة.(١) فتوقف عن كل شيء باستثناء الجنس عبر الهاتف واللقاءات البريئة مع المتدربة السابقة، لئلا تنقلب ضده. وفي هذا الوقت، وفيما أدرك شخصيتها الطفولية والثرثارة، استعد في النصف الثاني من العام ١٩٩٧، للمنافسة القانونية الوشيكة، من دون أن يسأل نفسه ما إذا كان صحيحًا وملائمًا للشعب الأميركي أن يدخل مأساة موجعة أخرى، ما أن يحصل ستار على دلالات على «العلاقة».

وأخيرًا، في الثامن عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، انتشرت الأخبار على وسيلة الاتصال التي أشاد بها الرئيس في خطاب حال الاتحاد وهي الأنترنت. وجاء في الخبر «متدربة سابقة في البيت الأبيض في الثالثة والعشرين من العمر كانت تمارس الجنس مع الرئيس. خبر عالمي حصري».(٢)

انتشرت الأخبار في العالم أجمع أشبه بهزة أرضية، مجسدةً أسوأ كوابيس الديمقراطيين الذين واصلوا جهودهم لإعادة بناء الحزب بعد انهياره في العام ١٩٩٤. وآخر ما كانوا يحتاجون إليه هو فضيحة كلينتون الجنسية.

كان يبدو أن قول الحقيقة لم يطرأ على فكر الرئيس. كان كلينتون قد استغل صداقته مع محام خارجي ناجح، هو فيرنون غوردان، ليحصل للمتدربة السابقة على وظيفة في نيويورك، ليبعدها عن أنظار صحفيي واشنطن المتطفلين ومسببي الأذى. كما تواطأ مع السيدة ليوينسكي لإعداد شهادة خطية موقعة، خشية أن يدفعها فريق جونز إلى الشهادة والتحقيق معها. (وفي هذه الشهادة، نفت مقسمةً وجود أية علاقة جنسية أو غير ملائمة). وفي هذا الوقت، رد كلينتون على استدعاء فريق جونز، بإعطائهم شهادة دامت ست ساعات في مكاتب محاميه في وسط واشنطن في السادس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، نفى قطعياً في خلالها كل الادعاءات المتعلقة بسوء السلوك الجنسي في الماضي، ونفى كل ذكرى مقابلة ناهيك بالتورط مع موظفة الدولة في أركانساس، بولا جونز. وفي ما تعلق بالسيدة ليوينسكي، كان

(١) المصدر السابق، ص. ٣٤٣ م.

(٢) كتاب The Drudge Report لـ Matt Drudge.

قادراً، من خلال استعماله الذكي للجمل في الماضي والحاضر، على خداع الفريق بخصوص طبيعة علاقته بالبيت الأبيض ومدى علاقته بالمتدربة السابقة.

على الرغم من الارتياح والافتخار بخبرته في يال، بعد تخلصه من أسئلة فريق جونز الأكثر عمقًا، انتشرت الأخبار على الأنترنت بعد أقل من ثلاثين ساعة على التقرير الكادح، بأن رجال ستار قبضوا على السيدة ليوينسكي وبالتالي على الرئيس، باستخدام أشرطة مخابرات مسجلة بطريقة غير شرعية وعبر أسلاك مخفية زودهما إياها مكتب التحقيق الفدرالي، كما في أفلام هوليوود.

في الواقع، أغلقت إدارة كلينتون من جديد على يد سلطة في الكونغرس ذات أكثرية جمهورية، عُرفت عرفي بالمجلس المستقل فيما كان في الحقيقة جمهورياً. وبعد صرف ٢٨ مليون دولار من أموال دافعي الضرائب الأميركيين في ملاحقة وايت واتر، صنعت جهود ستار غير المثمرة التاريخ الرئاسي.

وفي مؤتمر صحفي متلفز في البيت الأبيض في السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، حاول الرئيس إزالة توقعات وسائل الإعلام، نظرًا لأنه لم يكن على علاقة جنسية مع السيدة ليوينسكي، إذا كان الجنس يعني الجماع، كما نص عليه القانون. وبعد ملاحظات مطولة حول قراءة الأطفال والبرامج خارج الدوام المدرسي، أعلن الرئيس قائلاً: «أريد أن أقول شيئًا للشعب الأميركي. أريدكم أن تصغوا إلي. أريد أن أكرر هذا القول. لم أكن على علاقة جنسية مع هذه المرأة. لم أطلب إلى أحد أن يكذب ولا لمرة واحدة أبدًا. إن هذه الادعاءات خاطئة. وأحتاج إلى العودة إلى عملي لأجل الشعب الأميركي».[1]

اكتفى ستار بالابتسام. وبمرور الأيام والأسابيع والأشهر، وبتسرّب الأدلة والإشاعات، تولى فريقه مهمة فريق جونز، مهددًا المتدربة السابقة في البيت الأبيض

(١) ملاحظات بشأن مبادرة العناية بالطفل بعد دوام المدرسة" في السادس والعشرين من كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨ الواردة في كتاب Public Papers of the President of the United States لوليم جاي كليتنون William J. Clinton المجلّد الأول ١٩٩٨ طبعة Washington العاصمة: US Government Printing House عام ١٩٩٩ ص. ١١١.

بالسجن ثماني وعشرين سنة إذا لم تتعاون معه لإسقاط الرئيس الذي أصبحت الآن عشيقته. ومثل قضية دريفوس في فرنسا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أصبحت القضية معروفة، وحرضت الليبراليين على المتحفظين والمتشددين ضد المتساهلين والمشايخ ضدّ الشباب، كرمز لصراع نهاية القرن.

كان تورط الإمبراطورية الأقوى في العالم، التي حاولت المحافظة على السلام الأميركي في العالم المنقسم، في تفاصيل خصوصية رئيسها وتعريف «العلاقات الجنسية»، مهينًا وحتى مشتتًا بشكل خطير، نظرًا إلى قيام الإرهاب الإسلامي في التسعينيات. مع ذلك، طالما رفض كلينتون الاستقالة وقرر بدلاً من ذلك القضاء على «التآمر اليميني الواسع» لإسقاطه، كان محكومًا على الولايات المتحدة والعالم أن يشهدا الصراع بين الفريقين. فتم التخلي عن كل الآمال بوضع قانون بناء وثنائي في العام ١٩٩٨، وفي القضايا العالمية تشوه دور أميركا القيادي بشكل مهلك.

وبصفته قيصرًا معارضًا للإرهاب، وجد كلينتون نفسه يفور غضبًا، لأنه وضع نفسه وبالتالي الدولة في هذا الوضع المحرج، بسبب عدم قدرته على «الكتمان والسيطرة على نفسه»، وفق ما كتبه ريتشارد كلارك. غير أن كلارك كان «غاضبًا أكثر وحتى مرتاباً تقريبًا، لأن حقد أعداء كلينتون لم يعرف أية حدود، إذ سعوا إلى إيذائه فضلاً عن إيذاء الوطن بتحويل مشكلة الرئيس إلى مهزلة عالمية عامة لمصالحهم السياسية».(١)

بعد بضعة أيام من الفضيحة، أعلنت جماعة سمت نفسها القاعدة، اقتباسًا من حجر الأساس أو قاعدة مبنى، كانت قد اندمجت مع نظيرتها في مصر الجهاد الإسلامي المصري، «حربًا» رسمية على الإمبراطورية الأميركية. وفي آذار/مارس، استدعى الرئيس حكومته والمسؤولين في وزارة الخارجية والدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيق الفدرالي ووزارة الصحة ووكالة الإدارة الطارئة الفدرالية، ووزارة الطاقة ومكتب الإدارة والميزانية ووكالات أخرى، برئاسة كلارك، لتنظيم هجوم

(١) كتاب Against All Enemies لـ Richard Clarke، ص. ١٨٦.

نووي أو كيميائي أو بيولوجي إرهابي محتمل في الولايات المتحدة.[1] وفي حزيران/ يونيو، اتهمت المحكمة الفدرالية العليا في نيويورك أسامة بن لادن غيابيًا. فيما أصدر الرئيس التوجيه ضد الإرهاب الثالث (توجيه القرار الرئاسي الرقم ٦٢ و٦٣ و٦٧). وبعد فترة وجيزة، وتأكيدًا لمخاوفه، وقع الهجوم الإرهابي الضخم التالي على أميركا، مستهدفًا هذه المرة الأراضي والموظفين الخارجيين الأميركيين في إفريقيا.

أما في السابع من آب/أغسطس ١٩٩٨، فقد فجّرت جماعة مقاتلي القاعدة السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا في الوقت عينه. في نيروبي قتل مئتان وخمسة وسبعون شخصًا فيما أصيب خمسة آلاف آخرون. كان هذا التصرف مذبحة إسلامية وتشويهاً للأبرياء لا يسمح بهما القرآن، ولكن معذورة في تحليل الجهاد المتنازع عليه في العالم. وعلى الرغم من أن التفجيرات أثارت الهلع والاتهامات في الولايات المتحدة، تجاهلت الصحف وأخبار الراديو والتلفاز في أميركا المأساة وركزت على حياة الرئيس الجنسية، فيما أجبر ستار الرئيس على المثول أمام محكمة عليا ليدافع عما بقي من سمعته. وفي السابع عشر من آب/أغسطس ١٩٩٨، خطط مكتب التحقيق الفدرالي الذي كان يعمل لمصلحة فريق ستار ووايت واتر الجمهوري، لتسجيل شهادة أخرى للرئيس الحالي وتسريبها إلى الإعلام فورًا. هذه المرة أجري التحقيق في غرفة الخرائط في البيت الأبيض على شريط فيديو لغياب أحد أعضاء هيئة المحلفين. وفي ما يشبه أوبرا هزلية سريالية، لم يُستجوب الرئيس بشأن الأمن القومي والتدابير المتخذة لمواجهة الإرهاب الإسلامي، بل بشأن علاقته الحميمة بالسيدة مونيكا ليوينسكي في البيت الأبيض قبل وبعد إسقاط حكومة غينغريتش في العام ١٩٩٥، حين نجحت في دخول منطقة الجناح الغربي المحظورة. لم يتصارع ستار والرئيس حول غاز السارين أو التهديدات الموجهة إلى الأمة ولكن حول تعريف كلمة «جنس» وحتى حول معنى هذه الكلمة.[2]

(١) المصدر السابق، ص. ١٦٣.

(٢) كتاب The Clinton Wars لـSidney Blumenthal، ص. ٤٦٣.

أصبح عمل ليوينسكي مهزلة مأساوية. وفي تلك الليلة، ظهر كلينتون من جديد عبر التلفاز ليتوجه بخطابه إلى الشعب. وحتى زوجته لم تعرف ما إذا كان سيستقيل أو ماذا كان سيقول في خطابه، ناهيك بمحاميه وموظفيه.

في الواقع، لم يكن خطاب كلينتون، كما توقّع كثيرون، إعلانًا لاستقالته بشرف وتجنيب البلاد عاراً وحرجاً إضافيين. بدلاً من ذلك، قرر تلميذ مدرسة رودز السابق ومتخرج في كلية المحاماة في جامعة يال، أن يرى إذا كان بإمكانه التحرك بقلب الأوراق ضدّ ستار. فنفى الرئيس شهادته بالزور أو تعطيله للعدالة، معلنًا أنه لم يضغط على متدربته السابقة لتكذب على فريقي جونز وستار. كما شدد على أنه لم تجمعه بالسيدة ليوينسكي، وفق أي تعريف في الكتاب المقدس، «علاقة جنسية كاملة»، إذ لم يتم الجماع بينهما، بل مجرد ملاطفة. غير أن كلينتون اعترف بإخفائه حقيقة العلاقة بحرج واضح. فأقر الآن قائلاً: «لقد خدعت زوجتي. أنا نادم على ذلك بحق». مع ذلك، أكد أن ذلك أمر خاص «بيني وبين أعزّ شخصين لدي زوجتي وابنتي وربنا»، ولا يخص كين ستار أو شعب الولايات المتحدة الذي انتخبه. وشدّد «إن الأمر لا يخص أحداً إلا نحن. حتى الرؤساء لهم حياتهم الخاصة».[1] ووعد بتكريس ما بقي من ولايته لعمله الرئاسي، «للتحديات وكل وعود القرن الأميركي المقبل».

وبقلب الأوراق ضد ستار، أظهر كلينتون من جديد لم سمي «الطفل العائد»، متحديًا المدعي العام على تصعيد الفضائح الجنسية الدنيئة ولكن الحميدة تقريبًا، التي شغلت اهتمام الإعلام في البلاد في خلال الأشهر السبعة الماضية. وفيما اعتقد ستون في المئة من المشاركين في الاستطلاعات أنه كان يؤدي عملاً جيدًا كرئيس، اقتنع كلينتون بطيبته الأساسية وتعاطفه وتنافسيته وحقه الانتخابي بالبقاء في منصب الرئيس إلى أن يقيله الكونغرس. وبذلك، وضّح أنه لن يستقيل لمجرد إرضاء المجرمين الجمهوريين. ولقد توصل إلى طريقة للتعامل مع الرجعيين كنيوت

(١) المصدر السابق، ص. ٤٦٥.

غينغريتش وشريكه البغيض في الكونغرس ديك أرماي، ورأى نفسه الآن في ظل ورطة مثل نيكسون، وصمّم على التركيز على القضايا المثالية والخارجية بغية إلهاء الإعلام عن هوسه بشؤونه الخاصة. كما سعى من دون توقف إلى إقناع ياسر عرفات بالتفاوض من أجل السلام مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو. وعمل مع رئيس الوزراء البريطاني الجديد توني بلير على التسوية التاريخية التي عرفت «بالجمعة الصالحة» في شمال إيرلندا. كما أرسل الرئيس قوات عسكرية إلى الخليج لتهديد صدّام حسين، حين تخطى هذا الأخير الحدود. وزار الصين ليحث على تبادل تجاري محرر أكثر واستثمار متبادل. وفي العشرين من آب/أغسطس ١٩٩٨، سمح كلينتون بإطلاق صواريخ كروز على مخيم تدريب في أفغانستان، بعد أن أعلن وجود أسامة بن لادن فيه، مثلما سعى الرئيس ريغان إلى إخراج معمر القذافي بعد تفجيره لطائرة بان آم في أثناء رحلتها ذات الرقم مئة وثلاثة.

غير أن أمل كلينتون قد خاب، إذ لم يضرب بن لادن بل ضُرب هو. وفيما لم يلم ريغان للسعي وراء القضاء على الشرّير، وإبادة أعداء الولايات المتحدة، بينت تداعيات فشل كلينتون كم كان مجروحًا. فبدا غير كفوء بالنسبة إلى الأميركيين في الداخل، وبسبب استمرار فضيحة ليوينسكي ورفضه للاستقالة، اتهمه الإعلام بالخداع، ليس لأنه حاول بجد الحفاظ على سلامة أميركا بقتل بن لادن بل لسعيه إلى تشتيت الانتباه عن مشاكله بسبب قصة ليوينسكي الجنسية والإقالة الوشيكة.

من المستحيل تقريبًا المبالغة في تأثير مهزلة ليوينسكي التي شلت قدرة بيل كلينتون على تولي مهامه الرئاسية. وبمواجهة الاتهام حافظ ريتشارد نيكسون على شعاره «غير مستسلم». وبالطريقة عينها، أقسم كلينتون أمام أصدقائه وأعدائه بأنه سيواجه ستار ورجاله «إلى الأبد»، بغض النظر عن تداعيات هذه المواجهة على بلده الحبيب. وبالوقوف وراءه، شدّدت السيدة الأولى على هذا القرار. فكانت قد قالت لصحفيين متتالين في كانون الثاني/يناير إن «علاقة» زوجها بالسيدة ليوينسكي لم تكن «علاقة جنسية»، ونفت أن تكون هذه العلاقة «غير ملائمة»، وشدّدت على

أن الفضيحة ستزول («لقد رأيت كيف تزول هذه الاتهامات بسرعة كبيرة»)، وفي السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، تكلمت بطريقة شهيرة عن «مؤامرة جمهورية يمينية واسعة».(١) وبتشجيع من ولائها، حتى بعد أن تكلم بنفسه على طبيعة العلاقة مع السيدة ليوينسكي، وقف الرئيس بحزم فيما قدم ستار تقريرًا مؤلفًا من ٤٥٢ صفحة وتوصيته الرسمية أمام الكونغرس في التاسع من أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، داعيًا تحديدًا إلى ضرورة إدانة الرئيس.

وبعد يومين، صوت البيت الأبيض على إعلان تقرير ستار برمته، بما فيه سيرة ذاتية طويلة وجنسية واضحة عن الاعتداء الذي تعرضت له السيدة ليوينسكي، قدمتها بالقوة بعد أن هددها أحد مدّعي ستار بالسجن.

انتشر الرعب في العالم، عند انتشار القصة الإباحية المرهفة والفاحشة وتقرير ستار عن حياة الرئيس الحالي الخاصة وعاداته الجنسية المؤسفة وحتى استخدامه للسيجار، في العلن. وبحسب ما أشار إليه أحد المؤرخين عن الاتهام، «في عطلة الأسبوع الأولى بعد نشر التقرير، اهتزت رئاسة كلينتون»، ولكن ليس بسبب مؤامرة يمينية.(٢) فحتى الديمقراطيون الشرقيون الذين خافوا الله والأخلاقيون هلعوا من الفضائح إلى جانب الجمهوريين. فكما أثارت أشرطة نيكسون الفضائح في البلاد التي عدت الرئيس شبه مقدس، وأدهشت بعدها بلغة النصوص الهزيلة والشبيهة بلغة العصابات، غضب الديمقراطيون والجمهوريون من الاحتقار الضمني للكرامة الرئاسية الذي أظهره الرئيس التنفيذي للبلاد في المكتب البيضوي. فناشد عضو الكونغرس دافي أوباي الديمقراطي الليبرالي زعيم الأقلية الديمقراطية في مجلس النواب «علينا التخلص من هذا الرجل. سوف يدمر الحزب الديمقراطي طوال جيل كامل»، وأوصى بأن يقول زعيم الأقلية الديمقراطية وزميله في مجلس الشيوخ توم داشلي «للرئيس أن يتنحى عن منصبه».(٣)

(١) كتاب A Vast Conspiracy: The Real Story of the Sex Scandal That Nearly Brought Down a President لـJeffrey Toobin، ٢٥٤ و٢٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص. ٣٣٦.

(٣) المصدر السابق، ص. ٣٣٢.

غير أن الرئيس رفض للمرة الثالثة أن يتنحى. فنشر ملايين الأشخاص تقرير ستار على الأنترنت قبل انتشاره ونشره مطبوعًا. فبدت «الوقائع، التي ادعت بها السيدة ليوينسكي غير قابلة للجدل، ومثيرة للاشمئزاز بتفاصيلها، لكن وكما قوّم كلينتون، لم تكد تتضمن أسسًا للاتهام، وفق نظرة ألكسندر هاميلتون الأصلية، عند المساعدة على وضع الدستور، وكان هذا الاتهام سيحمي أميركا من تهديد حقيقي. هل كان رئيس مجلس النواب غينغريتش يبالغ من جديد، كما فعل عند إسقاط الحكومة الأميركية في العام ١٩٩٥؟ فعند مساءلته عن سبب ضغطه من أجل اتهام الرئيس في قضية ليوينسكي، أجاب غينغريتش ببساطة «لأننا قادرون على ذلك».[١]

نظرًا إلى إعاقة إدارة أميركا الفعالة وإمبراطوريتها بسبب قضية ليوينسكي لحوالى السنة، كانت الأوضاع ستسوء إذا وافق غينغريتش على اتهام الرئيس الحالي. وهذا ما حدث. فبدلاً من الحصول على دعم لأمر الرئيس التنفيذي ذي الرقم ١٣٠٩٩ بحظر تمويل القاعدة وحركة طالبان والجماعات الإرهابية الأخرى، عرقلت الأعمال السياسية في واشنطن.[٢] فقد أصبحت المشاكل الخاصة مشاكل سياسية بحق، مندمجة في روح الانتقام. ففي الكونغرس وغيره وخصوصاً في الإعلام، أصبحت مسألة الاتهام نوعاً من غيتسبيرغ المجازي، مع تبادل اتهامات واتهامات مضادة، وهجمات مدفعية ومضادة للنيران.

وقد نجح الرئيس ببراعة في إعادة توجيه الحوار الوطني ليتمحور حول «تحييد اليمين» بدلاً من «عمل ما هو صحيح»، وذلك عبر رفضه الاستقالة، وتأخيره المسألة لتبدو وكأنها «كلينتون في مواجهة مؤامرة اليمين».[٣]

فحسب كلينتون أنه كلما أطال القضية، زاد احتمال اشمئزاز الناس من الوضع وانقلابهم ضد الجمهوريين، الذين بدوا يقللون من تقدير قدرته الداروينية على الصمود تحت الضغط. فتساءل الناس، إلى متى سيستمر ذلك؟

(١) كتاب My Life لـClinton ، ص. ٨٣٥.
(٢) كتاب Against All Enemies لـClarke، ص. ١٩٠ و١٩٥.
(٣) كتاب My Life لـClinton، ص. ٨٣٤.

وبدلاً من الفوز بمقاعد إضافية في الانتخابات النصفية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨، كما أمل غينغريتش، خسر الجمهوريون مقاعد أكثر، ما صدق على قرار الرئيس بتصعيد نسخته لفيلم صمود كاستر حتى النهاية. فبدأ بروز نفاق الجمهوريين فيما بدأ التحقيق في حياة النواب الخاصة. ومع بروز خيانة غينغريتش لزواجه، قرر رئيس مجلس النواب بحكمة عدم الترشح من جديد للانتخابات والاستقالة في نهاية الجلسة. فتبينت حكمة قراره، عندما أجبر خلفه المنتخب بوب ليفينغستون، رئيس مجلس النواب الجمهوري المعين من مجلس النواب، أيضًا على الاستقالة، وسط كشف مجموعة أخرى من الفضائح. غير أن كلينتون رفض القيام بذلك ما أدى إلى نفور الجمهوريين.

وبلا ملل وبحزم، ضغط مجلس النواب بأكثريته الجمهورية لإصدار اتهام بحق الرئيس. وفي التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر، وبموجب القرار ستمئة وأحد عشر رفض مجلس النواب من دون حكمة، أبسط بديل للرقابة. وبدلاً من ذلك، صوّت مئتان وثمانية وعشرون نائبًا مقابل مئتين وستة لإخضاع الرئيس لمحاكمة في مجلس الشيوخ «للشهادة بالزور أمام المحكمة العليا»، فيما صوّت مئتان وواحد وعشرون نائباً مقابل مئتين واثني عشر على محاكمته «لتعطيله عمل العدالة»، على أن يكون الادعاءان مرتبطين بمحاولة كلينتون تضليل المحققين بشأن علاقته بالسيدة ليوينسكي، وهي قضية خاصة لا تخص الكونغرس ولا القانون الذي لم يقم كلينتون بمخالفته.

وللمرة الثانية فقط في تاريخ أميركا (وللمرة الأولى بالنسبة إلى رئيس منتخب) تم إعداد محاكمة اتهام في مجلس الشيوخ ضد الرئيس. وبرئاسة القاضي رئيس المحكمة العليا، افتتحت الأوبرا الهزلية في السابع من كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، وامتدت طوال خمسة أسابيع تعطلت في خلالها أعمال الدولة والمحكمة العليا. فأصبحت أميركا مسخرة العالم.

وفي النهاية، في الثاني عشر من شباط/فبراير ١٩٩٩، اختتمت المحاكمة بتبرئة

(فقط لا غير) من كل الأعمال. وبذلك فاز وليام جيفيرسون كلينتون، ولكن هل فازت أميركا؟ فبعد اعترافه لهيلاري في آب/أغسطس ١٩٩٨، بدأ كلينتون «برنامج استشارة جدياً، مرة في الأسبوع»، فيما جعلته ينام طوال أشهر على الكنبة «في غرفة الجلوس بالقرب من غرفة نومنا» في البيت الأبيض، بجهد متجدد «لتوحيد حياتي الثنائية»، كان الوجه الأول منها شريفًا والثاني مدمّراً للذات بالنسبة إليه، وهو وجه نسبه إلى الحزن والغضب بسبب الاعتداء عليه في طفولته، اللذين لم يعالجا. فبدا له أن تبرئته نجمت عن دعم غالبية الشعب الأميركي، كما ثبت بارتفاع تأييده في استطلاعات الرأي. وأعلن لاحقًا «لكان أصعب بكثير أن يحافظ على صحته العقلية لو لم يعتقد الشعب الأميركي بشكل مسبق أن علي البقاء في منصبي والتمسك به».(١)

ومن جديد، بدأ بيل كلينتون بتحليل التاريخ، إذ لم تعارض غالبية الناخبين أداء الرئيس في إدارة الدولة وخصوصاً اقتصاديًا، ولكنها فقدت شيئًا فشيئًا ثقتها بصدقه وعاداته ونزاهته وكرامته وآدابه. وفي دولة يكون فيها الرئيس تجسيدًا للقوة الأميركية واحترام الذات، كان ذلك عيبًا لا يمكن التخلص منه إلا من خلال استقالته، التي رفض القيام بها.

وبطبيعته النرجسية أكثر من أي وقت، أراد كلينتون كسب حب شعبه ومسامحته بدلاً من إبعاده، وكان مستعدًا لصب جهود أكبر ليستحق ذلك، بروح من «الإصلاح والتجديد في أميركا». وبذلك، شهدت السنتان الأخيرتان من رئاسة كلينتون فترة انحطاط غريب، فارتاح الشعب بعد انتهاء قصة ليوينسكي وكان راضيًا عن القوة الاقتصادية التي استمرت بالازدهار أكثر من أي وقت، ولكن خجولاً برئيسه الذي لم يعد يكن له أي احترام.

أشار كلينتون كما كان قد قال بفخر إلى الإحصاءات التي أظهرت تقدم البلاد نحو فائض تاريخي وتسديد الدين العام الذي كان في دوامة في الماضي. واعتزّ

(١) المصدر السابق، ص. ٨٤٥.

كلينتون كما كان قد قال، بإظهاره قيادة قوية في تدخل حلف شمال الأطلسي في يوغسلافيا السابقة، عندما أجبر الصرب على إيقاف عملية التطهير التي قاموا بها في كوسوفو، وفي الثالث من حزيران/يونيو ١٩٩٩، أجبروا على أن يدير الحلف المقاطعة. كما نجح كما كان قد قال، في الحفاظ على أمان البلاد مع بداية الألفية الجديدة بعيدًا عن هجوم إرهابي إسلامي آخر أو أزمة الكمبيوتر في الألفية الجديدة. لكن حتى الرئيس غور، لو انتخب لاستطاع على الأرجح تحقيق هذه الأمور، وبالفعل بحلول خريف العام ٢٠٠٠ بدا واضحًا أكثر أن البلاد كانت تحتاج إلى رئيس جديد، رئيس يتمتع بالثقة والسلطة لجمع مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية ووكالات الأمن الأخرى، نظرًا إلى رفض مدير مكتب التحقيق الفدرالي لويس فريه المستمر للاجتماع بالرئيس كلينتون ولو لمرة واحدة في ولايته الثانية أو الاستقالة ليحل مكانه مدير جديد. (قال فريه لاحقًا[١]: «لقد أمضيت غالبية السنوات الثماني مديراً أحقق في قضية الرجل الذي عينني». وأقر بعدها «وبقيت لمدة أطول في مكتب التحقيق الفدرالي لأنني لم أرد أن أعطي كلينتون فرصة لتسمية أحد ليحل مكاني، وكنت سأبقى في منصبي لأتيقن أنه لن يستبدلني»[٢]).

في الواقع، كانت أميركا بحاجة إلى رئيس قوي ومحترم، إذ إن التهديد الذي واجهته البلاد لم ينته، بل كان يزيد في الواقع، ما أثار استياء كلارك أمام تراجع مكانة الرئيس وسلطته. وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلها المتفاوضون في قضية إسرائيل وفلسطين في مخيم دافيد في تموز/يوليو ٢٠٠٠، رفض ياسر عرفات تسوية السلام التي اقترحها كلينتون، والتي قامت على حل بقيام دولتين، يسمح للفلسطينيين باستعادة واحد وتسعين في المئة من الضفة الغربية وكامل غزة والسيطرة على شرقي القدس مع حق الوصاية ولكن من دون سيادة الحرم القدسي الشريف.

(١) كتاب My FBI لـ Freeh، ص. ٨.

(٢) يتكلم Louis Freeh عن علاقة فظيعة مع Clinton على قناة CBS في برنامج 60 Minutes لـ Daniel Schorn في تشرين الأول/أكتوبر سنة ٢٠٠٥.

وما أن أصر أرييل شارون بكل سرور على دخول الحرم القدسي الشريف لإزالة السيادة الإسرائيلية بسعيه إلى إطاحة رئيس الوزراء إيهود باراك، حتى انفجر الشرق الأوسط. فولدت الاحتجاجات أعمال عنف في المنطقة. وبدأت انتفاضة فلسطينية أخرى أدت إلى قتل آلاف الأشخاص وشملت تفجيرات انتحارية وانتقاماً واغتيالات مستهدفة وزادت من حقد المسلمين على «الشيطان الأكبر»، أميركا، التي عدت الحامي العسكري لإسرائيل والممول الأول له، ولكن افتقرت إلى القوة والعزم لفرض سياستها التوسعية أو إجبار إسرائيل على التوصل إلى تسوية.

رفض كلينتون التخلي عن اقتراحات السلام التي قدّمها، مدركاً أن الأمن الأميركي كان يعتمد على النتائج. فقد افتخر لأنه نجح في إيقاف كل هجوم مخطط على الأراضي الأميركية منذ انفجار مركز التجارة العالمية بعد فترة وجيزة من رئاسته الأولى. ولكن مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية التي صبت الزيت على نيران الجماعات الإرهابية الإسلامية، أدرك كلينتون أن الوقت كان ينفد. وفي الثاني عشر من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، قبل ثلاثة أسابيع من الانتخابات الرئاسية، اقترب انتحاريان من السفينة الأميركية يو أس أس كول الراسية في محافظة عدن في اليمن، وفجرا نفسيهما موديين بأرواح سبعة عشر بحاراً أميركياً. كان واضحاً أن تصادم الحضارات كان أخطر من أي وقت مضى، وفيما بقي أسامة بن لادن طليقاً في جنوب أفغانستان، ومن دون الوصول إلى اتفاق سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين برئاسة ياسر عرفات، بيد أن مستقبل الإمبراطورية الأميركية بإدارة الرئيس الجديد سيكون اختبارًا قاسيًا.

أما هوية الرئيس الجديد فكانت مسألة جدل. في بداية آب/أغسطس، رشّح الجمهوريون للرئاسة، بعد صراع مدمّر مع الخصوم، الابن البكر للرئيس السابق جورج أتش دبليو بوش، الحاكم جورج دبليو بوش. وبعد مرور أسبوعين، أي في السابع عشر من آب/أغسطس ٢٠٠٠، عين الديمقراطيون مرشحهم للرئاسة، نائب الرئيس آل غور. فأشارت استطلاعات رأي سرية إلى موجة غضب عام ومثير للقلق، إذ كان الشعب لا يزال غضبًا كثيرًا بعد عام فضائح مونيكا وكلينتون الأخلاقية، مهما

كره أساليب كين ستار.[1] وفي ظل هذه المعلومات المنذرة بالقلق، قرر غور أنه ليس من الحكمة أن يطلب إلى الرئيس مساعدته في حملته الانتخابية، وأن عليه اتخاذ السيناتور جو ليبرمان، وهو يهودي يقظ من كونيكتيكات، كان «نظيف السجل» ولكن غير معروف، نائبًا له في حملته الانتخابية.

غير أن النتائج لم تكن مشجعة لغور. فقد اعتبر الشعب أن بلاده كانت على الطريق الصحيح سياسيًا واقتصاديًا ولكن على الطريق الخطأ من حيث الأخلاق والقيادة الأخلاقية. وبنسبة واحد على خمسة، شعر الناخبون بأن الحاكم بوش المسيحي الذي برز من جديد كان أكثر «صدقًا» من نائب الرئيس الذي خدم كلينتون بولاء. وفي أكثر انتخابات متقاربة في التاريخ الأميركي، في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ربح نائب الرئيس غور غالبية الأصوات المنتخبة، ولكن بموجب قرار المحكمة العليا بخمسة أصوات مقابل أربعة، في الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر، خسر غور الكلية الانتخابية (مئتان وستة وستون صوتاً مقابل مئتين وواحد وسبعين) بسبب عدد من الأوراق المتنازع عليها في فلوريدا. وبذلك، ساعد رفض كلينتون الاستقالة على بقائه في المكتب البيضوي، ولكنها أفسدت فرص غور بالحلول مكانه.

وكما عمل الرئيس كارتر حتى ساعات رئاسته الأخيرة لضمان إطلاق رهائن السفارة الأميركية في طهران، عمل الرئيس كلينتون كذلك للوصول إلى تسوية إسرائيلية فلسطينية فيما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي الوسطي إيهود باراك على رأس الحكم. كما رفض كلينتون السفر إلى شمال كوريا لعقد تسوية لحظر الصواريخ بعيدة المدى، في محاولة أخيرة لحمل عرفات على قبول معاهدة سلام في الشرق الأوسط برعاية أميركا. غير أن عرفات رفض عقد هذه المعاهدة محبطاً، متنازلاً بذلك عن أفضل فرصة لتسوية فلسطينية-إسرائيلية منذ العام ١٩٤٨. وقال كلينتون في واحد من آخر

(١) مقال Clinton and Gore Have it Out في صحيفة Associated Press، عدد الثامن من شباط/فبراير ٢٠٠٨.

أحاديثهما: «شكرني عرفات على جهودي وقال إنني كنت رجلاً عظيماً». فأجبته «سيدي الرئيس لست برجل رائع، أنا فاشل وأنت جعلتني عظيماً». لقد حذّرته بأنه كان وحده في انتخاب شارون وبأنه سيواجه زوابع وأعاصير.(١)

وهذا ما واجهه عرفات وأميركا أيضًا، بشكل جزئي لأن كلينتون لم يستقل بغية أن يركز إدارة بلاده على أسس أقل إثارة للجدل.

فتبين عند مغادرة كلينتون البيت الأبيض، أنه كان، على الرغم من براعته كسياسي، قليل الحياء ويحب نفسه كثيرًا ليضع كرامة منصبه ومصلحة بلاده أولاً. وفي الساعة الأخيرة من رئاسته، قرر منح مارك ريتش، الزوج السابق لواهبة عظيمة وعد بمنح مئة وخمسين ألف دولار لمكتبة كلينتون الرئاسية ومشروع المتحف في ليتل روك، ولكن كان لا يزال مطلوبًا للاحتيال والهروب من دفع ضريبة الدخل، عفوًا مثيرًا للجدل.(٢)

كان العديد من موظفي كلينتون ومساعديه قد غادروا إدارته مشمئزين من فضيحة ليوينسكي. وحتى أكثر أصدقاء بيل ولاءً تساءلوا ما إذا كان كلينتون المغادر قد فقد صوابه. وعلى الرغم من الاستشارة الطبية التي خضع لها أسبوعيًا، وقضاء أشهر على الكنبة وسنتين تلتا الاتهام حاول في خلالها إثبات مهاراته كرئيس كانت لا تزال بارزة، أظهر كلينتون من جديد أن المصلحة الشخصية هي المنتصرة.

كما أن العفو عن ريتش، أفسد مغادرة الرئيس السابق التي كانت تقليدية حتى الآن، واشنطن. وفي خطاب حساس في قاعدة أندروز للقوات الجوية، في العشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، سمى جذّاب الولايات المتحدة النرجسي والمغرور الذي لا يعرف الكلال، ولايته وإنجازاته في البيت الأبيض «رحلة عمري»، وسافر بعدها ليتقاعد ليس في أركانساس بل في شاباكيديك في نيويورك، حيث ربحت

---

(١) كتاب My Life لـClinton، ص. ٩٤٤.

(٢) كتاب The Survivor: Bill Clinton in the White House لـJohn Harris، ص. ٤٢٩. كتاب The Clinton Wars لـBlumenthal، ص. ٧٨٣.

زوجته انتخابات نابضة، أدخلتها مجلس الشيوخ ووضعتها في مسار محاولتها الخاصة للحصول على التاج الإمبريالي.[1]

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

منذ الطفولة المبكّرة، بحث بيل كلينتون عن السعادة. وقد أخفى تصميمه على أن يصبح شخصًا محبوبًا اضطرابه الداخلي العميق أو الشيء الذي سماه في ما بعد «صعوبة السماح لأي شخص بالتدخل في أعماق حياتي الخاصة. فقد كانت هذه الناحية مظلمة باستمرار.»[2] فقد ساهم غياب والده ووجود زوج أمه السكّير المؤذي فضلاً عن طلاق والدته وإعادة زواجها في خلق هذه العزلة السوداء، حتى أنه من المستغرب أنّ يبدو ذاك الصبي المنحدر من هوب طبيعيًا في معظم الأحيان. وفي أيام المدرسة الابتدائية في هوت سبرينغز قال أحد أساتذته الكاثوليكيين ممازحًا والدته إنه كان ذكيًا جدًا لدرجة أنه سينتهي به الأمر إما في السجن وإما في البيت الأبيض.

وبمرور الوقت أصبحت تشكل حاجته إلى إرضاء الآخرين وميله إلى الإفراط في الوعد مشكلة نفسية خطيرة. فقد كان يتمتّع بموهبة هائلة أكبر من أن تكون حقيقيةً وخصوصًا بالنظر إلى مشاكله الضمنية. عندما انطلق ابن ٦,٣ أقدام الموهوب بالعزف على الساكسوفون ونابغة ثانوية هوت سبرينغز نحو العالم الأوسع، كان بمنزلة قنبلة موقوتة فقد كان ينقص طموحه المفرط الألياف الأخلاقية الأساسية. وبطريقة أو بأخرى كان استمراره في الأمل وفي أن تتغلّب إيجابياته كالتعاطف الحقيقي مع المحرومين وتصميمه على تحسين ظروف الحياة التي يقاسيها معظم الناس والقدرة

(١) ملاحظات الرئيس السابق Clinton الوداعية، نهار السبت الواقع فيه ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، على موقع http://www.australianpolitics.com/usa/Clinton/speeches/01-0120farwell.shtml.

(٢) كتاب My Life لـ Clinton، ص. ١٤٩.

على توليف أفكار ذكية ووعد الذين هم بحاجة إلى الأمل بحياة أفضل، على عدم قدرته على رفض الإغراء. وكما وصفته جارته كارولين ستالي ابنة راعي الأبرشية المعمداني قائلةً: «يجمع هذا الشخص ما بين الخير والشر».(١) وطغت بالنسبة إلى الكثيرين، أي حوالى عشرات الملايين الذين جاؤوا ليروه كنجم في عالم السياسة، حسناته على سيئاته. في حين اعتبر بعضهم الآخر أنّ سيئاته أثارت البغضاء والكراهية قائلين إنّ انتهاكات كلينتون والسلوك الصلب الذي أداه وكثرة وعوده وأكاذيبه كانت بمنزلة خيانة لهم ولتوقعاتهم.

وفي بعض الحالات لم تكن هذه سوى الحقيقة، فقد امتلأت حياة كلينتون الشخصية بمثل هذه الأمثلة. في هوت سبرينغز، أحبته صديقته الحميمة كارولين يلدال وتوقعت أن يعرض عليها الزواج بما أنها شعرت أنها قريبةً جدًا منه. وفي إحدى الليالي، حين كانت في طريقها لمقابلته رأته واقفًا عند عتبة الباب ذاهبًا في إجازة من جامعة جورجتاون وهو يقبّل امرأةً أخرى. وقد افترضت أنها زميلته في الجامعة لتكتشف في ما بعد أنها ملكة جمال أركانساس.(٢)

وفضلاً عن ذلك، بدا أن بيل كلينتون يثير في كل مكان يذهب إليه أحلاماً كهذه ويخيب الآمال أيضًا. ففي الحقيقة حين أصبح رئيسًا نُشر كتاب كامل عنوانه «أحلام بيل» يعرض الأحلام الليلية الفعلية التي عاشها الناس وسجلوها والتي وجدوا أنفسهم، نساءً كانوا أم رجالاً، منجذبين إلى الرجل الواحد بالأمل، رومنسياً وعاطفياً وحتى جنسياً(٣). ويقال أنه يشبه نجوم هوليوود العظماء الذين حلم بهم الملايين، فهو طويل القامة، كثّ الشعر شديد الذكاء، ممتع ومحبّ تمامًا كوالدته، نابض بالحيوية وكان يعد جراء إيجابيته بأكثر مما باستطاعته أن يقدم خصوصاً حين التقى هيلاري رودهام في كلية القانون في يال وخطبها.

في الحقيقة أنه في ظل حركة تحرر المرأة في الثقافة الأميركية في السبعينيات

(١) كتاب Bill Clinton: An American Journey لـHamilton ص. ٤٤.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٦٨ و١٧٠.
(٣) كتاب Bill Clinton: Mastering the Presidency لـHamilton، ص. ٢١٧ و٢١٨.

كان من السهل على كلينتون المنفتح إلى حد كبير والعطوف .والشفوق أن يقيم الصداقات والعلاقات الحميمة. وقد أثارت قدرة بيل كلينتون على «الحصول على كل شيء»، حتى في عشرينياته، حسدًا مخيفًا لدى الرجال الذين يقطعون المزيد من الخطوط الأكثر أخلاقية في سلوكهم أو الذين هم أقل حظًا في جذب النساء. فلم يكن من العدل أن يتمتع رجل ينحدر من خلفية متواضعة بذكاء شديد كهذا وبهذا الكم من حب الحياة وبقدرة كهذه على التواصل مع الآخرين وترويج نفسه فضلاً عن نجاح كهذا مع الجنس اللطيف. فسأل أحد الأصدقاء ببلاغة مع علمه أنّ بيل قد أقام علاقةً مع إحدى مساعداته في حملة الكونغرس على الرغم من خطبته هيلاري رودهام «هل كنت أظن أنه استغلها؟ نعم أظن ذلك! أقصد أنّ ذلك كان مثالاً واحدًا على الإيقاع بامرأة، مثالاً يتضمَن إقامة علاقة جنسية. ولكنه فعلاً استغل الرجال أيضًا! فقد جذبهم، وحين أقول ذلك أعني أنه جذب عقولهم والتزاماتهم وعواطفهم، نعم محبتهم. هو يطلب نوعًا من الولاء، لا بل كامل الولاء في حين أنه لا يقدم شيئًا في المقابل!»[1]

بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لهذا الاعتراض الذي أدى إلى نشوب الغضب الأخلاقي، أي علاقة بالسياسة، بل كان نابعًا من الحسد، حسد من نوع مثير للاهتمام. وقد أصبح صديق كلينتون تدريجًا خصمه اللدود ومحامي أفراد شرطة أركانساس الذين من المتوقع أن يسهلوا انتشار فضيحة الإغواءات الجنسية اللامتناهية. وقد أدت كل هذه الأحداث إلى قضية التحرش الجنسي ببولا جونز التي ستؤدي بدورها إلى قضية مونيكا ليوينسكي، التي ستتحول إلى الإدانة.

وهنا أيضًا لم يكن للسياسة علاقة بهذه المعادلة. بل يتلخص جوهر المسألة بكونه شخصاً يتمتع بشعبية هائلة ومثالياً قاوم سلوكه اللاأخلاقي وبالتالي هدد النظام الأخلاقي الذي يحاول الآخرون بلوغه في حياتهم الخاصة. وبذلك لم يكن بيل كلينتون يستمتع وحسب وإنما يتهرب من نتائج أفعاله أيضًا فقد كان رجلاً تصعب

(١) كتاب Bill Clinton: An American Journey لـHamilton، ص. ٢٩٣.

إدانته، مما أثار غضب العديد من المراقبين وعزم بعضهم على الحط منه ليس لكونهم جمهوريين وإنما لكونهم أشخاصاً يحاولون تحسين السلوك في حياتهم الخاصة. فلم تكن تسمية كلينتون مدير مكتب التحقيقات الفدرالي لويس فريه بسخرية «رجلاً ساذجاً» من دون قصد.

وفضلاً عن ذلك، زاد رفض هيلاري رودهام حمل كنية كلينتون فور زواجهما في أركانساس في العام ١٩٧٥ الأمر سوءًا، بما أنّه ربط هذه المسألة بالحسد أيضًا وأعطى اللاأخلاقية بعدًا جديدًا. فبالإضافة إلى كون المدعي العام الكثير المواهب والحاكم يقوم بخيانة زوجته مع مغنيات الملاهي الليلية كجنيفر فلاورز مع الإفلات من العقاب الزوجي فحسب، كانت زوجته تستفيد في ذلك الحين لكونها محامية شركات من موقعه السياسي البارز من دون أن يكون عليها دفع المستحقات التقليدية على غرار التنازل عن كنيتها قبل الزواج. ففي الواقع من كان يجهل الثنائي كلينتون كان يظن أنّ زواجهما هو زواج مصلحة.

إلا أنه، وعلى الرغم من أنه ناسب هذين الشخصين الطموحين، لم يكن زواج مصلحة، فهما أحبا إلى أقصى الحدود المؤسسة التي تجمعهما. فقد كان بيل كلينتون يحب هيلاري بصدق وقد وافق أصدقاؤهما على ذلك، وإنما الحقيقة هي أنّ كلينتون يحب الجميع بدءًا بجدته وصولاً إلى جيرانه، ولكنهم أشاروا إلى أنّ المختلف في علاقته بهيلاري هو أنه كان بحاجة إليها. ويبرر كلينتون صحبته الحميمة لنساء على غرار جنيفر فلاورز مارس معهنّ علاقةً (أو مارسن معه علاقة)، كون هيلاري الابنة البكر للمليونير القاسي والجمهوري العصامي الذي ينحدر من شيكاغو، كانت قاسية جدًا لا تحب الجنس وجادة في عملها بالإضافة إلى كونها تفتقد حس الدعابة. وبغض النظر عن كل ذلك، ومنذ أن حدّق إليها للمرة الأولى في مكتبة كلية القانون في يال في العام ١٩٧١، وبعد المحادثة الحاسمة التي دارت بينهما ومبادرتها إلى التحية عمدًا عرف ابن أركانساس العبقري خطأً أنّ هيلاري كانت المرأة الوحيدة التي بإمكانها أن تشاركه في أهدافه السياسية وأن تبقيه مركزاً وتوقفه عن الأخطاء

من أجل مصلحته الخاصة. علمًا أنّ ذلك لم يكن من باب المصلحة بل إلزامياً. وقد أشار أحد المساعدين لاحقًا أنه لولا هيلاري، لكان انتهى الأمر ببيل كلينتون مدمن مخدرات تمامًا كأخيه غير الشقيق روجر، يعمل في محطة وقود بعد حصوله على مأذونية من سجن أركانساس.

وباختصار كان زواج بيل كلينتون بهيلاري رودهام في العام ١٩٧٥ بمنزلة خشبة خلاص له، مهما انحرف لاحقًا واستنفد صبر هيلاري فضلاً عن إخلاصها ومثابرتها. ولولا وجود ابنته تشيلسي التي ولدتها هيلاري في العام ١٩٨٠ لكان انهار زواجهما وإنما كما الكثير من الزيجات تطيح مسؤولية الأهل أي فرصة بإنهاء الزواج. ومع ذلك لم يكن ذلك سهلاً قط، فقد أدى إشباع كلينتون لرغباته الذاتية وأنانيته وحبه للمغامرات الجنسية إلى قيامه بأعمال جنونية لا تليق بسياسي يطمح إلى الوصول إلى ما هو أوسع من ولاية أركانساس غير الساحلية الصغيرة ذات المليوني نسمة. ولكونه زعيم الحزب الديمقراطي في شمال غربي ولاية أركانساس، استذكرت آن هنري لاحقًا حين اتصلت بها ابنتها وهي تشهق «لقد كانت شديدة الغضب والحزن! فقد كانت تتناول العشاء في منزل أحد أصدقائي الذي كان من كبار مؤيدي كلينتون وكانت هناك امرأة تتكلم على علاقتها ببيل كلينتون!» أما في ما يتعلق بديان بلير وهي أستاذة في العلوم السياسية وصديقة مقربة من عائلة كلينتون، فقالت السيدة هنري: «لا يمكنني دعمه... تبلغ تشيلسي ثمانية أعوام ويمكن لذلك أن يدمرها، فهو يهتم بابنته.»[١]

كان يهتم بيل حقًا بأمرها ولكن رغبته في اللعب كانت من دون أي تحفظ مغرية بكل بساطة، إضافة إلى أنّ كبح هيلاري لحاكم الولاية كان شديد المرونة مع نظام أمن مستعد للكذب وأداء دور القواد من أجله ما دام يسيطر على وظائفهم.

وبالتالي، وعلى الرغم من سحب بيل كلينتون ترشيحه من الانتخابات الرئاسية المحتملة في العام ١٩٨٨، لم يتمكن من تغيير طبعه. وكذلك، عرف هذا الأخير أنّ بلده يحتاج إليه على الرغم من هزائمه. أما بالنسبة إلى هيلاري، فكان ذلك في معظم

(١) مقابلة مع Ann Henry، المصدر السابق، ص. ٤٧٤.

الأحيان شكلاً من أشكال العذاب عالمةً أن في كل فترة ستبرز فضيحة جديدة عليهما التعامل معها بأفضل طريقة ممكنة، غير قادرين على حماية ابنتهما من العار. وكذلك، مثّل ذلك الرجل صاحب المهارات الفريدة والسياسي الأكثر موهبة في جيله، ضحية رغباته ونزواته الجنسية عذابًا حقيقيًا استمرّت هيلاري في تحمله آملة أن يتحمّله الآخرون كذلك لا سيما وأنهم غير متزوجين به. من جهة أخرى، رفض الاثنان أن يواجه أثر حياة الخداع والكذب المستمر، لو لم يكن مؤذيًا، في الثقة التي يمنحها الناخبون للأشخاص الذين يختارونهم وخصوصًا الرئيس.

وهكذا، كانت خلاصة غض هيلاري النظر عن فشل زوجها على الصعيد الشخصي واقتناعها التام أنّ على الآخرين أيضًا تجاهله، هي تمديد معاناة أمة مكبلة بسبب الفضيحة الجنسية، فقد عارضت السيدة الأولى بأعلى الصوت كل الاتهامات إلى أن أُجبر زوجها أخيرًا على الاعتراف بذنبه في كل مرة. فلربما كانت هيلاري الوحيدة القادرة على إقناع بيل بالاستقالة، بيد أنها لم تفعل ذلك لأنها كانت تعلم أنه حينئذ ستخسر التمويل الذي سيقدّمه لها ومهاراته في مجال السياسة لكونها بدأت تفكر في الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ، ولكنها لم تفعل ذلك.

وهكذا، كان لرئاسة بيل كلينتون وجهان واحد إيجابي وآخر سلبي. فعلى الرغم من تحسّن الوضع الاقتصادي، تراجعت ثقة الشعب بالرئيس الديمقراطي صاحب اللسان العذب، ما أدى إلى حاجة الشعب الأميركي إلى رئيس أكثر انضباطًا، على غرار ما قدمه الجمهوري البسيط الذي وُلد من جديد بالمسيح وأصبح الرئيس الواحد والأربعين.

الفصل الثاني عشر

جورج دبليو بوش

الذي لعنه الناس في مرحلة لاحقة

جمهوري

الرئيس الثالث والأربعون

(من العشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ إلى العشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩)

الجزء الأول: الطريق إلى الرئاسة

ولد جورج بوش في السادس من تموز/ يوليو ١٩٤٦ في نيو هافن في كونيكتيكت، وكان الابن البكر للضابط جورج هربرت واكر بوش وهو طيار البحرية الذي تخرج في جامعة يال بعد أن كان قد أجّل دراسته من أجل الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الثانية.

ولدى انتقال العائلة إلى أوديسا ومن ثم إلى ميدلاند في تكساس، عُرف جورج الابن بلقب «الابن الأصغر»، إذ ثبت أنه ولد معذِّب. فهو قد عانى عدم القدرة على التعلم إضافة إلى اضطراب في الانتباه في المدرسة ما خلّف لديه ضعفًا استمرّ مدى الحياة، وقد حاول إخفاء هذا الضعف بالعديد من الوسائل بدءًا بإثارة المشاكل لمجرد المتعة وصولاً إلى السخرية بازدراء الذين يفوقونه مهارةً في العلم. وقد أدى غياب والده الطويل لكونه منقباً عن النفط وصاحب مشاريع ومحاولات والدته باربرا الصلبة تولي شؤون العائلة المتنامية بنفسها فضلاً عن وفاة أخته المبكر بسبب سرطان الدم في سن السابعة، إلى فشله كالابن البكر. فقد أراد أن يتصرف بمسؤولية ولكن بحكم طبيعته المتمردة لم يكن يشعر بالأمان وكان استفزازيًا ومضحكًا وإنما غالبًا ما كان يكون غاضبًا من نفسه وكئيبًا ومندفعًا نحو الهروب.

وكذلك، شمل التصرف بمسؤولية منافسة سجل والده، وقد كان ذلك عائقًا كبيرًا يصعب على أيّ من أبناء جورج هربرت واكر بوش تجاوزه. أما في ما يختص بالدراسة، فقد يئس أساتذته في المدرسة الداخلية في أندوفر منه وأكدوا أنه لن يُقبل في جامعة يال بسبب علاماته المتدنية. إلا أنّ سجلات جده الذي كان سيناتور كونيكتيكت ووالده في الجامعة بالإضافة إلى ترشح هذا الأخير لمنصب في مجلس الشيوخ ضمنت قبوله.

وحين غادر جامعة يال قال جورج الابن لعائلته إنه «لم يتعلم أي شيء منها».(١) وبسبب علاماته السيئة كان بوش الابن غير مؤهل لتأجيل الخدمة العسكرية، بيد أنه تمكن من تفادي الخدمة في فيتنام من خلال قبوله، بفضل والده في الحرس الوطني الجوي في تكساس كطيار مقاتل متدرب بوقت جزئي ولكن من دون وظيفة منتظمة.(٢) ومن ثم، دفع والده كفالة إخراجه من السجن حين تم توقيفه واتهامه بحيازة الكوكايين في العام ١٩٧٢. وبدل الدخول إلى السجن اتخذ قاضي هيوستن تدابير جعلت بوش يقوم بالخدمة الاجتماعية مقابل شطب هذه التهمة من سجله العدلي.(٣) وهكذا لم يعد يحق له قيادة طائرة مطاردة من نوع ف-١٠٢ ذات قدرة نووية تابعة للحرس القومي.(٤) وفي ما بعد غادر تكساس من دون أن يكمل السنتين الأخيرتين من الخدمة في الحرس القومي الجوي ولا بأي صفة أو في الواقع لم ينجز أياً من المشاريع التي أسندها إليه والده.

وعلى الرغم من أنّ العديد من الأشخاص كانوا قد احتفلوا مع «جونيور» (الاسم الذي كان يكرهه)، إلا أنّ قلةً منهم أُعجبوا بتنمر جورج دبليو بوش، حتى هو لم يحب هذا الوجه من شخصيته. وكذلك، اجتمعت سخريته وابتسامته المتكلفة وعدم شعوره بالأمان حيال والده فضلاً عن حبه للكحول وعلاقته المضطربة والعدائية بأشقائه وإطلاقه الألقاب على الناس كما لو أنه يستطيع التعامل مع الآخرين فقط من خلال عالمه الذي يشبه الرسوم المتحركة، لتُنتج شخصيةً بغيضةً ومستاءةً في الكثير من الأحيان، على خلاف العالم الذي يحيط به والتوقعات المعلقة عليه. وكذلك، رفضته كلية القانون في جامعة تكساس وبدا عالقًا في دوامة الإفراط في الشرب. ومع ذلك، جاءت سمعة والده الطيبة باعتباره موظفاً حكومياً مخلصاً وبروزه في ما بعد في

(١) كتاب The Bush Tragedy لـJacob Weisberg، ص. ٤٢.

(٢) قال Bush لأستاذ في Harvard يدعى Yoshi Tsurumi: "تدخل والدي في الأمر فتم قبولي في الحرس الوطني". كتاب The Family: The Real Story of the Bush Dynasty لـKitty Kelley، ص. ٣١٠.

(٣) كتاب Fortunate Son: George W. Bush and the Making of an American President لـJ.H. Hatfield، ص. ٣١٣.

(٤) المصدر السابق، ص. ٣١٦ و٣١٧.

الحزب الجمهوري لتنقذه مرةً جديدةً وكانت الدهشة الكبرى لدى قبوله في جامعة هارفرد في برنامج الماجستير في إدارة الأعمال في خريف ١٩٧٣ (فقد قال في هذا الصدد: «تلقيت الكثير من المساعدة»).[١]

كان جورج بوش الابن «شديد الغباوة» فاستذكر أحد زملائه في الصف «كان غير فصيح إلى درجة لا يمكن تصوّرها».[٢] وفي إحدى المحادثات في الصف حول الكساد الكبير قال جورج بوش الابن: «إنّ الناس فقراء لأنهم كسالى، وهي كلمات ندم عليها بعد مرور أربعة وعشرين عامًا حين انهارت وول ستريت».[٣] وكذلك، قال أستاذ الاقتصاد الكلي المشمئز من تكبره وعقله المغلق عن قصد: «كان شابًا يفتقد تمامًا حس التعاطف وليس لديه أدنى فكرة عن التاريخ أو عن المسؤولية الاجتماعية وغير مهتم برفاه الآخرين... بالكاد نجح في صفي».[٤]

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٧٦، تم توقيفه واتهامه بالقيادة تحت تأثير الكحول في ماين. ومن جهة أخرى، لم تتمكن شهادة هارفرد في الماجستير أن تؤدي إلى نجاحه في أعمال التنقيب في تكساس.[٥] وفي العام ١٩٧٧، حاول سلك طريق آخر للوصول إلى النجاح وذلك من خلال دخوله عالم السياسة لكونه جمهوريًا. وعلى الرغم من جهود والده البارزة بما في ذلك مساعدة بعض مساعدي جورج الأب في لجنة العمل السياسي ككارل روف وشقيق بوش نايل، خسر محاولته الحصول على مقعد أحد أعضاء الكونغرس المتقاعدين عن الحزب الديمقراطي في تكساس وذلك في انتخابات العام ١٩٧٨ بفرق يزيد على ستة آلاف صوت. وقد طالت مهزلة بوش. وكذلك، جاءت محاولاته في مجال الأعمال في الثمانينيات أسوأ بكثير من السبعينيات، فقد امتصت شركات الطاقة الاستثمار من شركات أصدقاء العائلة

(١) كتاب The Family لـKelley، ص. ٣١٠.
(٢) نقلاً عن ما قاله Steve Arbeit في كتاب The Family لـKelley، ص. ٣٠٩.
(٣) نقلاً عن البروفيسور Yoshi Tsurumi في المصدر السابق، ص. ٣٠٩.
(٤) المصدر السابق، ص. ٣١٠.
(٥) كتاب George and Laura: Portrait of an American Marriage لـChristopher Anderson، ص. ١٠٩.

وغيرهم وإنما كانت تترجح دومًا على حافة الإفلاس. وكان ظهور الإنجيلية المفاجئ العامل الذي غيّر حياة جورج بوش الابن.

وكذلك، أثار تحوّل بوش الابن أو خضوعه لنعمة يسوع المسيح المخلص اهتمام أولئك الذين كانوا يراقبون سلالة بوش. وعلى الرغم من أنه كان لأغراض حملة انتخابية، نُسب ذلك إلى توسّط القس بيلي غراهام الذي زار عائلة بوش في منزلهم الصيفي في كينيبانكبورت في ماين في العام ١٩٨٦، فألهم جورج دبليو في تكساس. وتجدر الإشارة إلى أنّ انتصار المبشر الإنجيلي آرثر بليسيت جعل بوش الابن «يتعرف إلى يسوع» في العام ١٩٨٤. واللافت أنّ بليسيت كان مشهورًا بمساعدة الأولاد الفاشلين أكاديميًا الذين يتعاطون المخدّرات في سان فرانسيسكو فضلاً عن أنه حمل صليبًا يبلغ طوله اثني عشر قدمًا ويزن خمسة وأربعين باوندًا في العالم، وحين كان يبشّر عبر راديو ميدلاند المحلي طلب جورج بوش إجراء مقابلة سرية معه في فندق هوليداي إن في ميدلاند. ويذكر بليسيت في هذا الصدد منتصرًا في مذكراته في الثالث من نيسان /أبريل « كان هذا اليوم يومًا مجيدًا، فاليوم اهتدى ابن نائب الرئيس جورج بوش الابن إلى يسوع! وهذا أمر رائع! فليتمجد اسم الرب!»[1] وبينما كان يمسك يد بليسيت وجيم سايل الذي يعمل في النفط صلّى بوش ونال بركة بليسيت الذي قال له: « لقد خُلّصت».[2]

بيد أنّ يسوع وحده لم يكن قادرًا على حث ابن نائب الرئيس على الإقلاع عن الشرب. وفي الواقع وجد بوش الابن أنّ زواجه مهدّد بالطلاق، فقد طالت معاناة زوجته عاملة المكتبة الجميلة من إدمانه الكحول وإهماله لابنتيه التوأمين، مما جعله يقلع تمامًا عن الكحول في عيد ميلاده الأربعين أي في السادس من تموز/يوليو ١٩٨٦، ليبدأ حياةً جديدةً قائمةً على أسس المسؤولية الأبوية والاعتدال.[3]

(١) كتاب The Bush Tragedy لـWeisberg، ص. ٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧٧.
(٣) كتاب George and Laura لـAndersen، ص. ١٤٦.

وكذلك، لم تتمكن حياة الإنجيلية من تحويل جورج بوش الابن إنساناً صالحاً وإنما جعلته من دون شك إنسانًا أقل سوءًا. فقد قال الابن في أول اعتراف له عن نفسه واصفًا نوبات سكره: «لم أكن لطيفًا قط فكل ما عليكم فعله هو سؤال زوجتي».[1] فمزحت زوجته قائلةً: «كانت فاتورة البار» هي الكارثة.[2] إلا أنّ الحقيقة كانت أكثر سوءًا، حتى أنّ صديقه قال: «كان زواجه على حافة الانهيار وقد كان يهتم بأمر ابنتيه وهذا ما جعله يعود إلى طريق الصواب.»[3] وهنا قالت لورا بوش: «كان جورج شديد الاندفاع، يقوم بكل شيء بإفراط، إلا أنّ تناول الكحول ليس الأمر الذي يمكن الإفراط فيه.»[4] وفي هذا السياق أيضًا، شرح طبيب بوش «متى بدأ بالشرب لا يمكنه أن يتوقف».[5]

وفي هذه الأثناء، سُرّ نائب الرئيس بتخلي ابنه عن الكحول على الرغم من أنه أنكر في العلن أنّه «مدمن، المشكلة هي أنه يتأثر بسرعة بالمشروب».

ويقول جورج الابن: «بدأ الكحول يطغى على طاقاتي»، فقد «أفقده تركيزه».[6] بالإضافة إلى ذلك، لم يُتعب نفسه يومًا بتعلم إدارة أعمال النفط من الصفر كما فعل والده، كما أنه لم ينمّ حتى أي علاقات قائمة على النية الطيبة والثقة والاحترام المُكتَسَب. فكل ما قدمه للمستثمرين والشركاء هو بناء علاقة مع والده نائب الرئيس والانضمام إلى دائرة معارفه.

وفي العام ١٩٨٧، وبعد أن فشل في تحقيق النجاح في مجال النفط، انتقل إلى العاصمة واشنطن للعمل مع جورج الأب الذي كان يمهد لترشحه للرئاسة بصفته «منقّذ» الحملة العائلي. فعمل جنبًا إلى جنب مع الفظيعين لي أتواتر وروجر آيلز.

(١) كتاب Fortunate Son لـHatfield، ص. ٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧٢.
(٣) كتاب George and Laura لـAndersen ص. ١٥٠.
(٤) كتاب Fortunate Son لـHatfield ص. ٧٣.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

وفضلاً عن ذلك، أنعش نجاح تكتيك لي أتواتر في تدمير الحاكم دوككيس في الحملة الرئاسية للعام ١٩٨٨ الأعضاء الشباب في فريق بوش، حتى ولو كان هذا النجاح يبرز الجانب المدمر لشخصية جورج الابن الذي حاول التغلب عليه في اعتناقه المسيحية من جديد. وفي هذا الصدد حذّر جورج الابن أتواتر قبل الانتخابات الأولية المهمة في نيوهامشير في شباط/فبراير ١٩٨٨ قائلاً: «في حال خسرنا هذه الدورة فسيُقضى علينا، أخرج كتاب الحيل القذرة وابدأ بقراءته.»[١]

فنفَّذ أتواتر الأوامر ونجح جورج هربرت واكر بوش وأصبح رئيسًا. ومع ذلك، وفي ذروة الحملة الانتخابية نظّم بوش الابن انقلابًا شخصيًا كبيرًا من مكتب الحملة حيث اشترى فريق كرة المضرب راينجرز في تكساس.

وبالتالي تبيّن أنّ مقامرة جورج بوش الابن بمبلغ ستمئة ألف دولار من أصل ستة وثمانين مليون دولار لشراء الفريق كانت كسبًا غير متوقع. تجدر الإشارة إلى أنّ المستثمرين الذين ينتمون إلى دائرة معارف والده، منحوا بوش الابن حصة بقيمة ١٠ بالمئة لكونه «مجتذبًا تجاريًا». وحين موّل المُكلّفون المبنى الذي بلغت قيمته مئة وخمسة وثلاثين مليون دولار في أرلينغتون للاعبي فريقه، أصبح جورج الابن مليونيرًا كبيرًا بين ليلة وضحاها. والأهم من ذلك، أن ذلك أعطى جورج الابن أخيرًا شهرته الخاصة بغض النظر عن والده، وذلك، على الرغم من أداء فريق البيسبول المخيب للآمال. وقد استذكر في ما بعد بهذا الخصوص «كان ذلك أفضل ما يمكن أن يحدث، لا يمكن للحياة أن تصبح أفضل من ذلك.»[٢]

وبموازاة ذلك، أكد له أصدقاؤه أنه يمكن للحياة أن تصبح أفضل إذا دخل عالم السياسة مجددًا باسمه الخاص. وعلى الرغم من ذلك، طلبت إليه والدته في العام ١٩٩٠، عدم الترشح لمنصب الحاكم في تكساس أو لمنصب في مجلس الشيوخ في العام ١٩٩٢ نظرًا إلى الأموال الهائلة التي سيحتاج إليها والده في حملة إعادة

(١) المصدر السابق، ص. ٨٠.

(٢) كتاب The Family لـ Kelley، ص. ٤٨٩.

انتخابه في العام ١٩٩٢. وبدل ذلك، قدّم جورج الابن مرة ثانية خدماته المدفوعة كـ«ممكّن» للرئيس في حملة العام ١٩٩٢.

إلا أنه، ولسوء حظ بوش الابن وكل فريق العمل، لم يُعد انتخاب جورج بوش الأب. وقد شكلت هذه الخسارة بالنسبة إلى الابن ضربةً مريرةً بما أن والده رفض استخدام حيل قذرة في الحملة ضد الحاكم بيل كلينتون إلا بعد فوات الأوان. وبالتالي، أصبحت هزيمة الوالد نقطة تحول في مسار حياة جورج الابن لأنه اعتبر نفسه الأقوى والأكثر حذاقة وكان يتوق إلى إظهار مهاراته الخاصة. ومن هنا، أعلن أنه سيترشح لمنصب حاكم تكساس ضد صاحبة المنصب آن ريتشارد في انتخابات العام ١٩٩٤.

وبموازاة ذلك، قام شقيق جورج بوش الابن الأصغر جيب بالأمر نفسه في فلوريدا وتحدى صاحب المنصب الحاكم الديمقراطي لاوتن تشيلز. وحين قام جيب بذلك بناءً على بيان جمهوري واضح، قرر جورج الابن اتباع إستراتيجية أوصاه بها المساعد السياسي كارل روف الذي عمل عن كثب مع لي أتواتر في السبعينيات.

كان كارل روف قصير القامة وقبيحًا، أصبح أصلع في سن مبكرة إلا أنه كان طموحًا. وقد انجذب في الحال إلى جورج دبليو بوش الوسيم والفظ الراغب في أن يصبح سياسيًا والذي ينتمي إلى سلالة بوش العريقة. وقد شرح روف الذي عد نفسه حتى الآن «تابع نيكسون الصلب» قائلاً: «فهو السياسي الذي ينتظره أمثالي من المتحزبين ليعملوا معه».[1] وفي أحد الأيام أخبر روف المُلحد مثله الأعلى الجديد أنّ دعم الإنجيليين يفوق كل الأفضليات والقضايا السياسية في حال قومها بالشكل الصحيح. فأجابه بوش «هذا رائع حقًا! يمكنني أن أصبح حاكم تكساس بمجرد الحصول على أصوات الإنجيليين.»[2]

وبعد أن عيّن روف رسميًا لتولي وظيفة «التدبير» ، خاض جورج الابن المعركة

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥٤٣.

(٢) كتاب The Bush Tragedy لـ Weisberg، ص.٨٧.

الانتخابية ضد الحاكمة ريتشارد حاشدًا دعم القادة المسيحيين الإنجليين في الولاية. وقد كان للبنادق مكان أيضًا في بيانه السياسي. وفيما كان مستلقيًا بثياب السباحة وهو يدخن السيجار، رمى بوش الابن كرة المضرب لكلبه ليحضرها، وقال لمستشاره الإعلامي دون سيبل: «سيب يا صديقي لا تستخف بما يمكنك أن تتعلمه من هزيمة رئاسية.»[1] فهو قد ادعى أنّ والده سمح لبيل كلينتون أن يقرر القضايا التي سيتطرقان إليها، وهو «خطأ أساسي» لن يرتكبه جورج الابن في حين يمكنه أن يتطرق إلى مسألتي الله والأسلحة.

بالإضافة إلى ذلك، جاءت حملة بوش الخاصة بمنصب الحاكم في تكساس في العام ١٩٩٤ كتتويج للحملات السياسية الحزبية الحديثة المنضبطة في أميركا، فقد كانت قائمة على الانتقادات والتلاعب وافتقرت إلى النزاهة وارتكزت على التمويل الضخم. ومن ناحية أخرى، وعلى الرغم من ادعائه أنه لم يخن زوجته الجميلة يومًا (التي طلبت إليه عدم الترشح) وإنما وُلد من جديد بالمسيح وأصبح رجل أعمال ناجحاً في تكساس بما أنه اشترى فريق كرة المضرب في الولاية، لم يفصل بوش نفسه عن والده المتحدّر من الساحل الشرقي فحسب وإنما أظهر تمايزًا من زميله ابن حقبة الخمسينيات المعاصر الموجود في البيت الأبيض، الذي بقي مصرًا على الرغم من الفضائح المتزايدة وأصبح يبدو في العام ١٩٩٤ غير كفء مع رفضه الاعتراف بذلك.[2] وبالتالي، ولسوء حظ الحاكمة ريتشارد، فقد فاز بوش في المعركة الانتخابية وأصبح حاكم تكساس في ذلك الخريف بعدد أصوات مثير للدهشة بلغ ثلاثمئة واثنين وخمسين ألف صوت. واللافت أنّ تلك السنة كانت سنة انتصارات الحزب الجمهوري الذي سيطر على مجلسي الشيوخ والنواب معًا، الأمر الذي لم يحدث منذ أربعين عامًا. وهكذا يكون «ابن العائلة المشاغب» كما وصفته والدته ساخرةً في حديث لها مع ملكة إنكلترا، قد أصبح بمنزلة الابن الضال. وبالتالي، أصبح الآن حاكم ثاني أكبر ولاية من حيث المساحة وعدد السكان.

(١) المصدر السابق، ص. ٦٣.

(٢) كتاب Fortunate Son لـHartfield، ص. ١٢٢.

وفي المقابل، تعجّب الكثيرون من أمثال آن ريتشارد التي توقعت حدوث كارثة للولاية في حال تم انتخاب « الحقير» (كما كانت تسميه)، حين أثبت جورج بوش الابن بفضل ضوابط حكومة تكساس وميزانياتها في التسعينيات أن الشعب رآه حاكمًا ذا شعبية وفعالاً إلى حد كبير. فقد وعد بالسماح لأهل تكساس بحق حمل الأسلحة من دون أن تكون ظاهرةً وقد فعل ذلك حقًا من خلال إقناع مجلس نواب تكساس المشكّك، معارضًا إقرار مشروع قانون حظر أسلحة المهاجمة في الكونغرس من أجل إقرار القانون الذي يسمح بحمل السلاح الذي وقّعه في ما بعد ودخل حيّز التنفيذ. ومع أنه بات ينعم بإنجازاته خصوصًا وأنه حقق نجاحاً في صفوف مؤيدي الحزبين من خلال تحقيقه ثلاثة وعود أخرى قد أطلقها، أصبح هذا القانون في ما بعد كابوسًا بالنسبة إلى تكساس. ومن بين الوعود التي تم تحقيقها إيقاف إطلاق المسجونين المشروط وبدء عملية إصلاح قانون المحكمة المدنية فضلاً عن إصلاح نظام الرعاية الاجتماعية. وعلى الرغم من أنّ السلطة التشريعية الديمقراطية قد غيرت كل تدبير إلى حدّ كبير، كان الحاكم يُحمد على جدول أعماله الواضح والمركزَ والطريقة التي كان يعمل فيها مع مشرعي الولاية الديمقراطيين. أما بالنسبة إلى أهل تكساس، فأفضل ما لدى حاكمهم أنه لم يبدُ كما صوّرته الحاكمة السابقة ريتشارد أي كأنه لا يتحلى بأي خبرة في السياسة أو أنه يجسّد نسخة وضيعة عن والده زير النساء الثري الآتي من الساحل الشرقي. وتجدر الإشارة إلى أنّه كان يتناول سندويشات زبدة الفستق والطعام المكسيكي ويزور كل النواب في مكاتبهم الخاصة بدلاً من قصر الحاكم ويشرب الجعة مع العامة ويقيم صداقات مع الصحافيين ويشدد على إدراج المناسبات العامة من دون انقطاع في جدول أعماله باعتباره الحاكم. ونتيجةً لكل ذلك، اكتسب بوش عن جدارة لقب «البطارية التي لا تنتهي صلاحيتها». وبالإضافة إلى كل ذلك، كان يرتدي جينز راعي البقر وينتعل حذاءه ويبدو صادقًا وبسيطًا ومستعدًا للاستماع إلى معارضيه حتى إلى المساومة.[1] وفي العام ١٩٩٨، وبعد مرور أربعة أعوام على توليه المنصب، تم انتخابه حاكمًا مرةً ثانيةً وعرف فوزًا ساحقًا. ونظرًا إلى كونه من عائلة

(١) المصدر السابق، ص. ١٧٣.

بوش، بدأ الناس يتكلمون عن ترشيحه للانتخابات الرئاسية في العام ٢٠٠٠ لدى وصول ولاية كلينتون الثانية الملأى بالفضائح إلى نهايتها.

ومع شعره المتموج والحريري وعينيه الزرقاوين اللتين يتسلل عبرهما إلى الناس ومع قدرته على حفظ أسمائهم ووجوههم، بدا حاكم تكساس نموذجًا للفضائل البسيطة المريحة. وكان يستيقظ عند الفجر ويقود الدراجة من ثلاثة إلى ستة أميال قبل الفطور. كما أنه لم يكن يطارد النساء ولا يسمح لهن بمطاردته. وعند المساء، كان يخلد يوميًا إلى النوم مع زوجته الجميلة عند الساعة التاسعة قبل ذهاب ابنتيه إلى النوم.

وعلى صعيد آخر، ازدهرت تكساس بفضل اتفاقية التجارة الحرة لشمال أميركا مع المكسيك، وأدت إلى نمو متزايد خصوصاً بما يتعلق بالتكنولوجيا عالية التقنية وماكيلادوراس لا سيما عند الحدود في مناطق التجمع الصناعي. وبالتعاون مع ثقة جورج بوش المتنامية بمهارات قيادته السياسية، تعلّم أيضًا وسيلة شرّيرة لتحقيق النجاح في عالم الحملات الانتخابية المعاصر ألا وهي الهجوم الشخصي على الخصم.

وكذلك، كان جورج بوش الابن يغطّ في نوم عميق كل ليلة عالمًا بذلك ومن دون أن يشعر بالحرج الأمر الذي أقنعه أخيرًا بأنه يملك الصلابة اللازمة ليكون رئيسًا. وعلى الرغم من قدرته المفاجئة على التعاطف مع من هم أقل قدرًا منه والأفراد العاديين في تكساس، لم يظهر أي تأنيب للضمير أو شفقة لدى تنفيذه مئة واثنتين وخمسين عملية إعدام في خلال توليه منصب الحاكم وحتى حين بقيت هناك بعض الشكوك في الذنب أو في سلامة المجرم العقلية.[1] وبمساعدة الإستراتيجي كارل روف ومديرة اتصالاته كارن هاغز شعر أنه مستعد لمواجهة منافسيه في حال ترشح.

بيد أنّ مأساة بوش كما سميت لاحقًا، تكمن في أنه على الرغم من شعبيته في ولايته الأم، لم يكن يملك المقومات التي تخوّله أن يكون زعيم العالم. في المقابل، توسلت إليه زوجته كي لا يترشح، فهو لم يسافر يومًا خارج البلد. وكما قالت مستشارة الأمن القومي الخاصة به الدكتورة كوندوليزا رايس وهي أستاذة في جامعة ستانفرد،

(١) كتاب The Family لـKelley، ص. ٥٨٥ و٥٨٦. كتاب Fortunate Son لـHatfield، ص. ١٩٠ و٢١٢.

«كان مطلعًا على المكسيك المقابلة للحدود فقط «فقد كان يتمتع بخبرة مباشرة هناك أعتبرها أنا قيمةً أكثر من حضور المؤتمرات في مجلس العلاقات الخارجية في خلال الخمس السنوات الماضية.» وقد تعارضت القهقهات مع رأيها.(١)

ومن جهة أخرى، عندما فاز السيناتور ماك كاين في الانتخابات الجمهورية الأولية في نيوهامشير بفرق كبير بلغ تسعة عشر في المئة من الأصوات أُصيب بوش بالذهول. في الواقع، نفذ ماك كاين حملته الانتخابية في حافلة أطلق عليها اسم «التعبير المباشر»، في حين سافر بوش على متن طائرة خاصة وكان متوتّرًا خوفًا من ظهور جهله، لذلك لم يقم بأي مقابلة مطوّلة مع مئات الصحافيين الذين كانوا يتابعون حملته.

بالتالي، كان رد بوش هو عينه الذي اتبعه عندما كان يساعد والده على هزم الحاكم دوككيس أي اللجوء إلى كتاب الحيل القذرة. أما بالنسبة إلى ماك كاين فكان تحقير شخصيته يتطلب انتقاد سجل حرب السيناتور وطباعه ونشر الإشاعات عن كونه أباً غير شرعي لطفل من العرق الأسود.(٢)

من هنا، كانت الاتهامات أشنع من أن تُصدَق، فشهر بسمعة السيناتور ماك كاين من خلال الأكاذيب قائلاً إنه « كان ليبراليًا فاسقًا تخلى عن زوجته المقعدة ليرزق طفلاً من العرق الأسود في أثر علاقة مع البغايا. وفضلاً عن ذلك قذف تهمًا غير معقولة عن علاقات خارج نطاق الزواج وعن الإجهاض وضرب زوجاته والعلاقات مع العصابات وإصابته بالأمراض التناسلية وأنه رُزق أطفالاً غير شرعيين، في حين اتُهمت زوجته سيندي بالمرأة المشاكسة ومدمنة المخدّرات، كما اتُهمت بالسرقة بسبب إدمانها. وأصبح أولاده يُعرفون بأبناء الزنى. فملأ «السم» جنوب كارولاينا ثمانية عشر يومًا وليلةً من المجزرة السياسية.»(٣)

---

(١) مقال The Bush Years: W's. World لـ James Traub، في مجلة New York Times Magazine، الصادر في ١٤ كانون الثاني/يناير سنة ٢٠٠١.

(٢) مقال The Anatomy of a Smear Campaign في صحيفة Boston Globe لـ Richard H. Davis طبعة ٢١ آذار/مارس ٢٠٠٤.

(٣) كتاب The Family لـ Kelley، ص.٥٩٥.

وكذلك، لو كان أتواتر لا يزال حيًا، لكان شعر بفخر عميق تجاه كارل روف، إلا أنّ ماك كاين الذي خسر الانتخابات الأولية الثانية كان مشمئزًا من بوش إلى حد أنه لم يقدر يومًا على مسامحته. وقال السيناتور لبوش عندما حاول الاعتذار منه بعد المناظرة التلفزيونية الوحيدة لهما مزمجرًا: «لا تحاول التلاعب بي»، في المقابل قال له بوش: «علينا البدء بإعداد حملة أفضل.»[1]

وفي الإطار عينه، قال مدير حملة ماك كاين حين شاهد بوش وروف وهما يكرران الإستراتيجية عينها في العام ٢٠٠٤ «تستهدف الاتهامات الشخصية المجهولة عادة التي تشكل حملة التشهير أهم ما يملكه المرشّح ألا وهو سمعته». والجدير ذكره، هذه الوسيلة الشرّيرة ستدوم على الأرجح لأنها بكل بساطة تنجح في معظم الأحيان.[2] وقد نجحت فعلاً. وعلى الرغم من أنّ ماك كاين قد ردّ من خلال اللجوء إلى تكتيكات مسيئة في خلال انتخابات ميشيغن الأولية وفاز بها بمعدل سبعة في المئة إلا أنه لم يكن مرتاحًا إلى اللجوء إلى وسائل مماثلة، والأهم من ذلك أنه لم يكن قادرًا على جمع عشرات الملايين التي جمعها جورج دبليو. وفي التاسع من آذار/مارس ٢٠٠٠، خسر السيناتور ماك كاين السباق وأصبح الطريق خاليًا أمام بوش ليصبح مرشح الحزب الجمهوري.

وبعد كل هذه الجهود، بقي أمام بوش قرار واحد يجب اتخاذه في صيف ٢٠٠٠ مع اقتراب المؤتمر القومي للحزب الجمهوري، وهو اختيار الشخص الذي سيسمّيه لمنصب نائب الرئيس.

صحيح أنّ بوش يحمل شهادة ماجستير في إدارة الأعمال بيد أنه يفتقر إلى الخبرة الإدارية خارج تكساس، لذلك قرر تسمية شخص يكبره سنًا. وقد أظهرت كل الاستطلاعات أنّ الجنرال الموقّر كولين باول صاحب الأربع نجوم هو الخيار الأكثر

---

(١) المصدر السابق، ص. ٥٩٨.

(٢) مقال The Anatomy of a Smear Campaign لـDavis في صحيفة Boston Globe.

شعبيةً الذي يمكن لبوش اعتماده. وحين سُئل باول عن رأيه رفض المنصب على الرغم من أنه ترك بابًا مفتوحًا أمام منصب وزاري محتمل.

وبالإضافة إلى ذلك، توسّل جورج هربرت بوش الأب، إلى رئيس باول السابق أن يعيد هذا الأخير النظر في قراره، إلاّ أنّه قد أصرّ عليه، الأمر الذي حكم على كل من الحاكم بوش وأميركا بالفشل. وعندئذ، كان المرشح الآخر الوحيد لمنصب نائب الرئيس الذي نال موافقة الأغلبية الشعبية، هو السيناتور ماك كاين الذي لم يكن يقبل حتى التكلم مع بوش بعد حملة الانتخابات الأولية، ناهيك بأن يصبح نائبه. ونتيجةً لذلك، أسند بوش عملية الاختيار إلى وزير الدفاع السابق في ولاية والده ريتشارد بي تشيني.

وفضلاً عن ذلك، اعترض الجميع على تسمية تشيني باستثنائه هو شخصيًا. وقد رحّب بوش بفكرة تعيين ديك تشيني في منصب نائب الرئيس، فهو لا يشكل تهديدًا، وهو قرار يلاقي نجاحًا في صفوف الجمهوريين الذين هابوا والده، بالإضافة إلى أولئك الذين ادعوا أنّ حاكم تكساس يفتقر إلى الخبرة. وفي الخامس والعشرين من تموز/يوليو ٢٠٠٠، تم إعلان شراكة بوش وتشيني الانتخابية. وفي الواقع وفي السابع من تشرين الثاني/نوفمبر كان التعادل الذي توقعته الاستطلاعات قد اختفى، فقد كانت هذه الانتخابات الأكثر توترًا منذ العام ١٨٧٦.

أدت النتائج الأولية في فلوريدا بنائب الرئيس غور إلى أن يتنازل عن الانتخابات الرئاسية إلى بوش غير أنه سحب قراره حين تبين له أنّ إعادة عملية العد ضروريةً. تطلّبت المسألة خمسة وثلاثين يومًا مضنيًا من الفرز وإعادة الإحصاء والاعتراض القانوني، إلى التماس المحكمة العليا في الولاية وأخيرًا محكمة الولايات المتحدة العليا.

وعلى الرغم من فوز غور بالتصويت الشعبي بمعدل مئتي ألف صوت من أصل مئة وخمسة ملايين (ليصدَّق في ما بعد أنه زاد على نصف مليون) أطاحت المحكمة

العليا قرار محكمة فلوريدا بمتابعة عملية إعادة العد.[1] وبموجب خمسة وعشرين صوتًا من الانتخابات الطالبية الخاصة بفلوريدا، تم إعلان الحاكم بوش رئيسًا منتخبًا في الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ في تصويت قسم القضاة التسعة بمعدل خمسة مقابل أربعة.

الجزء الثاني: الرئاسة

نظرًا إلى طبيعة نتائج الانتخابات المثيرة للجدل، توقَّع معظم المنتقدين أن يكون الرئيس الثالث والأربعون متواضعًا ويسعى لتوحيد البلد من خلال التسويات والنيات الحسنة. ففي النهاية، «تعهد رسميًا» في خطاب التنصيب «بناء أمّة موحدة لديها عدالة وفرص»، وخصوصًا معالجة الإصلاح في التعليم الأميركي العام ونظام الضمان الاجتماعي والرعاية الطبية في القطاع الاقتصادي. وأمّا في ما يتعلق بالخارج فقد وعد «بإظهار العزيمة بدون غطرسة». ونادرًا ما كانت عهود الرئيس التنصيبية بهذا الإهمال.

ففي البيت الأبيض، كان الرئيس الجديد مصمّمًا على ترك بصمته سواء على صعيد اللباس أو الكلام، وبذلك كان تمامًا بعكس سلفه. فقد ركز على معايير سلوكية ومظهرية جديدة، آمرًا بأن يرتدي الجميع قمصانًا وربطات عنق وسترات في جميع الأوقات وبأن يكونوا دقيقين في مواعيدهم. (وكان عدم الدقة في المواعيد اسم كلينتون الثاني). وعبر هذه الشكليات المهنية المفروضة على الآخرين، سعى بوش إلى طبع صورته الخاصة ليس بصفته القائد الأعلى فحسب ولكن أيضًا «كشخص عادي». وبالتالي تابع مناداة الناس الذين في خدمته بالألقاب التي نسبها إلى كل

(١) بلغت الأكثرية التي تفوق بها غور على بوش ٥٤٣٨٩٥ صوتًا من أصل مجموع الأصوات المدلى بها والتي سجلت ١٠٥٤٠٥١٠٠ صوتٍ. غير أن المجمع الانتخابي صوت للحاكم بوش بـ٢٧١ صوتًا من أصل ٢٦٦ مع امتناع عضو واحد عن التصويت.

منهم، مثل «بابلو» لوزير الخزينة الجديد المندهش، بول أونيل، أو «فريدو» للنائب العام الجديد، ألبرتو غونزاليس. فبهذه الطريقة أكَد أسلوب بوش الجديد في القيادة الذي اتسم بالودّية والخصوصية ولكن أيضًا بالتركيز الصارم والسرعة.

غير أن هذا الأسلوب لم يخدع أولئك الذين كانوا أكثر ذكاء بشكل ملحوظ، وخصوصًا الرئيس السابق. وعلّق كلينتون محبطًا بعد اجتماعه مع بوش في خلال الفترة الانتقالية محاولاً تحذيره من الخطر الكبير الذي يمثله الإرهاب الإسلامي، قائلاً: «إنّه لا يعرف شيئًا ولا يريد أن يعرف شيئًا».(١)

ومع شعوره بالخواء الفكري في قلب الرئاسة الإمبريالي، ضاعف رئيس القطاع السياسي في إدارة بوش أندرو كارد (الذي شغل منصب نائب رئيس القطاع في عهد بوش الأب) جهوده ليحمي الأمير من التحقيق بينما حاول أن يثبّت قدميه. ولهذه الغاية، لم تكن المؤتمرات الصحفية والمقابلات الرئاسية مسموحة، خشية أن يتعثّر بوش ويكشف ثغراته. أمّا الزيارات في الحرم الداخلي فكانت مراقبة بدقّة وبقيت محدودة جدًا.

وحتى بإبقاء الصحافة بعيدة، لم يكن سهلاً إخفاء قلّة ذكاء بوش وفهمه المحدود عن زملائه المقرّبين. ففي الاجتماعات مع الحكومة كاد يكون من المستحيل إخفاء قلّة معرفة الرئيس أو حتّى اهتمامه بغالبية المواضيع المتداولة، إضافة إلى رغبته في اتخاذ القرارات مهما كانت النتائج.

وارتاح كارد لمعرفته أنّ هناك بعض المسائل التي كانت تثير بالفعل اهتمام الرئيس. فعلى سبيل المثال أراد بوش تشجيع الإصلاح التربوي من خلال اختبارات جديدة على الصعيد الوطني، وهو موضوع كانت تؤمن به كثيرًا السيدة الأولى التي كانت أمينة مكتبة متدرّبة. كما أمل فرض قانون لتخفيض الضرائب على الأثرياء متأمّلاً أن يستخدموا المال للاستثمار في الاقتصاد، الأمر الذي شكل تعثّرًا في نهاية

(١) كتاب The Bush Tragedy لـWeisberg، ص. ٦٧.

مرحلة ازدهار مستمرّ. ولكن باستثناء ذلك فقد كان فارغًا بشكل ملحوظ. وحين سأله صديق من تكساس في خلال حملته الانتخابية ماذا كان سيحدث في حال خسر الانتخابات أجاب بلا مبالاة: «آه، لا أدري يا جيمي. لن يكون ذلك من أسوأ الأمور التي قد تحدث. أظنّ أنني سأعود إلى دالاس وأشاهد العديد من مباريات البيسبول وأمضي الوقت مع أصدقائي ولورا والفتيات وأكسب معيشتي وأستمتع بالحياة. سأفعل ما يفعله الآخرون». فألحّ الصديق وقال: «بهذه البساطة؟» فأجاب الرئيس «نعم بهذه البساطة».(١)

في أوستن في ولاية تكساس حيث كان المجلس التشريعي يجتمع مرّة كلّ سنتين طوال مئة وأربعين يوماً، وحيث كان الحاكم الملازم يتمتع بسلطة أكبر من الحاكم، لم تكن في الواقع غباوة بوش مهمة. ولكن في واشنطن، في حصن أقوى إمبراطورية في العالم، كانت السلطة قوت الحياة اليومية الأساسي. فناضل الناس من أجلها واستخدموها واستغلوها وتلاعبوا بها وقد لزم الأمة وقت طويل قبل أن تصبح إمبراطورية. فإذا وجد الرئيس أنّ دوره كان كناية عن مدير وسيط، ورئيس مجلس إدارة شركة أميركا، ألن يكون هناك أي صراع بين مدراء المجلس للوصول إلى السلطة؟

وفوجىء وزير الخزينة بول أونيل – الذي خدم في عهدي الرئيسين فورد وجورج أتش دبليو بوش، بعد اجتماع دام ساعة كاملة مع الرئيس في المكتب البيضوي بعد التنصيب ـ بعدم قدرة بوش على طرح أي سؤال. وفكّر أونيل «إنّه لأمر غريب».(٢) وعلم في الأسابيع التالية أن بوش سلّم مراقبة السياسة الاقتصادية وتخفيض الضرائب إلى مستشاره الرئاسي الجديد، كارل روف. وإضافة إلى كلّ ذلك فوجىء أونيل في خلال الاجتماع الأوّل لمجلس الأمن القومي الذي حضره في الثلاثين من كانون

(١) كتاب Bush's Brain: How Karl Rove Made George W. Bush Presidential لـJames Moore وWayne Slater، ص. ٥.

(٢) كتاب The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House and the Education of Paul O'Neill لـRon Suskind، ص. ٥٨.

الثاني/يناير ٢٠٠١ بسماع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائب الرئيس ديك تشيني يتكلّمان عن غزو العراق.[١]

وأعلن الرئيس بعد ذلك بثقة لأونيل الذي كاد لا يصدق ما سمعه، أنّ أميركا تقوم بمحاولات حثيثة للتوصل إلى السلام في الشرق الأوسط من خلال اتفاق إسرائيلي-فلسطيني. كما أعلن بوش ببساطة «لقد بالغ كلينتون كثيرًا. فإذا كان الطرفان لا يرغبان في السلام، فما من طريقة لإجبارهما». وتابع بوش يشيد برئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد أرييل شارون، الذي كانت سمعته سيّئة بسبب عناده ما أدّى إلى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية وتوسّع المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية. وقال الرئيس: «لن أعتمد على السمعة التي أصبحت من الماضي عندما يتعلّق الأمر بشارون». اصطحب هذا الأخير بوش في جولة بالمروحية فوق المخيمات الفلسطينية في العام ١٩٩٨، في خلال إحدى رحلاته القليلة خارج الولايات المتحدة. وبدا ذلك كافيًا. فشرح بوش «لقد رأيته مرة واحدة فقط. وبدا الأمر حقًّا سيئًا جدًا في الأسفل. وأظنّ أنّه حان الوقت للخروج من هذا الوضع»[٢].

وحذّر وزير الخارجية الجديد كولين باول مندهشاً أنّ الانسحاب الأميركي من عملية سلام كلينتون في الشرق الوسط ستعطي الضوء الأخضر لشارون وللجيش الإسرائيلي لاستخدام القوة من دون أي رادع. وحذّر باول من أنّ «النتائج قد تكون وخيمة وخصوصًا بالنسبة إلى الفلسطينيين». فأجاب الرئيس عن ذلك بهزة كتف تبعتها كلمات مصيرية «إن إظهار القوة من جهة واحدة قد يوضّح حقًّا الأمور».[٣] وبذلك دعت مستشارة الأمن القومي الدكتورة كوندوليزا رايس لعقد اجتماع من أجل مناقشة بديل لفرض الديمقراطية في الشرق الأوسط، عن طريق إطاحة صدام حسين واستعمار العراق! ومن أجل هذه الغاية، كلّف الرئيس رامسفيلد ورئيس هيئة

(١) المصدر السابق، ص. ٧٠ و٧٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧١.
(٣) المصدر السابق، ص. ٧٢.

الأركان المشتركة الجنرال شيلتون، «دراسة خياراتنا العسكرية».(١) فارتاب كلّ من أونيل وباول. فلم يكن جيرالد فورد ولا جورج أتش دبليو بوش يتمتّعان بذكاء حاد، ولكن تعلم كلاهما الإصغاء ومعالجة التفسيرات المتضاربة للوقائع، إضافة إلى تقويم نتائج الخطوة المقترحة بحذر واتخاذ قرار نهائي مدروس بصفتهما رئيساً وقائداً أعلى للبلاد. والآن وراء قناع أسلوب الإدارة الجديد الكتوم الذي يمنع التسرب والانضباطي والهش، بدأ أونيل يدرك أنّه يبدو أنّ انقلابًا كان قد جرى في القصر بقيادة كارل روف الذي سعى إلى إنشاء ما لا يقلّ عن أربعة مكاتب سياسية للحزب الجمهوري في الطابق الثاني من البيت الأبيض وأصرّ على وجود قائد لكل لجنة في البيت الأبيض. وإضافة إلى ذلك كان لروف توأم وهو نائب الرئيس.

فكان تشيني قد أنشأ فورًا متجره السياسي في البيت الأبيض. وأصرّ على ألاّ يكون رئيس القطاع سكوتر ليبي قادرًا على تولّي مهمّة مستشار الرئيس للأمن القومي أو أن يكون مساعد بوش الرئيسي، ويُخوّل بصفته رجل روف الأول الاطلاع على جميع الوثائق قبل وصولها إلى الرئيس. ولم يراقب تشيني أوليبي أو مستشار نائب الرئيس القانوني، ديفيد أدينغتون («أقوى رجل قد سمعت به يومًا») كلّ لجنة وفريق في البيت الأبيض وحسب، بل تيقنوا أيضًا أن يحصلوا على نسخة عن كلّ رسالة أو بريد أو وثيقة رئاسية، وكذلك ألا يتمّ إرسال نسخة إلى الرئيس عن أي وثيقة تعود إلى نائبه.(٢)

لم يكن وزير الخزينة بول أونيل المسؤول الوحيد القلق بشأن سيطرة روف وتشيني على القصر. فقد سبق أن قلق القيصر المناهض للإرهاب ريتشارد كلارك في خلال الحملة الانتخابية بشأن لامبالاة فريق بوش الظاهرة تجاه تهديد الإرهاب المتزايد. وسرعان ما لامت مستشارة الأمن القومي كلارك. فقالت له الدكتورة رايس:

(١) المصدر السابق، ص. ٧٥.

(٢) مقال «Cheney's Guys» لـChitra Ravagan في صحيفة US News & World Report الصادر في ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٦. كتاب Angler: The Cheney Vice Presidency لـBarton Gellman ص. ٣٧٦.

«هل تعلم، لا تعطِ الرئيس مذكّرات طويلة فهو لا يقرأ كثيرًا». فذُهش كلارك، وقال لاحقًا: «تبًا لذلك. أعني أنّ رئيس الولايات المتحدة لا يقرأ كثيرًا؟»[1]

ولكن نائب الرئيس كان يقرأ كثيرًا.

في المقابل، وصف جون نانس غارنر مكتب نائب الرئيس بأنّه «لا يثير القلق أبدًا» بما أنّه ليس لديه أي مسؤوليات دستورية باستثناء التصديق على نتائج الانتخابات، وبعد ذلك ترؤس مجلس الشيوخ مع التصويت الحاسم في حال التعادل. وقد قدّم المنصب حرفيًا ومجازيًا بابًا جانبيًّا إلى الرئاسة. مهما طمأن تشيني الحاكم بوش أنّه لم يكن ينوي قط ترشيح نفسه.

كان منذ البداية في قلب جدول أعمال تشيني تصميم على جعل نفسه شخصًا لا غنى عنه ضروريًا في الإدارة الجديدة كما كان توماس كرومويل بالنسبة إلى الملك هنري الثالث. لكن في حالة تشيني، سيكون العرش له إذا اغتيل الرئيس أو أصبح عاجزًا عن أداء مهامه.

منذ بداية رئاسة بوش كان تشيني، الذي أحس بجهل الرئيس الجديد وسذاجته منذ تولي مهام المكتب البيضوي، يحترم شخص الرئيس، ولكنّه كان يقوم بما عده مناسبًا بغض النظر عن القانون في الخارج. فاعترف أحد موظّفي البيت الأبيض «كان موظّفو بوش يخشون رجال تشيني».[2] وعلّق موظف آخر قائلاً: «إنّهم فائقو الذكاء وأقوياء جدًا مقارنة ببوش وفريقه». ووجد موظف ثالث نفسه، وهو عقيد أُعجب بتشيني في السابق حين كان وزير الدفاع، خائفًا من طريقة تشيني الحسابية التي كان يعتمدها في منصبه كنائب رئيس. وفي عهد جورج أتش دبليو بوش كانت تتمّ إعادة تشيني إلى المسار الصحيح كلما خرج عنه، كما حدث حين انتقد علنًا ميخائيل غورباتشوف في العام ١٩٨٩ بدون موافقة الرئيس. ففي ذلك الوقت كان

---

(١) مقال «Farewell to All That: An Oral History of the White House» لـCullen Murphy وTodd S. Purdum في مجلة Vanity Fair الصادر في شباط/فبراير ٢٠٠٩ ص. ٩٣.

(٢) كتاب Vice: Dick Cheney and the Hijacking of the American Presidency لـLou Dubose وJake Bernstein ص. ١٧٩.

الأمر الذي أصدره وزير الخارجية جايمس بيكر يقول «تخلّصوا من ديك بسرعة». لكن الآن ومع وجود رئيس في المكتب الرسمي غير ناضج وعديم الخبرة وغير بارع ويفتقر إلى الموظّفين وحتمًا غير مبال كان هناك فراغ، ولم يلزم تشيني وقت طويل لملئه، بحسب ما قاله العقيد ويلكرسون لاحقًا. «ما حدث في الواقع هو أنّ رجل أعمال ذكياً وبيروقراطياً، وربما الرجل الأذكى الذي عرفته في حياتي أصبح نائبًا لرئيس الولايات المتحدة». وعندما وجد تشيني الفرصة سانحة خاض في «الفراغ الموجود حول بوش، الفراغ في الشخصية وفي التفاصيل وفي الخبرة».[1]

وأعلن في وقت لاحق كاتب خطاباته ديفيد فرام أنّ بوش أصرّ على الذين حوله أن يبقى جدول أعماله كما هو «محافظًا متعاطفًا» وخصوصاً في ما يخص التعليم في المدارس الحكومية. ولكن تشيني لم يهتمّ البتة بالتعليم في هذه المدارس؛ ففي الواقع كان قد صوّت كعضو في الكونغرس لإغلاق وزارة التربية الوطنية نهائيًا. وما أراده هو الحد من التدخل الفدرالي في حياة الناس اليومية، وزيادة القوة الإمبريالية في البيت الأبيض لتطوير المصالح الأميركية في الخارج، أي توفير حاجاتها إلى الطاقة والمواد الأولية الضرورية، إضافة إلى نزع السلاح من جميع الذين يهدّدونها بأي طريقة والحفاظ على التفوق العسكري. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف ينبغي التراجع عن انتهاكات السلطة الرئاسية التي شعر بأنّ الكونغرس قام بها منذ فضيحة ووترغيت. ونظرًا لأنّه أراد ذلك بقوّة وللازدراء الذي كان يشعر به تجاه مجلس الشيوخ كمؤسسة، كان ينوي أن يدفع البيت الأبيض إلى الهاوية، كما فعل حين أقنع بوش بعدم عقد تسوية مع السيناتور الجمهوري جيم جيفوردز في ما يتعلّق بتمويل قانون التعليم الخاص بالمعوقين. وحتّى كارل روف شعر بأنه يجب على الرئيس أن يقوم بتنازل لجيفوردز الذي كان يريد ميزانية أكبر لبرامج التعليم الخاص بدلاً من هدرها في تخفيض الضرائب. ولحظ روف في وقت لاحق قائلاً إنه يمكن للسيناتور

(١) مقال «Farewell to All That» لـMurphy وPurdum، ص.٩٠.

جيفوردز «أن يذهب إلى الجحيم»[١]. ولكن تشيني تابع مسيرته. وبخوف، تمسك السيناتور جيفوردز بتهديده بالتصويت لمصلحة الديمقراطيين ما سيقلب المعايير في مجلس الشيوخ في ما سمّي «بالهزة السياسية».[٢]

ولكن المطلعين على الأمور الداخلية اشتكوا من عدم عمل الحاكم بوش بهذه الطريقة في تكساس. ولكن الأسوأ كان على الطريق.

وعلى الرغم من أنّ تشيني وفق ما قاله، «فشل» في شهادته العليا في جامعة يال، في الوقت الذي كانت الدكتورة رايس أستاذة متعاقدة في جامعة ستانفورد، فلم تكن بمثيل له. لقد رأى تشيني معلومات الاستخبارات الوطنية نفسها التي رأتها رايس وكلّ رسائلها ولكنه لم يسمح لها برؤية رسائله. فكان ينهض تشيني في الساعة الرابعة والنصف صباحًا ويمسك بتقرير الاستخبارات الخاص به قبل أن تلتقي رايس صباحًا لجان الأمن وقبل أن تقدم تقريرها إلى الرئيس. وقد عطّل جميع اجتماعاتها وراقب كلّ توصياتها. حتّى أنّه حضر كل اجتماعات مجلس الأمن القومي، وطلب بدون كلال منذ اليوم الأول على الرغم من الهجوم الانتحاري الذي استهدف اليو أس أس كول في خلال الخريف الماضي، ألا يركّزوا على الإرهاب أو القاعدة بل على العراق.

لم يكن لدى ريتشارد كلارك أي شك في أن أسامة بن لادن كان وراء عملية تفجير الكول في عدن. مرّت الأيام والأسابيع والأشهر وكان كلارك يحاول إقناع زملائه الجدد بأن هجومًا آخر سيقع إما على الإنشاءات الأميركية في الخارج وإما في الداخل. غير أن كلارك عجز عن إحراز أي تقدم مع تشيني أو رايس أو دونالد رامسفيلد أو مساعد رامسفيلد، بول ولفويتز. وفي الواقع، في الأشهر الثمانية الأولى من رئاسة بوش، لم يكن يُسمح لكلارك بتقديم تقارير للرئيس بوش ولو لمرة واحدة بالرغم من البراهين الكثيرة عن خطط لهجوم ثانٍ للقاعدة.

ولشدّة إحراجها، رفضت رايس في البداية الموافقة على عقد اجتماع

(١) كتاب Angler لـGellman، ص. ٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٧٩.

للمسؤولين بشأن ذلك الموضوع ثم شدّدت على أن يتم تولي الاجتماع من قبل ممثلين عن المسؤولين في نيسان/أبريل عام ٢٠٠٠ وفيه أعلن ولفويتز أنه لم يفهم «لماذا نبدأ بالتكلّم على ذلك الشخص الوحيد الذي يدعى بن لادن». وحتى بعد أن قدّم كلارك تفسيرًا عن شبكة القاعدة، احتجّ ولفويتز قائلا:» أنتم تعطون بن لادن أهميّة كبيرة» وادّعى أن بن لادن لا يستطيع أن يصل إلى مبتغاه بدون رعاية إحدى الدول وخصوصاً العراق الذي اتهمه ولفويتز بتفجير مركز التجارة العالمي في العام ١٩٩٣.

فحزن كلارك، وكتب لاحقًا:» لا أستطيع أن أصدّق ذلك»، نظرًا إلى التشكيك في أي علاقة للعراق بالهجوم على نيويورك. وأضاف كلارك محاوًلا تمالك نفسه «تخطط القاعدة للمزيد من الأعمال الإرهابية ضد الولايات المتحدة». في الواقع، كان قد سبق أن أعلن أسامة بن لادن ومجموعته الإرهابية خطتهما. وكان يقول أحيانًا:» كما فعل هتلر في «كفاحي»، عليكم أن تصدّقوا أن أولئك الناس سيفعلون كما قالوا».[1]

ندم كلارك على ما قاله بعد أن خرجت الكلمات من فمه واستاء ولفويتز في الحال وقال:» لا يمكن مقارنة هولوكوست بذلك الإرهابي الأفغاني الصغير».[2]

بالنسبة إلى كلارك، إن البلادة المطلقة والبغض الساخر اللذين تمتع بهما مستشارو بوش وزملاؤه الكبار تجاه المسؤولين الرسميين الذين خدموا في إدارة كلينتون كانا مزعجين، كما لو أن عمّى إراديًا قد أثّر سلبًا في الرئيس الجديد ونائب الرئيس ومستشارة الأمن القومي ونائبها ووزير الدفاع ونائبه، تاركاً وزير الخارجية كولين باول ونائبه وريتشارد كلارك ورئيس حكومة مرتاباً في معركة وحيدة لإنقاذ إدارة كان يبدو عليها الاضطراب ومهووسة بالعراق وبإنهاء معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية مع روسيا التي كانت على وشك الزوال.

عبثًا حاول كلارك أن يقول «إن القاعدة تخطط لهجوم أكبر علينا» وأمر كل

(١) كتاب Against All Enemies: Inside America's War on Terror لـRichard A. Clarke ص. ٢٣٢.
(٢) المصدر السابق.

الوكالات بإعلان حالة الطوارئ وطلب إلى مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية إبلاغ وحدة مكافحة الإرهاب بكل ما يمكنهما معرفته عن أفراد مشتبه فيهم أو تحركات داخل الولايات المتحدة أو خارجها.[1] وفي تحدّ أخير لرايس في اجتماع المسؤولين الذي عقدته بشكل متأخر في الرابع من أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠١، طلب إليها كلارك العودة إلى الوراء «بعد أن قتلت القاعدة مئات الأميركيين بعد فترة وجيزة»وتسأل نفسها «ماذا تتمنين أنك فعلتِ غير الذي قمت به».[2]

لم تعترف رايس أو الرئيس أو أي عضو كبير من إدارة بوش بإغفالهم الأمر. كما لم تتم محاسبة أي منهم، الأمر الذي أغضب كلارك كثيرًا.

في صباح الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، صعدت أربع مجموعات من المفجرين الانتحاريين من القاعدة، مسلّحين بسكاكين تشريح بسيطة، إلى متن أربع طائرات ركاب أميركية بدون أي حواجز: طائرات الخطوط الجوية الأميركية الحادية عشرة و المئة والخامسة والسبعين في مطار لوغن في بوسطن؛ وطائرات الخطوط الجوية الأميركية السابعة والسبعين في مطار دالاس الدولي خارج العاصمة واشنطن؛ والخطوط الجوية المتحدة في مطار نيوآرك خارج نيويورك. وسعت هذه المجموعات إلى خلق أقصى تأثير رمزي مستخدمة أسلحة بسيطة جدًا لقتل الطيارين وقيادة الطائرة كما لو كانت صواريخ موجّهة إلى أهداف تمّ اختيارها بعناية وقتلت الآلاف من المواطنين الأميركيين الأبرياء.

وعلى الرغم من وضع حد لجهد إحدى الفرق في منتصف الرحلة حين هاجم الركاب الخاطفين فقد حقق المعتدون هدفهم: ففي صباح ذلك اليوم المشمس شهدت الولايات المتحدة عدد ضحايا في نيويورك وواشنطن يفوق عدد ضحايا بيرل هاربر في العام ١٩٤١.

(١) المصدر السابق، ص. ٢٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٢٣٧.

وبينما كان يتمّ بثّ فيديو وأفلام انهيار البرجين التوأمين في مركز نيويورك التجاري في جميع أنحاء العالم دخلت الولايات المتحدة في صدمة. وحتّى الرئيس نفسه الذي كان جالساً مع تلاميذ الصف الثاني في مدرسة في ساراسوتا في ولاية فلوريدا بدا مذهولاً مثل الناس العاديين. وبدا عاجزاً عن استيعاب لقطات طائرة تحلق باتجاه مبنى شاهق في مانهاتن تم بثّها على شاشة التلفزيون وهو متوجّه إلى الصف أو الأخبار التي همست له بعد بضع دقائق والتي تفيد بأنّ طائرة أخرى اصطدمت بالبرج الثاني. كما ذُهل أيضًا نائب الرئيس تشيني بالقدر نفسه.

ولكن الأخبار لم تفاجئ القيصر ريتشارد كلارك المناهض للإرهاب الذي خفضت رتبته والذي عرف فورًا المنظمة التي كانت وراء هذا الهجوم.

كانت رسالة الرئيس إلى الأمّة والعالم التي كتبتها كارن هيوز والتي سُجّلت على شريط فيديو على متن الطائرة الرئاسية شدّدت مؤكدة أنّ الإرهابيين لن يخيفوا الولايات المتحدة. وحتّى الآن حين تكلّم الرئيس أخيرًا للمرّة الأولى في خلال فترة رئاسته قام بما بدا لريتشارد كلارك في المساء التالي أنّه طلب رئاسي مدهش: «اسمعوا، أعلم أن لديكم الكثير لتقوموا به وعليكم القيام بكل شيء، ولكن أريد منكم ما أن تستطيعوا مراجعة كلّ شيء، كل شيء لتروا إن كان صدام هو من قام بهذا الأمر وابحثوا في ما إذا كانت له أي علاقة بذلك».(١)

بالكاد نام كلارك أو تناول الطعام في خلال هذين اليومين، وقد منع النقل الجوي من الطيران وحاول منع أي هجمات إرهابية ممكنة أخرى، «مندهشًا ومرتابًا» بحسب ما قاله الرئيس. فقد احتج كلارك قائلاً: «لكن يا سيدي الرئيس إنّ القاعدة هي من قامت بهذا الهجوم». فأجاب بوش قائلاً: «أعلم، أعلم ولكن تحقق ما إذا كان صدّام متورطًا. تحقق من ذلك فقط. أريد أن أعرف».(٢)

ففعل كلارك ذلك بإخلاص، مشككًا أنّه في غضون ساعات قليلة قد «أثّر»

(١) المصدر السابق، ص. ٣٢.
(٢) المصدر السابق.

الرجال المجانين الذين يسيطرون على الأمن القومي في بوش: تشيني ورامسفيلد وولفوتيز الرجال الذين عقدوا اجتماعًا ليلة الاعتداء ولكن ليس لتفادي المزيد من الإرهاب أو ملاحقة القاعدة بل للقيام «بمناقشات بشأن العراق».

كان نائب الرئيس تشيني قد نصح الرئيس بأن يبقى خارج واشنطن في «مكان آمن»، ما كان تلطيفاً للجبن. ولكن بوش أصرَّ على العودة إلى البيت الأبيض، وانضمّت إليه السيدة الأولى، الأمر الذي صب في مصلحته. أمّا تشيني الذي اختبأ في خلال الأسابيع التالية فلم يسمح بتهدئة هوسه بالعراق أو تجاهله. وكما في الخيال العلمي السريالي، تابع تشيني المشاركة في جميع المناقشات عبر التواصل من خلال «تسجيلات فيديو آمنة» مشجّعًا بوش على عدم رؤية هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر كمؤامرة مدبّرة قام بها الإرهابيون الإسلاميون المنحرفون بناءً على طلب أسامة بن لادن، بل كتبرير شامل للحرب، فيتمكن الرئيس جورج دبليو بوش من أن يصبح قائد حرب الإمبراطورية الأميركية.

كان الرئيس يحتاج إلى القليل من الإقناع. وبدون استشارة وزير خارجيته،[1] أعلن بوش للصحافيين المجتمعين في قاعة روزفلت في البيت الأبيض في الثاني عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أنّ الاعتداءات «المتعمّدة والقاتلة» على نيويورك كانت «أكثر من أعمال إرهابية، كانت جرائم حربية. وستردّ أميركا بحرب شاملة أي بصراع ضخم بين الخير والشر»، وإذا لم تنضم البلدان الأخرى إلى الولايات المتحدة، «فسوف نخوض الحرب بمفردنا».[2]

فهل تمّ التخلي بين ليلة وضحاها عن الخبرة الأميركية في خلال نصف القرن الماضي بوصفها قائدة دول العالم الديمقراطية والحرة، إلى جانب عقود من الدبلوماسية والرعاية المدروسة للحلفاء؟ وبعد نصف ساعة حين استخدم بوش «كلمة حرب» مجددًا، حذّر قائد الأكثرية في مجلس الشيوخ السيناتور الديمقراطي

(١) كتاب Bush at War لـ Bob Woodward، ص. ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

توم داشل أنّ «حرب هي كلمة قوية». فتجاهله الرئيس وترك عضو مجلس الشيوخ والرئيس الموقت للمجلس روبرت بيرد الذي يبلغ الثالثة والثمانين من العمر، يحذّر بأنّ الكونغرس لن يمنح الضوء الأخضر الذي مُنح للبندون جونسون في خلال حادثة خليج تونكين، وسحب من جيبه نسخة عن الدستور ليثبت وجهة نظره. وللحصول على موافقة الكونغرس بموجب الدستور، كان على أي رد أن يستهدف تنظيم القاعدة، وليس أن يقود أميركا إلى حرب شاملة ومفتوحة كما في الفيتنام.

وحضر بوش بدون أي رادع اجتماعًا مصيريًا لمجلس الأمن القومي عُقد في ذلك اليوم عند الساعة الرابعة من بعد الظهر. وسأل رامسفيلد الرئيس «لماذا يجب علينا أن نهاجم العراق وليس القاعدة فقط؟».

غير أن تشيني وافق على ذلك بشكل قاطع، قلقًا من أنّ «الانتقام» من «الإرهابي الصغير» بن لادن في أفغانستان سوف يستغرق وقتًا، بينما كان غزو الولايات المتحدة الشامل لبلد إسلامي مثل العراق سوف «يبرهن» القوة والعزم الأميركي الإمبريالي. وتُرك للوزير باول أمر إعادة العقلانية إلى الاجتماع الذي كان بمنزلة خيانة في تجاهله الحاجة إلى موافقة الكونغرس على هذه الحرب. وذكّر باول زملاءه أنّ الأمر لم يقتصر على غياب أي دليل على أنّ العراق متورّط في هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أو القاعدة، بل «تحتاج كل خطوة إلى الدعم الشعبي» إضافة إلى موافقة الكونغرس. «لا يكمن الأمر في ما يوافق عليه التحالف الدولي»، في حال كان قادرًا على إنشاء تحالف دولي، «بل في ما يريد الشعب الأميركي أن يدعم». وخوفًا من أي سوء تفاهم قال مجدّدًا: «إن الشعب الأميركي يريدنا أن نفعل شيئًا في ما يتعلّق بالقاعدة».(١)

فبدا الرئيس وكأنه لم يستمع إلى وزير خارجيته. وفي الواقع إن كان هناك رجل غير مناسب لمنصب قيصر الأمة الأكثر قوة في العالم فهو «الرجل السام من تكساس»، كما وصف بوش نفسه بفخر بعد انسحابه من اتفاقية كيوتو. وحتّى الآن لقد رأى أنّ

(١) المصدر السابق، ص. ٤٩.

دوره كرئيس مجلس إدارة شركة أميركا الهش والصارم قد تغيّر وحوّله إلى مهرّج، ما أفرح تشيني، الذي حثّه على التكلم في العلن ليس على تحديد مكان بن لادن والتخلص منه فحسب بل على شن حرب على أمل أن تكون طويلة ورابحة. وفيما كان ينزل من مروحيته الرئاسية مارين في السادس عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، صرّح بوش أنّ «هذه الحملة وهذه الحرب سوف تستغرقان بعض الوقت».

وبدلاً من تهميش إرهابيي القاعدة بصفتهم مسلمين طائشين غريبين، ألن يطرح الكلام على «حملة صليبية» شبح حملة عسكرية يهودية-مسيحية جديدة ضدّ العالم الإسلامي أجمع، وبالتالي يؤدي إلى دفع المجموعات المهمّشة إلى الانضمام إلى القاعدة باعتبارها مصدر إلهامها وعقلها الإستراتيجي والمدبّر؟ بقي الكونغرس حذرًا. وفي الثامن عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، سمحت جمعية مشتركة في الكونغرس للرئيس باستخدام «جميع القوى الضرورية والمناسبة»، ولكن «ضدّ تلك الأمم والمنظمات والأشخاص الذين يرى أنهم قد خطّطوا للاعتداءات الإرهابية التي حدثت في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وسمحوا بها أو شاركوا فيها هم فقط».[1] وبالإضافة إلى ذلك أصرّ الكونغرس على الاحتفاظ بالسلطة على القوى الحربية التي أوكلها إليه الدستور.

وبدلاً من أن تضعف حماسة بوش، بدا أن لغة الكونغرس التحذيرية كانت تشجعه وتشجع تشيني فقط. ومتوجّهًا شخصيًا إلى الكونغرس للمرة الثانية في خلال فترة توليه الرئاسة في العشرين من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، عاد بوش إلى الموضوع الأساسي، مؤكدًا للمسلمين في أميركا وفي العالم أنّ اللوم لا يقع عليهم، ولن يلوم أحداً على إيمانهم. ومع ذلك، أوضح أن الاعتداء على مركز التجارة العالمي ومقرّ البنتاغون يشكّل، مثل بيرل هاربر، إعلانًا «للحرب» وبالتالي إنّ الولايات المتحدة كانت أمّة في حالة حرب، وهي حرب تختلف عن أي حرب سابقة قد شنّتها أميركا.

(١) ينص القانون العام رقم ١٠٧/٤٠ على "السماح باستعمال القوات المسلحة" الصادر في ١٨ أيلول/سبتمبر سنة ٢٠٠١.

«يسأل الأميركيون «كيف سنحارب ونربح هذه الحرب؟» سوف نوجّه جميع الموارد التي تخضع لسلطتنا، كلّ طريقة دبلوماسية، وكلّ وسيلة تجسّس، وكلّ سلاح حرب ضروري لتدمير شبكة الإرهاب الشاملة وهزمها».

فوجد الدبلوماسيون في العالم هذا الأمر مقلقًا. وأظهر سلوك بوش ولغته أنّه يشبه مارشالاً مفوّضًا في إحدى البلدات في فيلم عن الغرب الأميركي، أكثر من خلف لجورج واشنطن. وأكّد الرئيس «لن تكون هذه الحرب مثل الحرب الجوية على كوسوفو التي حدثت قبل عامين، حيث لم يكن هناك قوات برية ولم تتمّ خسارة أميركي واحد في المعركة». هذه المرة ستراق الدماء فستكون «حرب أميركا الجديدة ضدّ الإرهاب» حربًا شنت باسم جورج دبليو بوش ومن دون تاريخ نهاية معروف. «على الأميركيين ألاّ يتوقّعوا معركة واحدة، بل حملة طويلة لا تشبه أي حملة أخرى سبق أن عرفناها. قد تشمل ضربات مأساوية مرئية على شاشات التلفزيون وعمليات سرية وحتى سرية في نجاحها. سوف نحرم الإرهابيين من التمويل، ونقلبهم بعضهم ضد بعض، ونسوقهم من مكان إلى آخر حتى يعجزوا عن إيجاد ملجأ أو راحة. وسوف نلاحق أية دولة تساعد الإرهابيين أو توفر لهم ملاذات آمنة. فالآن على كلّ أمّة في كلّ منطقة أن تتخذ قرارًا: إمّا أن تكون إلى جانبنا وإما أن تكون إلى جانب الإرهابيين».

وتساءل المشاهدون والدبلوماسيون في العالم ماذا تعني حقًّا هذه الكلمات؟ أليس الكونغرس بموجب الدستور هو الهيئة الوحيدة التي يحق لها إعلان الحرب، خصوصًا حربًا غامضة «ضدّ الإرهاب» وليس ضدّ القاعدة بصفتها العقل المدبّر المسؤول عن هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؟ ماذا يعني بالضبط «ملاحقة كل أمّة ساعدت الإرهاب؟» فأعلن الرئيس «إنّ حربنا على الإرهاب تبدأ مع القاعدة، ولكنّها لا تنتهي هنا، لن تنتهي إلى أن نجد كلّ مجموعة إرهابية ذات امتداد عالمي ونوقفها ونهزمها».

إيجاد كلّ مجموعة إرهابية وإيقافها وهزمها وليس القاعدة فقط؟ وبالنسبة إلى

رئيس قد أشار مرة واحدة إلى مشكلة الإرهاب في خلال الأشهر الثمانية ونصف الشهي منذ تنصيبه، رئيس لم يمنحه الكونغرس سوى سلطة محدّدة ومحدودة، بدا الأمر غامضًا وخلاصياً وعاطفياً وغير مدروس. كما أنّه قرار غبي بعض الشيء – على عكس أسامة بن لادن – بما أنّه الرد الذي يريده بن لادن، لتنشيط الجهاديين في العالم الإسلامي.

وكما لاحظ كولين باول في ما بعد، «يتمتّع بوش بغريزةٍ دقيقة، كغريزة رعاة البقر».[1] وبالتأكيد بدا الرئيس شديد الانفعال أو في حالة تأمل تحسّن المزاج. وأضاف في خطابه أمام جلسة الكونغرس المشتركة متشائمًا وبصوت يكاد لا يسمع «الليلة وعلى بعد خطوات قليلة من مقرّ البنتاغون المتضرّر أريد أن أوجّه رسالة إلى قواتنا العسكرية: كونوا مستعدين. لقد طلبت إلى القوات المسلّحة أن تكون متأهّبة، وهناك سبب وراء ذلك. اقتربت الساعة التي ستتصرّف فيها أميركا، وسوف تجعلوننا فخورين بكم».

فوقع أوّل «عمل» حربي للرئيس بعد أربعة أسابيع، في أفغانستان وليس في العراق، ما خيّب أمل رامسفيلد وولفويتز. قصفت القوة الجوية الأميركية والبريطانية قوات طالبان التي كانت تخبّىء بن لادن الهاربين. فسقطت كابول في الثالث عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ وقندهار في السابع من كانون الأول/ديسمبر حين انضم إلى ساحة المعركة أكثر من ألف جندي من مشاة البحرية إلى قوات وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية والمغاوير الأميركيين الذين يدعمون قوات التحالف الشمالي المعادية لطالبان.

تزايد عدد الخسائر البشرية بين صفوف المدنيين الأفغان الأبرياء (المشار إليها «بالأضرار الجانبية»)، ولكن في الواقع بحلول عيد الميلاد في العام ٢٠٠١ كان العدد قد تجاوز عدد الذين قتلوا في اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر في أميركا. ولكن لا الرئيس ولا رامسفيلد ولا تشيني ولا ريد اكترثوا لذلك. فكانت

---

(١) مقال «Farwell to All That» لـMurphy وPurdum صفحة ١٦٠

الولايات المتحدة «تفوز» بشكل مذهل - حتّى الآن. فتراجع بن لادن وقائد حركة طالبان الملاّ عمر باتجاه الحدود الباكستانية وعزما على خوض حرب عصابات، على غرار حملة المجاهدين تمامًا كما فعلا ضدّ روسيا. وبدا أن بن لادن أصبح في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ محاصرًا بعد انسحابه إلى كهوف تورا بورا الشهيرة. وكما روى في ما بعد غاري برنتسن، قائد وكالة الاستخبارات الأميركية في تورا بورا، لقد قطعت قوات التحالف الشمالي أي سبيل للهروب باتجاه أفغانستان ولكن ليس باتجاه باكستان. تمّ إلقاء قنبلة «دايزي كاتر» يبلغ وزنها خمسة عشر ألف باوند، ولكن على الرغم من أنها أصابت بن لادن، غير أنها لم تقتله. وقد أصيب المئات من القرويين الأبرياء بالقنابل الطائشة. فطلب برنتسن إلى الدبابات في الموقع، المؤلفة من ثمانمئة كوماندو، أن نحقق أنّ بن لادن لم يهرب، ولكن الوزير رامسفيلد، الذي كان حريصًا على تجنّب الخسائر بين الأميركيين والمصرّ على تولي القوات الأفغانية المعادية لطالبان المهمّة بدلاً منهم، رفض الطلب، كما رفض الرئيس بوش القائد الأعلى معارضته.

وذكر برنتسن «لسوء الحظّ تمّ اتخاذ القرار في البيت الأبيض باستخدام حرس الحدود الباكستانية لاعتقال رئيس الجماعات الإرهابية وقتله». وشرح قائلاً : «ما لم يفهمه البيت الأبيض أنّ حرس الحدود كانوا يتعاونون مع طالبان ولم يرغبوا في رؤيته مقتولاً».[1]

فكانت النتيجة أن فرّ كلّ من بن لادن وعمر من حملة التفتيش الأميركية.

ولم يعترف لا بوش ولا حاشيته التي تضمّ تشيني ورامسفيلد وولفويتز ورايس بفظاعة الخطأ الذي ارتكبوه في ذلك الوقت. وقد كان الزعيم رامسفيلد الراضي عن نفسه والمغرور، فخورًا بأنّه أطاح في غضون أسابيع حركة طالبان التي كانت تخبّئ بن لادن بدون أن يُقتل أي جندي أميركي، وذلك بواسطة عدد محدود فقط من «الدبابات الأميركية على أرض المعركة». ولكن ماذا تم تحقيقه بالفعل إذا

(١) المصدر السابق، ص. ٩٩.

هرب بن لادن الذي خطّط لاعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر غير الصدمة والقلق؟

فوصف الملازم الثاني ونستون تشرشل حملة القوة الميدانية في مالاكند ضدّ فريق ملاّ المجنون بأسلحته وتنظيمه الحربي ورجال قبيلته البشتونية قبل قرن في العام ١٨٩٧، قائلاً : «تقدّمنا بشكل منهجي من قرية إلى قرية، ودمّرنا المنازل وردمنا الآبار ونسفنا القلاع وقطعنا الأشجار المظللة الضخمة وحرقنا المحاصيل وكسرنا الخزانات في عقاب مدمّر. لا أستطيع القول ما إذا كان الأمر يستحق العناء».[1] ويبدو أنّه لم يتغير شيء باستثناء ترسانة الأسلحة.

وقد راقب العالم الإسلامي بأجمعه وافتتن في غالب الأحيان وأُعجب كيف أن أسامة بن لادن الذي يمثل بالنسبة إليه جيسي جايمس قد هرب مغيظًا المارشال بوش، كما راقب المعارك التي لا نهاية لها في جبال أفغانستان الوعرة. وكما حذّر أحد الضباط الروسيين رئيس مركز مكافحة الإرهاب الأميركي حين تمّ إخباره مسبقًا بالخطط الأميركية لخوض حرب في أفغانستان أنّ المناطق الجبلية التي سيواجهونها هي جنة العصابات قائلاً: «مع الأسف، لا بدّ أن أقول إنّكم ستهلكون».[2]

فأثبتت حرب بوش التالية أنّها كارثة كبرى. وقد أصابته مرة جديدة حمّى الحرب كما أصابت لجنة شؤون الحرب في الحكومة حين سقطت كابول. وفي الواحد والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، بعد عشرة أسابيع فقط على هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أخذ بوش رامسفيلد جانبًا، بحسب رواية بوب وودوارد للانتصار، بعد أن «قرّر أنّه حان الوقت للتوجّه نحو العراق».[3]

كان قادة الإمبراطوريات السابقة يشعرون بالخيبة لمجرد التفكير في هذه العجرفة

(١) كتاب My Early Life ١٩٣٠ لـ Winston S. Churchill (نشرته دار نشر Scribner في نيويورك سنة ١٩٩٦)، ص. ١٤٧.

(٢) كتاب Bush at War لـ Woodward ص. ١٠٣.

(٣) كتاب Plan of Attack: The Definitive Account of the Decision to Invade Iraq لـ Bob Woodward ص. ٣٠.

الهوسية. وقال الرئيس لأحد الصحافيين المعجبين به في واشنطن بوست: «لست لاعبًا يلتزم القوانين بل يتبع حدسه». وفي نظر كوندوليزا رايس التي كانت أكثر إعجابًا به، كان بوش «مدرّبًا» أكثر من لاعب يحثّ فريق نجومه على تحقيق «النصر».(١) وكانت عقيدة الرئيس الهجوم وليس الدفاع، الذي كان يبدو مناسبًا في كرة القدم ولكن كان يحجب الحقيقة الأكثر حزنًا: في ما يتعلّق بالحرب كان مغامرًا، من دون أن يأخذ «العواقب في الاعتبار»، حين تكون حياة الآخرين على المحكّ.

وكان رئيس القيادة المركزية الأميركية الجنرال تومي فرانكس، يخشى أن يقوم تشيني بناء على تعليمات الرئيس بالبحث «عن طريقة لإسقاط صدّام حسين إذا دعت الحاجة». وفي إبان التحدي اللوجستي الصعب بإرسال قوى أكثر لإعادة النظام في أفغانستان، سمح فرانكس بسلسلة من الفظاعات.(٢) ومن ثمّ أطاع الأوامر مع تحديد يوم بدء العمليات المحتمل في حزيران/يونيو ٢٠٠٢، مدركاً أوامر الرئيس التي لم تعتبر أن الغزو «أولوية قصوى فحسب»، بل أيضًا وجوب الحفاظ على سرية التخطيط التامة.(٣) وأوضح بوش لاحقًا لوودوارد أنّه «لا يريد إطلاع الآخرين على السرّ لأنّ التسرب «قد يؤدي إلى قلق دولي هائل وبلبلة محلية. كنت أعلم ما كان سيجري إن ظنّ الناس أنّنا نطوّر أو نخطط لحرب محتملة في العراق»».(٤)

كان الرئيس على حقّ، ولكن بدلاً من الذعر انتابت البلاد حالة هلع طوال سبع سنوات. وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ مع مشاركة تشيني ورامسفيلد ورايس وجورج تينيت من وكالة الاستخبارات الأميركية وباول عبر خط فيديو آمن، قدم الجنرال فرانكس شخصيًا تقريرًا للرئيس فيما كان في مزرعته في كروفرد، تكساس. وتحت الضغط خفض الجنرال الحاجة المتوقعة إلى عدد القوات من خمسمئة ألف إلى مئتين وثلاثين فقط، بغية تجنب إرعاب الشعب الأميركي، ما كان أيضًا عددًا

(١) كتاب Bush at War لـ Woodward صفحة ٢٤٦

(٢) صحيفة Associated Press في ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٤.

(٣) كتاب State of Denial: Bush at War, Part 3 لـ Bob Woodward، ص. ٣٥.

(٤) كتاب Plan of Attack لـ Woodward، ص. ٣.

هائلاً من الجيش لترسله الولايات المتحدة إلى ساحة المعركة، في الوقت الذي حاول أن يجعل الوضع مستقرًا في أفغانستان بينما كانت المشاكل اللوجستية والحرب المعقدة لا تزال قائمة وبن لادن لا يزال حرًا.

في البداية لم يصدّق كولين باول أنّ الرئيس كان جديًا. وكان داعمو صدّام حسين في العالم قليلين، بسبب نظام حزب البعث القاسي الذي تبعه. ولكن أتخوض أميركا حرباً شاملة في العراق بدون حلفاء، في حين لم يتم التعامل بعد مع القاعدة ومع أفغانستان التي شكّلت مشكلة كبيرة في ما يتعلق بإعادة الإعمار وإعادة بناء النظام المدني؟ على أن قرار الحرب الذي اتخذه الكونغرس في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لم يسمح بعد بهذا الالتزام، كما لم يسمح به أيضًا مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، الذي دعم عاصفة الصحراء قبل عقد من الزمن، والذي لا يمكن الاعتماد عليه للسماح بتغيير النظام في بلد سيادي، لمجرد تغيير النظام.

وبالتالي عارض باول الذي كان رئيس هيئة الأركان المشتركة والعقل المدبّر لحرب الخليج في العام ١٩٩١ مشروع الرئيس الإمبريالي السخيف، علمًا أنّ عواصم ما أسماها رامسفيلد «أوروبا القديمة» كانت تنظر إلى هذا الأمر بارتياب كبير. فلم يكن هناك أي دليل أو شكّ جدّي في وجود علاقة لصدام حسين بالقاعدة، كما لم يكن هناك أي إثبات أنّه يطوّر حاليًا أي مواد بيولوجية أو نووية. فبالتالي ما كان التبرير للغزو الأميركي الشامل المقترح الذي شمل ربع مليون جندي؟ وما كانت إستراتيجية الانسحاب؟ من الذي سيدير العراق بعد صدّام حسين؟ هل هي حفنة من المنفيين العراقيين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم؟ ولماذا كانت الاعتداءات المقترحة سرية بناء على أوامر الرئيس؟ هل كان بوش يخشى مناقشة الأمر على الصعيد الوطني ليبقى الشعب يده اليمنى؟

هؤلاء الذين سمعوا عرضاً عن الموضوع وهم أعضاء في الإدارة والرئيس نفسه لم يخشوا حربًا ثانية يخطّط لها بوش في الوقت الذي لم تنته الحرب الأولى، ولكن كانوا يخشون وجودها لأن سببها كان صبيانيًا جدًا. فقال الرئيس لمجموعة من

أعضاء مجلس الشيوخ في البيت الأبيض في آذار/مارس ٢٠٠٢: «تبًا لصدام! سوف نتخلص منه»، ولكنه لم يدرس بجدية من سيحلّ مكان صدّام.[1]

حاول باول ردع زملائه، من دون جدوى، غير أن تشيني، خصوصاً، بدا «انفعاله» مسيطراً عليه، بحسب تعليق باول. إن تردد باول في التوجه إلى الحرب قيّد الرئيس ولكنه لم يوقفه. وبالتوجه إلى الكونغرس في خطاب حال الاتحاد، في التاسع والعشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، استخدم بوش تعبيرًا جديدًا، «محور الشر»، لوصف أعداء أميركا، وقد عنى به بحسب شرحه العراق وإيران وكوريا الشمالية.[2] (كان كاتب خطاباته ديفيد فرام، قد اقترح تسمية «محور الحقد»، ولكن الرئيس عارضه).

وفيما نادى «الفالكينز» في الإدارة، الذين سموا نسبةً إلى إله النار في جولة رايس الرئاسية في برمينغهام في ألاباما، لحرب أخرى، بدت الشجاعة المعنوية وكأنها إلى زوال.

غير أن مبررًا لشنّ الحرب كان لا يزال مطلوبًا، ولكان من الأسهل إيجاده إذا تم اكتشاف أن صدام حسين كان يطور أسلحة دمار شامل. وبذلك، أصرّ الرئيس على أن يسمح صدام حسين من جديد لمحققي الأمم المتحدة بدخول العراق، فوافق حسين بتردد. وعند غياب الأدلة على وجود أسلحة دمار شامل، رفض بوش التراجع. وبموافقة الرئيس، أمر مكتب تشيني بإصدار اتهام كاذب من الاستخبارات المركزية، يقول بأن أحد عملاء صدّام حسين حاول شراء مادة اليورانيوم المركز أو «الكعكة الصفراء»، من نيجيريا لأجل برنامج صدام السري لتطوير الأسلحة، وبأن الديكتاتور كان يرعى مؤامرات القاعدة ضد أميركا.

فأصبح إسراع إدارة بوش في شن حرب ثانية غير قابل للردع. وفي اجتماع

(١) مقال «We're Taking Him Out» لـDaniel Eisenberg في مجلة Time Magazine الصادر في ٥ أيار/مايو سنة ٢٠٠٢.

(٢) كانت رسالة Bush تخص الميزانية وقد ألقاها في جلسة الكونغرس المشتركة في شباط/فبراير ٢٠٠١.

دعي إليه رئيس الوزراء في لندن في الثالث والعشرين من تموز/يوليو ٢٠٠٢، نقل رئيس الاستخبارات البريطانية عن زيارته الأخيرة إلى واشنطن «أصبحت العملية العسكرية محتومة»، كما ورد في الاجتماع، «أراد بوش أن يطيح صدام بعملية عسكرية، فقد تم التلاعب بالمعلومات الاستخبارية والوقائع لأجلها. وما يثير القلق أكثر هو قلة التخطيط لمرحلة ما بعد العملية العسكرية في واشنطن».(١)

ولكن حتى دعم بلير (الذي سمي فورًا «كلب بوش») لم يكن كافيًا لإقناع الشركاء الأوروبيين في بريطانيا وعدد كافٍ من أعضاء مجلس الأمن في الأمم المتحدة، بغياب الأدلة على أسلحة الدمار الشامل، بضرورة الاجتياح الأميركي. وبحكم القدر، قرر بوش خوض الحرب من دون دعم الأمم المتحدة.

فبدأ هلع الحرب يصيب أميركا. إذ ارتسمت أوجه الشبه بحرب العام ١٩١٤ وعدد لا يحصى من الحروب الأخرى التي اندلعت بإثارة شعبية، وخصوصاً مثال حرب هيتلر الخاطفة في ربيع العام ١٩٤٠ وسيطرته الفاشلة على أوروبا الغربية واجتياح الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٤١. كان باول بشكل خاص قد حذر بوش في آب/أغسطس ٢٠٠٢، بأنه إذا تابع خطّته المتهورة فسوف يدفع العراق وسكانه الخمسة والعشرين مليوناً إلى «الملكية»، وهو شعب لم يعرف الديمقراطية يومًا، وكان منقسمًا بين جماعات سنية وشيعية، مع منطقة كردية عدوة في الشمال. أما الاحتلال الفوضوي فقد يؤثّر في استقرار السعودية ومصر والأردن ويؤجج البغضاء تجاه الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. وذلك في الوقت الذي رفض المسلمون لجوء القاعدة إلى العنف، ودانوا هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر الذي استهدف أناسًا أبرياء بما يتعارض مع تعاليم النبي محمد المقدسة كما وردت في القرآن.

ومن جديد، شكر الرئيس باول على إنذاره ولكنه قرر المضي قدمًا بخططه

---

(١) مقال «Iraq: Prime Minister's Meeting, 23 July» لـ David Manning Memo, S195/02 الذي تم نشره في صحيفة Sunday Times (London) في أول أيار/مايو ٢٠٠٥.

الحربية. وفي التاسع عشر من آذار/مارس ٢٠٠٣، أعلن أن الحرب على العراق قد بدأت «على نحو مقاوم». وقال إنه سمح بالاجتياح بدافع الضرورة المطلقة، إذ إن «شعب الولايات المتحدة لن يعيش تحت رحمة نظام مخالف للقانون يهدد السلام بأسلحة دمار شامل».

ومثل الحملات العسكرية الرومانية في زمن القياصرة، أثبتت المعركة الأولية على العراق إتقان أميركا استخدام الأسلحة الجوية والبرية واللوجستية الحديثة في الحرب الخاطفة، مع جيش منظم ومسلح جيدًا وذي قيادة جيدة ويقظة. وفي التاسع من نيسان/أبريل ٢٠٠٣، أي بعد ثلاثة أسابيع فقط من بدء الاجتياح، شاهد العراقيون نصب صدام حسين يسقط في ساحة بغداد الرئيسية من مكانه. وبعد وقت قصير، شارك بوش في قيادة طائرة حربية من نوع فايكينغ أس-٣ بي إلى حاملة طائرات يو أس أس أبراهام لينكولن قبالة شاطئ كاليفورنيا. وبارتداء بزة عسكرية خضراء، وقف الرئيس تحت راية هيأها البيت الأبيض تقول «أُنجزت المهمة».

غير أن ارتياح الشعب الأميركي تحول سريعاً إلى قلق، بعد أن سمع الأخبار المقلقة عن أحبائه في القوات المسلحة. فلم يستقبَل «المحررون» بابتهاج في العراق، بل عُدّوا فورًا «محتلين» غير أوفياء. ففي بغداد عينها، اضطرب دونالد رامسفيلد، عند قراءة نسخة مسبقة عن خطاب الرئيس وقال: «لقد متُّ تواً، وقلت يا إلهي إن الأمر حاسم».(١) وعلى الرغم من أن رامسفيلد قد أوصى بنفسه بإزالة أي تعبير عن «إنجاز المهمة»، وضع فريق كارل روف السياسي في البيت الأبيض، هذه الراية، مبتهجًا جدًا ليقبل إنزالها، فتراكم الغرور فوق الغرور.

وفي الأسابيع التالية، كل ما استطاع أن يكون خاطئًا في العراق كان خاطئًا. فلم يجد ربع المليون جندي أميركي الذين دعمهم أربعون ألفاً من قوات بريطانية وأسترالية وبولندية ودانمركية، أية أسلحة دمار شامل. كما لم يجدوا أي دليل على ارتباط البلاد

(١) سجلات أخبار DefenseLink، مقابلات وزير الخارجية دونالد رامسفيلد مع بوب وودوارد، في ٦ و٧ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

بالقاعدة. كانت بلاد ما بين النهرين أحد أعظم مراكز الحضارة الحديثة، وبغياب التعليمات من واشنطن، نُهبت كنوز تاريخية علنًا من المتحف الوطني على أيدي سارقين لم تردعهم القوات الأميركية التي، وبأوامر من البيت الأبيض التي أيقظت ضميرهم لاحقًا، فككت المنظمة الوحيدة التي استطاعت الحفاظ على النظام، وهي الجيش العراقي.

وبعيدًا عن إتمام المهمة، تحول اجتياح العراق إلى كارثة كبيرة.

فتحول سفك الدماء وأعمال العنف المذهبية في العراق إلى حرب أهلية، تجاوزت أخطر التحذيرات الصادرة قبل الاجتياح، ليس بعدد القتلى والمشوهين فحسب بل بالوحشية المطلقة التي بينها الناس بعضهم تجاه بعض. فلم يعد الجنود الأميركيون و«المتعاقدون»، على الرغم من نيتهم الحسنة، محافظين على السلام ولا محسنين، ولكن ببساطة عدوا قوات احتلال. ومع ازدياد عدد القتلى الأميركيين واتساع الفشل، حتى أن الصحفيين «المضمونين» الذين أشادوا بالاجتياح الخاطف، بدأوا بالافصاح ونقل الوقائع التي شملت مستنقع قتلى للحرب الأهلية وتفجيرات انتحارية وتفجيرات على جوانب الطرقات واغتيالات وقطع رؤوس وإبادة طائفية حولت أقدم حضارة في العالم إلى خراب.

وفيما تزايد عدد الإصابات، انضم القادة السابقون إلى الصحفيين وأفصحوا عن آرائهم. وبحلول العام ٢٠٠٤، أي بعد على من بدء الاجتياح، تجاوز عدد الإصابات العشرين ألف جندي أميركي، مع أكثر من ألف قتيل من الجيش الأميركي. فسخر الجنرال زيني، القائد السابق للقيادة الأميركية المركزية قائلاً: «يُنظر إلينا الآن كصليبيي العصر، كالقوة الاستعمارية الحديثة في هذا الجزء من العالم»، فيما دعا رامسفيلد ونائبه المتعصب ولفويتز (الذي كان قد شكل وحدة سياسية شريرة، وهي مكتب الخطط الخاصة في البنتاغون لتجنب القيود القيادية العادية)، إلى الاستقالة إلى جانب المحافظين الجدد الآخرين «وكيل وزارة الدفاع دوغلاس فايث، وعضو مجلس السياسة الدفاعية السابق ريتشارد بيرل، وعضو

مجلس الأمن القومي إليوت أبرامز، ورئيس نائب الرئيس تشيني للقطاع السياسي لويس «سكوتر» ليبي».[١]

غير أن نداء زيني الحماسي للقادة للتنحي وللرئيس للعودة إلى المهمة الأصلية التي وافق عليها الكونغرس بعد حادثة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لملاحقة القاعدة، لم يؤدِ إلى أية نتائج. وبدلاً من ذلك، تحرك فريق روف السياسي، بانتقاد الجنرال ذي الأربع نجوم الذي كان مقاتلاً قديماً في فيتنام، بوصفه معاديًا للسامية.

دلت معاملة زيني، ليس على فساد فريق روف الضخم الأخلاقي، الذي كان يعمل وسط البيت الأبيض، فحسب، بل أيضًا على المأزق الثنائي الذي وجد جورج والكر بوش نفسه واقعًا فيه. ووفقًا لمستشاريه المختارين ولشخصيته الجاهلة و«تصرفه بحسب ما يمليه عليه حدسه»، وقع بوش في الفخ الذي نصبه بنفسه. فهو من اتخذ خيارًا موزوناً وعاطفياً بالإسراع في الحرب، باستخدام أقوى قوة عسكرية في العالم، وبتحريض من حكومة محافظين جدد متحمّسين للحرب، تجنبوا جميعهم الخدمة العسكرية. وحتى المشككون في إدارته أجبروا على الاختيار بين الولاء لرئيسهم وحكمتهم. فقد سأل بوش الجنرال بويل عشية اجتياح العراق «هل أنت إلى جانبي؟» فأجاب بويل قائده الرئيسي بنعم، ندم عليها لاحقًا.[٢]

وفي الانتخابات النصفية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، ربح الحزب الجمهوري بالأكثرية في مجلس الشيوخ من جديد وفي مجلس النواب. وعلى الرغم من أن اجتياح أفغانستان والعراق أثبت انتصارًا ساحقًا، ازداد عمل روف صعوبة. فوصف ملحق الرئيس الصحافي سكوت ماكليلان لاحقًا، دور روف في الحكومة الأميركية برئاسة بوش «كتسيير سياسي، بكل بساطة».[٣] وفيما تحولت حرب العراق

(١) حلقة برنامج 60 Minutes ذات عنوان Gen. Zinni: «They've Screwed Up», Former Top Commander Condemns Pentagon Officials Over Iraq، على شاشة سي بي أس، التي تم بثها في ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٤.

(٢) كتاب State of Denial لـ Woodward ص. ١٠٦.

(٣) كتاب What Happened: Inside the Bush White House and Washington's Culture of Deception لـ Scott McClellan ص. ١١٧.

إلى عنف متفاقم أكثر من أي وقت مضى، لم يضمن الرئيس فوزه في انتخابات العام ٢٠٠٤ إلا من خلال الغموض والتشويش والخداع والتستر.

فأشار ماكليلان، الذي كان عليه أن يصد ويتلاعب بالصحافة كل يوم، إلى أن البيت الأبيض كان سيتحول حتمًا من دون «شفافية» إلى بيت الأكاذيب. ولو أقر الرئيس بخطئه وصفّى إدارته بطرد «الفالكانيز» ونفي نائبه من البيت الأبيض، ومنع تشيني وأتباعه من الاطلاع على اتصالاته الرئاسية، لكان نجح في إنقاذ رئاسته وسمعة أميركا قبل فوات الأوان، حتى ولو كان ذلك على حساب فوزه بولاية ثانية.

غير أن جورج دبليو بوش لم يكن جاك كينيدي. وبحفاظه على فريقه الوفي، أغرق نفسه أكثر في مستنقع من الخداع والسّرية والتستر، تحت عذر الحفاظ على الأمن القومي، ولكن في الحقيقة، هدف ذلك إلى إخفاء المذنب وحمايته من الأضواء. ففي هذا السياق، كتب ماكليلان لاحقًا «هذه السرية ساعدت على تأجيل العواقب ولكنها لم تمنعها».[١]

وبرفض إعداد تحقيق مستقل في قضية الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ومن ثم التحقق ألا تقدم هيئة التحقيق بعد تشكيلها، تقريرها إلا بعد انتخابات العام ٢٠٠٤، كان إحدى الألاعيب المخادعة والمخالفات وحتى الجرائم المتزايدة، التي استحقت تنديد الرئيس ونائب الرئيس لو لم تبق البلاد لمصلحتهما، «في حرب».[٢] وفي هذا السياق، كتب رئيس مكتب الاستشارة القانونية جاك غولد سميث عن تأثير النقص العالي في المسؤولية، أو في الواقع رفض تحمل المسؤولية، الذي ساد تدريجًا كل زاوية تقريبًا من حكومة إدارة بوش، مندمجًا مع نقص الشفافية والتضليل السياسي الصريح، في الوقت الذي حاول الرئيس المحاصر، باستخدام ديك تشيني «وريثاً ملكياً» فاسداً، تجنب إشراف الكونغرس.[٣]

(١) المصدر السابق، ص. ١١٨.
(٢) كتاب The Dark Side: The Inside Story of How the War on Terror Turned into a War on America Ideals لـJane Meyer ص. ١١٧.
(٣) كتاب The Terror Presidency: Law and Judgment Inside the Bush Administration لـJack Goldsmith

ومن جانبه، استمتع نائب الرئيس بدوره. فكما استهدف الرئيس نيكسون الوشاة مثل دانييل إيلسبيرغ وسيمور هيرش، عمل فريق تشيني على التخلص من كل من ينتقد الرئيس أو يجرؤ على تعريض البيت الأبيض للأكاذيب. وحين كشف السفير الأميركي جو ويلسون، عن معرفة شخصية، الادعاءات أن العراق كان يشتري «الكعكة الصفراء» من نيجيريا، سرّب مكتب تشيني فورًا اسم زوجة السفير كعميلة سرّية في المخابرات، وهو عمل جرمي لا بل خيانة للدولة. وفور تدمير مسيرة فاليري ويلسون المهنية، وتعريض حياتها للخطر وإيصال «رسالة» قاسية اللهجة إلى الوشاة المستقبليين، خبأ تشيني وموظفوه أعمالهم لأطول فترة ممكنة، ضامنين بذلك ألا يدان المذنب المزعوم (سكوتر ليبي) قبل انتخابات العام ٢٠٠٤ الرئاسية.[١]

ومع كل خدعة سمح بها بوش أو تجاهلها عمدًا، لم يعزز خطوة مساعديه تجاه سوء استخدام السلطة فحسب، ولكنه استغنى أيضًا عن سلطته كقائد رئيس. كان العالم بأسره يدين جهاد أسامة بن لادن وانتقام الديكتاتور صدام حسين الوحشي والمتعمد، ولكن مع خروج أميركا على السيطرة، وفضائح أعمال التعذيب الأميركية في أبو غريب وخليج غوانتانامو ومواقع خارجية سرية أخرى، لم تعد القضية الأميركية تبدو صائبة. [٢]

فتم كشف القضية في الحادي عشر من آذار/مارس ٢٠٠٤ عندما حان وقت تجديد سلطة الرئيس بإدارة مراقبة الاتصالات الخارجية على يد وزارة العدل. فمن دون علم الكونغرس، كان تشيني قد وضع عملية سرية في العام ٢٠٠١، لمراقبة الاتصالات الداخلية في أميركا، عبر الهاتف والخلوي والبريد الإلكتروني ووسائل أخرى،[٣] وتعذيب المشتبه فيهم بحسب تعليماته.[٤] فكتب كاتب سيرة تشيني لاحقًا «من غير المرجح أن يكون في تاريخ الاستخبارات الأميركية عملية أخرى وضعها

(١) كتاب What Happened لـMcClellan، ص. ٣ و٤.

(٢) كتاب Angler لـGellman صفحة ١٣,,٢ و١٣٣، و١٧٤ و١٧٥.

(٣) المصدر السابق، صفحة: ١٤٤ و١٤٩.

(٤) المصدر السابق، صفحة ، ص. ١٧٧ و١٧٩.

وأشرف عليها مكتب نائب الرئيس»[1]، خائفًا لأن تشيني رفض إعلام مستشار الرئيس الخاص المناهض للإرهاب في البرنامج. لم يسمح حتى لرئيس أمن الدولة أو أعضاء هيئة الاستخبارات في الكونغرس، بمعرفة ما كان تشيني يفعله، ناهيك بتنظيم إشراف للكونغرس أو توسيع نطاق القانون لتغطيته. فأصبح البرنامج الذي عرف به القليل من الأشخاص، يذكر بلجنة الأمن القومي الروسية بأسوأ حالاتها. وقبل الحادي عشر من آذار/مارس ٢٠٠٤ بقليل، انفجرت المواجهة، عندما رفض المدعي العام حينئذ توقيع أعمال غير شرعية إضافية وعرض استقالته إلى جانب سبعة عشر عضواً رئيساً في وزارة العدل.

غير أن الرئيس تراجع، ما أثار غضب تشيني. فطبقت الولايات المتحدة اتفاقية جنيف في العراق، وتغير البرنامج إلى أن توقعه وزارة العدل. وفي هذا الوقت، بقيت المأساة بعيدة عن الإعلام والرأي العام إلى ما بعد الانتخابات.

ومع هدوء الأوضاع في البيت الأبيض، تساءل العاملون فيه لم كان الرئيس يستسلم لخلفية تشيني الرئاسية، ما دامت تحزنه إلى هذه الدرجة. وفي بعض الأوقات، كان يبدو تشيني البدين، إلى جانب مرض القلب الذي عاناه (تطلب إخضاعه لزرع جهاز لعلاج ضربات القلب غير المنتظمة في العام ٢٠٠١)، غير مستقر عقليًا. فحين اكتشاف الطرود المحتوية على جرثومة خبيثة قتلت خمسة أشخاص في العام ٢٠٠٢ مثلاً، اشتبه تشيني (بشكل خاطئ ومن دون إثبات) في الإرهابيين الأجانب بدلاً من المجرمين الداخليين. وبذلك، أصر على أن يعطى الشعب الأميركي بأسره طعمًا ضد الجراثيم الخبيثة الإرهابية الخارجية،[2] غير أن رفض الرئيس إصدار هذا الأمر (الذي كان سيؤدّي إلى ردة فعل حساسة قاتلة) قد أوقفه. وفي هذا الوقت، أرهب مستشار تشيني القانوني، دافيد أدينغتون، البيروقراطية القانونية فيما أدى دور «عيني تشيني وأذنيه وصوته»، وضمن ألا يُتخذ أي قرار من دون موافقته وعامل مستشار الرئيس

(١) المصدر السابق، ص. ٢٨٢.

(٢) كتاب The Dark Side لـ Meyer ، ص. ٤.

القانوني ألبرتو غونزاليس كدمية له.[1] فكتب جاك غولد سميث لاحقًا «من بين مئة اجتماع في مكتب غونزاليس لمناقشة الأمن القومي، أذكر اجتماعًا واحدًا لم يكن أدينغتون فيه».[2]

وبدلاً من إسقاط فرصة إعادة انتخاب تشيني القوي في العام ٢٠٠٤، أبقاه بوش نائبًا له. فخسرت أميركا عظمتها كدولة منفتحة وصادقة مع نفسها ومعتمدة على الكونغرس لوضع الضوابط والموازنات اللازمة في الرئاسة الملكية، نظرًا إلى قيود حرب شنها الرئيس بنفسه، حرب تخاض على ثلاث جبهات من دون أية رؤية واضحة، حرب من دون إستراتيجية خروج، حرب حولت الولايات المتحدة في نظر كثيرين، إلى دولة فاشلة في نطاق التعذيب وسيادة القانون.

لم يكن أمام بوش المتهور والمندفع والسطحي وغير الآمن أحد ليلوم غير نفسه. غير أن مأساة بوش والولايات المتحدة لم تنتهِ هنا، ففي الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤ أعيد انتخاب بوش.

وباستخدام مجموعة شرّيرة عملت تحت شعار «الوصول إلى الحقيقة»، فقد كارل روف ومساعدو بوش في الحملة السيطرة على أنفسهم كما فعلوا مع السيناتور ماك كاين قبل أربع سنوات، ومع السيناتور الذي خسر ثلاثة من أطرافه، ماكس كليلاند في العام ٢٠٠٢، وشوهوا شخصية وسمعة المرشح الديمقراطي، السيناتور جون كيري، الذي أخجلت شجاعته في الفيتنام الرئيس ونائبه.

وعند إعادة انتخابه، شكر بوش كارل روف بوصفه «المهندس البارع» لانتصاره.[3] فلم يستطع والده حتى تحقيق هذا الفوز من دون مساعدة روف أو أتوود «على تجاوز حدود ما هو مقبول أخلاقيًا وقانونًا»، بحسب ماكليلان معتبرًا أن طريقة

(١) المصدر السابق، صفحة ٧٧، يقتبس Ted Olson الذي خدم كنائب عام.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧٦.
(٣) كتاب What Happened لـMcClellan ص. ٢٣٧.

روف «الإستراتيجي الذكي والمخادع»[١] تلاعب بالتنبيهات الإرهابية الوطنية في خلال الحملة لزيادة غياب الأمن الداخلي.[٢]

والآن، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، كان لبوش فرصة أخيرة لضمان شرعيته «كمحافظ متعاطف»، وإعادة تقريب العلاقات بين الولايات المتحدة وحلفائها وتسيير البلاد في الاتجاه عينه الذي تتبعه الأمم المتحدة. لو طلب بوش إلى ديك تشيني أن يصبح مستشارًا بدلاً من نائب رئيس، وجعل من كولين باول «الوجه الجديد» لإدارته التي ستواجه سنوات صعبة من بناء الجسور وإعادة البناء، ليبدأ بذلك ولاية جديدة لأربع سنوات يُنظر إليه، في خلالها، كساعٍ لتحقيق الاعتدال والسلام وليس للأحادية ومخالفة القانون الدولي، لكان تجنّب أن يكون آخر الرؤساء الأميركيين أهمية.

وفي اليوم التالي، في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، توجهت الأنظار إلى نائب الرئيس في اجتماع الحكومة في منتصف النهار، وهناك، قال تشيني لزملائه، كيف أنه، وبحديث عن «احتمال إيقاف البرنامج» بعد المنافسة في الانتصار واستغراق النتائج الانتخابية وقتًا طويلاً، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، قال الرئيس إن التسوية «ليست بخيار»، وكان ذلك «ناجحًا» في العام ٢٠٠١. ولكن أعلن نائب الرئيس أن «هذه المرة» كان الأمر الرسمي «واضحًا»، وقام بمتابعة جدول الأعمال اليميني الداخلي والخارجي.[٣]

فوصفهم ماكليلان لاحقًا أنهم يعيشون في جنة أحمق. فكانت الحرب في العراق لا تزال مستنقعاً عميقًا لأعمال العنف والإرهاب والفساد والتصفية العرقية وسفك الدماء، فيما استمر المحافظون الجدد في معارضة الأمم المتحدة والحاجة إلى دعم الحلفاء والكونغرس. وبعد بضعة أيام، صرف بوش كولن باول لأنه لم يكن محافظاً جديداً «كأعضاء الفريق». وفي الأشهر التالية، قام بترقية أكثر أتباعه المفتقرين إلى

(١) المصدر السابق، ص. ٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص. ٧٧.
(٣) المصدر السابق، ص. ٢٣٧.

الكفاءة، كوندوليزا رايس للحلول مكان باول وزيرة للخارجية، وألبيرتو غونزاليس مدعياً عاماً ومستشارته القانونية هارييت ميرز لتكون قاضية المحكمة العليا.(1) كما أنه عين كارل روف نائبًا لرئيس القطاع السياسي.

لم يقتصر الأمر على باول، بل صدم أيضاً كل الصحفيين والمطلعين. كما أصيب الديمقراطيون بالإحباط وتراجعت مكانة أميركا في الخارج أكثر من أي وقت مضى.

ظهرت هيمنة كارل روف وتأثيره الساحر في الرئيس في آذار/مارس ٢٠٠٥، عندما عاد بوش بسرعة إلى واشنطن من مزرعته في تكساس ليوقع تشريعاً جمهورياً «حاسماً»، وهو مشروع قانون ضغطَ على الكونغرس لأجله، لتبقى المريضة تيري شيافو على قيد الحياة في فلوريدا بناءً على إذن فدرالي، ما تعارض مع رغبة زوجها، بعد سبعة أعوام من معاناتها حالة إنباتية. وفي وقت قضى أكثر من ألف جندي أميركي في العراق، وإصابة عشرين ألفاً آخرين وتذمر القوات من النقص في الدروع الجسدية والسيارات المدرعة لحمايتهم في ما تحول إلى حرب أهلية، ووسع ساحات المعارك أمام ثوار القاعدة، بينت قضية شيافو ما كان خاطئًا في إدارة بوش في يأسه من تقوية «مكانته».

وبالاشمئزاز من التقارير والصور المتعلقة بأعمال العنف الجماعية في مناطق كالفلوجة والموصل، أعلنت غالبية المشاركين في استطلاعات الرأي أن الحرب على العراق كانت «غلطة»، كما كان السيناتور كيري قد أعلن. وفيما أصبح التيار يجري ضد الرئيس في تلك السنة، أصبح الكونغرس ضده أيضًا ، رغم غالبيته الجمهورية. والآن، بدأت خطايا فريق بوش المغفلة تتكشف واحدة تلو الأخرى. وفي السابع من حزيران/يونيو ٢٠٠٥، تم نشر وثائق تظهر أن مصدر قرار التخلي عن بروتوكول طوكيو المتعلق بتغير المناخ كان فريقاً برعاية شركة إكسون، فقد كشف أن رئيس

(1) وفي النهاية خسر المرشح Miers.

المجلس الرئاسي للبيئة استقال حينئذ ليحصل على وظيفة في شركة إيكسون.(١) وفي الثاني والعشرين من حزيران/يونيو، دين كارل روف بوحشية لوصفه الأشخاص الذين عارضوا الحرب على العراق بليبراليين شاهدوا «هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وأرادوا تهيئة الاتهامات وعرض العلاج وتفهم المهاجمين».(٢) وبعد أيام، في تموز/يوليو، تم التحقيق أيضًا، إلى جانب روف، مع نائب الرئيس تشيني وموظفيهما باسم المحكمة العليا، بغية توجيه الاتهامات. وعلى الرغم من أن روف وتشيني نجحا في تجنب العدالة، ألقي القبض على رئيس موظفي تشيني، سكوتر ليبي، فاتهم وأثبت أنه مذنب وحكم عليه في النهاية بالسجن لفضحه عمداً دور زوجة السفير ويلسون كعميلة في المخابرات لمصلحة أعداء أميركا.

وما كان أكثر مدينًا، هو نشر تقرير اللجنة الأحادي بشأن حادثة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، في الثاني والعشرين من تموز/يوليو ٢٠٠٥، أكد الإعلان في الصيف السابق، أنه، وعلى الرغم من ادعاءات تشيني النافية، لم يكن هناك أي «دليل موثوق» عن وجود علاقة بين القاعدة وصدّام حسين قبل هجوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.(٣) في الواقع، نقل التقرير عن تحقيق سري أعطي لمستشارة الأمن القومي حينئذ، كوندوليزا رايس، بعد أسبوع فقط من الهجوم، ينفي وجود «أي إثبات دامغ أن العراق أعدّ أو خطط للهجوم».(٤)

وفي ما بدا وكأنه لعكس تحول التيار ضد «الفالكنز»، ضرب إعصار مخيف

(١) Philip Cooney: راجع كتاب Farewell to All That لـ Murphy وPurdum، ص. ١٥٥. أمرت إدارة بوش أيضاً بإزالة كل المراجع المتعلقة بمبادرة التقييم الوطني لآثار تغير المناخ للفترة الممتدة بين العام ١٩٩٧ والعام ٢٠٠٠، من مستندات الوكالة الحكومية: المصدر السابق.

(٢) مقالة «White House Defends Rove Over 9/11 Remarks» الصادرة عن وكالة الأنباء Associated Press في ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٥.

(٣) مقالة لـ Hope Yen ذات عنوان '9/11 Commission: No Link Between al-Qaida and Saddam' الصادرة عن وكالة الأنباء Associated Press في ١٦ حزيران/ يونيو ٢٠٠٤.

(٤) كتاب The 9/11 Comission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States لـ Jack Kean و Lee H. Hamilton وآخرين (نشرته شركة Norton في نيويورك في العام ٢٠٠٤، ص. ٣٣٤.

بقوة مئة وخمسة وسبعين ميلاً ساحل نيو أورلينز وخليج لوزيانا في الثلاثين من آب/ أغسطس ٢٠٠٥، فانهارت سدود سلاح المهندسين، وغرقت المدينة وأخذت معها عشرات الآلاف من سكان نيو أورلينز، ليموت ألفان من بينهم.

فبعد أن عاد الرئيس بعد ثلاثة أيام إلى مكتبه البيضوي من مزرعته في تكساس، سأل تشيني «إذا كان مهتمًا بقيادة» مهمة قوة على المستوى الحكومي للتعامل مع الأزمة، فرفض تشيني. فسخر بوش من نائبه أمام الفريق الخاص بالتعامل مع الأزمة، المؤلف من أندي كارد وكوندوليزا رايس وكارل روف ونائب الملحق الصحفي دان بارليت، قائلاً: «لنقل إنني لم أحصل على الإجابة الأكثر إيجابية». غير أن الرئيس لم يأمر نائبه بتولي المهمة. وسأله بوداعة «هلا تقوم أقله برحلة لتقصي الحقائق لأجلنا؟» فرفض نائب الرئيس مجددًا.

فاقترح روف أن يقوم الرئيس بنفسه برحلة إلى المدينة على متن الطائرة الرئاسية، فنشرت صورة لزعيم الأمة ينظر من فتحة نافذة على ارتفاع آلاف الأقدام إلى الدمار، بعد أن أخفق في تحقيق الوحدة الفدرالية للاستجابة للحالات الطارئة. وبذلك، تم القضاء على آخر أمل لإنقاذ ولاية الرئيس الثانية. فأشارت استطلاعات الرأي وكبير المخططين لحملة بوش لاحقًا «كان إعصار كاترينا نقطة اللاعودة. فقد كسر الرئيس علاقته مع الشعب. وما أن تم ذلك، لم يعد يتمتع بالقدرة على التوجه إلى الشعب الأميركي، فلم يعد لا لخطابات حال الاتحاد، ولا للمبادرات التشريعية، ولا للعلاقات العامة أو السفر أهمية». ولم يمكن لأي شيء أن يساعده. «لقد أدركت لحظة إعصار كاترينا، أننا انتهينا».[١]

وزادت صور لكوندوليزا رايس فيما كانت تشتري أحذية باهظة الثمن في نيويورك، من فورة الشعب ضد الإدارة. فكان بوش قد قام بترقية مايكل دي. براون، وهو محام جمهوري ضعيف كان مدير منظمة أرابيان هورس لمدة طويلة، من بين كل الناس، ليدير وكالة اتحادية إدارة الطوارئ في العام ٢٠٠٢. وأدى سوء تعامل براون

(١) Dan Barlett في كتاب «Farewell to All That» لـ Murphy وPurdum.

مع كارثة كاترينا إلى ازدياد الغضب من كل النواحي، وتفاقم الوضع نتيجة ملاحظة الرئيس الشائنة في خلال الأزمة، فيما توجه إلى مدير الوكالة البائس وأكثر الأميركيين الذين يفتقرون إلى الجدارة وقال له: «براون إنك تقوم بعمل شنيع!»[1]

فأجبر براون على الاستقالة مذلولاً بعد بضعة أسابيع. ودهشت الأمة من فشل بوش في التهيئة للكارثة على الرغم من تحذيرات المركز الوطني للأعاصير، وتأخره بالاستجابة لها، ومحسوبيته في توكيل هذه المهمة الحاسمة إلى مربي أحصنة. بالنسبة إلى ملحق الرئيس الصحفي، شكل إعصار كاترينا نقطة تحول لبوش وإدارته. وقد ترك بصمة عار على رئاسته.[2] في الواقع لقد جرى «لتعريف ولاية بوش الثانية». فتأزمت النظرة حيال هذه الكارثة بقرارات الرئيس بوش السابقة، بما فيها أولاً وخصوصاً فشله في أن يكون واضحًا وصريحًا بشأن العراق، وإسراعه في الحرب بتخطيط وإعداد غير مناسبين للمرحلة التي أعقبت الاجتياح.[3]

وفي هذا الوقت تأزمت هذه المرحلة أكثر فأكثر. فحتى المقاتلون القدماء المتطرفون تساءلوا لماذا صرف الرئيس الجنرال زيني عندما قال إن أميركا تحتاج إلى ما بين ثلاثمئة وأربعمئة ألف جندي أقله للحفاظ على النظام في العراق في إثر اجتياحه؟ لماذا لم يأمر الرئيس بسحب الجنود إذا كانوا منهمكين وأمام الحاجة الماسة لتجنب الفوضى؟ لماذا سمح لنائب الرئيس بالتجسس سرًا على أحاديث الديبلوماسيين الأميركيين في الخارج عبر وكالة الأمن القومي، بغية التحقق من عدم انزلاق المسؤولين الأميركيين عن طريقه الأحادي؟[4] فتحول كابوس أورويل في كتابه ناينتين أيتيفور إلى حقيقة في أميركا مع المراقبة الشديدة وتحذير ضباط في الاستخبارات حسني النية المسؤولين الأميركيين الكبار بتوخي الحذر.[5]

(١) كتاب What Happened لـ McClellan، ص. ٢٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص. ٢٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص. ٢٩١.

(٤) كتاب Angler لـ Gellman ص. ٢٤٣.

(٥) المصدر السابق.

أما في العراق، فقد اشتد العنف، الذي أعلن تشيني أنه كان قد وصل إلى ذروته أكثر. فدمر السنّة المسجد الذهبي الشهير في سامراء في شباط/فبراير ٢٠٠٦. وأعلن تقرير لصحيفة لانسيت الطبية في حزيران/يونيو ٢٠٠٦ مقتل أكثر من ستمئة ألف عراقي في خلال أعمال العنف التي تلت الاجتياح، بالإضافة إلى ملايين آخرين تمت «تصفيتهم عرقيًا»، ونقلوا ولم يقتلوا، ليعيشوا كلاجئين في مخيمات أو في الخارج. بدا كل ذلك، ثمنًا غاليًا للاجتياح والتخلص من ديكتاتور، مهما تباهى الرئيس بقيامه «بخطوة صحيحة تمامًا في تجريده من السلطة»، على الرغم من غياب أسلحة الدمار الشامل.[١] وفي صحيفة نيويورك تايمز، أقرّ حتى توماس فريدمان، بطل الحرب الأكبر، إذ إنه غيّر الوضع في الشرق الأوسط، بأن الولايات المتحدة «لا تنشر الديمقراطية في العراق بل تشرف على حرب أهلية»، كانت أميركا مسؤولة عنها تماماً بسبب اجتياحها وفشلها في إعادة النظام بعده.[٢] ومع تسلح إسرائيل وعدم إشراف أميركا عليها واجتياحها لبنان للمرة الثانية في الثاني عشر من تموز/يوليو ٢٠٠٦، لتحارب أنصار حزب الله، وقتلها أكثر من ألف مدني وتهجيرها أكثر من مليون لبناني، بدت الآمال بإحلال السلام الديمقراطي في الشرق الأوسط أكثر كآبة.[٣]

وفي الثالث من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، أعلن رسميًا مقتل ألفين وتسعمئة وأربعة وسبعين جندياً أميركياً منذ بداية «حرب الرئيس ضدّ الإرهاب». كما تم إجلاء أكثر من أربعين ألف جندي أميركي بسبب إصابتهم أو مرضهم.[٤] ولم يلق القبض على أسامة بن لادن، فيما تباهت القاعدة بإنزال اثني عشر مقاتلاً في العراق، مع عشرين ألف ثائر عراقي آخر يهاجمون الأميركيين «غير الأوفياء» لأسباب دينية ووطنية.

---

(١) 'Commission 11/9' لـ Hope Yen

(٢) عمود صفحة الافتتاحية لـThomas Friedman في صحيفة New York Times الصادر في ٤ آب/أغسطس سنة ٢٠٠٦.

(٣) كتاب American Armageddon: How the Delusions of the Neoconservatives and the Christian Right Triggered the Descent of America- and Still Imperil Our Future لـCraig Unger ص. ٣٤١.

(٤) مقالة «American Casualties in Iraq More than 44,000» لـJames Ridgeway في مجلة Mother Jones عدد ٢ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ٢٠٠٦.

وفي ما سمي «الاستفتاء بقضية العراق»، بيّن الناخبون في الولايات المتحدة أخيرًا تقويمهم للرئاسة في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، فانتخب الديمقراطيون الذين استعادوا زمام الأمور في مجلس النواب (بمئتين وثلاثة وثلاثين صوتاً مقابل مئتين وصوتين اثنين للجمهوريين) وفي مجلس الشيوخ (بواحد وخمسين مقابل تسعة وأربعين) في الانتخابات النصفية لأول مرة منذ العام ١٩٩٢.

بعد ست سنوات من الرئاسة، كان على بوش الآن إعادة تقويم أدائه، وقام بذلك لمصلحته الخاصة. وإذعانًا لضغوط الكونغرس وأعضاء إدارته، تجاهل معارضة ديك تشيني القاسية وصرف أخيرًا دونالد رامسفيلد من منصب وزير الدفاع في اليوم التالي للانتخابات. وفي السادس من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، واجه عواقب تقرير اللجنة بشأن حادث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

كان عنوان الوثيقة طريق المستقبل – النهج الجديد، من عمل لجنة ثنائية مستقلة برئاسة وزير الخارجية في عهد والده، جايمس بيكر، لتحليل الأخطاء المرتكبة في أفغانستان والعراق وإصلاحها.

استنتج واضعو التقرير أن «الانتصار» في «الحرب» لم يكن ممكنًا، وأن الورطة التي أوقعت أميركا نفسها فيها في العراق «كانت تسوء أكثر فأكثر». فلم يكن هناك من إستراتيجية للانسحاب سوى إعلان «الانتصار» وإنما غير المحدد. فبحسب عضو الكونغرس السابق لي هاملتون الذي كان يشارك في وضع التقرير «كنا نريد أن نركز في إعلاننا على أن انسحابنا هو الحل المسؤول. غير أن الأمر لم يعجبه [أي بوش]». فقالت الوزيرة السابقة لورانس إيغلبرغر، التي ساعدت أيضًا على كتابة التقرير: «لا أذكر فعلاً، أنه طرح أية أسئلة». وبدلاً من ذلك أشار هاملتون إلى أن الرئيس «قد تجاهل الأمر حسب علمي».(١)

في الحقيقة، قرأ الرئيس التقرير مكرهاً، مشيرًا إلى توصية كاتبيه بأن «يزيد عدد الموظفين الأميركيين بمن فيهم القوات المقاتلة التي كانت تدعم العراقيين»، ما

(١) كتاب «Farewell to All That» لـMurphy وPurdum، ص. ١٥٧.

سيسمح للقوات الأميركية تدريجًا بترك العراق بين أيدي العراقيين. وفي هذا السياق، دعمت مجموعة المسح العراقية «زيادة القوات الأميركية لضمان استقرار بغداد» لمدة قصيرة.

كان قد حل منتصف الليل بالنسبة إلى الفشل الأميركي، عندما أوصى القائد الأميركي المتشائم في العراق والمنتهية ولايته، بوجه سفك دماء جماعي متزايد، بسحب القوات الأميركية إلى ملاذات آمنة ووضع مسؤولية التعامل مع الفوضى بيد الحكومة العراقية الانتقالية. هل كان القائد أم كاتبو التقرير على حق؟

في الأيام والأسابيع التالية، اعترف بوش أخيرًا أنه كان عليه الإصغاء إلى هؤلاء القادة ورجال الدولة والمنتقدين الذين كانت لديهم أفكار بديلة عن كيفية انسحاب الولايات المتحدة من العراق من دون التعرض كثيرًا للإذلال، أو الخجل أو فقدان صورتها.

ست سنوات للقراءة والإصغاء وطرح الأسئلة؟ انفجر والد بوش بالبكاء عند انطلاق طائرات بوش الأميركية وعندما أجريت معه مقابلة في برنامج لاري كينغ لايف. كانت السرية واحتقار النقاش الديمقراطي العام والكونغرس (سمع تشيني يصرخ بوجه السيناتور باتريك ليهي من فرمونت الذي كان ديمقراطياً رفيع الرتبة في اللجنة القضائية «تبًا لك»)، والبيروقراطية والخوف والترهيب، سمات رئاسة نائب الرئيس الأميركية أو رئاسته المشتركة في القرن الواحد والعشرين.[1] ومع إدانة رئيس موظفي تشيني رسميًا للجناية المتعمدة، ورفض خليفته منصب المستشار أو مساعد للرئيس، وقعت نجومية تشيني. فغادر رامسفيلد وولفويتز وبيرل وفايث وجون بولتون وأنصار صريحون آخرون للقوة الأحادية الجانب، كما استقال ماكليلان ورئيس القطاع السياسي أندي كارد. فكان الطريق نافذًا بإعادة المدير التنفيذي.

وفي مقابلة صحفية، وضح خليفة أندي كارد، جوش بولتن أن رئاسة تشيني

(١) مقالة «Cheney Dismisses Critic with Obscenity» لـ Helen Dewar وDana Milbank في صحيفة Washington Post عدد ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٤.

المشتركة قد انتهت. «وقد عينه الرئيس مستشارًا وليس نائبًا له». ومما لا شك فيه، أصبح الرئيس «مهذبًا» أكثر مع نائبه ولكنه لم «يحترمه» أكثر مما احترم تشيني أو الآخرين. فضلاً عن ذلك، وفي ما يتعلق بأي قرار رئاسي «سيقوم الرئيس باتخاذه»، وليس أي شخص آخر. وأضاف بولتن «إذا لم يكن القرار صادراً عن الرئيس، فسيكون صادراً عن أحد المسؤولين في الحكومة أو عني»، أي ليس عن نائب الرئيس.(١)

فبدأ بوش أخيرًا بالنضج، وفي اعتبار نصائح الانسحاب أو تمديد مسار الاحتلال العسكري في العراق أو تغييره، لبس بوش أخيرًا العباءة الرئاسية. (راجع صفحة...). فقال للصحفيين الذين دهشوا بتغير مفرداته، في كانون الأول/ديسمبر: «إنني أصغي إلى نصائح كثيرة لوضع إستراتيجية. سوف أعرض خططي بعد مداولة طويلة... لن أتعجل في اتخاذ القرار».(٢)

تساءل نابوليون عند إعادة النظر بتوصيات القائد الجديد «هل هو محظوظ؟» ففي وقت متأخر أدرك الرئيس من كان الرجل الوحيد الذي استطاع تحويل الفشل إلى انتصار أو هزيمة، وانسحاب ناجح من العراق: الملازم القائد دافيد بيتروس، كاتب دليل الجيش الميداني لمكافحة التمرد، الذي عينه بوش ليكون القائد الرئيسي في العراق.

وبإعجابه بشهادة بيتروس أمام لجنة الخدمة المسلحة في مجلس الشيوخ في السابع من كانون الثاني/يناير، وافق الكونغرس عليه. ومقابل تاريخ من التشكيك وتعارض وجهات النظر، وخصوصاً تجاه زعيمي الأكثرية الديمقراطية في مجلسي النواب والشيوخ، رئيسة مجلس النواب نانسي بيلوسي والسيناتور هاري ريد، سمح الرئيس «بالتدفق» الموقت الذي أوصى به فريق الأبحاث بشأن العراق، وإرسال ثلاثين ألف جندي إضافي إلى العراق، بالإضافة إلى التمويل اللازم لدعم إستراتيجية

(١) كتاب Angler لـGellman، ص. ٣٦٥.
(٢) "قال Bush بأنه لن يستعجل التغييرات في العراق" على محطة CNN في ١٤ كانون الأول/ديسمبر سنة ٢٠٠٦.

بيتروس، التي قامت على دفع الأموال للميليشيات العراقية لوقف الهجومات على المحتلين الأميركيين، وتوجيه أسلحتها لاستهداف ثوار القاعدة.

أثبت بيتروس من دون أي شك أنه محظوظ، وأن خيار بوش كان صائبًا. فمع أمر المجاهد الشيعي السيد مقتدى الصدر ميليشيات المهدي العسكرية بالتراجع، واهتمام السنّة أبناء العراق الذين مولتهم أميركا، بالقاعدة، كان التدفق الأميركي يظهر نجاحًا بطيئًا ولكن أكيداً، بتركيزه على العمليات القتالية في بغداد. وبحلول خريف العام ٢٠٠١، بدأ العنف الطائفي بالتناقص، وبدا طريق انسحاب القوات المحتلة التدريجي من العراق مفتوحاً.

وفي هذا الوقت، خضع ديك تشيني الذي عانى جلطات قلبية بعد بلوغه التاسعة والخمسين، لعلاج ضد خثار قوي في الأوردة في آذار/مارس ٢٠٠٧، وتم تشخيص إصابته بالرجفان الأذيني في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، تطلب علاجاً بالصدمات الكهربائية. وكان نائب الرئيس تشيني وكارل روف الذي استقال من منصب نائب رئيس القطاع في الواحد والثلاثين من آب/أغسطس ٢٠٠٧، يواجهان صيحات استهجان أينما ذهبا. وفي زيارة إلى أفغانستان، استهدف تشيني في محاولة اغتيال قتلت ثلاثة وعشرين شخصاً بريئاً خارج قاعدة الولايات المتحدة الجوية. كما تراجع تأييده إلى ما دون الـ٣٠٪، فيما ارتفعت معارضته إلى ٦٠٪. وبتداول الإشاعات بأنه كان يحث على هجوم بالصواريخ على إيران، قبل أن تصبح قوة نووية، تزايد القلق العام. وعندما سئل عبر شاشة أخبار أي بي سي في ربيع العام ٢٠٠٨، إذا كان يأبه لرأي الشعب الأميركي، أجاب بصراحة «كلا».(١)

في المقابل، كان الرئيس بوش يأبه لرأي الشعب، ولكنه أدرك، على الرغم من تحسن الوضع في العراق، أن الأوان قد فات ليعيد تأهيل نفسه في الداخل. وفيما دعم فقاعة الإسكان ليصرف الانتباه عن أخبار الحرب المأساوية، وفيما بدأ الجدال

(١) كتاب Angler لـ Gellman، ص. ٣٩١.

بين الجمهوريين والديمقراطيين المرشحين لانتخابات العام ٢٠٠٨ في شأن أفضل طريقة لإنهاء حرب بوش المضللة، بدأت بورصة وول ستريت بالانهيار.

فلم يكن أمام الرئيس أحد ليلومه على ذلك إلا نفسه. وكما في وقت كارثة إعصار كاترينا، بدا الرئيس غير كفؤ ومن دون أي فكرة عن كيفية تجنب الركود الأسوأ الذي تم توقعه فورًا، منذ الكساد الكبير في الثلاثينيات، وهو الأزمة التي أوصلت القيصر الأميركي الأول، فرانكلين دي. روزفلت، إلى الرئاسة.

وفي يوم الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، تراجع تأييد الرئيس بوش، في استطلاعات الرأي على شاشة سي بي أس، لتصل إلى الـ٢٠٪، وهي «أقل نسبة تأييد رئاسية على الإطلاق»، بحسب ما نشرته الصحف، فيما ارتفعت نسبة معارضته حتى الـ٧٢٪.(١) وشكل ذلك نهاية مؤسفة لرئاسة كارثية، صاح الناس بغضب ليغادر صاحبها، وتمنوا بيأس أن ينجح قيصر أميركي جديد في إعادة إمبراطوريتهم الشريفة إلى المسار الصحيح.(٢)

الجزء الثالث: الحياة الخاصة

كان جورج بوش يشبه جون كينيدي، على وجه خاص، من بين جميع القياصرة الأميركيين، أقله في طفولته. فقد ولد الاثنان في عائلة عريقة ثرية وتنافسية. وقد عرفت العائلتان بأنهما غير موقرتين وإنما سعيدتان بإظهار مثال «الولد السيىء» وخصوصًا مع النساء.

خطب بوش ابنة العشرين عامًا كاترين والفمان وهي طالبة رائعة الجمال شقراء

(١) مقال 'Countdown to Crawford: As voters go to polls to pick his successor, George W. Bush hits new low in approval rating'، من صحيفة. Los Angeles Times عدد ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨.

(٢) مقال Bush, his approval in tatters, flies home to Texas لـ Maria Recio في صحيفة McClatchy عدد ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩.

تتابع دراستها في جامعة رايس. كانا يخططان للزواج في العام ١٩٦٧، وفي هذا الصدد تذكر أحد الأصدقاء ما يأتي: «كان الجميع يُجمع على أنهما يشكلان ثنائيًا رائعًا». لقد كانت الفتاة مولعة بالدراسة ناضجة ومفعمة بالحياة وإنما ربيبة تاجر ملابس ثري في حين أنه ابن عضو عنيد في الكونغرس من تكساس. «كان جورج يتفاخر بكونه ولدًا عابثاً. إلا أنّ كاتي كانت تشعر بقدر كبير من المتعة كلما كانا معًا. فقد كان يضحكها كما يفعل مع الجميع، فلربما عاشت من خلاله بعض الشيء.»[1]

وكذلك، تم تأجيل الزواج ليتم إلغاؤه بمرور الوقت. وبعد الانتهاء من الجامعة، عاش بوش «سنوات الرحَل» كما سماها لاحقًا، فقد كانت ملأى بالراحة والحفلات والتدخين والشرب وتعاطي المخدرات والضياع. وحين طلب إليه والده تفسير سبب قيادته تحت تأثير الكحول وارتطامه بحاوية النفايات خارج المنزل، تحداه جورج إلى أن تعاركا بالأيدي.[2] وكذلك، لم يكن قادرًا على البقاء في أي عمل أو وظيفة، فقد بدا وكأنه حائر بحياة البالغين فكان مدللاً لا هدف له ومدمرًا لذاته على غرار جيمس دين. لقد كان يجذب النساء وكنّ يرغبن في إنقاذه بشدة، ولكنهنّ لم يتمكنّ من التعامل مع اجتماع عائلته في كينيبانكبورت في كل صيف. وقد قالت خطيبته كاترين حين أنهت علاقتهما: «لا أريد الذهاب إلى ماين كما أنني لا أظن أنّ العلاقة ستنجح.»[3] أدى ذلك إلى تحطيم جورج الابن الذي انفجر بالبكاء ولكنه لم يتمكن من استمالتها، فقالت لاحقًا: «يمكنه الحصول على أي امرأة يريدها وهو يدرك ذلك».[4]

وعلى الرغم من ظهور أوجه تشابه في متعة الحب والسلوك الطائش بين ابني الوالدين الغنيين والمعروفين، كانت هناك اختلافات أساسية بين كينيدي وبوش أيضًا. فقد كان كينيدي ذكيًا يتحلى بنسبة ذكاء عالية أدهشت حتى أساتذته، فضلاً عن أنه

(١) كتاب George and Laura لـChristopher Andersen، ص. ٦٥.
(٢) المصدر السابق، ص. ١٠٩.
(٣) المصدر السابق، ص. ٧٣.
(٤) المصدر السابق. ص. ٧٤.

كان قارئًا نهمًا، وهي عادة ترسَّخت لديه نتيجة مرضه المتكرر ودخوله المستشفى في مرحلة الطفولة والشباب. وفي العام ١٩٤٠، تم نشر أطروحة سنته الرابعة في جامعة هارفرد التي كان عنوانها لم تنام إنكلترا في كتاب وكان كينيدي حينئذ في الثالثة والعشرين من العمر فقط. وبعد مضي عامين تنصت مكتب التحقيقات الفدرالي إلى هاتفه واستمع سرًا إلى شريط التسجيل عندما كان يتكلم مع عشيقته إينغا أرفاد حول سياسة العالم وهو يقول لها إنه مصمم أن يصبح رئيس الولايات المتحدة في أحد الأيام.

وكذلك، كان يسري الطموح السياسي والشجاعة في دم جون كينيدي منذ البدء. ومع بداية الحرب العالمية الثانية، لم يتم قبول كينيدي للمشاركة في الخدمة العسكرية في البحرية الأميركية كقبطان لأسباب طبية، ولكنه تدبّر أمره ولم يستسلم. وعلى عكس كينيدي، كانت مشكلة جورج دبليو بوش منذ البدء تتمثل في أنّ نسبة ذكائه محدودة فضلاً عن أنه كان يفتقر إلى الشجاعة العسكرية والمثابرة على الدراسة للوصول إلى النجاح.

وكذلك، كانت رحلة بوش المحكوم عليها بالفشل التي ستوصله إلى سدة الرئاسة التي ألقينا عليها الضوء بالإضافة إلى خاتمتها المأسوية، حيث تحول حاكم تكساس الوسطي إلى نقيضه تمامًا مع العواقب الوخيمة التي أصابت البلاد. وفي غضون هذه القصة المؤسفة التي أثرت في حياة الملايين من الأشخاص في جميع أنحاء العالم، كان هناك كما في قصة القيصر نيكولاس والإمبراطورة ألكسندرا، ملحمة داخلية مؤثرة على الرغم من أنها لا يمكنها أن تعوض أبدًا من الأضرار التي لحقت بالولايات المتحدة والأمم الأخرى والتي لمست قلوب العالم على المستوى البشري.

وفي العام ١٩٧٧ تم تقديم لورا لاين والش ابنة الواحدة والثلاثين عامًا الديمقراطية التي تعمل في مكتبة إلى ابن الواحد والثلاثين عامًا الكسول ونجل السفير الأميركي. لقد وجدت فيه الشخص المضحك والشخص الذي لم يحقق رغباته أيضًا فوافقت على مواعدته. وبعد مرور ثلاثة أشهر وبعدما تقاربا بسرعة البرق، أقاما حفلة زواج

صغيرة. لقد كان شديد التهور آنذاك في حين كانت لورا حذرة. وبينما كان شخصًا اجتماعيًا كانت محافظة، وحين كان بعيدًا عن الثقافة وقريبًا من الأمية قالت لورا لحماتها المستقبلية مندهشة: «أنا أقرأ وأدخن».

كانت لورا والش الهادئة والمحافظة التي تتمتع بمبادئ عالية هي الناجية الوحيدة من حادثة سير مروعة في السابعة عشرة من عمرها (حين قادت السيارة ولم تتوقف عند الإشارة من دون قصد وقتلت صديقها السابق في الثانوية). أصبحت هذه الشابة منارة جورج واكر بوش وقلبت حياته مهدِّدة إياه بتركه في حال لم يقلع عن الشرب. في ما بعد، رزقت بنتين توأمين وأعطته ما يتوق إليه أي ثقة بقيمته الأساسية المتخفية تحت المظهر الخارجي الكسول. وعلى الرغم من أنها لم تشجعه على الترشح لمنصب حاكم تكساس وامتنعت عن إلقاء الخطابات أو إجراء المقابلات، وقفت إلى جانبه وافتخرت بإنجازاته في قصر الحاكم. وقد قال بعضهم إنها ساعدته على إظهار أفضل ما في جورج الابن وتمكنت بتوازنها أن تبعد الأسوأ. فقد ابتعد عن الضلال كل البعد وأصبح يكره قضاء ليلة واحدة بعيدًا عنها. ففي حال كان الزواج تبعية متبادلة، هما من دون شك معتمدان أحدهما على الآخر بشدة وعمق.

وبالإضافة إلى ذلك، لمَ لم تمنع لورا لاين بوش زوجها الحبيب الذي انتخب مرتين والذي يعد الحاكم الأكثر شعبية في تكساس منذ بدء التسجيل، من الوصول إلى منصب سياسي أعلى بما أنه غير مؤهل لذلك؟ رأى بوش نفسه في بعض الأحيان وكأنه تلميذ ريغان أي شعبي وظريف ومعارض لحكومة كبيرة، وإنما لم يكن لديه أي فكرة عن جانب ريغان الجدي وعن العقود الطويلة والمسار السياسي الشاق الذي اتبعه بغية تحسين مهاراته كخطيب ومتحدث باسم قضايا الجمهوريين. في حين كان كل ما يملكه بوش الابن هو حس الدعابة الوقحة والرونق الجذاب من دون أن يتحلى بأي عمق سياسي أو ثقافي. فضلاً عن ذلك، كان تائهًا أكاديميًا في كل من كلية إدارة الأعمال في هارفرد ويال، بالإضافة إلى أنه كان يصعب عليه التعامل مع تعقيدات المسائل الاقتصادية والقانونية وقضايا الكونغرس والقضايا الدبلوماسية التي سوف يواجهها في حال أصبح رئيسًا. وكذلك، لم تحب لورا العيش في واشنطن

حين كان يشرف بوش الابن على حملة والده الانتخابية في العام ١٩٨٨. فهي لم ترغب في العيش هناك ثانية بما أنها تحب تكساس. وقد أحبت الحياة التي أسساها هناك وكانت قلقة حيال تأثير البيت الأبيض في ابنتيها المراهقتين في حال فاز بوش.

وللأسف لم توقف لورا زوجها، والأسوأ من ذلك أنها أوصته ببراءة بترشيح ديك تشيني أي الرجل الذي كان يدرس خيارات المرشحين لمنصب نائب الرئيس معتقدةً أنه سيُضفي «النزاهة» على هذا المنصب. وقد كانت ستندم على هذا القرار بشدة فور فوز جورج بوش الابن في الانتخابات وتحول الرئاسة المشتركة إلى دحض فاضح لكل المزايا التي كان يتحلى بها حكم زوجها في تكساس.

وبفضل تشيني وروف سرعان ما عاد جورج دبليو بوش إلى ما كان عليه أيام المدرسة والجامعة أي شخصًا متنمرًا ومتهكِّمًا وعنيدًا. وفي لحظة عفوية قال بوش الابن: «هذا هو الأمر المهم في أن تكون رئيسًا، فأنا أشعر كأنني لا أدين بأي تفسير لأحد.»[١] وفي هذه الآونة لم يكن بوسع لورا القيام بشيء باعتبارها زوجته والسيدة الأولى وقد بدت غير قادرة على إنقاذه من شر نائب الرئيس أو روف المتلاعب. في الواقع، أخذا يتملقان زوجها الساذج وغير الآمن والجاهل وحثّه على القيام بما يريدانه وحمايته ويتلاعبان به ويجعلانه يتخيل نفسه كسينسيناتوس معاصر جاء ليكون دكتاتورًا في الأوقات الحرجة.

ونظرًا إلى ديناميكية سلالة بوش وسيل أموال الحزب الجمهوري كل أربع سنوات على المرشحين للسلطة العليا، هل كان من المحتم على جورج دبليو بوش، الرجل العابث وإنما الضعيف ثقافيًا أن يحمل ثقل الهرم السياسي باعتباره فرعون أمته المزيف، ومن ثمّ يُرمى للذئاب حين يفشل في قيادة الإمبراطورية الأميركية بحكمة؟ وفي هذا الصدد، يسأل المراقبون إن كان الأمر مختلفًا عند نهاية ثمانية أعوام من توليه الحكم وهم يشاهدون رئيسهم المطوّق وهو يطير إلى المنفى المحلي، يلاحقه التذمر من إمكانية رفع دعاوى قضائية دولية بحقه لتحاسبه على التعذيب والجرائم

(١) كتاب Bush at War لـ Woodward، ص. ١٤٦.

ضد الإنسانية التي ارتكبها؟ وبالنظر إلى هذه المرأة النحيفة الجميلة المبهجة دومًا وهي ترتدي معطفها الرمادي الباهت تمسك بيد الرئيس السابق حين كان يخطو الزوجان للدخول إلى المروحية التي ستأخذهما بعيدًا، فمن عرفهما جيدًا لا يمكنه سوى أن يتأمل دور السيدة الأولى في تاريخ الإمبراطورية الأميركية. فكل من إليانور وبيس ومامي وجاكي وليدي بيرد وبات وبيتي وروزاليند ونانسي وباربرا وهيلاري ولورا... فقد أدت هؤلاء النساء دورهنّ بدرجات متفاوتة من النجاح بحيث تركن أزواجهن عاقلين فيما كانوا يحملون المسؤولية التنفيذية لأكبر قوة في العالم، ولم تحاول أي منهنّ إيقاف زوجها عن قبول هذا التحدي.

وفي المكتب الرئاسي بدأت تتكشف المأساة تدريجًا. فقد ثبت أنّ تحكم الثنائي تشيني وروف الخانق كان قويًا جدًا بكل بساطة، ومع الوقت فقد الحزب الجمهوري السيطرة على الكونغرس وقد تبيّن أنّ التعاون بين الحزبين أصبح ضروريًا. وعلى الرغم من كل المبادرات التي قدمها للمصابين بالإيدز في إفريقيا والوصفات الطبية (Prescription Drug) وبرنامج مساعدة كل طفل (No Child Left Behind) فضلاً عن غيره من البرامج الحسنة، سيبقى إرث الرئيس تمامًا كليندون جونسون مرتبطًا إلى الأبد باستعجاله غير المدروس والانفرادي لشن الحرب على أفغانستان والعراق فضلاً عن المآزق التي أوقع فيها البلد.

وكدليل على الشبه الذي يجمعه بالدكتور سترانغلوف، حضر ديك تشيني حفلة تنصيب الرئيس الرابع والأربعين على كرسي متحرك (علق بعض الأشخاص مازحين أنه قد أصيب في ظهره بسبب حزم عدد كبير من الصناديق الممتلئة بالوثائق المسروقة من الحكومة وأعين الأجيال المقبلة المتطفلة). وقام بالمستحيل في الأشهر اللاحقة لانتقاد جهود الإمبراطور الجديد في التعامل مع أكثر المشاكل التي ورثها صعوبة. وعلى نقيض ذلك، لم يرفض جورج بوش الابن المعاقب مسامحة رئيس قطاع تشيني فحسب، وإنما قال إنه شديد السعادة لجلوسه «في الصف الأمامي» لحضور«الحدث التاريخي» الذي يوشك أن يحدث في العشرين من كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩ والذي يكمن في صعود الرئيس الأول الذي ينتمي إلى العرق الأسود

إلى المنصة ليتم تنصيبه.(١) وبعد انتهاء حفلة مراسم أداء اليمين الدستورية في مبنى البرلمان الأميركي، تعانق الرجلان وتبادلا القبل وبدا المشهد وكأنه انتقال حقيقي من إمبراطور إلى آخر، من جيل إلى جيل ومن عرق إلى آخر ومن مقاربة للعالم الحديث إلى أخرى. وفي انحناءته ليودع ابنتي أوباما الصغيرتين ذكَر جورج بوش الابن المشاهدين في تكساس ما كان هو عليه يومًا، والداً حنوناً بعيدًا عن أي انحياز عنصري ومتحلياً بلمسة إنسانية بسيطة.

وحين مشى الإمبراطوران مع زوجتيهما من أسفل البرلمان نحو المروحية التي تنتظرهم، وضع أوباما يده الشفوقة التي مدها على كتف الرئيس السابق المغادر، وجسّد هذا المشهد رمزًا إلى بداية عهد جديد لأميركا، حيث سيمتزج التواضع والنية الطيبة مع المثالية الواضحة التي لم تشهدها البلاد منذ نصف قرن تقريبًا حين أثار جون كينيدي أسف العالم بقوة.

(١) مقال "The Long Farewell of George W. Bush" لـ Andrew Malcolm في صحيفة Los Angeles Times عدد ١٢ كانون الثاني/يناير سنة ٢٠٠٩.

بيبليوغرافيا

الإمبراطورية الأميركية

Ambrose, Stephen, Rise to Globalism: American Foreign Policy since 1938 (1971) (New York: Penguin Books, 1993)

Bacevich, Andrew, American Empire: The Realities and Consequences of US Diplomacy (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004)

—The Limits of Power: The End of American Exceptionalism (New York: Macmillan, 2008)

Bender, Peter, Weltmacht Amerika: Das Neue Rom (Munich: Deutscher Taschenbuch Verlag, 2005)

Beschloss, Michael R., and Strobe Talbott, At the Highest Levels: The Inside Story of the Cold War (Boston: Little Brown, 1993)

Brands, H. W., The Devil We Knew: Americans and the Cold War (New York: Oxford University Press, 1993)

— Into the Labyrinth: The United States and the Middle East, 1945–1993 (New York: McGraw-Hill, 1994)

de Grazia, Victoria, Irresistible Empire: America's Advance through 20th Century Europe (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005)

Ferguson, Niall, Colossus: The Price of America's Empire (New York: Penguin Press, 2004)

—The War of the World: Twentieth-Century Conflict and the Descent of the West (New York: Penguin Press, 2006)

Gelb, Leslie H., Power Rules: How Common Sense Can Rescue American Foreign Policy (New York: HarperCollins, 2009)

Hardt, Michael, and Antonio Negri, Empire (Cambridge: Harvard University Press, 2001)

Hedges, Chris, Empire of Illusion: The End of Literacy and the Triumph of Spectacle (New York: Nation Books, 2009)

Herring, George C., From Colony to Superpower: US Foreign Relations since 1776 (New York: Oxford University Press, 2008)

Hobson, J. A., Imperialism: A Study (1938) (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1965)

Hoff, Joan, A Faustian Foreign Policy: From Woodrow Wilson to George W. Bush – Dreams of Perfectibility (New York: Cambridge University Press, 2008)

Johnson, Chalmers, The Sorrows of Empire: Militarism, Secrecy, and the End of the Republic (New York: Metropolitan Books, 2004)

Kagan, Robert, Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order (New York: Knopf, 2003)

Kennedy, Paul, The Rise and Fall of the Great Powers (New York: Random House, 1987)

Lapham, Lewis H., Pretensions to Empire: Notes on the Criminal Folly of the Bush Administration (New York: The New Press, 2006)

Lundestad, Geir, Empire by Integration: The United States and European Integration, 1945–1997 (New York: Oxford University Press, 1998)

McMahon, Robert J., The Cold War: A Very Short Introduction (Oxford: Oxford University Press, 2003)

Maier, Charles S., Among Empires: American Ascendancy and Its Pre - decessors (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006)

Murphy, Cullen, Are We Rome? The Fall of an Empire and the Fate of America (Boston: Houghton Mifflin, 2007)

Robinson, Jeffrey, The End of the American Century: Hidden Agendas of the Cold War (London: Hutchinson, 1992)

Ross, Dennis, Statecraft: And How to Restore America's Standing in the World (New York: Farrar Straus and Giroux, 2008)

Turchin, Peter, War and Peace and War: The Rise and Fall of Empires (New York: Plume, 2006)

Tyler, Patrick, A World of Trouble: The White House and the Middle East – From the Cold War to the War on Terror (New York: Farrar Straus and Giroux, 2009)

Vidal, Gore, The Decline and Fall of the American Empire (1992) (Tucson, AZ: Odonian Press, 2004)

— Imperial America: Reflections on the United States of Amnesia (New York: Nation Books, 2004)

— The Last Empire: Essays 1992–2000 (New York: Doubleday, 2001) bibliography 525

السياسة الأميركية

Andrew, Christopher, For the President's Eyes Only: Secret Intelligence and the American Presidency from Washington to Bush (New York: HarperCollins, 1995)

Anthony, Carl Sferrazza, First Ladies: The Saga of the Presidents' Wives and Their Power, 1789–1961 (New York: William Morrow, 1990)

Bohn, Michael K., Nerve Center: Inside the White House Situation Room (Washington: Brassey's, 2003)

Caroli, Betty Boyd, First Ladies: An Intimate Look at How 38 Women Handled What May Be the Most Demanding, Unpaid, Unelected Job in America (New York: Oxford University Press, 1995)

Dallek, Robert, Hail to the Chief: The Making and Unmaking of American Presidents (New York: Hyperion, 1996)

Degregorio, William A., The Complete Book of US Presidents (New York: Avenel, 1993)

Doyle, William, Inside the Oval Office: The White House Tapes – From FDR to Clinton (New York: Kodansha America, 1999)

Edwards, George C., and Stephen J. Wayne (eds), Studying the Presidency (Knoxville: University of Tennessee Press, 1983)

Hess, Stephen, Organizing the Presidency (Washington, DC: Brookings Institution, 2002)

Jones, Charles O., Passages to the Presidency: From Campaigning to Governing (Washington, DC: Brookings Institution, 1998)

Milkis, Sidney M., and Michael Nelson, The American Presidency: Origins and Development, 1776–1998 (Washington, DC: CQ Press, 1999)

Moore, Kathryn, The American Presidency: A Complete History (New York: Barnes & Noble, 2007)

Patterson, Bradley H., The White House Staff: Inside the West Wing and Beyond (Washington, DC: Brookings Institution, 2000)

Schlesinger, Arthur M., Jr, The Imperial Presidency (New York: Popular Library, 1974)

Smith, Carter, Presidents: Every Question Answered (Irvington, New York: Hylas Publishing, 2004)

Wilson, Robert A. (ed.), Power and the Presidency (New York: PublicAffairs, 1999)

فرانکلین د. روزفلت

Black, Conrad, Franklin Delano Roosevelt: Champion of Freedom (New York: PublicAffairs, 2003)

Brands, H. W., Traitor to His Class: The Privileged Life and Radical Presidency of Franklin Delano Roosevelt (New York: Doubleday, 2008)

Dallek, Robert, Franklin D. Roosevelt and American Foreign Policy, 1932–1945 (New York: Oxford University Press, 1979)

Davis, Kenneth S., FDR: The War President, 1940-1943 – A History (New York: Random House, 2000)

Freidel, Frank, Franklin Roosevelt: A Rendezvous with Destiny (Boston: Little Brown, 1990)

Jenkins, Roy, with Richard E. Neustadt, Franklin Delano Roosevelt (New York: Times Books, 2003)

Lash, Joseph P., Eleanor and Franklin (New York: Norton, 1971) — Roosevelt and Churchill 1939-1941: The Partnership That Saved the West

(New York: Norton, 1976)

Meacham, Jon, Franklin and Winston: An Intimate Portrait of an Epic Friendship (New York: Random House, 2003)

Perkins, Frances, The Roosevelt I Knew (New York: Viking Press, 1946)

Persico, Joseph E., Franklin & Lucy: President Roosevelt, Mrs Rutherfurd, and the Other Remarkable Women in His Life (New York: Random House, 2008)

Roosevelt, Eleanor, The Autobiography of Eleanor Roosevelt (1961) (New York: Da Capo Press, 1992)

Smith, Jean Edward, FDR (New York: Random House, 2007)

Ward, Geoffrey C., Before the Trumpet: Young Franklin Roosevelt, 1882–1905 (New York: Harper & Row, 1985)

— A First Class Temperament: The Emergence of Franklin Roosevelt (New York: Harper & Row, 1989)

— (ed.), Closest Companion: The Unknown Story of the Intimate Friendship between Franklin Roosevelt and Margaret Suckley (Boston: Houghton Mifflin, 1995)

هاري س. ترومان

Acheson, Dean, Present at the Creation: My Years in the State Department (New York: Norton, 1969) select bibliography 527

Clifford, Clark, Counsel to the President (New York: Random House, 1991)

Donovan, Robert, Conflict and Crisis: The Presidency of Harry S. Truman, 1945–1948 (New York: Norton, 1977)

— Tumultuous Years: The Presidency of Harry S. Truman, 1949–1953 (New

York: Norton, 1982)

Ferrell, Robert H., Harry S. Truman, and the Modern American Presidency (Boston: Little Brown, 1983)

— (ed.), The Autobiography of Harry S. Truman (Boulder, CO: Colorado

Associated University Press, 1980)

— (ed.), Dear Bess: The Letters from Harry to Bess Truman, 1910–1959 (New

York: W. W. Norton, 1983)

— (ed.), Off the Record: The Private Papers of Harry S. Truman (New York: Harper & Row, 1980)

Hamby, Alonzo M., Man of the People: A Life of Harry S. Truman (New York: Oxford University Press, 1995)

Isaacson, Walter, and Evan Thomas, The Wise Men: Six Friends and the World They Made – Acheson, Bohlen, Harriman, Kennan, Lovett, McCloy (New York: Simon & Schuster, 1986)

Jenkins, Roy, Truman (New York: Harper & Row, 1986)

McCullough, David, Truman (New York: Simon & Schuster, 1992)

Miller, Merle, Plain Speaking: An Oral Biography of Harry S. Truman (New York: Berkley/G.B. Putnam's Sons, 1973)

Offner, Arnold A., Another Such Victory: President Truman and the Cold War, 1945–1953 (Stanford: Stanford University Press, 2002)

Pemberton, William E., Harry S. Truman: Fair Dealer and Cold Warrior

(Boston: Twayne Publishers, 1989)

Perret, Geoffrey, Commander in Chief: How Truman, Johnson, and Bush Turned a Presidential Power into a Threat to America's Future (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 2007)

Poen, Monte M. (ed.), Strictly Personal and Confidential: The Letters Harry Truman Never Mailed (Boston: Little Brown, 1982)

Pogue, Forrest C., George C. Marshall: Statesman 1945–1959 (New York: Viking, 1987)

Truman, Harry S., Memoirs, Volume One: Year of Decisions (New York: Doubleday, 1955)

— Memoirs, Volume Two: Years of Trial and Hope (New York: Doubleday,

1956)

Truman, Margaret, Harry S. Truman (New York: William Morrow, 1972)

— (ed.), Where the Buck Stops: The Personal and Private Writings of Harry S. Truman (New York: Warner Books, 1989)

دوايت د. أيزنهاور

Adams, Sherman, First Hand Report: The Inside Story of the Eisenhower Administration (New York: Harper, 1961)

Ambrose, Stephen, Eisenhower: Soldier, General of the Army, Presidentelect, 1890-1952 (New York: Simon & Schuster, 1983)

— Eisenhower: The President (New York: Simon & Schuster, 1984)

— Ike's Spies: Eisenhower and the Espionage Establishment (1981) (Jackson: University of Mississippi, 1999)

Beschloss, Michael R., May-Day: Eisenhower, Khrushchev and the U2 Affair (New York: Harper & Row, 1986)

Brendon, Piers, Ike: His Life and Times (New York: Harper, 1986)

Carlson, Peter, K Blows Top: A Cold War Interlude, Starring Nikita Khrushchev, America's Most Unlikely Tourist (New York: PublicAffairs, 2009)

David, Lester, and Irene David, Ike and Mamie: The Story of the General and His Lady (New York: G.B. Putnam's Sons, 1981)

D'Este, Carlo, Eisenhower: A Soldier's Life (New York: Holt, 2002)

Eisenhower, Dwight D., The White House Years: Mandate for Change, 1953–1956 (New York: Doubleday, 1963)

— The White House Years: Waging Peace, 1956-1961 (New York: Doubleday, 1965)

Ferrell, Robert H. (ed.), The Eisenhower Diaries (New York: Norton, 1981) Fursenko, Aleksandr, and Timothy Naftali, Khrushchev's Cold War: The Inside Story of an American Adversary (New York, Norton, 2006)

Khrushchev, Nikita, Khrushchev Remembers: The Last Testament (Boston: Little Brown, 1974)

Pach, Chester J., and Elmo Richardson, The Presidency of Dwight D. Eisenhower (Lawrence: University Press of Kansas, 1991)

Perret, Geoffrey, Eisenhower (New York: Random House, 1999)

Powers, Thomas, The Man Who Kept the Secrets: Richard Helms and the CIA (New York: Knopf, 1979)

Taubman, William, Khrushchev: The Man and His Era (New York: Norton, 2003)

Taubman, William, et al. (eds), Nikita Khrushchev (New Haven: Yale University Press, 2000)

جون أف كينيدي

Beschloss, Michael, The Crisis Years: Kennedy and Khrushchev, 1960–1963 (New York: HarperCollins, 1991)

Blair, Joan, and Clay Blair, The Search for JFK (New York: Putnam, 1974)

Bradlee, Ben, Conversations with Kennedy (New York: Norton, 1997)

Dallek, Robert, An Unfinished Life: John F. Kennedy 1917–1963 (Boston: Little Brown, 2003)

Giglio, James N., The Presidency of John F. Kennedy (Lawrence: University Press of Kansas, 1991)

Hamilton, Nigel, JFK: Reckless Youth (New York: Random House, 1992)

Hersh, Seymour, The Dark Side of Camelot (Boston: Little Brown, 1997)

Kaiser, David, American Tragedy: Kennedy, Johnson, and the Origins of the Vietnam War (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000)

Leamer, Laurence, The Kennedy Men, 1901–1963 (New York: William Morrow, 2001)

May, Ernest R., and Philip D. Zelikow, The Kennedy Tapes: Inside the White House during the Cuban Missile Crisis (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997)

Parmet, Herbert, JFK: The Presidency of John F. Kennedy (New York: Dial Press, 1983)

Perret, Geoffrey, Jack: A Life Like No Other (New York: Random House, 2001)

Reeves, Richard, President Kennedy: Profile of Power (New York: Simon & Schuster, 1993)

Reeves, Thomas C., A Question of Character: A Life of John F. Kennedy (New York: Macmillan, 1991)

Rubin, Gretchen, Forty Ways to Look at JFK (New York: Ballantine, 2005)

Smith, Sally B., Grace and Power: The Private World of the Kennedy White House (New York: Random House, 2004)

Sorensen, Theodore C., Kennedy (New York: Bantam, 1966)

ليندون ب. جونسون

Beschloss, Michael R. (ed.), Taking Charge: The Johnson White House Tapes, 1963–1964 (New York: Simon & Schuster, 1997)

— (ed.), Reaching For Glory: Lyndon Johnson's Secret White House Tapes, 1964–1965 (New York: Simon & Schuster, 2001)

Bornet, Vaughn Davis, The Presidency of Lyndon B. Johnson (Lawrence:

University Press of Kansas, 1983)

Caro, Robert, The Years of Lyndon Johnson: Master of the Senate (New York: Knopf, 2002)

— The Years of Lyndon Johnson: Means of Ascent (New York: Knopf, 1990)

— The Years of Lyndon Johnson: The Path to Power (New York: Knopf, 1982)

Christian, George, The President Steps Down: A Personal Memoir of the Transfer of Power (New York: Macmillan, 1970)

Dallek, Robert, Flawed Giant: Lyndon Johnson and His Times, 1961–1973 (New York: Oxford University Press, 1998)

— Lone Star Rising: Lyndon Johnson and His Times, 1908–1960 (New York: Oxford University Press, 1991)

— Lyndon B. Johnson: Portrait of a President (New York: Oxford University Press, 2004)

Gardner, Lloyd C., Pay Any Price: Lyndon Johnson and the Wars for Vietnam (Chicago: Ivan R. Dee, 1995)

Goldman, Eric F., The Tragedy of Lyndon Johnson (New York: Knopf, 1969)

Herring, George C., LBJ and Vietnam: A Different Kind of War (Austin: University of Texas, 1994)

Johnson, Lyndon Baines, The Vantage Point: Perspectives on the Presidency, 1963–1969 (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1971)

Johnson, Sam Houston, My Brother Lyndon (New York: Cowles, 1970)

Kearns, Doris, Lyndon Johnson and the American Dream (New York: Harper, 1976)

Kotz, Nick, Judgment Days: Lyndon Baines Johnson, Martin Luther King Jr., and the Laws That Changed America (Boston: Houghton Mifflin, 2005)

Miller, Merle, Lyndon: An Oral Biography (New York: G.B. Putnam's Sons, 1980)

Perlstein, Rick, Before the Storm: Barry Goldwater and the Unmaking of the American Consensus (New York: Hill and Wang, 2001)

Phipps, Joe, Summer Stock: Behind the Scenes with LBJ in '48 (Fort Worth: Texas Christian Press, 1992)

Reedy, George, Lyndon B. Johnson: A Memoir (New York: Andrews and cMeel, 1982)

Schwartz, Thomas Alan, Lyndon Johnson and Europe (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003)

VanDeMark, Brian, Into the Quagmire: Lyndon Johnson and the Escalation of the Vietnam War (New York: Oxford University Press, 1991)

Vandiver, Frank E., Shadows of Vietnam: Lyndon Johnson's Wars (College Station: Texas A&M University Press, 1997)

Woods, Randall B., LBJ: Architect of American Ambition (New York: Free Press, 2006)

ريتشارد نيكسون

Aitken, Jonathan, Nixon: A Life (Washington DC: Regnery, 1993)

Ambrose, Stephen, Nixon: The Education of a Politician, 1913–1962 (New York: Simon & Schuster, 1987)

— Nixon: The Triumph of a Politician, 1962–1972 (New York: Simon & chuster, 1988)

— Nixon: Ruin and Recovery, 1973–1990 (New York: Simon & Schuster, 1991)

Black, Conrad, Richard Milhous Nixon: The Invincible Quest (New York: ublicAffairs, 2007)

Dallek, Robert, Nixon and Kissinger: Partners in Power (New York: HarperCollins, 2007)

Dean, John, Blind Ambition: The White House Years (New York: Simon & Schuster, 1976)

Ellsberg, Daniel, Secrets: A Memoir of Vietnam and the Pentagon Papers (New York: Viking Penguin, 2002)

Hahnimaki, Jussi, The Flawed Architect: Henry Kissinger and American Foreign Policy (New York: Oxford University Press, 2004)

Hersh, Seymour M., The Price of Power: Kissinger in the White House (New York: Summit Books, 1983)

Kutler, Stanley I., Abuse of Power: The New Nixon Tapes (New York: Free Press, 1997)

Macmillan, Margaret, Nixon and Mao: The Week that Changed the World (New York: Random House, 2007)

Morris, Roger, Richard Milhous Nixon: The Rise of an American Politician (New York: Holt, 1989)

Nixon, Richard, RN: The Memoirs of Richard Nixon (New York: Grosset & Dunlap, 1978)

— Six Crises (New York: Doubleday, 1962) Parmet, Herbert, Richard Nixon and His America (Boston: Little Brown, 1990)

Reeves, Richard, President Nixon: Alone in the White House (New York: Simon & Schuster, 2001)

Small, Melvin, The Presidency of Richard Nixon (Lawrence: University Press of Kansas, 1999)

Summers, Anthony, The Arrogance of Power: The Secret World of Richard Nixon (New York: Viking, 2000)

Woodward, Bob, and Carl Bernstein, The Final Days (New York: Simon & Schuster, 1976)

جيرالد فورد

Brinkley, Douglas, Gerald R. Ford (New York: Times Books, 2007)

Cannon, James, Time and Chance: Gerald Ford's Appointment with History (New York: HarperCollins, 1994)

DeFrank, Thomas M., Write It When I'm Gone: Remarkable Off-the- Record Conversations with Gerald R. Ford (New York: G.B. Putnam's Sons, 2007)

Ford, Gerald R., A Time to Heal (New York: Harper & Row, 1979)

Greene, John Robert, The Presidency of Gerald R. Ford (Lawrence: University Press of Kansas, 1995)

Mieczkowski, Yanek, Gerald Ford, and the Challenges of the 1970s (Lexington: University of Kentucky Press, 2005)

Mollenhoff, Clark, The Man Who Pardoned Nixon (New York: St. Martin's Press, 1976)

Werth, Barry, 31 Days: The Crisis That Gave Us the Government We Have Today (New York: Doubleday, 2006)

جيمي كارتر

Bourne, Peter G., Jimmy Carter: A Comprehensive Biography from Plains to Postpresidency (New York: Scribner, 1997)

Carter, Jimmy, An Hour Before Daylight (New York: Simon & Schuster, 2001)

— Keeping Faith: Memoirs of a President (New York: Bantam, 1982)

— Palestine Peace Not Apartheid (New York: Simon & Schuster, 2007)

Carter, Rosalynn, First Lady from Plains (Boston: Houghton Mifflin, 1984)

Jones, Charles O., The Trusteeship Presidency: Jimmy Carter and the United States Congress (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1988)

Jordan, Hamilton, Crisis: The Last Year of the Carter Presidency (New York: Berkley Publishing, 1982)

Kaufman, Burton I., James Earl Carter, Jr. (Lawrence: University Press of Kansas, 1993)

Lasky, Victor, Jimmy Carter: The Man and the Myth (New York: Richard Marek, 1979)

Mazlish, Bruce, and Erwin Diamond, Jimmy Carter: A Character Portrait (New York: Simon and Schuster, 1979)

Meyer, Peter, James Earl Carter: The Man and the Myth (Kansas City: Sheed Andrews and McMeel, 1978)

Morris, Kenneth E., Jimmy Carter: American Moralist (Athens: University of Georgia Press, 1996)

Schramm, Martin, Running for President: A Journal of the Carter Campaign (New York: Pocket Books, 1978)

Strong, Robert A., Working in the World: Jimmy Carter and the Making of American Foreign Policy (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 2000)

Stroud, Kandy, How Jimmy Won: The Victory Campaign from Plains to the White House (New York: Morrow, 1977)

Thompson, Kenneth W. (ed.), The Carter Presidency: Fourteen Intimate Perspectives of Jimmy Carter (Lanham, MD: University Press of America, 1990)

Witcover, Jules, Marathon: The Pursuit of the Presidency, 1972–1976 (New York: Viking, 1977)

رونالد ريغان

Brown, Edmund G., Reagan and Reality: The Two Californias (New York: Praeger, 1970)

Cannon, Lou, President Reagan: The Role of a Lifetime (New York: PublicAffairs, 2000)

Colacello, Bob, Ronnie and Nancy: Their Path to the White House – 1911–1980 (New York: Warner Books, 2004)

Dallek, Robert, Ronald Reagan: The Politics of Symbolism (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999)

Deaver, Michael, with Mickey Herkovitz, Behind the Scenes (New York: Morrow, 1987)

Diggins, John Patrick, Ronald Reagan: Fate, Freedom, and the Making of History (New York: Norton, 2007)

Donaldson, Sam, Hold on, Mr President! (New York: Random House, 1987)

D'Souza, Dinesh, Ronald Reagan: How an Ordinary Man Became an Extraordinary Leader (New York: Free Press, 1997)

Edwards, Anne, Early Reagan (New York: William Morrow, 1987)

Gorbachev, Mikhail, Memoirs (New York: Doubleday, 1995)

Kelley, Kitty, Nancy Reagan: The Unauthorized Biography (New York: Simon & Schuster, 1991)

Kengor, Paul, The Crusader: Ronald Reagan and the Fall of Communism (New York: HarperCollins, 2006)

Morris, Edmund, Dutch: A Memoir of Ronald Reagan (New York: Random House, 1999)

Noonan, Peggy, When Character Was King: A Story of Ronald Reagan (New York: Viking, 2001)

Pemberton, William E., Exit with Honor: The Life and Presidency of Ronald Reagan (Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1997)

Reagan, Nancy, with William Novak, My Turn: The Memoirs of Nancy Reagan (New York: Random House, 1989)

Reagan, Ronald, An American Life (New York: Simon and Schuster, 1990)

— The Reagan Diaries, ed. Douglas Brinkley (New York: HarperCollins, 2007) Reeves, Richard, President Reagan (New York: Simon & Schuster, 2005)

Troy, Gill, Morning in America: How Ronald Reagan Invented the 1980s (Princeton: Princeton University Press, 2005)

Wilentz, Sean, The Age of Reagan: A History 1974–2008 (New York: Harper, 2008)

جورج بوش الأب

Baker, James, with Thomas DeFrank, The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace, 1989–1992 (New York: G. B. Putnam's Sons, 1995)

Bush, Barbara, A Memoir (New York: Scribner, 1994)

Bush, George, All the Best, George Bush: My Life in Letters and Other Writings (New York: Scribner, 2000)

Bush, George, and Brent Scowcroft, A World Transformed (New York: Knopf, 1998)

Engel, Jeffrey A., The China Diary of George H. W. Bush: The Making of a Global President (Princeton: Princeton University Press, 2008)

Green, FitzHugh, George Bush: An Intimate Portrait (New York: Hippocrene Press, 1991)

Greene, John Robert, The Presidency of George Bush (Lawrence: University Press of Kansas, 2000)

Halberstam, David, War in a Time of Peace: Bush, Clinton, and the Generals (New York: Scribner, 2001)

Koch, Doro Bush, My Father, My President: A Personal Account of the Life of George H. W. Bush (New York: Grand Central Publishing, 2006)

McGrath, Jim, Heartbeat: George Bush in His Own Words (New York: Scribner, 2001)

Mervin, David, George Bush and the Guardianship Presidency (New York: St Martin's Press, 1996)

Naftali, Timothy, George H. W. Bush (New York: Times Books, 2007)

Parmet, Herbert, George Bush: The Life of a Lone Star Yankee (New York: Scribner, 1997)

Phillips, Kevin, American Dynasty: Aristocracy, Fortune, and the Politics of Deceit in the House of Bush (New York: Viking, 2004)

Powell, Colin, with Joseph E. Persico, An American Journey (New York: Random House, 1995)

Tarpley Webster G., and Anton Chaitkin, George Bush: The Unauthorized Biography (Washington, DC: Executive Intelligence Review, 1992)

Woodward, Bob, The Commanders (New York: Simon & Schuster, 1991)

— Shadow: Five Presidents and the Legacy of Watergate (New York: Simon & Schuster, 1999)

بيل كلينتون

Blumenthal, Sidney, The Clinton Wars (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2003)

Conason, Joe, and Gene Lyons, The Hunting of the President: The Ten- Year Campaign to Destroy Bill and Hillary Clinton (New York: St Martin's Press, 2000) Clinton, Bill, My Life (New York: Knopf, 2004)

Clinton, Hillary Rodham, Living History (New York: Simon & Schuster, 2003)

Fick, Paul, The Dysfunctional President: Understanding the Compulsions of Bill Clinton (Secaucus, NJ: Carol Publishing, 1995, 1998)

Freeh, Louis B., My FBI: Bringing down the Mafia, Investigating Bill Clinton, and Fighting the War on Terror (New York: St Martin's Press, 2005)

Gartner, John D., In Search of Bill Clinton: A Psychological Biography (New York: St Martin's Press, 2008)

Gergen, David, Eyewitness to Power: The Essence of Leadership – Nixon to Clinton (New York: Simon & Schuster, 2000)

Hamilton, Nigel, Bill Clinton: American Journey –Great Expectations (New York: Random House 2003)

— Bill Clinton: Mastering the Presidency (New York: PublicAffairs, 2007)

Harris, John, The Survivor: Bill Clinton in the White House (New York: Random House, 2005)

Johnson, Haynes, The Best of Times: America in the Clinton Years (New York: Harcourt, 2001)

Johnson, Haynes, and David S. Broder: The System: The American Way of Politics at the Breaking Point (Boston: Little Brown, 1996)

Maraniss, David, The Clinton Enigma: A Four-and-a-half Minute Speech Reveals the President's Entire Life (New York: Simon & Schuster, 1998)

Morris, Dick, Behind the Oval Office (New York: Random House, 1997)

Renshon, Stanley A., High Hopes: The Clinton Presidency and the Politics of Ambition (New York: New York University Press, 1996, 1998)

Schmidt, Susan, and Michael Weisskopf, Truth at Any Cost: Ken Starr and the Unmaking of Bill Clinton (New York: HarperCollins, 2000)

Stephanopoulos, George, All Too Human (Boston: Little Brown, 1999)

Stewart, James B., Blood Sport: The President and His Adversaries (New York: Simon & Schuster, 1996)

Starr, Kenneth, The Starr Evidence, ed. Washington Post (New York: PublicAffairs, 1998)

Toobin, Jeffrey, A Vast Conspiracy: The Real Story of the Sex Scandal That Nearly Brought down a President (New York: Random House, 1999)

Woodward, Bob, The Agenda: Inside the Clinton White House (New York: Simon & Schuster, 1994)

— The Choice (Simon & Schuster, 1996)

جورج دبليو بوش

Anderson, hristopher, George and Laura: Portrait of an American Marriage (New York: William Morrow, 2002)

Bovard, James, The Bush Betrayal (New York: Palgrave Macmillan, 2004)

Bruni, Frank, Ambling into History: The Unlikely Odyssey of George W. Bush (New York: HarperCollins, 2002)

Cannon, Lou, and Carl M. Cannon, Reagan's Disciple: George W. Bush's Troubled Quest for a Presidential Legacy (New York: PublicAffairs, 2008)

Clarke, Richard A., Against All Enemies: Inside America's War on Terror (New York: Free Press, 2004)

Dean, John, Worse than Watergate: The Secret Presidency of George W. Bush (Boston: Little Brown, 2004)

Dubose, Lou, and Jake Bernstein, Vice: Dick Cheney and the Hijacking of the American Presidency (New York: Random House, 2006)

Feith, Douglas J., War and Decision: Inside the Pentagon at the Dawn of the War on Terrorism (New York: Harper, 2008)

Freiling, Thomas M., George W. Bush: On God and Country (Fairfax, VA: Allegiance Press, 2004)

Frum, David, The Right Man: The Surprise Presidency of George W. Bush (New York: Random House, 2003)

Gellman, Barton, Angler: The Cheney Vice Presidency (New York: Penguin Press, 2008)

Goldsmith, Jack, The Terror Presidency: Law and Judgment inside the Bush Administration (New York: Norton, 2007)

Hatfield, J. H., Fortunate Son: George W. Bush and the Making of an American President (New York: Soft Skull Press, 2001)

Kean, Jack, Lee H. Hamilton et al., The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks upon the United States (New York: Norton, 2004) 538 american caesars

Kelley, Kitty, The Family: The Real Story of the Bush Dynasty (New York: Doubleday, 2004)

Kessler, Ron, A Matter of Character: Inside the White House of George W. Bush (New York: Sentinel, 2004)

Mann, James, Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet (New York: Viking, 2004)

McClellan, Scott, What Happened: Inside the Bush White House and Washington's Culture of Deception (New York: PublicAffairs, 2008) Mayer, Jane, The Dark Side: The Inside Story of How the War on Terror Turned into a War on American Ideals (New York: Doubleday, 2008)

Miller, Mark Crispin, Cruel and Unusual: Bush/Cheney's New World Order (New York: Norton, 2004)

Moore, James, and Wayne Slater, Bush's Brain: How Karl Rove Made George W. Bush Presidential (Hoboken, NJ: John Wiley, 2003)

Suskind, Ron, The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House and the Education of Paul O'Neill (New York: Simon & Schuster, 2004)

Unger, Craig, American Armageddon: How the Delusions of the Neoconservatives and the Christian Right Triggered the Descent of America – and Still Imperil Our Future (New York: Scribner, 2007)

Weisberg, Jacob, The Bush Tragedy (New York: Random House, 2008)

Woodward, Bob, Bush at War (New York: Simon & Schuster, 2002)

— Plan of Attack: The Definitive Account of the Decision to Invade Iraq (New York: Simon & Schuster, 2004)

— State of Denial: Bush at War, Part III (New York: Simon & Schuster, 2006)

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السياسة

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لعصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة
- قِطاف من التجارب

وليد رضوان

- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

جوزيف أبو خليل

- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر

كريم بقرادوني

- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود

شكري نصرالله

- مذكرات قبل أوانها
- السنوات الطيبة

شادي خليل أبو عيسى

- الولايات غير المتحدة اللبنانية
- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيود تتمزق

مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة - لبنان وإسرائيل - (الجزء الثاني)

غادة عيد

- سوكلين وأخواتها
- . . .؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات

موريال ميراك - فايسباخ

- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة

جيمي كارتر

- ما وراء البيت الأبيض
- السلام ممكن في الأراضي المقدسة

◆ ◆ ◆

- **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن)** - عمر زين
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كورلي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران

- المفكرة المخفية لحرب الخليج - بيار سالينجر وإريك لوران
- الماسونية - دولة في الدولة - هنري كوستون
- النفط والحرب والمدينة - د. فيصل حميد
- رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم - د. عبد السلام المجالي
- الدولة الديموقراطية - د. منذر الشاوي
- التحدي الإسلامي في الجزائر - مايكل ويليس
- السكرتير السابع والأخير - ميشيل هيلير
- التشكيلات الناصرية في لبنان - شوكت اشتي
- عزيزي الرئيس بوش - سيندي شيهان
- أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين - إسلام كريموف
- أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية - إسلام كريموف
- العرب والإسلام في أوزبكستان - بوريبوي أحمدوف وزاهداالله مندوروف
- إسرائيل والصراع المستمر - ربيع داغر
- أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- الفهم الثوري للدين والماركسية - زاهر الخطيب
- الديبلوماسية على نهر الأردن - د. منذر حدادين
- المال إن حكم - هنري إده
- قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية - طارق علي
- اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- الطبقة الضاربة - دايفد روثكوبف
- إرث من الرماد - تيم واينر
- بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم - جيريمي سكاهيل
- حروب الأشباح - ستيف كول
- الأيادي السود - نجاح واكيم
- تعتيم - بقلم آمي وديفيد جودمان
- دارفور تاريخ حرب وإبادة - جولي فلنت وألكس دي فال
- بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم - بيل كلينتون
- رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨ - محمود عثمان
- تواطؤ ضد بابل - جون كولي
- العلاقات اللبنانية - السورية - د. غسان عيسى
- المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب - بنازير بوتو
- قضيّة سامة - يوست ر. هيلترمان
- لبنان بين ردّة وريادة - ألبير منصور
- الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة - عائشة محمد المحياس
- سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين - مايفيتش رخسانا خان
- في قلب المملكة - حياتي في السعودية - كارمن بن لادن
- هكذا.. وقع التوطين - ناديا شريم الحاج
- إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.» - تيم واينر
- لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- أميركا من الداخل - د. سمير التنير
- سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط - جمال واكيم
- ضريبة الدم - ت. كريستيان ميلر
- ابنة القدر - بنازير بوتو
- الطبقة الخارقة - دايفيد ج. روثكوبف
- بوّابة الحقيقة - عبد السلام المجالي
- الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية - علي وهب
- الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام - زهرة مجذوب
- أوباما.. والسّلام المستحيل - سمير التنّير
- الأحزاب السياسية في العراق - عبد الرزاق مطلك الفهد

- صيف من نار في لبنان - الجنرال ألان بيلليغريني
- غزّة في أزمة - إيلان بابه ونعوم تشومسكي
- صراع القوى الكبرى على سوريا - جمال واكيم
- محو العراق - مايكل أوترمان وريتشارد هيل
- مصر على شفير الهاوية - طارق عثمان
- وهم السلم الأهلي - حسين يعقوب
- حركات ثورية - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- أمبراطورية الإرهاب - اليهاندرو كاسترو اسبين
- قصور من الرمل - أندريه جيروليماتوس
- الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال - راضي شحادة
- نظرية الاحتواء - إيان شابيرو
- ويكيليكس من تونس - ناديا خياري
- العودة إلى الصّفر - ستيفن كينزر
- ديبلوماسيّة إسرائيل السريّة في لبنان - كيرستين شولتزه
- مدن تحت الحصار - ستيفن غراهام
- نوال السعداوي والثورات العربية - نوال السعداوي
- قضيّتي ضد إسرائيل - أنطوني لوينستاين
- القياصرة الأميركيُّون - نايجل هاملتون

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

نايجل هاملتون

كاتب سيَر وأكاديمي ومذيع بريطاني، حائز جوائز أدبية مرموقة، ولا سيما عن كتاباته حول التاريخ العسكري. ألف أكثر من ٢٥ كتاباً وترجمت أعماله إلى أكثر من ١٦ لغة ونالت أفلامه الوثائقية جوائز قيمة. هو رئيس الجمعية الدولية لكتاب السيَر (BIO).

القياصرة الأميركيون

نايجل هاملتون أشهر كُتّاب السيرة في العالم يضع خبرته الواسعة ومعلوماته الدقيقة والنادرة في اثني عشر فصلاً يستعرض فيها آخر اثني عشر رئيساً أميركياً: كيف اعتلوا عرش الرئاسة، وكيف واجهوا تحدّيات الإمبراطورية لدى تبوّئهم المنصب. وكيف كان تعاطيهم مع مصالح أميركا وتأمين سلامها وأمنها ولو على دمار العالم؛ وبأي استراتيجية تجنّبوا تبعات الحرب الباردة مع السوفيات وما بعدها.

يدخل إلى حياتهم الخاصة كاشفاً نقاط ضعفهم ونقاط قوّتهم، علاقاتهم بمحيطهم الضيّق وامتداداً إلى زعماء العالم الأقوياء في الشرق والغرب.

يُعرّج على نجاحاتهم العظيمة وأخطائهم القاتلة في السياسات الداخلية والخارجية. وكيف يتعاملون مع الأزمات الكبيرة، وبأي أعصاب باردة خاضوا الحروب.. ويُقارن بين رئيس وآخر: مَنْ برهن على عظمة ومَنْ أخفق. يشير إلى التحالفات التي عُقدت في العلن وفي الخفاء.

يضعهم رئيساً رئيساً على المحك، بدءاً بروزفلت، ترومان، أيزنهاور، كينيدي، جونسون، نيكسون، فورد، كارتر، ريغان، بوش الأب، كلينتون، وانتهاءً بالإمبراطور الأ... الابن ونائبه ديك تشيني اللذين دمّرا بملء إرادتهما الكثير من الأسس الأخ...

Bibliotheca Alexandrina
1152558

ISBN 978-9953-88-768-5
9789953887685

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥-١١٠ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٠٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٩٦١١٧٥٢٥٤٧+
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر